

ڪارلوشٽاپنز

۷۰۰۰ يوم في سيرا

تاريخ
پروفيسر وكتور فيصل محمد علي لکيو



منشورات معهد سكيّنة

٧٠٠٠ يوم في سيبيريا

كارل شتاينر

تعريب

بروفيسور دكتور فيصل محمد مكي امين

■ يعدّ هذا الكتاب لصالح أطفال معهد سكيّنة المتعلمين مثلياً وبنوياً.

حقوق الطبع للغة العربية محفوظة للمغرب



الاهداء

هذا الكتاب اهديه الى زوجتى سونيا التى انتظرتنى بوفاء
المؤلف
اشتايئر

تعريف مختصر بالمؤلف

- كارل شتاينر

- * شيعوى
- * يوغسلافى الجنسية - نمساوى الاصل
- * من مواليد فينا عام ١٩٠٢
- * دخل الاتحاد السوفيتى هاربا من فرنسا عام ١٩٣٢ - هاربا بشيعيته
- * عين مديرا لمؤسسة الطباعة للشيعوية العالمية
- * فى خريف عام ١٩٣٦م - فى زمن النظافة والاعتقالات، بالتهم الملفقة.
- * وفى عهد ستالين، قضى عشرين عاما اى ٧٠٠٠ سبعة الف يوم بلا جرم ولا ذنب اقترفه - فى معتقلات سيبيريا المفزعة الرهيبة.
- * هذا الكتاب هو صورة حية وامينة - للجرائم الستالينية -
- (هربت من الخيال ونقلت الحقائق المجردة بوضوح وتتابع منطقى فى داخل الاطار الذى حدثت فيه).
- * شتاينر حقق بكتابه هذا عملا ادبيا قويا حاز به على جائزة (ايفان قورن كوفاجج) والتي تمنح لاحسن كتاب فى يوغسلافيا سنويا.. وذلك فى عام ١٩٧٢م.
- * وكتاب ٧٠٠٠ فى سيبيريا قراه حتى اليوم مئات الالوف من الناس.. ولكنه مازال موضوعا فى أعلى قائمة احسن الكتب واحبها، فى يوغسلافيا وخارجها. وقد ترجم الى اللغات الالمانية والفرنسية والانجليزية وها نحن بدورنا نقوم بمحاولة المتواضعة هذه، فى ترجمته الى العربية. حتى يتسنى لكل الناطقين بها الالمام التام بما جاء فى هذه الملحة الواقعية - من أهوال، حدثت على مدى سبعة الف يوم، فى سيبيريا، فى معسكر شيعوى، فى ارض كان يعتقد انها جنة الشيعوية. بلد احلامه ومهبط آماله.
- * وكم كانت خيبة أمله! بدلا عن الرقاهية وجد البؤس والشقاء والمعاناة.

تمهيد

في مدينة (زغرب) الحاملة على ضفاف نهر السافا، عشت عشرين عاما من عمر الزمن، كما ولا يمكن الا ان يكون العيش وتكون الحياة.. سعيت بين أروقة جامعاتها طالبا لايقف امام طموحه شيء حتى وصلت الى كرسى الاستاذية في شعبة امراض النساء والولادة بجامعة زغرب، حيث شرفني رئيس جمهورية يوغسلافيا الفدرالية الاشتراكية المعلم جوزيف بروز تيتو، بمنحى وسام العلم اليوغسلافي والنجمة الذهبية بالقلادة.

وانثناء تلك الفترة، كنت أرسل الصحف السودانية.. مخابرا ومعلقا وعاكسا لمختلف اوجه النشاط الثقافي والحضاري للعالم التي اعيش فيها... وكنت اخص جريدة الراي العام الاسبوعية برسائل تلك.. وقد تمكنت عبر هذه الإطالة الاعلامية، من تكوين وعقد علاقات وصلات وصداقات حميمة، مع بعض الكتاب والادباء والمشتغلين بدنيا السياسية. قابلت الرئيس اليوغسلافي المعلم جوزيف بروز تيتو، تسع مرات.. افادني وأمدني بالكثير.. فالرجل كان أحد أعمدة العصر التي تتصف بالعمق.. والصدق.. والكياسة.. وبعد النظر.. والحكمة.

في عام ١٩٨٠م تعرفت الى كارلو شتايرس.. كنت قد قرأت كتابه ٧٠٠٠ يوما في سبيريا.. ودارت بيننا مناقشات طويلة، واتصل بيننا حوار مفيد، تباينت واختلفت فيه وجهات النظر، حول مسائل الادب والسياسة والفكر، وبقدر ذلك التباين وبعظم بعض التوافق، كانت الثمرة، رؤى وآفاقا جديدا تفتحت في الوجدان، وتواصلت داخل النفس.

وجعلت أفكر في الذي حدث لشتايرس ولثلاث الاف من البشر في كل اصقاع الدنيا، باسم الاشتراكية.. ولثلاث أخرى من الآلاف ايضا في العالم باسم الحرية والديمقراطية والدين.. فكرت في اوضاع أمتنا العربية.. وتساءلت عن المصائر المجهولة للملايين من ابنائها... ولم يكن تفكيري يتجاوز نطاق اندياح تردداته الكهربائية، فالتفكير بصوت عال، وان كان مستقيما ومسودا بالمنطق والمعرفة لا يجيز صاحبه خيرا كثيرا، ان لم يجر عليه الولايات..

ولا احدد.. لان ذلك هو حال وطننا العربي من المحيط الى الخليج وهذا أقل ما يقال.. وحاولت قراءة اخبار الوطن العربي.. فهاأني ما قرأت..

ولم اجد مايبعث على الراحة والطمأنينة.. واستشعرت قلقا لا مزيد عليه... فما هو مصير هذه الامة التي كتب على أهلها لا يتفقوا ابدا؟ وازعجتني أنباء الديون والفقر التي يبرز تحت أثقالها، جزء كبير من الوطن العربي، بينما يعيش حكامه كما يعيش الوارثون السفهاء.. يغدقون الاموال والرشاوى على المتسلقين والمنافقين والكذابين.. بينما البقية من اهل البسطاء ترزح تحت جبال الهم، من شقاء وفاقة وحرمان.. وايضا تتناقض فيه الامور وتقلب الايات.. فيغتني بليل من لم يكسر حجرا او يشق جدولا.. في حياته.

ويأكل خيره ساعة الحصاد جراد المغامرين والاجانب واصحاب الصكوك والمرايين. وطن عربي عجيب.. مولع باستخدام المستشارين واستخدام الخبراء الاجانب كأنما عقلت ارحام نسائه عن ان تلد الرجال!! وجيلنا...!

جيل النكسة.. وجيل العبور..

يقولون .. انه عظيم وجليل.. وفيه الصامدون والصابرون والافاذذ.. وفيه الذين باعوا

أنفسهم وضاعوا حسب السبيل في مساهمات اللهاث وراء العاجلة، وفيه الذين ثبتوا.. وحفظوا المبادئ والقيم والمناقب، ولم تدر رؤوسهم سرايات الزيف المضلة.

وهؤلاء فيهم الخير، كل الخير..

وفيهم الامل، كل الامل..

وهم مناصب الرجاء.. كل الرجاء.

كنت افكر في وطني وامتي وأنا بعيد عنهما.. كنا هما شغلي وهمي ومثالي وتطلعي ومقياس مقارناتي وتصوراتي وقياساتي، كنت احس بغربتي لانني بعيد عنهما.. ثم احسست أنني اكثر غربة وأنا التقى بهما واعانقهما.. أمتي ووطني.

(زى غير القوافل حاملة فوق امكانها..

شبايلات السقا ومن العطش هلكانه..)

وطاقت بذهني المكود المجهد كلمات الزجال المصري كمال حداد

(بلادى حفرة مساخ..

جبال آسيا ماتردمها..)

إذا كان على أن أقول الحقيقة.. فاني أسأل..

— أى بلد ليست به رقابة رسمية على الفكر والتفكير...؟

— أنه حال معظم بلاد الدنيا..

— (وأفكك..

— ولكن.. صحة العالم ليست على مايرام.

علما مريض.

عالم في الجزء المتلاشي من القرن العشرين لا يليق بأبناء القرن العشرين بفكرهم...

بمثلهم... بترائهم... وبتاريخ نضالهم من أجل الحرية.

وهذا الكتاب الوثيقة.

لا يهم من هو كاتبه.. ولا يهم في أى جزء من العالم جرت حوادثه.. وإنما المهم أن

الذى فيه مؤهل لأن يحدث في كل زمان ومكان.. وتحت أى ظرف.. وببذ جميع السلطات..

ولا استثنى.. معاناة انسانية صادقة.. نزيف بشري تجاوز حدود المعقول فاستوطن في

أفاق الواقع، وصمة تدين العسف والظلم والإرهاب.. وثيقة نقدمها، لا نرمى بها تشويه

أحدا ما.. ولا نستعدى بها معاتبة من يرون ستر المخازى أولى بأهل الوجعة.. ولا نسهم

بها في تعميق شروخ وخلافات ومصادمات، وتاريخ وتاجيح نيران حروب باردة أو ساخنة..

شيء جرى.. وأحداث حدثت.. وأناس عاشوا على زبد المعاناة فوق محيط الاسى..

واقيانوس الحزن والدمع..

والصورة صادقة.. وحقيقية وخطيرة..

قال برجنييف لتيتو عندما التقى به في بلغراد وهو يرفع بيده هذا الكتاب.. ملوحا به..

— هل هذا هو حسن العلاقات التي تريدونها معنا..؟ واجابه تيتو بهدوء وعمق..

— لو كانت فيه كلمة واحدة ترونها غير حقيقية، ساوقف توزيعه فورا..

بروفيسور دكتور فيصل محمد مكى أمين

زغرب ١٩٨٤م يوغسلافيا

مقدمة

كارلو شتاينر مهندس الطباعة النمساوي الاصل، اليوغسلافي الجنسية، الروسي المعاناة، انسح املمه مجالا واسعا وحيويا لمشروعه الروائي الانساني.. حيث انه لم ينقل بصدق روايته للاحداث الواقع فقط، وانما استطاع بعمق اندفاعه نحو جوهر التعبير الخالص ان ينقل دلالات الاشياء ذاتها..
وتلك عملية كبيرة لا يقدر عليها الا فنان كبير..

وكارلو شتاينر الذي لم يجرب الكتابة من قبل رغم انه يعمل في مجالات الطباعة، كان عليه ان يخترق قشرة الوقائع ليصل الى نبض الشاعرية المصبوغة بالدم والوجع والياس وهو يروي لنا تفاصيل السبعة الف يوم ذات التناوب الفجيعي التي عاشها في صقيع سجون سيبيريا، وان يفعل ذلك جالسا على ربيع الكلمات دون ان يتزعزع من مكانه في المركبة البيانية التعبيرية، لتأتي قصته ملحمة قوية النسيج الى درجة الموت كلاما — ان صح التعبير —.

اقول ذلك مستندا الى هذا الحس الصياغي العربي الذي فجره صديقي الكبير بروفيسور فيصل في نسيج النص المترجم عن اليوغسلافية مباشرة، فاعطانا اليقين الادراكي بان روح الفعل يمكن ان تنتقل عبر وسائل الابانة والعرض من لغة الى لغة، لان قوة الوشائج والروابط الانسانية هي اصل ثابت في العمل الابداعي طالما انه كان في اسسه صلبا وعمقا ودالا ومؤثرا..

ان الجراح يمكن ان تتحول الى كلمات وحروف، وان الحروف والكلمات يمكن ان تصبح جراحا طالما ان الدم هو الدم وليس الماء..

وكارلو شتاينر مناضل بطريقته، وقد دفع ثمن اختياره بشجاعة إعجازية.. وبروفيسور فيصل هو الآخر مناضل بطريقته، وقد امهر ترجمته لهذا الكتاب الهائل غالبا، من نبضه وحسه الادبي الرفيع وقدرته على الغوص في اعصاب الاحداث الرهيبة التي رواها شتاينر، وكان موفقا الى حد الاثارة..

واعترف انني اصبحت بحالة غريبة من الحزن والاكتئاب وانا اقرا هذه الصفحات الغريبة التي تشبه وقائعها كابوسا مجنوننا من كوابيس العلم الآخر!!
ان الرواية التي يحكيها كارلو شتاينر في هذا الكتاب هي تفاصيل تقشعر منها الابدان بدون شك.. ولكنها تدفعنا بشجاعته الى ان نقف نحن ايضا امام كل اشكال وضروب العسف السلطوي، لنقاتل ونعتبر..

انا ان احكي لكم في هذه السطور شيئا مما جاء في الكتاب، لانني ببساطة شديدة لا استطيع.. فالكتاب غير قابل للتلخيص اضافة الى ان التلخيص نفسه غير جائز او وارد في حق اعمال ادبية تحمل في كل جملة وكل سطر وكل صفحة دقائق واسرار لحظات لا يمكن الامساك بها مجزاة على الاطلاق..

ولكنني سأحدثكم عن احساسي الخاص والذي ربما كان هو احساس اي واحد منكم..
الاحساس بجميعة انهيار المثال، وتحطم الامل الكبير، والغان الخالد الاخير، وسقوط
الرمز الجميل والعقيدة المشتبهة في اسن الواقع الكريه ومستنقع المواجهة الذي سفر
عن وجه قبيح..

لما اشد الفجيعة.. وما اكبر المأساة..

الانسان الشعاري الحالم الرقيق الممتليء النفس والروح والعقل بمثاليات التنظير
وبالبشارة والقال والانتظار ويرى مستقبل قادم لا نظير ولا شبيه له قط.. هذا لانسان
الشعب المثالي يسقط فجأة وبدون مقدمات او توقعات في حفرة صدمة جحيمية، تتولاه
بالصفع والركل والامتهان حتى آخر نبض في عرق احتماله..

هذا الانسان ماذا يكون..؟

انه الشاهد.. الشاهد الاول والاخير..

وحين يقول شاهد كهذا كلمته، فانها تاتي صاعقة وحارقة ومخيفة، لانها صادقة..

والصدق في هذا الزمان قدر لا يقوى على احتماله الا الانبياء فقط..

ولكن الرجل ليس نبيا ولا ينبغي له ان يكون.. ولذلك حق عليه ان يسأل الناس: هل
وعيتم..؟ هل ادركتم..؟ هل كشفت الحقائق امامكم..؟ هل عرفتم انكم السبب الاساسي
والرئيسي في كل ما يصيبكم من قبل الذين وضعتموهم على نصب الالهة الوثنية،
واخذتم تعبدوهم، نسين انهم بشر مثلكم..؟

من الذي يصنع الدكتاتور؟

انه الشعب الضعيف الخائر الخائف المهتز الفاقد الايمان.. هذا حق.. والا فكيف تسلط
وتجبر بكثرة واباطرة وجلادو الشعوب.. وهم معروفون ومرصودون وجالسون على
صفحات مدونة التاريخ..؟

الاسماء الرهيبة..

هولاكو، كاليغولا، نايرون، فرانكو، ستالين، شلوشكو، بيبى دوك، سالازار، هتلر،
ماركوس، و.. و.. وغيرهم وغيرهم.. هؤلاء القساة المتجبرون المسلطون من الذي مكن
لهم واتاح الفرص امام نفسياتهم المريضة لتتنفس حقدا ولؤما وقسوة وحقارة..؟

انها تلك الشعوب ينسها مع الاسف الشديد.. فهي لا تسال ولا تحاسب ولا تحكم
ولا تحتج حتى فقد كانت دائما مطاطنة الرؤوس تتلقى الركل والصفع، وتداس كرامتها
ومقدساتها..

والحكم عندما ينفرد بالسلطة المطلقة يتعلم اللصوصية والاستبداد ويصبح دكتاتورا
يسوم الناس العذاب المصفي ويستقيهم من ذوبه كنوسا مترعة حتى حافاتهما..

غير ان التاريخ يخبرنا دائما بان الشعوب نفسها، الشعوب ذات الخلايا المنهكة
ومفاصل الابدان المتآكلة، تتحدى في لحظات معينة واعها العالج وتندفع نحو جلاذيتها
تطلب بديلات عذابها واضطهادها وامتهان كرامتها.. وعندها فقط تفرح الانسانية

بانتصار بنيتها لكل القيم النبيلة التي كانت مغيبة وثالثة تحت الرماد... وكلولو شتاينر بتسجيله لوقائع الايام السبعة الف، لا يلغي ذاكرة امته..
وذلك فعل نبيل في حد ذاته..

فمن الذي كان يظن ان ممارسات الـ (كي جي بي) المؤتمرة بنزوات الدكتاتور السفاح ستالين، يمكن ان تصل الى هذا الحد من البربرية واللاإنسانية والقسوة.. بينما كانت جميع شعوب العالم المضطهدة والمستعمرة تتطلع بأمل كبير الى الجبهة السوفيتية التي كانوا يعتقدون ان المناضل الرفيق ستالين يبنيها، على انقراض حكم قيصري استبدادي هو الآخر..؟

لقد فضح كتاب شتاينر قذارة اللعبة.. وبين كيف تحالف الاشتراكي الشيوعي التقدمي مع مجرم البشرية وجلاهما الاكبر هتلر النازي...!
انها مأساة..

ومأساة كبرى لا مثيل لها في خيال شباب غال يحلم ويحلم ويحلم بالغد الوردي المشرق، حتى سقطت الاقنعة وتبين ما تبين من فضائح ومن زيف تكشف، ومن اكاذيب وقفت عارية امام الانسان والتاريخ والوعي العائد..

وفي عالمنا اليوم صحوة اسلامية لا مثيل لها، وعودة الى جذور الاصل الروحية والمخالفية التي لا تكفي بوصف العالم او تاويله، وانما تنهض الى تنويره وبعثه واعادته الى وعيه الغائب، والى تراجمه وتلاحمه رافضا كل اشكال القمع والتسلط المادي، رافضا ان يلبس القمع المسوم برهن ارادته وحرية وكرامته الانسانية..
ولا مجال لمحاولة الحديث في المفاضلة بين الاسلام وبين النظريات العقلانية التي وضعها الانسان..
فذلك مستحيل..

ولكنني اقول ان ترجمة هذا الكتاب الى العربية «لاول مرة» على يد الصديق بروفيسور فيصل، هي خطوة هامة وحيوية ومطلوبة بشدة.. فالصحوة الاسلامية ينبغي ان تطال بالحسنى جميع الرؤوس المخدوعة التي ادارتها يوما ما شعاعات: الاشتراكية والماركسية، وجنة الشفيلة، والعدالة الاجتماعية، والانسان ائمن راسمال ومجتمع الكفالية والعدل والمساواة والاخاء، ولكل قدر حاجته ومن كل حسب طاقته.. الخ.. الخ.. الخ..

تلك الشعارات التي افلحت في زرع بذرة التملل والتمرد داخل الكيانات القمائية على اوضاعها بسبب الاستعمار واذنابه وممارساتهم القبيحة، وبسبب محاولة صنفين اثنين على انتقام مزامير راس المال.. وبسبب غياب سلطة الاسرة الروحية وانتشار المخدرات والخمور واللااخلاقيات، وتحجيم الثقافة الاسلامية ومحاربتها، الخ..
ياتي هذا الكتاب في وقته بالضبط اذن..

بدون شك.. فلا عالمنا الاسلامي وقد شملته الصحوة يرضى بان يتسلط عليه الجلادون او تسود فيه أفكار الاتحاد التي تنعت الدين بانه افيون الشعوب..
وقريبا تسقط جميع الافئدة وتتناثر العروش، وتهتز المعتقدات الهشة، وتنطلق الجماهير المؤمنة بربها لتصنع مجتمع الاسلام الفاضل المثالي.. ويعود القطب الثاني الغائب من المعادلة الانسانية.. الروح..
لان الملة وحدها هي جزء من قانون جدي وجودي لا يتعامل فيه الانسان، وانما تميل له ردود افعاله الغريزية والتداعيات غير المحكومة بوثاق القيم والاخلاق..
ان العدل هو الحق..

وان الظروف الموضوعية التي تسود العالم الآن تدعونا الى مزيد من التقارب والتلاحم والتراحم والتمسك بالعروة الوثقى وباصول ومبادئ وتعاليم وشرائع واشراط ديننا الحنيف، ولن يحدث ذلك الا اذا اسقطنا عن اكتافنا اثقال تجارب انسانية معومة خدعت البسطاء لزمّن ليس بالقصير..

ويهمني ان اشيد هنا بمجهودات صديقي بروفيسور فيصل الذي سهر الليالي وهو ينقل هذا الكتاب النفيس الى العربية لأول مرة بعد ان اشترى حق نشره من مؤلفه اليوغسلافي الجنسية، النمساوي الاصل، بحر ماله.. فاضاف الى مآثره العديدة غير القابلة للتحديد والاحصاء.. بروفيسور فيصل — ماثرة جديدة ومحمدة اخرى وانجازا غير قابل للنكران او الصمت..

والكتاب ترجم الى جميع لغات العالم الحية..

وها هو يدخل الى حرم العربية محملا على اجنحة بيان رفيع هو ميزة لصيقة من ميزات الصديق بروفيسور فيصل صاحب الميزات والاشراقات..
واشهد انني بقراءة هذا السفر الخالد قد ازددت معرفة بما لم اكن اعرف، وقد امتلأت بشتى المشاعر والاحساسات، واصبحت اكثر قدرة على الاعلان عن رايي ومعتقدي..
فشجاعة الكاتب والمترجم معنية ومتجاوزة وخطيرة..
ونسال الله التوفيق..

محمدي سند

ام درمان - الثورة ٢١ يناير ١٩٩١م

المقدمة

من داخل (زنانات) البوليس السياسى السوفيتى ن. ك. ق. د فى الصحراء الجليدية فى أقصى الشمال. فى بقعة تناثرت فيها احزاني وآلامى.. التى تفوق طاقات البشر. كنت احمل فى نفسى أمنية واحدة، ان اعيش تلك الايام لاحكى للعالم اجمع، ولزملاء الحزب اولا والاصدقاء، كيف عانينا وقاسينا الامرين.

وفى تلك اللحظة، التى افلت فيها من قبضة زبانية البوليس السياسى ن. ك. ق. د، وقفت اعد العدة لتحقيق تلك الامنية.

كنت اعلم ان مهمتى ستكون عسيرة جدا.. واكثر شىء كنت أخافه ان يكون كتابى هذا، مثل غيره من الكتب التى تدخل فى قائمة الادب المعادى للسوفيت. وان كل الذى عانيت به وقاسيته سيبدو للآخرين غير معقول.. بل ومقصود ايضا.

خفت ان يشهر الحاقدون كتابى هذا سلاحا ضد الاشتراكية.. لذلك فانى اقرر ان كل الذى حدث فى الاتحاد السوفيتى، ليس نتيجة للاشتراكية. ولكنه خيانة للفكر الاشتراكي، وثورة الردة المضادة للاشتراكية وهذا تثبته تصفية زملاء الحزب القدامى بين عام ١٩٣٦م وعام ١٩٣٩م.. وكذلك يثبته تحالف ستالين مع هتلر ١٩٣٦م. وهذا الحلف كان موجها بالفعل ضد الاشتراكية والحرية. والذى يؤكد ذلك، تسليم الشيوعيين الالمان للجستابو.. وحبس وقتل الشيوعية المهاجرين الى الاتحاد السوفيتى.

وقد قدم ستالين بعد الحرب دليلا جديدا بتخريب الاشتراكية عندما هاجم يوغسلافيا تحت شعار (الكومنفورم) وهدد حريتها وخاصة الاتجاه الاشتراكي لبنائها. هذا الذى قلته فى كتابى، لايجب ان يؤخذ كخلاصة كاملة لكل الذى عشته، ولكنه جزء بسيط من الذى حدث. واذا اردت حقيقة ان احكى كل الذى حدث، لعشرات الالوف من الناس.. فى تلك السنوات العشرين.. فى غياهب السجون والمعتقلات.. فى الاتحاد السوفيتى.. فانى احتاج لذاكرة تفوق حدود العقل البشرى.

اسماء الاشخاص فى الكتاب ليست مخترعة.. واذا غيرت اسم شخص ما فانى افعل ذلك لاجنبه ضراوة القمع البوليسى.

ويندر ان اخوض فى التحليل والتعليق على ملحدث. فقد اردت فى المقام الاول وصف الحقيقة المجردة.

المؤلف

أشتاينر

الجزء الاول

**الحبس . والتحقيق
ومحكمة الحرب**

موسكو عام ١٩٣٦م

موسكو ليلة ٤ نوفمبر ١٩٣٦
المكان - موسكو - شارع (نوفوسلوبودسكا) ٦٦ - ٦٩
المبنى رقم ٤٤

كنت أعط في نوم عميق عندما أيقظني فجأة رنين حاد.. تبينت انه جرس الباب. وأحسست بيد زوجتي على كتفي، وهي تناديني بصوت مبوح: كارلو فاعتدلت في فراشي. شخص ما يضغط على الجرس بنون. وسالت نفسي ترى من الطارق في هذه اللحظة من الليل؟.. نظرت الى ساعتى فوجدتها تشير الى الثانية وخمسة وأربعين دقيقة. عاود الجرس الرنين. ولكن هذه المرة بأصرار عنيد. وفجأة أحسست بخوف من المجهول.. فنهضت ببطء. ومازال الرنين الحاد مستمرا. وهمست في تردد: من الطارق؟ فسمعت: الزميل اشتاينر أفتح أنا حارس المبنى!.. فتحت كوة الباب فطالعني وجه حارس المبنى الذى بادرنى قائلا:.. فى مطبخكم على ما اعتقد فيضانا.. فقد سال الماء منه حتى الطابق الارضى.. يجب ان أفحصه. قالها بسرعة وتلعثم. ولكننى أجبت بهدوء شديد:.. فى منزلنا كل شىء على مايرام. فقال بأصرار: رغم ذلك يجب ان تفتح الباب حتى اتأكد بنفسى. وفى نفس اللحظة التى فتحت فيها الباب وقعت عينائى على ضابط وجنديين. وما أن شاهدونى حتى اقتحم الضابط ومعه جندى وحارس المبنى المنزل.. وبقي الجندى الآخر واقفا فى الممر. وبحركة من يده أراح الضابط معطفه فوقعت عينائى على رقبته. وكان بدرجة ملازم اول بوليس سياسى ن. ك. ف. د. وكان سؤاله الاول: هل تملك سلاحا؟ أجبت: لا املك... وفوجيء بهدوئى. وكنت متماسكا، ولم اعد اشعر بالخوف من المجهول... فالخطر هنا مائل وقد صار حقيقة. فتمشى الضابط بحركة روتينية. كان أشقر الشعر طويل القامة فى الثلاثين من عمره. تعابير وجهه القروية لا توحى لك باى احساس. مد لى قصاصة من ورق كانت بيده.. وبدأ يراقبنى بحدة كما يراقب الصياد فريسته التى اصطادها، ولكن بفضول أقل.. وفكرت، انه اعتاد على مثل هذه الحالات.

سألته... ماهذا؟..

فأجاب بخشونة طبيعية أمر قبض.

أرجعت له الورقة.. فأمرنى بالجلوس على الأرض وهو يتجه الى الغرفة الأخرى. وسألنى: من هذه؟ مشيرا بيده نحو زوجتى التى كانت ترقد على الفراش - أجبت: زوجتى. فأمرها الضابط: قفى... ولكنى سارعت قائلا: زوجتى فى شهور حملها الأخيرة. من فضلك كن رحيما معها. وأسمح لها بالبقاء فى الفراش لانه غير مسموح لها طبيا بالانفعال.

وكرر الضابط: قفى.. ووقفت زوجتى. فحاولت مساعدتها على النهوض فصرخ الضابط فى وجهى: - اجلس مكانك ولا تتحرك. ولكنى تظاهرت بعدم سماعه.. واتجهت مسرعا نحو سريرها، وساعدتها على ارتداء ثيابها. وفى نفس اللحظة التى قامت فيها، أتجه الضابط نحو السرير وبدأ بتفتيش محتوياته: المخدات، اللحاف، الملاءات الاغطية. كان يفعل ذلك

هو يرمى بها على الأرض. وأمرني وزوجتي بالا نتحرك. فتش كل أرجاء الغرفة.. وعندما كان الضابط منهمكا في التفتيش، كان الجندي الواقف يراقبنا بانتباه شديد. وقد حاولت أن أهدي من روع زوجتي التي أبعدها عني، ولكن الضابط أمرني بالصمت. واستمر التفتيش مدى الساعتين. فتش كل شيء بدقة شديدة. ووضع جميع الكتب التي كتبت باللغات الأجنبية جانبا. وعندما انتهى من التفتيش أمرني بارتداء ثيابي. فبكت زوجتي بحزن وجعلت أحاول تهدئتها. وسالته ما الذي تريد حمله معك؟ قلت لا شيء ما الذي أحمله؟ وطمأنتها قائلا: لابد أن يكون هناك القباس في الأمر. وسوف أعود اليك حالا. صاح الضابط:- الى الأمام. وتوجه نحو الباب. فتبعته وتبعني الجندي من الخلف. ولم أتمكن من وداع زوجتي.. وأن كان صوت بكائها قد بقي في أذني طويلا بعد ذلك. وفي الممر الخارجي انضم إلينا الجندي الثاني. ووجدنا في الباب الخارجي للمبنى سيارة تنتظرنا، دفعوا بي الى داخلها.. وعلى يميني وشمالى جلس الجنديان. أما الضابط فقد أرتمى بجوار السائق وهو يأمره بالتحرك. وأخذت العربة تنهب بنا شوارع موسكو النائمة. فحاولت أن أفهم مايدور حولى.. ولكن صوت بكاء زوجتي مازال يرن في سمعي.. فخبيل الى انى اودع الحياة.

ليبيانكا . القيادة العامة لل . ن . ك . ف . د

بعد مسيرة عشر دقائق وقفت العربية امام مبنى ال . ن . ك . ف . د في ليبيانكا .. وفتحت امامنا بوابة كبيرة .. فدخلت العربية فناء المبنى .. وقفز أحد الجنود من العربية .. وامرني بالنزول .. ونظرت حولى ، فوجدت نفسى في فناء ضيق ، محاطا بمبنى من خمس طوابق له نوافذ ذات قضبان قوية .. فدفعوا بى خلال باب مفتوح الى قاعة واسعة تبلغ مساحتها حوالى الخمسين مترا مربعا .. وعلى طول الحائط نصبت كنبات خشبية جلس عليها قرابة الثلاثين شخصا .. من الرجال والنساء وامامهم رقدت أمتعته المحزومة .. بعضهم كان ينظر الى اللاشيء .. واسبل الآخرون عيونهم يبحثون عن نوم مستحيل .. أما القاعة فكانت رافلة في صمت عميق .. لم يكن يتخلله سوى نحيب بعض الفتيات الصغيرات .. وعلودنى التفكير في زوجتى .. ولم يكن يقطع على حبل تفكيرى سوى حركة الباب الذى كان يفتح كل عشر دقائق او نحوها ومناداة الجندى باسم يقوم على اثره واحد من الجالسين .. وبعد ساعتين بالضبط جاء دورى .. واقتادونى الى صالة مجاورة .. فيها رفوف تزاحمت عليها بعض الامتعة والحقائب والسلال والطرود .. وخلف المنضدة وقف عدد من رجال البوليس السياسى ببزاتهم الرسمية وبضعة نساء ببلوزات بيضاء .. واتجهت نحو المنضدة .. واخرج ضابط قطعة من الورق وسألنى :-

— ما اسمك؟

* اجبته . فكتب .

— هل لديك نقود؟

هل لديك أشياء قيمة؟

* فأخرجت حافظة نقودى وساعتى وعددت نقودى ، ومددت له أشيائى .
فاستخرج لى إيصالين .

وامرت بخلع ملابسى فخلعتها ووقفت عاريا .. وعند اكتمال التفتيش أعادوا الى ملابسى .. وقادنى الجندى خلال ممرات وسلالم ضيقة وابواب عديدة .. وفجأة وجدتنى امام حارس يحمل حزمة من المفاتيح .. فتح بابا ودفع بى الى داخل حجرة معتمة تنبعث منها رائحة كريهة ، وتبلغ مساحتها حوالى خمسة عشر مترا مربعا تقريبا .. اكتشفت أن على أرضها يقبع حوالى الثلاثين شخصا .. رقد بعضهم ملقفا بمعطف .. والبعض الآخر حاول إخفاء وجهه بالمعطف .. وعندما أحسوا بى ارتفع عدد من الوجوه المتعبة .. من بينها وجه رجل ذو لحية شقراء طويلة أخلى لى مكانا بجانبه .. ودعانى لارقد .. وكان على أن اتجه نحوه بحذر حتى لا أطا أحداً من الآخرين .. وبصعوبة استطعت الوصول الى مرقدى .

قال لى ذو اللحية الشقراء .. أنت من الوافدين؟ هذا واضح من هيكلك .. (لأن بليدياتنا جريئين) ولم أجب .. فلاحظ اضطرابى ثم أضاف قائلا :- خذ لك قسطا من الراحة . فسوف نتحدث كثيرا فى الصباح وصمت قليلا وسألنى قائلا :- كم الساعة؟ وهزئت كتفى . فصمت واغمض عينيه .

واعتادت عيناى الظلام .. فنظرت حولى متفقدا لأجد البعض قد نام ، وإن البعض

الأخر مازال يحاول النوم، وهو يراقبني بطرف عينيه.
رقدت على الأرض العارية بنياىى ومعطى. وأرتعش جسدى وسرت فيه بعض
البرودة حدث ذلك بالرغم من أن جو الغرفة كان ساخنا يؤدى للاختناق.

حاولت أن افكر.. ما الذى يجرى حولى؟

ماذا يريدون منى؟

الى متى ساقظل هنا؟

ما الذى سيحدث لزوجتى وهى فى ذلك الوضع الصعب الذى تركتها فيه؟

هل بلغ عنى شخص ما؟

ودارت برأسى موجة من الأفكار كأنها الدوامة الرهيبة.. لا بداية إطلاقا.. ولا نقطة يرتكز
عليها الفكر فأغمضت عيني بعد أن أخذ منى الجهد كل ماخذ، أحاول أن اغفو قليلا.. ولكن
بلا جدوى.. ثم أخذت تلك الاسئلة تطوف برأسى من جديد.. ولكن بلا جواب.. وكانت
الساعات القليلة التى انتظرتها حتى بزوغ الفجر طويلة أبدية.. بدت وأنه لا نهاية لها قط.
وفتح باب الغرفة فجأة وصاح الحارس: الى المرحاض، وخرجنا الى الممر ولم يتخلف
أحد. ثم دلفنا الى غرفة قسمت الى أجزاء ذات فواصل صغيرة. وكان لابد مما ليس منه بد.
فجلس بعضهم.. وأخذ البعض الآخر فى الاغتسال من اوانى الصفيح التى وضع
فيها الماء. وكان الماء باردا وقد انعشنى الاغتسال فشعرت بالراحة. وبعد دقائق معدودات
أرجعونا الى.. غرفتنا.

والتف حولى المعتقلون وبدأ استجوابهم لى..

فأخذت أجيبهم بلا رغبة.. وبانصاف الجمل.

وعندما راوا عدم رغبتي فى الكلام بدأ البعض فى مؤاساتى: لست وحدك، السجن ممتلىء،
ونحن مثلك لا نعلم لماذا نحن هنا اصبر وسوف ياتى دورك. وفتح الباب مرة أخرى ودخل
حارس يحمل على طولة اربع وثلاثين قطعة من الخبز.. الاسود وكانت كل قطعة تزن حوالى
نصف الكيلو جرام.. وكان يحمل ايضا ابريقا من الماء الساخن. فأخرج المعتقلون اوانيهم
الصفيحية وكؤسهم وأخذوا يصبون الماء الساخن. وكنت لا املك شيئا منها. ولم تكن لى
شهية للاكل او الشرب ورايت كل فرد منهم يقسم خبزه الى جزئين او ثلاثة أجزاء.. قطعوها
بالخيوط فلم تكن لديهم سكين ولا حظت أنهم يغمسون الرغيف فى الماء الساخن ويلتهمونه،
وايديهم تلاحق الفتات المتساقط الى الارض فى حرص بالغ وتعيده الى الافواه. ثم الاكل فى
صمت وكانهم يؤدون طقوسا دينية. وكان الذى يكمل مخصص وجبته يلف الباقي. فى
حرص شديد. وكانما هو يؤدى شعيرة دينية ويضعه داخل اكيس بحورتهم.. وهكذا
يضمن بقية الوجبات.

وسالنى ذو اللحية الشقراء: لماذا انت لا تاكل؟

— لا توجد لدى شهية

وبقى خبزى دون أن يمس. ولكن العيون الجائعة كانت قد التهمتته بلا مضغ..
فعرضته على جارى. ولكنه تصحنى بان احتفظ به، لأن السجن تسوده موجة عارمة من
الجوع. وبصعوبة اقنعته بان يأخذ نصفه. فشكرنى وهو يلتهمه مسرعا.. ثم قال لى أنهم
احضروه الى هنا من فلادفوستك منذ اربع اشهر وهو ينتظر فى حظيرة الكلاب، دون أن

يدعوه للتحقيق.

وقال انه قد اعتقل منذ تسعة اشهر. وانه ومن ثورة عام ١٩١٧م الى عام ١٩٢٠م قاد حرب العصابات ضد اليابانيين في الشرق الاقصى وبعدها عمل في صناعة معلبات الاسماك وقد اتهم بانه يحضر لانتفاضة مسلحة ضد السلطة السوفيتية، وينوى ضم أجزاء من اقصى الشرق لليابانيين.

واصابني الرعب والهلع عندما سمعت منه تفاصيل الاعمال المرعبة التي قام بها.. واخذ يعددها لي وهو يقص حديثه. وهالني ان اجد نفسي راقداً بجواره، اتحدث اليه. فسألته:- كيف يمكن لشورى قديم مثلك ان يفعل كل هذه الفضائع.. فضحك بصوت جلجل في ارجاء الغرفة المكتظة واتبع قائلاً ان الذى حكاه لي لايمكن ان يخطر على فكره ناهيك عن فعله وازضاف.. ان كل الذى قصصه عليك هو من تلفيق واختلافات الن.ك. ف.د واهتزرت لحيته الطويلة الشقراء ومنكباه من الضحك. وخيل لي ساعتها ان الطبيعة المتوحشة في اقصى الشرق هي التي تضحك من سؤالي ونظرت اليه باستغراب.

وسألني ذو اللحية -بماذا يهتمونك؟-

اجبته - لا ادري ولم ار غير الاشخاص الذين القوا على القبض. والتف حولنا عدد من السجناء وسألوني:- من اين انا؟ ومن اكون؟

اجبت - اني مهاجر سيلسي واعيش في الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٣٢م وكانت اجوبتي مازالت شحيحة قصيرة وغير مترابطة وكان تفكيرى معطلا. ويعدبني سؤال واحد.. لماذا انا هنا؟ وكنت اخلتني في حلم. او ربما كان هذا كلبوساً قبيحاً.. ولم استمع لبقية احاديثهم. استمعت فقط لسؤالي لنفسي لماذا انا هنا.

وفي الظهر اعطونا نصف لتر شوربة من الكرنب، ومعلقة صغيرة من البسله. وفي العاشرة مساء اطفئت الانوار، ثم اشعلت ثلاثة مرات. وهذا يعنى علامة النوم. فافترش السجناء معاطفهم ورقدوا على الارض ورقدت انا. وكنت متعباً جداً.. فاغمضت عيني في اغفائة قصيرة.

ولم اتم طويلاً اذ فتح الباب وسمعت الجندي ينادى على سجين للاستجواب. واحتجت الى وقت طويل لكي اعاود نومي. واذا بشخص يوقظني.. ثم قال لي الحارس الذي كان يقف بجوار الباب اذهب للاستجواب. فنهضت ولبست حذائي وخرجت الى الممر.. وكانت في انتظارى امرأة ترتدى زى الن.ك.ف.د كانت شابة شقراء تضع على راسها طاقية مستديرة لونها ازرق سماوى (طاقية الباتيكا) وعليها علامة حديدية هي رمز الاتحاد السوفيتي وتمسك بي يدها قطعة من الورق: وسالتي ما اسمك؟ فلما اجبتها.. قالت الى الامام.

عدة مرات فتحت امامنا قضبان حديدية. واخذنا نصعد الى الطابق الثاني، ثم نزلنا للمساحة، ومنها دخلنا الى مبنى كبير. واخذنا المصعد الى الطابق الخامس. وهناك ادخلوني الى غرفة كبيرة. ورايت امام الآلة الكاتبة رجلاً ابيض الرأس، متوسط الطول، مقصوص الشاربين، يرتدى زى البوليس السياسى وكان يرتبة تقب مدت له حارستي الورقة في هدوء وعندما كان يوقع عليها باسمه كنت اقف بجوار الباب. وحالما خرجت

حارستى من الغرفة، نظر الى النقيب فى كل تراخ، واشتد بيده الى كرسى قائلا اجلس - اسمى
رفزين قاضى التحقيقات اتريدنى ان اتحدث بالالمانية او الروسية؟ اجبته الامر سيان
بالنسبة لى فقد يده الى بوريقه قائلا: اقرأ هذا ووقعه.
فلخذت منه الورقة وقرأت:

١ / انت متهم باعداد منظمة الثورة المضادة التى قتلت سكرتير اللجنة المركزية فى الحزب
الشيوعى السوفيتى، وسكرتير لجنة منطقة ليننغراد س. م كبيروف.
٢ / وانت منهم بالعمالة للجسلبو
وحسب اضحك وانا اقرأ فى الورقة.. ولم اكن املك الا ان افعل. فقال رفزين.. لاتضحك
هذه تهم خطيرة.

احسست بشعور من الارتياح - فالامر واضح جدا. وهنالك بالتأكيد لبس فى
الموضوع فانا لا صلة لى بهذه الاتهامات على الاطلاق. قلت ذلك بثقة وهدوء.

اجاب رفزين - لست على حق - ليس هنالك لبس او غموض لدينا اثبات ويجب عليك ان
تعترف بصديق. ولكنى قلت بحزم: ما هذا الذى تقوله باسم الاله انا برىء تماما وكنت دائما
شيوعيا جيدا وواجباتى الحزبية انفذها بلا نقاش. نطقت ردى ذاك بتصميم شديد
وبتأكيد قاطع حتى اشعره ان فى الامر ثمة التباس فاجابنى بعد صمت خفيف..
- اليوم لن نتحدث فى هذا الامر اذهب لزنزانك وفكر فى الامر جيدا.. وغدا نواصل.
وقفت.. فى نفس اللحظة ظهرت حارستى.. واقتادتنى الى الزنزانة. وبمجرد قفل باب
الزنزانة هب نحوى السجناء.. كل منهم يسأل: ايه؟ اين كنت؟

- اجبت ان رفزين يتهمنى..

- غير معقول.. كلها اختلاقات.. قلتها بصوت عال

- قال بعضهم.. انت غريب.. معنى ذلك - جاسوس

- لا ليست لى اى صلة بذلك

- ماذا كنت تعتقد فينا لى اى صلة بالذى اتهموننا به؟

- بالالشيطان لم نك نحلم بذلك ابدا. كانت اصواتهم عصبية غضبى وهم يقولون ذلك.

فضرب الحارس الباب بكتلة المفاتيح التى يحملها معلنا - اصمتوا..

ورقدنا فى اماكننا ولم نستطيع النوم فكرت طويلا فى التهمة التى وجهت لى وكيف
يمكن ان اكون منغمسا فيها؟

هدأت نفسى وتيقنت ان الامور ستوضع فى نصابها وسوف يرون اختلاط الامر
عليهم، وسوف يطلق سراحي واعود لمزلى.

بدا صباح جديد، قسم الخبز، الشورية والبسلة للغداء.. وعصيدة للعشاء. وكنا
طوال اليوم قد تحدثنا فى استجوابى الليلى.. بعضهم سرد قصيته والتهم الخيالية التى
الصقت به. وكان معظم السجناء لا يديرون لماذا اعتقلوا؟ قروى شاب اتهم بأنه ارهابى..
لانه تشاجر مع رئيس (الكواخوز) وهدده بالقتل.

وكان واحد من مجموعتنا هو الوحيد الذى اتهم يانه ضد الثورة وقد شهد ضده
اخوه.. شخصيا.

وعن سبب تمت المواجهة بينه وبين اخيه ذكر بانه لا يستطيع ان يقول غير ذلك.. لان البوليس السياسى يريد منه ما قاله بالضبط.

وبعدها علمت ان اسم ذلك الشخص هو سمير نوف.. وقد حكم عليه (الثلاثة) بثمانية سنوات سجنًا.. اما.. الثلاثة فهو اصطلاح يطلق على لجنة كانت مكونة من رجال البوليس السياسى.. تحكم الناس ادارياً.. دون ان يمثلوا امام المحاكم ومررت الايام، ولم يطلببنى احد للاستجواب. نقلونى الى زنزانه اخرى فى الطابق الخامس، اختلفت عن زنزانتي السابقة بان فيها سرير حديدى، قش جاف، مخده وغطاء من القماش، بنيت فى الاصل لتسع شخصاً واحداً ولكنهم وضعوا فيها ثلاثة اسره وكانت ارضية الغرفة مدهونة بدهان غير مريح على الاطلاق، وهى فى عمومها غير نظيفة.

ومرت اربعة ايام كنت فيها بمفردى وفى اليوم الخامس جىء باثنى.. واخيراً استدعيت للتحقيق الثانى. قاضى التحقيق رفزين اعتذر لعدم استدعائى مبكراً لأن لديه اعمالاً كثيرة وقال انه فى الغد سيحقق معى بالتاكيد، هذا كل الذى ذكره لى ولم يضع لى أى سؤال.

وقد تذكرت ما قاله قدامى السجناء فى زنزانتي الاولى (سباجنك) .. هذا تكتيك البوليس السياسى يدعوك ويعدوك غداً بالاستجواب.. ولكنهم بالطبع لا يفعلون ذلك. فتنتظر وتنتظر حتى يتلف الانتظار اعصابك.. ومن ثم تصبح فريسة سهلة امامهم. وقد تعرفت على زملايى الجدد فى الزنزانه. لارنوف طويل، قوى البنية، كان مديراً لمصنع الكيماويات فى كميروف فى الاورال، وهو عضو قديم فى الحزب.. وقد اتهم بالتخريب فى المصنع الذى يديره. وكان يقسم دائماً بان ما اتهم به، هو امر ملفق وانه لن يوقع على اية اوراق تقدم له.

وفى احدى الليالى اقتيد لارنوف وارجع بعد خمسة ايام.. بلياليها.. وساعاتها ولحظاتها.. كان عليه ان يقف فى ركن الغرفة... يقف باستمرار.. دون ان يسمح له بالجلوس.. وكانوا يدعونه ليتناول قليلاً من الشوربة والخبز مرة واحدة فى اليوم فقط. واعجب شئ ان هذا الرجل القوى البنية.. والذى خاض الحرب بجانب الجيش الاحمر.. والذى قسى ويلاتها وذاق صعوباتها. لم يستطع ان يقاوم تعذيب البوليس السياسى.. فقد وقع على كل الاوراق التى قدمت له..

وبعد اسابيع، اقتيد من الزنزانه ولم اره بعدها ابداً كان الاستجواب يتم ليلاً... وفى احدى الليالى اقتادوا قولدمان وارجعوه فى الرابعة صباحاً مكسور الاضلاع.

وقولدمان هذا كان سكرتيراً لريكوف، ورئيساً للشعوب السوفيتية والمفوض المسئول فى الحزب الشيوعى، الذى يعد اليه ببث مبادئ الحزب فى الوحدات العسكرية، والتأكد من صدق ولاء افرادها للحزب.

طلبوا منه ان يعترف بان رئيسه ريكوف جنده عميلاً للجستابو ولم يعترف او يوقع على شئ.. وقد رقد وهو يئن من السبب الى الاثنين. وفى صباح الاثنين حضر الطبيب يساله ما به.

ولكنه لم يزد على انثائه التى تميز قسى القلوب.. الا ان يتمتم فى صوت واهن ضعيف..

— هؤلاء الكلاب.. الكلاب الملعونون.

وبعد ساعتين حضر الحراس وحملوه على النقالة.

وبقيت وحدى فى المكان الضيق المحصور بين افكارى واسئلتى كيف؟ ولماذا؟.. والى

متى؟ وماذا تفعل سونيا؟... هل هي تعلم بما يتهمونني به؟.. وتوالت على رأسي دوامة من الاسئلة الملحة ولكنها كانت تבור وتبور.. سريعة وقاسية.. نفس الاسئلة.. دائماً.. نفس الاسئلة.

وفي اليوم التالي جيء بثلاثة من السجناء الى زنزانتى.. وقد كان احدهم من معارفى فى الزنزانة السابقة (سباجنتك).. اما الاخران فهما جديدان.. حديثا عهد بالاعتقال. احدهما نمسلاوى الاصل يقيم بموسكو فى الخامسة والستين من عمره.. عمل خمسين عاماً فى دكان لبيع الاسلحة على كبرى كزينكوم. ويعد يومين من اعتقاله علم بانه (عميل للجيستابو).. واصاب العجوز ياس واحباط ولم يستطع ادراك التهمة ولا ترتيب افكاره. اقسام فى بانه برىء مما نسب اليه وطلب منى ان انصحته ماذا يفعل لدحض افتراءاتهم الغريبة؟.

ما الذى كنت أستطيع قوله؟ اى نصح اقدمه له؟ وانا نفسى كنت احتاج لنصائح. وقد حدث مرة ان العجوز استجوب مدة ثمانية واربعين ساعة. وكان قاضى التحقيق شاباً حليق الذقن - طموحاً وثليماً وقد سب العجوز بالفظح الالفاظ:

- انت يا عجوز ياداعر، قمىء تثير الاشتمزاز، ايها العجوز الخداع نحن ومنذ خمسين عاماً نعلم الكثير عن امثالك الذين يخدمون الرأسمالية، سوف ترى من هو البوليس السياسى.

اذا لم توقع على المحضر فى ظرف اربعة وعشرين ساعة سنصنع منك سجوقاً.. ياكلب يا عجوز.. يانذل الامان.

وبكى شاب العجوز وهو يحدثنى. وفى ليلة من الليالى ايقظنى ورجلنى ان اذهب الى زوجته، اذا اطلق سراحى قبله، لاقول لها انه برىء تماماً. وكانت زوجته تسكن بموسكو فى شارع بلومانوف. ثم قرر العجوز الاضراب عن الطعام، ورقد خمسة ايام فى الزنزانة فاقد الوعي. وفى اليوم السادس حملوه!

وبعد سنوات عديدة التقيت فى نورلسكر بتهملكن المحكوم عليه بالاشغال الشاقة، والذى كان نزيل مستشفى السجن. وقد حكى لى نتهملكن ان العجوز مات وانه لم يعد الى وعيه ابداً بعد ذلك الاضراب عن الطعام الذى نفذ به بشجاعة فائقة. وللأسف لم استطع ان افي بالخبر طلب للرفيق اما بالنسبة للسجين الآخر بالرغم من اننى استطعت ان اكون على اتصال وثيق بشاب الا اننى لم أستطع ان اكون على اتصال معه على الاطلاق وانه لم يرد ان يكلمنى ابداً.

وكان رده على جميع محاولاتي: — لا اريد ان تكون لى اية صلة بعناصر الثورة المضادة. كان فى الستين من عمره، وقد كان مديراً للاكاديمية الصناعية فى موسكو. يدعى فشتيكوف.

حدثته يوماً عن نفسى وباننى شيوعى وعضو فى الحزب منذ عام ١٩١٩م. وتسبب لنشاطى الشيوعى فقد زرت مختلف السجون فى اوروبا، وهانذا الآن متهم بالجناسوسية والارهاب والتخريب. وقد اجابنى فشتيكوف:

— البوليس السياسى لايلقى القبض على الابرياء وكان سؤالى له:— اذن لماذا القى عليك القبض؟! فاجابنى أجلة قصيرة وأدار لى ظهره:—
— هذا القياس فى الأمر، وسوء فهم.

و ذات يوم زارنا موظف بالسجن، فى بالطو ابيض وسالنا قائلا: من لديه نقود؟ يوجد كنتين بالسجن ويمكن شراء الخبز، السكر، والمرية، والسمك والسجائر ثم اعطانا ثلاثة قطع من الورق لنتكتب عليها مانود شراءه وبالرغم من اننى لا ادخن فقد طلبت ثلاثة علب من السجائر وقطعة من الصابون.

وفى اليوم التالى حصلنا على الاشياء التى طلبناها. فتناولت السجائر وقطعة الصابون ومددتهم العشنيكوف العجوز لانه لم يكن يملك اى نقود. وكان مدخنا شراً. وقد فاجانى بقوله:

— كيف يخطر على بالك ان تعرض على ان آخذ منك شيئاً، يا عدو الشعب كيف تتجرا على ذلك؟

وغضب منى.

ولم اجب بشئ، السجائر والصابون تركتهما على المنضدة، وفى تلك الليلة استيقظت على أنين بالبواب، فرفعت راسى، ووقعت عينائى على نبتجى البوليس السياسى فى الممر، ذاك الرجل الذى يبدأ اسمه بالحرف ف ؟ فهكذا كانوا يفعلون عندما لا يكونوا واثقين من انهم تعرفوا على الزنزانة التى يقيم فيها السجين المطلوب وشئ آخر.. فهم لا يريدون ان يعرف نزلاء الزنزانات المجاورة من الذى يقيم بجوارهم. وايقت فشنياكوف. فامرته البوليس السياسى:

— اليس ملايسك، ولاناخذ اشياك الاخرى. وفى الثامنة صباحا عاد فشنياكوف من الاستجواب.

آه.. آه ماذا يحدث! قالوا لى انى (عصبجى) مخرب، عدو للشعب من جماعة تروسكى، وانهم سيسحقوننى، ويفتتوا اجزائى ان لم اعترف! آه.. آه.. كيف يعقل هذا! واخذ العجوز فشنياكوف يئن ويدور داخل الزنزانة قابضاً بكتفا يديه على راسه.

وقد حاولت تهدئته.. ومددت علبه السجائر قائلا: خذ سيجارة لتهدأ سبلاً. واخذ العجوز سيجاره وبكى. وسار نحو الباب واخذ يضربه بعنف. واتى الحارس فقال له:— اعطنى ورقاً وجبراً. يجب ان اكتب للرفيق ستالين — دعه يعلم ماذا يحدث هنا. وصاح الحارس:

— الورق اطلبه من قاضى التحقيق ليس فى هذا ماتريد من الورق. قال ذلك ومضى فى سبيله. وجلس فشنياكوف العاجز على حافة السرير، واشعل سيجارة اخرى، وحرق بعيداً بعينيه كانما تاهت روحه معهم وذابت فى البعيد.

وعندما حان موعد التمشى داخل السجن — لم يتحرك العجوز من مكانه. وكنا كل يوم نتمشى قليلا من خمسة عشر الى عشرين دقيقة فى فناء السجن الضيق او فوق سقف السجن المسطح. وكنا نتمشى فى شكل دائرى. كل واحد خلف الآخر وبايدينا خلف ظهورنا، ونظراتنا مثبتة نحو الارض، اما الراس فغير مسموح له بالحركة ناحية اليمين او الشمال وكان ذلك يتم بدون اى كلام. وكنا نعالق لاقل هفوة. خمسة ايام لايسمح لنا فيها بالخروج

للمتمشي ويسقط حقنا في الشراء من كنتين السجن.

وكانوا يراقبوننا بصرامة تامة كي لا يخبيء احد منا قطع الورق التي نتحصل عليها في الصباح والمساء عندما نذهب لدورة المياه حتى لا تتسرب فيها معلومة للخارج او الداخل. وكان الحارس ينظر الى كل واحد فينا من خلال فتحة في الباب.. ليرى هل استعملنا الورق في دورة المياه ام لا؟ وبعد طول انتظار وترقب دعيت للاستجواب، وكان الاستجواب عادة يتم ليلاً وبعد الحادية عشر. ويستمر لمدة ساعتين او ثلاثة. وفي الايام الاولى كان يتم حجزى للاستجواب لمدة ثمانية واربعين ساعة. وقد استجوبني رفزين. وكان لطيفاً وحسن السلوك، وعمد الى اغراشي وحتى ان اعترف بكل شيء. ووعدني بالقبول في الحزب مرة اخرى. ومن المحتمل ان احصل على وسام.

وسالت المحقق: ما لديه من تهمة ضدى بالضبط؟

اجاب رفزين:

نحن نعلم انك عميل للجستابو، ونعلم انك عضو في تنظيم الثورة المضادة التي قتلت كيروف و... و... فقاطعته بحدة: كل هذا مجرد اختلاف من البوليس السياسي، ولا يوجد دليل ضدى، لانه لم تكن لى صلة فى خيالى قط مع امثال هؤلاء الناس ولا مع تلك المنظمات.

واجاب رفزين فى برود:

انك لم تكن لتحبس ابداً، ما لم يكن لدى البوليس السياسي الدليل على جرمك. والبراهين قد عرضت اولاً على اللجنة التنفيذية للشيوعية العالمية، لانك موظفهم. ووافقت اللجنة التنفيذية على القاء القبض عليك. وبعد ذلك سلمت مواد الاتهام للمدعى العام للدولة السوفيتية فشينسكى. ووافق على القاء القبض عليك.

وطلبت منه ان يطلعنى على امر الحبس. فأخرج من احد الادراج امر القبض واطلعنى عليه.. وكان مكتوباً به: (الحبس وافق عليه فشينسكى). واجبت رفزين:

لا افهم شيئاً وبوسعى ان اعيد عليك انه لا علاقة لى بهذه الاشياء، وسوف يصل البوليس السياسي حتماً الى هذه النتيجة.

وفى احد ايام السبت استدعوني للاستجواب. وينذر ان يستدعوا احداً للاستجواب فى يوم السبت او الاحد. لذا كانت دهشتى بالغة. ومرة اخرى انظرنى رفزين بنفس نظرات الود المصطنع قائلاً:

- افهم يا شتاينر، من اجلك نبذت عطلة نهاية الاسبوع اردت ان انهى مسالتك هذه سريعاً، وكل شيء يعتمد عليك.

اجتبه:

فيما يخصنى، انا على اتم استعداد لان افعل ما فى استطاعتى لكى تطلقوا سراحي وأعود لمنزلى.

واجاب رفزين قاضى التحقيقات:

حسناً اذن فلنتكلم بجدية. واخرج ورقاً كثيراً كتب عليه (مخضر التحقيقات) وبعد اسئلة مكررة وعلى نحو لا يتغير، عن اسمى، واسم عائلتى، ومكان مولدى سالتنى:

هل تعترف بانك عضو فى منظمة الثورة المضادة التي قتلت سكرتير اللجنة المركزية للاتحاد السوفيتى وسكرتير لجنة منطقة ليننغراد س. م. كيروف؟

— يمكنني ان اقول ماقولته في مرات سابقة من انه لا علاقة لي بذلك وانني برىء تماماً من كل مالتصقون بي من تهم.

فوضع رفزين القلم جانباً. وقال لي:—

— بهذه الطريقة لن نصل الى شيء ابداً. يجب عليك ان تعترف. فاجبته.

— ليس لدى ما اعترف به، انا برىء وهكذا استمر التحقيق طوال الليل، كان رفزين يحثني على ان اكون عاقلاً وان اعترف بكل شيء.

— اما من جانبي انا فليست ادرى عدد المرات التي حاولت اقناعه فيها بانني برىء.

. ونظر رفزين الى ساعته وضغط على زر وخضر جندى. وقال لي رفزين:

اذهب لزنزانتك وفكر جيداً، وسادعوك غداً مرة أخرى، ولكن اقول لك مرة واحدة اليوم: اذا استمر الحال بيننا على هذا المنوال، وبقيت على عنادك بالا تعترف. ستكون عاقبتك وخيمة فهمت؟ العاقبة وخيمة؟

ولم اجب بشيء وانصرفت.

وفي يوم الاثنين استدعوني من جديد. وعندما خطوت داخل الغرفة وقعت عيناي على ضابط من ضباط البوليس السياسي بجوار رفزين.. الذي قال:—

— هذا هو الرجل الذي يعتقد ان بمقدوره جرنا من انوفنا.. فاذا استمر في عناده، ضعه ببساطة امام الحائط واطلق عليه الرصاص.

بهذا الاسلوب، قدمني رفزين للمحقق الجديد وخرج.

— اجلس:— قالها المحقق الجديد واخرج من جيبه علبة السجائر وقدمها لي.

— شكرا لا ادخن.

— واشعل المحقق الجديد سيجارة وبدأ في تصفح الاوراق.. وراقبته عن كثب. وكان طويل

القامة في الاربعين من عمره شعره اسود مرتب، حليق الذقن جميل الوجه. لم يكن يرتدي الزى الرسمي ولكنه كان يرتدي قميص الحزب.

وعندما انتهى من تدخين سيجارته سالني.

— هل انت جوعان؟

— لا.

— اذن سنشرب شيئاً سوياً.

ولم اجب بشيء.

وبدا معي بلطف، وسالني من انا؟ وكيف حضرت الى الاتحاد السوفيتي؟ فحدثته عن نفسي ذكرت له انني نمسلوى الاصل، يوغسلافي الجنسية، وانه كان علي ان اهرب من مطاردات البوليس وقد قضيت بعض الوقت في فرنسا، وكان علي ان اهاجر منها لنشاطي

الشيوعي.

واصفى الى بانثياه شديد. ثم قرع الجرس. فدخلت شابة، قال لها: احضري كوبين من الشاي، وعشرة جرامات من السجوق مرتين وبعد دقائق احضرت الشابة الشاي

والسجوق وقدمه لي. قلنا: كل. بالتأكيد انت جوعان شربنا واكلنا. وبعد الاكل اشعل سيجارته ونفض رمادها قائلاً:—

- حدثني عن حياتك، حسناً ولكن دعني أسالك: كيف يمكن لإنسان مثلك عمل منذ شبابه
الاول قائداً في الحركة الشيوعية كيف يمكن له أن يصبح عميلاً لدولة أجنبية
نظرت اليه باستغراب.. ولم أحر جواباً فاستمر يقول:-

- انت رجل ذكي.. فاسمع ما اتصحك به. اعترف لي بصدق كيف جندت وماهي
العملية التي كلفت بها؟

ومن جندت؟ وماهي المهام التي كلفت بها هؤلاء الناس؟..
اجبته:

- أنا برىء.. لم يجندني احد.. ولم اجند احداً وعند سماعه كلماتي هذه. قفز من مكانه
صائحاً هائجاً.

هل تعرف ايميك؟..

اجبته.. نعم..

- اذن حدثني اين تعرفت على ايميك..

- كنت اجلس مع احد معارف في قهوة موسكو مترو بول.

رجعت بذاكرتي القهقري لاستحضر تفاصيل معرفتي يايميك وشرعت اقول:-

- كان ذلك عام ١٩٣٤م. حضر الى المنضدة التي كنت اجلس اليها احد معارف وبعدما حضر
ايميك وتم تقديمه لي وتعرفني به وجلس معنا. ومن سياق الحديث عرفت ان لايميك متجراً
في برلين لبيع الحيوانات. وأنه يرسل الحيوانات المتوحشة من المناطق الحارة للاتحاد
السوفيتي ويحصل بدلا عنها على حيوانات، اقصى الشمال. وبعدما صادفته مرتين في
الطريق، وتبادلنا التحية. ولم نتحدث في شيء. هذا كل مايتعلق بمعرفتي يايميك
- كذاب! سوف أبرهن لك بانك كنت مع ايميك عدة مرات وفي غرفة واحدة بالفندق، وهناك
كلفك بمهمة جاسوسية.

وبعد قوله هذا تيقنت.

ووضح لي جلياً، ان كل شيء سيقوله مرتب، ومخترع ضدي. فقلت له باصرار:-

- انني اعرف بان كل ضيوف فندق (متروبول) تحت مراقبة البوليس السياسي، لذا فان
البوليس السياسي يعلم جيداً انني لم اكن مع ايميك في غرفة الفندق على الاطلاق.
واشتراط المحقق غضباً، وقفز من مكانه، وضرب بقبضته على المنضدة ودلق المحبرة،
وكسر كوب الشاي. وصاح بحقد:-

- الان رايت مع من اتعامل؟.. انت رجل خطير ماذا تعتقد؟ وامام من تقف؟

اتعتقد انك تقف امام البوليس النمساوي؟ واكمل هائجاً:-

سيعلمك البوليس السياسي العقل سريعاً. وانتصّب واقفاً وهو يقول للحارس:- من
فضلك، ارجعه للزناينة فوراً.

ووقفت وقلت له: لا اسمح لك بان تعاملني كالكلب. وتعذبني.

وجن جنونه فصاح بي: اجلس مكانك ولا تتحرك الا بأمرى.. وفي النهاية، لماذا اجادلك؟
قف وادر وجهك للحائط.

ووقفت. وادرت وجهي للحائط. وبقيت على هذه الحالة مدة ساعتين. وبعدما امرني
بالجلوس. واخذ ورقة وبدأ يكتب محضر الاستجواب. ولكن ماذا يكتب؟ ان في المحضر كل

ماقلته سابقا نفس الاسئلة ونفس الاجوبة. ولكن وضع لي الفرق الان انه لم يكن بدون كلماتي بامانة... وبعد مشادة طويلة، وافق أن يكتب بالطريقة التي طالبت بها. وطيلة اسبوعين.. ويوميا.. كان يتم استدعائي للتحقيق معي. وفي الاصل لم يتغير شيء، نفس الاسئلة ونفس الاجوبة.

وفي ذات مرة وفي فترة من الفترات، خيل الى ان المحقق - قروشفسكي كان مسرورا لذا فقد سألته: كيف حال زوجتي؟

اجابني بسخرية:

نحن نتابع خطوات زوجتك ويمكنني ان اقول لك انها بحالة جيدة - وبمجرد اعتقالك وجدت رجلا آخر وضاجعته.

وخرجت عن طوري بمجرد سماعي لكلماته.

وفي غمرة الغضب نسيت اين انا. وصرخت في وجهه، وكنت له السباب والشتائم.

- باي حق تتكلم هكذا عن زوجتي؟ هذه هي الوسائل الفاشية اليوم لن انطق ولا بكلمة واحدة. وكان صياحي عاليا، لذا فقد حضر ضابط من الغرفة المجاورة ليرى ماحدث. وعندما هدأت نفسي قلت له:-

- زوجتي تنتظر هذه الايام مولودا جديدا ومن المحتمل انها الان في مستشفى الولادة.

ويمكن ان تفهم لماذا انزعجت. والشيء الذي اريد معرفته كيف هي؟ لقد كنت اعتقد انني آتعمل مع انسان.. ولكنني كنت غيبيا فاعتقدت انك ستسنى ولو للحظة انني معتقل.. وستجيبني على سؤال بانسانية.. والان ارى ان ظني قد خاب.

فتظاهر قروشفسكي بالبله وكان شيئا لم يحدث البتة. ووعدني بأنه سيستفسر عن حالة زوجتي وسوف يخبرني غدا.

وارجعت للزناينة.

وعندما اغلقت بابها علي كيت كالطفل. ولاول مرة في حياتي ابكي بحرقة وعصبية. اما بقية السجناء فلم يندهشوا عندما حدثتهم عما جرى لقد كانوا يعلمون جيدا وسائل البوليس السياسي. الذي لايتورع ابدا في استخدام اية وسيلة لتحطيم معنويات من يستجوبونه.

بعد ثمانية ايام استدعوني الى مكتب السجون، واخبروني بأن زوجتي وضعت طفلة، وهي بخير، وكنت سعيدا للغاية. ولقد سعدت اكثر عندما علمت بان زوجتي لم يلق عليها القبض. ففي معظم الحالات كان البوليس السياسي يلقى القبض على زوجات المعتقلين بدون اعتبار لاي ظرف.. حتى وان كن ينتظرن مولودا.. او حتى ان كن مريضات او مرضعات.

وفي سجن بوتيرك كان هناك نحو ثلثمائة امرأة باطفالهن الرضع واخريات باطفال دون العام. وبعد سنة من الولادة كان البوليس السياسي ينتزع الطفل من الام، وبالقوة.. ويرسله الى أحد الملاجئ، التي يقوم البوليس السياسي بدارتها.

اما منظر الاهات عندما ينتزع من ائدائهن الاطفال فقد كان رهيبا وكريها الى اقصى حد.

حصن بوتيرك

في منتصف شهر ديسمبر من عام ١٩٣٦م حضر مدير السجن وامرني بحزم جميع امتعتي.
وبدأت وانا متوتر الاعصاب اجمع حاجياتي، ودقلت قلبي تتزايد، وفي رأسي تدور أسئلة عديدة..

ماذا يعني هذا...؟

هل يطلقون سراحي...؟

واسرعت قبل أن يقودوني الى الطابق الاسفل اودع رفاق الزنانة.. وادخلوني غرفة خالية من كل شيء.. ثم خلعوا ملابسي وفتشوني بدقة فائقة وكان علي ان اقوم بحركات مختلفة حتى يتمكن الحارس من النظر في كل فتحات جسمي العاري.
وعندما انتهى التفتيش الدقيق امروني بارتداء ملابسي وقادوني الى نفس الساحة التي احضرت بعد اعتقالها

وهناك كانت تقف عربية مغلقة.. من نوع الناقلات الصغيرة، كتب عليها باللغات الاربعة الالمانية - البوغسلافية - الايطالية - الانجليزية - كلمة (خبز) رجل البوليس السياسي فتح باب العربية وامرني بالدخول.. وكانت العربية من الداخل مصممة على شكل سجن صغير.. قسم الى اجزاء كالزنانة حشروني في احد الاجزاء فلم اعد استطيع الحركة بداخلها.
كانت كمية الهواء قليلة ومع ذلك فقد اغلقت الاجزاء الاخرى.. ولما حاولت ان انبه جاري لذلك امرني الحرس بان لا احرك شفتي وان لا انبس بحرف واحد. وانطلقت العربية في شوارع موسكو.

وهكذا سرنا، ولم يكن يخطر ببال احد من سكان موسكو ان هذه العربية التي كتب عليها باللغات الاربعة كلمة خبز، تحمل في جوفها ضحايا البوليس السياسي. وبعد مسيرة عشرين دقيقة وصلنا الى اكبر سجن للبوليس السياسي.. في موسكو (بوتيرك).
وصاح الجنود:-

- هيا.. بسرعة.. بسرعة.. الايدى على الظهر.

وفتحت بوابة كبيرة ضخمة، وبعدها بوابة حديدية فوجدنا انفسنا في قاعة كبيرة تشبه قاعات محطة السكة الحديدية. بها على الجانبين ابواب بلا مزاليج. فتحوا واحداً منها ودفعوا بي الى الداخل. كانت الغرفة عبارة عن صندوق من الاسمنت المسلح.. خالية من كل شيء عدا كنبة مثبتة على الحائط.. ولم تكن بها نوافذ ما.. جلست على الكنبة، وسمعت كيف يفتح باب وثان وثالث ويدفع من خلاله المعتقلون.

حاول بعضهم ان يسأل الحارس.

ولكنهم سمعوا اجابة واحدة.

- الصمت.. ولا كلمة.

وانتظرت طويلا. حتى اقتادوني الى حمام البخار الخائض، واعطوني قطعة من الصابون.

وشرعت في الاستحمام.

وبعد عشرين دقيقة تقريبا طرق الحارس الباب صائحا..
ارتد ملايسك.

سارعت بارتداء ملابسى وانتظرت على مضض، فقد كانت درجة الحرارة في ذلك الحمام الملعون مرتفعة جدا، حتى اننى لم أستطع التنفس. وانتظرت ساعة من الوقت.. وأخيرا حضر الحارس وقادنى خلال الفناء الى مبنى ذى ثلاثة طوابق.
وتوقفنا في الطابق الاول عند الزنزانة رقم ٦١ (واحد وستون) وامرنى الحارس ان اخلع جميع ملابسى واقف عاريا.. ولكنى قلت له
- يابنى آدم. الا ترى اننى مبتل الثياب. فكيف افعل ذلك والبرد شديد؟
- اخلع ملايسك ودع النبيح.
وبدأت في خلع ملابسى.

وبدقة تامة فتش معطفى وملابسى الداخلية.
واستمر ذلك لمدة خمس وعشرين دقيقة وقفت فيها عاريا خلال الممر الفظيع. البرودة والهواء. وكنت على يقين اننى وفي درجة برودة تزيد على الخمس وعشرين درجة تحت الصفر وفي منتصف ديسمبر. باننى ساصاب بالالتهاب الرئوى الحاد. ولكن حظى الحسن جعل اصابتى خفيفة لاتتعدى نزلة برد ورشح. وفتح الحارس باب الزنزانة. ودفعنى الى الداخل. ولم أستطع ان اصدق عيني ابدا، هل هذه جهنم..؟ ام هذه ماوى الشياطين..؟
كهف طويل.. طوله ثمانية امتار وعرضه خمسة امتار مكتظ بمجموعة من البشر.. بعضهم نصف عار جلس بملابسه الداخلية فقط، وبعضهم رقد على كنبات خشبية مثبتة على الحائط. والذين لم يستطيعوا الحصول على مكان في الكنبات الخشبية جلسوا على الارض العارية.

لم يكن في أستطاعتى شق طريقى من الباب الى منتصف الزنزانة مئات العيون كانت مصوبة نحوى.

وقفت في مكانى مسمراً على الارض بلا كلام.

ومن منتصف الجمع حاول رجل ان يقترب منى.. ونجح في ان يقول لى..
- يجب ان تاخذ مكانك هنا مؤقتا.

واشار الى مكان بالقرب من جردل قبيح متسخ وضع هناك لقضاء الحاجة.. كانوا يسمونه (براشا).

- غدا او بعد غد ساجد لك مكانا احسن.

وطيب خاطرى كثير من المعتقلين.

ونظرت يمينا وشمالا، ولم اعرف أين اجلس.

على اليمين والشمال وقفت جرادل ضخمة لقضاء الحاجة مغطاة باغطية صدئه.

كان يمكن بالطبع الذهاب لقضاء الحاجة مرتين في اليوم وبصحبة الحارس وفي الليل والنهار وعند غلق الابواب - كانت الحاجة تقضى في تلك الجرادل - براشا - وامام الآخرين.

وجلست بالقرب من احدها - لم يكن هناك مقر ابدا.

ولم يمض وقت طويل، حتى احاطنى السجناء باسئلتهم.

- متى اعتقلت؟ ولماذا..؟ ومن أين انت؟ الخ الخ.

وعندما علموا باننى اجيبى غريب. اخبرونى بان بينهم غرباء مثلى. وفي وقت قصير تعرفت على بعضهم.

وكانت الحفرة التي وضعونا بداخلها صغيرة نسبيا -حوالى ٤٥ مترا مربعا.. ويستطيع الوقوف فيها ٢٤ سجينا.. ولكن بها الآن مئتان من السجناء.. وكان هذا العدد يزيد أحيانا ليصل الى مائتين وستين.

وكانت الروائح الكريهة تنبعث من جوانبها وتتصاعد من أركانها وكانها الأعاصير الهوجاء.. وكانت درجات الحرارة مرتفعة وغير محتملة على الإطلاق. وتنفس الناس بصعوبة شديدة.. ثم تساقطوا من الأغماء. وكانت حياة هذه الحفرة من حفر الجحيم تبدأ عند الخامسة صباحا.. أمام بابها وقف السجناء بلا صبر، ينتظرون أن تفتح الأبواب ويطلق سراحهم، الى دورات المياه.. ولذلك فهم يخبطون الأرض بأرجلهم. جردل قضاء الحاجة - براشا - امتلات الى حافاتها.. ولكي تحمل للخارج كان ذلك يحتاج الى أربعة أشخاص.

كان هذا بالوردية.. كل يوم على أربعة جدد.. يتلفون الزنزانة ويحفظون نظامها.. ولدورة المياه كنا نذهب في ثلاث مجموعات. وكان هناك حوض للغسيل، نندافع حوله دائما. كانوا يعطون كلا منا أربعين جراما من الخبز للافطار يحضرونها في صناديق ويسلمونها لكبير المعتقلين واسمة (استاروستا) -ومعها ماء ساخن او ماء مغلى وبه تفل القهوة. وفي الغداء تحصل على نصف لتر من الشوربة وملئة وخمسين جراما من العصيدة. ومن كان لديه مال يستطيع أن يشتري من كئتين السجن بعض السمك والدهن - وفي بعض الأحيان بعض الزبد والسكر - والسجائر. في سجون ستالين كان هنالك نوع من التعاون بين السجناء في العمل السرى. وفي معظم الزنزانة تكونت لجان للفقراء سميت (كوميدي) الغرض منها الاهتمام بالولئك الذين ليست لديهم نقود يشترون بها شيئا من الاكل او الدخان.

وقد كان في استطاعة كل سجين ان يحصل على خمسين روبلا من ذويه. تخصم منها عشرة في المائة للفقراء.

وكان كبير المساجين استاروستا يذهب الى الكانتين ومعه خمسة او ستة من الرجال، بالاكياس والملايات.

وتعد قبل الشراء قائمة تحوى أسماء الراغبين.. وكان الكانتين يقع في المبنى المجاور.. فيدفعون قيمة كل الاشياء ويضعونها في الاكياس والملايات.

ويحملونها الى الزنزانة حيث يكومونها في وسط الحجرة.. وياخذ كل شخص بقدر مادفع.

وكنا نخزن هذه الاشياء لمدة اربعة او خمسة ايام.. وعادة ماتكون معنوياتنا مرتفعة ويسودنا جو من المرح والبهجة.. حتى اذا انتهى المخزون عندنا تنتظر المشتريات الجديدة ونحن نحس بالكآبة والتوتر. وذلك الكانتين اسمه (الافوجكا). وكانت المشكلة الاساسية التي تواجهنا هي مشكلة النوم عندما ياتى المساء. كنا نرقد مكدسين الواحد فوق الآخر.. وكنا نتنفس بصعوبة. ولم يكن في مقدور احدا ان ينقلب على جنبه الاخر الا اذا انقلب جميع النائمين في صفه على جنوبهم وفي نفس الوقت.

أكبر السعادة هي ان تجد مكانا في الكنية الخشبية المثبة على الحائط اما اصعب الاشياء ليلافهى ان تجد طريقك الى (براشا) جردل قضاء الحاجة. كان عليك ان تدوس فوق

رؤوس الآخرين.

كل يوم كنا نتمشى لمدة ربع ساعة، ولما كان السجن ممتلئاً للحد المذهل، وكنا نتمشى على دفعات، فقد أمرت إدارة السجن ان نفعل ذلك ليلاً. فكانوا يوقظوننا في الثانية او الثالثة صباحاً لكي نتمشى. وفي كل شهر يرحدوننا من زنزانتنا الى زنزانة اخرى. بعد ان نفتش تفثيشاً دقيقاً ونحن عرايا.. وكل ممنوع في حيازتنا كان يصادر.

وما الذى لم يكن ممنوعاً؟..

قطع الصفيح.. الحديد.. المسامير.. الابر.. كل شيء صلب. وكان التفثيش يستمر ويمتد الى خمس ساعات أحياناً.. وكانوا يخرجوننا الى الاستحمام وفي نفس الوقت يغيرون على اثيابنا المتروكة في الغرفة فيطهرونها..

وكان أول أجنبي تعرفت عليه في تلك الحفرة هو الشيوعي المجري لانتوش. رأيته يجلس وحيداً في ركن منعزل وقد أطبق فمه فما ينبس ببنت شفة.. كان فقط يحدق من تحت نظارته الى البعيد.. فتبدو عليه سمات المثقفين، على الرغم من ان تقاطيع وجهه لم تكن لطيفة إطلاقاً.

اقتربت منه ذات يوم وحييته باللغة الروسية. ولم يجب بشيء، فتركته دون ان اضايقه او الح عليه. وفي اليوم التالي بدانا نتحاور عن طريق الصدفة وحدها. لم يكن يعرف الروسية. ولا كلمة منها.

تحدثنا بالالمانية عن اشياء عادية. وعلمت انه من بودابست فقط ولم تزد معلوماتي عن ذلك شيئاً.

وفي تلك الليلة اقتادوه للتحقيق، وفي اليوم التالي بعد الظهر اعادوه.. فلم يحدث احداً قط.

وعلمنا ان رجال البوليس السياسى قد اشبعوه ضرباً مبرحاً.. لانه تهرب عن الاجابة.. وعندما سألته انا لم يرد على فتركته.

وفي ذات ليلة وحوالى الساعة الحادية عشر استدعوني للاستجواب وفي غرفة التحقيق رايت رفزين، قوشفسكى واثنين من الشبان، وبدأ رفزين في كتابة المحضر. وجه الى سؤال ولم تعجبه اجابتي، فبدأ في استدراجي لاعترف له بانى عميل للجستابو. وبدون انقطاع.. وباستمرار واصرار كلنت اجاباتي:-

- انى برىء

- انى برىء. ولن اوقع على شيء.

الشبان اللذان كانا يجلسان معه في هدوء بادىء الامر، هبوا يوجهون الى اقصى واقبح انواع الشتائم والسباب.

- يا ابن الفاشية.. يا زبالة الفاشية.. يا ابن العاهرة الخائنة الخ.. وبن الذى يستطيع ان يحصى كل ما قالوه..؟

وبدأوا يجذبون ثيابي فادركت ما سيحدث - وتوجهت الى رفزين قائلاً:

- تفضلوا على بيوم آخر افكر فيه.

فامرهما رفزين بتركى... وبدأ من جديد فى حفى على أن اكون وديعاً وإن اعترف..
قالبوليس السياسى لايعرف الهزل. وأعادونى للزنزانة.
وعندما دعونى فى الليلة التالية للاستجواب، أخبرت الحارس بانى لن ابارح الزنزانة
ابداً.

وأحتار الحارس واندھش. ووقف فترة من الوقت وكأنه يجمع افكاره. وفجأة اندفع
يصيح كالمجنون.
وانزويت فى ركن الزنزانة البعيد.
فاستدار وخرج.

وبعد عشر دقائق عاد مع رئيس الحرس.
ومن عتبة الباب صاح رئيس الحرس.
- تعال هنا - يا ابن الكلب.
ولم اتحرك من مكانى.. فسبنى وهددنى.
- لن اذهب للاستجواب حتى يحضر الى هنا المدعى العمومى.
وحاول رئيس الحرس اخراجى من ركن الغرفة واعدا اياى باللبن والغسل فلم اتحرك خطوة
من مكانى.

وعندما رأى انه لن يستطيع فعل شىء معى، استدار منصرفاً.

وبعد مضى ساعة من الزمن فتح الباب.

كان هناك مدير السجن بنفسه..

وكانت معه مجموعة من رجال البوليس السياسى.

وصاح مدير السجن..

- احضر الى هنا حالاً.. هل تقظ اننا سنلعب معك؟

واجبته من ركنى.

- احضروا المدعى العام.

ولم يستطيعوا الاقتراب منى، فقد كانت الزنزانة ممتلئة بالبشر. وأمر مدير السجن
باخلائها.. وبدأ الزحام والقراحم. وبعد عشر دقائق كانت خالية الا منى.

كنت قابلاً فى ركنى البعيد.

وانقضى على زبانية البوليس السياسى وانتزعونى من ركنى، والبسونى قميص المجانين
- الذى يقيد الحركة تماماً.

وبعدها جرونى كالجوال ورمونى فى غرفة الحبس الانفرادى تحت الارض.. وكان اسمها
(كارسى).

وتحت الارض وفى اعماقها كانت هناك اثنا عشر زنزانة مختلفة الاحجام جزء منها
للحبس الانفرادى.. والجزء الاخر للحبس الجماعى.

ووضعونى فى زنزانة الحبس الانفرادى.. ولكن نسبة لامتلاء السجن حينها فقد كان بها
اربعة من السجناء.

وعلى كنية صغيرة مثبتة الى الحائط نام شخصان بصعوبة بالغة. اما الاخران فناما على

الارض. وفوق الباب كانت هناك لمبة تضيء ليلا ونهارا. وبالمقارنة مع زنتزانتى الاولى اكتشفت ان الوضع هنا مريح جدا فالتائم يستطيع ان يتحرك بحرية وان ينقلب كيف يشاء.. بين الركن وجردل قضاء الحاجة وبين الركن الاخر والكنبة. كان طعامي هنا ثلاثمائة جرام من الخبز وابريق من الماء الساخن.. ثم الجوع والبرد القارس. وبعد خمسة ايام اعادونى للزنتزانة ٦١. وسالنى لانتوش.
 - لماذا تشير المتاعب لادارة السجن وانت شيوعى...؟ فى روسيا الشيوعية يجب على الانسان داخل السجن ان يسلك كشيوعى.
 - عندما يطبقون على وسائل الفاشية يجب ان ادافع عن نفسى.. وبقدر مايكون ذلك ممكنا داخل السجن.

وعلى مدى اجابتي تلك بدأ لانتوش فى تحليل نظريته الغريبة:
 - الشيوعى يجب ان يضحى.. متى ما طلب منه ذلك.. وخاصة الحزب. ولم افهم شيئا من نظريته ومن هرائه ذاك.

ماهى الفائدة التى تجنبها الحركة العمالية من اعتراقي بارتكاب شيء لم افعله؟ واذا لم اعترف.. كما تقول نظريته.. فهل اتركهم يضربوننى حتى الموت؟
 ولم استطع قبول وجهة النظر الغريبة تلك.

واخيرا بدأ لانتوش يتحدث عن نفسه.. كان سكرتيرا للحزب الشيوعى المحظور. عامان.. قضاها فى العمل السرى ببودابست.. قاد الحركة الشيوعية المجرية. وفى القيادة تكونت مجموعة من المعارضين، اختلفت مع أسلوبه. وبدلا من ان يعملوا بين الجماهير وينظمونها، قضاوا الليل والنهار فى المسكن مخفيين.. يتجادلون ويقراون كارل ماركس ولينين.

وعندما يشتد الخلاف بينهم يكاتبون اكبر سلطة فى اللجنة المركزية الشيوعية العالمية فى موسكو يطلبون الراى والنصح. وكان ممثل المجر فى الشيوعية العالمية هو (بلاكون) الرئيس السابق ومندوب الشعوب السوفيتية ايام الجمهورية المجرية السوفيتية. وصف بلاكون لانتوش بانه منشق.. وامره بالحضور الى موسكو فانصاع لانتوش للأمر وسافر الى موسكو.

وفى الزنتزانة ضرب بالعصى والقوا به فى الحبس الانفرادى وأخيرا وقع على اقرار بانه وبناء على طلب من حكومة (هورتى) اندس فى صفوف الحزب الشيوعى لكى يتجسس. وأنه نظم أعمالا ضارة بالحزب.. وبأنه سلم الشيوعيين الشرفاء لبوليس هورتى. اعترف بكل ما ارادوه ان يعترف به.
 وحرر وثيقة بذلك.
 وسألته:

- هل توجد ذرة من الحقيقة فى هذه الاشياء التى اعترفت بها واقررتها على نفسك..
 - كل الذى اعترفت به كذب. فقد كان الجانب المنلوى لى هو الذى يعمل لصالح هورتى والبوليس المجرى. لقد وشوا بى لابعادى ولكن على الشيوعيين ان يضحوا.
 ولم اقتنع بنظرية التضحية تلك
 ولم استطع ان اصل الى نهاية فى النقاش معه.

فهذه نظرية كاذبة ولا إنسانية وفاسدة.
وسئمت من الحديث العقيم معه، فتركته.

ومن الأشياء المثيرة التي سمعتها.. حادث الجزار ميشكا. والذي لم استطع تحديد جنسيته أو هويته قط.

كان يتحدث بطلاقة كلا من الرومانية والمجرية والاوكرانية والعبرية. كان الرجل الوحيد الذي يخبيء في دواخله شيئاً شيطانياً. حدثنا ميشكا - وقد نسيت (اسم عائلته - انه كان عضواً في الحزب الشيوعي لمقاطعة كارياتسك الروسية، التي كانت في السابق جزءاً من تشيكوسلوفاكيا.

وفي التنظيم اندس أحد الجواسيس.

وعلم البوليس التشيكي بكل مايجرى في التنظيم. ووقع الشك على فتاة يهودية كانت هاربة من بولندا.. حيث كان البوليس البولندي يطاردها لنشاطها الشيوعي.

كانت الفتاة قد انضمت الى صفوف الحزب قبل شهور قليلة.. ولذلك فقد اشارت اليها اصابع الاتهام الظالمة وتقرر تصفيته جسدياً. طلب سكرتير الحزب ذلك.. ووقع الاختيار على ميشكا. ليقوم بالتنفيذ. وذات يوم دعاها ميشكا للذهاب معه الى النهر لاداء بعض المهام الحزبية. ولم يساورها الشك فذهبت معه. واقتاد ميشكا الفتاة الى مكان منعزل وقام بخنقها والقائها في النهر.

ولم تمت الفتاة.

كانت في حالة اغماء فقط.

وتركها وانصرف ظاناً بأنه ادى عمله كما ينبغي.

وفي ماء النهر البارد عادت الفتاة الى وعيها.

واستطاعت برد الفعل ان تسبح الى الشاطئ الآخر.

وشاهدها ميشكا.

فاسرع نحوها عابراً الكوبرى الحديدي وقبض عليها - ليقتلها.

ووقفت البائسة امامه ضارعة تستحلفه ان لا يقتلها.

ووعدها ميشكا ان لا يفعل ان اعترفت بانها جاسوسة تعمل لصالح البوليس.

وحاولت الفتاة اقناعه بكل السبل انها بريئة تماماً.. وانها لا يمكن ان تلصق بنفسها

تهمة بشعة ومشينة كهذه - ولن تعترف قط.

وفكر ميشكا بعض الوقت.

ثم استل سكينه واغدها في قلبها.

ورماها من جديد في النهر. وبعض مضى فترة من الوقت عثر البوليس على جثة الفتاة..

ولم يستطع التعرف عليها.. او على قاتلها.

وبعد ذلك ثبت ان الفتاة بريئة تماماً.. من كل التهم التي نسبت اليها.. وان سكرتير

الحزب هو الجاسوس.

ثم نجح البوليس في كشف هوية القاتل. وهرب ميشكا الى الاتحاد السوفيتي.. حيث

عاش بعض الوقت في امان.

وصلت تفاصيل القصة الى موسكو.

فقبض على ميشكا.

ودافع عن نفسه بأنه إنما كان ينفذ أوامر الحزب.. وان القتل كان واجبا حزبيا في المقام الاول.

*** **

وعلمنا يوما أن مجموعة من سجون الاقاليم جىء بها لتواجه بعض السجناء هنا.. وكان في تلك المجموعة المهندس الشاب ميشا ليفيكنوف. وعندما علم المهندس انه في زنزانة واحدة مع المسجونين السياسيين فزع بشدة.. كيف يحدث ذلك؟.. كيف يوضع في مثل تلك الزنزانة؟..

انه لم يشغل بالسياسة طيلة حياته.

الشيء الوحيد الذى اهمه طيلة حياته كان عمله فقط.

له زوجة شابة - وابن صغير - حدثنا عنهما بالساعات الطوال. ابنه ذى العامين. زوجته التى لاتعلم بحبسه فقد كان في مأمورية، وكان من المفروض أن يعود منها بعد خمسة أيام. وكان قد كتب لها انه عائد بالسبت وعليها أن تنتظره بالمحطة.

وهو الآن هنا. فماذا يفعل.

لن تجده زوجته عائدا يوم السبت فلماذا ستظن به..؟ انها تحبه حبا عنيفا.

وكان يامل أن تتضح الامور تماما.. وان يعود الى بيته بالسبت ومرت الايام.

لا احد يدعوه لاستجواب ما.. ولا احد يساله شيئا وجاء يوم السبت الذى كان عليه ان يعود فيه.

وهو لايعلم بعد حتى السبب الذى اعتقل من اجله.

وسأله ان كان قد تحدث مع احد ما.. او سب شيئا ما.

وفكر طويلا.. ولم يستطع أن يستحضر شيئا.

وفي يوم الاحد اقترب منى قائلا.

- تعرف. لم انم طوال الليل.. فكرت طويلا.. واستحضرت شيئا..

وفي مرة من المرات تفوهت بسبب ما.. لانهم ارسلوا لى في موقع العمل مادة عازلة رديئة.. ربما اعتقلوني من اجل ذلك!!!

هل يمثل هذه البسطة يعتقل الانسان؟..

ونظر الى ينتظر ردى. ولم اجب بشيء.

ولما رايت حيرته هزئت كتفى قائلا:

- من أين لى ان اعرف لما اعتقل كل هؤلاء؟

واخيرا دعوه للاستجواب.

وعاد الى الزنزانة يعد ساعتين.

كان شاحب الوجه ولم ينطق بكلمة واحدة.

هام على وجهه يدور في جوانب الزنزانة الضيقة المزدحمة.

ثم جلس في ركن بعيد.. وكان يبكي

ودنوت منه أحاول أن أخفف عنه.
وبدا يبكي في عصبية شديدة وبجرقة اشد.
وسمعنا أحد الحراس يصيح من الخارج
- يا امرأة.. لماذا تبكي.. لا تضعف.
وعندما هذا روعه حكي لي كيف انتظره المحقق قائلا:
- أنت مخادع.. لعين.. ثعبان تروسكي.. مرتشي لاتساوي شيئا.. يا ابن الكلب.. يا عبيط.
وبعد ذلك الوابل المخنم من الشنائم المحترمة. قال له المحقق:
- غير رايك واعترف بكل شيء.. اذا انكرت سنحبس زوجتك. وابنك سيكون من المشردين.
واخذ يتأوه ويئن.. كان ألمه بلا حدود.. لم يأكل.. وظل ينتحب الليل بطوله وفي خلال
اربعة عشر يوما ظل يذوي ويذوي.. حتى أصبح كالسمكة الجافة.. كان أيضا يذوب
ويتدهور كالشمعة الحزينة في الليل العاصف كان دائم التفكير في الامر.. ولكنه لم يستطع
أن يفهم شيئا. وفي إحدى الليالي جاء ميعاد النوم ورقدنا جميعا.. ثم فجأة فتحت كوة
الباب.. ونادى الحارس بهمس.
- ليفيكيونوف.
وقفز ميثا من مكانه صاحب الوجه.. مرتعشا.. صائحا..
- ماذا..؟ ماذا..؟ ماذا يجري هنا..؟
واجاب الحارس.
- استعد للاستجواب
وارتدى ميثا ثيابه.. مشى نحو الباب.. وتبعه الجندي.
وعاد في الصباح الباكر.
وعلى الطاولة كان في انتظاره الخبز والماء الساخن.
كيباتوكا.
ولم يأكل ميثا شيئا.
شرب فقط فنجالين من الماء الساخن.
ولم يجرؤ احد منا على سؤاله.
وبعد مضي فترة من الوقت. بدأ يتحدث من تلقاء نفسه.. عن الاشياء التي عاشها اثناء
الاستجواب.
استقبله المحققون بهذه العبارات..
- حدثنا الان عن كل أعمال الثورة المضادة.
- وعن اعمال تروسكي.
- وقد تحدثت عن حياتي.. كيف عشت.. وماذا فعلت في اوقات فراغي.. استمع الى المحقق.
ولم يقاطعني.. وعندما انتهيت من حديثي سألتني..
- هل كنت عضوا في الشبيبة الشيوعية..؟
- عندما كنت شابا.. كنت عضوا في الشبيبة الشيوعية.
- اذا كان الامر كذلك أخبرنا من هم أعضاء جمعية تروسكي؟

واندهشت جدا.. واجبت قائلاً:

— انها لم تكن جمعية تروسكى حينذاك. وقد مضى على تاريخ انضمامى لها عشر سنوات.
ولا استطيع ان اذكر اسماً واحداً من اسماء اعضاء الشبيبة.

وصاح المحقق غاضباً.

— انت من كلاب تروسكى.. عليك الان ان تختار.. اما ان تخبرنى عن اسماء تلك العصابة..
والا صنعت منك عجيبة.

واقسمت بكل شئ فى العالم اننى لم اكن من انصار تروسكى..

واننى لا استطيع ان اذكر اسماً واحداً.

واخذ المحقق قصاصة من الورقة وبدأ يقرأ عدداً من الاسماء. وعندها تذكرت الناس فى الجمعية.

— أرايت يا ابن الكلب؟ تذكرت الاسماء.. والان تستطيع ايضا ان تتذكر كيف اثنوا عليك..
يانصير تروسكى..؟ ولم استطع ان اذكر.

ما تذكرت شيئاً من ذلك قط.

وكانت هناك مفاجأة.

لعبة يعدونها لى.. بدقة ولؤم.. وتلفيق.

من الغرقة المجاورة استدعى المحقق أربعة اشخاص.

واجهونى قائلين بانى قد صوت على قرار بالدفاع عن تروسكى.

واخبرته بان ذلك لم يحدث.. ومن الجائز ان نكون قد صوتنا جميعاً على قرار ما.. كما يجرى
عادة فى كل تنظيم.

ولكنه بالتأكيد لا علاقة له ولا صلة بجماعة تروسكى.

وأعد المحقق المحضر. ذكر فيه باننى اقررت بعضويتى فى جماعة تروسكى. وانى قد وقعت
بامضائى على ذلك.

وتنفس ميشاً متنهداً فى ألم تشديد. وصمت.

وبعد ستة اسابيع اقتادوه من الرنزاة.

وعندما ذهبنا الى الحمام ذات يوم.. قرأنا العبارة التالية:

— هيشا ليفيكنوف - عشرة سنوات اشغال شاقة.

وفى يوم من الايام استدعونى للاستجواب.

وهناك وجدت فروشفسكى.. كان ينتظرنى بايتسامه تتراقص على شفثيه سالنى لماذا
رفضت المثول امام لجنة التحقيق؟ وحاول اقناعى بان أحداً لم يكن يريد مسى بسوء.

وسألته لماذا اذن بدأ فى خلع ثيابه؟

أجابنى.. هما شابان طيبان خلعا ثيابك للكشف عليك فقط. وعندما قال ذلك كان ينظر فى
اوراقه.. تحاشى ان تلتقى اعيننا. ثم نهض واقفاً وتمشى فى الحجرة وبدأ يقول:-

— من العبط ان تظل على انكارك.. أن رفضك وعنادك وعدم التوقيع على المحضر ستكون له
نهاية سيئة للغاية..

— يمكنكم تقطيعى أرباً.. أرباً.. ولكننى لن اوقع محضراً كاذباً.. قط.

— هذا لن يساعدك - هيا اعترف.

— لن افعل.
— هل تريد ان تمضى الى حال سبيلك؟
— أجل.
— لايمكنك الخروج من السجن. ولكن اذا وقعت.. فان هذا - سيسهل عليك.. واذا لم توقع.. تنتظرك حياة قاسية في السجن.
وكان قروشفسكى في ذلك محقاً.
عدم رغبتى في التوقيع على المحضر الكاذب كلفنى كثيراً.. في السجن ومعسكرات الاعتقال.
وبعد أيام اعد على الامر مرات عديدة.
— أنصحك أن تغير رأيك.. أنت لاتعلم ماذا ينتظرك. كنت أعلم أن البوليس السياسى لايراعى القيم والاعتبارات.. وانه يلجأ الى استخدام اقصى وأبشع الاساليب لارغام الضحية على الاعتراف والتوقيع.

المهم ان توقع.. فقط.
واذكر ان فوروبوف المهندس الذى كان في موسكو حدثنى كيف أرغموه على التوقيع في المحضر.
وكان فوروبوف عضواً في الحزب.
وقد سافر الى انجلترا في مهمة رسمية كعضو لجنة مشتريات. انيظبها شراء بعض ماكينات المصانع..
وعندما عاد القى عليه القبض بتهمة التخريب.
طلبوا منه الاعتراف بأنه كان ينوى شراء آلات لاتناسب المصنع.. وبذلك أراد تعويق بناء الاشتراكية.
وحسب رأيهم فانه فعل ذلك لحساب البرجوازية الانجليزية التى تريد باى ثمن أن تعطل الصناعة في الاتحاد السوفيتى. ورفض فوروبوف بعنف أن يعترف او يوقع على ذلك السخف.
وظل على رفضه وأصراره.
واقناده ذات ليلة الى مكان الاستجواب.
وعاد بعد ساعتين.
عاد محطم الجسد والمعنويات.
لم يستطع انسان ما التعرف عليه.
وفي مثل حالته تلك كان من المستحيل أن نعرف ماذا حدث له.
اجابنا بقوله:
— اعترفت بكل شىء.. ووقعت على اعترافاتى.
وفي اليوم التالى تحدث
حكى لنا كيف اعترف.. قائلاً:-
— قررت أن اعترف.. واجبت المحقق باننى لم ارتكب جريمة!.. لذا ليس لدى ما اعترف به غير ذلك.

ونصحنى المحقق أن أكون معقولاً وأن أقر بجريمتى، لأن قضيتى يجب أن تحسم هذا المساء. وليس هناك مجال للتأجيل.
ومرة أخرى رفضت أن أعترف بما لم أفعل.. وأن أوقع على أكاذيب. واخذ المحقق سماعة التلفون.

وأمر شخصاً ما أن يحضر شهود اتهامى.
واندهشت بالطبع.. ولم أستطع أن أتصور ذلك قط.
بعد دقائق سمعت صوت شخص ما.. يبكى.
هذا صوت زوجتى بدون شك.
وفتح باب الغرفة ودخلت زوجتى وابنتى ذات التسع سنوات وابنى فى الثانية عشر من عمره.

وعندما وقعت إبصارهم على انخرطوا فى بكاء مرير يمزق القلب. واحتضنوني واخذوا يقبلوننى ويصرخون..
— بابا.. بابا.. لا تدفعنا الى الشقاء. اذا وقعت فسوف تحضر الى المنزل، واذا رفضت فسوق يسوقوننا الى السجون.
وأحسست بسكين تغوص فى احشائى.
شرحت لهم أنى برىء.. وليس هناك ما أوقع عليه.

وهنا تدخل المحقق قائلاً:-

— ألا تخجل من نفسك..؟

— لماذا..؟

— زوجتك.. أطفالك..

— مالهم..؟

— يطلبون منك أن توقع.. وانت لاتزال عنيداً؟

هلا رحمتهم.. فوقعت..؟ بعد ثلاثة أيام يمكنك الذهاب لمنزلك.. وكان أطفالى يبكون..

وكانت زوجتى تبكى..

ذلك فوق احتمالى...

وانهزت.. انهزت مقاومتى وعنادى امام دموع اسرتى ولوعتها.. فاخذت القلم ووقعت.
وحكم على فوروبويوف بعشر سنوات أعمال شاقة. وعلى زوجته بالنفى.

سجن لفورتوف الحربى

مرت شهور عديدة بدون استجواب.. وفى أغسطس من عام ١٩٣٧م سمعت النداء المعتاد.
- تعال، ياشتاينز.

وعندما أخرجونى للفناء وقعت عينائى على عربة البوليس السياسى المعروفة والمكتوب عليها باللغات الاربعة (خبر). واعتقدت انهم سيأخذونى للاستجواب فى ليبيانكا.. ولكن خاب ظنى توقفت العربة وخرجت منها، لاحظت انهم اقتادونى لسجن آخر.. وجدت نفسى فى فناء كبير تحوطه مباني كثيرة حولها قضبان حديدية. أوصلنى الى باب فى المبنى تسلمنى عنده ضابط البوليس السياسى.. وسألنى فوراً عن اسمى. وتاريخ ميلادى وبعدها امر جندياً بتفتيش.
خلعوا ملابسى جميعها.. وفتشوا ثيابى جيداً.. وعندما انتهى التفتيش ارتديت ثيابى.. ووضعوا القيود فى يدي ورجلى.

وامرنى الجندى بالتحرك الى الامام.
وبصعوبة فائقة جرجرت رجلى.. واتكات على الحاجز حتى أستطيع صعود الدرج.
ثم فتح الجندى باباً من الحديد الثقيل، ودفع بى الى الداخل. فوجدت نفسى فى مربع ضيق من الحجر.. زينة طولها متر وعرضها متر.

وفى أحد الاركان شيدت كنبه على الارض.
جلست افكر.. اين انا الآن..
ومرت الساعات دون أن أرى أحداً.. وبدأت احس بالجوع وأشعر به يفرى احشائى.. لقد بقيت من الصباح الى المساء دون طعام.. وهذا هو الليل يقبل.. اذن لابد من عمل شىء.
ذهبت نحو الباب وطرقته بعنف.. وسألنى الحارس ماذا أريد؟
وأخبرته باننى لم احصل على العشاء.. فإذا به يقول لى..
— ماذا بك؟ اى عشاء تريد..؟ الساعة الآن الواحدة صباحاً.
وجلست مبهوتاً.. ماذا يعنى كل ذلك..؟ وماذا يضمّر لى هؤلاء القوم؟ اى شىء تنطوى عليه احابيلهم..؟ وتعبت من التفكير فاستلقيت على الخرصانة العارية.. وبعد وقت طويل لا ادرى كم هو استيقظت ولم أجد فى نفسى القدرة على الوقوف.. وفتح الباب.. وامرنى الحارس بالخروج.. وجمعت قواى الخائرة لانهض ولكنى لم أستطع الحراك.
وأخيراً، أمسك بى جنديان من أبطى ورفعونى الى فناء آخر، فى مبنى آخر.

اقتادونى الى قاعة شديدة الاضاءة فى الطابق الثانى.. وانتظرت... كانت على اليمين والشمال ابواب مبطنة ومنجدة.. وعلى الحائط صورة الرفاق.. ستالين، مولوتوف، بيريا وكاكافويفج. وعلى الحائط الاخر ساعة، اشار عقرباها الى الثانية وعشر دقائق.
وأخيراً اقتادونى الى غرفة.. رايت رجلاً فى ثياب مدنية يجلس بجوار الآلة الكاتبة.. وقد وقف

الى جانبه اثنان من رجال البوليس السياسى وهما فى زيهما الرسمى.
وعلى ناحية اليمين وبالقرب من الحائط جلس رجل خيل الى انى اعرفه. وجهه ممتلئ
ويبدو انه لم يقم بحلاقة ذقنه منذ امد بعيد. قال الجالس قرب الالة الكاتبة.
— ستكون هناك مواجهة.

ولم اجر جواباً فقد اصابتنى الدهشة. وواصل الرجل..

— احذرك من توجيه اى سؤال للشهود. مفهوم؟

— نعم.

— هل تعرف الرجل الذى يجلس هنا؟

— يخيل الى ذلك.

— من هو؟

— لا استطيع ان اتذكر.

— فكر.

وفكرت بعنف.. عصرت ذاكرتى فما برقت عبر ثقبها اشعة التذكر.. وعندها سال المحقق
الشاهد.

— انت .. هل تعرف هذا الرجل؟

— نعم.

— من هو؟

— هذا شتاينر..

— من اين تعرف شتاينر؟

— عرفنى ايميك به..

— من هو ايميك؟

— ايميك عميل رئيسى.. كبير للجستابو فى روسيا.

— وماذا تعرف عن شتاينر؟

— حدثنى ايميك بان شتاينر ايضا عميل للجستابو.

— والان.. ماذا تقول عن ذلك يا شتاينر.

ووجمت.. اصابنى شعور هائل بالغضب فصرخت فيه..

— ماذا اقول؟ ان هذا الرجل مجنون.. او محرض.

وعندها قفز على المحقق، وانهال على وجهى ضرباً بكل ما يملك من قوة.. وكان فمه لا يتوقف

عن السباب المقذع البذى. وسال الدم من انفى بغزارة.. واضلمت الدنيا امام عينى..

وعندما رجعت الى الوعى. وقف بجانبى جندى وفى يده بشكير وكوب ماء. فصب الماء على

البشكير ومسح به وجهى من الدم.

واحضر احدثهم كوباً من الشاى صبوه فى فمى بالقوة. وامر المحقق بفك القيود عن يدى.

ولاحظت بعدها ان الشاهد العجيب قد اختفى من الحجرة. وعندها امر المحقق ان

يحضروه مرة اخرى.

قال المحقق:

— شيتز.. انت هل تثبت الشهادة التى قلتها قبل قليل؟

وعندما رنت كلمة شيتز فى اذنى.. تذكرت فوراً. اين رايت ذلك الرجل كان هذا فى مقهى

(ميتروبول).. كنت اجلس وهو الى جانبي.. وعندما مر ايميك صدفة امام المنضدة التى جلسنا اليها، ناداه شيتز وعرفني به. وهنا قلت للمحقق..

— ان معرفتى بشيتز كانت سطحية جداً.. معرفة مقاهى.. ولقد تغير شكله فى السجن كثيراً.. حتى انى لم استطع التعرف عليه.

ولم يستطع شيتز ان يرد على سؤال المحقق الذى وجهه له، ففقر المحقق من مكانه، واخذ يصيح فى وجهه..

— هل تريد ان ابعث بك الى الحبس الانفرادى - كارس - مرة اخرى؟.

— اننى اذكر اقوالى وسأوقع عليها.

— وذهب نحو المنضدة فوق على اقواله.

وحاول المحقق ان يجبرنى على الاعتراف.. وسبنى بقوله..

— ايها البذىء.

— ايها البذىء.

ولكنى كنت متماسكاً.. فذهب الضابط الذى كان يقف الى جانبنا صوب الباب، ونادى على

أحد الجنود مشيراً بيده نحوى..

— خذ هذه الهيمة الى الشيطان.

واخذونى مرة اخرى للمربع الحجرى الذى يشبه القبر. واوشكت الوحدة ان تقتلنى .

وبعد ساعة اخرجونى من الحبس الانفرادى - كارس - ورمونى فى زنزانة اخرى.

كانت زنزانة ذات سرير حديدى يرفع فى النهار على الحائط وينزل بالليل.

وفى الصباح اعطونى قطعة من الخبز.. وماء دافئاً ومن ثم فقد دبت الحياة فى جسدى

واستطعت ان اتمشى فى الزنزانة .. ولكنى سرعان ما احسست بالتعب. وجلست متكئاً

براسى على الطولة.. ونمت وصاح الحارس بأعلى صوته.. من خلال فتحة الباب..

— لا تتم..

وفى اليوم الرابع دفعوا برجل الى زنزانتى.

ولكن - الان - لا استطيع ان اذكر اسمه.. فقط اعرف انه كان سكرتيراً لأكاديمية (قوبكن)..

وهو من الذين احضروهم الى هنا من سجن بوتسرك.. وكانت التهمة له انه من اعوان

(تروسكى) وسالته..

— ما نوع السجن الذى نحن فيه؟

— هذا سجن لغوروتوف الحربى.

وفى المساء قادوه للاستجواب.. ولم يعد بعدها للزنزانة ابداً. وقضيت اسبوعين فى

سجن لغوروتوف.

كانا اسبوعين من الجحيم.

فى كل ليلة كنا نسمع صباحاً نقشعر له الابدان.. يتخلله نحيب.. وعويل.. وضراعات

رهيبية.. واصوات استغاثات تمرق نياط القلوب.

فى هذا السجن كان يوجد نظام لم اره فى سجن بعده ابداً.. كانت غرف المسجونين فى

جانب من الممر، تقابلها على الجانب الآخر غرف الحرس.. فى نفس الممر.

ان الانسان هنا لا يستطيع ان يهدأ لحظة واحدة.. فان لم يكن تحت طائلة العذاب

القاسى، فهو يسمع عذابات الآخرين.. وإناتهم.. كانوا يسبون الضحايا ويضربونهم ضرباً مبرحاً موجعاً، يجعل اصوات آهاتهم عذاباً تعجز الكلمات عن وصفه.
وكانوا ايضا يستجوبون النساء..

وكان ذلك قاسياً على كل من يسمع أصواتهن الواهية الباكية... وهى تضرع الى جلاديها.. وتنتشد رحمة مستحيلة.

وكانت كل جرائمهن، هى أنهن زوجات السجناء.. لم يتركوا شيئاً يخطر بالبال لتعذيبهن.. جربوا كل شيء. الضرب... أبشع الالفاظ... السباب.. أبشع الافعال أيضاً. كانوا يجبروهن على أدانة أزواجهن. تصورا.. زوجات عشن مع أزواجهن لأكثر من عشرين عاماً.. يتهمن بالعداء للشعب.. فقط للرابطة المقدسة التى كانت تربطهن بازواج قبض عليهم البوليس السياسى بتهمة العداء للشعب..

وحكم عليهن بالسجن لمد تتراوح بين العشرة والخمسة عشر عاماً فى معسكرات سيبيريا.

وكان الامر ينتهى بالاطفال الى ملاجئ البوليس السياسى.
لايستطيع الاقرباء أن يتولوا حضانة أولئك الاطفال أو رعايتهم.. فخطر الاعتقال يهدد كل من يمت اليهم بصلة.. والتهمة حاضرة - العداء للشعب.

ومرة أخرى اقتادونى 'لنفس المحقق.. الذى وجه لى ذات الاسئلة:
- هل قررت التوقيع على أوراق التحقيق؟

- كلا.. أنا برىء.

وامتعض المحقق من كلامى.. وأخبرنى بأنه يمنحنى مدة ربع ساعة.. اذا لم أوقع على الاوراق خلالها سيأمر باطلاق الرصاص على.

وساقونى الى زنزانة تقع فى مواجهة غرفة التحقيق. ومضت الدقائق بطيئة. وفى نهايتها جرونى إليه مرة أخرى. وصاح بى
- ماذا؟

- نعم..

- هل قررت أخيراً أن توقع على الاوراق.. أم أنك تريد الموت؟
وفكرت برهة.. ثم أجبته..

- خير لى أن أموت.. ولا أوقع على أكاذيب.

وأخرج المحقق ساعة نظر فيها وقال:

- أعطيك خمس دقائق أخرى...

وسكت.

وضغط المحقق على زر بجانبه.. ودخل جندى كان يقف بالباب.

- قل للعقيد أن يحضر.

ودخل ضابط برتبة عقيد..

- هو ذا هنا.. خذه وقم بتصفيته.

واتجه نحوى العقيد.. نزع ملابسى.. تركنى عارياً.. رمى بملابسى فى ركن الغرفة.. ورفع سماعة التلفون.

— فليحضر رجلان في حالة استعداد كامل، للطابق الثالث غرفة ٣١٤. وحضر جنديان..
يحملان سنجة البندقية.

وبدأت ارتجف.. وانساب العرق البارد من اعلى جبهتي. ووضعني الجنديان في منتصف
الغرفة.

وصاح أحدهما..

— الى الامام.

ولم استطع التحرك.. فدفعوني دفعا خلال الممر الى البدروم. وفي الممر قابلت — ضابطاً
آخر..

وسأل الجندي قائلاً:

— الى اين تقوده..؟

— للرمي بالرصاص.

وامره الضابط قائلاً:

— أرجعوه.. وسأحاول أنا معه مرة أخرى.

وأرجعوني للزنزاة التي وجدت بها ملابس.

ورقدت على السرير

وتدثرت وبكنى.. لم احس بالدفع ابداً.. كنت ارتعش من البرد.. وقشعريرة مثلوجة تسرى
من اوصالي الى بقية الجسد المنهك المغلول. ارتجفت لمدة طويلة.. طويلة.. وفي نهاية الامر
نمت.

وبعد ثلاثة ايام استدعاني مدير السجن.. وسلمني بطاقة مكتوبة بالالة الكاتبة.. طالباً
منى قراءتها والتوقيع عليها.

دعوى من مصادر البوليس السياسى الروسى الموثوق بها..

علم بان المهاجر السياسى كارلو شتاينر عميل للجستابو، وكان يعمل بالتجسس.. وبعد
لاعمال تخريبية.. ولذلك الغرض كان المتهم كارلو شتاينر على صلة باجانب كثيرين.. وكذلك
مع بعض المواطنين السوفيت.

كارلو شتاينر كان عضواً في الجمعية التي قتلت س. م. كيروف وبالرغم من اصرار
المتهم على عدم الاعتراف بجريمته، ثبت باعتراف الشهود جرمه.

وبناء على ما جاء فان المتهم مدان تحت المادة ٥٨ البند ٦، ٨، ٩ وذلك بفناء على
القانون الصادر في اول ديسمبر ١٩٣٥ م.

المتهم يسلم للمحكمة العسكرية العليا السوفيتية.

امضاء — المدعى العام.. فشنسكى.

أمام المحكمة العسكرية

طربت من ذهني وأبعدت كل أحلام اليقظة في أن يطلق سراحى فأنعم بالحرية مرة أخرى.

استلمت ورقة الاتهام ووضح أمامى كل شيء..

كل من اعتقل كان مداناً أدانة مسبقة.. وكان مذنباً بالضرورة. هذا هو المبدأ الاساسى للبوليس السياسى.. المحاكمات صورية. تضليل.. ولاشئ غير ذلك.

وفي ليلة ٦ سبتمبر من عام ١٩٣٧م، القوا بى مرة أخرى في المقبرة الحجرية.. بقيت فيها لمدة يومين.

كنت أحصل على الطعام مرتين في اليوم.. أربعمائة جرام من الخبز ووعاء من الماء الساخن. وفي الحادية عشر ليلاً جاءونى.

قادونى الى صالة مساحتها حوالى الثلاثين متراً مربعاً.. المنضدة كانت مغطاة بالجوخ الاخضر.

ولم يكن في الغرفة - بعد - غيرى وغير الجندى المكلف بالحراسة.

وأمرنى بالجلوس.. فجلست.

ثم دخل ضابط وهو يصيح..

- قف.. تدخل المحكمة.

ودخل الغرفة عدد من الضباط.. جلسوا حول المنضدة الخضراء. وعلى منضدة صغيرة جلس شاب في زيهِ الرسمي.. وكان ذلك هو سكرتير المحكمة.

وقال الضابط الذى كان يجلس في الوسط:

- تبدأ - الآن - المرافعة والمداولة للمحكمة العليا الروسية.. لمحاكمة المتهم -كارلو شتاينر-

- في التهمة الموجهة له.. وفي الجرم الذى ارتكبه.. وذلك طبقاً للقانون الجنائى تحت المادة ٥٨ الفقرات ٦، ٨، ٩.

- المتهم.. قف.

فوقفت.

- هل أنت مذنب..؟

- لست مذنباً - أنا برىء تماماً.

- كيف حضرت الى روسيا..؟

ولم أكد أبداً في كلامى، حتى قاطعنى رئيس المحكمة.

- أختصر.

وحاولت مواصلة حديثى. ولكن رئيس المحكمة قاطعنى مرة أخرى.

- هل تريد أن نقول شيئاً في نهاية الجلسة..؟

وبدأت في الحديث مجدداً فقاطعنى قائلاً:

- كفى.. كفى.. فنحن نعلم كل ذلك.

وأدار رئيس المحكمة رأسه ناحية اليمين ثم ناحية الشمال، ثم همس للضابط الذى يجلس على يمينه وللآخر الذى يجلس على يساره.. ثم وقفوا بعدها.. وانصرفوا.. وأمرنى الجندى أن أجلس، فجلست.. ولم يمش كثير من الوقت، حتى عاد القضاة.. وانفجر صوت يقول:
...قف..

وقرأ رئيس المحكمة ورقة.. فهمت منها أن بها منطوق الحكم، وهو عشرة اعوام (اعمال شاقة)..
ولم تأخذ المحكمة أكثر من عشرين دقيقة..

لم يكن هناك مدع عام.. او ممثل للاتهام.. او آخر للدفاع..
وفى نفس الممر الذى كانت تقع فيه المحكمة فتح الجندى باباً لأحدى الزنانات، ودفع بى داخلها..

وجدت فيها زملائى، من ضحايا المحكمة العسكرية.. الذين حكم عليهم فى نفس اليوم؛ وب نفس الطريقة..

كان عددهم ثمانية عشر شخصاً.. لم تستغرق جميع محاكماتهم الأربع ساعات عدداً..

كان فيهم القروى.. والعامل.. والفنى.. وبعض قيادات الحزب المختلفة..

وكان من بينهم أيضاً مدير السبك..

وعندما دخلت للزنانة، لم يسألنى احد عن عدد السنين التى حكم بها على.. فقد كانوا يعلمون..

كلهم كانوا يعلمون..

وكذلك لم يسألنى احد عن سير المحاكمة.. وكيف جاءت حيثيات الحكم..

فقد كانوا يعلمون..

كل المحاكمات كانت صوراً مكررة لبعضها البعض..

الاحكام كانت معدة سلفاً.. ومقررة.. ومطبوعة أيضاً على الآلة الكاتبة..

فقط ترك مكان الاسم خالياً.. ليكتب عليه فيما بعد من عليه الدور..

ولم يطالب احد بأن يعطى الحكم مكتوباً.. فلم يكن لذلك أى معنى أو أهمية..

وكتب فى نهاية كل حكم.. لاحق له فى الاستئناف..

وبالطبع فلم يفكر احد فى ذلك.. فلمن نستأنف؟..

وبالطبع

أما العفو فلا مكان له..

هكذا كان مشروع قوانين ستالين، ومعاونيه المقربين..

فشينسكى، سميرنوف، أرليخ، ماتوليفيج.. وأمثالهم..

الرحلة الى سيبيريا... على مراحل...

في مساء ٧ سبتمبر من عام ١٩٣٧م وفي حوالى الساعة الثامنة أخرجونا الى فناء السجن.. كانت في انتظارنا سيارة السجن.. وكانت ممثلة الى نصفها تقريباً.. ففى نفس اليوم تمت محاكمة أربعة عشر آخرين.. وبذلك صار المجموع الكلى اثنان وثلاثون سجيناً.. اقتادونا الى محطة الانتظار في سجن بوتيريك.. وانزلونا في منتصف الساحة التى تقع بها الكنيسة القديمة القيصرية.

كانت عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق.. تم تسويرها وتحويلها الى سجن... به جميع انواع الرزانات الكبير والمتوسط والصغير.. فى كل رزانة اسرة من طابقين او ثلاثة ملصوقة على الحوائط.. وكانت كل الرزانات ممثلة مكتظة.. ببعضها ثلاثون سجيناً.. وبالبعض الآخر اربعون.

ثم شيئاً فشيئاً ملاعواها بالسجناء.. صار العدد عشرة اضعاف ما كان فيها.. وهنا ساءت الاحوال وتدهورت جداً.. بدلاً من المرحاض وضعوا صندوقاً كبيراً لقضاء الحاجة.. وفى الصباح كان نصيب كل ثمانية عشرة رجلاً جرلاً من الماء للمنظافة.. رزانتنا لم تكن بها كنبة خشبية.. كانت بها منضدة كبيرة.. وكنت فى قمة السعادة والحظ لان جزءا من المنضدة احتوانى.. فلم اضطر للنوم على الارض الصلبة العارية فى الرزانة.. الان سرت فى قلوبنا الراحة.. فبعد النطق بالحكم لا يكون هناك توتر فى الاعصاب او انزعاج ما...

الان لن يقتاد أحد للتحقيق.. بعد ذلك.. فقد انتهت الامر.. بجوارى جلس فاسيلى ميهالوفج جيراكوف المهندس المسئول عن مصنع موسكو للالات الضاغطة.. كان طويل القامة، قوى البنية، اشقر الشعر، اخضر العينين.. من مواليد مدينة كوتلاس..

كان روسيا اصيلاً لا يشبه اهل الشمال لم يحدث أبداً أن جلس بلا عمل.. كان دائماً يعمل.. بدا فى ترقيع ملابسنا.. حدث كلا منا بتاريخ حياته.. فحدثناه بتاريخ حياتنا.. الوحيد الذى كان منظوياً على نفسه هو يفيم مروزوف مدير السرك.. كان يتنهد بحرقة ويبكى باستمرار..

وفى يوم من الايام تحدثت.. حكيت لهم كيف جئت الى موسكو والاعمال التى قمت بها.. وكيف عشت الايام الاولى من فترة الحبس..

— جئت الى موسكو فى ١٤ سبتمبر عام ١٩٣٢م من برلين عن طريق لتفى.. كان المطر حينها ينهمر بغزارة شديدة.. واسرعت الى العربية التى كانت فى انتظارى.. كانت سعيد جداً بأن تطأ قدمى اى المدينة التى عاشت طويلاً فى خيالى..

فى صبيحة اليوم التالى قدمت نفسى بناء على تعليمات ممثل اللجنة التنفيذية للمكتمترن فى برلين، الى رئيس قسم العلاقات الدولية.. وكان لقاىى به قصيراً.. اذكر أن اسمه هو ابراموف.. قام باستدعاء شخص يدعى جرنوموريدك يعمل رئيساً للحسابات، وأمره ان يجد لي منزلاً، وأن يؤمن لى الطعام كذلك.. واعطونى خمسمائة روبل.. وقال ابراموف:

— استرح لعدة أيام ثم اتصل بى، بعد ذلك.

وقد قضيت شهر كاملاً أضرب فى شوارع موسكو واتمشى كما يحلو لى، وعندما استنفذت كل طاقات الفسحة والتسكع قررت أن أزور أبراموف مرة أخرى. فتوجهت صوب مباني اللجنة التنفيذية للمكمنترن، وقابلت ضابط الأمن السياسى.. الذى نظر الى ربيبة واتصل بشخص ما عن طريق الهاتف. بعد ربع ساعة من الانتظار اعطونى قصاصة صغيرة من الورق بها تصريح لمقابلته أبراموف.. وفى طريقى اليه أوقفونى ثلاث مرات للتأكد من التصريح. وفى الغرفة التى تقع امام مكتبه جلست أنتظر.

كانت هناك سكرتيرة تقوم بواجبها.. وهى التى طلبت منى الانتظار. جلست أنتظر لمدة ساعة كاملة، وبعدها سمح لى بالدخول.

كانت هيئته غير مهذمة، وقد غاص فى كرسي الجلوس الوثير ومن فوق منظره الزجاجى تفحصنى بعيون نافذة.

وسألنى أسئلة مهذبة وعادية.. وفى نهاية حديثه سألنى أن كنت أستطيع إدارة مطبعة كبيرة. ومؤسسة للنشر ذات اغراض تخصصية. وقد أجبته بأن لى خبرة طيبة فى هذا المجال.

فقال لى بصوت خفيض:

— اذن كل شيء على مايرام. قابل كولاروف وسوف اتحدث معه بشأن ذلك.

كان كولاروف هذا مديراً لقسم البولكان فى المكمنترن.. ومقره الرئيسى فى القصر السابق لرجل الصناعات الروسى (موروزوف) فى شارع فوردزنىكى رقم ١٤ — ويحمل هذا الشارع اليوم اسم كالينينا.

أخبرت عند وصولى البواب، وهو من جهاز الأمن السياسى.. بأسمى وحاجتى.. فنظر فى قائمة الاسماء أمامه.. وقال لى:

— دقيقة واحدة.

ولم أكد اجلس حتى حضر رئيس مكتب كولاروف واسمه ستيفان دموفيتش بيرقمان.. وقادنى للقاء كولاروف.

وجدته يجلس على مقعد وثير.. ومد يده لمصافحتى.. كان مهذباً رقيقاً.. متوسط الطول.. قوى البنية. له رأس أصلع كبير يقف على رقبة قصيرة.. وقد بدا لى شبيهاً بالتجار فى تلك اللحظة، لا أميناً للمسر.. بعيداً جداً عن أن يكون ذلك الرجل الذى نسف كاتدرائية صوفيا عام ١٩٢٢م.. ودفن تحتها مئات البشر من بينهم الوزراء والجنرالات وكبار رجال الدولة.

وضغط كولاروف على جرس أمامه.

فدخلت الغرفة فتاة.. قال لها:

— اطلبى ثلاثة اكواب من الشاي.

اثناء شرب الشاي سألنى كيف سافرت؟ وما شكل برلين الآن؟ وكيف يعيش الرفيق (دمتروف) فى برلين؟ وماهى وجهة نظرى فى الاحوال السياسية الالمانية؟.

أخبرته بأن أغلب الناس يتوقعون استيلاء هتلر على السلطة..

بعد اسابيع قليلة او ربما بعد شهر على الاكثر..

وقال كولاروف بعدم أكثرأث..

— ولكننا لن نسمح له بأن يستولى على الحكم.
ثم التفت الى برقمان قائلاً:

— اعمل كل الترتيبات الخاصة بالزميل شتاينر.
ودعته. وذهبت مع برقمان الى مكتبه.

وهناك تحدثنا زهاء الساعتين فيما يجب على أن أقوم به.
وقادني برقمان الى الاقسام كلها.. وقدمنى لرؤسائها واحداً..
واحداً..

قوريف - زيليسوف - بوكيف.. من بلغاريا. يلوكر وميرونسك من رومانيا.
فليبوفيتش - بوشوكوفيتش - رادى - فونيويتش (لخت) جوييج (سكنا) - وقرقور فويوفيتش -
من يوغسلافيا.

فرسكوف - ميهائيجولا - من بولندا.

وكل هذه الاسماء لم تكن هى اسماؤهم الحقيقية.
ذلك هو اذن قسم البولكان...

كان يشغل تقريباً مساحة كبيرة فى قصر موروزوف..
وقد شيدت له بناية حديثة ضخمة داخل القصر.

وفيهما تقع المطبعة.. ودار النشر.. (المعهد الزراعى الدولى) وبدأت العمل.. أخذت عملية
التسليم والتسليم للمطبعة ودار النشر للمعهد الزراعى الدولى - أخذت مدة اسبوعين.
وبعرفت على معظم العاملين.

وهم من جنسيات مختلفة عديدة.

ومن اليوم الاول صدمتنى حقيقة مؤلة.. كانت غرفة الطعام مقسمة الى جزئين مختلفين.
الصالة الكبرى خصصت للعمال والموظفين..

والصالة الصغيرة كانت معدة للقيادين، وقد فرشت مناضدها بالقوط الانيقة.. ويقوم
بالخدمة فيها عدد اكبر من الجرسونات كما أن جميع انواع الطعام الجيدة كانت تقدم
عليها.

وحاولت أن أقوم بنوع من المساواة بين الصالتين، فامرأت بأن يوحد الطعام فى المكانين وأن
يكون بنفس القيمة... وقد اصطدمت بثلاثى قسم البولكان. المكون من ممثل الادارة
وسكرتير الحزب ثم سكرتير النقابة.

واخبرونى بخطا وجهة نظرى. وذلك فى المساواة بين العاملين دون اعتبار لادراك التباين
فى الحقيقة الموضوعية، عن الذى عمل اكثر والذى عمل اقل منه.

وهكذا. كان على أن اسحب امرى للمساواة بين الصالتين.

ولم يمض وقت على ماحدث حتى واجهت الثلاثى مرة أخرى.

فقد أردت أن اعقد صفقة مع مؤسسة توزيع اللحم بموسكو لكي يقوموا بامدادنا كل سبت
بثلاثة اطنان من اللحم.. وتعهدت لهم بطبق ما يحتاجون اليه من ايصالات.. وكان تعهدا
شخصياً نويت أن انجزه مهما كلف الامر مستعينا على ذلك ببقايا الورق. وقد تحصل
العمال وآسرهم فى اسبوعين على اثنين أو ثلاثة كيلو جرامات من اللحم.

ولاحظ برقمان ذلك. فسال من أين اللحم. وكيف تحصلوا عليه. وكيف يقسم. وقد اخبره

كبير الطباخين بأمر تعاقدى مع مؤسسة توزيع اللحم.
وبالطبع أخطر كولاروف، في الحال.

ودعاني كولاروف ونصحني بأن أوقف توزيع اللحم للعمال.

وباعت كل محاولاتي بالفشل في اقناعه بوجهة نظري.

وكان من رايه انه لا توجد اى طبقة من العمال ذات امتيازات معينة.

وعلى الرغم من ذلك حاولت تحسين وضع العمال وعمل شيء من أجلهم.

كنا نملك في أطراف موسكو بنائية سكنية للعمال.. يسكنها العزاب من العمال وكذلك

اصحاب الاسر الصغيرة.. وكانت المباني بدائية للغاية ولم تجر لها عملية صيانة منذ عهد

بعيد.. وقد تساقط طلاء جدرانها.. وأنهارت أرضية المساكن... وبكل صعوبة وجهد اقنعت

كولاروف وبرقمان لكي يصلحوا المبنى من أساسه.

وكان سلفي السابق فرنز المجرى والذي عينه (بلاكون)، قد أهمل شأن المؤسسة.. وكلفني

ذلك ما كلفني من جهد خارق ومعاناة مضية حتى أعيد النظام الى قواعده ومجراه.

وما مضى زمن قصير حتى تحسن الاداء بشكل ملحوظ.. واستطعت ان اكسب احترام العمال
وثقتهم.

وفي عام ١٩٣٥م عندما بدأت التصفية داخل الحزب، كان علي ان القي كلمة امام لجنة

الحزب وعمال المطبعة، واذكر انني صعدت الى المنصة، ففوجئت بعاصفة من التصفيق..

وقد تحدث عني ممثل الحزب الشيوعى اليوغسلافى قرقور فيوفيج وممثل الحزب الشيوعى

النمساوى قروسمان، فوصفوني بالنورى الشجاع.

ثم قال رئيس لجنة التصفية جنرال الجيش الاحمر، انه سوف يمنح الفرصة لاي انسان

لديه شيء ضدى لكى يقوله الان.. ولم يعترض احد... او يقول شيئاً ضدى.

وبعدها بايام.. أعلن رئيس لجنة التصفية عن قبول عضويتي في الحزب. باجمعية

الاصوات..

وكان علي طالما حدث ذلك، ان اعمل في النشاط الاجتماعى.

وقادوني الى اجتماعات ومؤتمرات كثيرة.. حدثت فيها العمال والموظفين الروس. بصفتي

ممثل البوليتاريا الخارجية، عن صعوبة الحياة ومشقتها للعمال في الدول الرأسمالية.

وحدث ان شاركت بالحديث في مؤتمر للطلاب بمعهد اللغات الاجنبية.. وهناك تعرفت

على احدى الفتيات...

وهي زوجتى الان.

تزوجنا.. وحصلت على مسكن.. وعشت سعيداً معها.

دائرة معارفنا كانت في حدود المهاجرين الذين قدموا من مختلف البلاد الاوربية.. وعاشوا

في موسكو.

واقول لكم.. ان الكثيرين من المهاجرين قد اصابتهم خيبة أمل مريرة عندما وطئت اقدامهم

ارض الاتحاد السوفيتى. ولكنهم كانوا دائماً يجدون الاعذار والمبررات لذلك.

كانوا يعززون مايجدونه مخيباً لآمالهم للميراث القيصرى.

وسوء الحكم القيصرى وتعذيبه للشعب الروسى.

ومن النادر أن تسمع نقداً هادئاً هادفاً.

وفي أغسطس من عام ١٩٣٥م عدت من أجارتى التى قضيتها بالقفاز، ففاجانى امران خطيران... نائبى فى المؤسسة كولاى مركوفج لىبارسكى اعتقل، بتهمة الانتماء لجماعة تروسكى.

والحدث الآخر المزعج... هو اننى قد وجدت نائباً آخر لى ولم يكن يخطر على بالى أن يكون لى نائبان فى المؤسسة.

وذهبت الى كولاوف لكى يوضح لى جلبة الامر.. وكيف حدث ذلك؟ وفى غيابى وبدون علمى ورغبتى..

وقد هذا من روعى كولاوف وبرقمان.. قللأن ان عملى كثير جدا.. وان المؤسسة سوف تتوسع.

لذلك فلابد من نائب ثان.

لم يمض وقت طويل حتى علمت أن نائبى الثانى على صلة وثيقة بالبوليس السياسى. وان هذا الجهاز لايتهاون ابدا فى زرع عملائه داخل مؤسسة كبيرة وهامة مثل مؤسستنا.

وفى بادى الامر كان نائبى الثانى سميرنوف متواضعا بسيما.

وبعدها، بدا يحاول ادخال تعديلات على نظام العمل، لم اقبلها ووقفت ضدها بحزم شديد.. وهنا اضطر، امام ذلك، أن يظهر عنقه وعدوانيته.

واعتماداً على مركزه الامنى وعلى من يتوكأ عليهم بدا فى نقد تصرفاتى.

وفى اجتماع الحزب تحدث عن كيف تسود روح البورجوازية فى مؤسستنا ولم ارد عليه فقد كفانى مؤنة ذلك جمع العمال الذى حضر الاجتماع. وفى مناسبة الاحتفال باول مايو ١٩٣٦م منحت جائزة نقدية، تقديراً للنجاح العملى فى بناء الاشتراكية بالاتحاد السوفيتى. وكان سرورى وسرور زوجتى بذلك مضاعفاً، فنحن ننتظر مولوداً. وقد كانت حياتى فى موسكو متنوعة مليئة.

كنت اشترك فى اجتماعات الحزب المملة التى تسير على وتيرة واحدة، كنت افعل ذلك بانتظام. وكانت المحاضرات التى تقدم تحمل عناوين مختلفة متعددة.. ولكنها فى الواقع كانت ذات محتوى واحد.. مكرور.. كانت عبارة عن ثناء مجوج ومدح فارغ لسياسة ستالين الحكيمه. وكان من النادر أن تسمع شيئاً له علاقة بالفكر.. وحتى المناقشات كانت بلافهمه ومسطحة.. كل متحدث لابد أن يذكر اسم ستالين ولو مرة واحدة.. وكنت دائم التحدث فى اجتماعات الحزب بالمؤسسة. ولم اعلم فى البداية، أن الخطوط العريضة لكل خطاب، يجب أن تعرض على سكرتير الحزب اولاً.. والذى كان من حقه أن يضيف عليها كل الامور التى تشغل بال الحزب حينها.

وكانت صلاتى محدودة مع العاملين.

فمن الصعب أن تجد روسيا واحد جهود حقيقة أن يكون على صلة باى اجنبى.

لما الشيوعيون الاجانب والشيوعيون الروس فقد كانوا يلتقون فى اجتماعات الحزب فقط. للحزب زوجتى لم اتعرف عليهم ابداً.

ولم يجروء احد منهم على تسجيل زيارة لنا.

حتى أنهم عندما علموا برغبتنا فى الزواج نصحوها أن لاتتزوج من اجنبى.

وكان السبب الوحيد الذى ساقوه لها.. هو قولهم..

— او لا يكفي انه اجنبى..؟؟

ولم تتغير نظرتهم لى.. حتى عندما علموا منها اننى عضو فى الحزب الشيوعى.
و ذات يوم كنت اجلس فى حديقة بشارع تفرسك بولفار.. وكان يجلس بالقرب منا احد
الاشخاص.. وقد تحدثنا حديثا عادياً فى امور عادية، وعندما احس بان لهجتى اجنبية..
نهض واعتذر قائلاً:

— انت رجل لطيف للغاية، ولكن من الاحسن ان انصرف.

وجلس فى مقعد آخر بعيدا عني.

وفى المؤسسة التى اعمل بها كانت هناك فتاة اسمها (تانيا) وهى سكرتيرة الشبيبة
الشيوعية.. وقد خطر ببالها ان تدعوتنى الى منزلها، وتعرفنى على والديها وأختها المتزوجة.
ورحبوا بى عندما زرتهم ودعوتنى لزيارتهم مرة أخرى.

وبعد اسابيع كررت الزيارة.. وتعرفت عندهم على ضابط بحرى هو زوج اخت تانيا.. وكان
اللقاء فاتراً لدرجة عدم الارتياح.

وبسرعة تجرعت كوب الشاي.

واعترضت بانى على موعد.

وانصرفت.

وفى اليوم التالى حضرت تانيا الى مكتبى بحجة تذرعتها لسؤالى عن شىء يتعلق بالعمل،
ثم عرّجت على الموضوع، وقالت انها تأسف لذهابى سريعاً من منزلها، ولكنه كان تصرفاً
عاقلاً منى.. فزوج اختها لا يرغب فى حضور الاجانب للمنزل.

وكان على اذن ان اقصر علاقتى على الاجانب فقط

وكان يسعدنى كثيراً حضور بعض معارفى من الخارج.. ليحدثونى بما طرا على الحياة
هناك.

وقليلاً.. قليلاً.. كان يملكنى شعور بعدم الارتياح والضيق. وفى مرة من المرات جلست فى
مقهى متروبول.

كان ذلك فى عام ١٩٣٤م مع ممثل (او، ام، انس) فى النمسا الروسى الجنس بارال (وكان هناك
ايضا (موستورق) مدير اكبر دكان تجارى فى موسكو.

تحدثنا عن الظروف فى الاتحاد السوفيتى.

وقلت بالقتريب مايل:

— لقد حاول الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى فينا — ولدة خمسة عشر عاما، اقناعى بان
هناك بعض الاشياء التى ليست على مايرام.. فى الاتحاد السوفيتى.

وقد احتجت ليوم واحد فقط عند حضورى الى هنا لكى ادرك أنهم كانوا يقولون الحقيقة .

ولم يمض شهر واحد على ذلك الكلام حتى دعانى جيرنوموردك رئيس قسم الموظفين.. وقالى
لى:

— ماذا تعتقد؟ هل نسيت اين انت؟..

- كيف..؟
- أنت لست في فيينا.
- اعلم.
- اذن هل تعتقد انه يمكنك الثثرة في المقاهى هنا.. كما كنت تفعل في فيينا.

** ** *

ثم اقترب موعد الاحتفال بثورة اكتوبر.
 اردنا ان ندعو بعض الاصدقاء.. وان يكون احتفالنا بهيجا وفي الرابع من نوفمبر عام ١٩٣٦م، ذهبت كالمتعاد الى العمل.
 وهناك اخبرني رئيس قسم التخطيط باننا قد تجاوزنا كل معدلات الانتاج التي وضعت في خطة اكتوبر بمقدار تسعة وعشرين في المائة.
 ودعوت كل رؤساء الاقسام لكي نتشاور ونفكر عن تكريم العاملين، ومن منهم يستحق ان يكافأ.
 وفي موعد الغداء ذهبت الى (قَلْب فليوفج) (والياس بوشكوفج) في المطعم الذي افتتح حديثا لكبار القادة.
 وكان موقعه في جناح مستشفى الكرملين.
 وسالني بوشكوفج.

— ان مطعم كمبسنسكى في برلين لايساوى شيئا بجانب هذا المطعم.. اليس كذلك..؟
 ولم اجد به شئ لاني لم اذهب للمطعم المذكور في برلين. وبعد الظهر ذهبت الى ادارة منتجات الات الطباعة في تافانكى لى اطلب بعض الاشياء لحوجة المؤسسة لها في السنة القادمة.

وقد قابلتني بعض الصعوبات. وكان على ان اطلب المساعدة من بياتنسكو، الذي توسط عن طريق اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، حتى تقبل طلباتي.
 وعند عودتي زارتني مديرة المدرسة التي نتولى رعايتها ورجتني التبرع ببعض النقود للمدرسة. كما وجهت الدعوة لي في السادس من ديسمبر لحضور الاحتفال الذي تقيمه المدرسة وقد لاحظ السكرتير المالي للمؤسسة انى قد اعطيت نقوداً كثيرة كهدية لاطفال العمال والموظفين بمناسبة الاحتفال.

وقد حاورني لمدة طويلة في هذا الخصوص، الا اننى استطعت إقناعه
 وفي السادس مساء ذهبت الى طبيب الاسنان.
 وفي الثامنة كنت بالمنزل.. وبعد العشاء خرجت وزوجتى نتمشى قليلاً..
 وعند الحادية عشر تماماً كنا في الفراش
 تلك كانت تفاصيل يومى الاخير.
 انا هنا.. الان..

عندما أنهيت قصتى صمت الجميع.
 وبعدها تحدث نيمروفسكى المهندس الكهربائى من اوكرانيا ليكسر حدة الصمت المحرج.

— أن هذه كوميديا محزنة.
وقد تذكرت شيئا حدث لى.. لا ادرى كيف قفز الى ذهنى عندما ذهبت للاستشفاء فى القفقاز.
— بمدينة كسلوفوسك.. قال لى ادارة الحمامات.. انهم يأسفون جدا لعدم وجود غرف منفصلة.. ولذلك فيتحتم على مشاركة الغرفة مع شخص آخر.. وان على الا اخصى شيئا..
فهو رجل جيد للغاية ومهذب جداً.
كنت مرهقا من السفر لم ابال.. واستلقيت مبكراً على سريرى.. ونمت فى الحال.
وايقظنى حلم غريب.. احسست بنوع من الكابوس...
وعندما فتحت اعينى رايت زميلى فى الغرفة يقف امام سريرى.. وينظر الى بجديّة وقصد..
ثم تحرك نحوى ماذا يديه الى الامام وكأنه انسان يمشى فى النوم.. ومد يديه الى عنقى.. أطبق عليه بقوة.. وراح يخنقنى.. واستيقظت تماما.. قفزت من سريرى.. والقيت به بعيداً عنى.. ورحنا فى صراع عنيف.. واشتدت الضوضاء.. استيقظ سكان الغرف المجاورة.. على الضجيج.. واخيراً حضر الممرض وفرّق بيننا.
وطلبت فى الحال ان اتحدث مع شخص من الادارة.
شرحت لهم الموقف.
وفى اليوم الثانى بدا التحقيق.
وتبين لهم بان ذلك الشخص الجيد جداً والمهذب، مريض عقلياً.. ومصاب بفصام الشخصية.. وانه يتوهم دائماً مطاردة شخص له.

لذلك هاجمنى واراد ان يكتم انفاسى.
وسمّمت الراحة.. وكهرت العلاج.
ومضت عشرة ايام..
قضيناه فى الاحاديث عن الاشياء التى عشناها.
وكانت احاديث ذات شجون...
وعندما بدانا نحكى عن الاشياء التى حدثت لنا اثناء فترة التحقيق، انبرى ساشا فيبر — المسئول الوطنى السابق عن التعليم فى الجمهورية الذاتية للامان.. انبرى ذلك الرجل يدافع عن ستالين وعهده، ويبرر كل افعال البوليس السياسى الكريهة.
وقال انها فترة مرحلية — ويجب على الشيوعيين ان يفهموا ذلك.. قال ذلك واكثر، رغم انه قاسى اشد انواع التعذيب وكسروا كل اسنانه.

*** **

فى السابع عشرة من سبتمبر عام ١٩٣٧م.. امرونا ان نكون على اهبة الاستعداد للسفر.
وتحت حراسة مشددة نقلونا الى محطة كورسك.
وعلى خط فرعى وقفت عربتان من عربات الدرجة الثالثة. وبدلا من النوافذ كانت تقف القضبان الحديدية.
وقفت شاحنتنا قرب عربة السكة الحديدية، وخرجنا من الاولى الى الثانية الواحد تلو الاخر.

وداخل عربتين من عربات السكة الحديدية أنحشر حوالى ثمانين سجيناً من المحكوم عليهم
بالإشغال الشاقة. وأمرنا بأن نجلس فى هدوء...
وسمحو لنا بالحديث الهامس فقط.
وحاولنا أن نعرف من الجندى المرافق لنا أين ستكون وجهتنا.. فباعت كل محاولتنا
بالفشل.
لم يجرؤ واحد من الحرس أن يتبادل معنا كلمة واحدة.
مكننا فى المحطة حوالى الساعتين.
وشاهدنا عن كثب الطريقة التى تتأور بها القطارات. سائقو القطارات.. وعمال الوقود..
وبقية موظفى وعمال السكة الحديدية كانوا يمشون بجوارنا.
ينظرون إليها بفضول شديد.
واحسنا أنهم يتعاطفون معنا.
كان ذلك واضحاً على قسماط وجوههم.
وكان هناك أيضاً الكثير من الرثاء فيها.
بعض المارة أخذ ينظر ويدقق فىنا متفحصاً.
كان فيهم من يبحث عن قريب له أو صديقه.
وكان هناك امر آخر...

بعض النساء اللاتى قبض على أزواجهن دون أن يكون لديهن معرفة بالمكان الذى
أودعوا فيه.. كن يأتين الى محطة موسكو. يراقبن القطارات.. لعل وعسى.
كان يرادهن أمل كبير بأن يلقين نظرة واحدة على أولئك الأزواج.
وفكرت فى سونيا.
كم يكون جميلاً لو أنها ظهرت فجأة بين أولئك الناس.
كيف حالها الآن؟..

هل هى بخير؟.. وكيف حال طفلنا؟.. ليتنى اعرف عنها شيئاً. لقد بحثت المسكينة فى كل
السجون.. تسكعت هنا وهناك ولكن دون جدوى.
لم يكن أحد يعلم مكان السجناء.. أو ماذا جرى لهم!
وأخيراً.. الحقنا بالقطار الذى كان يقف على الرصيف الأول.. ونظرنا بحزن الى الناس.. كانوا
يتحركون بكل الحرية على الرصيف..
يجلسون على المظعم.. ويأكلون.
وتحرك القطار.
وانقبض قلبي.. الى أين؟.. متى سأعود؟..
وصمتنا جميعاً.

ومر القطار بضواحي موسكو متجهاً نحو الجنوب الشرقى
كان الجنود يراقبوننا من خلال قضبان حديدية على أبواب عربة القطار.
كانوا يحذروننا حتى من الكلام.
ولكن شيئاً فشيئاً استطعنا أن نكسر حاجز الصمت.

.. في بوتيرك أعطونا طعام يومين. عبارة عن خبزٍ وسمك مملح وقطعتين من السكر.
بجوارى جلس جبراكوف.. وماريف الذى كان مديراً لمجموعة من شركات النفط في موسكو.
قصر القامة.. عريض المنكبين.. أشقر الشعر.. أثغره يلوح على وجهه كقطعة من البطاطس..
كان سريع التفكير.. والعمل.. يمزغ طعامه وكأنه يضحك..
روسى قح.. من أبناء الريف الاصيل..
وعندما نظرت اليه..

— آه .. لاشيء.. تذكرت رئيس في الدائرة الحكومية.
كان يتبع خط الحزب ولا يحيد عنه اطلاقاً.. في كل مناسبة.. وفي كل اجتماعات الحزب، كان
يلقى علينا دروساً اخلاقية عن كيف يجب ان يساق الجميع، وبكل الوسائل على خط
الحزب.. او كما يقول بالفاظه..

— يجب ان يمسح على عجيذة كل فرد من الناس بالتربتين حتى تحترق ومع ذلك فان رئيسى
هذا قد مسحوا على عجيذته زيتاً.. وحبسوه..
وعند المواجهة،

اصر على انى حاولت تجنيده في مجموعة الثورة المضادة
وهكذا يسافر جميعاً على نفس القطار...

كما يسافر قس الدين المسيحى التابع للدير الاغريقى..
وعندما كنا نتحدث همساً أحسبنا بأن شيئاً ما يحدث.

عثر احدينا تحت الكنبه على جريدة أرزستيا..
من المحتمل ان أحد الحراس قد نسيها هناك..
قرانها بالطول.

كان علينا ان نحاط وان نكون حذرين للغاية.. حتى لا يكتشف الحراس ما نفعل..
وبسبب الانفعال الشديد الذى ساد جو العربيه.. نسينا الحذر.. ففاجأنا الحرس وانتزعوا
منا الجريدة.

في غلادمير

وبعد مضي حوالى اثنى عشر ساعة توقف القطار في احدى المحطات.. وبدأ في عملية مناورة على القضيب المجاور.. ثم حرك جانبا عربة القطار التى بداخلها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة.

واسرعنا نقرأ اسم المحطة، فلذا بها فلادمير. وبعد قليل احضرت ثلاث عربات ناقلة وزجوا بنا فيها.. كل خمسة عشر سجينا في ناقلة.

وكانت الساعة تزحف نحو الخامسة صباحا عندما اتجهت بنا الناقلات صوب الاطراف البعيدة للمدينة في طريقها الى سجن فلادمير.

وقام الجنود بتحذيرنا جيدا.. قالوا انهم سيطلقون النار على كل من يحاول الهروب.. واصروا على بقاءنا ساكنين ولم يسمح لنا حتى بتحريك رؤوسنا.

اما سجن فلادمير فانه يقع على تل من التلال المحيطة بالمدينة.

وبعد ان وصلنا الى باب السجن الاسود الكبير، انزلونا من الناقلات وتركونا نجلس على أرجلنا لمدة تزيد عن الساعتين. وعلمت فيما بعد ان مدينة فلادمير هذه تبعد عن موسكو جوالى الثلاثمائة كيلو متر تقريبا -وهى مدينة قديمة عمرها اكثر من مائة عام... وقد كانت قبل ذلك محطة للانتظار يمر بها التعساء من الذين حكم عليهم بالاشغال الشاقة في سيبيريا.

وسجن فلادمير مكون من ثلاثة مبان هى السجن العمومى، وهناك مبنى رابع توجد به الزنزانات بنى حديثا، في حوالى عام ١٩١٢م... وبجانب هذه المباني الاربعة اقيم المستشفى.. والحمامات.. والمطبخ.

واخيرا فتح الباب الكبير.. وهدر صوت أمر:-

— انتباه.. المساجين.. قيام.

ونهضنا من الطين.. اوقفونا في طابور من خمس صفوف، ثم ادخلونا في فناء كبير.. وبدأ النداء على الاسماء.

وكان على السجن ان يذكر. اسمه واسم عائلته، واسم ابيه، وتاريخ ومكان الميلاد، والمادة التى حوكم بها، ثم فترة الحكم التى عليه ان يقضيها في السجن.

وبعد ان انتهت تلك العملية المفضية اقتادونا الى صالة واسعة لم يسمح لنا فيها بالحديث او التدخين او الاكل. وانتظرنا طويلا.. طويلا.

وعندما جاء دورى اقتادونى الى غرفة ما، وخلعوا عنى جميع ثيابى فوقفت عاريا من كل شيء اراقبهم وهم ياخذون جميع ما املك.. ملابسى الخارجية، والداخلية ثم اشياى الخاصة:

واندخل الجندى اصبعه الرهيب في كل فتحة من جسمى.. وعندما ادخل اصبعه في حلقى ودفعه الى اسفل، لم اُحتمل فارتحت يده بعنف.. وصاح بى:-
— فاشست.

وبعد التفتيش اقتادونا للحمام واعطونا ملابس واُخذية المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة.. ثم قاموا بحلق رؤوسنا.. خلاقة تامة ليُعدها ادخلونا في الزنزانات.

كنا نبدو في اشكالنا الجديدة بعد الحلاقة وملابس السجن وكأننا اشباح مضحكة.. ولكنها
بائسة في نفس الوقت. ملابس قطنية لونها كحلي داكن وقد اضيف اليها كساءا بنيا في
الكوع والرقبة.. اما غطاء الراس فكان عبارة عن طاقية روسية صميعة.. وكان الحذاء ذا
نعل من البلاستيك وجلد الخزير وقد غطي بقمائش ردىء... واذا اضفنا لكل ذلك المعطف
القصير (بوشلات) نجد انهم قد علقوا على اجسادنا هذه الاشياء الغريبة.. الضيقة على
بعضنا، الفضفاضة الواسعة على البعض الآخر... ولذلك فقد كان من الصعب علينا ان
نتعرف على بعضنا البعض من الوهلات الاولى.

بعد ذلك وضعونا في الزنانات الارضية.
وهي زنانات ذات شبايك غريبة، نصفها تحت الارض لا ترى الشمس مطلقا فهي متجهة
نحو الشمال..

اما الاسرة فقد وضعت في صفين متقابلين.. في الصف الاول سبعة سرائر وفي الصف
الثاني ستة.. وهناك منضدة كبيرة وسط الغرفة.

ثم لا شيء بعد ذلك.

والاسرة كانت عارية الا من حصيرة ومخدة محشوة بالقش وبطانية.
وكان البرد شديدا، ونظام التدفئة البخارية متوقف تماما عن العمل. والزنانة ذاتها،
كانت ضيقة للحد الذي لا يسمح لاحد بحرية الحركة فيها.. والاسرة مثبتة على الارض
بالخرصانة المسلحة، وكذلك المنضدة. وفي الركن البعيد قُبعت صفيحة كريمة لقضاء
الحاجة (براشا) واحسنا بالضيق الشديد والكرب والحزن، فقد تبخرت كل خيالات
الامال التي راودتنا، من اننا سنعيش في سلام. ونعامل كأدمنين.

مرتان في اليوم كنا نقاد الى المرحاض.. وكان كل دفعة تذهب تتكون من ثلاثة عشر سجيناً،
يطلب منها قضاء الحاجة في مدة لا تزيد عن الخمس دقائق بحال من الاحوال، فان تجاورتها
انتزعونا انتزاعاً، حتى ان بعضنا كان لا يجد الوقت الذي يرتدى فيه ملابسه.

وكنا في جوع دائم.. نصف كيلو من الخبز في اليوم.. اما خلال الصباح فقليل من الشاي..
وفي الظهر والمساء حساء الكرنب او البطاطس وقطعة صغيرة من العصيدة. وكان ذلك قليلاً
جدا وهزلاً للغلبة.

وكانوا يخرجوننا الى ساحة ضيقة مسورة بالخشب، يخرجون الجميع في وقت واحد..
من كل قسم ثلاثة عشر سجيناً يقضون ربع الساعة فقط في رياضة المشي، على هيئة طابور
داثري. البدان خلف الظهر والنظرات مصوبة نحو الارض — والويل كل الويل لمن كان
يحاول رفع نظره الى اعلى قليلاً.. او تعبت يداه فارخاهما بره.

— يدلك على ظهرك يا ابن القميئة الفاشية.. أين تنجّه بظفرك...؟ انظر الى الارض.. لا تسعل
يا ابن القحية... يا ابن الكلية.

وهكذا.... كانت هذه هي وجبتنا اليومية من الشتائم البذيئة اثناء رياضة المشي، يوجهها
لنا حراسنا الاشداء.

وعلى الرغم من حوجتنا الماسة الى الهواء الا اننا كنا نحس بالسعادة عند انتهاء الدقائق
الخمسة عشر.. دقائق العذاب.

وكان لايسمح لنا بالرقاد.. طيلة النهار نظل جالسين او واقفين.. وقد اخطرونا بانه يمكننا الكتابة لذوينا مرتين في الشهر، واعطونا بطاقات نرسلها الى اهلنا بها العنوان، حتى يرسلوا لنا النقود.

وقد كن... فبعد سبعة ايام استلمت رسالة من زوجتي وصورة لابنتي الصغيرة.. واذكر انه عندما احضروا لي الرسالة كنت مضطربا جدا، واذكر ايضا انني بكيت بحرقة شديدة.. وبعدها بايام قليلة استلمت خمسين روبلا واسرعت الى كتبتين السجن فاشتريت الخبز، والسمك المملوح، والسكر والبصل، وقطعة من السجق. وعندما يشتري احدا طعاما كنا نأكله جميعنا، دون اعتبار لمن يملك او لمن لا يملك نقودا.. من اشترى ومن لم يشتري.

والشيء الغريب حقا هو ان سجن فلاديمير كانت به مكتبة.. جميلة.. وكان بإمكاننا كل عشرة ايام او نحوها ان نختار كتابا لبلزك، ديستوفيسكي تولستوى، او اى كتب علمية وادبية مختلفة.

وبعد مرور شهر زارنا مدير السجن.. وهو رجل ضخم الجسم، قوى البنية، اسود الشعر، مكتظ الشارب، قلبي النظرات والقلب. (قبض عليه فيما بعد بعد تصفية رئيس الـ (ج. ب. ي) بيجوف واعدم رميا بالرصاص، لان تعيينه في ذلك المنصب كان من بيجوف.. وكان فظا جدا.. اجاب على كل سؤال وجهناه له باهانة بالغة.

وعندما ساله مهندس اللحام جلنكو من مدينة ستالينجراد بمذلة وخضوع ان يعطينا عملا نشغل به فراغنا، صاح فيه بحدة..
— نحن ننظم كل شيء بدونكم.

*** ** *

مرضت.. واصبت بالاسهال الحاد.. من جراء البرد وسوء التغذية وكنت احسب ان المرض سيزول من تلقاء نفسه، ولكن حالتى ساءت يوما بعد يوم. وبحثت عن مساعدة الطبيب الذى كان يقوم بالكشف في نفس الامر. ذكرت له ما الم بى ولكنه لم يجبنى بشيء.

ورجوت مرة اخرى ان يعيننى على الشفاء.. ولكنه ايضا لم يجب بشيء. وهنا بدأ الحارس يصيح في وجهى.. وكان ذلك الحارس فظا قاسيا ومشهورا بيننا على انه اسوأ حارس في السجن.. وصحت في وجهه منفلا.

— انا لا اطلب شيئا سوى مساعدة الطبيب.. فدعنى وشانى. وبهت الحارس ووجم للحظات، فهو لم يعتقد ان يعارضه احد... وبدون اى كلمة اعدانى الى الزنزانة، بمرضى.

وحدثت زملاي بما حدث.. فهاهم الامر، وحذرونى من انى سأنقل الى (الكارس) زنزانة الحبس الانفرادى القاتمية.

فاصابنى الهم والقلق والخوف.

ولكن، مرت عدة ايام ولم يحدث شيء.

واحضرت لى الممرضة الدواء.. واخبرتني انهم كتبوا لى غداءا خاصا بالمرضى.. عبارة عن رغيف ابيض - شوربة - وفاكهة مطبوخة.

وكانت هذه الممرضة هي الشخص الوحيد في ذلك المكان، الذى يسلك معنا سلوكا انسانيا.
كنا نلجأ اليها في طلباتنا المختلفة.. وكانت ذات وجه مريح، وابتسامة جذابة تكشف
عن اسنان بيضاء جميلة...

وأؤكد انها قد نقتت في ذاكرة ووجدان كل سجين هنا.. هذه الانسانة الطيبة.
وكان الاكل المخصوص جيدا في يومه الاول.. ولكن في اليوم التالى اختفى الخبز الابيض،
واصبحت الشورية عبارة عن ماء ابيض. وقلت جدا الفاكهة المطبوخة.
وعندما سألت الحارس عن الخبز الابيض، أمرنى أن اكل في صمت. وانفعلت، فأخذت
أخبط على الباب مرات عديدة حتى حضر المدير فشكوت له من سوء الطعام قائلا:—
الدكتور كتب لى غذاا خاص بالمرضى، ولكنهم احضروا لى فضلات الطعام.

ولم يجب بشيء.. صمت مدير السجن.. ثم لوى ساعدى وأخرجنى الى الممر، وهناك قبض
على حارس آخر ولوى ذراعى الاخرى على ظهرى فصرخت من الألم.. واطبق المدير يده على
فمى مكما اياه، فنافلت بشدة حتى خلصت فمى من قبضته صرخت.. صرخت باعلى
صوتى فتركونى.. فتحوا باب الزنزانة ودفعوا بى الى الداخل.

والتف حولى الزملاء.. نصحونى أن اكون عاقلا فهؤلاء الوحوش قساة والصراع معهم
لايجدى أبدا.. بل انه يضر ضررا كبيرا.. وكنت اعلم ذلك.. ولكن ماذا افعل...؟
وأغرب شيء أننى في اليوم التالى وبدلا من العقاب المتوقع تحصلت على صحن مملؤ
بالشورية.. وعلى سلطانية مملؤة بالفواكه المقلية وقطعة جميلة من الخبز الابيض.

وكيف لى أن اشرح هذه التناقضات.. وانا نفسى لا افهمها.. وقد عزوت الامر الى ضيق
الخراس بمدير السجن وبقسوة البوليس السياسى. وانهرت من المرض.. لم استطع
الوقوف على قدمى.. فاستلقيت على السرير بالرغم من أن ذلك كان ممنوعا.

ولاحظ الحارس انهيارى ووقوعى على السرير فأمرنى بالتهوؤ. ولكنى اوضحت له اننى
مريض جدا وضعيف للغاية، وجوته أن يكون طيبا، وأن يسمح لى بعشر دقائق أبقي فيها
على السرير.. ولم يجب بشيء.. وإنما سارع باستدعاء مدير السجن.. وأخبره اننى بدون
أدب او حياء.. ولا أريد أن انهض من السرير.

وأخبرت المدير باننى منهك ومتعب ومريض.. وباننى لا استطع الوقوف ستة عشر ساعة
بلا انقطاع.

وأمسك مدير السجن بيدي.. قادنى الى نهاية الممر.. ثم فتح باب حديد ثقيل.. ودفع بى الى
الداخل.

كانت تلك الغرفة هي (الكاريس) زنزانة الحبس الانفرادى التاديبية.. شيء أشبه بالقفص
الحديدي للحيوانات الوحشية في السربك.

هناك كانت الأرض صلبة وجافة خرصانة مصبوبة، عليها مقعد صغير وائاء لقضاء
الحاجة.. ولا شيء غير ذلك. وفي منتصف الليل القى الى الحارس الذى كان يتمشى في الممر،
لقى الى بكنبة خشبية قديمة كى انام عليها.. حتى السادسة صباحا.

كانت الزنزانة باردة جدا.. ولم استطع النوم. فنهضت.. تحركت قليلا مشيت الى الامام
والخلف انشد دفئا مستحيلا. جاعنى الحارس الذى كانت عليه النوبة الليلية وهو رجل

مسن، متوسط الطول، أبيض الشارب، تبدو عليه علامات الطيبة. سألني هامسا..
— لماذا القوك هنا في الكارسي؟

ثم اضاف بود..

— اسمع يابني، أحسن شيء تفعله هنا هو أن تصمت؟ هذا سجن فظيع.. أنت لا تعلم أين
تقيم.. وستموت يا ابني.. قال ذلك، وذهب فاحضر لي قطعة من الخبز والسمك المملح.
فاكلت. وحاولت النوم.. أحسست بانى ضعيف وهزيل جدا. وجاءتني نوبة من القيء
فلفقت كل ماكان بجوئ.

وفي الصباح احضروا لي ثلاثين جراما من الخبز وكوبا من الماء الدافئ واخبرت
الحارس بانى مريض جدا.

واقترادنى الرجل الطيب الى الطبيب الذى امره ان يرجعنى الى زنزانه الحبس الانفرادى
التاديبية.

وصبرت على محنتى.. الى ان جاء يوم اخرجونا فيه واوقفونا امام الحائط.. وكنا حوالى
مئتين سجيناً.. من المسجونين بالاشغال الشاقة.. وكانت وقفنا على صخرة كبيرة.
واعتقدت أنه التفتيش العادى.. ولكن الجنود احضروا اشياءنا وملابسنا القديمة
التي جئنا بها الى ذلك المكان. فارجعوها لنا..

واصبح جليا اننا سنغادر سجن فلادير.. مكان الالم والتعذيب.

وكان هناك الكثيرون من الذين رأيتهم في سجون بوتيرك وليبيانكا.. ومرة أخرى اشتركنا في
مسلسل النداء على الاسماء والمراقبة الجادة.

وعند انتهاء الاجراءات امرنا بالصعود الى الناقلات التي اقلتنا الى محطة السكة الحديد.
وفي انتظار عربات القطار المخصصة لنا اخذنا نعد الثوانى ونعجب من تهذيب
هؤلاء الحراس الذين لم يشتمونا ولم يحاول احد منهم ان يعذبنا..

وتحدثنا حديثا عاديا جدا حتى اننا غنينا بصوت منخفض.. وعندما سألنا رئيس
الحرس الى اين يقودنا هذه المرة.. اجاب:-

— ستكنون في وضع احسن من الذى كنتم فيه، في سجن فلادير.. وسيحضرون اليه الذين
حكم عليهم بخمسة وعشرين عاما (اشغال شاقة).. وانتم ستذهبون الى معسكرات العمل
الاجبارية.

واصابتنا الدهشة عند سماعنا بصور احكام جديدة تصل الى الخمسة والعشرين
عاما.. ووضح لنا من كنا نحادثه.. انه صدر في شهر اكتوبر قانون جديد أعلن بموجبه
الحد الاقصى للعقوبة هو خمسة وعشرون عاما.

وكان ذلك يعنى ببساطة شديدة اننا محظوظون جدا.. فقد حصلنا على عشرة اعوام
فقط.. نفس التهمة التي يواجهها غيرنا اليوم بعقوبة قاسية.. يا للحظ!!
واخيراً..

اخيرا وبعد شهرين ونصف الشهر ودعنا سجن فلادير سافرنا بالقطار لمدة يومين
وليلتين.

وقد كانت زوادنا للسفر عبارة عن علبتين من السمك.. واثنين كيلو جرام من الخبز
ونصف كيلو جرام من السكر. وعندما يقف القطار مدة طويلة نسيبها يحضر لنا الجنود الماء

الساخن (كبياتوك).

ثم وصلنا الى محطة كورسك في موسكو..

وقفت عربات السكة الحديد التي كانت تقلنا في القضبان المتجهة الى ليننغراد.. وبدا لنا جليا أننا سنسافر الى الشمال. أين يقودوننا؟

الى كاريلي..؟ فهناك معسكر كبير للعمل الاجبارى.. يبنون قتال البحر الابيض.

وفي غابات كاريلي ايضا مئات الالوف من المسجونين الذين يقطعون جذوع الاشجار.

وتوقف القطار.. توقف في منتصف الطريق بين ليننغراد ومورمنسك في محطة اسمها (كم). ومرة اخرى احالونا للقضيب الميت.

كان الوقت مبكرا جدا.. نظرنا من خلال الشباك لنرى المناطق المجاورة الحزينة

الرمادية اللون.. نظرنا من ناحية الغابة ومن ناحية البحر الابيض بجوار القضيب.. كانت هناك مجموعة من المنازل.. وبضعة اغنام تتسكع في المنحدر..

لم يكن هناك بشر.. فقط رأينا في البعيد مجموعة من المحكومين تحت حراسة مشددة.

وعندما مروا بجوارنا بعد فترة، القوا نظرة داخل العربة، فصاح حارسهم بهياج.

اذن هذا هو ماينتظروننا...!!!

وفوق البحر الرمادي اللون كان طائر النورس يحلق.. وكانت جذوع الاشجار قرب

الشاطئء تسبح في الماء اللزج. هدوء غريب يسود المكان.. حتى البحر كان ساكنا كالزيت.

وعلى البعد لاحت نقطة سوداء صغيرة.. اخذت تكبر قليلا قليلا وتقرب منا.

يقولون ان الامبراطور بيتر الاكبر أمر بنفى احد رجال حاشيته وعندما سال أين ارسله..

اجابوه الى (كس امه).

ومن هنا جاءت تسمية هذه المحطة كم.

وبدأت الباخرة تدنو من المكان الذى تقف عليه عربتنا.. واصبحت قريبة من

المرسى.. فاصلينا نوع من الاضطراب.. واضحى في امكاننا قراءة اسم الباخرة (س. ل. أو.

ن) ومعناها سلوفنسكى لاقار او سوبوق. فازنلجينا... وترجمة ذلك هى أنهم سيرسلوننا الى

جزر سولوفتسكى في معسكر العمل الاجبارى الفظيع.

رئيس الحرس خرج من عربة الى اخرى.. صانحا..

— مسلحين.. انتباه.. اعدوا حاجياتكم.. كونوا على استعداد.. احذركم اى حركة للشمال

او اليمين ستطلق النار.. كل من يخالف الامر سنصيده...!!!

وخرجنا من القطار، واحدا بعد الآخر.. مررنا بين طابور الحرس الذين كانوا يحملون في

ايديهم الرشاشات المعمرة. ومن الطابور انحدرنا نحو المرسى ودخلنا في السفينة واحدا

واحدا.

كانت هذه الباخرة مخصصة لنقل البضائع فوضعونا في الصنادل وكاننا نوع من

البضائع العادية.

وعندما اكتمل عددا هناك، جاء قائد الحرس وبدأ في النداء على الاسماء .

كان عددا حوالى المائتين.. وتركنا الضباط والحرس بعد ذلك وذهبوا عنا.. فجلسنا

على ارضية الصندل.. جلس كل واحد منا جوار الآخر.. والتصقنا ببعضنا البعض وكاننا

في علبة ساردين.
وكدنا نخفق.. ساد بيننا جو رهيب قاتم.. وكان أمامنا المجهول.. الخوف - الحزن -
الضياح - تحدث فجأة (قلوشكوف) كان يوما ما سكرتير لجنة منطقة مورنسك.
- يا شباب اقول لكم.. سيلقوا بنا جميعا الى البحر.. سيغرقوننا جميعا - ومعنا هذه
الخزدة القديمة..

وليست هذه هي المرة الاولى التي يصفى بها البوليس السياسى حساباته وبالطريقة التي
ذكرتها لكم - انها شيء سهل.. يلقون بنا في عرض البحر.. ثم لا اثر لنا.
بعضنا تملكه القلق لدى سماعه هذه الكلمات.. وحاول آخرون ان يضربوا
قلوشكوف بقبضاتهم القوية وبعضنا تصرف بحكمة ونصح الآخرين ان يصبروا.
وهذا الموقف

ولكننى كنت ميالا الى تصديق قلوشكوف..
وانصتنا الى صوت الهلب وهم يجرونه.. واحسسنا ارتجاج الباخرة.. وشحبت وجوه
الكثيرين.. وسعنا تحييا يعلو من مكان ما..
وبدأت افكارنا تجرى هنا.. وهناك.. اما امعاؤنا فقد تحركت وانتابنا شعور حاد
بالغثيان..

وطاف بنا سؤال ملح...

ماذا سيكون مصيرنا؟

كان ذلك في ٢ ديسمبر عام ١٩٣٧م.

وتحركات الباخرة ببطء - فقد كان المرسى متجمدا من الثلج. فكان عليها ان تناور عدة مرات،
وان تأخذ سرعة اشد لكي تخترق الثلوج. واستغرقت الرحلة ثمان ساعات كاملة.
وكما ادخلونا واحدا واحدا، اخرجونا من الباخرة كذلك. وبدأنا نصعد للمشاطىء عبر
طريق شديد الانحدار.. وكان الوقت ليلا ولكن عدة لمبات كهربائية كانت مضيئة.. وقد راينا
بجوار احد المنازل حاكم الجزيرة ومدير السجن يقف محاطا بمساعديه.
استلمونا ايضا - فردا فردا وهم يقيسوننا بنظراتهم الفاحصة من قمة الراس الى اخمص
القدم.

والغريب ان سلوكهم بدا طيبا في تلك اللحظات فلم تنطلق من احدهم اساءة نحو احد منا.
واغمضت عيني بشدة محاولا ان ارى شيئا في الظلام ونجحت في رؤية حائط كبير
لكرملى جزر سولوفينسكى.

وكنا في الجزيرة الكبرى من مجموع الجزر.
وعندما انتهت الاجراءات اوقفونا في خمسة صفوف متساوية تقريبا وفتحت لنا بوابة
ضخمة، ودخلنا في صمت رهيب.

الجزء الثانى

فى زئانات سولوفيتسك

في زنزانات جزر سولوفيتسك كرملى

تقع جزر ال سولوفيتسك في الجنوب الغربى من البحر الابيض. حوالى ثلاثين ميلا شرقى (كم). في مساحة قدرها مائتين وستة وستين كيلو مترا مربعا. أما اكبر منطقة مأهولة بالسكان في جزر سولوفيتسك فقد أسسها الرهبان في القرن الخامس عشر.. بنوا فيها أول كنيسة هناك. ثم ازدهرت العلوم والتجارة فيها.. وبذلك فقد أصبحت سولوفيتسك قاعدة مهمة للملكية في موسكو.

وفي عام ١٥٨٤ شيدت حولها الحصون والقلاع.. فقد اعتبرت خطا أول للدفاع ضد هجمات الجيوش المختلفة.. وأخيرا ومع مرور الزمن توسع الدير في ملكيات كبيرة، وإقام مزرعة لتربية الحيوانات، وأسهم في تطوير صناعة السمك والملح... وهكذا أصبح الدير الخشبي وحوايط كرملى المكان الأمثل لأقامة أول وأفضل معسكر من معسكرات العمل الاجبارى للسجناء، تقيمه السلطة السوفيتية.

وقد احضر لهذه الجزيرة الرئيسية اوائل السجناء السياسيين وكذلك اصحاب الجرائم الكبرى.. وكان من بينهم رهبان سابقون.. حكم عليهم بان يقوموا بالاعمال الشاقة مدى الحياة.. في نفس الصومعات التى كانوا يعيشون فيها يوما (كعباد الله).. مع تغيير اسمها الى زنزانات...!!

وكان في الجزيرة حوالى الخمسين الفا من المحكوم عليهم بالاعمال الشاقة ومن بين هذا العدد الضخم كانت قلة تعيش داخل زنزانات مغلقة. اما الاغلبية فكانت تؤدى اعمالا جسمانية شاقة، في مزارع تربية الحيوانات..

كانوا يعملون في ازالة الاعشاب الطويلة الغزيرة.. وفي قطع اشجار الغابات الكثيفة.. ومن أشهرها شجر القصبان.. وفي صيد الاسماك المعروفة باسمك البحر الابيض المرغوبة في الاسواق العالمية.

كما عمل بعضهم ايضا في كمائن الطوب الكبيرة.

وفي عام ١٩٣٧م حدث تغيير جوهري اذ نقل السجناء المجرمون الى معسكر آخر. وبقي بالجزيرة السجناء السياسيون فقط. وقل بذلك الاعتماد على استغلال الموارد الطبيعية..

وكان السجناء السياسيون يبقون جل الوقت جلوسا في الزنزانات وبدون عمل. وحين وصولنا هناك، كان في جزر سولوفيتسك أربعة الف وثمانمائة سجين حكم عليهم بالاشغال الشاقة.

وكانت الزنزانات المظلمة للسياسيين والعسكريين تحت الادارة المباشرة للبوليس السياسى (ن.ك.ف.د)..

وقد وضعونا في زنزانات القسس التى كانت تقع في مبنى ذى طابقين، وكانت تتبع للحامية الثانية.

غرف عادية.. الارضية من الخشب.. وبدلا من النوافذ كانت هناك القضبان الصماء.. ثم مدفاة كبيرة من الطين.

كنا عشرة من المحكومين في زنزانة واحدة.. وكنا سعداء جدا لاننا تخلصنا من زنزانات سجن فلاديمير.

وقد اعطينا في الوجبة الاولى اوانى من الصفيح وشورية ساخنة من البطاطس وقطعة من الخبز.. وبعدها كمية من العصيدة المخلوطة بالدهن. وحال انقضاءنا من تناولها انفجر صوت:-

— استعدوا للنوم...

فرقدنا على الحصائر التي كانت تفوح منها رائحة العشب الطرى، وتغطينا بالبطانيات الدافئة ونمنا. فقد كنا متعبين.

وعند الساعة السادسة تماما سمعنا صوتا يصيح:-

— قيام...

واقفنا دوننا للمر الذى كات به عدة احواض للغسيل.. فاعتسلنا في هدوء ولم تبدر من احد منا اى بادرة للشكوى او للتذمر. وبعد ذلك اعطينا خبزا وشايا وبعض السكر.

وعند العاشرة ذهبنا لنتمشى في المقابر القديمة لمدة نصف ساعة بين شواهد القبور التي حكّت تاريخ موت الرهبان.. قبل قرون عديدة خلت.

وإلى ساحة الكرمل الكبيرة كانت هناك ستة من المباني ذات الطابقين وذات الثلاثة طوابق، وهي التي احيلت الى ان تكون سجنا.

وفي منتصف الساحة وقفت كنيسة كبيرة، تم تحويلها هي الاخرى الى مخزن للمواد التموينية. لقد كانت ذات يوم مصلى يتزاحم فيه الرهبان فاذا بها تصبح مخزنا تتزاحم فيه البراميل الخشبية والصناديق وجوالات الدقيق.

وبالقرب من السجن كان هناك حمام بخارى على الطريقة الروسية الاصلية.

ولم يكن الطعام سيئا... في الغداء كانوا يقدمون لنا الشورية والعصيدة اما في العشاء فكان الصنف الذى يقدم واحدا لا يشاركة شيء.. وكنا نتلقى قطعة كبيرة من السمك المملوح ثلاث مرات في الاسبوع... وحتى النظام ذاته فلم يكن صارما او حازما بدرجة كبيرة. ومكنا في الكرمل اسبوعا كاملا ثم نقلونا الى جزيرة مسكولم. التي كانت تبعد عن جزيرة الرئيسية الكبرى حوالى عشرة كيلومترات.. ويربط بينهما جسر طويل.

وقد ذهبنا لجزيرة مسكولم سيرا على الاقدام.. ومررنا ببحيرة متجمدة وبغابات اشجار القضبان الجميلة.. ثم بمزرعة مهجورة كانت تربي فيها الثعالب الفضية.

وكانت المزرعة هذه كما علمت مؤخرا ذات عائذ طيب، وريح جزيل، ولكنها هجرت واصبحت خاوية على عروشها، فقد كان من المحتم والضرورى ايجاد مكان ما ليكون سجنا. ووصلنا الى مسكولم بعد الظهر.. وهناك وقفت بناية السجن ذات الطابقين ثم ثلاثة منازل صغيرة، هي المطبخ والحمامات والمكاتب.

وعلمنا ان عدد الجزر التي تضم السجنون في تلك الناحية، هي اثنتى عشر جزيرة.. ذات سجون مظلمة كثيفة.

وعندما دلفنا الى فناء الزنزانات رأينا ان النظام هنا ليس ديمقراطيا كما هو الحال في

كرملى.

مع المدير وقف ممثل البوليس السياسى ن. ك. ق. د (باردن).. ووقر فى صدورنا احساس غير مريح تجاهه، فقد قرأنا فى تقاطيع وجهه كل صرامة وقسوة حكم سقاليين .
وملات اجسادنا قشعريرة باردة ونحن نشاهد ذلك المسخ الانسانى الغريب .
واقترادونا الى قاعة كبيرة خالية.. فخلعنا ملابسنا الى الجلد . وانقض علينا الحراس بماكينات الحلاقة القاسية.. ولما لم تكن لهم الخبرة بكيفية الحلاقة فقد سلخوا جلود رؤوسنا مع الشعر بطريقة فضلة جافة .
وكنا عرايا كما ولدتنا امهاتنا عندما اخرجونا من الناحية الاخرى تحت وطأة البرد القارس - اربعون درجة تحت الصفر - وكانت هناك الحمامات .
وعلى طول الحائط، وعلى رفوف مائلة وقفت القدور الحديدية التى اشتعلت تحتها النيران.. وارتفعت سحب البخار.. وكانت المياه ساخنة كأنها مياه الجحيم .
وفى القاعة المجاورة احتشد حوالى الستين رجلا، وامام كل منهم جردل خشبي مملؤ بالماء الساخن.. وكان على الجميع ان يدلکوا اجسامهم بالصابون.. والماء.. وان يكون ذلك سريعا وعاجلا للغاية.. وعندما طلبنا المزيد من الماء لنزيل الصابون عن اجسادنا صاح فينا الحراس وامرونا بالخروج دون حمام
وحصل كل واحد منا على ملابس داخلية وعلى ملابس المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة.. ثم قادونا الى الزنانات.. وتحتوى كل زنانة على ثمانية عشر سريرا خشبيا.. بكل سرير حصيرة ومخدة وبطانية.. وكانت باردة جدا.. ولزمن طويل.. طويل لم نستطع النوم.

في جزيرة موسكولم

وهكذا بدأت حياة الاشغال الشاقة في جزر سولوفيتسك . وفي جزيرة موسكولم وداخل زنزانة رمادية مظلمة عاش ثمانية عشر رجلا مختلفين .. استطاعوا يوما بعد يوم ان يحلوا برودة وظلام تلك الزنزانة الرهيبة . وان يبدلوه الى جو مشحون بالكهرباء والدفع . تفجرت المناقشات الحادة التي قاطعها في كثير من المرات حراسنا القساة الغلاظ . كان كل واحد من الثمانية عشر دنيا فكرية خاصة .. فهو يحمل رايه الشخصي في كثير من المسائل .. وله آماله . وحساباته الخاصة . كانوا على اختلافهم يلتقون دائما في نقطة واحدة .. هي انه قد جمع بينهم قدر مفرع رهيب .

احد معارف القدامى فاسليف جويراكوف كان يعرف بهدوءه وصبره وطيبته كيف يقاوم الجو المشحون بالعصبية وعدم الاحتمال .. وكان دائما يبدو وكأنه تمثال للهدوء والطف والمسالمة .

اما مارييف فقد اعلننا بعزم انه ينوى الانضمام للحزب مرة اخرى بعد انتهاء العقوبة . الا انه اضاف قائلا . ومن المحتمل ان لا انضم كذلك .

وكان هنالك ايضا المهندس نيميرفسكى الذى كان يتلقى طروداً من الاكل ترسلها له المؤسسة اليهودية الامريكية .. وكان متهماً بأنه على علاقة مع البرجوازية القديمة .. حدثنا عن طفولته في (اودس) وقال انه كان يعيش في افقر حارات الدنيا . وكان يحس بعمق انه لن يستطيع مواصلة الحياة .

اما مدير السرك موروزوف فقد كان ينظر الى بطنه وقد تهدل جلدها الهزيل ويتحسر على ايام اكتنازها بالشحم ..

وعندما تساءلنا لماذا حوكم بعشر سنوات سجننا - رائد الجيش الاحمر . اجابنا بقوله .. لقد تحدثت بخير عن تروفسكى .

يا للهول ! هذا فقط ؟

وهناك . في الركن المظلم جلس الرفيق جلزنى السكرتير السابق للشبيبة الشيوعية الاوكرانية ... كان يبدو دائما محطم النفسية . مكسور خاطر صامتا . ساهيا .. يبتلع في صدره احزان الابد .

وهاهو جامويد مثير النقاش الحاد .. كان مشرفا على صفحة السياسة الخارجية في جريدة اوكرانيا (الشيوعي) .. تعرفنا عليه مؤخرا كان يدافع بحاراة عن سياسة الحزب . وعن الخط الذي ينتهجه .. كان يريد باى ثمن ان يبرهن على سلامة وضع الدولة وبان كل شيء فيها يسير على مايرام .

جمع حوله عددا من السجناء .. وكان دائما يدعو الى ان يبقى السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . مخلصين للحزب .. ولو كانوا مظلومين في وضعهم ذاك .. وقال : ان ستالين عبقري . وانه لن يسمح لاي احد بمجرد الشك في ذلك .

وكان مستعدا للتبليغ عن كل انسان يختلف معه في وجهة النظر . لدى البوليس السياسى

وفي احدى المناقشات كان جامويد يصيح ويضرب على صدره بقبضتي يده، ويعلن.. انه هو الذي جعل ذلك الابهل البرجوازي ادوارد هروت زعيم العمال الفرنسيين يشرب المقلب كالحمار.

تحدث كيف ان هروت في عام ١٩٣٤م زار الاتحاد السوفيتي ليتأكد من ان هناك حرية في العقيدة.

وحتى يثبت لهروت ان في روسيا حرية للعقيدة والعبادة. اعيد على عجل فتح عدد من الكنائس التي حولت الى دور للسينما، او الى مخازن مختلفة الأغراض. احدى كبريات كنائس كييف والتي تحولت الى مصنع للبيرة. افرغوها واعادوا تنظيمها، وجندوا لذلك حوالى المائتين من العمال.

وفي اليوم الذى وصل فيه هروت الى كييف اقيمت الصلاة.. مخبرو البوليس السياسى وزوجاتهم مثلوا دور العباد.. جامويد حصل على دور القس الذى القى خطبة الصلاة.. وقد كانت تنقصه الذقن، الا انهم اخذوه الى حلاق المسرح الذى ركب له ذقنا جميلة للغاية. وقد تم اخراج الامر على الوجه الاكمل.

وكان هروت في غاية السرور.. وعند عودته لفرنسا صرح بانه رأى رأى العين كيف ان حرية العقيدة في الاتحاد السوفيتي متوفرة وان حق العبادة مكفول لكل انسان.. وبأماكن من يريد الذهاب الى الكنيسة ان يفعل ذلك وقتما يشاء. وعندما انتهى جامويد من حديثه هذا، سألته:-

— هل ترى من الصواب اخراج تلك الكوميديا.

— عين الصواب.

— بل هذا غش.

— لماذا لانغش؟.. لقد خدعنا نحن الشيوعيين ممثل البرجوازية الخارجية.

— من فضلك.. ان هروت ليس ممثلا لاي برجوازية خارجية.. فقد صوت الى جانبه كثير من العمال الفرنسيين.

— هذا لايعنى شيئا، فالذين صوتوا له يساعدون البرجوازية.

— فليكن.. ولكن لا يعقل ابدا ان نواجه الحرب ضد الدين بالغش.

ان علينا تنوير الناس. ولا شيء غير ذلك.

— اذهب الى الشيطان.. فانت لايمكن مجادلته.

وانتهى النقاش عند هذا الحد. وقد وقف الى جانب وجهة نظرى كل الذين كانوا يختلفون معه من قبل، وكان يرهيبهم.

ولم استطع ان افهم على الاطلاق.. كيف يدافع عن السلطة من اعتدت عليه هذه السلطة.. ولفقت ضده التهم.. وساقته الى السجون ومعسكرات الاعتقال؟..

كيف يمكن ان يحدث ذلك.. انا لا افهم؟..

ان ذلك ضد الطبيعة البشرية..

وقد تحدثت في هذا الخصوص مع رئيس بلدية ستالينجراد يفوروف ورجوته ان يوضح لى ماذا يحدث لبعض الناس.

وكان تفسير يفوروف هو ان هؤلاء البعض يفعلون ذلك ويقولونه لانهم يريدون اسباغ حماية خاصة على ذويهم واهلهم الذين بقوا على قيد الحرية.

*** ** *

كنا نجد هدوا نفسيا كبيرا عندما نخلو الى كتاب نطالعه، فننسى كل ما حولنا.. وقد كانت هناك مكتبة يسمح لنا بان نستعير منها كل عشرة ايام كتابا.. وكان ذلك رائعا.. الا ان اختيار الكتب لم يكن بايدينا.. اذ كانوا يحضرون ثمانية عشرة كتابا يلقونها في الزنزانة عند ميعاد التسليف.. وعليه ان تختار منها او تبادل بكتابك من يرضى بذلك.

وكانت حياتنا رتيبة مملة.. لم يطرأ عليها جديد.. اليوم عبارة عن نسخة من سابقة.

لا جديد قط.

الحديث المثير الوحيد هو وصول خطاب لاحدنا.. ولكن الخطابات كانت نادرا ما تصل.. فقد خشى اهلنا على انفسهم من الكتابة.. فقد كان سيف الاعتقال معلقا على رؤوسهم لصلتهم باعداء الشعب...

ومن يملكون الجراءة يكتبون، كانوا يستخدمون الرموز والالغاز.. ويحكون اخبار محزنة للغاية.

وكان احد افراد البوليس السياسى واسمه بارين يمشى بين الممرات كالظل.. دائما على اطراف اصابعه.. يقتحم الابواب ويهجم النوافذ عليه يلمح مخالفة من احد منا لى يعاقبه. كان قاسيا باردا متعطشا للدماء.. في الثلاثين من عمره.. اشقر الشعر.. كل شيء عنده ممنوع ومحرم..

غير مسموح بالضحك.. غير مسموح بالقراءة بصوت مسموع.. غير مسموح بخلع الحذاء داخل الزنزانة.

مخالفة تلك الاشياء كانت من الامور الصعبة والحرجة للغاية. ويعاقب عليها بشتى انواع العقوبات.. الحرمان من التمشي.. الحرمان من كتابة الرسائل.. الحرمان من الشراء في الكنتين.. او الحبس الانفرادى في (الكارسي) التأديبية القاسية.

في مارس من عام ١٩٣٨م القوا بى في زنزانة يقيم بها الاجانب.. كانت صغيرة جدا ويشغلها ثمانية من النزلاء.. وقد تعرفت فيها على الشيوعى الالماني ورنر هيرش، المساعد الايمن لارنست تاهلمان قائد الحزب الشيوعى الالماني. الذى كان مطيعا ومخلصا لسياسة موسكو. والذى كانت تنقصه المعرفة النظرية للماركسية... وقد لعب هيرش دورا هاما في مساعدته على اكتساب ثقافته الحزبية. وقد حدثنا هيرش كيف كان يفعل ذلك.

كان يقطن غرفة تلاصق مكان تاهلمان.. وكان يتلقى التعليمات عن طريق نقرات خاصة على الحائط يرسلها له تاهلمان. بعضها تحضير اجندات اجتماعات، او مواد لمؤتمر الحزب، او صياغة بعض التصريحات الخ الخ.. وقد قام هيرش بكل ذلك تحت مظلة الرضا الكبير لموسكو.. ولتاهلمان شخصا.

وعندما جاء هتلر للحكم كان على ورنر هيرش ان يهاجر للاتحاد السوفيتى.. وفي الرابع من نوفمبر ١٩٣٦م القوا عليه القبض في موسكو وحوكم بعشر سنوات.

وقد كنا نختلف معه كثيرا في آرائنا.. وخاصة في تلك النقطة المتعلقة بوجهة نظر الحزب

الشيوعي الالماني قبل وصول هتلر للحكم.. ولكن بالرغم من ذلك كنا اصدقاء جيدين. فقد كان رجلا شجاعا.. دائما ضد الارهاب في جزر سولوفيتسك. ناضل ببطولة.. ولم يحصل على مساعدة من اى شخص.. وكان على ان اساعده بقدر المستطاع.. فكنت في كل شهر اسنرى له عشرة صناديق صغيرة من السجائر.. وكان يدخن بتراهة.. وعلى الرغم من انه كان يبدو سليما الا ان المرض سرعان ما ظهر عليه وانهار جسده سريعا. وتقدمت برجاء لمدير السجن لى يامر له بوجبة اضافية لانه لايمكث نقودا للشراء من دكان السجن.. ولم احظ باجابة.

فقرر الاضراب عن الطعام وبغذ قراره. غير انى وبعد مرور خمسة ايام نصحته بالكف عن ذلك لعدم جنودا وحدثته قائلا -

— هذا النوع من النضال قد بجدى في بيئة ووسط متحضرين. ولكنه عديم الجدوى في هذا المكان.. تماما.. وانت تعلم رد الطبيب عليك وسيقول لك.. مت افطس.

والحق ان اضرابه عن الطعام الحق به اضرارا جسيمة.. وكان دائما ما يوضع في زنزانة الحبس الانفرادى الكارس. ناديا له وفي السنة التى مكثناها معا قضى ورنر فيها مائة وخمسة ايام.. ضيفا على زنزانه الحبس الانفرادى التأديبية

وقد استنفذ ذلك الحبس كل طاقاته. وعذبه جدا. فاصبح لايسطيع الحركة الا بجهد شديد.

ونادرا ما كان يخرج ليتمشى.

وعلى الرغم من حماسه الكبير لعهد ستالين الا انه كان يحلم بالحياة في منزل هادى، بلورويا.. بعيدا عن السياسة والمشاكل.

وكان يحب الحديث عن زوجته وطفله.. ولم يكن يعلم شيئا عن مصيرهما. وافترقنا في ديسمبر من عام ١٩٣٨ م.

وبعدما ظلت اسال عنه وابحث في كل السجون والمعتقلات التى تها لى ان الم بها.. ولم اكن موفقا في معرفة مصيره.. ابدا.. الا ان بعضهم اخبرني برؤيته له في سجن اوربيل قبيل الحرب الالمانية الروسية.

وكان هناك ايضا احد معارفى القادامي ساشا فيبر يجلس في الركن البعيد ولا يحدث احد. الا في النادر. وكان دائم القراءة.. وقد حاولت مساعدته ببعض الاشياء او النقود التى كانت ترسلها زوجته. الا انه رفض واجابني اجابة قاطعة..

— انا لا استطيع ان اتقبل المساعدة من الذين يختلفون معى سياسيا.

ولكن الزمن كان كفيلا باذابة ثلوج تحفظاته ومواقفه الثابتة. وقد بدا يلين شيئا فشيئا لمحاولاتي.. وكان رجلا طيبا وحساسا ماتت زوجته.. وله ابن في الثامنة من عمره ولكنه لايعرف عنه شيئا. ثم وجهت اهتمامى بعد ذلك للشباب الابرلندى قولد فيرسكويلى الذى كان يجب ان يفلسف نفسه. والحياة، والشئ، والخير، في وضعنا.

وهذا الشاب له حكيمة عجيبة، فقد كان متطوعا في الحرب الالهلية الاسبانية الى جانب الجيش الجمهورى الاسبانى وعمل في برشلونة كخبير في محطة الاذاعة. وكانت له ملاحظات على رجال البوليس السياسى الذين يتغلغلون في صفوف الجيش الجمهورى

لاخذ المواقع القيادية.. ولم تعجبه هذه الأشياء فاتصل بقلده واخبره بانه جمهورى متطوع وليس شيوعيا تابعيا للجمهورية الستالينية ورجاه ان يسرحه من صفوف الجيش. وطلب منه القائد الصبر ليضعة ايام حتى يجد من يخلفه وبعد ايام استدعوه لاصلاح جهاز لاسلكى فى احدى السفن بالميناء. وما ان وطئت قدماه ارض الغرفة التى قبل ان الجهاز بها، حتى اغلق عليه الباب وتحت حراسة شليين من شبيبة الحزب الشيوعى بقى محبوسا حتى اقلعت السفينة ولم تقف الا فى ميناء سفاستوبولى.

وعند وصولها للميناء السوفيتى جاء رجال البوليس السياسى والقوا القبض عليه وعلى حارسيه الشابين.

وفى موسكو حكم على ثلاثتهم بالسجن لمدة ثمانية اعوام لكل منهم بتهمة التجسس لصالح الانجليز.

وكان معنا رجل آخر ظال منطويا على نفسه طيلة الوقت وهو رجل هادىء الطبع اسمه (بيفر) كان مراسلا سابقا للجريدة الالمانية فى روسيا (دويتش زنترال زايتمق).

فى فيبريتال بالمانيا كان المعروف عنه انه شيوعى من قادة الحزب، ويمتاز بانه نشط جدا ومناضل من الدرجة الاولى.

جلس فى الركن محطم النفس بلا ارادة.. ولكنه كان زميلا جيدا.

وشاركنا نفس الزنزانة ثلاثة من الالمان الشيوعيين، جاعوا الى الاتحاد السوفيتى كخبراء، والقى القبض عليهم وحوكموا بعشر سنوات سجنا لكل منهم بعد ان اتهموا بانهم عملاء للجيستابو.

وقد فرض علينا نظام السجن عزلة تامة.. ارادوا بكل الوسائل والسبل ان يمنعوا اى اتصال بين الزنزانات. راقبونا بالليل والنهار.

ولكننا نجحنا فى كسر نطاق هذه العزلة.

فى دورة المياه كانت هناك لمبة تضىء بالجازولين.. وفى ذات يوم لاحظنا انها تقف معوجة بعض الشيء. وعندما ابتعد الحارس فتشناها ووجدنا بها وريقة صغيرة. ووضعناها بسرعة فى فمى.. وعندما خرجنا من دورة المياه فتشونا كالعادة لاخذ الاوراق التى يعطوننا اليها لاستعمالها هناك، حتى لا نستخدمها فى اشياء اخرى. وعند رجوعى للغرفة وانفردت بنفسى بعيدا عن اعين الحرس. واخرجت الوريقة من فمى.. وقرأت:-

ايها الرفاق الاعزاء.. فى الزنزانة رقم ١٢٠ - عشرون رجلا هم وتتابع بعد ذلك اسماء العشرين رجلا..

وردنا عليهم بوريقة صغيرة وحفظناها فى لمبة الجازولين.. وب نفس الطريقة تمكنا من الاتصال بزنزانتين.

تبادلنا الاخبار عن المحاكمات الجديدة والاعتقالات. وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لى نعلم مايدور فى العالم.

ونجحنا فى الحصول على قصاصة من جريدة متسخة، رجحنا ان يكون احد الحراس قدلقى بها فى دورة المياه.. ومن تلك القصاصة علمنا ان روسيا واليابان على خلاف حول بحيرة حسن.

وهكذا استمرت طرق الاتصال بيننا ممهدة وعلى مستوى طيب.
وفي ذات يوم وبعد خروجنا من دورة المياه، خلعوا ملابسنا جميعها وفتشونا تفتيشا دقيقا. وبالطبع وجدوا عندي البوستة المنتظمة من الزنزانة المجاورة. واقتادوني الى باردن الذى اراد ان يعرف كيف حصلت على الوريقة. وقد اجبته بانى وجدتها فى دورة المياه ولكنه لم يصدقنى وعاقبني بعشرة ايام فى زنزانة الحبس الانفرادى التأديبية (كلرس) على دفعتين.. فقد كانت سلطته فى حبسى ذلك لاتتعدى حدود الخمسة ايام. وكان عليه ان اراد تجاوزها الحصول على اذن من الجهات العليا.

وهكذا انتهى بريد الرسائل والاتصال بيننا وبين الزنزانات الاخرى. وعند عودتى من الحبس الانفرادى اخبرنى زملاء ان ملأه روبل قد وصلتني.. وكانت اخبار زوجتي مقطوعة عنى لمدة طويلة ولذلك فقد سررت سرورا كبيرا لوصول الرسالة... ففيها ايضا وجدت الدليل على ان زوجتي مازالت تتمتع بالحرية.
وعندما حضر الى زنزانتنا مدير السجن سألته متى تحضر لى المائة روبل التى وصلت اثناء غيابي عن الزنزانة، كان رده القاطع:-

— لم تصلك نقود

وايقنت عند ذلك ان النقود ارجعت لزوجتي.. وان هذه للطبخة اجاد سبكها باردن.
وبعد مرور زمن طويل وصلتني رسالة اخرى من زوجتي وبها صورة ابنتي.. وكانت كلمات الخطاب تحمل لى طعنة نافذة.. والمأ كبرا.. وحزننا هائلا.. فقد اخبرتنى زوجتي ان ابنتي مرضت وماتت.

وجلست فى الركن لا اريم.. افكر كيف حدث ماحدث.. واقارن بين المتناقضات فى هذا المكان.. لقد اهتموا برسالة الموت هذه وسلموها لى باقصى سرعة يمكن ان تكون.. لم يتركوها تبقى دقيقة واحدة فى الرقابة.

وبعد لم استلم ابدا وانا فى جزر سولوفيتسك رسالة واحدة من زوجتي.
بقيت مع الاسى والحزن، ارقب كيف يتفنن باردن فى تعذيبنا وخلق اسباب النكد لنا...
وعندما حارت به السبل واستنفذ كل الوسائل المتاحة له لمضايقتنا قرر ان (تهوى) الزنزانة مرتين فى اليوم، ولدة ربع ساعة فى كل مرة، وبحضور الحراس.
وكان لايسمح لنا قط بفتح النافذة.. وفى ايام الحركات الزنزانة عبارة عن فرن ملتهب.. حرارة لاحتتمل.. تبخل ملابسنا بالعرق الغزير ولايسمح لنا بخلع بدلة السجن.. وكنا نختنق ببطء.

ورفضوا كل مطالبنا بمد فترات التهوية للزنزانة.. وقد سعط عدد منا مختنقا لفساد الهواء وراح فى غيبوبة طويلة. وقررت ان افعل شيئا.. وعندما اتى وقت التمشى اخبرت الحارس انى مريض واريد البقاء فى الزنزانة.. وحالما ذهب الجميع الى فناء السجن اخذت اثناء الماء وقذفت به زجاج النافذة فحطمت لوحين منه.. ودوى صوت الزجاج فى ذلك الهدوء القاتل وكأنه قنبلة رهيبة. واندفع للزنزانات خمسة عشر من الحراس.. فى جنون وغضب. القوا بانفسهم على.. كل واحد منهم قبض على جزء من جسدى، ثم جرونى الى زنزانة الحبس الانفرادى التأديبية (كلرس).

وبعدها بساعتين اقتادوني الى باردن.. كان يجلس خلف طاولة الكتابة واضعا رجلا على

أخرى ومتكئا بمنكبيه على المنضدة.. وعندما لحنى ادخل صالح هائجا..
— من أنت؟.. أهى انتفاضة؟..

ونظرت اليه باستغراب.. فاستمر يقول
— تحدث.. اعترف.. انا اعرف كل شيء..

— من فضلك عن أى شيء تتحدث؟ أى انتفاضة تعنى؟

— أى انتفاضة؟ أنت الذى أعطى إشارة البدء بها.. اعترف فى الحال وإذا لم تفعل فسوف
تكون اليوم فى جزيرة (سكيرى قورى)

وكانت هذه الجزيرة عبارة عن نقطة صغيرة فى البحر.. بها منارة وحارس واحد.. وهناك
كان يقتل المحكوم عليهم بالغضب، والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة.. ترمى جثثهم فى
البحر للأسماك المتوحشة الضخمة.
وأجبت باردن..

— يمكنك ان تفعل بى ماتشاء فانت صاحب السلطة، ولكنى اقول لك انى لم اعط إشارة
لاحد، ولم يخطر ماتقول على بالى.. كل مافى الامر انى لم ارد ان اموت اختناقا فى الرنزانة..
اربت الهواء الذى تضنون به علينا.. ومضى وقت طويل.. طويل.. وهو يحاورنى.. ويريد
ان ينتزع منى اعترافا مستحيلا.

وحين يش من الحصول عليه كتب فى محضره ملحدث وأمر باعدتى للرنزانة التأيبية.
وبعد خمسة ايام اعدونى للرنزانة الاولى. وكان الجميع سعداء بعودتى.. وبالعقوبة
الخفيفة التى نلتها.

فقد كانوا يتوقعون لى سوء اكبر..

وبعد هذه الحادثة سمحوا لنا بفتح النافذة وقتما نريد.

وكان ذلك انتصارا كبيرا، هنانى عليه (فبزر) واتى يضبط على يدى بحرارة.

ومضت ثلاثة اشهر.. وذات ليلة ايقظنى الحارس وامرنى بارتداء ملابسى.. ووجم الجميع
عندما اقتادونى من الرنزانة.. اما انا فقد ايقنت بان لحظاتى الاخيرة قد دنت.. كان هذا زمن
محاكمات (بهارين) و(ركوف) (وبياتكوف).. حيث اتسعت رقعة الارهاب الجماعى الفظيع
فى السجون والمعتقلات.. واعدم عشرات الالاف من الناس رميا بالرصاص.
اقتادونى الى فناء السجن، حيث كانت عربة لورى واقفة بجانب مدير السجن.. وكان هناك
ايضا عدد من الجنود.

امرونى بركوب العربة فى حراسة اربعة من الجنود برشاشاتهم.

— وكان على ان اطيعهم فاندطع على وجهى فى ارضية اللورى.. وغطونى بمشمع ثقيل.

وفى الطريق اخذت افكر بزوجتى التى قست عليها الايام ماتت ابنتنا، وبعد قليل ستمتعت
عن موتى انا ايضا..

بالطبع، سيخبرونها بانى مرضت ومت.

واخذت افكر فى الطريق البعيد الى جزيرة سكيرى قورى وكيف يجب علينا ان تمر بجوار
(كرملى) وبعد ناخذ قاربيا بخاريا.

ولكى يمخرون بى عباب البحر فى هذه الظلمة.. لماذا يقودوننى الى تلك المسافة البعيدة..؟

١ والموت هنا.. هو الموت هناك.
ووصلنا الى كرملي ووقفت العربية.. فلزاح الجندي المشمع وصاح بي..
—قف—

ولم أستطع الحركة.

—قف يا ابن الكلب

٢ ولم أستطع النهوض.. فصاح الجندي

—هي.. انت؟.. ماذا بك؟.. هل قطست؟

فلم أحر جوابا.. وأخذني الجنود من رأسي وقدمي والقوا بي خارج العربية.. وجذبني
احدهم من ياقة بدل السجن وجرني الى احدى الفرندات ورمى بي الى الارض.
رقدت بلا حراك.. مغمض العينين.. ولم أفكر في شيء.. كنت احاول النوم.. وذهبت في
غيبوبة طويلة.

وعندما ايقظوني كان ضوء الشمس يملا الافق.. وقف امامي مدير السجن الذي سبق ان
تعامل معنا عند حضورنا الى هنا في عام ١٩٣٧م. وكان في يده قصاصة من الورق..
قرأ على منها قرار ادارة السجون في موسكو التي حاكمتني للجنوح وكسر زجاج النافذة،
وسب ممثل البوليس السياسي، بعشرين يوما في الحبس الانفرادي (كارسي).. وبغرامة
قدرها اربعة واربعين روبلا قيمة الزجاج الذي كسره.

ووقعت على القرار، ثم قادوني الى المبنى الابيض للمكتبة الرابعة، في الممر ذي العشرين
زئزانة. واستبدلوا حداثي بأخر من السعف ولحاء الشجر (لابتي).. ورموا بي في زئزانة
الحبس الانفرادي (كارسي).

كان علي ان احبو حتى أستطيع المرور من فتحة القضبان السفلى الحديدية الضيقة.
كانت الارضية من الطوب.. والزئزانة ضيقة ليس بها نوافذ. وفوق القضبان الحديدية
اوقدت لمبة صغيرة كهربائية.. ليلا ونهارا كانت الزئزانة رطبة وباردة.. وكان علي ان اتحرك
باستمرار... وان اقوم ببعض التمارين الرياضية لليدين.. ولكنني لم أستطع فعل ذلك لمدة
طويلة.. فقد اصابني تعب هائل غريب.

وفي الصباح التالي أحضر لي الحارس طعام اليوم.. وهو عبارة عن ثلاثين ديكاجرام من
الخبز ويراد من الماء الساخن. ولا شيء آخر وقد أفادني الماء الساخن حتى ان خذي ابتل
بالعرق.

وفي اليوم الخامس تحصلت على لتر من الشورية...

وخلال الليل كان البرد شديدا جدا.. وكان من المستحيل ان اجد الدفء في الكنبه الضيقة.
ولكني افعل ذلك خلعت قميصي ولففته حول رأسي ووجهي.

وسمعت صوت ياردن... امام الباب.

—من هذا المسجون؟..

واخبرته بما فعلت لكي اجد الدفء فصاح بي..

—ولاجل ذلك انت هنا.. هيا ارح القميص عن رأسك ووجهك وسارع بارتدائه... والا خلعت
ثيابك كلها وابقيتك عاريا.

وفي اليوم الحادى عشر لوجودى فى تلك الزنزانة جاء مدير السجون فى زيارة للسجن..
عقداء وجنرالات البوليس السياسى.. كانت شبه لجنة.

سالونى.. لماذا سجنتم؟ فاجبتهم بكل شىء.. افرغت مائى نفسى.. قلت لهم انى شيوعى
اجنبى.. وفى البلاد الاخرى واجهت السجون والمعتقلات لذلك.. ولكن فى اى مكان لم الق
مالمقيته هنا.. من رعب واضطهاد وظلم.

وكان ردهم.. حسنا.. حسنا.. سنرى ملتقول.

ثم نصحنى احد الجنرالات ان اكون مطيعا، وان لا اتحدى قوانين ولوائح السجن.
وشعرت بالراحة عند انصرفهم.

وبعدها بساعات نقلونى الى زنزانه اخرى فى نفس الممر.. كانت بها نافذة، وذات ارضية من
الخشب.. ومساحتها ضعف مساحة الزنزانه الاولى.. وهناك قضيت ماتبقى لى من مدة
الحبس.

وقد افاد نى واراحنى كل الذى قلته لهم.. ولكن مضت عشرون يوما على حبسى الانفرادى
ولم يات من يخرجنى من (الكارس).

وخطبت على الباب.

فجاءنى اسوأ حرس السجن.. رجل حاد فظ.. كثيرا ما كان يضايقنى ويترك الماء الساخن
الذى يحضره لى مكشوف حتى يبرد.

سالنى لماذا اخطب.. اخبرته بانتهاء مدة حبسى.. فنهضنى قائلا.. اياك ان تخطب مرة اخرى.

واستفرتنى كلماته جدا فاخذت فى الصباح.

— لا تصرخ، والا البستك ملابس المجانين.

ولم آبه له.. ازدت صراخا وخطبا على الباب.. وسمع بذلك الضابط النوبتى.. فسالنى —

ما الامر.. اوضحت له موقفى.. وكان مهذبا.. طلب منى الصبر حتى يرى مايمكن فعله. وعاد
بعد قليل ومعه قطعة خبز وشوربة.

قال لى:—

— كل فى الادارة لايوجد احد.. وسارى فيما بعد.. ولم يخبرنى احد باطلاق سراحك اليوم.

وفى الليل اخرجنى من الحبس الانفرادى (كارس) وقادنى الى زنزانه فى الطابق الثانى
بنفس المبنى.. بها ثمانية اسرة.. وأشار الى سرير كان مفروشا ومغطى ببطانية قنلا:—

— ارقد.. ونم.

واثناء نومي شعرت بيد تدفعنى.. ونظرت، فاذا بنفس الضابط يقف بجوارى.. امرنى

ان ارتدى ثيابى.. واستغربت كان الوقت ظلاما والصبح لما يطلع بعد.

— لماذا لا تتركنى انام..؟

— ستجد الوقت الكافى للنوم.

وقادنى بنفس المبنى الذى اخطرت فيه بقرار العقوبة عند كسرى للنافذة.

وسلمنى لجندى كان يقف هناك..

— هذا هو صاحبك.. قد.

وعلمت.. وباليهل ما علمت.. علمت اننى لو لم اصح واخطب على الباب ليقبت فى

الحبس الانفرادى الى مشاء الله. فانا اجنبى ولا احد يهتم بى.. وفى جزر مسكولم نسى

المسؤولون اننى على قيد الحياة.

وسخر الجندي منى قائلا:

— ما بالك لاتشبه الادميين..؟ اشعث.. اغبر.. وسخ للغاية!!

ولزمت الصمت.. فقال بعد فترة..

— حسنا... لنمشي.

وكانت هناك عربة كرو ارقدنى عليها وغطانى بالمشمع.. واستغربت فلم يكن ذلك الجندي مسلحا.. وسارت العربة بببطء.

وقفنا فى منتصف الطريق.. ازاح الجدى المشمع عن راسى وسالنى بحنان. كيف

اشعر؟ وهل انا جائع...؟ وانحبست الكلمات فى حلقى.. فاجاتنى رفته ومعاملته

الانسانية..

ومد لى قطعة كبيرة من الخبز قائلا:

— خذ هذا.. وكل.

واكلت بصمت فتقاطرت دموعى على الخبز.. وجلست فى العربة حتى لاحت لنا معالم

مسكرولم.. وطلب منى الجندي المهذب أن اعود الى وضعى الاول خوفا من أن يرانا احد

فاتعرض هو وانا للعقاب.

وعدت الى زنزانتى القديمة.. رفاقى كانوا وقتها فى دورة المياه.. وعندما عادوا فوجئوا

بى.. ولم يعرفونى للوهلة الاولى.. فقد نمت ذقنى وتهدل وجهى واتسخت ملابسى وجسدى

وكل شئ فى بدنى.. كانت رجلاى متورمتين.. كانها ارجل الفيل.

والى تلك اللحظات وزع الاقطار.. كل منهم اقتطع جزءا من طعامه ومده لى.

ولم ارد اخذ شئ.. بكيت فى صمت.. وحكى لهم كل الذى عانيتة..

وعندما علموا بانى كنت فى الحبس الانفرادى (كارسى) قالوا بانهم خمنوا ذلك. الا ان

بعضهم ظن انهم اقتادونى الى سكين قورى، وهناك عذيونى وقتلونى. وبعضهم جمع به

الخيال فاعتقد انهم اطلقوا سراحي واننى عدت الى وطنى..

كان فى تفكير كل منهم امران فقط..

موت او حرية

موت ستانكو درافج

وفي نفس اليوم اقتلوني الى الكرملى لاستنحم وأحلق شعر راسى وذقنى.. وقد جدت نفسى فى زنزانة صغيرة مع ثلاثة اشخاص، كلنا من اليوغسلاف.

ستانكو درافج من معارفى القدامى، رايته فى عام ١٩٢٣م بمدينة زغرب عندما كان رئيسا للعمال فى مصنع الاحذية (زافرنيتسى).

وفى صالات المصنع المذكور كانت تعقد تجمعات شباب الحزب الشيوعى المحظور.. وكان ستانكو ثوريا أصيلا، دائم الحركة والنشاط، سريع الكلام.. لا يتوقف ابدا فى البحث عن العمل واداء المهام الحزبية. كان رجلا بلا حياة خاصة على الاطلاق.. كل وقته مكرس للحركة العمالية الثورية.. وكان يفرح لاقبل نجاح نحرزه. وفى الحملات البوليسية عام ١٩٢٧م هرب من يوغسلافيا، ليعيش فى موسكو زمنا طويلا نسبيا.. وقد درس فى جامعة الامم الغربية.. وهى مدرسة لتعليم القادة الشيوعيين الذين عملوا فى الغرب.

وكان من بين الذين القى القبض عليهم وسط مجموعة كبيرة من الطلاب، وحكم عليه بثلاث سنوات سجنًا.. قضاهما بشجاعة نادرة وصبر عظيم.. وفى نفس اليوم الذى كان يستعد خلاله لمغادرة السجن، أخطروه بأن محكمة البوليس السياسى المكونة من ثلاثة أعضاء حكمت عليه بثلاث سنوات أخرى.

واحتج بشدة وباستمرار على هذه العقوبة القظيعة واللاقانونية. وكان ناثرا منفعلا على الدوام، الشيء الذى عرضه للعقوبات الصعبة.. وكان يخرق نظام السجن ولا يبايى بما يصيبه ابدا.

وعندما رايته لم استطع التعرف عليه اطلاقا، خدمت عيانه الزرقاوان المتقدتان وتغضن وجهه. وكان يشكو باستمرار من آلام حادة فى بطنه.. ولم يكن يستطيع اكل شيء.. فكان يشرب قليلا من الشاي والشوربة مع قطعة صغيرة من الخبز.

ولعناده الدائم وتمرده المستمر فى السجن، هُذِّد الضباط بأنه سينتهى فى جزيرة سيكرن قورى.

ولم تستطع هذه التهديدات ترويضه.. كان جسده محطما ولكن روحه بقيت متقدة عالية. كان انسانا غير عادى على الاطلاق. وقد حاولت ان اهدئه بكل الطرق.. فقلت له يوما.. — سيقتلونك.

— الامر سيان. وخير لى ان اموت يشرى وكرامتى، بدلا من ان اعيش كالكلب. ونطق العبارة الاخيرة من بين اسنانه المصطكة.

وفى ديسمبر عام ١٩٣٨م أخطروه بأنه قد حكم عليه بثلاث سنوات أخرى. فما كان منه الا ان سب الضابط الذى قرأ عليه منطوق الحكم، سبا مقدعا.. دفع ثمنه غاليا، اذ قضى فى الكارسر عشرة ايام رهيبة. عاد بعدها مسعورا ومسكونا بالغضب والنقمة. فصعد على النافذة، وبدأ يصيح.

— يارفاق. اذا قدر لاحد منكم ان ينال الحرية يوما ما فلينقل للناس، لكل الناس، ان درافيج تحطم بريثا وعذب بريثا. وتدافعت ادارة السجن.. كورجوكوف.. باردين.. وجنديان. فقيدوه بالسلال واقتادوه..

وكانت كلماته الأخيرة...

...وداعاً.. يارفاق..

واقْتادوه الى جزيرة سكيرى قورى...

وهناك قتلوه..

والقوا بجثته فى البحر..

اما اليوغسلافى الثانى فكان اسمه انطون (وقد نسيت عائلته).. شيوعى مناضل صلب من مواليد مدينة اسلوفينيا.. نحيف.. متوسط الطول.. اسمر الجلد.. فى الخمسين من عمره يتخلل الشيب شعر رأسه.

هرب من يوغسلافيا فى عام ١٩٢٠م، وقبض عليه فى هاركوف عام ١٩٣٧م - وحوكم بعشرة اعوام سجنًا، مدانًا بتهمة الثورة المضادة.

قابلته فى نورلنك.. ولست ادرى كيف قتلوه، ولكنه كان شجاعا بكل تأكيد.

بعد رحيل درافيج الماسلوى احضر لزنزانتنا الأمريكى الاقال، الذى عمل لمدة عامين مستشارا فى مصنع المعادن الكبير بمدينة بتروزا فودسك عاصمة كارلى.. وفى احدى المناسبات ذهب للصيد على الحدود الروسية الفنلندية، وهناك اعتقله جنود حرس الحدود الروسى.. واتهموه بالاجسوسية. وعندما كانوا يتحرون معه طلب منهم اخطار السفارة الامريكية بالامر فوعدهم، ولكن لم يفوا بوعدهم.

وحوكم بخمس سنوات سجنًا فى معسكرات العمل الاجبارية، واقْتادوه الى جزر سولوفيتسك.

وقد قام بمحاولة للهروب من السجن بعد عامين قضاهما فيه معانيا الظلام والضيق والبؤس. وكان معه فى تلك المحاولة اثنان من المحكوم عليهم بالاعمال الشاقة.

نجحوا فى الحصول على قارب لصيد الاسماك.. وفى ليلة مظلمة تسللوا به الى عرض البحر الذى كان مضطربا هائجا..

وقد بذلوا مجهودا خارقا وانفقوا زمنا طويلا مجدفين الى - الشاطئ الاخر.

وعند وصولهم لم يكن الفجر قد طلع بعد.. وظنوا بانهم نالوا حرياتهم.. وجلسوا يتشاورون وينالون قليلا من الراحة قبل الانطلاق الى الحدود الفنلندية.. واذا هم فى جلستهم تلك، فلجأتهم عواء الكلاب. وهربوا داخل الغابة. أخذهم قبض عليه فى الحال.

والاخراج هربا نحو الحدود الفنلندية.. واستترا بظلام الليل يزحفان حوالى المائتى متر.. وعندما سمعا خريف المياه وايقنا بالنجاة، لمحا جنديين روسيين بكلاهما.

واضاء الجنديان الطريق.. وبدأ الهاربان يجريان نحو جدول المياه.. ولاحظهما الجنود فاطلقوا وراءهما الكلاب غير انهما وصلا الاراضى الفنلندية.

واغرب شيء أن الكلاب امسكت بلاتال ولم تتركه ابدا حتى تم القبض عليه وضرب بعنف وبلا رحمة واقتيد الى سجن (كم) اما الآخر فقد تمكن من الهرب.

وفى ذات يوم اخرجوا (لاتال) ومعه السجن الاخر الذى شاركه فى عملية الهروب.. وجمعوا كل السجناء فى الساحة، ثم نطقوا بحكم الاعدام عليهما.. لمحاولة الهرب.

كانوا يريدون ارباب وتخويف السجناء.. فاعلنوا فى جميع انحاء المعتقل أن عقوبة الاعدام قد نفذت..

ولكن الحكم كان بعشر سنوات لكل منهما.

اعدام الراهبات

كان لاتال يعرف الكثير.
قابل احد القرويين الاوكرانيين فنييتسكوق، كان يقطع الاشجار كسجين في غابات كارلي.
حكى له الكثير.
كان الذين حكم عليهم يعملون تحت ظروف شاقة وقاسية للغاية.
وعندما كان الياش يملكهم.. وتظلم الدنيا امام عيونهم.. يبدأون في قطع اصابعهم.. نعم
هكذا يفعلون.. يقطعونها بشجاعة نادرة ويضعونها على جذوع اخشاب الاشجار ومعها
نداء موجه للضمير الانساني يطلبون فيه الرحمة.. من هذه القطاعات المؤلمة التي
يعيشونها.. وكانت تلك الاخشاب معدة للتصدير الى انجلترا.
تلك واحدة من حكايات لاتال... وقد حدثنا ايضا بما يلي: منظر فظيع شاهدته عام
١٩٣٥م في جزيرة سلوفسك. كان بتلك الجزيرة حوالى الثلثمائة راهبة.
كن ينتمين الى طوائف مختلفة... وارادوا ان يجبروهن على العمل الشاق.. ولكنهن
رفضن ذلك باصرار.
اى عمل خلاف التمريض في مستشفيات معسكرات الاعتقال كان مرفوضا منهن.
ولم توافق - بالطبع - ادارة السجن على اقتراحهن ذاك، فعاقبتهن بالحبس الانفرادى
(كارسي).
وفي ذات يوم نقلن الى مسكولم للعمل في مزارع تربية الحيوانات. وكان ردهن القاطع:-
- لن نعمل لاعداء المسيح.
فتم جمعهن في ساحة السجن ووقفوهن في صف طويل.. وتقدم مدير السجن شاهرا
مسدسه من الراهبة التي كانت تقف في الصف الاول، وسالها:-
- هل ستعملين؟
- لن اعمل لاعداء المسيح..
ودوى الرصاص.. وسقطت الراهبة.
وبركت بقية الراهبات وركعن على الارض يصلون الى الرب. وتوجه مدير السجن الى الراهبة
التالية وسالها نفس السؤال.. فسمع نفس الاجابة.. لن نعمل لاعداء المسيح.
ودوى الرصاص.. وسقطت الراهبة.
وهكذا بدأت المجزرة الرهيبة. نفس السؤال.. نفس الاجابة.. دوى الرصاص.. السقوط..
ثم الموت. حتى تغذت ذخيرة المدير فصاح هائجا.
- شراميط ملعونات.. سارسلكن جميعا الى ريكن. وكن راكعات يصلين..
وامر مدير السجن مجموعة من رجال البوليس السياسى لكى يعمرؤا بنادقهم ويكونوا على
اهبة الاستعداد لاطلاق الرصاص. ثم صاح بعيد السؤال.
- يا كليات.. يا قذرات.. هل تردن العمل.. وترتفع اصواتهن الرقيقة وهن يرتلن الصلاة..
وينطلق صوت آمر..
- اضرب.

ويبدو الرصاص.. وتسقط الراهبات.. ويختلط الدم بالتراب..
وعندما انتهت المجزرة الرهيبة.. التفت المدير نحو السجناء والقي عليهم خطبة منفعة.
— في الارض السوفيتية، لا مكان للطفيليات.
وانهى خطبته قائلا:—

— من لايعمل سيجد نفس المصير.
وأمر السجناء بحفر القبور للراهبات.
انتهت قصة لايتال.. ولم نستطع النوم.. تلك الليلة.. كل ذلك حدث هنا؟
وفي نفس الدائرة التي نعيش فيها الآن؟!

وكان علينا في زنزانتنا الصغيرة ان نفصح المجال لرجلين سيعودان من المستشفى.
ودخل علينا اثنان قصيران تبدو عليهما دلائل القوة.. شعرهما اشقر طويل.
وتلقيناهم بالاسئلة الملحة الكثيرة.. من هما؟ ومن اين جاء؟ وماهى جريمتهما؟
كانا اخوين.. من فنلندا.. يقطعان الاشجار.. من اعضاء جمعية الشبيبة الشيوعية
المحظورة.. هربا الى روسيا بموافقة قادتهما وقد وقعا في ايدي حرس الحدود الروسى..
فاتهما بالجاسوسية والتخريب.. وكشفا للبوليس خطبا سريا كتب على قطعة قماش توضح
بانهما هاجرا لروسيا بناء على رغبة جمعية الشبيبة الشيوعية الفنلندية.. ولكن ذلك لم
يفد بشيء.. وعمدوا الى تعذيبهما وضربهما ليلا ونهارا حتى «اعترفوا» بانهما حضرا
للاتحاد السوفيتى بناء على رغبة المخابرات العسكرية الفنلندية، للقيام بعمليات تخريب.
وبعدها تم نقلهما الى سجن البوليس السياسى فى بتروذاقودسك. وطلب منهما ان
يحكما عن المهمات التى كلفتهما بها القيادة العليا العسكرية فى فنلندا.
واعلن الشبان ان اعترافاتهما باطلة.. وكانت تحت وطأة الضرب والتعذيب. وانهما ليسا
من المخربين.

ولكن هيهات.. ضربوهما من جديد.. ضربا مبرحا لا مزيد عليه حتى وقعا على الاعتراف
الاول.
وحكما بثمان سنوات سجنا.
كانا مرهقين.. جائعين.. اصيبا بامراض خطيرة.. نقلا على اثرهما للمستشفى.. وكانت معاملة
الطبيب لهما غير انسانية على الاطلاق.
حوالا مرات عديدة الحصول على تصريح للخروج من المستشفى ولكنهما لم
ينجحا.. فمكثا هناك ثلاثة اسابيع كاملة ساموهما فيها سوء العذاب. ونادرا ما كان مريض
من ذلك المستشفى يغادره وهو على قيد الحياة.
ففى الغرفة التى كان بها ثلاثين سريرا مات اربعة وثمانون شخصا.
كانت مستشفى بدون ادوية.. بها مواد مخدرة ومسكنه لمنع تسرب اصوات الانين
والصراخ.

الاطباء فى غاية القسوة.. الممرضات كن الطف قليلا.. ولكن ماذا يجدى كل ذلك..

قطعة من الخبز.. او حفنة من السكر.. وابتسامة مختلفة، ذلك كل ما كان يقدمه.
كانت حالة اصغرهاما تزداد سوءا يوما بعد يوم.. الطبيب كان يستمع اليه وهو يشكو الامه
بلغة روسية ضعيفة.. ولم يجر عليه كشفا..

بل قال له:-

— ستحصل على سفوفه.

وفي اليوم التالي احضرت له الممرضة السفوفة، ولكنها كانت ممنوعة من دخول الزنزانة..
فدفعت بها من كوة الباب. وكان الشاب الفلندي في غاية التعب والارهاق.. فاخذ يحبو
ويحبو حتى وصل الى الباب.. ورقد على الارض فاتحا فمه ومن خلال كوة الباب سكبت
الممرضة السفوفة في فمه.

واخذوه الى المستشفى.

ولكنه لم يعد منها ابداً.

ومرت الشهور.. رتيبة مملة.. كنا نسمع فقط اصوات النورس البحرى.. وكان صوته عندنا
يرمز الى الحرية. وفي يوم من الايام اخرست اصوات النورس.
في الوهلة الاولى لم ندر ما حدث.

جاءت لجنة من موسكو.. وطاق بخيال احد اعضائها ان السجناء ربما استخدموا طائر
النورس في ارسال الرسائل.

وقررت اللجنة ابادة النوارس التي ظلت تعيش هناك منذ الابد.

وتذكرنا اصوات الطلقات التي لم نجد لها تفسيراً ائذاك.. واعتقدنا انها مناورات حربية.
وهكذا اعدم البوليس السياسى واباد طيور النورس بتهمة الثورة المضادة.

وفي ربيع ١٩٣٩ اعيد خلط السجناء في الزنزانات.. وفي مجموعات جديدة.

وبهذه المناسبة تعرفت على السكرتير السابق للحزب الشيوعى المحظور لغرب
اوكرانيا جوزيف كريليك، الذى كان عليه ان يهرب من بولونيا عام ١٩٣٤م.. في نفس العام
الذى انتحر خلاله زعيم الحزب الشيوعى الاوكرانى سكرانك بعد ان علم بأنه سيلقى
عليه القبض بتهمة التفرقة العرقية.

في ذلك العام عاشت اوكرانيا اياما عصيبة للغاية. الاعتقالات الجماعية كانت في
الاجندة اليومية.. اكثر الضرر اصاب الاوكرانيين الذين يسكنون في الجزء التابع لبولندا.

وقد لقي القبض هناك على كريليك.. وفي السجن اصيب بجلطة دموية في المخ شلت
الجزء الايسر من جسده. وقد قلبي ذلك الرجل الكثير..

كان عصيبا جدا.. وكان يدخل في مشاجرات ومصارعات مستمرة مع ادارات السجن.
وعندما لاحظنا وجود بعض الديدان في الخبز هزه جدا ذلك الحدث وثّر مبدىا استياءا
كبيرا.

وقد سحبوه من الزنزانة.. ولم نره بعدها ابداً. وكان كل ما تركه وراءه بضع
سيجارات وفرشة اسنن.

في شهر سبتمبر من عام ١٩٣٩م اقتادونا لاجراء الكشف الطبى امام لجنة من
الاطباء.. وسألونا بدقة..

وفوجئنا.. لأول مرة نحس ان الاطباء يمكن ان يكونوا انسانيين.. كانوا راضعين جدا..
وتغيرت معاملة ادارة السجن.. توقفت الامانات.. والقسوة والمساس بالكرامة.
زادت فترات التمشي.. وسمح لنا بان نتحدث مع بعض.. ولكن بصوت منخفض.
ولم نر باردين.
وفي كل صباح كنا نسمع ضجيج عدد غفير من السجناء في ساحة السجن..
^١ وكنا نسمع نفس الضجة في المساء.
من المحتمل أنهم يعملون في مكان ما...
ولكن لماذا لا يقيدوننا نحن للعمل؟
ثم علمنا ان الاجانب لا تعطى لهم فرص العمل..
وبعد ثلاثة اشهر، وفي بداية اغسطس عام ١٩٣٩م. فتحت نتراننتا.
قالوا لنا انه يمكننا الخروج الى ساحة السجن.. ولم نستطع ان نصدق ماسمعنا..
وفي ساحة السجن قبلت زملائى القدامى.. من سجن موسكو، فلاديمير سولوفيتسك،
كرملى.
وقبلت مرة اخرى جبراكوف.. ماريف.. موروزوف.. فيبر.. وآخرين كنت قد نسيتهم.
وحدثت لي مفاجأة سارة كبرى بهذه النقلة الجديدة في اسلوب السجن.. اذ اتيح لي
ان اقابل فجأة ووجها لوجه اثنين من معارفى القدامى - جوزيف بيرغر المسئول الكبير في
الكومنترن والذي تعرفت به في فينا عام ١٩٢٦م.
ثم رودولف اوندرجاقى الشيوعى النمساوى المعروف.
وعرفنا ماذا تعنى تلك التحركات في السجون.. كشف طبي.. لجان طبية.. بعض الحريات..
الخ الخ.
سيبدأ العمل اذن في الجزيرة؟.. من اجل بناء ثكنات للجيش.. ومطار.. ومحطة
توليد الكهرباء.. ومستشفى.. ومنشآت اخرى.
الحكومة السوفيتية تستعد للحرب مع جارتها فنلندا.. في سلوفيتسك، كرملى تغير وجه
الحياة.
كنا نتحرك بحرية طول النهار.. وفي الليل كنا نعيش في اليوم نعيش في الهواء
الطلق.. وبلا انقطاع تحضر مجموعات جديدة من بقية الجزر.
— من أين جئتم يا رفاق؟
— من جزيرة زاجيكا..
— من ليسينا..
ولكن لم نسمع ان احداً عاد من جزيرة سكرين قورى. وتجمع حوالى اربعة الاف سجين..
عدد كبير بلاشك.
ومن المخازن احضروا ملابسنا المدنية.
وعمت الزحمة.. حمل احدهم حقيبته.. والاخر صرة ملابس.. ولكن حرص الجميع على خلع
ملابس المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة. وارتداء الملابس المدنية.
ووقف السجناء في مجموعات..
تحدثوا مع بعضهم البعض..

حكوا كل ما عاشوه.. وقاسوه.. وعانوه.
 ودبت الحياة في اوصال الجميع.. تحركوا.. ابتهجوا.. ضحكوا.. فعلوا كل شيء، على الرغم
 من أنهم كانوا يدركون جيدا أن ذلك قصير الامد.. وموقوت.. وزائل.
 احسوا أنهم سيذهبون الى رحلة بعيدة..
 ولكن الى أين..
 وفي أي سجن..
 وما هو اسم المعسكر الجديد..
 لم يكن احد يدري

الجلاء من جزر سلوفيتسك..

الساعة الثالثة صباحا.. الثالث من اغسطس عام ١٩٣٩م دوى صوت آمر.

— استيقظ.

وخرج السجناء من زنزاناتهم.. وتجمعوا في ساحة سجن كرملي. وكان مدير السجن وضباطه يقفون هناك في حالة استعداد قصوى.

وصاح مدير السجن كورجكوف.

— انتباه.. ايها السجناء الان ستذهبون من هذه الجزيرة وستنقلون الى مكان آخر احذركم. كونوا نظاميين في طريقكم الى الميناء.. وخلال الرحلة ايضا اطيعوا اوامر حراسكم بلا تعليق. ان لديهم امرا باطلاق الرصاص عليكم اذا حاولتم الهرب.. هل فهمتم؟
وسباد صمت مطلق.

— انتباه.. اشياؤكم في ايديكم.. اصطفوا خمسة صفوف.. للامام مارش...

اربعة الاف وثمانمائة رجل تحركوا في حراسة جنود مسلحين للغاية.

وسمعت وقع خطاهم.. بدت لي منسجمة وذات ايقاع منتظم رغم انها غير منسقة.
وعوت كلاب البوليس السياسى وهى تقاوم السلاسل. وكان الواحد منا اذا عن له ان يثقل وراءه ليلقي نظرة وداع على الجزيرة التى ترك فيها جزءا عزيزا من عمره، اذا حاول ذلك انتهره الحرس بشدة. فيسر الى الامام.

وصلنا الميناء.. جلسنا في صفوف كما امرونا.. حضر الضابطون في يده حزمة من الاوراق عليها الاسماء..

وبدا النداء على الاسماء.. كان من ينادونه يجيب على عدد من الاسئلة ثم يقف جانبا.
وعندما تجمعت مجموعة من مائتين سجيناً اركبهم في قوارب صغيرة حملتهم الى باخرة شحن تجارية كبيرة. واستمر الامر لساعات طويلة، القوارب تحمل السجناء للسفينة وتعود فارغة لمتى من جديد، وفي النهاية تم اركاب مجموعة من النساء كن في احدى جزر سلوفيتسك.

كان عددهن حوالى سبعمائة امرأة..

البخرة الكبيرة عابرة المحيطات التى تحمل اسم المارشال السوفيتى بوجونيا والتى ظلت تنقل الاخشاب من اقصى الشمال الى الغرب.. كان عليها هذه المرة ان تنقل الادميين من السجناء الى مصرهم الجديد.

قسم جوف السفينة الى ستة عنابر.. كانت مربوطة الى بعضها البعض بسلاسل خشبية.. عميقة القرار.. وضعوا لنا الاسرة في قعرها البعيد.. ولكى نصل اليها كان علينا ان نزحف، ونزحف على ايدينا وارجلنا.

وفي مراتها وضعوا الجرادل لقضاء الحاجة.

وكانت الحراسة مكثفة ومدافع الرشاش منصوبة في كل زاوية ومنحنى.

وضعت في المجموعة الزامنة.. وعندما نزلت الى جوف البخرة سمعت اصواتا تدعوني ان اخذ مكانا.. وكانوا رفاقي القدامى..

جلست بالقرب من رودولف اوندراجق، ولأخذت أعين جوف الباخرة.. خيل الى انه كبير للغاية.. ولم نشأ أن نستلقي بدءا، فقد انشغلنا برؤية حضور الدفع الجديدة من المسجونين.. خيل الى ايضا ان هذه الباخرة تستطيع ان تبتلع في جوفها الهائل المزيد من الكتل البشرية.. ولكنى فوجئت بانها ضالقت على سعتها بنا.. وكان على القادمين الجدد الوقوف بالساعات خارج السفينة حتى يدبروا لهم مكانا.

ودوت الباخرة كأنها خلية نحل.. وحاول الناس أن يتحركوا كل ينشد وجهها يعرفه.. او يبحث عن مكان مريح.. ومر وقت طويل حتى هدا جوف الباخرة.

وفي اليوم التالي رفعت مراسيها وأقلعت.

الى أين..؟

لا نعلم.

ولم يكن احد منا يفكر في الطعام..

ومع ذلك أخرجنا ماعتدنا من زاد تحصلنا عليه خلال الرحلة.. وجلسنا جنباً الى جنب نحكى آلامنا.. ونحلل ظروفنا.. كلنا أصابنا الهزال والضعف والمرض.. ومع ذلك كانت ارواحنا عالية.

كما نفكر في ان اعتقال مليون شخص امر غريب.. ولابد ان يكون مكيدة مدبرة للنظام.. واختلقت تفسيراتنا للأجراءات الستالينية.. التي كانت قاسية للعقل والمنطق.. ولكنها كانت موحدة في امر واحد.. سوف تمر شهور قليلة ونكون نحن في منازلنا..

حلم.. وحلم كبير.. ولكنه كان حلم الجميع.

القليلون منا فقط كانوا يعلمون ان ذلك كله سراب خادع.

والآن.. وبعد سنين عديدة، عندما تلاشت الامل في خروجنا الى الحرية.. جلسنا نرقب في صمت الواح الطلج العائمة والباخرة الضخمة تمرق من بينها.. وتتجه الى حيث لا نعلم. استعرضت في مخيلتي.. وكان ذلك جال الكثيرين - ملامح الرعب والفرع التي عشتها في السجون الكثيبة.. ولم انجح في الإمساك بلحظة سرور واحدة، خلال تلك الايام العصيبة.

لقد كان ذلك كله حلما متعرجا وكابوسا جهنميا وشيطانيا في نفس الوقت.

ولقيت في الرحلة - ضمن من لقيت.. الرفيق سرجي بقوروف الرئيس السابق لمنطقة ستالينجراد.. وأذكر انه وعندما كنا معا في سجن لقورتوف سمعته يفلسف الامر بقوله.. ان كل الذي جرى له ضروري للغاية.

كان يعمل معاونا مقربا من الرفيق كوزنيكوف رئيس منطقة ستالينجراد الاسبق ورئيس اللجنة المركزية.. وقد كان يشغل منصب المدير العام لسكك حديد منشوريا وعندما بيعت السكة الحديد لليابان، نقل لمدينة ستالينجراد، رئيسا لمنطقة السوفيت.

وبعد ذلك اعتقل بتهمة التجسس لصالح اليابان وحوكم بالإعدام.. وقد اعتقد بقوروف ان اعتقاله الان امر طبيعي جدا وان الشك فيه لا يثير غضبه.. الم يكن معاونا لاحد المتهمين بالتجسس؟

وكان على ثقة شديدة من انه سيطلق سراحه قريبا وسيعيش مكرما اكثر من قبل.

وقد سريقوروف عندما وقع نظرد على . واهبل على . هاشا باشا ر . ما عن انه كان فيما قبل عزوفا عن الحديث مع اى احد . وكان يعتقد بانى عدو للشعب .. وأسرت أرد عليه التحية قائلا:-

— سلام .. يا يقوروف .. اما تزال انت هنا ؟..

— كما ترى ..

— كنت تعتقد بانهم سيطلقون سراحك قريبا ...

— كارلو .. لقد كنت انت على حق .. ولست انا .. !!

— كيف وصلت الى هذه الخلاصة ؟..

— يخيل الى ان الذين القوا علينا القبض هم 'ا' جرة المضادة .. وعلى راسها ستالين .

— برافو .. دعنى اهتمك .. انا مسرور لانك ادركت ذلك أخيرا .

— فى العامين السابقين وفى سجون فلاديمير وجزر سلولوفيتسك كان لدى الوقت الكافى للتفكير .

— أمل ان تكون قد ادركت مدى التشابه بين لعبة اشتراكية ستالين وعنصرية هتلر .. ؟

— اوافق بأن هذه ليست اشتراكية .. ولكن وضع لى انت هوية هذا النظام .. اذا لم يكن لدينا رأس مال مخصوص .. ونظر الى منتظرا اجابتي .

— تعرف .. لقد سئل الزعيم الروسى المنشفيك (دان) سؤالا قريبا من هذا فكان رده .. (الشييطان يعلم كيفية هوية هذا النظام) . كان ذلك بعد ثورة اكتوبر فى برلين .

وفى السفينة تعرفت على رجل كان نقيضا من الاخرين ..

أعلن عن نفسه بأنه عدو للسلطة السوفيتية . وكان أمثاله قليلين جدا فى ذلك الزمان .. كان ذلك الرجل كابتن الجيش فى روسيا القيصرية اسمه سافجنكو .. كان من الرجال القلائل الذين بقوا على قيد الحياة ..

حوكم بالسجن .. وزار ضيفا جل معسكرات الاعتقال منذ عام ١٩٢٧م

وفى عام ١٩٢٧م قضى فترة الحكم الأخيرة عليه ومدتها خمس سنوات فى معسكرات الاعتقال .. وعند عودته الى منزله فى اوكرانيا . انقضوا عليه وانتزعوه من القطار للسجن فى كوتلاس .. وحوكم مرة أخرى بعشر سنوات فى السجن المظلم .. وعلى الرغم من كل ذلك فإنه لم يفقد مرجه فى يوم من الايام .

كأن يعيد على اسماعنا دائما .. انه قد تشرف شرفا غير عادى اذ يجد نفسه سجيناً مع هذا العدد الكبير من الشيوعيين .

وكانت الرحلة قد أصبحت رتيبة جدا ومملة للحد البعيد ومرهقة للغاية .

ان الحيوانات نفسها ، لا تنقل بمثل هذه الطريقة . رقدنا على السقالات العارية المجهلة .. قضينا الحاجة فى الجرادل .. لقد كانت بالبخرة نورات للمياه .. بالطبع - ولكن لكى تصل اليها كان عليك ان تقف فى الصف لمدة ست ساعات على الاقل .

ونجحت مرة فى الصعود الى ظهر البخارة ، وتراعت امام عيني كمية هائلة من المياه ، ملئية اللون ، تمتد فى كل اتجاه الى مالا نهاية .

وتراعت لى السفينة وكانها قشرة تترنج فى كل تلك المساحة من المياه .

واجهتنا فى البخارة مشكلة مياه الشرب .. كان العطش رهيبا .. وكنا نتقاتل للحصول

على صفيحة من الماء العذب فقد كان طعاما هو السمك المملوح والخبز الجاف.
وتفشى بين المسجونين مرض الدوسنتاريا.. فقرروا اعطائنا شيئا يقال انه وجبة
دافئة.. شوربة الكروم، والفصوليا في اوان من الصفيح الصدئ.. وكانت الشوربة عبارة
عن ماء فقط توضع في اناء الصفيح الصدئ وتوزع لتكون نصيبا لعشرة من
المسجونين..

وبالطبع كان الذين ياكلون بسرعة اكثر يصيبون نصيبا اكبر.
واصيب الكثيرون بدوار البحر ولايام كثيرة لم يتناولوا طعاما.. وكانت الباخرة قد
بدات تن تحت وطأة الروائح الكريهة.. اذ ان جرادل الفضلات لم تكن تفرغ لايام عديدة،
فسالت محتوياتها وتدفقت على الارض.
ولم نعد نحتمل الامر وتعلات اصوات احتجاجنا حتى نجحنا في جعلهم يفرغون
الجرادل يوميا.

وقد سبب ذلك العطش والجوع، والدوار، والمرض، سبب الموت للكثيرين، وبدأت
الجثث تتهاوى الى اعماق البحر الرمادية اللون.
وعندما توقف الباخرة في مورينسك دفع اليها بعدد كبير من المجرمين تجوز
اللاثمائة سجيناً من مترددى الاجرام.

وحال صعودهم على الباخرة بدأت مسلسلات النهب والسرقة والسطو.
وحاولنا رغم المرض والضعف والتعب مقاومتهم فشهروا اسلحتهم وخناجرهم الحادة
واصيب الكثيرون منا بجراح صعبة.
واستطعنا ان نهدنهم بعد مجهودات مضنية شاقة. وكان الحرس غير مهتمين بما
يحدث منهم على الاطلاق..

كانما الامر لايعنيهم في شيء...

وقد تاقلم المجرمون بسرعة على الجو الكريه الذى كان سائدا في الباخرة.. واكتشفوا
ان بقاع السفينة مخزنا به كثير من الخبثات والبقالة الممتازة المرسله لاقصى الشمال..
فكسروا المخزن ونهبوا ملبات الالبان والبسكويث والشكولاته.. لم يتركوا شيئا قط.
جلسوا في مجموعات ياكلون.

وفي اليوم السادس لاجارنا هاجمتنا عاصفة مدمرة اصلبتنا بالرعب والفزع.. وخلصنا
معه ان الشياطين سناخذنا الى القيعان السحيقة حيث الموت والوحوش.. كانت الامواج
عالية اتحمت السطح واغرقت المكان بالمياه..

ولم يجد الذين يجلسون في العراء ملاذا من الريح والماء.. فزاد حالهم سوءا..
كنا على جوع وتعب.. ولكنهم لم يطبخوا لنا شيئا على الاطلاق.. وعلى الرغم من كل
شيء فلم تكن تفكر في ذلك.. كان همنا هو النجاة من ذلك الجو العاصف.
جرادل القاتورات بما عليها تطيرت مع الرياح وانكفت على وجوهنا واجسادنا.

وفي كل لحظة كان الحال يسوء ويتدهور الى الاسوأ. اغلب السجناء قدوا بلا حراك.
فما كانوا يستطيعون ذلك لو ارادوا.. يتقيئون ويسبون ويثنون.. واذكر اننا ونحن نبخر
في البحر الابيض وفي بحر بارنتسوف وبحر الكارسك ان حوالى المائة والخمسين جثة قد
القى بها في البحر.. وربما كان العدد اكبر.. ولكننا لم تكن نستطيع المتابعة فكلنا عن العدد

وفي ١٦ اغسطس دخلت البلخنة في كمين من الثلج.. ولم تستطع الخروج منه..
تلورت بقوة ولكن بدون جدوى.. ثم خمدت قواها فاستسلمت للثلوج والانحباس بينها.
وطلبت النجدة.

وفي ١٨ اغسطس وصلت كلسحات الجليد.. ومن بينها كاسح الجليد (لينين)..
واخيرا استطعنا ان نتخلص من المازق القاسية وظروفه الجبارة.. والقت البلخنة
مراسيها في الارض الجديدة .. واعطونا وجبات جيدة.. ثم تحركنا مرة اخرى.. وكان قائد
الرحلة يخشى من تزايد عدد الموتى.

وفي ٢١ اغسطس أبحرنا في بحر سيبيريا الكبير بنسى.. الذي ينبع من مكان ما في
منغوليا.. ويصب في بحر الكاريسك..

وفي اليوم الثاني القت البلخنة مراسيها في دودنكا.. بعد رحلة العذاب والموت..

احترام اباك وامك

عندما دنت الباخرة من الشاطئ، كانت السحب المنخفضة قد تعلقت فوق رؤوسنا. وامامنا رقدت صحراء ممتدة من الثلج والجليد. كانت الدنيا جرداء.. لا اثر فيها لشجرة ما.. غير ان بعض الحشائش تبعثرت هنا وهناك.. ودب في نفوسنا احساس حزين، بأن كل شيء قد ضاع وانتهى.. لا أمل.. ولا نجاة.. ولحنا رصيفا به منزل حشبي.. وكانت هناك محطة للقطارات الصغيرة.. وبدأ تفريغ الباخرة.. كان علينا ان نجلس على الجليد في انتظار النداء على اسمائنا وبعد ذلك تم شحننا في عربات السكة الحديد الصغيرة «دودونكا» نورلسك.. وكان اول من لقينا من البشر في هذه المنطقة السكنية الصغيرة مجموعة من المجرمين الذين يعملون في محطة السكة الحديد واتجه نحونا المجرمون وهم يحملون المجاري في أيديهم قائلين:-

- يا اخوان من اين انتم

- من جرسوويتسكي.

- آه.. اذن من سوء لاسوا..

- كيف تعيشون..

- آه سوف ترون..

- كيف تاكلون..

- اننا نحيا.. لن تلزمكم النساء.

وهنا عن لي ان اتدخل في الحوار فسألته.. لماذا انت في المعتقل..

- لانني لم احترم امي وابي ولكن قل انت محكوم عليك بخمسة وعشرين عاما.. هيه..

- كيف وصلت الى هذا الرقم..

- الفاشستي يحكم عليه - دائما - بخمسة وعشرين عاما.

- نحن لسنا من الفاشست.. اغلب من تراهم اعضاء في الحزب سابقين.

- آه.. اذن لم يعجبكم شئ سئالين..

وهنا كان قد تم حشر خمسمائة من السجناء في العربات الصغيرة دودنكا نورلسك.

وبعد حوالي المائة وخمسة كيلو متر كان علينا ان ننزل ونمشي بأرجلنا تجاه مناجم الفحم.. «نارج» التي كانت تبعد حوالي عشرة كيلو مترات.. كان الطريق يخترق بعض المستنقعات وكانت هناك أجزاء متجمدة.. نزلنا الماء وغصنا حتى ركبنا وبمشقة شديدة استطعنا ان ننزع أرجلنا مرة أخرى وكذلك صعدنا المنحدر ونحن نلهث من التعب.. كان بيننا كثيرون من المرضى الذين لم يستطيعوا الحركة الا بمساعدة الآخرين.. والقي كثيرون بحقائقهم واشيائهم لعدم القدرة على السير بها. لم يسمح لنا الحرس بأن نلتقط أنفاسنا او نستجم قليلا.. كانوا يخشون ان يداهمنا الليل ونحن في الطريق.

كيف بنينا خطوط السكة الحديد..

عندما وصلنا الى معتقل تادج كان النهار مازال يغطي على الافاق البعيد.. وراينا خمسة عنابر.. وخمسة من الخيام.. وفي أحد العنابر ذات الحوائط المصنوعة من المستطيلات ادخلونا.. كنا حوالى المائة والخمسين رجلا.. وتبينت من زملائي رودلف.. أوندراجق.. جوزيف بيرق ويقيم موزوف.. كانت الاسرة من ثلاثة طوابق جوزيف بيرق اتخذ مكانه في الطابق الاسفل.. اما اوندراجق وموزوف وانا فقد بحثنا عن اسرة في الطابق الثالث.. وكانت هناك مدفأة حديدية تقف في منتصف العنبر.. مدفأة من النوع الذى يوقد بالفحم.. وتجمعنا حولها.. ننشد الدفء وفي نفوسنا نتقد الحسرة والحر.. هنا لامرخرج ولانجاة.. وحضر موظفو المعتقل كانوا من المجرمين اوكل اليهم امر تهذيبنا واعدادنا لنكون مواطنين سوفيت.. بدلا من الوضع الذى نحن فيه الان - كثورة مضادة.. أقهملنا جلينا ان علينا النهوض في الفجر الباكر للذهاب الى العمل، ولكي يتحقق ذلك فلا بد من النوم المبكر جدا.. وسألونا هل نود ان نبيع ملابسنا.. ثم نصحنأ أحدهم قائلا.. من الاحسن بيعها والا سرقت منكم.. وكنت متعبا جدا فممت في الحال.. وعند السادسة صباحا صاح فينا صوت آمن.. استيقظوا.

وعقب ذلك النداء بربع ساعة تقريبا.. اقتحم علينا العنبر جماعة من الحرس وبايديهم العصي الخفيفة.. وهم يتصايحون.. وكانت هذه الجماعة.. هي حرس المعسكر المكون من عتاة المجرمين والموكل اليها الاهتمام بالا يتخلف اى سجين عن العمل.. فلذا وجدوا ان احدا لم ينهض في الميعاد المحدد انزعوه من السرير انتزاعا.. الاطرار يجب ان لا تزيد مدته على النصف ساعة بحال من الاحوال كنا نذهب للاطفار في المطبخ الذى يبعد ثلاثين مترا عن مواقع غرفنا.. وهو عبارة عن مبنى صغير من الخشب عليه كساء من الورق المصقوق.. ومن خلال نافذة من المطبخ كان يترصدنا بنظراته رجل عجوز اصلع.. يقف بالقرب منه رجل فتى السن في يده مغراف للطعام.. وامامه برميل خشبي يتصاعد منه البخار.. وعلى المنضدة بضغ سمكات مملوحة.. ومددت له كيون الاكل الذى تحصلت عليه من رئيس العمال ومعه حوالى الستين ديكلجرام من الخبز.. وسألنى الاصلع.

- اين اناؤك..

- ليس لدى اناؤ.

- اتريدى ان اصيب لك الحساء في طاقيتك..

واخذت السمك المملوح وذهبت ابحث عن اناؤ.. ولم اعثر على ما اريد وفى العنبر الثانى الذى كان به السجناء القدامى.. كانت هناك كمية كبيرة من الاواني معظمها عبارة عن علب فرغة.. ولكنهم رفضوا ان يعطونى واحدة.. ودقت الاشارة التى تدعو للعمل.. وقللوا شباك المطبخ.. وذهب معظم السجناء للعمل يدون وجبة دافئة.. وقد تم تقسيمنا للعمل على دفعتين.. دفعة للعمل في المنجم والدفعة الثانية اُرسلت لهناء قضبان السكة الحديد العتيقة لدودنكا.. نوراسلا.. وكان من نصيبى العمل مع المجموعة الثانية.. لم يكن للمعتقل سور ولكن بين كل خمسين مترا والاخرى وقف برج للمراقبة به جندي في يده مدفع رشاش ولايسمح لاحد ان يخرج من ساحة المعسكر قهرا.. في السابعة الا ربعا اجتمع كل

السجناء في مكان واحد، ثم اتجهنا لمواقع العمل في خمسة صفوف.. لكل فرقة.. والفرقة مكونة من خمسين رجلا، على رأسهم رئيس الوحدة او الفرقة الذي عينته ادارة السجن. وعندما يكتمل وقوفنا في الصفوف يخرج رئيس الفرقة الى الامام ويقف امام قائد معسكر الاعتقال ويعلنه بالاتي..

- الفرقة الخامسة قوتها خمسون رجلا مستعدة للتحرك للعمل فورا.. وكان رئيس الحرس النوبتجي يبدأ في النداء.. الاولى الثانية... الثالثة.. وعلى بعد عدة امتار يستلمنا حرس آخر ومرة اخرى يبدأ النداء على الفرقة واحدا واحدا.. وبعدها يصيح المدير..
- احذروا.. يا سجناء.. في وقت السير ممنوع الكلام بتلاتا.. ومحرم قطعاً الانتقال من صف لآخر.. السير خطوة لليسار او اليمين خارج الصف معناه طلقة رصاص تصيب المخالف.. ودون اذذار احذركم.. فهل فهمتم..

- يا حراس عمروا السلاح.. للامام سر.. وتحرك مئات الرجال. الحرس بسلحهم المعمر والكلاب الشرسة تعوى وهي تركض بجانبهم عطشى للدماء. لم يكن مكان العمل بعيدا.. ربع ساعة فقط من موقع السكن.. وقسمونا مرة اخرى الى مجموعات كل مجموعة على رأسها رئيس ومهندس للمباني.. وكان المهندس يشرح لرئيس المجموعة نوعية العمل المراد انجازه.. وكان علينا في البدء ان نجلب الخرسانة الى موقع الرمية، على عربات صغيرة بعجلات ندفعها نحن بأيدينا، فقد حصل كل ثلاثة منا على عربة صغيرة بعجلات.. اثنان منا يصبان الخرسانة والحصى بالجاروف والثالث يقود العربة.. وعندما تكون العربة في طريقها للتفريغ تكون الثانية في حالة تعبئة كانت ساعات العمل اليومي هي احدى عشر ساعة وعلينا ان تكمل فيها الحد الأدنى من معدل الانتاج.

كل ثلاثة اشخاص احدى عشرة مترا مكعبا.. و حسبنا ذلك.. حولناه الى احصاء رقمي.. كان يتحتم على كل عربة لكي تصل الى المعدل الاحصائي اليومي ان تقطع مسافة مجموعها خمسة عشر كيلو مترا.. منذ وصولنا في العمل الى المعدل الاحصائي يحصل كل منا على سبعين ديكاجرام من الخبز.. اما في الصباح وفي المساء فما نحصل عليه هو لتر من الحساء.. وخمسة وعشرون ديكاجراما من عصيدة الدخن.. او عصيدة اخرى.. وثلاث مرات في الاسبوع نحصل على عشرين ديكاجراما من السمك المملوح.. ومع مطلع كل شهر نحصل ايضا على تعيين الشهر من السكر والصابون سبعين ديكاجراما من السكر.. وخمسة ديكاجرام من الصابون للغسيل. ام الذين يصلون بالمعدل اليومي للانتاج الى ١٢٠٪ فتصيبهم جائزة من الطعام الاضافي عبارة عن عشرين ديكاجراما من السمك المملوح.. والذين يفشلون في انجاز الحد الأدنى من المعدل اليومي للانتاج تنقص كميات الطعام المخصصة لهم.

هكذا كانت الامور تسير.. دون مراعاة لحالة السجناء الصحية.. ولضعف بنيتهم.. ولعدم لياقتهم.. معظمهم كانوا مرضى.. وهؤلاء كان من المستحيل عليهم ان يعملوا بطاقة تمكنهم من انجاز الحد الأدنى.. وفي النامية مساء عدنا الى معسكر الاعتقال من موقع العمل.. كنت متعبا حتى افنتي فقدت الاحساس بكل شيء.. ولم استطع الاكل.. صعدت الى السريز ونمت. وبعد ساعتين تقريبا صحوت على اصابع الجوع وهي تمرق لحشائي.. كان

اوندراف قد أحضر العشاء.. ووضعه على مقربة من سريري.. على الجانب الايمن من رأسي.. أحضر لي شوربة وعصيدة وقطعة من الخبز.. استطاع ان يستلف لي علبة كبيرة من علب المعلبات.. لست ادري من اين وعندما انتهيت من الطعام كانت يدي متسخة ولم يكن بالعنبر ماء.. أردت الذهاب للخارج لاغسل يدي بقطعة من الثلج.. وما ان وضعت قدمي على حافة الباب حتى صاح الحارس وفي يده المدفع الرشاش من على برج المراقبة.. أمر اياي بالدخول الى المعسكر.. كان الخروج بعد العاشرة ليلا ممنوعا معنا صارم.. الكل في عنابرهم.. الكل نيام.. الهدوء يسود المكان.

ويسير رجل واحد عليه أشعل المدفأة.. وقد كان يفعل ذلك بلخلاص شديد لذا فقد كانت العنابر دافئة على الدوام. لم يكن سهلا ان تصعد الى اعلى وتجد سيريك فتنام.. كنا نرقد واحدا بجانب الآخر.. متلاصقين ومحشورين في بعض.. وقد كان لزاما على ان احشر نفسي بين الذين كانوا نياما.. ولا يلاحظ احد منهم ذلك قط.. فهم عادة يغطون في نوم عميق.. عميق.. في صباح اليوم التالي تكرر ماحدث بالامس.. وخلال الوقت الضائع في عملية البحث عن اناء بليت بلا وجة دافئة.. كان على اذن الاكتفاء بالسكك المملوح مع الخبز فقط.. وتشاورت مع رفاقي كيف يمكنني الحصول على اناء فارغ.. قالوا ان من العقل بيع بدلتى وبثمنها يمكن تدبير احدى المعلبات، من علب الفاصوليا بها ثلاث لترات.. وبماكان الجميع استخدامها.. وعند عودتنا من العمل بحثنا عن المجرمين الذين سالونا هل لدينا شئ للبيع ووجدناهم بسرعة.. وهكذا بيعت بدلتى بثمانين روبلا.. وكان على ان اضيف اليها رباط العنق ايضا ولم اكن حزينا لذلك.. اعلم اننى لن استخدم رباط عتقي قريبا.. وفي المعسكر كانت هناك مضادة يبيع عليها المجرمون الصابون ومعجون الاسنان والفرش وبعض الاشياء الصغيرة.. وكنت سعيدا في الحصول على علبة من المعلبات الكبيرة.. وقد اشترك معي في وجة الفاصوليا اوندراف وبيقر وموزروف.. اكلنا نحن الاربعة المحتويات بمعلق خشبية صنعناها بانفسنا.. وكنا سعداء جدا.. فرحين للغاية.. فهكذا سناكل كل يوم وجة دافئة في الصباح..

وفي اليوم التالي تبخرت افراحنا.. اخبرنى اوندراف بانه مريض وهو يحس بضعف شديد.. ولايستطيع ان يعمل.. ذهبت للعنبر المجاور اسأل المسجونين القدامى ماذا افعل.. قالوا بالقرب من مكتب ادارة السجن توجد عيادة.. وعلى المرضى ان يذهبوا لمقابلة الطبيب. واذا ثبت ان الشاكى مريض بالفعل اعفى من العمل وحذروني بانه وما لم تكن درجة حرارة المريض ٣٨ درجة ستقرب فان عليه ان يتوجه للعمل بدون ابطاء.. يفعل ذلك مهما كان نوع المرض.. الا اذا كسرت قدمه.. او اصيب بجرح جسيم في العمل.. عندها فقط يمكن ان يوقف من العمل.. دون اعتبار لدرجة الحرارة وقت اوندراف للعيادة.. كان يجلس هناك نحو عشرين مريضا.. وكان الكشف على المريض يستغرق دقيقتين فقط.. ولم يخرج احد منهم راضيا من عند الطبيب.. كانوا يسبون ويلعنون واحد فقط او اثنان خرجا سعيدين فقط اعفيا عن العمل.. وعندما دخلنا سألنى الطبيب لماذا نحن اثنان.. اخبرته ان زميلي ضعيف منهار ولايستطيع المشى وحده.. وانا اعينه.. اجاب الطبيب.. سنرى ذلك الان.. ووضع ميزان الحرارة تحت ابط اوندراف.. وعندما كان يفعل ذلك جالت عيناي في المكان..

منضدة من خشب وبقايا السقالات.. فبالحائط دولا ب صغير به ادوية وفي الزكن سرير عليه حصيرة وبطانية.. والمكان لم يكن نظيفا للأسف.. نظر الطبيب الى ميزان الحرارة وهز رأسه مخرجا من الدولا ب الصغير ثلاث سفوفات اعطاها لاوندراف وهو يقول: ثلاث مرات يوميا.. عد في المساء مرة أخرى.. لن تذهب للعمل اليوم.. وكنا سعداء بالحصول على تلك النتيجة.. كان ذلك فوق كل تصوراتنا.. ثم قدت اوندراق للعنبر ووضعته على السرير.. وجريت نحو المطعم.. الاطفال.. وعندما عدنا في المساء.. كان اول سؤال وجهته لاوندراف كيف تشعر الآن.. اجابني بلهجة اهل «فيناء العامية.. كارلو.. اليوم اكلت افعلا «فيناوى» حقيقيا الرغيف الممسوح بدهن الخنزير.. اصبت ياكلو وسرت جدا لان اوندراق كان مسرورا ايضا ومعنى ذلك انه بخير.. سألته من اين له ذلك الاكل.. حكى لى..

حضر الى العنبر سجين قديم يعمل في المنجم.. كان يثير الاهتمام والانتباه يسأل ان كان بين القادمين احد من بلاده.. وعندما عرف ان رودلف اوندراق نفساوى الجنس ومن وطنه.. وانه مريض.. هرع فلحضر له خبزا ممسوحا بدهن الخنزير.. وبرقت عينا رودلف بالسعادة.. في النمسا يأكل الفقراء الخبز الممسوح بدهن الخنزير وقد سعدت كثيرا عندما ارانى رودلف قطعة منه.. ولكن سعادتي بشقاء وتحسن صحة رودلف لم تكن في مكانها.. اذ ان حالته ساعت يوما بعد يوم واصيب بإسهال حاد.. وارتفعت درجة حرارته.. لقد زادت السفوفة التي اعطيت له حالته اسوأ.. كان الذى كشف عليه مريضا فقط.. لم يكن طبيبا.. وذهبت الى ذلك «الدكتور» الممتاز.. ورجوته ان ينقل المريض للمستشفى..

.. للأسف هنا لا توجد مستشفى اقرب مستشفى تبعد عنا حوالى العشرة كيلومترات.. وهى ممثلة جدا تعرف.. انا لا استطيع المغامرة بإرساله للمستشفى.. فهو ليس مريضا جدا.. وسرجعونه في الحال.. ومرت سبعة ايام كان كل يوم فيها يحمل معه السوء للمريض.. لم يتحسن قط تدهورت حالته للحد البعيد.. واخيرا اهتدى جوزيف بيرقر الى فكرة.. كانت فكرة طيبة.. قال لنا بعد تفكير.

.. اسمعوا.. دعونا نجري به كل مساء للعبادة في هلع ورعب.. ونحن نصيح اوندراق يحترس.. اوندراق يحترس.. وقد حرك هذا «الدكتور» جاء الى العنبر ليرى مليجري.. وخاف ان يموت المريض فعلا.. بعد ان ادخلنا في روعه ذلك.. فلان حدث هذا فسيصيب له حرجا كبيرا.. كان البوليس السياسي يحب النظام.. ولن يأسف بالقطع على موت سجين.. ولكن.. الويل للطبيب ان حدث الموت في سرير السجن.. يجب ان يكون ذلك في المستشفى.. واخيرا قرر «الدكتور» ان يرسل رودلف الى المستشفى.. غير انه لم يجد اى طريقة لترحيله.. ماعدا الحصان.. او على الزحافة التي تجرها الكلاب.. وعندما جئناه مرة أخرى نخطره ان رودلف يعانى من سكرات الموت.. سألنا ان كان في استطاعة المريض ركوب الحصان للمستشفى.. وقد نظرت اليه في استغراب شديد قللنا.. كيف لمريض لا يستطيع المشى ان يركب حصانا.. وهز كتفه.

وفي اليوم التالى وقبل ان اذهب للعمل حييت اوندراق واعطيته خمسة عشر روبلا من ثمن بيع بدلتى.. وافترقنا.. ولم يكن ذلك هينا على كلينا.

ومن على البعد رأيناهم ينقلونه للمستشفى.. وضعوه في صندوق صغير.. نصفه مدلى

في الهواء.. وشد الصندوق الى الخيل التي جرت في الجليد.. وترك الصندوق آثاره على الجليد.. لوحنا له بإيدينا من على البعد.. ولكنه كان ضعيفا فلم يستطع ان يرد على تحياتنا.. حاولنا بعد ذلك ان نعرف شيئا عن مصيره.. كنا قلقين عليه جدا.. ولم نحظ بمعرفة شيء ابدا.. وبعد مرور شهرين نقلوني الى عنبر آخر في نورلنك.. وعرفت التفاصيل.. كانت ادارة معسكرات العمل قد شددت على بناء قضبان السكة الحديد بأى ثمن.. وزادوا لنا ساعات العمل اليومي.. كان معظم السجناء قد جاعوا من معسكرات مختلفة.. قضوا فيها فترات طويلة.. كانت أجسادهم هزيلة للغاية.. من سوء التغذية والمعاملة.. واغلب هؤلاء السجناء لم يكونوا قد اعتادوا على أداء مثل هذه الاعمال الجسمانية.. بالطبع كان هناك من مارس بعض الاعمال اليدوية البسيطة في ماضى حياته.. الا ان اغلب السجناء كانوا من قادة الحزب السابقين ومن موظفين آخرين مديري مؤسسات، وزراء، اطباء، اساتذة.. لاغربة اذن في ان كثيرا من هؤلاء الناس وفي فترة زمنية قصيرة قد تحطموا جسديا تحطما تاما.. واصبحت شروط الحياة في معتقل نادر تزداد سوءا يوما بعد يوم.

وكنا عندما نأتي من العمل ونحن مغبرين متربين لانجد ماء للاستحمام.. فقد كان الماء يجلب في براميل خشبية صغيرة يكاد يكفي بالكاد لعمليات الطبخ اليومية.. كنا بالطبع نستطيع ان نستحم بالجليد ولكن الجليد ذاته كان مغطى بطبقة من غبار الفحم.. الأسرة التي كنا ننام عليها كانت بدون حصائر.. او مخدات.. او بطانيات.. كنا نغطى بملابس العمل.. وعند التدافع للنوم يقع المرء على أى سرير يصادفه ويجده خاليا او ينحشر مع الآخرين.. وحتى السرير ذاته كانت تشفى بالحشرات اللاسعة.. كالبق والبراغيث.. يوم العطلة كنا نساق للحمام الذى يبعد عن موقعنا حوالى الثمانية كيلومترات.. وكان الطريق اليه يمر عبر المستنقعات ذات المخاطر المهولة.. رعب وتعب حقيقي.. وكانت الحمامات صغيرة ضيقة.. لا تتسع في كل مرة لأكثر من سبعين شخصا.. اما مايتبقى من عدد الثمينة رجل فعليهم الانتظار في العراء.. على قارعة الطريق.. هل يمكن ان يصدق احد اذا قلنا ان عملية الاستحمام في بعض الاحيان كانت تستغرق حوالى الاثنى عشر ساعة.. وقد غل المرضى والمتعبين والضعفاء - وهم كثر - يتهربون دائما من رحلة الحمام هذه، رحلة العذاب القاسى.. ولما كان الحمام اجباريا فقد عمد هؤلاء المتهربون الى الاختفاء داخل العنابر وتحت الأسرة.. الامر الذى ادى الى اصابتهم بالقمل من جراء عدم الاستحمام، لمدة طويلة.. كنا نشكو دائما وننذمر وقد بقي كل ذلك بلا اجابة.. كانوا يديرون المعتقل بواسطة مجموعة من المجرمين.. تكتلوا وجمعوا حولهم عصابة خطيرة.. وقد سادت هذه العصابة فسادا في المكان وعربت كما يحلو لها.. الطعام كان رديئا تعافه النفس.. بعض المجموعات كان لها كل شيء.. لم تكن بالمكان مخازن لتخزين وحفظ اشياء الاكل.. لذلك بقيت هذه الاشياء بالقرب من المطبخ تحت رحمة السماء العارية.. براميل الخشب التي تحتوي على اللحوم.. السمك.. بقية المواد الأخرى.. وكنا نرهب ونلاحظ كيف يقوم المجرمون بكسر البراميل الخشبية وباختلاس قطع اللحم الكبيرة حيث يطبخونها في العنابر.. وكان من النادر جدا ان يحظى احد السجناء السياسيين بقطعة من اللحم.. وكان

من المفروض ان يحصل كل سجين على سبعين ديكجراما من السكر.. ولكن الذى يحدث هو اننا وطيلة الشهرين اللذين مكثناهما هنا لم نحصل على السكر الا مرة واحدة.. وعندما سالنا ادارة السجن عن ذلك.. كان ردهم.. اشتغلوا اكثر وسوف تحصلون عليه.. ولكننا نعمل باستمرار ولم نحصل على الراحة المفروضة لنا الا في فترات قليلة جدا..
.. كان يجب عليكم ان تعملوا في ايام الأحد ايضا.

كنا نرتاح فقط عندما تهب العاصفة.. بورقا.. بعضها كان عنيفا قاسيا.. لدرجة تجعل الرؤيا متعذرة لاكثر من مترين فقط.. عندها كنا نستلقي على اسرتنا وننال قسطا من النوم.. او نتجاذب اطراف الحديث.. كنا نبحث عن الكتب.. ولكنها معدومة هنا تماما.. ولكن، بعضنا لهم ذاكرة ممتازة.. وباستطاعتهم ان يحكوا بالضبط تفاصيل القصص التى قراوها يوما ما.. يفعلون ذلك وكانهم يقرأون من كتاب مفتوح.

اما الكتابة لذويها واهلنا كان مسموحا بها.. ولم اصدق في البداية ان خطابا يستطيع ان يخترق هذا التيه، ويتجاوز هذه الصحراء الجليدية ويصل الى المرسل لهم.. ولكن السجناء القدامى اخبروني بإمكانية ذلك.. وبانهم فعلوه وتلقوا ردودا على رسائلهم.. وكثبت الى زوجتى.. وكانت آخر رسالة وصلتني منها يرجع تاريخها الى عامين.. ولم اصدق انها سترد على رسالتى هذه ومضى شهر وتسلمت منها برفقة وبعض النقود.. وكانت سعادتي كبيرة.. لاتوصف.. ولم استلم النقود.. فقد كانت هناك بعض الاسس والقواعد التى يعطى بموجبها السجناء مايرسل اليه من نقود.. ومن ذلك حسن السلوك.. والوصول بمعدل الإنتاج الى مائة في المائة، على الأقل ومن يفعل ذلك يكون له الحق في استلام مبلغ خمسين روبلا من قيمة المال الذى وصل بإسمه.. وهكذا.. ولم اصل الى ذلك المعدل الاحصائي.. ففقدت نقودى.. وفقد الحق في المطالبة بها.. بكل بساطة.. وهاجت العاصفة الثلجية بورقا مرة اخرى.. ورقدنا على اسرتنا نتلمس بعض الراحة.. ودخل علينا موظف المعتقل وقرا مئات الاسماء.. كان من بينها اسمى.. ثم قال لنا بهدوء.. ستنقلون الى سجن آخر ريثما يتحسن الطقس.. سنذهب اذن الى نورلنك.. وغمرنا شعور طاغ بالابتهاج والسعادة.. لقد كنا نسمع ان السجناء هناك يحيون حياة فيها بعض التهذيب.. ولم اكن اصدق تلك الاحاديث.. ولكن عندما علمت ان هناك يتوفر الماء حسبحت اننى مسافرا الى الجنة.. وتأمرت علينا الرياح الثلجية لتعوق رحيلنا.. ورفضت ان تتوقف قط.. كنا نغير صبورين على الاطلاق.. ورغم اننا لم نذهب للعمل فقد تأقت نفوسنا للرحيل.. وبسرعة.

واخيرا تحسنت الاحوال الجوية.. وسلمنا رئيس الحرس الى مجموعة من الجنود.. وعند الرحيل كان الذين بقوا في منجم نادج يخطرون اليها بحسد شديد، ومشينا تحت الحراسة المشددة والشمس المستديرة الباردة خلال طريق ضيقة.. كانت درجة الحرارة عندها عشرين درجة تحت الصفر مررنا بجوار معسكر العمل الاجبارى للنساء.. وتطلعنا نحوهم بفصول وحزن.. ولم تبق في ذاكرتنا صورة امرأة واحدة واصابنا الشوق والوجد.. وكن ينظرن نحونا بحنان ومودة.. وتراقصت على وجوههن البائسة اشباح ابتسامات ما، وفي الطريق الى نورلنك قابلتنا عربات الشحن.. وعربات الكرو وراينا امام احد المنازل حيوان «الربة»، وهو نوع من الايائل مشدودا الى عربة زحافة.. وبدوننا من نورلنك.

كيف بنينا نورلسك

نورلسك.. مدينة من مدن مقاطعة كرسنويارسكا في اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية.. مبروطة الى ميناء دونكا على نهر الينسى بخط السكة الحديد.. ونورلسك أصبحت مدينة ذات اعتبار في عام ١٩٥٣م وتطورت بسرعة حتى انه في عام ١٩٥٤م أصبح بها سبع مدارس للثانوى العالى، وخمس مدارس للثانوى العام واربع مدارس ابتدائية وثلاثة اندية ثقافية، وبيت للشباب الصغار، ومسرح للدراما، ودار للسينما وثلاث مكتبات، وفي نفس عام ١٩٥٤ تم بناء قصر الثقافة وحوض للسباحة ، ودار للسينما ومدرسة موسيقية. وارجو ان لاينزعج القارئ لاننى قفزت فوق السنين فقد نقلت هذه المعلومات بالدقة من دائرة المعارف السوفيتية الكبرى. وذلك لاعطى القارئ الكبريم صورة عن الحقيقة. وصلنا الى العنابر البدائية التى بنيت باخشاب كانت تستعمل كصناديق لحفظ السلاح.

كانت هناك ورشة صغيرة.. امامها مجموعة من قضبان لبناء السكة الحديدية الجديدة التى ستربط مناجم الفحم الى شبكة السكة الحديد الرئيسية.. وعندما شاهدت تلك العنابر التى تعمها الغوضى وعدم النظام تذكرت فورا الاحاديث التى دارت حول نورلسك ابان وجودنا في منجم بنادج.. ونورلسك هذه تبعد عن دونكا مسافة المائة وعشرين كيلومترا ودونكا هى المركز الذى يقع وسط جزيرة تايمر كان معروفا قبل حوالى الستين عاما في القرن الماضى.. وقد حاول التاجر المعروف موروزوف ان يصنع شيئا.. ان يستغل هذه الطبيعة الغنية المتوحشة.. وباعت كل محاولاته بالفشل.. لم يكن يملك الايدى العاملة الكافية.. ولذلك فقد نامت افكاره عن هذا المشروع.. ولجا موروزوف الى الحاكم لمنطقة ينسى وطلب المساعدة.. وارسل الحاكم الى مدينة بتروقراد تقريرا وافيا عن المعادن النفيسة التى تزخر بها نورلسك وما جاورها وبعد سنوات عديدة جاءت لجنة الى ينسى وبصحبته نائب الحاكم والتاجر موروزوف اتجهوا نحو نورلسك ثم ناحية الشمال.. وأرسلت اللجنة تقريرا الى القيصر جاء فيه ان بمنطقة نورلسك توجد مناجم غنية جدا بالثروات الطبيعية.. ولكن يلاحظ انه لايمكن استثمارها لان موسم الصيد هو شهران فقط وباقى شهور السنة شتاء قارس وبرد وتلج وعواصف.. ولايمكن تبعا لهذه الاحوال الجوية فلا يمكن ابواء العاملين فيها.. ولذلك فان مشروع التاجر موروزوف لايمكن تحقيقه.. كان ذلك راي موظفى القصرية.. فهنا لايمكن ابقاء البشر تحت مستوى رحمة طبيعية قاسية.. اما البيروقراطية الستالينية فقد كانت ديناميكية بحق.. في عام ١٩٣٥ امر ستالين بان يجد البوليس السياسى، اخصائين وعامل مهرة وان يفتح في نورلسك معسكرا للعمل الاجبارى.. حدث ذلك التوجيه في شتاء عام ١٩٣٦/٣٥م وبعدها القي القبض على المئات قبضوا على مهندسى المناجم، والاطباء ادينوا بتهمة التخريب، حاكمتهم محاكم «الثلاثة» بعشر سنوات سجنا في معسكرات العمل الاجبارية.

وفي نفس الوقت وفي عدة سجون مختلفة كان في الانتظار خمسة الاف من العمال والقرويين والمثقفين. حتى يفتح طريق في نهر الينسى، وشحن مع اول يوم في الصيف الرجال والسلاح والخيام. وهكذا حقق البوليس السياسى المعجزة وافتتح في صيف ١٩٣٦

معسكر العمل الإجبارى فى نورلنسك.. ولم يفكر احد فى الاحوال الجوية.. كان اوائل المعتقلين الذين وصلوا الى نورلنسك من الشباب والرجال الاصحاء لقد اختارهم البوليس السياسى اختيارا دقيقا.. طقس قاس.. عمل شاق.. منطقة خالية من السكان.. ظروف حياتية غير طبيعية.. كل ذلك كان يحتاج الى رجال اقوياء ذوى مناعة.. اللجنة الطبية التى قامت بالكشف على كل فرد فعلت ذلك بدقة متناهية وبالتفصيل ودقت جدا على صحة الاسنان.. فى اقصى الشمال كان يسود مرض الاسقربوط.

عند وصول اول شحنة من الرجال فى صيف عام ١٩٣٦م اخذ الرعاية فورا فى الرعى.. رعوا قطيعا من الابل.. ووضعوا الشراك للتعالب الفضية.. وكان من جراء ذلك ان تقهرت الابل والتعالب الفضية وافراد قبيلة السامويد نحو الشمال الشرقى من نهر الينسى الى بحيرة بياسينا. ثم اقيم المعسكر ونصبت الخيام.. فى الخيام كانت هناك بعض الاسرة الخشبية.. ثم وضعوا مدفاة حديدية فى الوسط وجعلوا لكل خيمتين مطيخا.. اما المواد الغذائية فكانت تنتظر تحت السماء المفتوحة.. كان بالمعسكر كميات وفيرة من المأكولات حصلوا حتى على الليمون والادوية التى تعالج مرض الاسقربوط.

فى السنة الاولى تم بناء عنابر السكن والمكاتب فقط.. كانت الاخشاب غير موجودة بالمنطقة.. فاضطروا الى احضار مواد البناء عن طريق النهر وكان اول واجب قام به الرجال هو تنظيف المنطقة من الجليد العالى المتجمد.. الادوات التى عملوا بها كانت بدائية جدا عتلة.. طورية.. جاروف.. نظفت الارضية المتجمدة ووضع الاساس للعنابر وقد احتاج الرجال الى جهد خارق كلما ارادوا حفر حفرة فى الارض.. اكثر من نصف اولئك الشباب مات من شدة العمل والبرد والمرض.. واثناء عمليات بناء العنابر خرج الجيولوجيون يقبون عن المعادن.. وبعد فترة وجيزة ارسلت عينات الصفيح والنحاس والكوبالت والمعادن النفيسة الاخرى الى موسكو.. وكان فى باطن الارض احتياطي هائل من الفحم..

فى عام ١٩٣٧م حضر الى نورلنسك عشرون الفا من الحكوميين.. وقد استطاع جزء بسيط من ان يجد مكانا فى العنابر.. اما الاخرون فقد كان عليهم ان يسكنوا الخيام.. نصف اولئك السجناء قاموا ببناء خطوط السكة الحديدية الضيقة.. دودنكا نورلنسك..

فى عام ١٩٣٨م حضر ثلاثون الفا من المسجونين الجدد.. عن طريق الشاحنات.. وصلوا دفعة تلو الاخرى.. ولكن عدد الرجال هنا لم يترفع قط فقد كانت نسبة الوفيات عالية لدرجة مخيفة.. ماتوا جماعات كبيرة.. ولم تكن حصيلة جهدهم لمدة ثلاثة اعوام ذات قيمة تذكر..

طلب ستالين ان ينتقلوا بعد ذلك الى استغلال المعادن النفيسة.. وبأى ثمن.. مهما كان.. ومهما عز.. فقد كان الرجل يسعد للحرب.. وكانت قيمة هذه المعادن قد ارتفعت فى الاسواق العالمية يوما بعد يوم خاصة بعد وصول هتلر للسلطة.. ولم يكن الاتحاد السوفيتى يملك مالا يشتري به هذه المعادن..

دعا ستالين الى مكتبه مدير منطقة نورلنسك ماتيفيف.. وحدد له فترة زمنية معينة هى عام ١٩٣٩ لى يتم استخراج الصفيح والنحاس من مناجم نورلنسك.. ووعد الرجل.. اعطى عهدا ان يتم انجاز المهمة التى كلف بها.. وجاء عام ١٩٣٩م ولم تستخرج المعادن.. فسبق الرجل ومعاونوه الاربعة الى كوليم واعدموا رميا بالرصاص وفى مكان ماتيفيف تم تعيين زافينافن وعندما استلم زافينافن ادارة نورلنسك كان فيها ثمانين عنبرا ومقبرة كبيرة..

كان عمر المدينة حينها ثلاثة اعوام وعمر مقبرتها مئات السنين.. وكان زافيناqn اذكى من سلفه.. طلب قادرا مؤهلا من المهندسين والفنيين والاقتصاديين.. جاءت من جزر سولوفيتسك فرقة كبيرة مكونة من اربعة الاف رجل.. وقد عرفت هذه الفرقة في تاريخ نورلسك بمرحلة سولوفيتسك وكان زافيناqn ومعاونه قولوهوف في حاجة لمثل اولئك الرجال.. كانوا يعلمون بان مشروعا كبيرا مثل بناء مصانع المعادن في نورلسك لا يحقق بقوانين القهر.

ولكى يجتذب المهندسون والفنيون للعمل هناك.. اعطوهم امتيازات صغيرة.. سكنا جيدا.. وطعاما جيدا كذلك ولكن البوليس السياسى كان يفكر بطريقة اخرى.

المسجونون السياسيون يقومون باقى واشق الاعمال والمهام.. والمجرمون الاعمال البسيطة السهلة.. وهكذا كان زافيناqn وقولوهوف في صراع مع القسم الثالث. لى يقوم المهندسون والفنيون بمهامهم الدقيقة داخل حجرات دافئة. بدلا عن حفر الارض المتجمدة.. وكثيرا ما عارضا البوليس السياسى.. ومن عجب ان راسيهما ظلا على كتفيهما.. وحصل زافيناqn على معاون اخر هو بريميف والذى كان واجبه الاساسى هو التاكيد من ان المساجين السياسيين لا يحصلون على امتيازات وان لا يصبح موقفهم جيدا ابدا.. مرت سنة واحدة وارتفعت سجب الدخان في مصانع نورلسك ومن ميناء دودنكا انطلقت اول شحنة من الصفيح.

موت رودلف أوندر راجق

عند قدومنا من منجم نادج الى نورلسك.. عينت مع زملائي في القسم الثاني لمعسكر العمل.. كان الوقت ظلاما عندما تسلمنا رئيس القسم ليمان. وسررنا جدا حين قادونا للحمام. ليس لاننا قمنا بالاستحمام وانما لاننا بقينا طول الليل هنا وفي اليوم التالي قادونا الى عنابر مسورة.. كان في القسم الثاني الذى الحقنا للعمل به حوالى الثمانية آلاف من المساجين.. سياسيين.. ومجرمين على السواء.. وكنت النساء هناك ايضا ثمانمائة امرأة في عنابر مخصصة لهن ومسورة بالاسلام الشائكة.. وذهبنا للعمل في الصباح الباكر كالمعتاد وضعونا امام العنابر وبعدها توجهنا نحو باب المعسكر.. كان الجو باردا لحد لا يصدق.. خمسة واربعون درجة تحت الصفر. وعندما اقتربنا من الباب روينا مشهد فظيع.. على ارتفاع نصف متر من الارض علق جثمان سجين.. عالياً.. باردا ميتا.. ربطت رجلاه بالاسلاك.. وكان راسه مقلبا كانت عيناه زجاجيتين باردتين. برزت عظامه.. كان جلدا على عظيم.. قمه مهشم ويابس فوق راسه علقت لافتة كتب عليها «هذا هو المصير الذى ينتظر كل من تسول له نفسه ان يهرب من نورلسك» كانت تقاطيع وجهه مألوفة لدى بدرجة كبيرة.. من يكون هذا الرجل.. عذبنى السؤال.. دار في راسي هزنى هزا عنيفا لا.. لا. لايمكن ان يكون ذلك حقيقة احسست بيد تعصر قلبي.. ويسكن تخوف في احشائي كان ذلك الرجل هو رودلف اوندر راجق.. هل حاول الهرب حقا.. لم يحدثنى ايدا بفكرة كهذه.. يوما بعد يوم كانت صورة الجثمان تلوح امام اعيني وتثبت هناك.. وانشل فكري بعنف والحاح.. لماذا علقت جثته امام باب المعتقل.. وفي يوم ذهبن للحمام.. كان هناك طبيب نوبتي اسمه جورج.. علمت انه من لايزج سألته هل رأى الجثمان المشنوق عند الباب.. اجابني.. لماذا تستغرب واضح انك حضرت مؤخرا.. انتظر ستري الكثير من العجائب وحدثته لماذا اهتم بدرجة كبيرة برودلف.. نصحتني جورج بليسي الطبيب الا اتحدث مع اى شخص في هذا الموضوع.. ووعدني بان يتقصى الحقيقة من زملائه الاطباء.. وفي يوم الاحد سجل لي زيارة بالعنبر ودعاني للذهاب معه.. ذهبن سويا الى عنبره وهناك عرفني على الطبيب رايفجر من ليننقراڊ.. كان طبيبا جراحا في مستشفى المعسكر بالقسم الاول. حدثني بانه يتذكر حضور اوندر راجق من منجم الفحم الى المستشفى كان اوندر راجق في حالة صحية سيئة للغاية.. كان مصابا بدوستناريا مزمنة ومهملة.. ويضعف في القلب.. وكان منهارا ومتهالكا للحد البعيد.. والامل في شفائه كان ضعيفا ايضا.

ولكن ورغمما عن كل شيء بدأت صحته تتحسن تحسنا طفيفا بعد شهرين من احضاره.. وتحدث رايفجر كنت نوبتيا في المستشفى عندما حضر اوندر راجق تلك الليلة.. جاء الى غرفتي وطلب مني ان اعطيه سقفه منومه.. وشكرنى وذهب. وفجأة سمعت صوت جسم يرتطم بالارض وجرت الممرضة فوجدت اوندر راجق يرقد امام الباب.. وهرعت الى هناك.. كشفت عليه واكتشفت الوفاة. وسألته كيف يمكن ان يعلنوا ان اوندر راجق هارب.. قال لي انه لايعرف وليس في مقدور احد ان يعرف.. بليسي كان مهتما باوندر راجق.. فقط رجاني ان احكى له كل ما اعرفه عنه.

ولد اوندر راجق في زنويم التي اصبحت اليوم تابعة لتشكوسلوفاكيا كان من قادة الحزب الشيوعى النمساوى.. وعندما وصل هتلر للسلطة في عام ١٩٣٣م وجدته في برلين

القي عليه النازيون القبض ورموه في معتقلات العمل الاجبارية.. وعندما اطلق سراحه من المعتقل سافر اوندراجق الى سويسرا.. واتاحت له الفرصة ليلقى خطابا في اجتماع الاشتراكية العالمية بجنيف.. فتحدث عن الاشياء التي عاشها في معسكرات النازية.. حكى الكثير مما قاساه وعاناه هناك.. ومن سويسرا ذهب هو وزوجته وطفله الصغير الى الاتحاد السوفيتي حيث عمل لسنوات عديدة في نقابات العمال العالمية «بروف انترن» وعندما قرر ستالين تصفية قدامى الشيوعيين، كان هو من اوائل المعتقلين، ومعه مؤسس الحزب الشيوعي النمساوي «كورتشونير» وكورتشونير هذا كان في بداية حياته موظفا في البنك ونائرا للكتب.. القي عليه القبض في هاركوف عام ١٩٣٦م وحكم بثلاث سنوات سجنًا.. وعندما استأنف الحكم قررت المحكمة العليا في اوكرانيا ان تستبدله له بعشر سنوات سجنًا.. وفي عام ١٩٤٠ سلمه البوليس السبسي للجستابو الذي صفاه جسديا.. لا يستطيع نسيان اوندراجق قط.. كان رجلا طيبا لست ادري هل ستعلم زوجته كيف مات.. لقد استمعت زوجته الى نصيحة بعض الاصدقاء بعد اعتقاله، واستطاعت بمساعدة القنصل النمساوي ان تعود لموطنها.. انهيت حديثي ورجعت الى العنبر.. وفي نفسى حزن واسى.. عملت في المجموعة التي كانت تقوم بصهر الصفيح والنحاس.. كانت الخانات تنقل الى المصانع من المناجم في عربات السكة الحديد.. واللوازي الكبيرة.. كان الدوام اليومي من الثامنة صباحا وحتى الثامنة مساء.. وكان على كل سجين ان يقوم بتفريغ ستة عشر طنا من المعادن.. وكنا نحصل بعد كل هذا المجهود المضني الشاق على سبتين ديكجراما من الخبز.. مرتين في اليوم، وجبة دافئة نصف لتر من الحساء وبعض العصيدة وسكة صغيرة من سمك بحر الشمال.. اما الذين لا يستطيعون الوصول الى الحد الأدنى من معدل الانتاج كانوا يتالون طعاما اقل..

وكان هناك الكثيرون لا يستطيعون ذلك ولا يقدرّون عليه.. اما للمرضى او الضعفاء.. وقد جمعوا اولئك «المقصرين» من كل الوحدات واجبروهم على الاستمرار في العمل حتى يوفوا بالمعدل الاحصائي للانتاج.. وكل ساعتين او نحوهما كان يصل فوج من الذين اكملوا المعدل.. وبقي بعضهم في مكان العمل طوال الليل واصلوا العمل مع مجموعاتهم القديمة في الصباح.. وسقط الرجال على الارض.. لم يكن في استطاعتهم العودة الى المعسكر على اقدامهم قط.. بعضهم حمل الى المستشفى غائبا عن الوعي..

كانوا مرهقين متعبين ولم تكن درجات حرارتهم مرتفعة وذلك بالطبع هو المبرر الوحيد الذي يمكن ان يعفيهم عن العمل.. لذلك القوا بهم في الماء البارد ليعودوا بهم الى الحياة.. ولكن الكثيرين منهم لم يعودوا ابدا للحياة.. كانت حوادث الموت بسبب الإرهاق في العمل الاضافي تزداد يوما بعد يوم وقررت ادارة السجن ان تفعل شيئا.. فاصدرت الاوامر بان تكون ساعات العمل الاضافية للذين لم يحققوا معدلات الاحصاء هي ساعتان فقط.. وعلى الرغم من كل ذلك.. فان الحياة في نورلنك خبز من الحياة في سجن «نادج».. العنابر مساحتها واسعة.. الحشرات القارصة اقل منها هنا.. كان بالامكان الاستحمام دون الحاجة الى الزحف عشرة كيلو مترات لتحقيق ذلك.. الخدمات الطبية كانت افضل اطباء مؤهلون يبذلون قصارى جهدهم للتخفيف عن السجناء التسعساء.. كان هناك ايضا عدد من الاطباء المعتقلين.. الذين كانوا في الاكاديمية العسكرية بليننجراد.. دكتور نكشين.. دكتور بايف.. دكتور روزيلوم.. دكتور سوهووكوف من موسكو.

لقد بذل أولئك الاطباء في الواقع قصارى جهدهم لكي يسهلوا علينا الحياة.. كانت عليهم رقابة دائمة ومشددة من رؤساء العنابر الصحية . وكثيرا ما عوقبوا ورمى بهم في اصعب الاعمال ولكنهم كانوا يفضلوا بالطبع ان يحرقوا الجليد القاسى بدلا من ان يرسلوا الرجال المرضى للعمل. كانوا من اشجع الناس واصليهم اعوادا..

احدهم هو دكتور سوهوركوف الذى كان طبيبا للفريق الرياضى فى موسكو وحين رافق مجموعة من اللاعبين فى عام ١٩٣٦ الى السويد لاجراء مباراة فى كرة القدم عاد معه اللاعبون يتحدثون بان الحياة فى الخارج ليست باثثة كما تدعى التصريحات الرسمية. وعندها القى القبض على كل اعضاء الفريق وطبيبهم وحكموا بعشر سنوات سجنًا.

اما رئيسة القسم الطبى فى الجناح الثانى من المعسكر فهى الكسندرا سلييكوف حضرت الى نورلست مع زوجها مهندس المناجم سلييكوف وكان يعمل كمدير للمنجم وهو الذى ارسله الحزب لى يراقب ويحول دون تخريب السجناء للعمل. وكان من المستحيل ان يحدث مثل ذلك التخريب بالطبع.. حتى الكلام عنه لم يكن واردا.. السجناء عملوا ويعملون بخلاص اما الطلقاء فيتقاضون الرواتب كل انسان هنا كان يعلم جيدا بان العمل يدور باكثر من كلمة ممتاز. وكان المهندسون الشياطين الاحرار يعلمون ايضا انه يمكن وبدرجة كبيرة الاعتماد على المهندسين والفنيين السجناء. الكسندرا كانت شابة وجميلة.. طيبة القلب وانسانية للحد البعيد.. تعمل بوحى من ضميرها.. كان مبدؤها الاول والاخير المرض فوق كل شىء ولا يهمنى ان كان المريض سجينًا ام طليقا. كانت تعامل للاطباء السجناء الذين تعلمت منهم الكثير معاملة الزملاء الانداد. كانت بالطبع حذرة جدا حتى لاتقع تحت طائلة مواخذة البوليس السياسى. ونجحت فى ان تخصص للمرضى من السجناء مطعما خاصا بهم.. يدار تحت رعايتها..

ويعد الطعام للمرضى حسب توصيات الاطباء فقط.. وبذلك انتست المرضى انهم سجناء.. واهتمت جدا بالنافهين من المرضى الذين يخرجون من المستشفى حتى لا يرسلوا للعمل قبل اكمال شفائهم. لذلك كانت كثيرا ماتصلطم برئيس المعسكر والويل لرئيس السجناء اذا رآته الكسندرا يضرب سجينًا مريضًا.. اخذت على عاتقها ان تعيد هذا الرجل الا انساني لوضعه كسجين مثله مثل غيره من السجناء يؤدى الاعمال الشاقة التى يرقق بها غيره.. وهو منهم..

رؤسا البوليس السياسى لم يكن يعجبهم تصرفها قط ولكنهم لم يستطيعوا فعل شىء فزوجها من قادة الحزب فى نورلست ولقد بقى كثير من السجناء على قيد الحياة بفضل هذه المرأة الشجاعة.. شهور طويلة مضية قاسية قضيتها فى عمل شاق بمصنع تعدين الصفيح كان علينا ان نحمل الصفيح فى براميل ونشحنه على القطارات التى تذهب الى دودنكا وكريسنوبارسك عمل شاق وطعام ردىء انهكا جسدى.. ولذلك توقفت لم اعد استطيع العمل.. تحدثت فى ذلك مع صديقى جورج بليست ووعدنى بالمساعدة.. وبعد وقت قصير قرر دكتور نكشن ان اعمل عملا خفيفا غير مرهق. واحلت الى اللجنة الطبية فاوصت ايضا ان يكون عملي بسيطا سهلا.. وقد اعترض ممثل البوليس السياسى ووصفنى بانى «مجرم خطير» وبالرغم من ذلك تقرر ان اصبح ممرضا فى العيادة. وظهرت علامات مرض التيفويد.. وكان يجب عمل مستشفى كرتيتية وان يكون ذلك عاجلا جدا.. وقرر ان اكون مسئولًا عنها. وعملت بها لمدة اربعة اشهر كان المرضى جميعهم ومعهم الادارة

الصحية مسرورين من عمل ومقتنعين به .. وعندما انتهى الوباء اغلقت الكرنطينه وكان لزاما على ان اعود مرة اخرى للعمل الشاق وكان ذلك الان ممكنا وميسورا فقد تحسنت صحتي واستعدت قواى.

في المعسكر كان هناك عدد كبير من الاجانب .. رجال اقذاذ عقليات جبارة اخلاق رفيعة ومثل عليا .. وظهر من اولئك وتجلي كالبجمل الباهر جوزيف بيرقرجل غير عادى على الاطلاق طيبة لاحدود لها .. استعداد دائم لعون الاخرين والوقوف معهم في اخرج اللحظات .. تضحيات كثيرة مطلقة كان جسده هو شخصا ضعيفا للغاية . ولكنه كان مهتما بالآخرين . يهون عليهم ويخفف عنهم وينقذهم من العمل الشاق . كل قوته الروحية وكل طاقاته استغلها ليخفف قدر الاخرين .

كان يوجه جل اهتمامه للذين يأتون حديثا للمعتقل .. والذين لم يتأقلموا بعد .. والذين كانوا ضحايا لنزوات ادارة السجن .. وارهاب عتاة المجرمين . كان يمدهم بالخبز والدخان والملابس الثقيلة .

في مطلع شبابه انضم للحركة الشيوعية ووضع عقليته الجبارة في خدمة الحركة العمالية .. وقبل القبض عليه كان واحدا من قادة الحزب وفي اللجنة التنفيذية للمنترن .. لسنوات عديدة كان يقود سكرتارية الحزب للشرق الاوسط .

في عام ١٩٣٥م قبض عليه بتهمة « التروسكية » وحوكم بخمس سنوات سجنا .. وكما تنتهى مدة الحكم تفتح القضية وتعاد محاكمته ويسجن من جديد .

ماساة المعتقل قورن شور

حدثني بيرقر عن ماساة معتقل قورن شور كان هو احد الثلاثة الذين بقوا على قيد الحياة.

في صيف عام ١٩٣٥ تحرك قطار من موسكو الشمالية يجر عربات بضاعة شحن عليها اربعمائة سجين من سجن بوتريك عن طريق الفولجا والاورال.. انزلوهم في ستالينسك التي كان اسمها ايام القيصر نوفوكوزنيك.. ومن بين اولئك المحكوم عليهم كان بيرقر ابقوهم لمدة اربعة وعشرين ساعة ثم اعطوهم طعاما لثلاثة ايام وتحركوا بهم نحو منطقة الاشجار المتفرقة. مروا بطريق صغير شاهدوا فيه خيام قبيلة كيرفسك الرعوية.. وبحب استطلاع شديد راقب افراد القبيلة هذه القافلة البشرية.. وفي بعض المرات تبادل بعض الكيرقيزين بعض الكلمات مع بلدياتهم من المعتقلين وهم يشقون طريقهم.. واحدا واحدا.. حتى وصلوا الى المنطقة الحجرية ووطئت اقدامهم ولعدة كيلومترات تلك الاحجار الصخرارية الصلدة.. وبعدها دخلوا مرة اخرى منطقة الاشجار المتفرقة.. وهكذا من طلوع الفجر الى المغيب كانوا يضربون في ذلك النيه اللامتناهي.

وفي المساء نصبوا الخيام وناموا على الارض العارية كانت المؤن محمولة على ظهر اربعين حصانا من الخيول السبيرة الصغيرة.. وفي المساء اضرمو النيران حول خيامهم تحسبا من غارات الحيوانات المفترسة وكانت الذئاب والثعالب تعوى و نهر طول الليل ذلك عدا وحوش ضارية اخرى.. كانت الخيل متوترة خائفة تصهل باستمرار طول الرحلة ولمدة ثلاثة اسابيع كاملة.

توقفوا عند سطح الجبل.. تركوا عشرين مريضا لا يستطيعون السير بجانب الطريق.. واستمروا في طريقهم حتى بلغوا غابيتهم اما الذين تركوهم وعادوا لهم بعد ايام فقد وجد الجنود عظامهم وملابسهم فقط.. ثم نصبت خيام المعسكر. الخيام الكبيرة استعملت كمطبخ وباقي الخيام نظمت لتكون مستشفى وانتهت جميع الاعمال الضرورية وبعدها امر مدير المعسكر براحة لمدة ثلاثة ايام.. اكلوا فيها الاسماك واللحوم المعلبة والخضروات المجففة.. ومن ثم فقد تحسن موقف الصحة العامة كثيرا

لم يكن العمل شاقا وليس هناك معدل احصائي قد وضع بعد ثم وصلت مجموعات اخرى من السجناء كانت افواجهم في البدء تصل كل اسبوع.. ثم اصبح ذلك يوميا حتى تجمع حوالى اثني عشر الفا من السجناء. ونزل الجليد بغزارة.. بلغ ارتفاعه مترين وقطع المعسكر وانعزل عن بقية العالم.. ونسى رجال البوليس السيلسي شيئا هاما وبسيطا ان الرجال والحياد يجب ان ياكلوا.. احتياطي المؤن كان يكفي بالكاد لشهرين الذين فقط وامر مدير المعسكر بتقسيم وجبة السجناء الواحدة الى وجبتين.. قال ان ذلك اجراء تحوطي.. وبهذه الظروف اخطرت ادارة المعتقلات الرئيسية في موسكو «قولا» عن طريق الراديو.. ووعدت بارسال المساعدة بالطائرات.

كان المعدل الاحصائي للعمل اقصر.. ولم يشعر احد بالجوع بعد.. وانتظر الجميع قدوم الطائرات وذات يوم واقفوا كل المعسكر في حالة استعداد كامل وذلك لتنظيف الجليد حتى تهبط الطائرات وعمل الرجال كالمجانين وحول المكان الذي كان مهينا لنزول الطائرات

وضعوا كميات كبيرة من الاخشاب واشعلوا فيها النار ولم تظهر الطائرات. ونزل الجليد مرة اخرى.. ونظف المكان ايضا مرة اخرى وتعلقت العمون بالسما مضي شهر كامل ولا اثر للطائرات وانقسمت نصف الوجبة الى نصفين وصمت السجناء وذبحت الخيل لياكل السجناء.. اما الشوفان فاحتفظوا بها...

واخيرا ظهرت الطائرات وهب الجميع من اماكنهم فرحين يلوحون بقبعاتهم ومعاولهم وايديهم.. وحلقت الطائرات فوق المعتقل ولكنها لم تهبط فقط القت بحمولتها الصناديق والسالل علقت في مجموعات على المظلات في الهواء.. قليل منها جدا وصل الهدف اما الكثرة الكاثرة فقد ضاعت في الغابة والجليد المرتفع ومن يستطيع ان يركض خلفها. جمع السجناء والجنود بعض الصناديق والسالل التي كانت بها ملابس ثقيلة وخبز جاف وارتفعت الروح المعنوية بعض الشيء ومضى اسبوعان ظهرت بعدهما طائرة واحدة، القت شيئا من الخبز والمعلبات.. وارتفعت الوجبة عدة جرامات. ومريت الايام وجاع الرجال.. وبدأوا يموتون من الجوع.. انقص مدير المعسكر عدد جنود الحراسة الى النصف ثم ارسل النصف الاخر للصيد.. كانت هناك بعض الحيوانات. في بعض المرات يحضر الجنود دبا مقتولا.. ولكن ذلك لم يكن كافيا قط.. وارتفع عدد الموتى بين السجناء لم تكن ندفن الموتى كنا نهيل عليهم الجليد فقط. وفي الربيع وعندما ذابت الثلوج انتشرت روائح كريهة لاتطلق كانت تلك هي روائح الجثث المتحللة. لم تكن لدى الاحياء قوة على دفن موتاهم وانتشر مرض التيفويد ولا ادوية بالمعسكر وقف الاطباء مكتوفي الايدي عديمي القدرة على التصرف.. ثم فتحت الطريق.. وجاء الطعام علي ظهور الخيل ولكن.. من بين اثني عشر الف سجين بقي على قيد الحياة ثلثمائة فقط

المحامى المجرى كروشى

الكثيرون يذكرون محاكمة الشيوعيين المجرين المشهورة.. والتي قام بها نظام هورتى ضد -سلاى- وفورست -وقضت عليهما بالموت شنقا- فى المعتقل عام ١٩٣٩ تعرفت على المحامى كروشى ملونار الذى تولى الدفاع عنهما. حادث غريب كان له الفضل فى ذلك كان لنا يوم معين للحمام نحن ساكنى العنبر ثمرة «١٤» مائتان من الرجال يخلعون ملابسهم فى حجرة امامية قبل ان يتوجهوا الى حجرة التعقيم، فجأة يكتشف احد السجناء انه فقد ملابسه الداخلية.. كان واضحا ان احد الذين يعملون بالحمام هو السارق.. وبدون ملابس داخلية تصبح الحياة مستحيلة فى ذلك الجو الشديد البرودة.. هذا بالطبع عدا المشاكل التى سوف تحدث مع ادارة السجن.. سيكون عقابه رهيبا بدون شك.. كان عليه ان يدفع الثمن مضاعفا.. ومن اين له ذلك ونقود السجناء تصادر فور اعلان وصولها.. قام الرجل بطلب العون من رئيس العمال.. فما كان من هذا الا ان بدأ بضربه بقسوة شديدة.. وهنا اقبل رجل طويل القامة رياضى الجسم.. مقتل العضلات.. وانهاك على المجرم ضربا.. وتعالصت اصوات المشاجرة فهرع المجرمون لعون زميلهم ودارت معركة عنيفة جدا كان النصر فيها حليف السجناء السياسيين

بوليس المعسكر قبض علينا والقى بنا فى الزنزانات القاذبية كارس كنت بين المعتقلين ومعنى الرياضى المقتول العضل كروشى.. فى الزنزانات القاذبية تعرفت به اكثر كانت معرفة عن قرب هذه المرة.. لقد جاء الى الاتحاد السوفيتى هاربا بعد محاكمة سلاى وفورست من نظام هورتى الذى كان يبحث عنه وفى الاتحاد السوفيتى قبضت عليه فرقى النظافة الكبرى وقدم لمحاكمة عسكرية بتهمة العمالة لنظام هورتى وحكم عليه بالسجن لمدة عشرة اعوام بعد خروجنا من زنزانات الحبس القاذبية كارس عملنا معا فى مجموعة واحدة كان لها الفضل فى بناء مصنع المعادن الكبير بروبيلوشتاكن كان العمل صعبا جدا قاسيا جدا..

حفرنا الارض المتجمدة بالقضبان الحديدية المدببة وبالمجاريف ونزيف العرق اعدنا اساس المصنع ونحن نكاد نلفظ آخر انفاسنا وعلى الرغم من البرودة المهلكة كان علينا ان نخلع معاطفنا المحشوة بالقطن «بوشلات» فقد كانت اجسادنا تتفقد عرقا غزيرا يوازى الجهد المبذول فى العمل الشاق.. كان كروشى قوى الجسم للحد الخارق.. لم يتعبه العمل كالآخرين.. كان دائم المرح والمزح.. فى الامسيات يجلس على كنبه العنبر ويبدأ فى ترجمة اشعار بوشكين للمجرية. ماسمعه قط يشكو.. حتى عندما يعضنا الجوع كان هو صابرا قويا.. منفرج الاسارير يحلم دائما بالعودة الى بوادابست ليعيد فتح مكتب المحاماة الخاص به.

مصير الحزب الاشتراكي النمساوي

عندما احبط الرهبان الكاثوليك الذين انضموا للفاشية في فبراير من عام ١٩٣٤ الانتفاضة الشعبية في فيينا، هرب معظم اعضاء الحزب الاشتراكي النمساوي الى تشيكوسلافاكيا فسكنوا ييرن وبعض الامكن الاخرى.. كانوا يتلقون العون من الحزب الاشتراكي الديمقراطي ونقابات العمال ولان الناس في الهجرة دائما يتذمرون ويشكون ودائما ايضا مايشكلون ارضية خصبة للثورة والانقلاب على القيادات الحزبية.. وهكذا تقرر احداث انقسام في عضوية الحزب الاشتراكي النمساوي. اعضاء الحزب الاشتراكي انتفضوا سريعا ضد قيادتهم وحدث الانقسام وضع هذا القسم.. او هذه الشريحة من الحزب على صدور اعضائها النجمة السوفيتية. وعلى اسطح المنازل رفعوا الاعلام الحمراء والنجمة الخماسية السوفيتية.

ثم بدأوا يقذفون الاعضاء الباقين في الجناح الاخر ويكيلون لهم السباب والتهم. وبدأوا يبحثون عن الملجا في التنظيمات الشيوعية، وعندما ارتفع عددهم الى عدة مئات طلب الحزب الشيوعي النمساوي رسميا من قادة الاتحاد السوفيتي الموافقة على ان ينقل الحزب الاشتراكي النمساوي الى الاتحاد السوفيتي وحصل على ذلك وفي محطة بيلورسكا الجديدة بموسكو استقبل اول قطار بالموسيقى والتهليل والهتاف. وفي الميدان عقد اجتماع كبير.. تحدث فيه الشيوعيون ثم تحدث كوبلنق وقروسمان كممثلين للحزب الشيوعي السوفيتي.. ثم ساروا باعضاء الحزب الاشتراكي النمساوي واعتبروا من الثوار الابطال. وهناك كانت في انتظارهم الموائد العامة بالازهار والورود.. والطعام الجيد والانتخاب. وعلى نغمات الموسيقى وبين صحاف الامل الدسم المعتز والحفوة البالغة. انتشلت الاغاني الثورية.

في الاسابيع الاولى ساروا خلال شوارع المدينة في مسيرات استعراضية جذبت انظار الناس وهم بملابسهم المكونة من البيمبراسا وطواقي الياسك وبعد ذلك اختفوا من شوارع موسكو.. كان يمكن ان تلقاهم في الاماكن السكنية وبالقرب من المصانع الكبيرة في موسكو وهاركوف ولينينجراد وروستوف وغيرها..

في تلك الايام جرى الغاء كبونات الخبز بالاتحاد السوفيتي كان العمال الروس سعداء للغاية ولكن العمال النمساويين بدأوا في اظهار التذمر والتضجر فهم يحصلون فقط على الخبز الاسود وعلى قليل من السكر فهرع قادتهم الذين كانوا في موسكو الى المصانع وحاولوا تهدئة الموقف بين اعضاء الحزب الاشتراكي النمساوي. ولكنهم سمعوا نغمات غريبة.. ذات لهجة غير مرضية.

- انتم خدعتمونا.. اتركونا نعود للنمسا وقد لجأت تقريبا كل المجموعة للسفارة النمساوية في موسكو طالبة منها تمكينهم من العودة للوطن ولكن السفارة النمساوية لم تكن على عجل فهناك في فيينا كانوا يناقشون هل يسمح لاعضاء الحزب الاشتراكي النمساوي بالعودة للوطن ام لا.. وفي موسكو وعند خروجهم من السفارة النمساوية القى البوليس السياسي الروسي القبض عليهم.. بتهمة الثورة المضادة. وارسلوهم فورا الى معسكرات العمل الاجبارية. «او. اس. او» وكانت محكمة الثلاثة قد حكمت على كل منهم بعشرة اعوام سجناء.. وقد قابلت في نورلنك عام ١٩٣٩ عددا من اعضاء الحزب الاشتراكي النمساوي

ولكن للأسف الشديد لم احفظ اسماءهم ولكنى عقدت اواصر الصداقة مع واحد منهم فرتز
كوبنشتاير كان من فينا يقيم مع ابويه في المنطقة العاشرة وهو شاب قوى ممتاز.. ولكي ينقذ
نفسه من الجوع كان يبيع دمه.. كان القسم الصحى في نورلنك يستشرى الدماء مقابل الاكل..
من يعطى دمه يحصل على عشرة قطع من البيض، كيلوجراما من السكر، نصف كيلوجرام
من الزبدة، كيلوجراما من الفاكهة المجففة، واثنين كيلو جرام من الخضار الطازج. كان
كوبنشتاير يبيع دمه كل شهرين.. وانزعجت جدا للامر فحذرت ذات يوم الا يبالغ حاول
اقناعى بأنه يشعر بالعافية والقوة.. ولكنه فجأة احس بالمرض كان مصابا بالكل وضعف
القلب.. وساعات حالته يوما بعد يوم.. ونقل الى المستشفى لان ذلك كان لا بد منه بعد عدة
اسابيع اخرجوه وكان يبدو عليه انه قد تحسن من يدرى.. فعند اندلاع الحرب نقلوه من
نورلنك الى منطقة كرسنويارسك ضمن من نقلوهم الى هناك وبعدها.. لم اعرف عنه شيئا
ابدا.

كل شياطين هذا العالم

شغلت مباني مصنع المعادن الجديد في نورلوك حيزاً كبيراً واستوعبت اعداداً كبيرة من الايدي العاملة.. المجموعات الضخمة التي وصلت مؤخراً عملت ليلاً ونهاراً بدون اى اعتبار للاحوال الجوية القاسية.. لم يكن هناك يوم للراحة.. او عطلة الاسبوع البرودة كانت شديدة فظيعة، حتى ان الانسان ينتابه احساس مؤدب بان فمه قد تجمد ولم تكن البرودة وحدها هي العامل الوحيد للقوة الجوية.. كانت هناك الرياح الجليدية العاصفة وكانت تعصف وتزار بجنود حتى ليخيل للمرء ان نهلية العالم قد دنت.

تظلم الارض فجأة.. وتدمد الأرجاء.. وينطلق هياج الرياح وجفيفها وصفيها.. ليكتسح كل شيء.. كانت جميع شياطين العالم ترقص وتتصايح حولنا.. في بعض الاحيان يهب ذلك الاعصار الجليدى المسعور «بورقا» لثلاثة اسابيع او اربعة دون توقف او انقطاع.. يغمر كل شيء.. الطرق.. الممرات.. العنابر كان يلزمنا عندها جهد جبار خارق لنقطع تلك الخمسين متراً صوب المطبخ.. كانت الرياح تهددنا دائماً.. وتعوقنا.. وتخطف من ايدينا اوانينا الثمينة.. وعندما تهاجمنا فجأة تلك الرياح «بورقا» ونحن في طريقنا الى مكان العمل يحدث الهرج والضحيج.. احياناً كثيرة جداً تعود بعض المجموعات الصغيرة بدون حراسة من اى نوع ويحدث ان يضل بعض السجناء طريقهم في تلك العاصفة فيردمهم الجليد.. ويعثرون عادة على جثثهم متجمدة على مقربة من المعسكر.. في اماكن العمل ومواقعه ماكننا نحصل على الدفء ابداء ولاسيما قبل اكتمال الابنية التي يمكن اللجوء اليها.. وفي بعض الاحيان يسمح لنا بايقاد نار كبيرة للتدفئة.

لم تكن تلك هي معاناتنا الوحيدة.. الاعاصير الجليدية والرياح «بورقا» بل كان هناك هم آخر فالشمس في نورلوك تشرق اربعة اشهر بلا انقطاع نهار دائم اربعة اشهر.. ومثلها ايضاً ليل دائم لا تشرق فيه شمس قط.

وكان تاثير الشمس الدائمة ضاراً جداً باجسام السجناء.. وفي شهور الليل وعندما يسود الاظلام كنا نعمل عملاً قليلاً بالطبع. ثمة شيء اخر ففي الاحوال الجوية الرديئة عندما تهب الرياح العاصفة وينزل البرد والجليد والرطوبة تظهر أهمية الملابس الثقيلة المدفئة كل الملابس كانت محشوة بالقطن.. وكذلك المعطف والمنطلون وبالطو المطر.. اما الحذاء فهو من الذرع المضاد للجليد والصحراء.. «فالينكا» لم يكن نحن السجناء نحصل على ملابس جديدة قط.. موظف السجن هم الذين يستولون عليها.. اما بقية البشر فنصيبهم الرث والمهلل والقديم.. واستجلبا للدفء كنا نلف اجسادنا المقرورة بالخرق البالية.. منظر الواحد فينا يشبه «الهيمول» فتحتان في الوجه للعينين وفتحة للانف واخرى للفم.

اقرب الاصدقاء اليك لا يستطيع ان يعرفك مهما كان دقيقاً، في المعسكر كانت هناك فرقة من الرجال الضعفاء والمرضى ومنهوكى القوى اسمها فرقة الهنود. جميع افرادها عبارة عن هياكل عظمية بالية.. اناس مصهم الجوع.. وانشفهم البرد، واودى بنضارتهم العمل الشاق.

كانوا موكلين بقضاء الاعمال الاضافية فقط.. يزيحون الاشياء الزائدة عن مواقعها.. ينظفون دائرة المعسكر من الجليد كان من نصيبهم - بالطبع - ارداد انواع الملابس بعضها

ممزق وبعضها مرقع باللون شتى.. وبديلا للحذاء الصحراوي تحصلوا على احذية بالية ذات نعال من قطع اطارات السيارات القديمة.. ملحصلوا عليه في موسم الشتاء اسمه «بوركي» ولذلك بدون انقطاع كانت ارجلهم متورمة واطرافهم حمراء متساقطة وغالبا ما كانت ايديهم وارجلهم تتجمد.. وكانت عمليات بتر الاطراف واردة في قائمة الاحداث اليومية وفي كل عام يغادر نورلسك الى معسكر اخر كثيرون من العاجزين بسبب ذلك.. ادارة السجن كانت تعاملهم وكأنهم حيوانات فقد كان المبدأ هنا.. انهم لا يعرفون شيئا اسمه المرض او الضعف كان على السجين ولكي يعفى من العمل ان يكون مرتفع الحرارة جدا.. وعندما يعودون . من العمل الى عنابرهم كان ضعيفهم يتوكأ على من به رمق من قوة.. واين هي هذه القوة.. صورة يومية للبوأس والشقاء.. والضياح... بعض الاطباء امثال شفجوك ومن لف لفهم كانوا اشد قسوة على اولئك البائسين من ادارة السجن المعدومة الرحمة والانسانية.

مصير المحاربين الاسبان

عند انتصار الجنرال فرانكو هرب جزء كبير من اعضاء الجيش الجمهورى الاسبانى الى فرنسا.. اسكنوهم هناك في معسكرات خاصة.. اما المحاربين الاسبان والذين كانت بلادهم تقع تحت سيطرة الفاشية، اعيدوا لوطانهم.. جزء من الاسبان ذهب الى امريكا الجنوبية.. بعضهم بقى بفرنسا والبقية قضت حياة محزنة في المعسكرات.. لم ترد اية دولة ولاحتى الاتحاد السوفيتى ان تفتح اذرعها لتحتوى اولئك الثوار التعمساء.. كثيرون كانوا من اعضاء الحزب الشيوعى الاسبانى ولكنهم لم يمنحوا جق اللجوء للاتحاد السوفيتى كانت الحكومة الفرنسية تجار بالشكوى من تحمل اعبائهم وتحدثت الصحف الوطنية وتساءلت ان كان الاتحاد السوفيتى قد اصيب بالصمم.. واخيرا وافق ستالين على قبول الاطفال الجمهوريين فقط وبدأ خمسة الاف طفل اسبانى يتدفقون على الاتحاد السوفيتى بشتى الطرق هيئة المعونة الحمراء العالمية «ام. او. ب. ار» قامت بايوائهم في داخلات الاطفال ولم يقبل المحاربون.. ولكن دولوريس ابارورى وبعض اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الاسبانى قوبلوا بحفاوة بالغة وقد صفقوا لستالين عندما وضعه معاون لينين القديم امام الامر الواقع. لقد رجاء ملنيوسكى ان يقبل ايواء عدة الاف من المحاربين الجمهوريين.. وشاء ستالين ان يعرف عنه الكرم فوافق قائلا: أمل الا يسلك الاسبان مسلك الخنزير كما فعل اعضاء الحزب الاشتراكى النمساوى. وتم شراء ملابس للاسبان في باريس على حساب الاتحاد السوفيتى ومن ثم نقلوهم بسفينة سوفيتية من ميناء اوديسا واستقبلوا بحفاوة كبيرة كما استقبل اعضاء الحزب الاشتراكى النمساوى في موسكو وقد تم اسكانهم مؤقتا في احد فنادق العاصمة الروسية.. وبعد ان اخذوا حظهم من الراحة والحفاوة تم ارسالهم الى مدن مختلفة في اوكرانيا وروسيا.. استوعبوا العمل المؤهلين منهم في المصانع.. اما العمال غير المؤهلين فقد ارسلوا للتاهيل.. وبامر من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى دفعت المصانع مرتباتهم كمرتبات احسن العمال الروس.. اضافة الى انهم لم يكونوا مطالبين بالوصول الى الحد الادنى للمعدل الاحصائى في العمل.. دام ذلك الحال لمدة ثلاثة اشهر ثم طالبوهم بالمعدل الاحصائى للعمل وقالوا لهم انكم الان كالعمال الروس تماما وعليكم ماعليهم ايضا.. ولكن الاسبان لم يأخذوا ذلك القول مأخذ الجد واستمروا يعملون كالسابق وعند صرف الرواتب في اخر الشهر تبين لهم انها تقل كثيرا عن المبالغ التى اعتادوا ان يقبضونها من قبل وبدأوا يعلنون احتجاجهم.. وحاولوا تهدئة الموقف ولكن الاسبان اصحاب الدماء الحارة والمزاج النازى ثاروا وارتفعت اصواتهم. وحتى تنتهى الفضيحة وآثارها احتوت قيادة النقابات الموقف/ودفعت لهم فرق الرواتب من مواردها الخاصة وهكذا ساد الهدوء لمدة شهر اخر..

وبعدها لم يعد احد يحتمل احدا.. العمال المهرة استطاعوا بالكاد الحصول على متطلباتهم الحيوية، اما بقية العمال فعجزوا عن تدبير امورهم. فتركوا العمل وتدفقوا نحو موسكو واخذوا يطوفون على الجزء الخاص باسبانيا في الكومنترن وهناك ساعدوهم بالنقود واعادوهم الى مواقع عملهم وفي مصنع قاطرات السكة الحديدية بهاركوف كان يعمل حوالى اربعين الف من العمال الاسبان.. دخلوا في اضراب مفتوح احتجاجا على ضعف الاجور.. وهنا.. تدخل البوليس السيسى وكان هناك توقيت في كل المدن لبدء عمليات

اعتقال الاسبان.. وفي محكمة الـ او. اس. او. محكمة الثلاثة تمت محاكمة المتهمين غيليبيا. الزهمة كانت هي الثورة المضادة والحكم كان يترواح بين ثمانية وعشرة اعوام سجنًا وكان نصيب معسكرات الاعتقال في نورلنك مجموعة من الاسبان عددها حوالي المائتين والخمسين. كان ذلك في عام ١٩٤٠ وهكذا جيئ باطفال الجنوب الدافئ الى اصقاع الشمال المتجمدة ليقتضوا فترات العقوبة السوفيتية مرض معظمهم اثناء فترة الترحيل وقد حكى الذين وصلوا بسلام ان عددهم عندما تحركوا من موسكو كان ثلاثمائة رجلا وفي نورلنك لزم اسرة المستشفى جزء كبير منهم وأعلن الاطباء ان البقية منهم غير صالحة للعمل ومن مجموع المائتين وخمسين اسبانيا الذين جاءوا الى نورلنك قبرت ببرارى الجليد مائة وخمسون وفي عام ١٩٤١ ارسلت البقية الى كارلاند.

معسكر العقوبات في كولارقون

في نورلنك كانت هناك اقسام عديدة للعقوبات الذين يخالفون النظام العام او يرتكبون احدى الجرائم كانوا يستوعبون في تلك الاقسام لمدة تتراوح بين الشهر والستة اشهر وبعض الذين يدخلون هناك في قسم العقوبات لم يكن يعودون مرة اخرى قط. تقع كولارقون في اطراف نورلنك وهي ابلشع واسوأ اقسام العقوبات.. الذي يصل هناك يفقد كل امل له في الحياة. في كولارقون كان يسود نظامان.. نظام المعسكر ونظام السجن. مدير القسم يقوم بتصنيف السجناء بناء على نوع العقوبة الموصى بها. الجميع يذهبون الى مواقع العمل بدون استثناء.

كان التفريق بين السجناء يتم بعد انتهاء العمل.. فهناك من تقفل عليهم الزنانات.. وهناك من كان يسمح لهم بحرية التجول في المعسكر لساعات محددة.. واغلب نزلع كولارقون هم الذين يتمردون ويرفضون العمل.. ومن بين هؤلاء كان يوجد عدد كبير من المجرمين فالعمل عند المجرم الحقيقي.. عار مشين.. وقد نفذوا مبداهم ذاك تنفيذاً حقيقياً. وادارة السجن كانت هناك وكانت تنظر اليهم من خلال اصابعها اما السجناء فالويل له كل الويل اذا رفض الذهاب للعمل لاي سبب من الاسباب

ومن بين السجناء السياسيين الذين يرفضون العمل كان هناك اصحاب الاتجاهات الدينية وطوائفهم كثيرة ومتعددة ولكن الكثيرين منهم ما كانوا يرفضون العمل على الرغم من ان ذلك كان في وسعهم وبامكانهم ان يقولوا.. لن نعمل لعدو المسيح ستالين.. ولم يكن يردع المتصردين على العمل مايلقون من عقوبات عادية كالحبس الانفرادي.. كارسر.. او عقوبة الوجبة. لذلك كانوا يرسلونهم الى كولارقون وهناك تستحيل الحياة والعمل بين عتاة المجرمين.

كان السجناء في العادة يتهربون من العمل الشاق بمختلف الحيل والوسائل كانوا يلجأون الى الاختفاء بعضهم يرفع الألواح الخشبية في ارضية العنبر ويندس تحتها والآخرين يكتئون وقتاً اطول في دورات المياه او يلجأون الى حجرة الموتى وكانت ادارة السجن التي دست انفها في كل شيء تلاحقهم حتى وسط الجثث.. وكان هناك الذين يعلنون بالفتوح انهم لن يستطيعوا الذهاب الى العمل.. بسبب المرض او نقص الملابس الثقيلة والاحذية وفي مثل هذه الاحوال يخبر رئيس الوحدة رئيس قسم العمل او احداً من مساعديه الكثيرين. ويسرع المساعد بإحضار البوليس المسلح بالعصى الغليظة فيأتون للعنبر ويخاطبون السجناء طالبين منه الاسراع بالانخراط في صف الخارجين للعمل واذا اصر على التمرد والرفض اشبعوه ضرباً مبرحاً ثم يؤخذ الى الحبس الانفرادي «كارسر» وهناك يواصلون ضربه وكان السجناء يحتالون باخفاء جميع ملابسهم والبقاء في اسرئهم غراباً وكان يسقط في يد البوليس فهو لا يستطيع ان يطاردهم عراً في تلك البرودة القاسية. وقد وجدوا حلاً لذلك احتفظ بوليس المعسكر ببعض الملابس الاحتياطية ولكن الغالبية

كانت ترفض ارتداء الملابس الاحتياطية. فكانوا يجرونهم بالقوة من اسرئهم الى الخارج ويرمون بهم عربات الكارو التي يجرها الحصان ثم يغطونهم بالفرو ويربطونهم بالحبال وهكذا يوصلونهم الى مواقع العمل وعندها كانوا يضطرون الى ارتداء الملابس بعضهم لم يكن يستطيع العمل خصوصاً بعد تلك المعركة كانت اطرافهم تتجمد وقد حصلت ادارة السجن على ماتريد رغم ذلك اذ بدأت اعداد المتمردين تتناقص يوماً بعد يوم واذا تكرر رفض

سجين للعمل رموا به الى كولارقون في كولارقون يعملون بتكسير الحجارة.. وبعضهم كان يؤدي اعمال القرويين ايضا. وعلى كل حال فلم يكن العمل اصعب من عمل المعسكر ولكن الظروف هي التي تتغير كانت ظروفنا قاسية للحد البعيد.

استبداد وطغيان وظلم وعنتجية لايمكن لاحد ان يحتملها فترة طويلة مهما كانت درجة تحملهم وقوة اعصابه في المعسكر كان يجب ان يسود النظام، وبدقة شديدة، فالجوعى والمنهكون والمرضى لايد ان يستعدوا قواهم وتتحرك جموعهم في الصباح الى مواقع العمل وذلك بالطبع حتى تنفذ الخطة في مواعيدها اما في كولارقون فقد كان الامر مختلفا جدا ولما كان ذلك الاعتبار وازدا كانت الادارة تفعل ماتريد دون اى تحسب للعواقب، المواد التموينية تتعرض للسرقة دائما ويتحصل عليها اولئك الذين لايتحقون لها قط.. من الذين لايعملون بين المجرمين سادت حرب طويلة. كانت هناك مجموعة تسمى «الامناء» واخرى تسمى «العاهرات»، الامناء لهم مبدأ ثابت هو انه لا حل وسط مع ادارة السجن قط وكان ذلك يعنى ان لايعملوا وان لايتن تعيينهم في وظائف بوليس المعسكر.. يعيشون دائما حياة طفيلية وكانوا يتحينون الفرص للهروب من المعسكر حتى ينسئ لهم العودة الى السرقة والنهب والقتل. ورغم ان الهروب من نورلسك كان مستحيلا الا ان بعضهم استطاع ان يفعله فهرب وسرق ونهب وقبض عليه واعيد مرة اخرى وذلك امر سيان لديه.

العاهرات هذه الفرقة هي التي كانت متواطئة مع ادارة السجن تعمل معها كمخلب القط وكبوليس وكمخبرين وكموظفين علاقة افرادها طيبة مع ادارة السجن كانت الحرب بين اولئك الجرمين تاخذ احيانا طابعاً عنيفا القتل.. الاذى الجسيم.. الضرب المبرح.. الخ ظواهر يومية تعكس الحال المتردى في هذا المعسكر في امكن العمل كانت الحروب الحقيقية تنشب ويستمر اوارها وينتقد ادوات العمل الرهيبة كانت هي الاسلحة التي تستخدم في تلك الحروب و احيانا لولا تدخل الحرس لقضى المجرمون على بعضهم البعض، الانسان السوى كان مستحيلا عليه العيش في كولارقون بل ان المجرمين انفسهم ما كانوا يشعرون هناك بالراحة والامان.. الخروج من هناك غير ممكن على الاطلاق.. الكثيرون كانوا يعملون الى تسيبب الاذى الجسيم لانفسهم كانوا يقطعون اطرافهم مثلا ويمزقون اوصالهم.. ولم تكن لدى الكثيرين بالطبع الشجاعة الكافية لان يفعلوا ذلك بانفسهم.. فكانوا يتبادلون احداث الاذى لبعضهم البعض.

يتحلقون حول شجرة ويقف احدهم بجوارها وفي يده ساطور حاد.. ثم ياتون الواحد تلو الاخر يضعون اصابعهم على جذع الشجرة فيبتر لهم حامل الساطور اصبعين او ثلاثة وبذلك يصبحون من المعوقين وتوكل لهم الاعمال الخفيفة الهيئة فقط وعندما اصبحت تلك العملية ظاهرة خطيرة اصدرت ادارة السجن امرا بفاده ان كل من تقطع اصابعه يبقى تحت رعاية طبيب المعسكر ولايرسل للمستشفى ابدا وبحث المجرمون عن طرق اخرى تبعدهم من كولارقون ارتكبوا جرائم جديدة ثقيلة ارسلا بسببها للسجون العمومية ويتم ذلك بالطبع اذا قتل مسجون مسجون اخر يحدث ان يجلس احدهم قرب النار التماسا للدفء فياتى الآخر ويهشم راسه هكذا وبكل بساطة.

وفي عام ١٩٣٩/١٩٤٠ قتل بنفس الطريقة اربعمئة شخص واستمر التحقيق ل مدة اربعة اشهر وفي خلال تلك المدة كان المجرم يرقد على سريريه في السجن ينعم بالراحة والهدوء وعندما اخذ هذا التهرب عن العمل يتخذ ملامح الظاهرة الخطيرة امر رئيس البوليس السياسى ان لا يتم التحقيق في السجون العمومية بل يجب ان يكون في موقع الجريمة والعمل.

مشيرو الشغب

البوليس السياسى لم يقتنع بحبس الابرياء، والزج بهم فى الزنانات، وارسالهم الى معسكرات العمل التى انتشرت فى اقاصى الشمال ولكنه ذهب الى ابعد من ذلك. استقل السجناء ليتجسسوا له بلا انقطاع.

بين السجناء اندست مجموعات مختلفة من الرجال .. كانت مهمتهم الدائمة هى المراقبة المتصلة، واستراق السمع لما يقال.

وبالطبع لم يكن من الصعب ان يخرج الرجل البرىء والمحكوم عليه ظلما ما فى صدره من غل وحقد على شكل كلمات ساخطة ضد العهد او سخرية من آل ن ك ق د البوليس السياسى.

وكان هذا الجهاز يراقب بنوع خاص اولئك الذين يحسبهم (خطرين) فقام بخلق شبكة كبيرة من مثيرى الشغب كجواسيس ووشاة، ووعدهم بالاعمال الخفيفة الهينة ويطلق سراهم ايضا فى ذات يوم جاءنى احدهم.

كان اسمه روجا نكوفسك .. سألنى من اين انا ؟.. ولما اجبته بانى من فينا، خمل الى انه سر بذلك جدا.

حدثنى بانہ درس فى فينا وسعد بفتياتها غاية السعادة .. واثلج صدرى ان وجدت (مواطنا) لى فتحدثنا فى كل شىء .. وابدى روجانكوفسك اهتماما خاصا بما اؤدى من عمل، وهل اجد فيه صعوبة، وهل لدى طعام كاف .. وحدثته بصراحة مجيبا عن كل ما سأل.

فوعذنى بان يتحدث مع بعض اصدقائه فى المطبخ لكى يعطونى شيئا للاكل.. وقال ايضا انه سيجاول ايجاد وظيفة فى هناك .. وشكرته جدا على شهامته تلك .. وبعد مرور فترة من الزمن جاءنى واخبرنى انه قد تحدث مع رئيس المطبخ الذى ابدى استعدادا لمساعدتى ..

وذهبت بناء على توصيته وقابلت رئيس المطبخ الذى سألنى ان كنت قد عملت من قبل فى مثل ذلك المطبخ، فنقيت له هذا وقلت له ليست لدى فكرة عن المطبخ وما اليه ..

— حسنا .. سارى ما يمكننى ان افعل من اجلك.

كان اسمه لارنوف ..

سألنى عن ماضى حياتى واظهر اهتماما ما بذلك اخبرته باقتضاب.

— انا من النمسا .. ومن مسؤولى الحزب الشيوعى هناك، عملت لسنوات طويلة فى الحزب الشيوعى اليوغسلافى وعشت بعض الوقت فى فرنسا وكان عام ١٩٣٢ هو عام حضورى الى موسكو ..

كان يستمع الى باصغاء منتبه، وحتى يحفنى اكثر على الكلام امر الطاهى ان يعد لى اكلة جيدة .. وبعد دقائق حصلت على قطعة من اللحم فى اناء من الالومنيوم وكذلك على قطعة من الزلاية وقطعة خبز كبيرة.

— شتاينز من الافضل ان تاكل اولا .. ويعددها نتحدث .. وطابت نفسى للاكل جدا .. وكانت الغرفة دافئة .. حتى ان عرقى تصيب .. وعندما انتهيت سألنى ان كنت اريد شيئا فشكرته واسرع يلف لى ما تبقى من قطعة الخبز فى ورقة اتبعها بقطعة كبيرة من السكر وابتسم وناولنى كل ذلك

— شتاينز، قل لى .. عندما كنت تتجول فى مدن اوربا .. هل كنت تفكر بان الاشتراكية ستاخذ هذا الشكل ؟..

— لا ..

ويبدو انه لم يقتنع بذلك الرد المقتضب .. فتابعنا الحديث قلت له ..
— ان ملايين الناس .. وحتى يومنا هذا يؤمنون بالاشتراكية وبالطبع لديهم وجهات نظر
مختلفة في الامر .. انهم يؤمنون كما كنت انا اؤمن بان روسيا تبني الاشتراكية والعالم
الجديد .. وهذا ليس لاسعاد الشعب الروسى فقط ولكن للعالم اجمع.
— والان ؟ ..
— الان نتج من ذلك حكم العنف والرعب .. ملايين الابرياء في معسكرات العمل الاجبارية
وفي غياهب السجون، كلمة واحدة .. ذلك كله غش وتضليل.
واستمع الى لارنوف بانشرأح ورجانى قائلا:
— عليك ان تحضر كلما شعرت بالجوع .. رجال مثلك ينبغي ان لا يجوعوا ..
— سافعل ..
— وانا سوف اتحدث مع رئيس القسم فى المعسكر بشأن توظيفك بالمطبخ .

تعرفت على أخت هنرك ياقودا

في نفس اليوم جاءني رجل من عمال المطبخ وأخبرني ان لارنوف يستدعيني .. وذهبت اليه .. كانت علامات الرضا مرتسمة على وجهه .. وأخبرني بأنه اقنع الرئيس «لهمان» لكي يوظفني في المطبخ وبمجرد ان يتم ذلك سيجد لي عملا هينا سهلا.

في المطبخ كان هناك طاحونة لطحن الشوفان .. وقد قام السجناء بتصميمها منذ فترة .. وقادني لارنوف الى حجرة صغيرة واراني الطاحونة وأوضح لي كيفية تشغيلها .. وبعد نصف ساعة فقط بدأت اطحن بنفسى .. وكنت في غاية السعادة .. العمل كان سهلا جدا .. وكانت الغرفة دافئة .. والاكل جيدا وكان معنى ذلك - ايضا - اننى تحولت للعمل هنا وعملت في الطاحونة ليلا ونهارا.

وكانت تناوبنى العمل تاييس قلقوريغنا ياقودا، أخت رئيس البوليس السياسى السابق.

كان اخوها هنرك ياقودا يمتحن العطارة من البدء. ثم عمل ولدة ستة عشر عاما في ادارة القسم السياسى للدولة (جى . ب . يو) وفي عام ١٩٣٣ منحه ستالين وسام لينين .. وفي عام ١٩٣٥ عينه رئيسا لادارة امن الدولة.

ثم اتهمه في عام ١٩٣٨ بالعمالة لصالح دولة اجنبية واعدمه رميا بالرصاص.

تاييس ياقودا كانت في الثانية والثلاثين من عمرها .. طويلة القامة رشيقة القوام .. سوداء الشعر .. مع بعض شعيرات بيضاء .. ألقي عليها القبض لانها كانت أخت ياقودا .. وحوكت بعشر سنوات سجنا في معسكر العمل الاجبارى.

لاقتها مضايقات كثيرة جدا، فقد كانت أخت الرئيس المرعب لى ن ك ق د الموظفون .. الحرس .. المجرمون .. كلهم وبلا استثناء عاندوها وعاكسوها وضايقوها كلما وجدوا فرصة لذلك .. وكانت سعيدة لزمالتها لى .. فحتى وقت قريب كان زميلها المناوب في العمل مجرما خطيرا تلفن في تعذيبها.

كنت اقسم معها الاكل .. وكان كثيرا يكفيانا نحن الاثنين .. وعندما لاحظ الطباخون ذلك اخبروني انهم لن يعطوني شيئا بعد ذلك ابدا .. حاولت اقناعهم بان هذه المرأة مسكينة ولا يد لها فيما كان يفعله اخوها وانها ليست مخطئة ولكن هذا لم يساعد بشئ وبدأوا يكرهوننى.

في البداية كانت تاييس متحفظة قليلة الكلمات وعندما اطمأنت الى بدأت تحدثنى بالتفصيل عن حياتها وجياة اخيها.

في احد ايام الاحد جلسنا في حجرة لتنظيف السمك واعداده وكنا بمفردنا فحدثتني تاييس عن اعزازها لى .. وبأنها ومنذ وقت طويل كانت تحن لمثل هذه الصداقة .. ووضعت رأسها فوق صدرى ..

وعلى الرغم من انه مضى على وقت طويل بحسب الاعداد لم ارقه امرأة قريبة منى كهذه المرأة .. وبالرغم من اننى اعيش حياة خيرا من سابقها وصحتى العامة جيدة .. وبالرغم من كل ذلك فلم احس بما يمكن ان يحس به الرجل تجاه المرأة .. لم تثر في اى رغبات .. وعجبت لذلك وفي داخلى لم أتمكن من معرفة الاسباب .. وبهدوء انسحبت من ذلك الوضع الحميم.

في ذلك اليوم كانت على نوبة المساء .. وبقيت تايبس معي حتى الحادية عشرة ليلا .. وكان لدى دقيق احتياطي كثير فلم اعمل وانما جلست مرتاحا اثرثر معها لمدة ثلاثة ساعات كاملة .. تحدثنا عنها وعن اخيها سالتها عن حقيقة اعدامه بالرصاص رغما عن انه كان احد المقربين من ستالين.

في البداية لم تكن تريد التحدث عنه .. ولكنها بعد حين تحدثت عنه كثيرا جدا كانسان جيد للغاية .. قالت ..

— لو كان شريرا لكان اليوم في اعلى المناصب وارفعها .. كان عليه ان يموت. طلبه ستالين باعمال وحشية كثيرة لم يستطع القيام بها او تنفيذها .. كان في صراع دائم مع ضميرة .. عاش في ازيمات نفسية مؤلمة .. وعندما قتل ستالين زوجته «اليليوف» طلب من اخي ان يجد طبيبا موثوقا به لكي يعطي شهادة طبية تثبت انها انتحرت .. وهكذا بدأت بينهما حروب دراماتيكية محزنة.

واستدعى اخي، طبيب القلب المشهور دكتور «الفين» ووضح له الموقف وماذا يطلب ستالين .. واطهر دكتور (الفين) تقززة واستنكاره .. ولكن اخي اوضح له انه لن يخرج من مبنى الـ ن ك ق د اذا لم يفعل ما طلب منه .. ورفض دكتور (الفين) ذلك باصرار عنيد .. وبعدها بايام اعلنت الصحف ان دكتور (الفين) قبض عليه لارتكابه جريمة شنعاء .. وانه عن وعي وادراك .. اعطى تشخيصات خاطئة .. وانه عن قصد مجرم كان يعالج كبار قادة الحزب علاجا خاطئا فتسبب في موتهم وانه غدر بفتيات قاصرات ايضا .. الخ .. الخ فحققوا معه.

وعذبوه واهانوه .. لاسباب عديدة .. وليلا ونهارا .. ثم القوا القبض على عائلته .. واخيرا رضخ .. ووقع على الشهادة المطلوبة .. وهي ان زوجة ستالين انتحرت.

وكان دكتور (الفين) شخصية لها نفوذ كبير في الاوساط الطبية في موسكو .. وكثر القول حول موت زوجة ستالين وحول انتحارها .. وانتشر الهمس .. وفاض واربي ولكن مكانة ونفوذ دكتور (الفين) اخرصا الهمس .. ثم اطلق سراحه ..

ونشرت الصحف لقطات توضح ان التهم التي لفتت له .. كانت تهما باطلة وانه تبعا لذلك سيعاقب كل من قام بتلقيها .. فقد اساعوا للدكتور السوفيتي الامين .. وبعد قليل القى عليه القبض من جديد .. ومات في السجن .. بل ذلك اثر على اخي تاثيرا شديدا .. وكان مترددا ماذا يفعل ؟..

وعندما امره ستالين بقتل الكاتب مكسيم جوركي ذهل ولم يعرف كيف يتصرف كان جوركي في البدء يبرر جرائم ستالين ويدافع عنه بحرارة .. ثم بدا له ان من حقه ان ينقد ستالين وان يعطيه بعض الدروس .. ولكن ستالين تحمل ذلك بصبر نافع ..

وعندما فلت جوركي حده ولم يعد ستالين يتحمل ذلك قرر ان يصفيه جسديا .. وكان على اخي ان ينقذ ذلك شاء ام ابى ..

— فاخذ يكثر من التردد على منزل جوركي .. وكان صديقا جيدا لزوجة ابن جوركي .. والآن كان عليه ان يقتل الرجل الذي صادقه ذلك كان اكثر من طاقة اخي ..

وذات يوم ساله ستالين متى (سيقتفن) جوركي ؟..

واشماز اخى .. ذهب الى منزله وقرر ان يقوم بترحيل اقرب الاقربين له الى الخارج ...
وللاسف وقع في الخطأ القاتل .. اسر لصديقه بسيدوفيسك الذى كان يقود القسم الخارجى
ل ن ك ق د بما انتوى .
ووعده بسيدوفيسك بالمساعدة .. ثم وثى به لستالين والقى القبض في الحال على اخى
واضيف الى مجموعة البولشفيك الذين قام هو شخصيا بالقبض عليهم .. بهارين .. ريكوف
.. بياتاكوف وغيرهم .
وحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص .
وكانت التهمة التى وجهت له .. هي تهمة الثورة المضادة والعمالة اللامبريالية ..
وبذلك انتهت تاييس حديثها .
ولم اعمل بعدها طويلا في المطبخ والسبب الذى من اجله طردت .. عرفته مؤخرا .

بعد تحالف هتلر - ستالين

في نهاية عام ١٩٣٩ تحالف هتلر وستالين تحالفا على تقسيم العالم بينهما كان صدى ذلك الحلف في واقعنا نحن النمساويين والالمان بالمعسكر، صدى مباشرا .. جمعونا مع بعض وفي القسم الثاني من المعسكر وفي العنبرن - تجمع كل الالمان والنمساويين .. قلموا بتجميعنا دون ان يوضحوا لنا الاسباب فكر الرجال ان ذلك يعني الموت الجماعي لنا بالرصاص. كان معروفا ان العلاقة بين هتلر وستالين متوترة .. ولم يكن احد يعلم انهما وقعا حلفا من اى نوع .. وكان موقف الكثيرين سلبيا .. قليلون اصابهم الفرع ولكن الجو تغير فجأة.

في ذلك اليوم وقفت امام العنابر عربية شاحن مملوءة بحزم الملابس وامرونا ان نفرغ حمولتها .

ثم حضر الضابط ونادى على الافراد واحدا واحدا .. وامرونا بخلع ملابسنا القديمة الممزقة .. وارتداء الملابس الداخلية الجديدة والبدل والبالطوات الجديدة ايضا .. وكانت هناك جزم الجليد الجديدة ثم اعطى كل منا حقيبة صغيرة تحمل على الظهر بها لحم الخنزير المدهن والخبز والسكر.

وسألنا ماذا يعنى ذلك ؟ ..

.. حاولنا ان نعرف شيئا من ضباط ال ن ك ق د الذين ابدوا لنا ظرفا غريبا وشاذا لم نعهده منهم ولا يتفق وطباعهم .. ولكنهم تهربوا من الاجابة علينا .. ثم جاءنا رئيس ال ن ك ق د في نورلنك واخبرنا باننا سنسافر الى موسكو .

وقد تأجل ذلك السفر الى موسكو .. هبت فجأة عواصف جليدية ذات رياح عنيفة للمغاية، فتعذر على الطائرات الهبوط .. طائرة واحدة استطاعت الهبوط .. حملت ثمانية عشر من الالمان .. وطارت ولكن بعد ساعتين عادت، فمن الاحسن الانتظار حتى تهدأ الاحوال الجوية .. في ذلك الوقت لم يكن من الممكن استعمال اى نوع اخر من المواصلات سوى الطائرات.

وفي انتظار تحسن الاحوال الجوية وبدافع الفضول واللمهة، قمنا بفتح الحقائب الصغيرة التي علقوها على ظهورنا، وفوجئنا لم نصدق اعيننا .. واصيب الكثيرون منا باسهال حاد .. معدائنا لم تكن مستعيرة يعني لتقبل هذا النوع من الطعام الجيد .. وقاموا بملء الحقائب مرة اخرى .. كانت ايديهم مبسوطة للاخر .. وجلسنا في مجموعات نتحدث عن آخر التطورات .. وبدائنا نعيد ونبدى ..

.. ماذا يعدون لنا ؟ ..

.. لماذا هم محتاجون لنا ؟ ..

الصديق روجانكوفسك كان دائما معنا ..

اهتم بكل شيء .. واستمع بانتباه وبلا تعب لكل تعليق وسؤال.

وضح للمسافرين كيفية التصرف عند الوصول الى المانيا وهذا الجو .. وسكنت الاحوال الطقسية الناشئة .. جمعوا ثمانية عشر المانيا وطاروا بهم .. وفي اليوم التالي كان من المفروض ان تطير مجموعة جديدة حدد عددها باربين سجيننا ..

ولكن الاحوال الجوية تدهورت وساء الطقس مرة اخرى .. وكان علينا ان نصبر وننتظر .. ومرت عشرة ايام اخرى .. فارجعونا للمعسكر والعنابر ولم يوضح لنا احد ما لماذا لم نسافر .. لم نسمع كلمة واحدة في هذا الخصوص .. ولكن فيما بعد وبالتحديد في صيف عام ١٩٤١ قابلت في نورلسك مجموعة من السجناء الجدد وكان معهم احد الثمانية عشر الذين طُروا بهم الى موسكو .. كان اسمه اوتو رابى .. وقد حدثني قائلًا .. — اخذونا من نورلسك الى كرسنوبارسك .. هناك وجدنا مجموعة من ١٨٠ المانيا كانوا في المعسكرات المختلفة .. طاروا بنا الى موسكو وعاملونا بطريقة انسانية .. كل شيء كان على ما يرام .. في محطات المرور جلسنا الى موائد نظيفة واكلنا جيدا .. طلبنا عصير العنب المعتق.

وفي موسكو نقلونا الى سجن بوتيرك .. ادخلونا الى قسم مخصوص زنزاناته تقفل بالليل فقط .. وخلال النهار كفلت لنا حرية الحركة .. اكلنا بكثرة .. كل واحد منا كان له سرير به الخاص به ملاءة بيضاء ومرتبّة مريحة ومخدة من الريش .. وفي ورشة السجن اعدوا لنا ملابس اخرى بالمقاييس الدقيقة لكل منا .. كانوا يعدوننا للسفر الى المانيا .. ولم تكن نعلم شيئاً معيناً من ادارة السجن وبداننا نقلق .. نحن شيوعيون هاجرنا من المانيا عندما اتى هتلر للسلطة، ولذلك فان تسليمنا للحزب الوطنى الاشتراكي الالمانى يعنى دفعنا الى موت محقق .. كنا فزعين بدون شك .. كان الكثيرون ورغم السجن والتعذيب والاهانة، صليين صامدين متمسكين بعقيدتهم الشيوعية .. وكانوا يفترضون انه من الواجب استشارتنا وتخييرنا بين البقاء في المعتقلات والعودة الى المانيا .. ذات يوم دعانا احد كبار ضباط البوليس السياسى ن ك في د دعائنا ، واحدا واحدا الى مكتبه ونقل الينا ان مجلس السوفيت الاعلى انعم علينا بالعفو واستبدل السجن بالنفى من الاتحاد السوفيتى وكان كل واحد منا ان يوقع بالعلم .. بعضهم رفض ان يوقع .. وحاول توضيح الامر للبوليس .. قائلين .. — نحن شيوعيون ولن نرجع لالمانيا الفاشية.

— ونحن كذلك لا يهمنا ماذا تريدون .. وماذا لا تريدون .. عليكم ان تسافروا فقط .. والبعض الآخر اعلن ترحيبه بالعودة الى المانيا وقام بداء الاغنى الفاشية .. ووجه السبب لكل من يشك في نوايا النازية ...!

الترحيل كان اسبوعيا الى المانيا .. وفجأة توقف ... وفي الافطار لم نحصل على الخبز الابيض والزبد والككاو .. اعطونا اقطارا عاديا .. ماء ساخنا .. كيباتوك .. قطعة خبز اسود وبعدها اعدونا الى معسكرات العمل .. وهكذا كانت رحلتنا .. لم يوضح لنا احد شيئاً وانهى اوتو رابى حديثه معيدا .. هكذا كانت رحلتنا .

فترة المعسكر في الحرب الروسية الفنلندية

حمل عام ١٩٤٠ مفاجأة كبرى .. هاجمت الجيوش السوفيتية فنلندا .. وفي جزر سلوفينسك راينا اول ضحايا تلك الحرب .. نقل الى نورلنك ستة آلاف جندي سوفيتي من الذين وقعوا في اسر الجيوش الفنلندية .. وقد اطلق سراحهم عندما عقدت معاهدة السلم بين الدولتين المتحاربتين.

وجد الجنود السوفيت انفسهم بين عشية وضحاها في معسكرات العمل الاجبارية .. لم يكن يخطر ببال احدهم قط انهم سيحكمون بالسجن، مددا تتراوح بين الخمس والعشر سنوات .. كانت التهمة انهم وقعوا اسرى في ايدي الفنلنديين .. لقد ظنوا - بحسن نية - ان وجودهم هنا سيكون مؤقتا .. وفي اول الامر ذهبوا للعمل بدون حراسة .. ولم يكونوا مقسمين الى مجموعات .. وانما ظلوا فصائل وبلتونات كالحال معهم في الجيش ولقد فشلنا في التحدث اليهم .. لم يكونوا يريدون التحدث معنا ابدا ظنا منهم اننا ثورة مضادة.

ومرت اسابيع عديدة .. وفي ذات يوم جمعوهم امام المطبخ .. كانوا على يقين قاطع بانهم سيعودون الى منازلهم .. وبدت عليهم سعادة كبيرة .. ووقف امامهم ضابط ال ن ك في د .. ووضعت بين يديه طاولة صغيرة القى فوقها حزمة من الاوراق .. كانت تحت ابطه .. وصاح

.. انتباه .. الذين ستقرأ اسماؤهم عليهم ان يخطوا للامام .. ثم يذكروا لنا اسماؤهم واسماء العائلة.

وبدا الجنود يخرجون مع سماع النداء واحدا واحدا .. يتم توزيعهم يمينا ويسارا والى منتصف الساحة ايضا ثلاث مجموعات .. بعد ذلك ذهب الضابط الى المجموعة الاولى وقرأ عليهم .. «بما انكم لم تقفوا امام العدو بصمود وشرف وتضحية حكم على كل منكم خمس سنوات سجناء».

وذهب للمجموعة الثانية وقرأ عليهم القرار وكان بالسجن ثمان سنوات .. اما المجموعة الثالثة فكان القرار هو السجن لمدة عشر سنوات .. لكل منهم .. وكل الاحكام كانت بالاشغال الشاقة في معسكرات العمل الاجبارية .. واندesh الجنود .. كانت اغليبيتهم من الجرحى وبعض الجراح جسيم فلاح .. والبعض خفيف .. وكان منهم ايضا اولئك الذي اخلوهم من المستشفيات الى بلادهم .. وبدوا يعضون اصابع الندم .. لانهم لم يبقوا في فنلندا.



في ذلك الشتاء من عام ١٩٤٠ هبت عواصف جليدية قوية عنيفة دلفت قضبان خطوط الحديد ولم تترك منها اثرا في كل من دودنكا ونورلنك .. واسقط في ايدي الجميع .. كيف تصل تعيينات الطعام ؟..

قام آلاف السجناء بمجهودات مضنية شاقة لتنظيف خطوط السكة الحديدية عملا ليلًا ونهارًا .. وكان ذلك بلا جدوى .. عينا لا طائل من ورائه .. تلال الجليد التي كانوا ينظفونها بعد جهود خارقة، كانت العواصف تعيدها الى امكنتها وفوقها المزيد من الجليد.

استعنا بثلاث كاسحات للجليد .. ولكنها هي الاخرى تجمدت وردها الجليد .. اربعة اشهر طويلة انقطعت فيها المواصلات تماما بين دودنكا ونورلنك .. كنا نسكن في خيام على

طول خط السكة الحديد.

عانينا من البرد اهو الا دونها احوال القرون.

الخيام عبارة عن ثلاثيات رهيبة .. الكنبات التي ننام عليها غير محتملة على الإطلاق .. في وسط الخيمة كانت هناك المدفأة .. يجلس حولها الاقوياء فقط .. وتدور المعارك الضارية على مكان لقدم حولها .. كان المجرمون هم سادة الموقف .. ينتزعون اللقمة من افواه السجناء السياسيين، ولا يجدون من يعترض .. او يقف امامهم.

فالحرس منهم .. وادارة السجن تتواطأ معهم باستمرار .. كنا نعاني منهم كثيرا .. ولكن لمن نشكو .. ولمن نتظلم ؟..

المواد التموينية بدأت تتناقص .. وتوشك على النفاد .. تبقى فقط الدقيق الابيض .. ولكنه لم يكن معدا للسجناء وحتى لا تقع المجاعة قامت ادارة السجن مضطرة ومرغمة على اصدار امرها بصنع الخبز من الدقيق الابيض .. وان تصنع ايضا منه الزلابية ولاسابيع عديدة كنا ناكل فقط الزلابية.

كان الذين ينظفون خطوط السكة الحديد يقعون في مصيدة الموت تحت عجلات القطارات عندما يدهمهم الجليد فجأة ويلقى بهم على الخطوط مثلجين، ساكنين، بدون حراك. وفي ليلة من الليالي وعلى بعد مائة متر امام محطة نورلنك رقم ٢ كانت الفرقة النسائية تنظف الجليد ومر قطار كان عدد النساء خمسين امرأة .. دهس القطار منهن ستة واربعين .. كن في لحظات قليلة بين قتيلة وجريحة واخيرا حل ربيع عام ١٩٤١.

الاعاصير الجليدية توقفت .. خطوط السكة الحديد نظفت وعدت مع بقية السجناء الى نورلنك .. وسررت برؤية اصدقائي القدامى ..

قبل بداية الحرب الروسية الالمانية وصلت الى نورلنك فرقة عسكرية من ضباط بلاد البلطيق «لتوانيه، استونيه، لاتفيه، كان عددهم الفين وستمائة ضابطا .. وعومل اولئك الضباط كما عومل الاسرى الروس .. لم يذهبوا للعمل .. حصلوا على طعام جيد .. لبسوا بزاتهم العسكرية .. موظفو المعسكر كانوا ينادونهم - يا رفيق - يا رفيق.

لم يكن يخطر على بال اولئك الضباط ما ينتظرهم .. وقد ضربوا حول انفسهم سياجا من العزلة عن بقية السجناء ولم نستطع التحدث اليهم علمنا فقط انهم استدعوا في بداية عام ١٩٤١ الى مكان قريب من مدينة جوركي على نهر الفولجا .. تحت شعار التثقيف العسكري ومن ثم ارسلوهم الى نورلنك.

الحرب الألمانية الروسية الحياة فى المجهول فى غياهب رتانات أل ن ك ق د فى نورسك

فى يوم الاحد الثانى والعشرين من شهري يونيو عام ١٩٤١ ذهبت الى الحمام .. صيقى فاسيلي جبراكوف كان يعرف المسؤول عن الحمام، ولذلك فانه كان يسمح لنا فى بعض الاحيان بان نمكث وقتا طويلا هناك.

بعد الحمام كنت اذهب مع فاسيلي الى عنبره .. كان فاسيلي جبراكوف مهندسا ممتازا وكانت ادارة السجن تقدر له ذلك .. فكان بناء على هذا يحظى ببعض المحسوبة - ان جاز القول - كان عنبره نظيفا ولديه مرتبة محشوة بالقش، وغطاء، ومخده .. كما ان هناك مكبرا للصوت تم توصيله بقسم التثقيف فى المعسكر .. فكنا نستمتع من خلاله الى اغاني الاسطوانات .. وفى بعض الاحيان كانت تاتيها محطة الاذاعة.

وكانت هذه المرة هى احدى تلك الصدف الجميلة اذ كانت الاذاعة تبث برامجها. وعند دخولنا العنبر توقف الارسال فجأة، واعلن المذيع عن حديث مولوتوف .. وسمعنا كيف تكلم مولوتوف عن هجوم النازية الخسيس وما ان تكلم مولوتوف عدة كلمات، حتى انقطع البث فجأة.

كان بالعنبر حوالى مائة رجل صمتوا جميعهم ، واخذوا ينظرون الى بعضهم البعض مبهوتين من المفاجأة .. كان صمتا غير مريح بدده جار فاسيلي الذى قال واسنانه تصطك الان انتهت حياتنا ولم يعقب احد .. كان الخبر اكبر من كل كلام.

وبعد مدة طويلة دب الحياة فى العنبر واحضر فاسيلي ماء ساخنا وبعض الخبز الابيض .. فشربنا الشاي ولم يمس احد الخبز وهمس فاسيلي قلنا: -

— كارلو، ماهو رأيك؟ وما هم فاعلون بنا ؟

— بالنسبة لى فالامر سيان .. وخير لنا ان تنتهى هذه القسوة الابدية .. وحضر بوليس المعسكر واعلن بان على الذين لا يقطنون هذا العنبر الخروج فورا والعودة الى عنابرهم .. ومررت بفناء المعسكر.

فى ايام العطلات كنت التقي ببعض السجناء يتحادثون، او يعرضون اجسامهم لاشعة الشمس .. اما اليوم فكانت الساحة خالية خاوية .. وفى عنبرنا كان الصمت مطبقا جناحيه مخيما على الجميع .. همس بعضهم لبعض ثم أثر القزام الصمت اخيرا .. كانوا يعلمون .. كانوا يعرفون ايضا انه متى ما تعرضت البلاد للخطر فان اول من يضليهم السجناء .. وهكذا سيكون الحال الان ..

فى صباح يوم الاثنين صلصل الجرس .. تجمع السجناء فى الطريق المؤدى الى باب المعسكر «لينيكى».

لاحظنا التغيير الذى طرا فورا .. فى العادة كان بوليس المعسكر يقف فى خمس صفوف . ولكن الحرس المسلح كان يقف معهم اليوم .. وبدأوا فى النداء .. ووقفنا .. ثم فتح الباب فراينا قوة جديدة من الحرس المسلحين

والضباط .. وفي طريقنا لمكان العمل اوقف رئيس الحرس طلور السجناء واخذ يعدمهم عدة مرات .. وفي اليوم الثاني للحرب بدوا يخفضون انصبثنا من المواد التموينية ... قلم نحصل على السكر .. نقص الخبز الى النصف .. وقسم الصابون الى قسمين .. ثم قاموا باخراج السجناء الاجانب من جميع اقسام المعسكر ووضعهم في القسم التاسع .. وكان ذلك في يوم ٦/٢٥ كل الاجانب ما عدا جوزيف بيرقر وشخصي.

فقال بيرقر:

— لماذا لم ينقلونا نحن ؟.. هل اغلقوا مكاننا في كمينة الطوب ؟..

— اطمئن سيجدوا لنا مكانا افضل.

وعدت في وقت متأخر من العمل .. ذهبت الى المطبخ لآخذ العشاء وعندما مررت بنافذة المطعم لمحت لارنوف .. فانشأ لي بيده لادخل وقال لي.

— يبدو انك جائع ... خذ هذه قطعة خبز ولحم بارد .. لا تستطيع ان ادعوك على كوب شاي .. وليس لطيفا ان اذهب من اجله فسيعلمون ان لدى ضيفا ..

وانحنى لارنوف نحوى وهمس في اذني بخفوت الجيش الالماني يتقدم بسرعة .. قالوا ان كييف قصفت عدة مرات..

— كل الذين كانوا يوما ما اعضاء في الحزب سيقتلهم هتلر اذا ما انتصر.

— انت نمساوي .. فاذا انتصر هتلر سيطلق سراحك.

— مستحيل .. انت تعرف ان هتلر قتل الشيوعيين الالمان والنمساويين وارسلهم الى معسكرات النازية.

وسمعت رنين الجرس .. فكنت سعيدا بانتهاء تلك المحادثة اللزجة وعندما عدت الى العنبر قدمت لجاري قطعة من الخبز قائلا.

— كل .. لقد اكلت انا .. عزمي لارنوف.

— اسمع .. عليك ان تعمل حسابك من لارنوف، انا احذرك.

وهنا اضاء ذهني فجأة .. وتجلت لي الحقيقة الكاملة .. وضح لي جليا لماذا تحدثت معي لارنوف عن سير الحرب.

وفي تلك اللحظة اقتحم العنبر ضابطان من ال ذ ك ق د بملابسهم الرسمية وثالث بالملابس المدنية ومعهم ثلاثة من بوليس المعسكر وفزع الرجال فاندسوا تحت الاغطية .. وبقيت انا وجاري جالسين وقلت لجاري الذي ارتعدت فرائصه.

— اتوا لقيض روحي.

وسال الضابط النوبتجي بصوت مرتع.

— هل يوجد احد هنا من فرقة ماتفيف ؟..

وبالرغم من اني كنت اجلس في نهاية العنبر الا انني سمعته جيدا وصمت .. فقال الضابط النوبتجي.

— نعم .. يوجد ..

— اسمه .. ؟..

— شتاينر ..

— هو من اريده بالذات.

اتجهت نحوى مجموعة الضباط .. لم يسألوننى عن اسمى .. وصاح احدهم.^١
— ارفع يديك الى اعلى ..
ورفعت يدي الى اعلى فقال الضابط لرجال البوليس ..
— ففتشوه ..

وفتشنى رجال البوليس بدقة .. وكل شيء وجدوه عندى وضعوه جانبا وامرونى ان اتبعهم وفى الساحة كانت الانوار مضاءة للحد الذى تحول الليل فيه الى نهار باهر.
ووضعت يدي وراء ظهري واتجهت نحو باب المعسكر وهناك رايت بيرقر ايضا، فى نفس وضعى .. فحيانى بهزة من راسه ورددت عليه بنفس الاشارة. وتركنا الجندي بلا كلمة .. وسرنا فى الطريق المؤدى الى مبنى ال ن ك ق د .. حاولت ان اتحدث مع بيرقر، ولكن لم اكد افتح فمى حتى صاح الجندي فى وجهى مهددا.

واخذت نفسا عميقا من انفاس ذلك الليل فقد كنت اعلم ان تلك هى الفرصة الاخيرة لى لافعل ذلك .. دخلنا مبنى ال ن ك ق د واخذ احد الضباط بيرقر من يده .. وتحت الممر قادونى الى حجرة بقيت فيها مع احد المدنيين وكان يجلس على منضدة بها آلة كتابة و اشار لى الى كرسى بجانبه فجلست .. اخذ يراقبني وهو يدخلن دون ان يتفوه بشيء .. انهى سجارته واخرج اوراقا كثيرة وسالنى.

— ما اسمك ؟..

— كارلو شتاينر.

— متى القى عليك القبض اول مرة ؟..

— فى الرابع من ديسمبر عام ١٩٣٦

— لماذا ؟..

— بتهمة العمالة للجستابو، وعضوية منظمة اراهابية.

— هل اعترفت ؟..

— على اى شيء اعترف ؟.. لست بعميل .. ولم ارتكب جرما ضد الاتحاد السوفيتى .

— هل استأنفت ؟..

— ورفض الاستئناف.

— اسمع يا شتاينر .. انت ارتكبت جرما عظيما ضد الاتحاد السوفيتى وقد صدر عليك حكم

خفيف .. عشرة سنوات؟

كان عليهم ان يرموك بالرصاص .. ان عليك ان تشكر الحكومة السوفيتية

ماذا تعمل الان ؟.. اما زلت تعمل من اجل الثورة المضادة ؟..

— لم ارتكب اى جرم ضد الاتحاد السوفيتى .. ولست اعمل الان فى المعسكر من اجل الثورة

المضادة ..

— انت ما زلت تستعمل التكتيك القديم وتنكر اى شيء، يمكننى اخبارك بانك لن تفلت هذه

المرة بسهولة .. ومد لى محضر التحقيق القصير قائلا .. وقع ..

ولم ارد ان اوقع .. فنظر الى باستغراب شديد وهو يقول ..

— لماذا لا تريد ان توقع عليه ؟..

— انا لا اوقع في اوراق ال ن ك في د .

— لماذا ؟..

— في عام ١٩٣٦ القى على القبض في موسكو . وحكومت بعشر سنوات بتهمة مختلفة تماما .. وكنت على يقين من ان الظلم سيرفع عن كاهل يوما ما .. ولم افقد ذلك الامل حتى الان .. وها انتم مرة اخرى تحركون التحقيق معي .. وانا اعلم ان تحقيقات ال ن ك في د .. واحكامهم ليست لها سند قانوني .. وقد قررت ان لا اوقع على محضر قط .
— آه .. هكذا اذن .

قالها المحقق وضغط على جرس امامه فهرع نحوه جندي من الحرس .. تركه معي ونهض خارجا من الغرفة وبعد قليل عاد ومعه رئيس ال ن ك في د في نورلنك واسمه بوليكار يوف . ونهضت واقفا عندما حضر بوليكار يوف .. وصاح هذا الاخير في وجهي .

— ماذا تفعل هنا ؟.. اى مسرحية هذه ؟..

— هذه ليست مسرحية .. هذه هي الحقيقة .. ولن امثل في مسرحيتكم انتم .
وصاح بوليكار يوف .

— ماذا ؟..

وقبض على عنقي بيديه .. كان يخنقني بعنف وهو يضغطني على الحائط .. ولم ادافع عن نفسي .. كان الموت والحياة عندى لحظتها متساويان واطلق سراحي وبقيت بجوار الحائط ..

— خفت ؟..

قالها وجلس .

— اسمع هل تعلم في اى وقت نعيش ؟.. انا املك كل الحق وبلا ادنى تحقيق ان اضعك امام الحائط واطلق عليك النار .. ولكنى لن افعل سنقوم بتحقيق منظم .. وبدلا من ان تكون شاكرا لنا ها انت تقوم بهذه الحركات البهلوانية .. انا اسالك بادب جم هل تستطيع ان تسلك سلوكا معتدلا ام لا ؟..

— افعلوا بى ما تشاؤون ولكنى لن اوقع على شيء .. ونهض بوليكار يوف وخاطب المحقق قائلا ..

— ارم به تحت الارض .. دعه يقطس !

وجرني الجندي خلال ممر مظلم .. ثم ضربني ودفعني الى ركن الغرفة وهو يسبني .

— انت يا فاشستي .. يا قذر .. سائرع كليتيك .

— ليست بفاشستي .. انت الفاشستي ..

وحاولت الدفاع عن نفسي بكلتا يدي .. وحضر لمساعدته جندي آخر .. فقاداني خلال الساحة الى السجن المركزي لل ن ك في د في نورلنك وظهر رجل طويل القامة وفي يده حزمة من المفاتيح ونظر نحوي من خلال قضبان الباب .
— مرة ثانية .. فاشستي آخر .. تعال هنا .

سنريك كيف تحترم السلطة السوفيتية .. وقادني الى طابق علوى على يمينه وشماله ووقفت الزنزانة الرهيبة وبالطبع خلعوا ملابسي ووقفت عرايا ثم فتشوني للآخر حتى قطعة الخبز التي كانت معي قطعوها الى قطع صغيرة وفتشوها جيدا ورموني في الزنزانة

.. وبعد ان اغلقوا الباب خلفي .. احاط بي السجناء ووجهوا لي العديد من الاسئلة ..
- من اى قسم انت ؟ هل لديك دخان ؟ ماهو الجديد ؟ وعندما علموا اننى لا ادخن
اصيبوا بخيبة امل .. وصاح احدهم من السرير الاعلى ..
- دعوا الرجل في سلام .. عله يرتاح قليلا .. وانسحبت الاغلبية وقادني احدهم من يدي ثم
تقدم نحوى اخر وبمنتهى الحفاوة مد لي يده وعرفني بنفسه قائلا ..
- المهندس برلف ..

وجه مستدير .. وشعر اسود كثيف تتخلله شعيرات بيضاء .. ومن خلال عينين حادتين
خضراوين حاد في وجهي بقوة وهمس .. هنا يوجد اوركا- كثيرون .. هل تعلم .. انهم
المجرمون حاسب ..

هل لديك شيء للاكل .. والتفت لاجراء له من سلكي بعض الخبز برغبة حقيقية ..
ولكن السلة كانت قد اختفت .. وكان من العيب البحث عنها .. اخبرته بذلك فنظر الى اعلى
الى السرير الذى فوقه ولم يقل شيئا .. وبحثت لنفسى عن سرير .. لم تكن الزنازة ممثلة
في الاسرة العليا رقد السجناء ذوى الجرائم الكبرى (بلاتنيا) وفي السرير الارضية القى
السجناء السياسيون انفسهم .. وكانوا يسمونهم (فرايرى) اى الصعاليك .. وفي الاسرة
العليا حيث كانت هناك اربعة اماكن بالقرب من السقف، كان يرقد صغار اللصوص الذين
اطلق عليهم (كسوجنكن) ..

كان جارى في السرير المهندس زميسكى من تفيرا كالنيا .. التى تبعد سبعين كيلومترا
من موسكو .. حوكم بعشر سنوات سجنا بتهمة العمل التخريبي عندها نشبت الحرب
وضعه في السجن .. لانه وفي حديث مع زميل له مدح الصناعة الالمانية .. ولم ينكر
زميسكى ما قاله .. لانه رأى بنفسه الصناعة الالمانية .. كان يعتقد انه لا تثير عليه ولا
سوء في الامر اذا تحدث بخير عن الصناعة الالمانية الجيدة .. بقينا لمدة اسبوعين نستانس
ببعضنا البعض هذا الرجل اللطيف، صاحب الافكار المركزة، تعرفت عليه عن قرب ..
أكد لي بان الصناعة اكبر عدو للانسانية .. لان الانسان يصبح عبدا لها .. وستقوده الى
الدمار المحقق بدون شك .. ولم يمض شهران حتى حوكم زميسكى واعدم رميا بالرصاص ..
وتعرفت على بقية سكان الزنازة .. كانت خليطا عجيبا من البشر .. اكبر السجناء المجرمون
اسمه افانوف .. كان يرقد ردة خاصة .. كان دائما يخترع وضعيات يتيء فيها بيده على السرير
ويبرز جسمه الاعلى للامام .. وحوله يتحلق صغار اللصوص يستمعون اليه وينفذون
جميع اوامره

اما بقية اهل الاجراء .. فكانوا ينظرون اليه باحترام كبير وبخوف اكبر .. يستجيبون لادنى
رغبته

- بيلي اعطنى ماء ..

- كارسوبي - ناولنى البشكير .. واوقد المدفأة .. الخ الخ
وهم يتسارعون .. لقد عرف ذلك الرجل كيف يتحكم في اتباعه ومن يعصى له امرا كان
يضرب حتى الموت .. لم يكن الخبز ينقصه ابدا .. كانوا يخطفونه له خطفا من ايدى وافواه
السجناء .. كذلك الذى حدث لي عند قدومي

كانت اخبار العالم الخارجى مقطوعة عنا تماما .. وكنا في قلق دائم اما بقية المجرمين
فكانوا يلعبون الورق .. يقطعون اوراق الجرائد قطعاً متساوية ومن لب الخبز يصنعون

الأرقام ... ثم يخرجون من حجر صغير قلما ملونا يلونون به الكروت .. كانوا يلعبون على الخبز والشورية .. وفي بعض الاحيان يقامرون بالملابس .. ومنهم من كان يقامر حتى بوجباته القادمة لعدة ايام فيقاسون الجوع والضعف .. اما الذين يقامرون بالملابس فلم يكن يفعلون ذلك بملابسهم فقط. بل بملابس الآخرين كذلك.

وكان من دواعي الفخر ان تأخذ الامور مجراها الى النهاية مع بعض السجناء السياسيين المغلوبين على امرهم . كانت الضحية المختارة تجلس في هدوء لا تعرف ما يدبر لها ويحاك ويتقدم احد المجرمين قاتلا ..
— اخلع هذا .

مشيرا الى قطعة الملابس التي لعب عليها قبل قليل .. ولا يستطيع احد الاعتراض .. كانوا يلعبون بارواح الآخرين .. وعندما تنشب المعارك بينهم ويصدر القرار بتصفية زيد من الناس، كان على الذي يخسر في الورق ان ينفذ الحكم في المحكوم عليه بالموت. فاذا كان السجين الضحية في نفس المكان، كان على القاتل ان يفعل ذلك سريعا .. بقطعة من حجر .. او باى كتلة اخرى .. واذا كان السجين الضحية في قسم آخر كان القاتل يتعقبه حتى يجد فرصة فيقضى عليه .. واحيانا كان المقتول الحي يخطر بالحكم عليه وتظل المطاردة قائمة بالشهور والسنين حتى يتمكن القاتل منه .. اما من يعارض او يتباطا في تنفيذ حكم صدر له تنفيذه، فكان يقتل فوراً بتهمة الخيانة.

ورغم ان لعب الورق في السجن كان ممنوعا الا انهم ظلوا يلعبون .. يجلسون وظهورهم نحو الكوة التي يطل منها الحارس .. ويشربون في اللعب والآخرين يتحلقون حولهم كانوا ينهمكون في اللعب .. وفي المشاهدة فينسون انفسهم .. كنت تسمع فقط صوت الورق والخبط عليه ثم السباب والالفاظ البذيئة واللعنات .. والكلمات الجارحة وبعد يومين استدعاني المحقق للتحقيق مرة اخرى وسألني
— هل عقلت.

— لن اعطى اى بيانات ولن اوقع على شئ.

ولم يرجعونني الى زنزانتي رموني في زنزانة الحبس الانفرادى (كارس) كانت مساحتها ضيقة جدا، وارضيتها من الخرسانة المسلحة .. وليس بها نافذة بها لمبة صغيرة تضيء ليلا ونهارا. وجلست على ركبتي في بادية الامر ثم لم استطع البقاء على هذا الوضع طويلا .. اذ احسست بخدر شديد فحاولت التحرك والمشي وعندما تعبت بركت مرة اخرى على ركبتي وظل الحال على ذلك المتوال طيلة النهار، والليل، وعند الصباح احضر لي الحارس بعض الطعام الرديء جدا، شعافته نفسي وابيت ان امد له يدى .. واستدعاني مدير السجن سائلا اياي لماذا انا مضرب عن الطعام.

اخبرته ان هذا الطعام هو نصف ما يعطى لنا عادة ولذلك انا ارفضه .. قال لى.

— هكذا الحال في زنزانات الحبس الانفرادى ولا يحصل احد على اكثر من هذه الكمية.

لم اقتنع ولكن ماذا افعل .. عدت للزنزانة فوجدت انهم القوا فيها بشاب وسيم وجهه امرد كوجوه الفتيات قال لى ان عمره عشرون عاما، ولم يكن ذلك يبدو عليه كان يبدو وكأنه في السابعة عشرة من عمره .. حدثني انه من مينسكا وقد قام هو وبعض زملائه بالدراسة بعمليات كسر وسرقة وحوكم بخمس سنوات وكان اسمه فكتور . جاءوا به من السفينة راسا الى زنزانة الحبس الانفرادى لانه قام بمحاولة للهروب في ميناء اغاركة على نهر اليكسي

وقد اصاب في عملية التهريب هو ورغيقاد بجروح بالغة . وكان عليه ان يمثل امام محكمة المعسكر مكنت ومعى فكتور خمسة ايام كاملة . حدثني عن امه وعن مدرسته التي كانت تزوره في السجن اسبوعيا . والتي اتخذت كل التدابير لاطلاق سارحه ولكن ..
وسالته

— كيب صبحت لصا

— ليس بسبب الفقر ولكن بسبب الفراغ والملل ولان اصدقاء السوء .. دفعوني الى ذلك .
بى ترك ثلاث اخوات واختفى والدتي له تكن ترعانا فهي متسغولة بتحصيل لقمة العيش تركته يتحدث وسرحت بعيدا . ثم بعد ذلك اصبحت بالمرض اخذوني للطبيب وامر بنقل فوراً من زنزانه الحبس الانفرادى وحصلت على طعام المرض وكنت طيلة الايام الخمسة الماضية لا اكل شيئا يذكر بل كنت اشرب ماء فقط .. كنت على هزالى وضعفى ارقد فوق تلك الارض الصلبة العارية الرطبة .. اصابني التهاب في الاذن . وكانت اوجاعى تفوق كل احتمال .. ووعدني الطبيب بارسالى الى اخصائى الاذن والانف والحنجرة في نورلسك .. وهو نكولاى افانوفج . سوهوروكوف .

وكان يقوم بعلاج السجناء والاهاى على السواء .. وقادنى تحت الحراسة للمدينة .. وكان مبنى العيادة يقع امام مبنى ال ن ك فى د . ولم يكن الحارس يعلم ان دكتور سوهوروكوف هو سجين مثل .. كان يخاطبه يا رفيق وتركنى انفراد بالطبيب .. وكنا مضطربين جدا .. هو وانا .. نريد ان نعرف ماذا جد من احداث منذ ان افترقنا من بعضنا البعض .

حدثته عن كل شىء مر بى ، وحدثنى هو عن الموقف في الجبهة وشكوت له من آلام الاذن فاعطاني حقنة .. ووعدنى بانه سيرسلنى للمستشفى المركزى .. واستدعى سوهوروكوف الجندى وقال له امرا .

— اعده الى هنا بعد يومين .

وعند عودتى بعد يومين لم نستطع التحدث حرية فقد بقى الجندى معنا بالغرفة وربما كان ينفذ الاوامر وقال لى الدكتور بصوت حاد .

— كتبت تقريراً لرئيس ال ن ك فى د وطلبت منه ان يرسلك حالا للمستشفى فانت مريض جدا

وكان ذلك كافيا بالطبع لان افهم .

وفي اليوم التالى بدأت في الانين والتوجع .. وشكوت من آلام حادة جدا ابقتنى ساهرا طول الليل .. وحذرني الحارس بان اصمت واحاول النوم فلم ابه لما قال .. واستمر الانين والتوجع وفي الصباح قدم تقريراً بذلك لرؤسائه .. واستدعوني للضابط النوبتجى .. هددنى بالعقاب لانى لا احترم قوانين السجن .. فاخبرته بما اعانيه من آلام .. ووافق على ارسالى للطبيب مرة ثالثة، وهناك نجحت في تبادل بضع كلمات مع دكتور سوهوروكوف .. وكتب تقريراً ثانيا طلب فيه ارسالى للمستشفى على وجه السرعة لان حياتى في خطر .

فى المستشفى المركزى

بعد خمسة ايام استدعونى من الزنزانه كنت اعتقد انهم سيقودوننى للطبيب رافقتى جنديان . وعند وصلنا مفترق الطرق تقدم بى نحو اليسار ولم يكن ذلك طريق الطبيب.

كان واضحا انه يقود الى المستشفى المركزى التى تقع فى القسم الخاص من المعسكر .. وفى ساحة القسم الثانى تجمع السجناء من كل العنابر ليلقوا نظره على شخصى . ويرفعوا لى ايديهم بالتحية واشارات التعاطف والتشجيع . الموظف قرا التقرير وقال للجندى .

— حسنا يمكنك ان تذهب المريض سيبقى هنا .. ولم استطع تصديق اذنى .. وتحدث الجندى تلفونيا مع ادارة السجن وبقيت مشدودا متوترا اتابع ملامح وجهه .
— حسنا . حسنا .

ووضع السماعة واستدار منصرفا .
الموظف الذى استقبلنى كان ياكل خبزا ويشرب الشاى .. ولاحظ نظراتى النهمه فقطع من الخبز ومدها لى . وخجلت جدا رغم انه ضبطنى متلبسا بالنظر اليه . وهو ياكل .. وحاولت ان ارفض ولكن نداء جوعى كان افوى .
— هنا .. لن تجوع .

قالها الموظف .. وحضرت الممرضة وقادتنى للحمام .
كان بالمستشفى بعض الذين ستجرى لهم عمليات جراحية . وبعضهم كان بيد او رجل مكسورة .. علمت ان احدهم سقط من المدخنة التى طولها مائة وخمسون مترا .. واصيب بجروح عديدة .. وبعد اربعة عشر يوما خرجوه من المستشفى .
وفى نفس الظهيرة استدعانى دكتور سوهوركوف .. وقد استغربت جدا عندما قادنى الى دورة المياه .. وقفل الباب علينا .. لم نتحدث عن مرضى .. ولكن تحدثنا عن آخر الانباء .
قال لى ان انباء خطيرة تتردد عن تقدم الالماني . وانهم يسرون بسرعة البرق .. وحدثنى عن القوانين القاسية فى المعسكر .. اما انا فقد حدثته عما يجرى لى . وكيف انهم عادوا ينهمونى من جديد .. ووافق على التكتيك الذى اتبعه وقال لى انه من المهم جدا ان يكسب الانسان الوقت .. اما من ناحيته هو فسيعمل كل ما فى وسعه لابقى بالمستشفى .. وهو يامل ايضا ان اقضى شهرا كحد ادنى .. واذا لم تسر الامور كما يريد فسيجرى لى عملية جراحية فى اذنى لابقى مدة شهرين .

— فى مدة الشهرين يمكن ان يحدث الكثير .
— فليكن يا دكتور افعل ما تراه مناسبا .

قلت ذلك بعد ان اعدم فى الايام الاخيرة اربعة من السجناء وفى المستشفى كنت اعيش جيدا . السكندرا افانوف سليبكوف كانت مديرة المستشفى وكانت تحرص على العناية بكل شئ .. المعاملة الجيدة .. نظافة الاسرة .. الغذاء الكامل .

وكنت ارقد على سرير نظيف .. ولا يدرك معنى ذلك الا من نام على الكنبات الصلبة المليئة بالبراغيث والقمل .. كان معى فى الغرفة ستة من المرضى .. اثنان يمكنهما الوقوف وواحد اجريت له عملية فى عينيه .. وآخر كسر يده .. كان اسمه ساشا بروكفن وهو من عتاة

المجرمين .. في رقبته اوزار دماء وارواح كثيرة.
عمل ما لا يمكن عمله حتى يبقى بالمستشفى لفترات اطول .. بالليل كان ينزع الرباط عن
الكسر ويحرك يده بعنف ليمنح التثام الجروح والعظام.
وسالفتني الطبيبة التي تقوم بعلاجه.
— هل لاحظت شيئا مريباً في سلوكه ؟..
— لم ار منه ما يريب .

وفي ذات صباح دخلت سستر اولقا العنبر على حين غرة فألفت الرباط محلولا عن الكسر
.. سارعت وخاطته بابتيرة وخيط وقالت له مازحة .
— من فضلك لا تفك الشريط مرة اخرى .

وشتمها بروكفن بحقد .. وكان ذلك شاذاً .. فالمرضى يحبونها لانها عطوفة رقيقة .. عاشت
ماضيها القريب في اودسا كانت صغيرة عندما تزوجت .. وحبس زوجها لارتكابه احدى
الجرائم .. واجلسوها على كرسى الاتهام رغم انها كانت بريئة ولا تعلم عن جرمه شيئا
وبتهمة التواطؤ والتستر على الجرائم حوكت بلخمس سنوات سجناً واستأنفت بدون
جدوى .. وعند انتهاء فترة السجن .. عملت الان بالمستشفى كامرأة حرة .

لم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي يسب فيها بروكفن اولقا .. والسبب في ذلك انه حاول
ان يستميلها الى جانبه .. وعندما كان يغارها حذرته بهدوء وادب ان يكف عن ذلك .

ولكنه حقد عليها وبيت في نفسه ان ينتقم منها بشتى الطرق كانوا يعالجون التهاب
الاذنى ببعض المسكنات والادوية .. وقالوا ان المهم هو تحسين صحتي حتى استعد للعملية
وكان مما حدثني به دكتور سوهوركوف كيف ان رئيس ال ن ك ق د ظل يسال دائماً عن
صحتي، ويحاول اخراجي من المستشفى .

وبعد اسبوعين تحسنت واصبح من الممكن اجراء الجراحة لي، وتم تحديد موعد
العملية . وفي يوم السبت اخبرني دكتور سوهوركوف ان اكون مستعداً للعملية يوم
الاثنين .

عشت على اعصابي .. وطيلة يوم الاحد كنت مضطرباً ليس بسبب العملية، ولكن بسبب
التفكير في العودة للسجن . فلا زالت هناك الكنبه القذرة الخشبية ولجنة التحقيق
والجوع .

وجاءت اولقا في الصباح الباكر من يوم الاثنين .. اعطتني حقنة في يدي اليسرى
وقادتني الى حجرة العمليات .. وهناك كان دكتور سوهوركوف والكسندرا واحدى
المرضات .

وقال دكتور سوهوركوف بلهجة جادة ..

— كيف تشعر ايها المريض ؟..

— على ما يرام .

— اذن كل شيء جيد .. هل وقعت على موافقتك باجراء الجراحة ؟..

— لا افهم سؤالك ..

— تعرف يا شتاينر انها شكلبات على كل مريض تجرى له جراحة ان يوقع قبلها على اقرار
بموافقته على ذلك .. اخلاء لمسؤولية الطبيب عند حدوث بعض المضاعفات .

— آه .. لقد وقعت على ذلك منذ يوم السبت .. وهنا تدخلت الكسندرا سليكوف قائلة .

— يا دكتور سوهوركوف أليس من الممكن عمل شيء آخر خلاف العملية ... لماذا نخاطر بها ونحن لسنا في حوجة لذلك ؟..

— اسألني المريض

وسألتني عز رأيي في هذه المسألة فأجبتهما بحزم..

— أنا مستعد للعملية.

— أذن الى الامام .. استلق على الطاولة.

قالها دكتور سوهوركوف بلطف شديد .. وغطت الممرضة عيني بغطاة وربطت يدي على طاولة العملية .. ثم مسحت على المكان الذي ستجرى فيه العملية بمحلول ما .. واحسست بوخز ابرة .. كان احساسا غريبا غير مريح قط .. بعد دقائق قليلة احسست بوقع الازميل والشاكوش يخترق الجمجمة.

لم اكن اشعر بالهم شديد .. خيل لي ان ما يجري بعيد عني فقط كان هناك سائل ينحدر على عنقي ادركت انه دمي .. وسألني الطبيب سؤالا لم اتبين كنهه سمعته يتحدث ببطء ..

— اعطني قطننا .. الملقاط .. الشاش .. القطن .. الخ الخ.

— سننتهي في الحال

وتوقف الخبط بالشاكوش .. وعندما كانوا يقومون بوضع اللمسات الاخيرة فكرت بحزن .. ان رأسي السليمة صنعوا منها راسا مريضة .. هل هذا الذي جرى لا نتيجة له ..؟ من المحتمل ان اكسب الزمن .. ولكن كيف اعرض نفسي للخطر ..؟ ولكن هناك اخبار الاعدام ايضا كثيرون اعدموا لانك في د ... متعطشون للدماء ولا يمر يوم ولا تطير رؤوس. وتبتل بالدم .. كنت اعلم .. اذا خرجت ووقفت مرة اخرى امام فورهوف فلن اقلت من حكم الاعدام .. انا اعلم .. اذن من الخير محاولة كل شيء .. وانا مستعد لعملية اخرى بدل ان تطير رأسي.

وانتهت العملية، او كادت كان بإمكانني تحريك يدي .. وسألني دكتور سوهوركوف ..

— هل تريد ان نحمك على النقالة ؟..

— كلا .. شكرا .. ساسير على قدمي.

ووضعتني الممرضة برفق على السرير .. ثم شعرت بالمرض حقيقة بعد ذلك .. ارتفعت درجة حرارتي .. ولم استطع الاكل على الاطلاق.

الكسندرا ودكتور سوهوركوف كانا يمران على دائما متفقيدين وحملت الى سستر اولقا انواعا مختلفة من الطعام .. وكنت امسها بصعوبة شديدة .. وقد انتهز بروفكن الفرصة .. فما ان حضر السستر الطعام حتى يكون بروفكن جوار سريري .. كأن يقول لي:

— انت لن تستطيع الاكل في هذه الحالة .. اما انا فشهيتي جيدة .. جيدة للغاية ويحمل الطعام دون ان ينتظر جوابا مني.

وتحسنحت حالتي اخيرا .. انخفضت درجة الحرارة وعندما حاولت الوقوف هزعت الى سستر اولقا منزعة وسارعت بتانيبي على ذلك .. وعلق بروفكن قائلا.

— ارى انك تهتمين بالفأشست.

كان دكتور سوهوركوف يشرف بنفسه على عمل الغيار للجرح .. وبعد اسبوع قال لي.

— هذا شيء ممتاز فقد بدأ الجرح يلتئم.

ولكن ذلك لم يدم طويلا .. اذ بدأت المضاعفات في الظهور ارتفعت درجة الحرارة الى ٤٠ درجة سنتقريت .. وقلق سوهوركوف والكسندرا .. واخذ الصديد يتدفق من الجرح .. فاعادوني مرة اخرى الى غرفة العمليات.

وسالني سوهوركوف ان كنت ادخلت شيئا في جرحي ولكنني نفيت ذلك فقال لي: — لا تخف .. سابقك في المستشفى اطول فترة ممكنة رغم ان رئيس ال ن ك د .. سال عنك مرة اخرى.

وبدأت حالتي تسوء يوما بعد يوم .. ووقدت هناك فاقد الوعي تقريبا .. حتى ان الكسندرا اصابها قلق شديد على .. ودعت الى كونسلتو عاجل .. اقترحت فيه اجراء جراحة ثالثة لي ولم يوافقها احد .. خاف الاطباء على حياتي .. وجليت الاكسندرا اجدو واندر انواع الادوية التي كانت محجوزة فقط لرجال ال ن ك د ، ولكي تفتح شهيتي للاكل احضرت لي كاسا من النبيذ واعتنت اولقا بي ايضا عناية فائقة .. ومرة احضرت لي بعض الحلوى من المطبخ ووضعت على دولابي.

وجاء بروكفن كالعادة واستولى على الصحن .. ودخلت اولقا في نفس اللحظة فرات فعلته .. وصاحت به في انفعال ..

— كيف تفعل ذلك ؟! الا تخجل من نفسك ؟! اتسرق طعام مريض ضعيف ؟! الم يكفك ما تاكله ؟!

ورد عليها بروكفن بحقد ..

— خذيه .. كليه انت .. طعام فاشستيك هذا .. والقي بالصحن في وجهها.

وجرت اولقا من الغرفة .. وكنت مغتاظا للحد البعيد .. ولكنني كنت عاجزا ايضا عن النهوض لتسوية الامر معه .. وتقرر بناء على تلك الفعلة ان يخرج بروكفن من المستشفى في نفس اليوم ولكنه عاد بعد ثلاثة ايام واعتذر لها واقسم انه سيسلك سلوكا حسنا ..

وبدأت صحتي في التحسن .. نزلت درجة الحرارة وانخفضت وسمح لي الطبيب ان انهض .. وتمشيت حتى الغرفة المجاورة وتحدثت مع المرضى الآخرين .. لقيت هناك قوستاف شولر .. الذي نقلوه من السجن الى المستشفى .. كان من اصل الماني .. ولد في روستوف على نهر الدون .. كان عضوا في الحزب الشيوعي ومسؤولا عن القسم الزراعي بالمنطقة .. وقد القي عليه القبض في عام ١٩٣٧ بتهمة التخريب، وحوكم بخمسة عشرة عاما.

وكان يقضى مدة حكمه في نورلسك، ولم يشفع له انه خبير في امور الزراعة .. بل كان عليه عملا جسمانيا شاقا .. فغيره من الناس .. غير انه نجح في ان يصبح مساعدا لحفظ الدفاتر في ادارة المعسكر ..

وبعد اسبوعين من نشوب الحرب القوا به في السجن واتهموه بانه قد اثنى امام السجناء على هتلر وفيرماخت .. ولكنه رفض تلك التهمة ونفاها بشدة .. وعند التحقيق رفض التوقيع على المحضر .. فانهكوا قواه حتى لم يعد يستطيع الحركة وكان عليهم اخيرا ان ينقلوه الى المستشفى واكشف الاطباء ان هناك نزيفا وجروحا داخلية قد اصيب بها .. سررت لرؤيتك يا كارلو ..

— اشرك وانا كذلك ..

وقد وجدته عندما اقتربت من سريره في حالة صحية سيئة للغاية .. وكانت نفسيته

محطمة كذلك .. فقد اخبروه بحقد، انهم قاموا بترحيل زوجته وطفليه من روستوف الى كازاخستان.

— كل شيء عندي الآن سياتي .. كيف تنتهي الامور ..؟ اننى لم اعد احتمل اكثر .. بمجرد عودتي للسجن ساوقع على كل ما يطلبونه منى.

— لا داعى للانهيار يا قوستاف يجب عليك ان تدافع عن نفسك وان تناضل كما ناضلت عام ١٩١٧ يجب ان تقتنع بكلامى هذا ..

— كانت الامور مختلفة فى الماضى .. كنت مؤمنا بالاشتراكية كنت مستعدا للتضحية بنفسى من اجلها .. واليوم .. اليوم فقدت ذلك الايمان .. وتحدثت معه مرات عديدة .. ولكننى لم انجح ابدا فى اقتلاع جذور تلك المرارة من نفسه.

وكان هناك ايضا وفى ذات الغرفة الكابتن طيار سيماكوف احد الضباط السوفيت .. الذى عليه القبض مع اربعين ضابطا آخر فى عام ١٩٣٦ فى فلاديفستك .. بتهمة التحضير لحركة انفصال الشرق الاقصى من الاتحاد السوفيتى.

وكان سيماكوف يعمل فى روسيا الوسطى .. اما لماذا اراد ان يفصل الشرق الاقصى عنه وطنه ..؟ فسؤال الاجابة عليه ان ك فى د واعترف سيماكوف وستة عشر آخرون بصحة التهمة فحكم على كل منهم بعشرين عاما .. وحكم على البقية بخمسة وعشرين عاما لكل منهم .. وعندما كانوا يحققون مع قائده - قائد سلاح الطيران - قفز من النافذة الى الشارع وتهدم.

كان سيماكوف فى معسكر دودنك وتحدث مع بعض رفاقه عن الهروب بطائرة الى الخارج .. وكانت هناك بعض المطائرات فى مطار دودنك ووشى ادهم لى ن ك فى د بالخطة . فقبض على سيماكوف - وبيرلوف - وبسيالوف - واقتيافوف بتهمة الهروب وحكوموا بالاعدام.

واضرب سيماكوف عن الطعام احتجاجا على حكم الاعدام .. ونقل الى المستشفى فى حالة صحية متأخرة من جراء الضعف الشديد ومضت اربعة اشهر على اضرابه عن الطعام .. وكانوا يغذونه تغذية اصطناعية .. وكان مصليا بضعف شديد منعه من الحركة والكلام . حاولت اقناعه بالاقلاع عن اضرابه ذلك اوضحت له ان لا يمكن ان تنجح الوسائل الانسانية ضد نظام ستالين اللا انساني .. واغمض سيماكوف عينيه مشيرا الى انه يفهمنى ولكنه بقى على رايه ووافق بعض ضغوط والحاح من جانبى على مضغ قطعة من العجور المخلل .. ولكنه لم يبلعها .. بصق كل ما فى فمه .. كان الوقت منتصف النهار عندما حضر قاضى التحقيق ساكولين يتبعه جنديان ومستشار المستشفى الاقتصادى .. واشارت الممرضة الى سرير سيماكوف .. وامر ساكولين الجنديين قائلا:

— ارفعوه ..

وعندما اراد الجنديان الامساك به .. قالت الممرضة.

— لحظة .. انتظرا ريثما احضر بدلته.

وقال ساكولين ..

— لن نحتاج الى بدلته.

وبكت الممرضة بصوت مرتفع ملتاوع.

وامسك احد الجنود براس سيماكوف والاخر برجليه وحملوه الى الساحة حيث كانت

تنتظر عربة كارو.

القوا به في العربة واتجهوا نحو مقابر المعسكر وهناك نفذوا فيه حكم الاعدام وخلال ذلك اليوم لم يمس أحد المرضى الطعام كان ما حدث أكثر واكبر من احتمال الجميع .. وتحسنت صحتي شيئاً فشيئاً .. عادت الحرارة الى معدلها الطبيعي وكانوا يضغطون على الطبيب لاجراي من المستشفى وكان يجيبهم بجملة واحدة لا تتغير قط.
— ما زال ضعيفا.

كانوا في العادة يخطرون المرضى بمغادرة المستشفى بعد انتهاء العلاج .. ثم يأمرونهم بالخروج وقت الغداء .. وكان الرجال الآخرون يسرون لذلك .. لأن الطعام سيكون وقيرا بعد خروج الناقهين وكان الامر معي ايضا كما ذكرت مر وقت الغداء ولم يقدموا لي شيئا .. وفي حوالي الساعة الخامسة عصرا جاءتني مديرة المستشفى الكسندرا قالت بحزن.
— لا أستطيع فعل شيء بعد الآن .. صدر امر خروجك قورا من المستشفى والجنود ينتظرونك هذه اللحظة.

واحضروا لي حاجياتي وعندما ارتديت ملابسى حضرت الكسندرا مرة أخرى وصحبتني الى غرفة الطبيب المناوب وهناك لم يكن بالفرقة اى انسان .. مدت لي الكسندرا طردا صغيرا فيه خبز ابيض جاف وقرطاس من السكر.
— هذا سيساعدك كثيرا ..

وقيضت على يدها بشدة رفعتها الى فمي، ولكنها انتزعتها بسرعة وقالت بخوف.
— ولكن ..

وادرت ظهري وخرجت.

مرة أخرى في السجن

ونجركنا صوب السجن .. وأخيرا، وبعد مضي شهرين عدت الى نفس الزنزانة وجدت بعض الوجوه القديمة .. ولكن الكثيرين لم يكونوا هناك .. كانت وجوه جديدة قد حلت محلهم .. وكانت الزنزانة ممتلئة جدا .. والكنايات مكتظة وممتلئة بالسحناء .. ورقد أغلبهم على الأرضية الخرسانية العارية ..

تحرك احد زملائي القدامى وطلب من شاب يجلس في طرف الكنبة ان يعطيني مكانه .. ولكنني رفضت وأعلن الشاب باصرار انه يترك مكانه في بطيب خاطر .. وجلست على استحياء ثم أخذت اقسام بالخبز على الجميع .. وفي الصباح عندما استلما الماء الساخن تناولت كلا منهم قطعة سكر.

ولم تمض ساعات على قدومي من المستشفى حتى استدعاني المحقق. ولم اصدق عيني عندما وجدت في ركن الغرفة بروكفن وهو يحمل يده المعصوبة بالجبص.

وانزعت فوراً لماذا كان هذا الرجل هنا .. نظر الى بحد قاتل وباحتقار غريب كان وجهه يشبه وجه عزة شمساء .. ونزع المحقق قطعة من ورق اللف، وشرع يصنع لنفسه لفيفة .. وساله بروكفن.

— هل تسمح لي بالتدخين ؟..

— بالتأكيد ..

ومده يده وناولوه قطعة ورقة لفها بروكفن بيد واحدة وواجهني المحقق قائلا.

— الثورة المضادة مرة أخرى .. والعداء للاتحاد السوفيتي كنت تنشرها في المستشفى مع شريكك السستر اولغا ميهالجوف لقد مدحتهم هتلر وتنبأتم بنهاية الدولة السوفيتية. وصمت ثم سألني ..

— كارلو شتاينر .. الان سنواجهك هل تعرف هذا الشخص.

— لقد قلبت من قبل انني لن ادلي بشيء قط .. ولا اعترف باى تحقيق طالما انكم تستخدمون ضدى مجرماً عريقاً كبروكفن.

— اذن انت تريد نسف التحقيق ؟.. انصحك ان تعدل عن هذا التكتيك ولا تجربنا على استعمال طرقنا الخاصة بامثالك.

— اعيد عليك مرة أخرى، وبكل وضوح، انني ارفض ان اشترك في اى تحقيق وضغط المحقق على الجرس .. فدخل الغرفة احد الجنود.

— ابقى هنا لحظات.

قالها وخرج وبعد دقائق حضر ضابطان وسكولين وسولداتوف .. جلس المحقق مرة اخرى ووقف الضابطان في منتصف الخجرة ونطق كويني.

— نتابع المواجهة .. الشاهد بروكفن .. هل تعرف هذا الرجل ؟..

واشار الى بيده واجاب بروكفن.

— اعرفه جيدا .. كنا معا بالمستشفى لمدة شهرين.

— من هو ؟..

— كارلو فريدريخوفيج شتاينر ..

— كيف كانت العلاقة بينكما ؟..

— علاقة عادية للغاية .. ويمكن القول بأنها كانت جيدة لقد ظل شتاينر يعطيني طعمه دائما.

— معنى هذا انه لم يكن بينكما سوء تفاهم ؟..

— نعم بالطبع.

وتوجه نحوى قائلا.

— المتهم شتاينر .. هل تثبت ذلك ؟..

ولم اجب فتوجه نحوى الضابطان قائلا.

— يلتزم الصمت .. لا يريد الاجابة على اى سؤال.

هذا المتهم يقول انه لن يشارك فى التحقيق.

هاجمنى الضابط ساكولين قائلا:

— انك تسلك سلوك ابشع المجرمين.

واجبت ساكولين قائلا:

— كثير من المجرمين لا يدلون باقوال حتى يحصلوا منكم على الخبز والدخان.

— هكذا ؟..

— اجل وانا لا اطالب بشيء .. وليس من حلك ان تقارن موقفى مع موقف المجرمين.

— هكذا ؟..

— واكثر انا ارى ان العلاقة بين ال ن ك فى د والمجرمين جيدة للغاية.

— نحن فى حالة حرب ليكن سلوكك مضبوطا .. ولن نناقشك كثيرا ولن نضيع وقتنا معك.

— من فضلك لا تضيع وقتك معى .. ولن اشارك مرة اخرى فى كوميدى التحقيق وانا على

حق .. واثنائى على ذلك هذه المواجهة.

توجه كونيغ نحو بروكفن قائلا:

— قل لنا ما تعرفه عن شتاينر.

وبدا بروكفن — وكان جاهزا — مسلسل الاكاذيب.

— كنت بالمستشفى فى نفس غرفة شتاينر وكانت سسטר الوقاميه بالجوق تجلس على السرير

بجوار شتاينر وتحديثه عن اخبار الحرب الجديدة .. وكانت تتحدث عن انتصار الالمان

الكبير ولقد سمعت باذننى شتاينر وهو يقول لها «قريبا سينتهى ستالين .. قليل من الوقت

وسوف تحضر الجيوش الالمانية .. وستكون كلنا احرارا» ذلك ما قاله بالضبط.

وسالنى كونيغ ..

— هل تعترف بذلك يا شتاينر ..

وصمت .. لا اجد خطايا.

وسال كونيغ بروكفن اسئلة عديدة .. اجاب عليها باسهاب .. وكانما هو ملقن .. القى

على عاتقى التهمة كاملة والصق مثلها واكثر على سسטר اولفا .. وفى كل مرة كان المحقق

يتجه نحوى قائلا:

— هل تعترف بذلك.

ولكنى كنت دائم الصمت.

وبعدما كتب كونيغ المحضر .. ذكر فيه بالطبع انى ارفض الاجابة وارفض المواجهة مع

بروكفن ووقع هو وبروكفن والضابطان ولم يكن عندى ما اوقع عليه .. كان الوقت ليلا

عندما عدت الى الرئزاة .. وكان الجميع نياما , , فرقدت على الكنبه العاريه .. ولم استطع النوم كان فكري مشغولا بكل ما جرى وبكل ما سيجرى في اكتوبر ١٩٤١ كانت الحالة في الجبهة خطيرة للغاية .. كانت الجيوش الالمانيه تطرق ابواب موسكو .. وما الذى كنت انتظره .. ؟

الاعداد بدون ادنى شك .. ولكن الامر لم يعد يعنينى وحدى كانت هناك وقبل كل شىء سستر اولقا .. ماذا اصنع ؟ وكيف احذر هذه الانسانة المسكينه ؟ .. كان امامى خيار واحد .. هو ان التقي مع دكتور سوهوركوف كان يجب على ان اذهب للعبادة وخير شىء هو ان اكتب قصاصة ورق فيها ما اريد قوله .. وان اتحين الفرصة لاعطائها له.

كان بيدى الايصال الذى اعطوه لى بالمستشفى مقابل اشياىى كنت ما زلت محتفظا به .. ووجدت قلما .. وعلى ظهر الايصال كتبت باختصار الاشياء التى قالها بروكفن .. وبانى لم اعترف بشىء .. وفى الصباح اخطرت الحارس بانى اشكو آلاما حادة فى اذنى .. ورجوته ان يذهب بى للطبيب .. وفى اليوم التالى قادونى الى الدكتور سوهوركوف ووقف الجنديان فى الممر .. ووجدت الفرصة للحديث معه .. واخطرتى فى الحال ان سستر اولقا ذهبت للتحقيق معها . وقالوا لها انك وافقت على كل ما ذكره بروكفن .. وتالمت بشدة ورجوته ان ينقل لها ما دار بالضبط وان يحثها على الاستمسك برفض كل اكاذيب بروكفن .

وبنفس التهم الملفقة جلس صديقى جوزيف بيرقر فى السجن واضرب عن الطعام حتى كاد يقضى عليه .. واطعموه بالحقن وعندما ساءت حالته نقل الى المستشفى ولكنه واصل الاضراب هناك عن الطعام.

وانهى اضرابه فى اليوم الحادى والستين عندما وعده رئيس ال ن ك فى د من اتنا لن نمثل امام محكمة المعسكر كان هناك عاملان اساسيان اثرا على بيرقر لينهى اضرابه عن الطعام.

وقوف الولايات المتحدة والمعسكر الغربى فى صف روسيا ضد المانيا وتأثير ذلك على التقليل من احكام الاعدام ..

والسبب الثانى او العامل الاساسى الاخر هو تأثير دكتور ماردن فى المستشفى المركزى على بيرقر .. قال له ان الاستمرار فى الاضراب عن الطعام معناه الموت المحقق له .. ولكن ايقاف الاضراب يعنى اتاحة الفرصة امامه للعودة الى الحياة .. وبذلك اللغة التى يتحدث بها مع السجناء استطاع ان يؤثر على بيرقر .. وكان من حسن الطالع ان خبطت انا على الحائط.

محاولة للانتفاضة

في ليلة العشرين من أكتوبر عام ١٩٤١ استيقظ السجن على صخب وضجيج غير عاديين .. سمعنا حركة دائبة في الممرات واصوات خبط شديدة على ابواب الزنزانات التي فتحت واغلقت .. كنا نعتقد بان يوم اللحم عاد مرة اخرى .. يوم اللحم هو يوم الاعداد الجماعي بالرصاص.

وفتحت ابواب زنزانتنا ودخل علينا سجناء القسم الاول من المعسكر .. من ذلك القسم بالذات ارسلوا مائة واربعين سجيناً لسجن البوليس السياسى .. الجزء الاكبر منهم كان يعمل في الورشة المركزية للتصليح «ز- ا- د- م- س» وبعضهم عمل في محطة توليد الكهرباء .. لم يكن في مقدورهم ان يعلموا شيئاً من الاسباب التي يساقون بها للتحقيق. وفي تلك الليلة اقتيد منهم اثنان للتحقيق .. المجرم ميشا الذي عاد في صبيحة اليوم التالي .. والسياسى السجين هجنيك الذى استجوب لمدة ٢٤ ساعة.

اما نحن فكنا نظن اننا نعلم لماذا القوا القبض على عدد كبير منهم ولماذا تجرى في ذلك القسم عمليات كبيرة كهذه «هفى: الورشة المركزية يعمل العقيد السابق للجيش السوفيتى كوردوبيلو .. كان رئيساً لمخزن الانتاج الجاهز .. القى عليه القبض ايام النظافة داخل الحزب، وحوكم بعشرين عاماً في معسكرات العمل .. ولسنوات عديدة عمل في المناجم .. ولعلاقاته الحميمة مع ال ن ك في د حاز على عمل جيد.

وعندما نشبت الحرب استولت على كوردوبيلو فكرة مجنونة ورغبة عارمة في تنظيم انتفاضة ..

جمع السجناء وحدثهم ان له اتصالات مع العالم الخارجى .. وان الحراس ورجال المطاىء يقفون معه .. ثم قام بتقصي معلومات دقيقة عن قوة الحرس .. وعن القوة الاخرى للجماعات المسلحة .. ونظم له قيادة من ثمانية اشخاص .. ونصب نفسه قائداً عاماً يساعده وينوب عنه عدد من السجناء .. وكان ميشا رئيساً للقيادة، وبالطبع علم ال ن ك في د بذلك وتابعوه ومن له صلة به. وراقبوهم مراقبة دقيقة .. وعندما تجمعت ال ن ك في د قائمة تجوى اسماء عدد كبير من الناس، القى عليهم القبض جميعاً ومرة واحدة.

وقد اعترف كوردوبيلو بكل شيء .. وارتفع عدد المعتقلين الى مائتين. اغلب السجناء انكروا .. وقالوا ان معرفتهم به معرفة سطحية ولا يعرفون بقية الافراد الذين معه .. رئيس القيادة ميشا كان طويل القامة ضعيف البنية، له شوارب قصيرة اصلع الراس في العقد الرابع من عمره .. حكى لى كيف اشترك في المؤامرة.

— لم تكن لى صلة بالسياسة .. كنت رئيساً لعصابة نهب في اودسا اشتهرت بنهبها للبنك الحكومى عام ١٩٣٤ نهبنا اربعة ملايين روبل اى ما يساوى حوالى مليون ونصف بالعملات الاجنبية .. ومضت سنتان لم يعثر لنا فيها على اثر .. احد مساعدى وشت به عشيقته بالرغم من جهلها التام لعملية النهب .. وهكذا قبض علينا.

في نورلنسك كان ميشا صاحب نفوذ واسع كبير بين المجرمين كان يضع الشرائع التي تحكم المجرمين داخل السجن وعندما اتوا به لزنزانتنا لاحظت ذلك سريعاً .. قفز كل مجرم من مكانه وتواثبوا اليه يقدمون قروض الولاء والطاعة.

لم يكن في حاجة الى الكلام معهم .. كان يشير بيده فتعلبى كل رغباته كان يشبه المثقفين في هيئته العامة .. وقد حدثني كثيرا عن حياته .. بالقرب من اوديسا كان والده يملك ريعا جميلا .. خصصه لزراعة الفاكهة والخضر . واستطاع ان ينافس به المزارعين البلغار الذين كانوا يحضرون الخضر من ضواحي اوديسا لسوق المدينة .

وكان ايضا يموّن السفن الراسية في ميناء اوديسا بالخضر والفاكهة .. ويمتلك شاحنة خاصة به لتحويل منتوجاته الزراعية .. وفي عام ١٩٢٩ بدأ تطبيق نظام الكولخوز .. ومن اوائل الذين تخلصوا منهم وصادروا ممتلكاتهم .. كان والد ميشا .. وشحنوا عائلته المكونة من تسعة افراد ومعهم اربعة عشر عائلة اخرى شحنوهم في قطار من قطارات البضاعة ارسلوهم الى سيبيريا ولكن ميشا واربعة من الصبيان قفزوا من القطار وعادوا الى اوديسا نحووا بعض الوقت في طرقات المدينة متسكعين .. وعندما انتهى المال الذي معهم امتهنوا نهب وقطع الطريق ..

وبعد عملية النهب الكبيرة للبنك كان عليهم ان يرحلوا من اوديسا فقد كان البوليس راءهم .. وعندما القى القبض كان ميشا يفكر في طريقة ينتقم بها من السلطة السوفيتية كل ما فعلته بعائلته .

وفي القسم الاول حصل ميشا على عمل سهل شأنه في ذلك شأن عتاة المجرمين .. كان مراقبا في محطة توليد الكهرباء .. وكان له وقت فراغ كبير ومقدرة على الاتصال بالعالم الخارجى .. وبمعاونة آخرين استطاع ان يتحصل على اشياء كثيرة جعلت حياته في السجن مريحة .. لم تكن تنقصه حتى الفودكا وكانت له عشيقة .. هي المرأة التي تقوم بالنظافة .

وكان قد بدأ يفكر في الهروب من السجن عندما اندلعت الحرب .. وتعرف على كوردوبيلالو الذى كان يعلم شيئا عن صراع ميشا مع السلطة ومن اتصالاته بالعالم الخارجى ايضا . وعندما ساءت الاحوال في جبهة القتال . تحرك العقيد كوردوبيلالو لاسترداد حريته باعتبار ان هذه هي الفرصة المثلى .. كان قد استرحم لستالين - في البدء - شأنه في ذلك شأن غيره .. وقال انه برىء وانه مستعد للتوجه فورا الى جبهة القتال لكي يضحي بحياته من اجل وطنه .. ولكنه لم يتلق ردا على استرحامه ذلك .

وشرع كوردوبيلالو عتدها يخطط لتنفيذ ما يجول براسه .. اما ميشا فقد كتب هو الآخر لستالين وكانت فرصته اكبر .. فهو ليس سياسيا وكان غيره قد نال حريته واطلق سراحه بمثل ذلك الاسترحام .. وارسل لجبهة القتال .

ولكن وبما ان ميشا كان ابن فلاح ثرى من الذين صودروا ونفوا الى سيبيريا فقد حذف اسم ابنه من قائمة الذين اطلق سراحهم وسرعان ما تآلف كوردوبيلالو وميشا واتفقا على كل شيء .. وكونا قيادة لجهاز الانتفاضة .. مهمتها تجنيد اكبر عدد من السجناء والاتصال بالعالم الخارجى .. وبالذات مع الذين كانوا سجناء سابقين وحسب خطتهم كان على رجال مقاومتهم احتلال مبنى ال ن ك في د .. ادارة مصنع نورلسك ادارة السجن المبنى الرئيسى بحرس السجن .. وبعد ان نجحوا في استقطاب عدد كبير من السجناء .. ومن المدنيين على السواء . ولم يكن غالبية الذين جندوا يعرفون شيئا عما يحدث .. لم تكن لديهم اية افكار عن ذلك .. لان الرؤساء جمعوا المعلومات عن هوية كل سجين واحتفظوا بالاسرار لانفسهم .. ووضعوا كشفا بالاسماء .. وقد كان كشفهم يضم اسم هجيناك .. وهو خالى الذهن عن

مغامرة كوردوبيالو .. وكانا يتقابلان فقط في الاعمال الرسمية .. وكان هجينك مسؤولا عن قسم الامدادات في مصنع الآلات الحديدية .. وعلى الرغم من ذلك القى كوردوبيالو التهمة عليه وقال انه كان يعلم بجميع الاستعدادات للانتفاضة.

كان هجينك في الخمسين من عمره قوى البنية .. قصر القامة .. يحمل في وجهه ذقنا طويلة جللها الشيب .. كان عاملا من اعضاء الحزب القدامى وبعد الثورة كان مديرا لاحدى المؤسسات .. وفي عام ١٩٣٧ القى عليه القبض بمدينة منسك وحوكم بعشر سنوات سجنا .. والتهمة هي التخريب.

وشئ مشابه من ذلك حدث للشباب الصغير مشكى الذى جاء من روسيا البيضاء وقد حكم عليه بالسجن لعشر سنوات ايضا .. كان شاحب الوجه، كستنائي الشعر .. في الرابعة والعشرين من عمره .. كان يصطنع العبط ويدعى البلاهة باكثر مما يوحى مظهره. ودون ان يتوقع شيئا وجد نفسه في كشف المقاومة ..

كان مشكى يعمل خراطا في المصنع .. وفي اوقات فراغه للمقاومة، فقال انه يصنع المخصلات والمدى .. ولكن ذلك ليس للمقاومة.

وكان ذلك كافيا للثورة المضادة .. استمرت المحاكمات ضد رجال المقاومة لمدة اسبوعين .. وبعد مضي الشهرين في حجرات السجن .. وفي احدى الليالي سمعت صياحا وضربات عنيفة وجاء دور رنزانقتا وكان بها ثلاثة من اعضاء جماعة كوردوبيالو .. انتزعوهم من الزنازة انتزاعا وبقي فقط مشكى الصغير.

دعوه في اليوم الثانى ليوقع على ورقة كان بها .. انه اشترك في منظمة للثورة المضادة والتجهيز للانتفاضة مسلحة .. وحوكم بعشر سنوات سجنا.

ومن المائتين الذين قبض عليهم في تلك الانتفاضة اعدم مائة واربعة وستون سجنا رميا بالرصاص. اما البقية فبعشر سنوات سجنا لكل منهم.

اليوم الذى كان حكم الاعدام سينفذ فيه حكى لى هجينك انه في الليلة السابقة له حلم حلما مزعجا ..

— احس باننى لن اكون معكم بعد اليوم.

واقترحوا ميشا رئيس كل المجرمين .. ورئيس القيادة.

واستلم افانوف اعباء قيادة المجرمين في رنزانقتا .. وبالرغم من ان المجرمين اعترفوا بقيادته الا انه لم يئل ما كان لميشا من احترام ونفوذ وكان ميشا يدافع ويزود عنا نحن المجرمين السياسيين ولا يسمح للمجرمين بمهاجمتنا قط.

وعندما صفيت مجموعة كوردوبيالو وفي نفس الاسبوع رموا مجموعة كبيرة بالرصاص .. كان من بينهم افانوف ايضا .. كان ذلك يوم الاحد .. وعند الظهيرة اقتادوا المجرمين للموت .. لم يكونوا يرغبون في ذلك .. ربطوهم بالحبال .. وادخلوا في افواههم شيئا اسمه الكثرى .. كمية من المطاط القوى على شكل ثمرة الكثرى .. منعنا لصياحهم.

ضربهم الحرس حتى سالت دماؤهم وحملوهم كقطع الاحطاب وشحنوهم في العربات الى سجن آخر. وهناك اعدموهم بالرصاص .. كان الحال مع السجناء السياسيين مختلفا، ذهبوا دون ضوضاء شجاعة ورضا ودعونا قائلين ..

— التحية يا رفلق ..

ذهبوا في هدوء .. وبساطة .. وفي عصر ذلك اليوم نفسه رموا بالرصاص ثمانية واربعين مجرما بتهمة التخريب ..

وهذا يعنى انهم لم يريدوا ان يعملوا فى وقت الحرب عملا كافيا وكان عدم الذهاب الى العمل لمدة ثلاثة ايام يعنى ان يقدم السجين للمحاكمة .. وكانت هيئة المحكمة المختصة تطبق المادة ٥٨ الفقرة ١٤ وكان ذلك يعنى الموت .. قبل الحرب كان المتمردون على العمل يحاكمون اداريا فقط .. بعد تلك الإعدامات الجماعية ساد الهدوء لايام ولم يدع احد للاستجواب.

التحقيق يستمر

وفوجئت مرة أخرى عند التحقيق .. لقيت في غرفة المتحرى شاهدا من شهود الاتهام ضدى .. وكان موجودا بالمستشفى في نفس الوقت الذى كنت فيه هناك .. وشامت سخرية الاقدار ان يكون اسم هذا الشخص ايضا بروكفن .. لم يكن له صلة قرابة ببروكفن الاول رغم الشبه الظاهر بينهما.

واعيدت نفس المسرحية ونفس التهمة ضدى .. لم يتغير شيء .. سوى عدم اقامته .. بالغرفة التى كانت بمثابة المسرح المختلف الديكورات والتى كان يشاركنى سكنها بروكفن .. الاول .. اما هذا فقد ذكر انه جاء يزور صديقا فسمعنى احدث سسئر اولقا بحديثى الخطير.

وصمت التزاما بالمنهج الذى قررت التمسك به .. ووقع الضابطان على المحضر. اخبرونى ان فى الزنزانة المجاورة صديقى جورج بيلسك وانه متهم فى قضيتى ذاتها، ولكنه يواجه موقفه كمتهم ثان .. ثم علمت انه اضيف الى مجموعتنا بدون وجه حق اذ انه فى القسم الثانى للمعسكر . وكانت هذه هى المرة الثالثة التى يتهم فيها جورج بيلسك .. المرة الاولى حوكم بخمس سنوات سجنا فى موسكو .. وكان مفروضا ان يطلق سراحه فى التاسع عشر من اكتوبر عام ١٩٣٩.

وقبل خروجه تجمعتنا فى عنبره عند الاصيل .. غاسليا جويراكوف .. جوزيف بيرنر .. وشخصى .. لكى نحتفل بخروجه ووداعه .. كان ذلك حدثا يستحق .. فسيرجل عنا خير الاصدقاء.

ونجح جويراكوف فى الحصول على زجاجة من الليكير .. كانت تلك هى المرة الاولى التى اذوق فيها الكحول منذ اعتقالى .. ونجح بيرنر ايضا فى الحصول على قهوة حقيقية .. وفى تمام الثامنة مساء جلسنا على الكنبات وطلبتنا من النوبتجى .. وكان هو السكرتير السابق للجنة الحزب فى منطقة ساراتوف، حتى يقوم بصنع القهوة لنا، واستنشقتنا رائحتها النفاذة الطيبة .. وسحبنا من المخبأ زجاجة الليكير وصببنا قليلا من القهوة.

وفى اللحظة التى كنا نمزى انفسنا فيها بشرب انخاب الوداع للسعيد لجورج ظهر على عتبة الباب رجلان من بوليس المعسكر وهبنا فزعين لابد ان احدا قد وشى بنا وعند اقتراب رجلى البوليس اسرعت بخطف زجاجة الليكير واخفيتها فى بنطالى.

— من منكم هو بيلسك ..

— نعم .. هو انا ..

— هل انت هنا .. جيد

وخرج رجلا البوليس ونظرنا بعضنا الى بعض .. ما الذى يعنيه كل هذا ..

لقد فسد المزاج وتعكر الجو وفى اللحظة التى كنا نستعد فيها لمغادرة العنبر دخل علينا نفس الرجلين من البوليس ومعهما آخر يرتدى الملابس المدنية واقترب الرجل المدنى من بيلسك قائلا ..

— خذ حاجياتك وهيا معى انت مقبوض عليك..

ونفذ بيلسك الامر بدون كلمة واحدة وهكذا انتهت حفلة وداعنا .. اتهموا بيلسك مرة اخرى بالثورة المضادة تحت المادة ٥٨ الفقرة العاشرة وامام محكمة السجن شهد ضد سجينان .. احدهما اعلن انه سمع عبر الحائط بيلسك يدعو للثورة المضادة والشاهد الثانى كان هو رئيس القسم الصحى .. الذى قال انه لا يستطيع ان يذكر شيئا محددا .. ولكنه يؤكد ان بيلسك عنصر من عناصر الثورة المضادة وهكذا حكم على جورج بيلسك بخمس سنوات سجنًا ولم نره بعدها ابدا .

عيد ميلاد المسيح ١٩٤١

وجاء عيد المسيح .. وجاء معه برد غريب تكسرت منه الاشياء درجة البرودة أربعون تحت الصفر .. لم نرد ان نتمشى في فناء السجن .. كان الامر عذابا لا يطاق والمنا لا مزيد عليه .. كنا نفضل الجلوس في الرئزانة نجتز الذكريات الجميلة .. كان بيننا رجال يحلمون بالعودة يوما ما الى محيط اسرهم .. حتى يحتفظوا بذكرى ميلاد المسيح .. وتحدث الرجال بعاطفة حارة عن عطلة السلام .. وبعضهم امتلأت عيناه بالدموع .. وهناك بينهم من جاءه يقين بانهم لن يشهدوا عيد الميلاد القادم وعندما كنا نتحدث فتح الباب ودخل علينا رجل في خرق بالية .. يحمل بيديه شيئا شبيها بغطاء الراس ووقف لحظة وقال في صوت خفيض.

— طاب نهاركم ..

وفكرت .. انه بالتأكيد ليس روسيا .. كان ضعيفا لا يكاد يقف على قدميه .. نظر حوله يبحث عن مكان يجلس عليه .. فتحركت نحوه وسالته ..

— من اين جئت ..

فنظر نحوى بطرف عينيه ولم يقل شيئا .. فعرضت عليه ان يجلس وسالته ..

— لم تقل لي من اين اتيت واى لغة تتحدث ..

فقال بصعوبة وهو يتمتم.

— انا من المجر ..

— هل تتحدث الالمانية ..

— قليلا ..

وجلس لوقت قصير .. ثم شرع في فك الخرق التي كانت عليه .

— هنا الجو ساخن ..

وبرك على رجله وتابع ما كان يقوم به .. وعندما خلع عبدا من الخرق البالية هالنا ان نرى امامنا هيكلا من العظم والجلد .. ولم نصدق انه بشر مثلنا .. عندما استلقي ساكنا امامنا حتى تحرك فايقنا انه حى .. وبدأ المجرمون في السخرية منه .. وجهوا اليه اسئلة محرجة غريبة ..

— ما الذى بك يا اخ .. انت من بعيد .. ها ..

— اين عفشك ..

ولم استطع في ذلك النهار محادثته .. واطلق عليه الصحاب اسم «القديم».

: وفي اليوم التالى عندما هدا واطمانت نفسه تحدث .. علمت انه هرب من مكان عمل .. ولكنهم القوا عليه القبض وسالته:

— اين كنت تنوى ان تذهب عند هروبك ..

— الى منزلى في رومانيا ..

— هل تعلم بعد المسافة بينك وبين ما تريد ..

وهز منكبيه ولم يجب .. وبعد الافطار هذا يتكلم بكثرة .. حدثني بخبره كان في الاصل من ترانسلفانيا، من كيويوت .. التي كانت تابعة لرومانيا ولكنه مجرى الجنسية استدعى عام ١٩٣٩ للتجنيد الاجبارى بالجيش الرومانى .. وارسل للثكنات في بيسارابي وبعد تحالف هتلر وستالين .. اصبحت بيسارابي تابعة لروسيا فقام هو وخمسة من ابناء جلدته

بمسحرك نحو الحدود المجرية مشيا على الاقدام .. قائد القوات السوفيتية اعطاهم تصريحاً بذلك.

ووصلوا الى فوروهت فجلسوا للراحة، وهم على بعد خمسة كيلومترات من الحدود المجرية .. وظهر فجأة امامهم ضابط ال ن ك في د وسألهما ماذا يفعلون هناك .. فأعطوه التصريح قائلين انهم في الطريق الى منازلهم ودعاهم الضابط للذهاب معه للقيادة .. وهناك كتبوا اسماءهم وبعد ساعات من الانتظار نقلوهم الى مدينة كوسوف وهناك تم حبسهم وبعد ثمانية ايام رحلوهم في شاحنات الى مدينة ستانسف ثم جرى ضمهم الى قوافل الترحيلات الجماعية التي ذهبت نحو مدينة كرسنوبارسك .. ومنها انجرت بهم سفينة الى نورلسك وهناك قرأوا عليهم الحكم وكان منطوقه ..
— خمس سنوات سجناً مع الاشغال الشاقة لكل منهم ..
والتهمة هي الهروب وعبور الحدود السوفيتية.

كان الجو غير محتمل بالنسبة لهم .. تمرق الشاب المجري القوى وتهللت صحته فأصبح ميكل من العظم والجلد .. وانسد امامه كل المسالك ففكر في الانتحار ولكن شجاعته تخلت عنه في اللحظات الاخيرة واستقر اياه مرة اخرى على الفرار .. وانتظر حتى تحسنت صحته قليلاً .. فشرع في تنفيذ شيء مستحيل .. وقبض عليه لم يستطع المتحرى ان يتفاهم معه قط .. وعندما جرب كل الوسائل وفشل في ذلك استدعاني بناء على طلبه لآترجم له .. وحاولت ان اوضح للمتحرى ان محاولة فرار هذا الرجل ينبغي ان لا ينظر اليها بعين الجد .. لان هذا الهيكل العظمي الذي تبقى من الرجل لا يستطيع ان يخطو عشر خطوات على بعضها .. وكان المتحرى ذكياً استبدل المادة ٥٨ الفقرة ١٤ التي تحكم بالموت .. استبدلها بالمادة ٨٢ التي تقضى بحبسه خمس سنوات سجناً.

وحكمت عليه محكمة المعسكر بثلاث سنوات سجناً فصار مجموع مدة الحكم عليه ثمانية اعوام .. للعديد من الايام بقينا سوياً في الزنزانة كان المجري سعيداً ولم يجبروه على العمل الشاق لسوء صحته .. فبقي يستمتع بالدفع، وكان يخشى اليوم الذي ينقل فيه الى معسكرات العمل الاجبارية .. في بعض المرات كان يجلس في الركن ويبكي بصوت مؤثر .. خففت عنه بقولي ان الحرب ستنتهي، وسيعود الى اهله .. ولكنه قال لي ان ما يبكيه اكثر مصير امي .. عندما يصل الروس الى كوبيت سيطرونها من المنزل .. وربما أرسلوها الى مثل هذا المكان فتموت من البرد ..

وايتست .. كان ذلك في يناير عام ١٩٤٢ وكان الالمان يتقدمون داخل روسيا وهذا القروى البسيط تركّز مخاوفه في الروس سياخذون قريته كوبيت .. وعندما فكرت في ذلك بعد حين، وجدت انه كان محقاً في مخاوفه، ثم ارسل المجري الى المعسكر .. ولم اره مرة اخرى .. ولست ادري ان كان قد التقى بامه ام لا ..

الكلام عن كيفية تنظيم الكوخوز

تغير سكان الزنزانة .. جميعهم وبقيت انا .. مضى نصف العام وسحب المجهول تعشش في رأس السجناء الجدد حملوا معهم اخبارا متضاربة كثيرة رجال البوليس زادت عصبيتهم وبوترهم لتقدم الالمان ومما اشعل نيرانها اكثر جرأة المغامرين امثال كوردوبيالو .. الاعدام كان يوميا .. وكانت الرؤوس تبتل بالدم كل صباح جديد فرصتنا في النجاة كانت ضعيفة للغاية ..

في سجن ال ن ك في د وصلت مجموعات جديدة من معسكرات مختلفة خاصة معسكرات المدينة .. كان يكفي ان يشكو احد السجناء من قسوة العمل .. حتى يتدخل ال ن ك في د .. حتى المجرمون لم تكن احوالهم سليمة.

اعدموهم بالجملة .. في مجموعات .. داخل الزنزانات كانت مناظر العسف والتنكيل محرقة للغاية .. المجرمون الذين كانوا يعلمون بان ايلهم في الحياة معدودة .. كانوا يرهبون المساجين السياسيين كانوا ياخذون الخبز منهم عنوة .. واساؤا اليهم كثيرا .. وهددوهم بان قدوم هتلر وشيك، ليشنق كل الشيوعيين ويعلقهم على الاعمدة.

وهؤلاء المجرمون هم ابناء القرويين .. وكانوا ينظرون الى السجناء السياسيين باعتبارهم مسؤولين عن ضياع حقوق آبائهم .. وعن نفيهم الى سيبيريا .. الشاب كولبا كان احد اولئك الذين يسيرون السجناء السياسيين وكان متطرفا عنيفا .. بعد اعدام ايفانوف تولى قيادة ورئاسة المجرمين في زنزانتنا ..

علاقتي به كانت جيدة جدا .. فلم يكن يعلم بانى شيوعى وكانت علاقته بالاجانب يسودها الاحترام والعطف .. كان يلج على بدون انقطاع ان احده عن الحياة في الخارج .. وكل مرة كنت اتحدث فيها عن النمسا او فرنسا او يوغسلافيا كان يعيد على نفس السؤال:

— هل يوجد هناك كولخوز ..

وعندما كنت اجيبه بانه لا توجد في تلك البلاد كولخوزات جماعية كان يتهلل بالسعادة والفرح .. وعندما الح على مرة لاحده عن الحياة في الخارج اننهزت هذه الفرصة وسألته ..

— لماذا تكره الكولخوز الى هذا الحد ..

— سأحكى لك هذه القصة ..

— أرجو ان تفعل ..

— حسنا .. عاش والدى في قرية تبعد حوالى الستين كيلومترا من كراسنودار .. وكان والده جدى .. يمتلك اثنتى عشر هكتارا من الارض الخصبة الجيدة وقد عمل فيها هو وعائلته المكونة من اربعة عشرة شخصا.

وفي عام ١٩٢٩ دارت اخبار مقادها .. ان كل المزارع ستصبح جماعية وتحدث القرويون في ذلك الامر كثيرا .. لم يكن احد منهم يعلم ماهية المزارع الجماعية .. بعضهم كان يتحدث عن النساء سيصبحن ملكا للجميع .. وبعضهم قال ان الاطفال سينتزعون من احضان نويهم .. الخ ..

ولم يتحدث احد قط عن الذى سيحدث للارض والبهائم.

واغلب المزارعين كانوا يمتلكون ملكيات تتراوح مساحاتها بين الثماني هكتارات وبين الثلاثين هكتارا .. وبعضهم كان يستأجر الفقراء معه .. ولكن الاغلبية كانت تعمل بعائلاتها في فلاحة الارض .. وفي ايام الحصاد يتعاون الجميع .. من الاطفال في سن السادسة حتى الشيوخ الكبار.

في قريتنا كان تعداد السكان حوالى الالفين وكان تعداد الفقراء قليلا لا يكاد يذكر .. في خريف ١٩٣٠ جاءت لجنة للمنطقة ودعت كل القرويين وحضر الجميع ماعدا الاطفال والمرضى .. وترأس الجلسة قروى فقير .. واعلن ان سكرتير لجنة الحزب للمنطقة يريد ان يتحدث عن الكولخوز.

ووقف شاب يتحدث لمدة ساعتين عن الكولخوز .. وفي النهاية دعى كل الذين يؤيدون السلطة السوفيتية ان ينضموا للكولخوز .. وبعدها طلب رئيس اللجنة ان يفتح باب المناقشة .. وقال انه يعطى الكلمة لمن يريد الحديث .. وصمت الجميع .. وبالرغم من ذلك تقدمت احدى بنات الكوزاك وسالت:

— كيف يكون ذلك الكولخوز.. هل هو مؤقت ام دائم..؟

— من اليوم سيكون الكولخوز والى الابد.

كانت تلك هي اجابة السكرتير .. وساد القاعة هرج ومرج شديداً ..

— لا .. لا .. هذا ما لا نريده ... اذا كانت المزارع جماعية للابد لن ننضم للمزارع الجماعية .. وتحدث السكرتير مرة ثانية عدد محاسن الكولخوز .. وتحدث عن الآلات الزراعية الجديدة التى سوف تدخل مجال الزراعة .. وكذلك عن الحصاد الوفير .. و .. الخ الخ وعندما كان يتحدث طار حجر في الهواء وبدات القوضى .. وهاج الناس ومالجوا .. وساد الهرج المكان.

وانسحبت اللجنة الحزبية بصعوبة بالغة.

وبعد اسبوعين جاء عدد من رجال المدينة .. دعوا بعض القرويين في مجلس القرية، واخبروهم بانهم مزارعون ويريدون تشغيل نفر من الفلاحين.

كانت خدعة كبرى .. تم عن طريقها انتزاع الارض .. وتمليكها واقتسامها .. وتدهورت الامور اثنان وعشرون عائلة من اغنياء فلاحي القرية الذين كان يشار اليهم بالبنان انتزعوا منهم كل شيء .. الزرع .. والضرع .. والماوى كل الممتلكات اصبحت ممتلكات للكولخوز.

وفي اليوم التالى مبشرة اسست قيادة لجنود ال ن ك في د .. ولم يستطع احد من القرية التحرك .. ويصحبه بعض الفلاحين مرت اللجنة على منازل احد الاغنياء واخرجتهم بالقوة من منازلهم .. سمح لهم باخذ القليل من المواد التموينية .. بعضهم رضى الخروج بصمت فاسكنوهم في منازل صغيرة عينتها لهم اللجنة .. والبعض الاخر رقد على الارض مع الاطفال ورفضوا مبارحة منازلهم .. فكسر الجنود الابواب حملوا الناس الى خارج منازلهم بالقوة .. وبكى الجميع .. سادت اصوات النواح الحزين واختلط بصياح الاطفال وسباب ولعنات المسنين .. في ذلك اليوم نجحت اللجنة في العمل الذى اوكل اليها .. واصبحت الارض مناصفة جماعية.

اربعة من الفلاحين قاوموا .. كان سلاحهم المعلول والمنجل .. فقبضوا عليهم الاربعة

.. قيديهم وذهبوا بهم الى مكان مجهول وكانت اصوات الابقار الجائعة والتي لم تحلب بعد تتصاعد في خوار حزين. وفي اليوم التالي ارادت اللجنة استئناف عملها ولكنها واجهت مقاومة شديدة.

تجمعت القرية وتسلمت بالمعاول والمناجل .. فاضطرت اللجنة للانسحاب وذهب الفلاحون الى منازل الذين تعاونوا مع اللجنة واخرجوهم الى الطرقات وداسوهم بالاقدام .. فمات اربعة منهم .. والباقيون لاذوا بالفرار .. فكانت نجاتهم من الموت .. به ..

ورجع الاغنياء الى دورهم .. ومرت ثلاثة اسابيع لم يأت فيها احد الى القرية وفي ذات ليلة هبت القرية مفزوعة على عواء الكلاب واصوات الشاحنات والاضواء الكشافات الحادة .. ولم يجروء احد على الخروج من داره .. وفي السادسة صباحا طرق الجنود ابواب الدور .. وامروا الفلاحين بالحضور الى مجلس القرية فلم يكن يد من ذهابهم .. وامام مجلس القرية جلس سكرتير لجنة المنطقة وضابط ال ن ك في د .. الذي اخرج ورقة وقرا قرار اللجنة التنفيذية للمنطقة .. وقد جاء فيه .

ان كل الذين قاوموا وتسببوا في مقتل الاربعة فلاحين صدر قرار بنفيهم واسرهم الى سيبيريا .. ومن اراد خلاف ذلك فسيقدم للمحاكمة بتهمة القتل .. اما منازلهم وارضيتهم فسيحصل عليها من لا منازل او ارض لهم .

ثم نظروا في تنظيم الكولخوز .. بعد ذلك شحنوا في شاحنات اثني وعشرين عائلة .. وقادوهم تحت الحراسة المشددة الى جهة مجهولة .. واسكنوا في دورهم الفقراء من اسر الفلاحين وعددهم ثمانون اسرة ...

وفي الصباح التالي عقدوا اجتماعا دعوا له الذين لا ارض لهم فقط .. وفي الاجتماع صدر قرار بتأسيس الكولخوز .. وتم اختيار عامل من مصنع هاركوف لصناعة القطارات كان قد ارسله الحزب ليكون رئيسا للكولخوز .. واختير اكبر منازل الفلاحين ليكون مقرا للكولخوز الجديد .. واطلق عليه اسم ..
— الطريق الى الاشتراكية ..

وساد القرية ذعر شديد وبدا الفلاحون في ذبح الانعامهم .
ذبحوا خلال الشتاء فقط حوالي ثلاثة الف بقرة .. وثورا وحصانا .. اما الانعام الاخرى كالخنازير والخراف والاعنام فقد كانت اعدادها اضعاف ذلك بكثير .. وفي الربيع كان من النادر رؤية بقرة هنا .. او هناك .. وبدأ الكولخوز عمله .

جمعوا في حظيرة كبيرة .. من المزارع المهجورة الحيوانات من خيل وخنازير وبط وديكاج .. الخ .. وعينوا رجلا للعناية بها وفي ظرف ثلاثة اشهر نفق نصف هذه الانعام .
وجاء الربيع .. كانت اعمال الكولخوز تتقدم ببطء شديد لم يكن هناك اناس ليفلحوا الاراضي الشاسعة .. كان الفلاحون خائفين ان يعملوا بجهد فيؤخذ حصاد عملهم .. ولذلك فقد عملوا بالحد الأدنى لما يمكن ان يقيم اودهم فقط .. هم وانعامهم .

وفي الخريف حضرت اللجنة .. وقررت على كل فلاح معدل انتاج احصائي يعطيه للحكومة من القمح واللحم واللبن والزبد كان المقرر عليا بحيث لم يبق للفلاحين شيء .. اما الذين فشلوا في تقديم ما طلب منهم فقد جوعوا باحكام قاسية ثم اعلنوا انه يجب مضاعفة العطاء .. وعجز الفلاحون عن الوفاء بالملطوب .. فجاءت مجموعة من ال ن ك في دورجال الحزب مروا على الدور واخذوا القمح من الفلاحين .. بحثوا عنه في كل

مكان. في المستشفيات والحظائر وتحت ارضية المنازل حفروا وبشوا وتسلقوا واستعانوا بالكلاب البوليسية التي دلت على مكان القمح .. وعندما جاء المساء بقي كل انسان خائفا ولم يجرؤ اعضاء الحزب او رجال الكولخوز الجديد على الخروج الى الشارع .. خوفا من الانتقام .. وذات صباح وجدوا رجلا من اعضاء الحزب مبقور البطن .. حشى جوفه بالقمح .. والصقوا عليه ورقة كتبوا عليها .. هذا هو القمح ..

ومع الشتاء جاء الجوع .. القليل الذي تبقى من الماشية ذبحوه واكلوه وفي عام ١٩٣١ استطاع الفلاحون الجوعى ان يحرثوا الارض بعد جهد مهلك .. مات منهم الكثيرون جوعا وارهقا وذهب الكثيرون الى المدن ليتسولوا وبذلك فقط انقذوا حياتهم ... وهل الصيف .. وبقيت الارض غير مزروعة جرداء تشكو الظلم والجفاف .. ومرة اخرى جاء رجال ال ن ك ق د .. واصلحوا انه وبتهمة التخريب تم نفي معظم الفلاحين الى سيبيريا .. واعطوهم مدة ثلاث ساعات ليجمعوا اشيائهم كل عضو في الاسرة كان بإمكانه حمل ستة عشرة كيلوجراما.

وقادوهم الى محطة السكة الحديد وشحنوهم في قطارات البضاعة تحت حراسة ال ن ك ق د واصلحوا الى سيبيريا في الطريق اعطوهم الماء الساخن والقليل جدا من الخبز .. ودامت رحلة العذاب اربعة اسابيع .. لم توقفوا في مدينة فرهن اودنسك كثيرون ماتوا معاناة لذلك الوضع ومرض معظمهم.

والذين بقوا على قيد الحياة وضعوهم في عنابر لمدة اربعة عشرة يوما .. ثم قسموهم الى ثلاث مجموعات ووجهوهم وجهات مختلفة. المجموعة التي كنت فيها ذهبت بصحبة ال ن ك ق د الى مكان لم تكن تعرف. سيبيريا. في العربة وضعوا الاطفال والعجائز وحاجياتهم.

اما البقية فسارت على الاقدام عبر الغابات والاحراش .. في الطريق قابلنا المحكومين بالاشغال الشاقة يقطعون الاشجار كنا بعد مسيرة ما يقارب الخمسة والعشرين كيلومترا نرتاح في الخيام او العنابر التي اقام بها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة. فاذا امطرت السماء انتظرنا اياما عديدة حتى تنشف الارض ونستأنف السير . كان الوحل دهبيا ويصل الى اعلى الساقين وتقدم الركب الى مسافة ثلثمائة وخمسين كيلومترا داخل الغابة .. ثم توقف المسير .. كانت المجموعة تضم مائتين من الرجال. حول مجرى للماء وبجانب ارض خضراء جمع ضابط ال ن ك ق د المنفيين وقرا عليهم قرار الحكومة:

«الفلاحون الذين جاءوا هنا ليبقوا الى ابد الابدين سيقسمون هذه الارض في دائرة قطرها مائتان وخمسون كيلومترا مربعا .. هنا يمكن حرث الارض وزراعتها وتربية المواشى من يترك هذا المكان سيحاكم بعشر سنوات سجنًا .. لقد ارتكبتم جرما خطيرا ضد الدولة السوفيتية .. وكان من المفروض ان يكون الحكم هو الاعدام رميا بالرصاص .. ولكن رغما عن ذلك رأت الدولة السوفيتية ذات الانسانية والرحمة ان لا تقسوا في حكمها عليكم .. ومنحتكم هذه الفرصة في هذه البقعة الغنية ذات الارض الشاسعة المزدهمة بالغابات لتبداوا حياة جديدة.

وستمنحكم الدولة السوفيتية سلاحا .. ويمكنكم الان ان تبدوا في بناء منازلكم .. وسوف

تحصلون على قرض من البذور للزراعة..
ثم دعى بعد ذلك الفلاحين لازالة الحشائش وتنظيف الارض من الاعشاب .. ومن اجل
اطعام المواشى ايضا .. وكل عائلة قالوا ستمنح بقرة تسدد قيمتها فيما بعد.

كانت هناك ايضا الجياد التى حملت ادوات الفلاحين وست بقرات كانت توفر اللين
للاطفال .. ومطبخ بولندى .. وهذه الاشياء التى بقيت اعتبروها هدية للفلاحين .. وفى فترة
شهرين تم تشييد ثلاثين منزلا صغيرا من الاخشاب .. يحتوى الواحد على غرفة كبيرة
ومطبخ .. قائد المنطقة السكنية كان ضابطا من ال ن ك فى د .. وهو رجل طيب ساعد
الفلاحين كثيرا .. وقد كان يذهب لاحضار الطبيب او لجلب بعض المسامير من المعسكر
المجاور على صهوة جواده لمسافة ثلثمائة كيلومترا .. مساعدة منه للناس .. وقد احضر من
المدينة عشرين بندقية صيد ..

ووزعها على الفلاحين لكى يصطادوا بها الحيوانات المتوحشة التى كانت كثيرة فى تلك
المنطقة .. وجاء الخريف .. فجمع قائد المنطقة السكنية الفلاحين قائلا..

— هذه القرية يجب ان تحمل اسما فماذا نسميها ؟..

اقترحوا .. وصمت الجميع .. ثم قال رجل عجوز مسن .. ساخرا ..

— اقترح ان نسميها باسم القائد المحبوب رئيس الحزب الشيوعى السوفيتى ولم يظن
قائد المنطقة السكنية لسخريته وقال ..

— من الافضل ان نعطيه اسما محليدا.

ووافق الجميع على اسم «برزوفك» وهو اسم شجرة القصبان التى كانت تنمو منها
غابات تلك المنطقة وتتكون ومرت السنون واصبحت القرية الجديدة كغيرها من قرى
الريف الروسى .. شوارع واسعة صفوف من الاشجار الضخمة وكانت الارض خصبة
فاعطت انتاجا وفيرا .. وبنى الفلاحون خلايا النحل وريوه وجنوا منها الشهد وكانت
معظم الاسر تملك بقرتين او ثلاثة وبعض الخنازير .. وفى وقت الصيد كان الفلاحون
يصيدون الثعالب الفضية وبعض الابل وتصلح القديم والجديد تعايشا بصدق ونسئ
الناس ما مضى وكان الشباب مقتنعا ببقى هادئا يعمل .

وفى يوم من الايام تقل قائد المنطقة السكنية لانه كان يملك حسن التفاهم مع القرويين
.. وعين فى منصبه شاب قاس شديد وبدأت المتاعب الجديدة .. امر بعدم السفر من القرية
الا بتصريح صادر منه .. وعندما يحاول احدهم الحصول على التصريح كان يستجوبه
استجوابا حقيقيا .. لماذا وكيف وكى ومتى ... الخ.

ثم تذكر يوما شيئا خطيرا هو ان الفلاحين اصبحوا اغنياء وذلك بشكل فى رايه خطورة
على الاتحاد السوفيتى .. فسافر الى المناطق المجاورة وعاد بعد سبعة ايام ومعه رجل آخر
جمع القرويين وخطب خطبة قصيرة ..

— لقد حان الوقت لكى تنظموا الكولخوز.

وصمت الجميع لم يقاوم احد الفكرة .. فقد كانوا يعلمون ما ينتظرهم واسس
الكولخوز هنا ايضا .. وعين الرجل الذى لتى مع قائد المنطقة السكنية رئيسا له.

وعندما اتى فصل الشتاء هربت .. انا - كولىا - ومعى اربعة من القرية .. وفى الطريق
هاجمنا رجلا عائدا من المدينة ونهبنا حافظة نقوده ووثائق اثبات شخصيته .. ثم هاجمنا

رجلا اخر ايضا واخذنا ما معه .. وفي المرة الثالثة قلوبنا من هاجمناهم واستفجدوا باهل الجوار فقبتض علينا وسلمونا لمركز البوليس وحكم على كل واحد منا بعشر سنوات اعمال شاقة وفي المعسكر قتلت رجلا يدعى «ناريا دجكا» المسجون الذي كان يوزع العمل على بقية السجناء وكان ظالما .. ورفض اعطائي عملا سهلا .. والان انتظر الحكم على بالموت لان جرمي كبير وشنيع.

الاعدام رميا بالرصاص

كنت ارفض باستمرار التوقيع على اى وثيقة .. تقدم لى .. فى التحقيق .. ولم يدعنى قاضى التحقيقات للاستماع .. رغم رفضى ذاك وكان سجن ال ن ك فى د متنتا لدرجة جعلت جزء من معسكر العمل الاجبارى والخاص بالذين تحت التحقيق يضيق بهم المكان فينقلون الى سجن آخر .. السجن الاول كان من الخشب والثانى من الحجر وهذا هو الفرق الوحيد بينهما .. فى السجن الثانى كان الطابق الارضى طوله اربعين مترا وعلى طول الممر المظلم جزئيا كانت توجد على الجانبين عشرون زنزانة مختلفة الحجم .. وقد صفت كتاباتها ليقم فيها من اربعة الى اربعين رجلا ..

وكما فى السجن الاول كان نصف الزنانات هنا مخصصا للذين حكم عليهم بالاعدام .. يفصل بين النصفين باب حديدى له قضبان قوية فاصل غليظ بين الموت والحياة .. وفى نهاية الممر كانت هناك اربع زنانات تاديبية كارس .. وعلى شمال المدخل الرئيسى يقع مكتب السجن وبجواره مساحة قدرها اربعون مترا ، معزولة بجائط عازل متين .. وكان ينفذ فيها حكم الاعدام رميا بالرصاص .. وضعونى فى الزنانة رقم ١٤ ..

وعندما دخلت تذكرت فى الحال سجن بوتيرك فى موسكو ثمانون رجلا كانوا يقيمون فى هذه الزنانة .. يجلسون نصف عراة لان الغرفة كانت مزودة بالناس .. وشديدة القذارة قابلت معارف كثيرين من المعسكر وبعضهم كان من معارف السجن الاول فى نورلسك .. هنا كان الكثير من الضباط السجناء خاصة من بلاد البلطيق كانوا لوقت قريب يقيمون فى معسكر مخصوص لضباط بلاد البلطيق فى بحيرة بياسين .. يبعد حوالى الاربعين كيلومتر من نورلسك وقد نقل جزء من الضباط الى السجن بعد مضى شهرين من بداية الحرب الالمانية الروسية .

حصلت على مكان بجانب الجنرال بروديس من استونية .. كان يرقد على يمينى وعلى شمالى يرقد مساعده الكابتن روبيروك وكان هناك ايضا الكابتن الاستونى ليوك وال لتونى .. والصول قروهبيرك والكابتن ليداكس وآخرون .. لا تحضرنى اسماؤهم الان .. وكان امين الضباط بدون شك هو الجنرال بروديس .. اصبحنا اصدقاء جدين .. كان رجلا مثقفا للغاية وخيرا عسكريا ممتازا .. يتحدث بطلاقة اللغات الالمانية ، الروسية ، الانجليزية ، الفرنسية والاطالية .. وكانت له معرفة واسعة بالثقافة الالمانية والفرنسية .. وقد قضى فى المانيا سنوات عديدة وقد درس فى فرنسا بكلية الاركمان .. والقوا عليه القبض مع وزير الحربية الاستونى الجنرال لايدونير ، الذى نفذ فيه حكم الاعدام رميا بالرصاص .

وفى سجن نورلسك الثانى كان يقيم السجناء الذين ينتظرون تقديمهم للمحاكمة ، او الذين ينتظرون النطق بالحكم من محكمة - او . اس . او - محكمة الثلاثة المخصوصة التى كانت تنطق بحكم السلطة .. كثيرون من نزلاء هذا السجن كانوا لا يعلمون انه محكوم عليهم بالاعدام .. وعندما قادوهم للقاعة حيث نفذ فيه حكم الاعدام رميا بالرصاص كانوا يعتقدون انهم سيمثلون امام المحكمة . ان الموت لم يكن افظع شئ هنا .. كان الانتظار المميت بالشهور والسنين هو العذاب الاكبر الذى جعل الكثيرين يتمنون الموت ويشتاقونه .

قابلت احدهم ويدعى تاتا من معتنقى الديانة المحمدية وكان يعيش في القفاز .. هذا الشاب القفازي حكمت عليه محكمة المعسكر بالاعدام لانه صرح بكلمات في صالح الاثراك .. وظل ينتظر نصف عام الرد على طلب الاسترحام الذي قدمه .. وشطبت المحكمة العليا عقوبة الاعدام ولما لم تكن هناك مكاتبات لاعادة التحقيق قد حكمت عليه محكمة المعسكر بالاعدام مرة اخرى وتكررت هذه المسرحية ثلاث مرات .. واقام لمدة عامين في زنزانة المحكوم عليهم بالاعدام حتى فقد نصف عقله واخيرا ساعده واعدموه رميا بالرصاص.

كانت المشاجرات بين المجرمين والسياسيين تحدث كل يوم حامية الوطيس من اجل الخبز .. وحتى لا يحدث ذلك تم الاتفاق على ان توزع «نهاية الخبز» بالدور يوميا .. وحرص كل فرد على ان يحصل على نصيبه من «نهاية الخبز» او «راس الرغيف» وكان كل واحد ينبه الآخرين قائلا في المساء.

يارييس ستاروستا غدا دورى.

وكانت خيبة الامل فاجعة كبرى عندما لا تصل في الغد قطعة خبز واحدة ذات نهاية .. الوجبة الدافئة يقسمها الرئيس بنفسه .. فنطاز الاكل يوضع في الممر امام الباب .. السجناء يقفون صفوا واحدا ثم يسبرون بالاوانى الى حيث يوزع عليهم الرئيس الكميات بالتساوى ويقفل الباب بعد ذلك .. ويحدث كثيرا ان لا يتحصل الواقفون في نهاية الصف على شئ من الطعام .. ومعنى ذلك ان بعضهم قد وقف مرتين في الصف او يخطئ الرئيس في العدد .. وكان بعض السجناء يفرحون بايام الاعدامات الجماعية فما يتبقى من وجبات الاموات يوزع عليهم .. والجوع لا يرحم.

كان السجن اقل رتبة وسكونا من السجن الاول .. كانت الاحداث تتلاحق .. الاعدامات اليومية .. صيحات السجناء تطالب بالمزيد من الطعام .. الحرس يصيح بهم — انتم لستم في حاجة لشيء .. ايامكم أصبحت معدودة.

وعندها تتعالى ابشع الالفاظ واقسامها على الاسماع .. وعندما يسحب الحرس المحكوم عليهم بالموت يوسعهم ضربا مبرحا في الطريق الى الاعدام كان اطلاق الرصاص يتم ليلا .. وقد سبب هذا ألما نفسية حادة واضرا كبيرة .. كثير من المرشحين للموت كانوا يرفضون الخروج من الزنانات، فكانوا يخرجون بالقوة .. والضرب رهيب .. وقد اثرت حوادث زنانات الموت على نفسية السجناء .. كانت هناك عمليات تقطيع وتشويه وقسوة .. فالحراس يحصلون على الفودكا ويتملون فتزداد شراستهم وجنونهم .. وتتعالى صيحات التوجع وتسمع خارج السجن .. واجبر هذا الزناني على تنفيذ احكام الاعدام نهارا .. كان الموت يتم في الرابعة عصرا والدفن يتم ليلا بالشاحنات وفي حفر كبيرة جماعية .. كان الكل ينتظرون الموت .. والمسألة هي مسألة من سيكون عليهم الدورة والمنتظرون لم يحاولوا ابدا توفير الخبز للوجبات القادمة .. لانهم لم يكن يتوقعون ان يعيشوا حتى يأكلوه .. وربما افطروا في الصباح، فلا ينتظرهم وقت الغذاء غير الموت.

وفي صبيحة يوم الايام عندما استيقظنا من النوم قال لي الجنرال بورديس — اليوم سنفطر جيذا.

لم افهم ما يقصد.

واخرج الجنرال كيسا صغيرا به قطع من السكر كان يخفيه تحت وسادته لكي لا يسرق.

.. اسمع .. عندي قطع من السكر كنت احتفظ بها للاحتفال باستقلال استونيه ولكن يخيل الى اننى لن انتظر ذلك اليوم، لذا سنحتفل الآن.
.. انا على ثقة تامة .. باننا سنعيش طويلا .. ونحتفل كثيرا .. لذا ارجو ان لا تمس هذا السكر.

.. انا لست متفائلا مثلك ..

ثم التفت نحو روبيرق قائلا ..
يا سيادة الكابتن .. من فضلك كن مهتما لكى نحصل على ماء ساخن «كبياتوك» ووجه الدعوة لرفاقنا الاثنيين.

كان يعنى اثنين من الضباط الاستونيين .. وعندما وصل الماء الساخن جلس الضابطان الاستونيان على اسرتنا، وجلسنا نحن فى شكل دائرى وبدلا من المفرش الابيض للسفره وضعنا بشكيرا متسخا .. وتساعد البخار من اناء الصفيح القديم .. وامام كل منا كانت هناك قطعة سكر صغيرة .. اكلنا الخبز مع الماء الساخن المسكر .. وعندما انتهى الافطار تفرق الضيوف شاكرين .. واتجه بروس نحونا قائلا:

.. الان تبقى لى فقط ان اكتب وصيئى.

.. يجب عليك ان لا تفسد علينا اجسادنا الجميل بهذا الافطار.

.. تعودت ان احدىق فى عين الحقيقة.

.. هل تعتقد انهم سيرموننا بالرصاص ؟..

.. لست اعتقد .. ولكنى متأكد والمساله مساله ايام .. !

.. انا لا اريد ان افقد الامل.

وصمت الجنرال برهه ثم قال ..

.. ما زلت اذكر كيف انى قد جئت الى قرية سوفالك على الحدود، وانا ضابط صغير .. كانت

الحياة جميله فى تلك البلده .. البنات .. التمشى امام محطه السكه الحديد .. و ..

.. ثم ماذا ؟..

.. ايه .. كانت اياما جميله للغاية.

وسرحت عيناه فى الافق البعيد .. وتحدث بانفعال .. حزين .. عن اشياء خاصه

وذكريات سالقه وسالته ..

.. لماذا سمحت للروس بان ينقلوك الى سيبيريا ؟..

وفكر لوقت قصير .. ثم قال ..

.. ارجوك .. تحدث ..

.. ساعدتك .. بدأت ماساتنا فى ذلك اليوم الذى سمحنا فيه للروس ان يقيموا معسكرا فى

مينائنا البحرى .. وهذا لان البعض كان يعتقد باننا مهددون من الالمان بسبب احتلال

«سويد» وضم النمسا .. خفنا على فقدان استقلالنا وقد كنت ضد الاتفاق مع سنالين ..

ولكن لايدونر الذى كان وزيرا للحريه اخذ موقفا محدد ا قتل به موقف السياسيين . مفاده

ان احسن شئ هو ان نسلوم الروس مؤقتا .. وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطى هو

الحزب الوحيد الذى عارض الاتفاق القاضى ببناء قاعدة حريه روسيه .. وانضمت انا الى

راى الحزب الاشتراكي الديمقراطى .. لايدونر كان رئيسى ويسكن معى فى نفس المبنى،

وكنت اقبله يوميا .. وفى بعض الاوقات الحرجه لم تكن تفرق قط .. وحدث قبل اسبوع

من توقيع الاتفاق مع الروس، ان استيقظت في الليل قلقا مهنوما .. افكر بمصير وطني .. وضغطت على جرس باب لايدونر .. وفتحت الخادمة الباب .. واخبرتها بانني اريد حديثا عاجلا مع الوزير .. قالت انه ليس وحده ولكن معه عدد من السادة .. والححت عليها ان تخبره بوجودي .. وجاعني لايدونر وكان يرتجف بشدة .. ونظر الى مستغربا وبسألني .. ماذا حدث ؟..

— اريد ان اتحدث معك ..

— اقترح ان تنتظر لساعة من الزمن ..

وعدت اني منزلي الذي كان الطابق الاسفل لطابقه .. ولم تمض نصف ساعة حتى جاءتني الخادمة تدعوني للوزير .. قادتنى الى غرفته وقفل علينا الباب قلت له ..

— تحدث .. ماذا هناك ؟..

— هل تسمح في الحقيقة للروس ان يحتلوا بلادنا ؟..

— ليست هذه — المانيا — هي كل البلد .. اننا نسمح لهم بوقت معين فقط في القاعدة.

— هذه هي البداية وانت ضابط وعليك ان تعلم من اننا لن نستطيع ابدا اجلاءهم مرة اخرى ..

— ماذا تقترح ؟..

— الحرب ضد الروس ..

— نعم اننا للمقاومة اذا حاول الروس الدخول لبلادنا ضد ارادتنا ولكن اني متى نستطيع المقاومة .. ثلاثة ايام ؟.. ثلاثة اسابيع ؟ عندها لن يكتفوا بالقاعدة فقط .. سيأخذون الوطن كله وطلع الفجر.

لم استطع اقناع لايدونر بان المقاومة واجب مقدس .. وفهمت بان كل شيء قد انتهى .. وعدت اني منزلي .. واخذت احدق في مكتبي ربما تكون هذه هي آخر مرة اراه فيها وذهبت الى والدي الذي كان يعمل في الغابات على مقربة من تالين .. وحدثته ما الذي ينتظرنا .. وفي البداية لم يشأ تصديقي .. وبعدها اخذنا نقلب الامر على وجوهه .. ماذا نفعل ؟.. اقترحت عليه ان نرحل الى المانيا.

والدي الذي ولد في المانيا رفض ان يبحث عن المأوى لدى هتلر امام زحف الستالين .. اراد البقاء في منزله.

وحاولت اقناعه سدى .. رفض رفضا باتا قاطعا ان يتحرك من استونيه قال لي ..

— ايامي في هذه الحياة معدودة .. وليس لدي مزيد من الوقت ابحت فيه عن وطن جديد .. عدت الى تالين .. ابحت .. لعله يوجد اناس مثلي على استعداد لحماية الوطن ولكن كان الوقت متأخرا .. كان الروس قد بدأوا احتلوا جزء في البداية وبعده كل البلد فهم الناس هذه الحقيقة لقد فقدنا كل شيء لبعض الوقت، احتل الروس ادارتنا المدنية .. ولكن سرعان ما ضاقوا بنا .. فبدأت الاعتقالات والطرد.

في المقدمة كان دور البرجوازية .. ثم جاء الفلاحون الاغنياء والمثقفون وفي النهاية نحن ..

اولا زعموا انهم سيرسلوننا مؤقتا للاكاديمية لمزيد من التاهيل .. وقادونا الى مناورات عسكرية في غابة بالقرب من تالين .. وعندما تجمع مئات من ضباط جيش استونيه القديم

.. جاء رجال ال ن ك في د احاطوا بالغابة .. وطلبوا منا ان نسلم اسلحتنا ..
وكانت فكرة المقاومة غير مجدية امام المدفعية الثقيلة والمدافع الرشاشة لقد وقعنا في
الفخ .. واخذنا بالخديعة والحيلة الخسيسة .. كل منا كان عليه ان يقف رافعا يديه امام
ضابط من ضباط ال ن ك في د ليفتشه .. وبعدها كان علينا ان نخلع برائنا العسكرية ..
ونقف عرايا كما ولدتنا امهاتنا .. اوقفونا في صفوف كثيرة وامامنا تكومت ملابسنا .. ومرت
ساعات ونحن على تلك الحال .. ثم سمحوا لنا بارتداء الملابس مرة اخرى وكان ذلك هو
تخصيص ال ن ك في د وبعدها شحنونا في الناقلات .. وفي محطة سكة حديد تالين وضعونا
في قطار شحن داخل عربات مغلقة .. كل ثمانين في عربة .. وفي الممر وقف حرس ال ن ك في د
وكان يحاسبنا على كل حركة نأتي بها .. ويحول اخراس كل نامة تصدر من احدنا .. وفي
المحطات كان الامر اسوأ.

عمدوا الى الدق على العربات بشلوكوش خشبي كبير .. وكان هذا مزعجا للغاية .. وخاصة
بالليل .. لعلهم كانوا يختبرون سلامة العربات .. فقد حدث ان قفز بعض السجناء من
القطار المسرع .. وبعدها سارت الامور كما يبغون .. في كل مكان بالطريقة العادية .. خلال
محطات الانتظار .. على طول الطريق الحديدي .. الى سيبيريا حتى كرسنويارسك .. كل شيء
سار كما خططوا له.

في كرسنويارسك اركبونا قاربا كبيرا مغلقا .. وكانت هناك باخرة كبيرة تجر اربعة قوارب
اوصلتنا الى اسفل مجرى نهري ال ينسي. قاربنا الذي فكهو في دودنكا واصل مسيرة الى نهر
فاليجا .. وبعدها بالنهر حتى بحيرة بياسين ..

انزلونا في خيام .. اقمننا بها لبعض الوقت .. كان على الجميع ان يعملوا عملا شاقا .. انا
ومعنى ثلاثة جنرالات آخرون اعطونا عملا سهلا بعض الشيء لكبر السن كنا ننظف
المراحيض ...!!

وهكذا استمر الحال في بداية الحرب، التي علمنا بها فقط عندما قادوني ومعنى خمسة
وعشرون رقيقا في اليوم الخامس من اغسطس عام ١٩٤١ وارسلونا للسجن في نورلنك ..
وبعدها قادوني للتحقيق .. وهناك تمت ادانتى .. وبقيت نقاط بسيطة في المادة ٥٨
والتي كانوا يحاولون تفصيل تهمة عليها .. الخيانة العظمى الصلة بالاعداء .. العمل في
جيش العدو .. الارهاب .. التجنيد للثورة المضادة .. واعترفت بما ارادوني ان اعترف به ..
وصمت الجنرال برودس اخيرا، ولأنهم كنا في الحديث لم ندر بان الوقت مر سريعا وان
منتصف النهار قد ازف .. وعندما حصل اوائل السجناء على الحساء كان الحراس
مخمورين .. فصاح احد المجرمين ..

— يا اخوة .. اليوم يوم لحم ..

وصاح الآخرون ..

— انت جبان ..

— اترك النكت السخيفة ..

وكننت الاخير الذي استلم حساءه .. ولاحظت ان رئيس الحرس يقف على قدميه
بصعوبة .. وفكرت بان المجرم على حق .. وانهم يجهزون شيئا ما ..
من المحتمل ان يكون دورى قد جاء اليوم ..
ولكن الرب لم يفقدنى شهيتى.

وبعد الاكل رقدت في مكاني .. ورقد جيراني .. الجنرال برودس والكابتن روبيرق على الكنبات ..

كنا مستغرقين في تفكير عميق .. بعض السجناء وقفوا للامام يسترقون السمع لما يحدث في الممر .. وساد الزنزانة هدوء مشحون بالتوتر .. وكان الممر هادئا .. وفجأة سمعت صرخة حادة .. وقفزنا على أرجلنا وهرعنا نحو الباب وهذا الصراخ .. كانوا يجرون شيئا ثقيلًا بالممر .. وبعد عشر دقائق سمعنا باب الزنزانة المقابل لنا يفتح .. ويخرج منه رجل بهدوء الحركة في الممر أصبحت أكثر حيوية .. فتحت ابواب الزنزانات واغلقت كانت اصوات الخطوات تسمع بوضوح ..

وفجأة تجمد الواقفون بالقرب من الباب .. وخفقت القلوب .. وارتجفت الايدي وتخلخلت الركب .. كان صوت المفتاح هذه المرة في باب زنزانتنا.

وتدافع الجميع وانكمشوا في امكانهم .. فتح باب الزنزانة دخل رئيس الحرس .. وصل حتى منتصف الزنزانة .. وقف يراقبنا وبعدها توقف .. وبحركة من اصبعه اشار على مجرم زى شعر اشقر، يدعى سدوى وقال ..

— فلنذهب يا سدوى ...

— الى اين ..؟

— المدير يريدك ..

— انا ابول على مديرك ..

— انه يريد اخبارك بشيء وستعود في الحال ..

— دعني وشأني لن اذهب ..

فخرج رئيس الحرس وعاد ومعه ثلاثة من الحرس.

— سدوى .. أنزل ..

— لن اذهب ..

— ستذهب ..

ويشتمهم سدوى بياس مفجع ..

ويقبض رئيس الحرس على رجل سدوى الذي ينتزعها منه بعنف .. ويحاول ان يصعد

الى الرف الاعلى .. ويتشبث بالكنبة الثانية ويقبض الاربعة على ساقه ويجرونها بقوة ..

ويقبض سدوى بدوره مستميتا على الرف .. وبدأ الشد والجذب لمدة دقائق حتى انهارت

السقالة التي كان الرف مثبتا عليها فوق رؤوس الذين كانوا يجلسون تحتها في الكنبات.

ووقع سدوى على الارض .. واخذ يصيح بفزع ورعب ..

وساد الزنزانة اضطراب شديد .. وهب الجميع يسبون رئيس الحرس ..

— دموى .. مصاص دماء .. اترك الرجل.

وهرع جندي وناول رئيس الحرس [الكمتري] فحاول ان يدخلها في قم سدوى وضغط

سدوى بعنف على فكيه .. وقاوم بشدة واستماته واخذ رئيس الحرس يسدد الى قم سدوى

لكمات هائلة فجرت منه نافورة دماء جمراء.

واستمر ذلك حتى خيل اليها ان القم قد تحطم، ثم نجح رئيس الحرس اخيرا في ادخال

الكمتري الى قم سدوى الذي اخذ يشخر بعنف وسالت بفق الدم من الكنبية الى الباب ..

واحنى الجميع رؤوسهم .. عندما اقتيدت الضحبة الى المذبح .. وساد الزنزانة صمت

حزين .. حزين ..

وعندما جاء الحساء في المساء دبت الحياة مرة أخرى فاكلنا وكان شينا لم يحدث .. وفوجئنا بشدة عندما وصل الى الزنزانة كابتن البحرية السوفيتية «الحربية» منشيكوف .. وكنا نعلم ان الحرب ما زالت مستمرة ولكن الاخبار .. كانت تصلنا مبثورة لا تشفى غليلا . كان منشيكوف قد اشترك في الحرب ، ومنه علمنا تفاصيل مثيرة للغاية ومنشيكوف هو قائد جزيرة نوفيه زيمليه .. التي ابحرت منها سفن الحراسة المشددة لكي تحمي السفن الحربية الامريكية والانجليزية ومن هناك تابعت السفن رحلتها حتى دودنكا واغارك .. وقد بقي جزء من الشحنة في دودنكا .. لمصنع المعدات المطلوبة بنورلسك .. ومن دودنكا واغارك ابحرت بقية الشحنة عن طريق نهر ال ينسى الى كرسنوبارسك .

وفي اغسطس وصل الى ميناء نوفيه زيمليه شحنة أخرى .. افرغتها السفن الحربية الانجليزية والامريكية ، ثم استدارت لتعود الى قواعدها في انجلترا وامريكا .. ولم تمض ساعات على ذلك حتى اعلن الحرس من برج المراقبة انه شاهد في الافق البعيد سفينة مجهولة .. كان الاعتقاد بانها احدى سفن الحلفاء .. ولم يعر احد الامر اهتماما اكثر من ذلك .. بعد مضي فترة من الوقت اعلن برج المراقبة ان السفينة تقترب من الخليج . وتحدث منشيكوف مواصلا قصته ..

— وخرجت لارى ما يجرى ..

وعندما صعدت الى برج المراقبة اصابتني الدهشة كانت سفينة المانية وامرت باعطاء اشارة التنبيه .. ولكن كان الوقت متأخرا .. كانت السفن التي قطعت مسافات طويلة قد اقلت مراسيها في عرض الخليج بحثا عن الاستجمام والراحة .. وكان طاقمها قد ركن الى الراحة .. واصبح تغير اتجاهها يحتاج الى ساعات طويلة . وكانت الباخرة الالمانية تقترب .. احدى سفن الحلفاء التجارية التي كانت في المقدمة ارادت التحرك والابتعاد عن الخليج .. وكان ذلك ما ينتظره الالمان .. فعندما وصلت الباخرة الى فم المضيق اصابتها القذيفة الاولى .. فمالت وترنحت ثم غاصت في الماء وبذلك سدت طريق الخروج على السفن الاخرى .

حاولت مدفعية الساحل ان تصيب ببنيرانها السفينة الالمانية .. ولكنها كانت بعيدة عن مرماها .

وعندما رأى الالمان ان بطارية الساحل عاجزة عن الوصول اليهم اقتربوا من الشاطئ وامطروا السفن نيرانا حامية .. دمروا كل البواخر التي كانت تقف في الخليج .. وكل أجهزة الميناء .

وكان هناك حوالى المائة والاربعين بين قتيل وجريح .

وقد اصبحت في يدي .

وبقيت في مستشفى دودنكا لمدة ثلاثة اسابيع انا ومن كان معي من الجرحى .

ثم القى علينا القبض .. وها أنا بينكم متهم بانى عميل المانى .. وذات يوم كانوا يقومون باختيار رئيس السجناء في الزنزانة «ستاروستا» وكان عجبى شديدا عندما رشحنى دكتور

اولنچك لكون رئيسا للسجناء .. فمعرفتي به سطحية جدا .
ودكتور اولنچك هذا كان بولندي الاصل ولد في روسيا .. حدثني انه عمل كطبيب في قسم
الن . ك . ق . د . .. وبعد دخول الجيوش السوفيتية الى شرق وجنوب بولندا عام ١٩٣٩
خُصِد الرصاص الغادر الالاف من الضباط البولنديين الذين اسروا في غابة بجوار ليلين .
فطلب اولنچك عند ذلك اعفائه من الخدمة .. القوا عليه القبض بتهمة التخريب
والانتهزمية .. وفي نورلسك حيث كان يقضى فترة العقوبة .. كان عليه للمرة الثانية ان يمثل
امام المحكمة بتهمة الاعداد والتحصير لانتفاضة مسلحة وصادقت اولنچك .. ولكن هذه
الصداقة لم تدم طويلا .

في احدى الامسيات تحصلنا على سمك .. فاخذ اولنچك يخرج السكر من كيس صغير
معه ويصبه على السمك واستغرب جدا .. فسألته لماذا يأكل السمك بالسكر .. وغضب
اولنچك وسألني ماهو الشيء غير العادى في ذلك . فاجبته بان هذا الامر في حد ذاته غير
عادى وثار اولنچك ثورة عنيفة .. ونشب بيننا نقاش حاد متوتر عن العادى واللا عادى
وانتهى كل ذلك بان تشاجرنا ولم نتحدث بعدها ابدا مع بعضنا البعض ولكن حادثة
سدودى قريت بيننا مرة اخرى .

اعدت الصداقة .. التي اسدناها الى حرارتها السابقة .. ضغطت على يده بقوة واعجاب
عندما بدا يعلن بصوت عال استيائه للطريقة اللا انسانية التي اتبعت مع سدودى قبل
تنفيذ حكم الاعدام .

كانت الحقيقة تحتاج الى شجاعة فائقة حتى يقولها احد .. ذلك لانهم كانوا يعاقبوننا
بعشرين يوما سجنا في زنزانة الحبس الانفرادى التاديبية «كارس» .. وكان من الممكن ايضا
اتهم المرء بالتنظيم للعصيان .

وكان معلوما ان اولنچك متهم بالتحصير للعصيان المسلح ومن المؤكد ان تلك الكلمات
كان من الممكن ان تزيد موقفه سوءا وقد حكمت عليه محكمة المعسكر . بالاعدام رميا
بالرصاص .. وكان الهجوم الذى وقع على ميناء نوفيه زيمليه واغراق سفن الحلفاء قد
اصاب سكان نورلييك باضرار فادحة جسيمة .

الدعاية . السوفالينجية الكاذبة هدأت من روع الشعب الروسى قليلا .. بالحديث عن
الخطط والوعود المطاطة .. وحسروا الامر في الخمس سنوات القادمة وبعدها سيكون كل
شيء في متناول اليد .

وقبل ذلك كانت الدولة السوفيتية تعلن بانها محاطة بالدول الراسمالية ويجب عليها
ان تخزن مواد تموينية كثيرة حتى اذا دخلت في الحرب التي تعد لها البروجوازية ضد
الاتحاد السوفيتى كان بالامكان ان تصمد .

وعندما بدأت الحرب ، تراءى فورا انه لم يكن هناك اى احتياطى او اى مخزون من
المواد التموينية فمن اليوم الاول للحرب ، اكل الشعب الروسى بالقياس سكان المدن الكبيرة
كانوا يحصلون على المعدل الاقل ولكن الناس خارج المدن الكبيرة لم يحصلوا على شيء !!
في نورلسك كان الموقف سيئا لان الارض هناك لا ينمو فوقها شيء غير بعض انواع الكرنب
التي تنجح بعد صعوبة شديدة وجهد ومعاناة .

كان اوراقة مرة الطعم ومن الصعب اكلها ان لم يكن من المستحيل وقد اخذ الحلفاء على

عاتقهم امداد نورلस्क بالمواد التموينية، في سبيل الحصول على النيكل والنحاس والكوبالت وبعض المعادن الأخرى.

والآن، وبعد ان غرقت السفن في الخليج، بقيت البطون خاوية جائعة .. وفي مخازن تلك المواد كان هناك احتياطي لشهرين فقط.

كانت الأولوية في تلك البقايا لل ن ك في د .. والحرس وان بقي شيء فقلشعب وبذلك كان السجناء يحصلون على الفقات .. نقص وزن الخبز في السجون وفي معسكرات العمل الاجبارية على السواء الوجبات الساخنة كانت تتكون من الكربن غير القابل للاكل والسمن المملوح.

اللحم والدهن والسكر .. كانت من الاشياء المدومة وحتى لا تحدث الكارثة المتوقعة بداوا في ارسال بعض المواد التموينية عن طريق الجو.

واضطربت الاحوال النفسية للناس يوما بعد يوم ظهر ذلك على السجناء اولا ثم امتد ليشمل الطلقاء .. كانت هناك وعود كثيرة ستحصلون على كل شيء مما كنتم تحصلون عليه قبلها.

ولكن الوعود لم تكن تكفي لسد صيحات الجوع عند الناس ومرت الاسابيع والشهور وندهورت احوال الطعام انعدمت الاسماك المملوحة ايضا وبدا الموقف يسوء كثيرا وفي مثل تلك الظروف كان ال ن ك في د .. يعرف كيف يصرف الارهاب مكان الاكل .. العسف والقهر يبدل الطعام القوا القبض على رئيس الامدادات في نورلस्क كريجفسك وعلى مساعديه ..

ونشروا اشاعات كثيرة بواسطة معاونيه تحكى عن اكتشاف منظمة للثورة المضادة وعلى راسها كريجفسك الذي كان من اصل بولندي .. والتي كان اعضاؤها يخربون ويتلقون المواد الغذائية ويحرمون منها السكان الاحرار والسجناء .. واعترف كريجفسك ومعاونوه «بكل شيء» وحوكموا بالاعدام ولكن الحكم لم ينفذ.

وبعض مضي عام افرج عنهم ووضعوا في اماكنهم ووظائفهم السابقة كل ذلك جرى بدون ايضاح من جهة ما.

ورغم هذا كان كل شيء واضحا وضوح الشمس .. وفي تلك الظروف وصلت الى نورلस्क كميات كافية من الاغذية .. ولم يعد الامر محتاجا الى ضحايا جدد يتهمون بالثورة المضادة لسوء الامدادات من نهر الفولجا الام الى نهر الينسى العجوز.

في اليوم الاول من سبتمبر عام ١٩٤٢ اقتيد الى زنزانة اربعة من الالمان .. قالوا انهم قد رحلوا في بداية الحرب من جمهورية بوفولسك الالمانية الى الضفة الشمالية لنهر الينسى .. وهم في الاصل من الالمان الذين كانوا يعيشون على ضفاف نهر الفولجا.

وكان موقعهم الجديد يقع على بعد ثمانين كيلومترا من بوست بورت، لكي يعملوا في صيد الاسماك وقد واجه هؤلاء القوم ظروفًا صعبة للغاية .. وجدوا انفسهم في ارض جرداء لا ينمو عليها شيء ولا توجد بها امكانيات لطعام الف ومائتي شخص .. جلبهم من النساء والاطفال.

ومثل جميع الذين رحلوا قسرا، حصلوا على معدات وسقالات ومواد البناء لكي يبنوا اكواخا صغيرة وفي الشهر الاول كانوا يحصلون على ستين ديكا جراما من الخبز لكل منهم

وكمية ضئيلة من الأغذية.

وبعد مرور الشهر كان من المفترض أن يكونوا قد اكملوا بناء مساكنهم وانتجوا من الطعام ما يكفيهم وقد أمرال ن ك ق د بتأسيس الكولخوز التي تعنى بصيد الاسماك من نهر الينسى .. كان على هؤلاء القوم الذين بدأوا حياتهم في مواقع بعيدة جدا عن المياه، أن يتعلموا صيد الاسماك وفي نهر يشبه البحر عرضا من كان على ضفته هذه لا يرى ضفته الاخرى.

وهؤلاء الالمان القرويون ركعوا امام رئيس المنطقة السكنية ليعطيهم عملا اخر .. تجمع حوله النساء والاطفال .. يكوا باصوات مرتفعة تمرق نياط القلوب وتوسلوا اليه ان يرحلهم الى مكان غير هذا ليجدوا عملا من الاعمال التي تعودوا عليها.. ووعدهم رئيس المنطقة السكنية بانه ولشهر قادم سيعفيهم من تسليم ما يصطادونه من اسماك للدولة. وعادوا يهدوء الى عنايرهم .. كانوا سعداء لان الاجل سيتوفر عندهم لمدة شهر .. صيد الاسماك نفسه لم يكن عائده كبيرا ولكنه كان اضافة هامشية للطعام الذي حصلوا عليه وسرعان ما انقضى الشهر وكان عليهم ان يدخلوا في قوارب الصيادين ومعهم شبكات كبيرة ويرموا بها في نهر الينسى الى ابعد مدى تستطيع قدراتهم الضعيفة .. وفي مجموعات تتكون من اربعة الى ستة اشخاص ذهبوا .. يمارسون حرفة جديدة عليهم .. هي صيد الاسماك.

وبعد مرور ساعتين عادت معظم القوارب وغالبية من عليها كان من النساء .. كان الجميع قد اصابوا بالجنون من الخوف والرهب يقسمون ان اقدامهم لن تطأ تلك القوارب مرة اخرى اما الشجعان وهم قليلون فقد صمدوا لوقت اطول وكانت حصيلة الصيد ضعيفة للغاية تكاد تكفي بالكاد وجبة العشاء.

وفي يوم احد حزين صادفتهم عاصفة هوجاء .. كان عدد القوارب التي خرجت للصيد هو ثلاثة وعشرون قاربا .. غرق منها ستة قوارب واستطاع الآخرون النجاة بصعوبة بالغة .. وفي ذلك اليوم الرهيب مات ثلاثون شخصا منهم ثمانية عشرة امرأة تركن خلفهن ستة عشر طفلا بلا رعية .. وبعد تلك الكارثة لم يستطع قائد المنطقة السكنية ان يامر الصيادين بالنزول الى النهر .. ولكن بعد ان اوقف القائد صرف الوجبات الغذائية ايام عديدة عاد معظم الصيادين الى النهر ويعمر بعض الوقت حدد قائد المنطقة السكنية للصيادين المعيل الذي يجب عليهم الوفاء به.

وقال الصيادون ان السمك لا يريد ان يدخل في الشبكات وعوقب الصيادون الذين لم يقدموا المعدل المقرر من الانتاج وحرمانهم من الاغذية.

وفي فصل الشتاء تجمد نهر الينسى .. وكان الصيادون اسعد الناس من انهم لن يجبروا على ركوب النهر الخطر ولكن سعادتهم ماتت في مهدها .. اذ سرعان ما صدر الامر اليهم بان يعودوا للصيد خلال حفرة يحفرونها في الثلج ومع حلول فصل الشتاء تجيء الليالي القطبية فكان عليهم ان يحملوا معهم المشاعل للصيد .. حفروا الثلج وكسروه بالمعاول و٧٦ الحديد الحادة القوية .. وبالدموع والجهد والام وكانت تمر الساعات الطوال وهم لا يحفرون حفرة تصل الى الماء اذ كان سمك الثلوج يصل الى عدة امتار .. وكانت الاسماك تريد الهواء فدخلت بسهولة ويسر في الشبكات .. وكان الصيد فوق المتوقع وجيدا للغاية

.. وكانت الرياح الثلجية قوية فسرعان ما قفلت الحفرة بعد ساعات وتجمدت من جديد .
وحتى لا ينهك تكسير الثلوج قواهم جعلوا الصيد من دورتين .. كل دورة مداها اثنا
عشرة ساعة .. تعمل فيها مجموعة جديدة .. وكان الامر يسوء جدا عندما تهب العواصف
الجليدية والاعاصير الثلجية «بورقا» وفي تلك الصحراء اللانهائية يجن جنون العواصف
.. فما كان هناك شيء يعوق طريقها . كانت تعربد وتئن وتصرخ وتغوى وهي تجرف كل ما
امامها .

ولكى يحافظوا على انفسهم من الرياح الشديدة اخذ الرجال في اقامة الخيام ووضعوا
عليها جلود حيوان الرنة التي اشتروها من الرعاة ولكن بعد العاصفة الاولى التي كسحت
كل خيامهم توقفوا عن نصب خيام جديدة في سلفستر هاجت العاصفة المدمرة المزمجرة
فانعدمت الرؤيا تماما حتى مقدار خطوة واحدة .. ولم تساعد المشاعل الموقدة .. وفي ذلك
اليوم تجمدت خمس نساء .. وكثيرون تجمدت وتيبست ايديهم وارجلهم وبصعوبة شديدة
استطاع الناس العودة الى المنطقة السكنية واستمرت العاصفة لاكثر من اسبوعين .

وخلال تلك الفترة لم يستطع احد الذهاب لصيد السمك وعندما هذات العاصفة، اتجه
الصيادون مرة اخرى الى العمل .. كان معظم السمك قد تجمد ولم يعثروا على اثر له
وضاعت المعدات وفقد معظمها .. وبدلوا من جديد في حفر الثلوج التي اصبح سمكها
خياليا وفي بعض الاحيان حفروا وحفروا ولم يستطيعوا الوصول الى الماء .. ولم تكن معهم
شباك وكان يجب ان يصطادوا بالسنارات فكان الصيد ضعيفا لم يكف لاطعامهم الا
بصعوبة شديدة .. وعندما جاء فصل الصيف تقرر ان يذهبوا مرة اخرى للنهر المتوحش .

وفي اليوم الاول حدثت كارثة رهيبة مجموعة من ستة صيادين ابتلعتهم الامواج .. ولم
يعرف احد قط كيف حدث ذلك .. في الايام الاولى من الصيف كان الصيد ضعيفا جدا ..
وعندما امر رئيس المنطقة بانقاص الطعام لان المعدل الانتاجي لم يسلم، رفض الصيادون
الذهاب الى الصيد .

وفي اليوم الثالث وصلت مجموعة من ال ن ك ق د والقت القبض على جميع الرجال
.. واتهمتهم بالتخريب .. اثنان من القادة حوكموا بالاعدام وحوكم البقية بعشر سنوات
اشغال شاقة .. عهد ستالين كان مليئا بالكاذيب ولكن كذبه في وضع نظام الاقليات فاق كل
شيء .

كيف كانت تلقى الخطب ؟.. وكيف كانت تروج لما قاله ماركس وانجلز ولينين وستالين
.. كم من المقالات التي تحصى بالالاف في الكتب والصحف تحدثت عن المساواة بين
الشعوب وعن حرية الاديان؟ فقط الذين سجنوا وعذبوا واضطهدوا كانوا هم الذين اتيج
لهم ان يقفوا على حقيقة ذلك الاتم الكبير ..وعظمته!!

عندما احتل الاتحاد السوفيتي بلاد البلطيق في عام ١٩٣٩ نفى الى سبيريا عشرات
الالوف من الاستونيين واللاتفيين واللثونيين وكانت اغليبيتهم من المثقفين وبعد تحالف
هتلر وستالين عندما احتلت الجيوش السوفيتية بسرائي وجنوب بولندا، ارسل الى
سبيريا عشرات الالوف ايضا من البولنديين والرومانيين والاوكرانيين وهم كذلك من
المثقفين .

وفي عام ١٩٤١ عندما بدأت الحرب بين الاتحاد السوفيتي والمانيا بدأت النظافة

الجديدة في دول البلطيق .. مئات الألوف من المواطنين والضباط وصف الضباط والقرويين أرسلوا منفين الى معسكرات العمل الاجبارية في سيبيريا وبعد ايام من بداية الحرب هُشمت «جمهورية الالمان ال يوفولشك» الذين كانوا يعيشون على ضفاف نهر الفولجا ورحل السكان الالمان لتلك المنطقة رحلوا هم واطفالهم والمسنون واعضاء الجمهورية الى سيبيريا في اقصى الشمال وكان ذلك القدر هو مصير سكان الاجزاء الاوربية للاتحاد السوفيتي بعضهم تم سجنه وارسل الى المعسكرات والبعض الاخر نفى وبعد انتهاء الحرب بدأت «النظافة» من جديد على انها كانت في الاساس مستمرة ببولندا ودول بلاد البلطيق .. وبدأت من جديد تفور تياراتها الجامحة، لتصب في روافد الالم والعذاب، وسارت الافواج التعيسة نحو الشمال والشرق في روسيا.

واذا كان عدد الذين تم نفيهم قبل الحرب الى سيبيريا عدة مئات من الألوف، فانه تصاعد اليوم ليصبح بالملايين .. كان بالامكان رؤية قطارات الشحن ممتلئة بالناس من مختلف الجنسيات وكان من ضمن الذين أرسلوا للسجون والمخافي، افراد قبائل القفقاز الصغيرة الذين سكنوا في سيبيريا - ججاني - انقوشى - وكاراجاي وكريما تقارى ومن اوكرانيا البولغاريون.

ولقى المصير ذاته «كالميس» هؤلاء الناس الذين واصلوا العيش في تلك المناطق لمئات السنين وكان يجب عليهم بعد الحرب تركها لكي يعيشوا في الصحراء الجديدة الشمالية .. ويتم استخدامها كسماد للتوسعات الستالينية.

وفي نهاية عام ١٩٤٠ كان هناك في نورلنك عدد كبير من الشيوعيين الاجانب، معظم من الالمان .. وكان اولئك النفر كانوا اعضاء نشطين في الحركة الشيوعية.

وعندما استلم هتلر الحكم. هرب هؤلاء الشيوعيون الى الاتحاد السوفيتي وعمل كثيرون منهم في المصانع المدنية والحربية وعاشوا جيدا ومثل جميع مواطني الاتحاد السوفيتي كانوا تحت مراقبة ال ن ك ق ومثل هؤلاء الناس اجبروا على ترك بلادهم، كانوا يعودون فيتحدثون كيف كان حالهم جيدا بالمقارنة لما شاهدوه بعيدا عنها. وقد جاء ذلك بالطبع في مصلحة ال ن ك ق .. وفي زمن النظافة بين عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٣٩ القى بمعظمهم في السجون والمعتقلات وعدا الالمان .. كان النمساويون .. والمجريون .. والبولنديون .. والبغاريون ... وبعض اليوغسلاف.

جزء من اولئك الاجانب ربطت بنبيهم علائق وثيقة .. وساعد بعضهم بعضا بالرغم من انه كان ممنوعا الذهاب الى العناير الاخرى ولكن دائما كنا نلتقي ونحدث كما ينبغي .. ولقد اهتزت معنوياتنا واحسنا بالهزيمة الداخلية في ارواحنا عند سماعنا لاجبار تحالف هتلر وستالين.

الكثيرون من الشيوعيين الاجانب - وبالرغم من كل شيء - كانوا يصدقون ستالين .. ولكن هذا الحدث الخطير فتح اعينهم جيدا كنت في اغلب الاحيان ناقش بوبوف .. وهو الذي قام بالاشتراك مع ديمتروف وتانيف بحادث احراق الريهستاك ومعهم الآخرون بالطبع.

وعندما عاد بلاقوى الى الاتحاد السوفيتي ومعه تانيف حاكمتهم المحكمة العسكرية بتهمة الجبن امام العدو .. ليقضوا خمسة عشر عاما في معسكرات العمل الاجبارية وابدئ

بلاقوى اشمئزازا عندما قلت له في احدى المرات بان الفرق بين هتلر وستالين هو شيء واحد فقط ان الاول المافى والثانى قروزي .. وفي ذات يوم من الايام هرع بلاقوى الى عنبرنا قائلاً:
— كارلو .. لقد كنت على حق.

— كيف ؟..

— ألم تسمع ؟..

— ماذا ؟..

— وقع الاثنان خلفا.

— من هم الاثنان ؟.. تكلم بوضوح ...

— لقد تحالف هتلر وستالين .. وهذه جنسية للثورة.

— هل هذا شيء جديد ؟..

— نعم ..

— والملايين من الشيوعيين الذين تتحلل اجسادهم في السجون ؟.. اليست هذه خيانة ..؟

— نعم .. الان فهمت .. ان تصفية الشيوعيين كانت مرحلة تحضيرية لهذا الحلف وماذا الان ؟

— لا شيء سوى الاعداد للحرب الدكتاتورية ضد الديمقراطية عندما لا تكون هناك حوادث هامة .. مثل «يوم اللحم» وما شابه، تمضى الحياة ونحن على الكنبتات نحكي النكات والالغاز والاحاجي .. وكنت غالبية النكات سياسية ذات مغزى .. وكان ذلك خطرا على الجميع ولكننا في السجن ما كنا نغير الامر انتباها.

وفي مثل هذه النزاةة التي يقيم بها اكثر من ثمانين شخصا والتي تمثلي بكل الجنسيات الاوربية كان البعض ياتي والبعض الاخر يذهب به الى اين؟ ال ك ن في د كان دائما يخفي الحقائق عن الذين اقتيدوا الى معسكرات العمل الاجبارية .. ولكنهم بعد حين يعلمون ان من اقتيدوا الى المجهول كان مصيرهم المعلوم هو الموت.

وكننت اتحدث مع الجنرال بروفس عن الاحوال السياسية في العالم في وقت الحرب كنا نعلم القليل جدا مما يدور في ميادينها وطبعا النشرات الرسمية كانت مليئة بالاكاذيب تسعون بالمائة كانت بعيدة عن الحقائق .. كانت هي ما تريده السلطة السوفيتية بالطبع لا توجد في اى بلد من بلاد العالم كميات من الكذب الرسمي كما توجد في الاتحاد السوفيتي آنذاك .. كذبوا على الشعب السوفيتي في عهد ستالين كما شاء لهم الخيال .. اما الناس الذين كانوا يفكرون بعقولهم، فهم يعلمون ان الحقيقة تناقض ما يشاع من اخبار رسمية.

ولم يكن يسمح لاحد في زمن الحرب ان يمتلك جهاز راديو ولا احد يستطيع ان يستمع الى الاذاعات الاجنبية القليل الذى كان يعلم .. يخضعه الناس للتحليل ليصلوا من خلاله الى بصرى من الحقيقة.

كان الكثيرون يعتقدون بان الاتحاد والتحالف مع الامريكيين والانجليز سيفضى بعد الحرب الى الديمقراطية .. ولقد خاب ظنهم وخانهم التفكير السليم .. وذلك ما اوضحته الحوادث بعد نهاية الحرب.

موت الجنرال برودس

كان الجنرال برودس رجلا وديعا وواقعيًا .. بعيدا كل البعد عن الإحلام والتفاؤل .. كان يعتقد وقتها بايمان قاطع انه ظللا بقى ستالين في السلطة، فلن تكون في الاتحاد السوفييتي ديموقراطية .. بخلاف البعض الذين كانوا على يقين بان هتلر عندما يفقد الحرب ستجبر امريكا وانجلترا ستالين على انتهاج الديموقراطية في حكمه .. صباح اليوم العشرين من سبتمبر عندما عدنا من دورة المياه لاحظنا في الممر عددا غير عادي من الجنود .. تعرفنا على اغلبهم بحكم رؤيتنا لهم كل يوم.

اجرينا في اذهاننا احتمالات كثيرة .. لم يكن من بينها، انهم يعدون «ليوم اللحم» احدنا فقط ذكر هذا الاحتمال فاسكته الجميع بالحجج والبراهين .. قالوا له في مثل يوم اللحم يكون الحرس مخمورا اما اليوم فهم غير ذلك .

مرت وجبتا الافطار والغداء كالعادة بدون شيء جديد وقد حاول السجناء التحدث مع الحرس من قريب حتى يكتشفوا ان كانوا مخمورين ولم تكن هناك رائحة خمر تنبعث من افواههم.

بعد الغداء دعوا بعض السجناء ومن بينهم الجنرال برودس والكابتن روبيرق الى مكتب السجن .. وبصبر نافذ انتظرنا عودتهم بعد ربع ساعة عاد الجميع قالوا انهم قد اوقفوهم في صفوف يضم كل صف ثلاثة وقاموا بتصويرهم .. وعند ذلك هدأت نفوسنا. اغلب نزلاء الزنزانة مرة ١٤ لم يكونوا تحت التحقيق اتفقنا على ان الذين تم تصويرهم سيمثلون قريبا امام المحكمة .. فقد كان من العادة ان يحتوي محضر التحقيق فيما يحتوى على صورة المتهم كان الشخص الوحيد الذي ازعجه التصريح هو الجنرال برودس انسحب الى ركن الزنزانة .. كعادته حين يريد التفكير في امر وبعد ساعتين نهض وحدثني قائلا:

— ستاينز .. هل تصدق انت انهم صورونا لجلسة المحكمة القادمة ؟..

— هناك احتمال .. ان ينتظروا مرحلة جديدة .. ولكنى لا اصدق بعد الحرب ولن يرحلوا احدا من نورلسك ..

— لا .. انت مخدوع .. هذا شيء آخر ..

— على كل حال لن يكون هناك شيء فظيع ..

— شيء فظيع ؟.. من المحتمل انهم صوروني للمرة الاخيرة.

وجاهدت لكي اقنعه رغم احساسى الخاص، بان الامر سيكون سيئا جدا، وتذكرت احد الاحاد.

كانوا قد اعدوا عددا كبيرا من المجرمين رميا بالرصاص .. وقبلها بيوم قاموا بتصويرهم جميعا ولم يخطر ببال احد منهم انهم «يتصورون» للمرة الاخيرة في حياتهم بعد محادثتنا بساعتين اقتادوا اثنين من الذين اخذت لهم الصور الفوتوغرافية .. نادى مدير السجن على اسميهما وعندما اجاباه .. قال لهما ..

— خذا حاجياتكما .. واتبعانى. ومن اركان الزنزانة سمعنا.

— سيرحلون لمعسكر العمل الاجبارى .. وسمعنا صوت الزنزانة الاخرى وهو يفتح كان

معظم من معنا، يتصورون ان مجموعة كبيرة للسجناء سترحل الى معسكرات العمل الاجبارى.

بعضهم اخذ يتوجه للذين تم تصويرهم ببعض الوصايا المختلفة لتنفيذها عند وصولهم الى المعسكر.. وقد خيل إلينا ان شيئاً ذا اهمية لم يحدث.. بعضهم ذهب وآخرون جاءوا واحتلوا مساحاتهم وهذه ظاهرة يومية.. تلك كانت افكارنا.. ثم حدث فجأة خطأ فى الأخراج.

والن ك فى د يخطئ فى بعض الاحيان.. فتحت ابواب زنزانتنا ودخل عدد من الجنود احدهم كان يحمل فى يده «الكمرى» ونظر الينا الجنود بحدة.. وقال واحد منهم.
— ليست هذه رقم ١٥

وسبوا بوقاحة قائد الحرس الذى فتح الزنزانة بالخطا وسرعان ما خرجوا واطبق علينا صمت، كصمت القبور.. بدده صياح مجرم ملتان ..
— هذه مرحلة.. للعالم الآخر..!

كان عدد الذين تم تصويرهم وبقوا فى الزنزانة ستة اشخاص اثنان منهما بقيا رابطين الجاش الجنرال بردوس والكابتن روبريق احد الضباط اللتوينيين بكى بكاء مرا عنيفا وبصوت مرتفع واطلق عليه اسم الجبان ولكنه لم يصمت وحتى الثلاثة الآخرون لم يثبتوا للموقف وانهارت عزائمهم وفى الليل اخذوا يخرجون الرجال استمر ذلك حتى منتصف الليل وكانت اصوات الصراخ والبكاء تتعالى تتبعها ضربات المفاتيح على الرؤوس فتختلط الاهات والضراعات.. ولم تغض عين احد فى الزنزانة كان وداع الضحايا ياتينا من الزنزانة الأخرى حزينا يمزق نياط القلوب..
— العفو يارفاق.. وتأتى الإجابة الجماعية حارة كالدمع..
— عفونا.

وبعد منتصف الليل سمعنا اصوات عربات الشحن المحملة بالجنث تغادر المكان واستمر ذلك حتى الخامسة صباحا.. وكنت سعيدا لانقضاء الليل الكابوسى المقيت.. وعندما قادونا فى الصباح الى دورة المياه.. لم لاحظ شيئا غير عادى على الحرس كانوا كعادتهم يزرعون المر جيئة وذهابا.. ووقف احد الحرس امام دورة المياه واخذ يراقب كيف يجلس السجناء على الفتحات وتتعالى الصيحات.
— اسرعوا.. اسرعوا.

وخرجنا ليحصل كل منا على اربعين ديكا جراما من الخبز اكلناها بهدوء وشرينا معها الماء الساخن «كبياتوك» وبعد الافطار لاحظنا كيف جمع الجنرال بردوس حاجياته فى «صرة» حتى النعل الذى كنت احسده عليه خلعه ووضع داخل الصرة ثم اقترب منى ومد الى الصرة قائلا.

انت كنت صديقى من فضلك، هذه الاشياء للذكرى، لاننى لن احتاج اليها بعد الان. ولم ارد اخذها

حاولت اقناعه بانه سيعيش لوقت طويل.. ولكن كل محاولاتي باءت بالفشل.. قال لى بحزن نبيل.

— صديقى العزيز، ترى ما يحدث، اعلم ان الساعات اصبحت معدودة هذا الاشياء

الصغيرة ستفعلك، ان ام تاخذها انت، ستقع في ايدي هؤلاء الدمويين في رجاء واحد اذا كتب لك ان تعيش وتعود الى اوربا، ابحت عن ابي وحدته بكل شيء .. وان لم تجد ابي حدث ابناء بلدى كيف دفعنا ثمن تفكيرنا الضحل السلاج، حذر اوربا بما يحدث هنا .. وبهذه الكلمات اختتم برودس حديثه لى. ووعدته وانا احاول ان ابدو متماسكا، ولكنى كنت اترف في الاعماق .. وحاولت ان لا اظهر على وجهى شيئا.

الوعد الذى قطعته له لم استطع حتى الان الوفاء به فما زالت استؤنيه جزاء من الاتحاد السوفيتى .. وكان من السذاجة ان اعرض والده العجوز للمخطر اذا كان حيا برسالة تاتيه من الخارج .. اما فيما يخص الراى العالمى آمل ان يكون كتابى هذا اثباتا باننى قد اوفيت بوعدى الذى قطعته للجنرال برودس وبقيّة الضحايا.. اما حاجيات الجنرال برودس فانى لم اقبلها لقد اردت ان يبقى الرجل الشجاع مع الامل .. ولكنى ما صدقت ابدا اننا سنبقى على قيد الحياة.

وحتى موعد الغداء بقيت مع الجنرال برودس جالسا احاول ان احادثه في موضوع آخر ولكنه كان دائما يعود ليتحدث عن النهاية كان يفعل ذلك بهدوء وجاش رابط. وعند تقسيم الغداء حدث شيء .. برودس وروبيرق وانا كنا آخر الواقفين في الصف وتحصل برودس على الحساء .. وعندما اتى دور روبرق مد يده ليتسلم الحساء فصاح الحارس: — جميعهم اخذوا حساءهم واغلق الباب .. وبقينا روبرق وانا بدون غداء.

وطرقنا الباب .. طويلا .. فجاء الحارس .. واوضحنا له باننا لم نحصل على الاكل، فأغلق الباب مرة اخرى بدون كلمة واخذنا نطرق من جديد ومضى وقت طويل قبل ان يعود مرة اخرى وكان روبرق يقف امامى وطلبنا منه ان ياتينا بالحساء وصاح السجناء من الكنبات ..

— اعطهم اكلا .. لم يحصلوا على شيء وبدلا عن الاجابة .. ضرب الحارس روبرق بجذائه في بطنه وهو يوجه له السباب ..

— فاشست .. سوف نطعمكم وابتعد روبرق عن الباب وهو ينزف ويعرج .. وتبعته انا واخذ بعض السجناء يشجعوننى على الصبر، والاصرار حتى اثال وجبتى واخذوا في الصباح.

— اليوم لم يحصل اثنان منا على وجبتهما .. غدا سيكونون عشرة كل هذا لان اولئك لا يعرفون كيف يحصون العدد بدقة وتحت ضغط السجناء ذهبت نحو الباب وطرقته لمدة طويلة، وفتح الحارس الباب .. وبدون كلمة قبض على يدى وجرنى الى الممر، واخذ يضربنى بقبضة يده على راسى وهو يصيح ..

— هذا هو سلوكك .. هذه هي عصيدتك .. واخذت اصيح بصوت مرتفع فجرئى والقتى بى في زنزانة الحبس الانفرادى القاديبيية «كارسى» وكانت تقع في الجانب الاخر من الممر جوار زنزانات الموت وفتحت ابواب حديدية بالقضبان كانت مساحتها طويلة ومظلمة بها مصباح كهربائى احمر يضىء فوق الباب معطيا ضوءا خافتا لا يستطيع معه الانسان ان يرى نهاية الزنزانة.

وعندما تعودت عينائى على الظلام، رايت في الركن رجلا يرقد على الارض الصلبة واقتربت منه .. خيل الى اننى اعرفه ولكنى لم استطع ان اتبين من يكون .. ومد لى الرجل يده وطلب

منى قائلا..

— ساعدنى حتى اقف .. عندما تعرفت عليه وتعرف هو على بجاتنيكوف احد العمال من ليننجراد .. وكان قد تعرف على تروتسكى فى زمن الحرب الاهلية وعندما ذهب ترو تسكى من روسيا نفى بجاتنيكوف الى سيبيريا وفى عام ١٩٣٥ القوا عليه القبض وحوكم بعشر سنوات فى معسكرات العمل الاجبارى .. وكان يقض فترة الحكم فى نورلسك وعندما بدأت الحرب نقلوه من المعسكر الى السجن وقدم مرة اخرى للمحاكمة امام محكمة المعسكر بتهمة نشر اخبار كاذبة وبانه قال لبعض السجناء ..

— ان جيش هتلر قد احتل هاركوف .. وحوكم بالاعدام وسالنى

— وانت ؟..

كان يعتقد باننى حوكت بالاعدام .. فحدثته عن اسباب حبسى قال .

— غريبة ؟..

— لماذا القوا بك فى زنزانة الحبس الانفرادى القاديبية «كارسى»؟

— من المحتمل انهم سيعدموننى الان .

— سيكون ذلك بلا جدوى ...

وعلمت منه انهم اخرجوه مع اربعة آخرين وادخلوه الى هذه الزنزانة القاديبية

«كارسى» .

اما الاربعة الاخرون فقد نفذ فيهم حكم الاعدام اما لماذا لم يات دوره حتى الان فهذا ما لم يستطيع توضحيه وتكلمت معه بضع كلمات بصعوبة بالغة .. وفجأة فتح باب «الكارسى» ودخل ضابط ال ن ك ق د سكولين ومعه جنديان .. وعندما وقع نظره على هاج صائحا .

— ما اسمك ؟..

— شتاينز .

وصاح فى وجه الحارس .

— كيف دخل هذا الى هنا ؟..

واتجه نحوى قائلا .

— اطلع بره .. اخرج .

وكننت سعيدا حين ارجعونى مرة ثانية الى زنزانتي وبعد ذلك قادوا بجاتنيكوف من يديه ولم احدث احدا عن لقائى به فى الزنزانة القاديبية لانى بذلك ساسبب اضطرابا شديدا وبمجرد ادخالى فى الزنزانة بدأت من جديد اطرق الباب .. فظهر الحارس اخبرته بانى لم احصل على غداء .. كان حارسا آخر ولد هشتى قال .

— سوف ابحت لك عن شىء .

وبعد دقائق احضر لى حساء السمك .. واكلته بشراهة بالرغم من برودته .. وفى اللحظة التى انهيت فيها طعامى ، فتحت ابواب الزنزانة . ودخل نائب مدير السجن واخرج وريقة قرأ منها اسم احد السجناء ولم يجب احد قاعاد قراءة الاسم وعندها وبكل صعوبة سمع صوت خافت لرجل يجلس على الكتبة الارضية قال نائب مدير السجن ..

— خذ حاجياتك واتبعنى ..

— ثم استحثه قائلا بضيق ..

سريعا .. ليس لدى وقت ..

واجاب الضحية بوهن وضعف ..

— ليس لدى حاجيات ..

وخرج وهو يرتعد ويبكي بصوت مجنون ويكرر باستمرار ..

— لماذا ؟.. لماذا ؟.. لماذا ؟..

ودفعه نائب المدير امامه ..

ولم تمض دقائق حتى جاء نائب المدير مرة ثانية الى الزنزانة ونادى على روبيرق ونهض روبيرق من مكانه بلا كلمة .. قامت الطويلة النحيلة مرقت خلال الباب عندما اتجنى وهي تترنج قليلا .. وكان الاخير هو الجنرال بريدوس .. عندما سمع صوت المفاتيح بالقرب من باب الزنزانة احتضني بقوة وشدني الى صدره .. وقال ..

— وداعا .. وداعا ..

وصاح صوت .. قاسى .. رهيب ..

— بريدوس ..

وخرج الجنرال من الزنزانة وكأنه في الطريق الى نزهة سارة ذلك الربيع الشجاع الباهر مات في نورلسك رميا بالرصاص في الواحد والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٤٢ .. عند الرابعة بعد الظهر لم يخرجوا احدا آخر من زنزانتنا في ذلك اليوم .. وفي منتصف الليل سمعنا صوت الشاحنات وهي تنقل الجثث الى مقابر السجن ..

وفي اليوم التالي وبمساعدة تلغراف السجن احصينا انه في ظرف يومين كان عدد الذين رموا بالرصاص اكثر من اربعمائة رجل كان اغلب الذين حكم عليهم بالاعدام قد حاكمتهم محكمة الـ (او . اس . او) وهي محكمة من ثلاثة اعضاء .. من كبار ضباط الـ ن ك في د والتي من صلاحياتها محاكمة المتهمين غيابيا اما الباقون فتحاكمهم محكمة المعسكر وكنت موقنا ان دورى آتى قريبا جدا .. فحاولت اعداد نفسي لتحمل اسوأ الاحتمالات وسالت نفسي سوألا واحدا فقط ..

— هل ستحاكمني بالموت محكمة (او . اس . او) ام محكمة المعسكر ..؟

كنت افكر كيف اقبل لحظة الخروج للموت .. وحدثت نفسي باننى سأخرج معتدل القامة مشدود الظهر وعندما اقف امام الزبانية المتعطين للدماء ساقول لهم الحقيقة في وجوههم قررت ان اسال قضائي ..

— هل هذه حرب اباداة للشعب، وفق تعاليم ماركس وانجلز ولينين؟ وسوف اسالهم ايضا ..

— هل طرئت الثورة رومانوف لتنصب في الحكم من هو اسوأ منه ؟..

لمن اقول هذا ؟..

ربما يفهمنى الناس وتذكرت شبابى ورجعت بفكرى القهقري لعام ١٩١٩ حينما كنت فقيرا وشابا عاملا في مطبعة بغينا ولاول مرة سمعت متحدثا في جمع شيوعى للشباب .. خيل الى انه يتحدث من قلبى ..

كنت فقيرا .. اسكن داخلية الصناعات اكل مرتين في اليوم فقط كنت احصل على خمس

كرونات في الاسبوع استلمها من السيد واقتسمها مع اختي الطالبة .. وحتى احارب ذلك الفقر واتخلص منه انضمت للشبيبة الشيوعية وبعد شهرين من انضمامي للشبيبة لاول تجربة احتكاك مع السلطة .. على رأس مجموعة من الشباب قاومت البوليس كان ذلك في الخامس عشر من شهر يونيو عام ١٩١٩ في هورلنسي .. واطلق البوليس النار فاصبت بجراح خطيرة ومكثت مرميا في منتصف الطريق.

وعندما خرجت من المستشفى بدأت في ممارسة نشاطي الحزبي وعندما اقترح علي ويل منزنبرق سكرتير الشبيبة الشيوعية ان اذهب ليوغسلافيا عام ١٩٢١ لكي اعمل في صفوف الحزب الشيوعي المحظور، وافقت بسعادة وكنت ابحت عن الاخطار مستعدا للتضحية وعملت عشر سنوات بيوغسلافيا تحت وطأة احلك الظروف واقسامها حتى عام ١٩٣١ عندما اكتشف البوليس الطبعة السرية التي كنت اديرها وذهبت الى باريس لكي اعمل وسط المهاجرين اليوغسلاف وكنت اتجول من ضاحية الى اخرى بحثا عن العمال اليوغسلاف بغرض تنظيمهم .. وكان منهم نست دينس .. فلي يقي .. اقري .. وقتروي .. كما تعرفت على قاقورتي .. اوتلكرتيق - فلوريسدورف - وهرناكس من النمسا.

وكان علي ان ارحل من باريس .. بناء على رغبة العضو اليوغسلافي في باريس سبالايكوفج .. واجبرني البوليس الفرنسي على الرحيل من فرنسا وعدت مرة اخرى الى فينا واسست مطبعة كان تمدها الاحزاب الشيوعية لدول البلقان بالمواد الادبية.

قبض علي وجبست .. ولم يكن عندي ما هو اقيم من الحزب الشيوعي وعندما وصلت الى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٢ كنت اسعد انسان في العالم .. لقد وصلت اخيرا الى بلاد احلامي ومهبط آمالي وكما كانت خيبة املي!

بدلا عن الرفاهية وجدت البؤس وعندما وطنت قدماي ارض موسكو في روسيا البيضاء وبمجرد خروجي من القطار احاط بي المتشردون يسألون الاحسان وهم يمدون ايدي الزراعة ماذا يعني هذا؟

في موسكو .. عاصمة الثورة العالمية .. يتشرد الصغار ويصبحون شحاذين ؟! وخجلت! خجلت كثيرا وعندما حضرت العربة الليموزين وحملتني الى الفندق وذهبت الى فندق «لوكس» مبنى البيروقراطية وتركت حقائبي وذهبت اتجول في شوارع موسكو .. وخاب املي مرة اخرى الصفوف المتراسة امام المخازن للقفلات البائسة في محلات القهوة .. النساء العجائز يسالن بالحاف قطعة من الخبز .. وكن يشكن الذين يعطونهن قطعة الخبز .. ربنا يعطيك.

اما في غرفة الاكل بالفندق فكانت الامور مختلفة تماما .. هنا يجري تخفيف الشيوعية قوائم الطعام تفوق مثيلاتها في فنادق الانترناتشونال بفينا - وبرلين .. وباريس .. كافيارا السالمون الفلخر المقلية كل انواع الفاكهة المطبوخة .. تلك كانت قائمة الطعام لقيادت الحزب الشيوعي.

في المانيا لم يكن هناك هتلر قد جاء الى الحكم .. ولكن هنا في موسكو كان بالامكان مقابلة بيسك - نورتل - والآخرين.

كانوا يشعرون بالراحة هنا في فندق لوكس اكثر من سعادة تهلمان في برلين .. كان في موسكو بعض الزعماء الالماني الاخرين ولكنهم سكنوا الساحة الخلفية لفندق لوكس ..

كانوا هم المناضلين بحق ضد هتلر.

وقد جاءوا الى موسكو بناء على رغبةها .. وقتلوا جميعهم في سجون ال ن ك في د !!
ومنهم - هانز نيومان - هيرمان رميل - وارنر هريش - ماكس هولز وقد كانت في انتظارك مفاجأة كبرى في اليوم التالي عندما تابعت التجول عبر شوارع موسكو فجأة وجدت نفسى امام متاجر امتلات بالمواد التموينية والملابس .. ولم تكن هناك صفوف كالتي رايتها امام مخبز الرغيف الاسود .. وسالت نفسى كيف حدثت هذه الاعجوبة؟

كانت المتاجر اسمها توركسين .. فقط يمكنك ان تشتري منها بالعملة الصعبة والذهب. آه هنا سوق الدبلوماسيين والاجانب الذين جاءوا الى موسكو للعمل وهنا ايضا يمكنك رؤية الفقراء الذين احضروا خاتم الزواج والحلى الاخرى ليشتروا خبزا او لبنا لاطفالهم. وفي فنادق موسكو الفخمة ساقوى - متروبول - ناشونال - كان بمقدور الاجانب ان يحصلوا على كل ما يشتبهون بالعملة الصعبة - كالغار - الشمبانيا الفرنسية وكانت الفتيات يعطين اجسادهن للاجانب والمعلومات لل ن ك في د.

هكذا بدت في موسكو وكان يمكن ايضا ان تقرا في طرقاتها اللافتات والشعارات الكبيرة «البروليتاريا الخارجية تنتظر الينا بحسد» وعندما عينت مديرا لمطبعة مؤسسة (ام - اى - اى) كان بإمكانى التأكد من ان في موسكو يوجد عمل سرى للشيوعيين .. عدا تلك الكتب المعهودة التى تروج النظرية الشيوعية والتي كنا نطبعها كان على ان اقوم بتزوير جوازات سفر الدول الاجنبية الاخرى.

هكذا فكرت في كل الاشياء وانا ارقد على الكنبه ولا يغمض لى جفن .. وفي الاطفال الصباحي اعطونا زيادة في الحساء .. كانت هي الغلظ الذي تركه الرفاق المقتولين بالامس. لذلك كانت باردة واحسست بالحم شديد في معدتى .. ثم تفلقم وزادت حدته .. وطرقت الباب اطلب نقل للطبيب ولكن دون جدوى .. حتى دورة المياه منعونى من الذهاب اليها .. واضطرت الى استعمال الجردل الموضوع في الزنزانة «براشاء» امام اعين الجميع ونزفت وبصعوبة سحبت جسدى الى مكانى وراقت في الحال وعندما حان ميعاد الغداء لم استطع النهوض واحضر لى الرفاق الطعام ولكنى تركته لهم ورغم الالم الذى بدأ عليهم لمرضى الا انهم كانوا سعداء لحصولهم على وجبة اضافية.

في المعسكر تحت وطأة القوانين الصارمة

فترة الظهيرة حملت لي مفاجأة كبرى .. في الممر وقع خطوات سريعة خفت وأرتجت قلبي كنا نتوقع دنو اللحظات الأخيرة من أعمارنا .. ورقدت بلا حراك على الكنبه .. كان الأمر سيان بالنسبة لي .. وتمنيت لحظتها ان تكون هذه نهايتي .. ولكن حدث ما لم اتوقع قادوني ومعى خمسة وعشرون من نزلاء الرئزامة الى فناء السجن حيث وجدنا عددا كبيرا من السجناء وعجبت لعدم وجود حرس عدا اولئك الذين كانوا فوق ابراج المراقبة . ووقف السجناء في مجموعات ينتظرون .. ويتجادلون في المصير الذي ينتظرنا لم يكن احد يعلم ما يجرى ووقعت عيناى على صديق جورج وسرت نحوه واحتضنته بقوة ولكن فزع من منظرى وحدثته عن ما لم يى ولم اكن استطيع الوقوف فوضع جورج معطفه المحشو على الارض فجلست عليه واخذ عدد السجناء في الفناء يتزايد كل لحظة واخرى وفي المجموعة الاخيرة رايت جوزيف بيرقر وجرى نحوى سألنى ما بى وتحدث للجميع عن سوء صحتى .

ولكنى كنت أرى ايضا ان صحة الآخرين لا تسر انها ليست احسن من صحتى وخاصة جوزيف بيرقر الذى بدأ وكأنه قادم من القبر لتوه وضمن الجميع انهم سيرسلوننا الى سجن آخر .. ولم يكن احد منا قد حوكم بعد .. وقال البعض .
— بل سيقودوننا الى المقابر وهناك يطلقون علينا الرصاص .

واخيرا فتحت بوابة السجن الكبيرة .. وفي الناحية الاخرى راينا مجموعة كبيرة من جنود ال ن ك ق د مسلحين تسليحا تاما .. وهم يسكنون بايديهم مقابو الكلاب البوليسية التى ما ان وقعت ابصارها علينا حتى بدأت في النباح والزمجرة واستلم احد الضباط من مدير السجن حزمة من الوثائق .. وتحركنا في خمسة صفوف .. وعندما لاحظ الضابط انى اسير مستندا على اثنين من رفاقى سألنى ما بى اوضح له جورج انى مريض جدا وكان على ان اخرج من الصف حتى لا اعوق سيره وهرع احد الكلاب مكشرا انيابه نحوى وتمكن الجندى من السيطرة عليه وابعده عني في اللحظات الأخيرة .

واوضح الضابط لمدير السجن انه لن يأخذنى لاننى لا استطيع السير وسمعت هذه المحادثة فرجوت الضابط ان يأخذنى فقال لي .

— الطريق طويل للغاية ولا اريد ان تتأخر المجموعة ثلاث ساعات من اجلك .. الاصدقاء الذين كنت اتوكل عليهم قالوا للضابط بانهم سيجملوننى لنقطة النهاية دون تاخير .
وعندها وافق . وصاح بصوت مرتفع ..

— ايها السجناء .. انتباه .. في اثناء السير ممنوع الكلام او الانتقال من مكان الى آخر اى خطوة للشمال او اليمين ساعترها محاولة للهرب وسيعامل معها سلاح الجنود بدون تحذير سابق ايها الحراس استعدوا للقتال وسارع الجنود بتعمير بذائقهم ورشاشاتهم .

— الى الامام مارش .. وفي نفس الوقت تحرك معنا الحرس وعوت الكلاب .. وقادنا الطريق الى الاتجاه العكسي للمقابر .. وتصاعدت بين صفوف السجناء تهديدات تنم عن الراحة والخلاص .. وبالرغم من المرض احسست باننى قد تحسنت .. ولكن ذلك لم يدم طويلا وشعرت بعدها بالمرح ولم استطع السير بعدها وبركت على ركبتي . وبصعوبة استطاع

رهقي ان يمنعوني من السقوط... ولاحظ الضابط حركة غير عادية في الصفوف فامر بالتوقف واقترب منها وقال لي مرافقي بان حالتى سيئة للغاية فسمح لي بالجلوس على الارض لارتاح قليلا وبعد ريع ساعة اقترب منى وسألنى .
— كيف حالك الان ..؟

— تحسنت كثيرا فامر بالسير وبعد مئات الامتار احسست بالضعف مرة اخرى ولم استطع السير واقترب منى الضابط فالتمسست منه ان يسمح لي بالخروج من الصف وعندما سمح لي مشيت متكئا على رفيقى بجانب القافلة وبدأ النزيف كان الدم يسيل منى بغزارة وسمعت السجناء يقولون ..
— هذا لن يحتمل طويلا ..

وكان الامر عندى سواسية في تلك اللحظات ساكون سعيدا جدا لو استطعت الرقاد والى الابد .. وكان يجب ان ارتاح قليلا ولكن ذلك لم يتيسر وتحركت القافلة ببطء وكان الضابط يطوف بى كثيرات ويسألنى هل استطيع السير كان الوقت مساء عندما اقتربنا من عنابر عالية، قالوا انها ثكنات حرس المعسكر خيل الى انها الابدية ومررنا بحواجز من صفوف عديدة سورت بالاسلاك الشائكة وعلى طول هذه الاسلاك رايت ابراج المراقبة والحراس وفى الاعلى نصبت الانوار الكاشفة التي انارت السور الشائكة واخيرا وصلنا باب خشبي كبير به لافتة كتب عليها «نورلاق ن ك في د القسم السابع للمعسكر».

ذهب الضابط الى منطقة الحرس بالقرب من الباب ثم يعاد ونادى على لاجئ من الصف وتوكلت على صديقى الى منطقة الحرس وهناك كان في انتظاره طبيب سألنى ثم فحصنى بدقة وقال للضابط.

— يجب نقله فورا للمستشفى

وقال الضابط ان ذلك ليس من اختصاصه وبعد ان يسلمنى للمسؤولين هنا. يمكنهم ان يتصرفوا بما يشاؤون وساله الطبيب ان كان بالامكان اصطحابى الى العيادة اجاب الضابط انه لن يسمح بذلك . وكان على ان اخرج للممر وبركت على ركبتي لست ادرى كم من الزمن رقدت ثم شعرت بهم يضعوننى على نقالة حملونى بها للعيادة حيث اعطانى الطبيب سفوفة ابتلعتها فورا رقدت في العيادة حتى منتصف الليل .. وعندها حضر كاتب السجن وخطر الطبيب بانه غير مسموح لي بالمبيت هنا .. بل يجب ان اذهب للعنابر ولم يستجب له الطبيب .. تباطأ في تنفيذ الامر وابقانى حتى الصباح في العيادة .. وكان دائم السؤال لي كيف اشعر واحضرت لي الممرضة شايبا دافئا .. وفي الصباح حضر مدير القسم الصحى .. وخطره الطبيب بحالتى الصحية ففحصنى وتحدثا بمصطلحات لاتينية لم افهمها وقال مدير القسم الصحى.

— يجب ارساله للمستشفى

— لقد اردت نقله الى هناك بالامس: ويجب الحصول اولا على تصريح من ادارة المعسكر .. وذهب مدير القسم الصحى الى ادارة المعسكر وعاد سريعا وهو يقول.

— يظهر ان جرمك فظيع رهيب .. لقد رفض مدير المعسكر فكرة ذهابك للمستشفى . وبعد ذلك جاء بوليس المعسكر وبصحبة الطبيب قائدونى من العيادة كان المعسكر الذى مررنا به سلطنا ليس به حياة، سوى دخان يتصاعد من مدخنة المطبخ كانت المباني محاطة

بصفين من الاسلاك الشائكة وتلك هي زنزانة الحبس الانفرادى ،كلرس. ودنونا من هدفنا في منتصف الساحة الضيقة يوجد عنبر خشبي كبير كسيت نوافذه باخشاب السقالات واحيط بقضبان حديدية السلحة كانت محاطة بحاجز سلكي .. وفي كل ركن قبعتم ابراج المراقبة جاء الحارس عن ضغط الجرس واستقبلنا بعد ان سلموه قضاصة من الورق .. واخبره الطبيب اني مصاب بمرض معد ويجب عزلي عن السجناء الاخرين.

وضحك الحارس بصوت مرتفع واجاب الطبيب قائلا ..

— هناك غرفتان كبيرتان فقط .. تسع الواحدة منهما خمسين شخصا فقط ولكن الان بها اكثر من مائة وخمسين سجيناً .. فلا يمكن ان نتحدث عن قصة العزل هذه وسيكون سعيدا اذا وجد لنفسه مكانا.

— اذننا ساحاول الحصول له على اذن لنذهب الى المستشفى .. وقالني الحارس الى العنابر .. فتح قفلين كبيرين وادخلني في برودة ويعدها فتح الباب الشمالى وسمح لى بلز ادخل قائلا ..

— يا اخوة افسحوا مجالا للمريض ولكن لا تقتربوا منه فهو مصاب بمرض معد .

وفي نفس اللحظات هرع الى اصدقائى ومن بينهم جورج قلادوني الى نهاية الغرفة .. ووجدت لنفسى مكانا بصعوبة شديدة شعرت للحظات ببعض التحسن لانى سعدت ببقاء اصدقائى ثم تدهورت حالتى بعد ذلك ساعت للغاية .. واخطر الرفاق الحارس ساعة الغداء لينقل اخبار صحتى المتدهورة جدا للطبيب .

مرة أخرى فى المستشفى المركزى

بعد الظهر .. على غير المتوقع ظهرت عربة الاسعاف .. الرفاق الذين شاهدوها جاعونى مستبشرين واخبرونى اننى سأنقل الى المستشفى. دخل ممرضان بصحبة الطبيب الذى كان مسرورا لنجاح مساعيه فى ارسالى الى المستشفى.

خلال الرحلة السريعة مررنا بنورلسك. توقفت عربة الاسعاف امام قسم الامراض المعدية فى المستشفى المركزى لمعسكر نورلسك.

كنت اعرف الجميع هنا، فقد قضيت بها شهرين من قبل فى قسم الجراحة. كشف على الطبيب المنلوب كشفا دقيقا، وامر بنقل الى القاعة رقم ٢ .. وكان قسم الامراض المعدية مكونا من اربعة اجزاء .. ثلاثة اجزاء منها بكنيات ذات طابقين عاديتين كالتي فى عنابر المعسكر .. ولكل مريض مرتبة من القش ووسادة وغطاء. وكانت نظيفة للغاية.

اخذوا ملابسى واعطونى بنظالا ازرق اللون، ومعطفا خفيفا بنفس اللون ولم يكن لدى مكان خال فى الكنية السفلى .. فامرت الممرضة المريض الذى خفت حدة حالته ان يصعد الى الكنية العليا .. وبذا حصلت على مكانه.

وكنيت سعيدا جدا، فها انا ارقد على مرتبة من القش، واستطيع ان اتغطى بغطاء بعد زمن طويل .. واحضرت لى الممرضة سفوفة فشريبتها، ونمت حتى المساء وعندما صحوت وجدت ممرضة النهار قد غيرت الوردية وسلمتها للممرضة المساء .. وكنيت اعرفها من قبل اسمها بيجانكا السى .. قابلتها عندما كنت اعمل فى الشبيبة الشيوعية فى المجموعة الثالثة عشر بمنطقة فينا.

وكانت السى قد حضرت فى عام ١٩٢٠ مع اختها الى موسكو .. فى الايام الاولى كنا نتلقى رسائل من الاختين ونحن فى النمسا. تصفان فيها الحياة بروسيا. ثم انقطعت هذه الرسائل. وعندما عدت الى فينا فى عام ١٩٣٢ سألت احد اصدقائى عن الاختين وما حل بهن. قال لى، انهن قد اصبن بحادث عندما كن يتسلقن جبال القفقاز. وفى نورلسك حدثونى بانه توجد بمعسكر النساء امرأة باسم بيجانكا .. ولكن لم يخطر ببالى ان تكون هى بيجانكا السى كامب. وعندما تهيأ لها الظروف المناسب جاءت تعودنى سألتها.

— السى .. انت هنا ؟..

— مثلما انت هنا تماما ..

— سمعت فى فينا بانك قد اصبت بحادث عندما كنت تتسلقن جبال القفقاز.

— انا ؟.. وفى القفقاز ؟.. لم اذهب ابدا الى هناك ..

واصغيت لها باهتمام بالغ وهى تحدثنى .. كما اصغت هى وبنفس الاهتمام لما قصصته عليها.

اخبرتني انها تزوجت رجلا روسيا اسمه اولنيكوف كان احد سكرتيرى تروتسكى وعندما طرد ستالين تروتسكى الى تركيا بقى اولنيكوف فى موسكو لينظم ارشيف تروتسكى ثم قرر اللحاق به .. واستعد هو وانا للحرية من الاتحاد السوفيتى .. ولكن ال ن ك فى د ظهوروا وطلبوا منه ان يفتح صناديق الارشيف .. ولكنه احتج بالوعد الذى قطعه ستالين لتروتسكى بحمل ارشيفه للخارج .. وذهب رجال ال ن ك فى د وعادوا بعد ساعات ليلقوا

عليه القبض .. ومن وقتها لم اسمع عن زوجي اولنيكوف شيئا وبحلوني الى روسيا الوسطى .. وهناك اصيب طفلي الوحيد بالملاريا ومات.

وفي عام ١٩٣٧ القوا على القبض .. وحوكمت بتهمة التروتسكية بعشر سنوات في معسكرات العمل الاجبارية.

وحكت لي اُسى عن الظروف التي عاشتها اختها كذلك .. قالت لي .. عنها .. ان ابنتها التي كانت تدرس الطب طردت من الكلية بعد حبس امها وعملت كموظفة في مصنع للقطن بالقرب من لينينكان.

وحدثت اُسى عن النمسا .. فلم تكن تسمع عنها شيئا منذ ان تركتها في عام ١٩٣٠ .. وفي اليوم التالي حضرت اُسى مبكرة للعمل .. لانها كما قالت قد احترقت شوقا لسماع الجديد مني.

وفي ذلك اليوم علمت بان صديقي كروشي يصارع الموت في الغرفة المجاورة وتالت نفسي الى رؤيته والوقوف على احواله .. فقادتني اُسى الى الجانب الاخر من الممر.

السستر المسؤولة اخبرتني بانه ممنوع منعا باتا الدخول الى تلك الحجرة .. وبعد رجاء والحاح .. وتوسل من اُسى سمحت لي بالدخول وبحثت عن كروشي كانت الاسرة ممثلة بالمرضى .. ورغم انني مررت بها عدة مرات فلم استطيع التعرف عليه.

وذهبت الى السستر ارجوها ان تاخذني اليه ففعلت .. وقادتني الى سريره .. في اللحظات الاولى اعتقدت بان الامر قد اختلط على السستر فليس هذا كروشي ... ولكن بعد ان تعمقت وتفكرت فيه كثيرا هالني ان ارى ما تبقي من الرجل الرياضي الممتلئ الجسم .. كان رأسه كراس طفل صغير .. ووقفت بجانبه صامتا حزينا حتى فتح عينيه .. وطلعت على فمه رفة ابستامة لقد تعرف علي .. وحاول ان يقول شيئا. كانه كان يريد ان ينطق باسمي .. واقتربت منه .. دنوت حتى التصقت به ... ولكني لم اسمع شيئا.

راقبته وهو يحرك شفثيه بياس وعذاب كأخرس يلتمس الصباح .. ولذلك فقد كنت سعيدا جدا عندما دعتني السستر للخروج .. ومددت له يدي ولكن يداه اللتان رقدتا تحت الفراش بقيتا بلا حراك .. وهز رأسه بصعوبة .. وحزن وسالت اُسى عن مرض كروشي .. قالت انه احضر الى المستشفى مصابا بالدوسنتاريا .. ورقد في نفس الغرفة التي ارقد بها الان .. وكان يتحدث الالمانية بطلاقة وقد جعل ذلك اُسى سعيدة لانها استطاعت ان تحادثة .. وكانت صحته تبدو وقتها في تقدم نحو الاحسن .. حتى ان الطبيب قال له يوما.

— ستفادر المستشفى قريبا .. وفجأة اصيب بنكسة واشتد مرضه .. وارضتني حاله كثيرا واحتلت راسي افكار سوداء ..

وفي اليوم الثالث حضر موظف من ادارة المستشفى يحمل امرا بنقلني الى المبنى الرئيسي للمستشفى المركزي ولم يعلم الاطباء لماذا .. وعندما اوصلوني الى هناك قفلوني في غرفة بها شبك ثبتت عليه القضبان كما في السجن .. وكان عليها مقلقا على الدوام .. وعندما كان يعوزني شيء كنت اخبط على الباب، وانتظر حضور رئيسة الممرضات لانها الوحيدة التي كان يسمح لها بالدخول الى غرفتي .. ومن وقت لآخر كان يحضر ضابط ان ك في د ويراقب هل الجميع ملتزمون بتنفيذ الاوامر .

كان بالغرفة اربعة اسرة اثنتان محجوزتان واثنان خاليا هنا كان يرقد المرضى الذين

احضروا من السجن .. كان احدهما هو قوستاف شولر، الذى مرض مرضا شديدا مرة اخرى وحكمت عليه محكمة العسكر بالاعدام .. فقدم استرحاما وبقي ينتظر الرد عليه وفيما هو بين هذا ذاك مرض مرضا شديدا فقاوده للمستشفى.

هذا الرجل الذى لم يكن يملك القدرة على الحرب من اجل الحياة ادرك اخيرا بانه اهلك نفسه عندما اعترف بالاشياء التى لم يرتكبها قط. والان وعندما علم بان هذه الايام هى كل ما بقى له من عمر، عرف الخوف طريقه الى قلبه .. وقد استغروب جدا عندما اخبرته بان قضيتى لم تنته بعد ولست فى نزفانة السجن ولكنى فى عنابر المعسكر القسم السابع.

... كارلو .. قل لى .. انت بطل اذا استطعت ان تخوض معركة كهذه. نعم.

اما المريض الثانى فكان مجرما.. ويدا فى السجن اضرابا عن الطعام وقد جعلوا يغذونه صناعيا.. اضرى عن الطعام لمدة شهرين.. وفى المساء كنا نسمع كيف كان ياكل السكر والخبز.. كان متاكدا ان اخلاقيات السجناء السياسيين لاتسمح لهم بان يشوا به.. الطبيب الذى اشرف على علاجه.. كان يعمل رئيسا لقسم الباطنية بالمستشفى المركزى، واسمه دكتور ملردانا.. من استونيا.. ويقضى فى سجن نورلوك عشر سنوات سجنا.. كان كثير الاهتمام بمصير السجناء المرضى.. وكان يتولى الاشراف كنائب لرئيسه ومديرة المستشفى الكسندرا افانوف سيليكوف..

وكان السرور يبدو على المرضى كلهم حين يحضر دكتور ملردانا بقرى اسرهم.. كان ذا لحية طويلة شهباء.. نظراته دائما صافية..

وعندما علم دكتور ملردانا بحكاية سجنى المتقطع وما صادفته من مرض وارهاق، مس ذلك شغف قلبه

كان ياتى لزيارتي فى غرفتي عدة مرات، حتى يطمئن الى صحتى.. وذات يوم دخلت غرفتنا الكسندرا سيليكوف، وعندما اقتربت من سريري استغربت لرؤيتى هنا.. وطيبت من خاطري كما كانت تفعل دائما.. وعند خروجها تمننت لى شفاء عاجلا.. واصابنى سرور حقيقى واصيل لى رؤيتى لتلك المرأة النبيلة..

فى الثلاثين من سبتمبر عام ١٩٤٢، دخل الى غرفتنا مدير السجن ومعه جنديان.. واقترب المدير من السرير الذى يرقد عليه قوستاف شولر وسأله.. ما اسمك؟

ونظر اليه شولر بعينين جاحظتين مسمرتين، ولم يجب بشيء فلم يكرر المدير سؤاله وانما قال له.. هل لك حاجيات هنا؟...

... ملايسى فقط، الاشياء الاخرى فى السجن..

واحضرت له الممرضة ثيابه فارثداها فى بطء شديد وكان يخطئ عند اللبس، ومن ذلك انه ارتدى البنتال دون ان يرتدى ملايسه الداخلية ولما اراد ان يصحح هذا الخطأ قال له المدير..

...هههه.. هذا الآن، لسنا بعيدين عن السجن.. هناك سوف ترتدى مرة اخرى وكنت سعيدا

لانه لم يكن سلخرا..
ولم يجزؤ قوستاف على الاقتراب من سريري، ولكنه اوما لى برأسه وخرج.. وعندما
اقتلوه حضر دكتور ماردانا.. ووقف بعض الوقت بجانب سريري دون ان يتكلم.. وبعدها
استدار وخرج..

وبقيت مع المجرم بمقرنا في الغرفة.. فقال لى:
- ذلك الذى اقتلوه سيعدم بالرصاص.
- لا اصدق.. اعتقد انهم اصدروا عفوا عنه..
- لا تتكلم عبطاً.. هل رأيت ابدا ان الجنود يحضرون للمستشفى انهم يأتون فقط عندما
يريدون ذبح شخص ما..
- اسكت..

بعد ذلك بيومين مرض دكتور ماردانا.. وحل محله دكتور ميلر وهو المانى من لينغراد..
كان دكتور ميلر في المرة الاولى عندما لزمتم سرير المستشفى ياتى الى كثيرا ونتحدث
بالالمانية.. ولكنه تظاهر الان بعدم معرفتى.. وعندما اساله شيئاً بالالمانية، كان يجيبني
بالروسية..

ويوما سالت دكتور سوهوركوف ليفسر لى موقف دكتور ميلر فقال لى..
- عندما تقدمت الجيوش الالمانية.. كان دكتور ميلر ينتهن كل فرصة ليتفاخر باصله
الالمانى.. وحتى مع اطباء اليهود تحدث بلهجة خطيرة.. والان وعندما اخذت الجيوش
الالمانية في الانسحاب، اصبح دكتور ميلر روسي الاصل، اما اسم عائلته الالمانى فهو توافى
في الاسماء ليس الا.. وعاد يؤاخى زملائه اليهود ويبدى اشمئزازاً من جرائم الالمان..
المجرم الذى كان مضرباً عن الطعام تعرض لسبب قاس من دكتور ميلر لانه يسبب
للسلطة السوفيتية مشغوليات كثيرة، وان سلوكه ذاك سلوك عدواني..
وذات يوم جاعنى دكتور سوهوركوف ومعه كيس من القماش وبه سكر وقال لى..
- هذا ارسلته لك اولفا..

لم تتجرا اولفا على زيارتى لانها مراقبة.. الممرض موروزوف كان مكلفاً من ال ن.ك.ف.د.
بمراقبتها.. وقد اخبرها موروزوف بهذا وطلب منها ان لا تبوح بسر..
يقع المستشفى المركزى في منطقة القسم الخامس للمعسكر.. ولذلك فكثيراً ما انظر من
النافذة، لاراقب كيف يمر الاصدقاء والمعارف.. كثير من الاطباء علم بوجودى في
المستشفى.. وكانوا يملكون ويحيوننى، احد الممرضين احضر لى قطعة من الدوبار ربطت
عليها كيساً صغيراً وانزلته من الشباك وهكذا حصلت على البريد والهدايا الصغيرة.. بعض
الخبز، وبعض السكر كلهم كانوا تواقين ليعرفوا شيئاً عن صحتى..
وفي يوم كنت اقف قرب الشباك.. وعند اللحظة التى جربت فيها الكيس دخل على دكتور
ميلر..

- ماذا تفعل؟.. الا تعلم انك تحت التحقيق، وغير مسموح لك الاتصال بالعالم الخارجى؟..
واجبته بهدوء تام..
- كنت اعتقد انك طبيب ولست من ال ن.ك.ف.د..
- انا وطنى.. سوفيتى.. ولن اسمح لك في المستشفى بمواصلة اعمال الثورة المضادة..

واخرجت من الكيس السكر القليل الذى حصلت عليه فى تلك اللحظة، ووجهته الى ميلر..

- هذا دليل نشاطى فى الثورة المضادة..

وانتزع دكتور ميلر الكيس من يدى ورمى به من الشباك..

وفى اليوم التالى اخرجونى من المستشفى بحجة انى قد بلغت تمام الصحة.. وكان وزنى حينها سبعة واربعين كيلو جراما فقط، فى حين ان المعدل الطبيعى لوزنى هو اثنان وسبعون كيلو جراما..

بصحبة اثنين من صف ضباط الن.ك.ف.د اللذين تسلحا بالبنادق الاوتوماتيكية تحركت من المستشفى المركزى، التى كانت تقع فى وسط تورلوسك، الى القسم السابع من المعسكر باطراف المدينة..

كانت المسافة حوالى الثلاثة كيلومترات ، مشيتها فى خمس ساعات احد من رافقانى كان شابا مهذبا.. وعلى الرغم من انه لم يتحدث معى بشئ.. الا انه كان يبدى تعاطفاً معى..

اما الثانى فكان كلبا بوليسيا بحق، ليس له من الانسان الا ملامح وجهه

وفى كل مرة اساله فيها لىسمح لى براحة قليلة كان يسببنى بالقدح الفاظ.. وسالته.. لماذا تسببنى؟..

- وانت لماذا لم تمت؟..

- يرسل الناس عادة للمستشفى للعلاج لا للموت..

- كان يجب تسميكم جميعا كالفئران..

ولم اجبه..

الجزء الثالث

بائوف الحيوان

عندما نظر الى حارس السجن اصابته دهشة بالغة، قال لى...
— انت هنا مرة اخرى؟ من كان يصدق بانك ستبقى على قيد الحياة؟
سمعت فى القسم الصحى بانك قد مت.

وهنا ادركت ان استفسار القسم السابع للمعسكر عنى، اجابت عليه المستشفى بانى مت.
فى العنبر قابلونى بفرحة صادقة.. وبعضهم قال ان صحتى تحسنت واخبرتهم باختصار
عن الذى جرى لى.

ثم علمت ان الاحوال غير جيدة وغير مريحة اطلاقا.
فى الخامسة صباحا نستيقظ ونخرج من العنابر الى الساحة، الاصحاء والمرضى جميعهم...
البوليس يحرسنا بالعصى الخفيفة.

ثم يقرأ رئيس الحرس أسماء الذين اعفاهم الطبيب من العمل ليعودوا مرة اخرى للعنابر..
اما البقية فعليها ان تتوجه للعمل.

لم اكن ادرى كيف أستطيع ان اعمل وأنا بهذا الضعف.. رغم انه يتوجب على الاستعداد
لكل شىء..

اقطربنا على حساء رؤوس السمك، وقليل من عصيدة الشوفان.. لم استطع الاكل.. ولم
استسغه، افسدنى طعام المستشفى الجيد.. وكان بحوزتى بعض الخبز الجاف فاكتفيت
بالماء الساخن (كبياتوك).

جاء الطبيب الشاب وهو من لتفانيا، عرضت عليه نفسى فاخبر رئيس الحرس
باعفائى من العمل.. وأمر أن يحضرونى له فيما بعد بالعيادة وبقي معى فى العنبر ثلاثة
مرضى.

كان علينا تنظيف العنبر نحن المرضى ونقل جردل قضاء الحاجة، والتنظيم وايقاد المدفأة..
وقمنا بما علينا.

قبل منتصف النهار قادونى للعيادة.. وكشفت على لجنة من الاطباء وابدوا - استغرابهم
لتعجيل خروجى من المستشفى وأنا لم ابلغ الشفاء بعد رافقنى الطبيب الشاب اللتفانى
الى العنبر واخبر الحارس باعفائى من العمل.. وبانه سيبلغ الامر لادارة المعسكر..
ووعدنى بغذاء المرضى الخاص.

بقيت على سريرى ارقب الاشياء فى العنبر.. الكنبات خالية، فقد اخذ المجرمون الاغطية
معهم للعمل.. البنطال كان هو المرتبة.. الجاكت أصبح وسادة، المعطف المحشو للغطاء..
ومن كان يملك بشكرا فهو سعيد لانه يلفه على عنقه.

كان المساء قد حل منذ وقت طويل عندما عاد الرفاق من العمل.. اسرعوا يلتمسون شيئا من
الدفاء وقد تعلقت على وجوههم حبات الثلج فغيرت من أشكالهم. ايديهم كانت متيبسة من
البرد فلم يستطيعوا فك الزائر وحل اربطة الملابس.

قمت بمساعدتهم قدر طاقتى.

وبعد أن نالوا مايبتغون من الدفاء شرعوا يتحدثون.. وجاء العشاء فقام بتوزيعه رئيس
العمال مع مساعديه.. الطعام كان نصف لتر من حساء الكرنف وقطعة من السمك المملوح..

وربما عسيده ايضا. وفي تلك الليلة تناولت عشاء السجن اما طعام المرضى فقد حصلت عليه في اليوم الثالث.

بعد العشاء هذا الناس قليلا.. وارتخت الاعصاب والعضلات.. وبدأ يبيب الحياة يسرى في السجناء.. فتعالت بعض الضحكات..

حكوا ملحدث في ميدان العمل.. دائما كان هناك الجديد.. والمثير ضرب الحرس شخصا حتى لوشك على الموت.. رموا آخر بالرصاص في محاولة للهروب.. الخ

بقيت في العنبر لمدة اسبوعين.. لم يجبروني على العمل. شاركت متطوعا بعض المرضى في اشغال المدفأة.. وقمت بتريق ملابس الرفاق الممركة.

وتحسنت صحتي

وفي يوم، قال لي الطبيب غدا يمكن ان تذهب للعمل.

كانت ملابسى وحذاءى تحتاج لاصلاحت وترقيع فانجزتها.. وكانت قفازات يدي ممركة ومهترئة

وفي اليوم التالى وفتت في الصف.. من عنابر السجن الى الباب الرئيسى مشينا تحت حراسة بوليس المعسكر.

نزلنا طريقا منحدرا قادنا الى ساحة وسط غابة.

هنا كان علينا ان نجتمع الحصى.. وكان الطريق الى هذا المكان يمر عبر منطقة المعادن.

للسجناء الذين كانوا يعملون في الوردية تركوا اماكن عملهم لبعض الوقت ومروا علينا بحب استطلاع كبير.. لم يكن ممكننا التعرف على احد بسبب الملابس.. وكان الحرس

يؤجرهم ويبعدهم عنا فيفرون الى اماكنهم.

وفي اثناء السير كان الحرس يراقبنا بيقظة ودقة.. ليتأكد اننا نسير.

في نفس الطريق.. وكثيرا ماكننا نقف لنسمع سباب القائد وتهديده باستعمال السلاح.. اما اذا انزلق احدنا او وقع في الجليد، كان عقابنا الركوع على الجليد لمدة ربع ساعة.. وفي تلك

الاثناء كان الحرس ينهال علينا سبا باشنع وابشع الالفاظ.

وكنتم سعيدا عندما وصلنا الى مكان العمل.

وقفنا امام كوخ صغير من الخشب..

قائد الحرس، ومدير موقع الحصى، ورئيسنا، ذهبوا الى مكان العمل ليوضحوا لنا واجباتنا..

مكان العمل كان محاطا بالافات رسم عليها راس انسان ميت (جمجمة) وكتب عليها (منطقة محظورة).

أخذ الجنود مواقعهم حول مكان العمل.. وبدأنا في الحفر.. حفرنا كتل الجليد الكبير.. ونبشنا الحصى المتجمد تحتها بالمجاريف والمعاول والعجلات. وحملنا الحصى على العربات

الى مكان التجميع.

كل مجموعة كانت تتكون من ستة رجال.. اربعة منهم استخرجوا الحصى ووضعوه على العربات.. واثنان دفعوا العربة الى مكان التحصينات. لم نشعر بالبرد رغم ان درجة

الحرارة كانت منخفضة جدا.. كان العمل صعبا للغاية والمعدل الاحصالي كان عاليا.

ورغم ذلك كان علينا أن نكثف العمل.. الذى يببطء كان الجنود يجعلونه يخلع معطفه المحشو.. وذلك يرغمه على العمل بسرعة حتى لا يتجمد من البرودة. وإذا رأى الجنود أن هذا لا يساعد جعلوه يعمل بالقميص.. وبعد زمن قصير رقد السجناء هناك وناموا للأبد.

كانت مواعيد العمل من الساعة الثامنة صباحا وإلى وقت الظهيرة بلا راحة أو توقف قط.. أما الحرس والكلاب البوليسية فيغيرون كل ساعتين... بعد العمل يحصل رئيس الحرس من إدارة العمل على اتصال كتبت عليه النسبة المئوية لمعدل الإنتاج التى أعطيت لنا وكان الحرس يحصلون على جوائز كلما كانت المعدلات كبيرة.. أما إذا نقص المعدل فالويل لنا من غضب الجنود عند عودتنا..

كانوا يقودوننا فى عمق الجليد ولا يسمحون لنا بانتهاك نظام الصفوف.. وكل خمس دقائق يوقفوننا ويصبح فينا رئيس الحرس..

— نعم.. كيف يعجبكم هذا
ساعلمكم كيف تعملون..

ورغما من ذلك كان مدير العمل يراف علينا ويمنحنا أيضا كتب عليه بأننا أنجزنا المعدل الإحصائى المطلوب فى العمل بنسبة ١٠٠٪..

وبعد العمل الشاق والبرد القارس كنا نسر جدا بعودتنا للعنابر الدافئة وحساء الكرنب.. وبعد الأكل لم تكن الأوانى فى حاجة للغسل، فأننا نكون قد غسلناها جيدا بأصابعنا والسنتنا.

أثناء توزيع الخبز فى العنابر تحدث المشاجرات الدامية، رغما عن محاولة رئيس العمل الذى كان مسجوناً سياسياً، أن يكون عادلاً - ومنصفاً، فهو يعطى الذين أنتجوا فى العمل كميات أكبر من المتكاسلين ولكن بعض المجرمين كانوا يريدون أكثر من استحقاقهم.. وذات يوم تعدى أحد المجرمين على رئيس العمل بسبب الخبز وأسفل سكيناً وأصابه بخمس عشرة طعنة.

وأخذنا نصيح فى طلب المساعدة ولكن لم يحضر أحد.. وامسكت أنا بقطعة من الخشب ورميته على الشباك بقوة.. وعندما أطلق جندى فى برج المراقبة عياراً نارياً.. فهرع بوليس المعسكر الى العنابر.

ومات رئيس العمال الطعين وهو فى طريقه الى المستشفى.

وبعد اغتيال رئيس العمل أصبح الرئيس الجديد من المجرمين.. فكان يعطينا سطح الحساء ويعطى النصف الأسفل الدسم لرفاقه المجرمين... وبذلك أنهارت قدرتنا على العمل بسبب نقص الغذاء.. وقل إنتاجنا وتدنّى.

ولم نعد نحصل على اتصال المعدل الإنتاجى لأن المدير لم يشأ تحمل مسؤولية ذلك الإنتاج الضعيف.

وفى ذات ليلة سمعت صيحة حادة تشق صدر السكّون وتوقظنى من النوم.. وقتحت عيني..

كان فى منتصف العنبر تقف مجموعة من الحرس وهم يتمايلون سكرًا ويتصايحون — فأنستيون .. انصار الثورة المضادة. تروتسكيون.

- ماهذه الكدمات؟.. من فعل بكم ذلك؟
 - عدا العمل الشاق.. علينا ان نتحمل الضرب والاهانة والاذلال.. وخرج المدير من العنبر دون ان ينطق بكلمة.
 وعندما حضرنا في اليوم التالي للعمل كان بانوف ثائرا متحفزا كالنمر.. دعى كل الذين شكوا للمدير بالامس.. وجعلهم يعملون في مكان واحد وقال:
 - اذا اردتم العودة الى العنابر احياء.. عليكم الوفاء بالمعدل الاحصائي للعمل.. ساريكم انا لمن تشتكون..
 وعندما حان وقت العودة.. رأى بانوف بان المجموعة اكملت خمسين بالمائة من المعدل الاحصائي للعمل فصرخ فيهم..
 - ماذا تظنون ايها الفاشيون؟.. تتحايلون ثم تريدون ان نطعمكم السلطة السوفيتية..
 لماذا تعيشون فوق الارض السوفيتية ولا تؤدون - العمل؟
 والتفت بانوف وناول المعول لاحد السجناء قائلا:
 - اضربهم به - كما كنت افعل انا.. هل فهمت؟..
 ولكن السجن لم يتحرك من مكانه..
 وساله بانوف مهددا..
 - نعم.. ماذا ننتظر؟
 وصمت السجن..
 وقال بانوف بصوت قبيح..
 - آه... انت لا تريد ضربهم؟
 - لا استطيع..
 وجذب بانوف المعول من يده بعنف واخذ في ضربه.. وحاول السجن ان يحمي نفسه بيديه.. واهاج ذلك بانوف..
 - ماذا؟ انت تدافع عن نفسك؟
 وناول البنديقية للجندى الذى كان يقف الى جانبه.. وبدأ يضرب السجن بكلتا يديه، وبكل قوته.
 وسقط السجن راقدا على الجليد.. وصاح بانوف مرة اخرى بصوت كالرعد..
 - قف..
 وبقي السجن راقدا على الجليد.. وصاح بانوف مرة اخرى بصوت كالرعد ولكن السجن بقي بلا حراك... وجرى بانوف الى الكوخ الخشبي واحضر جردلا من الماء الصافي وصبه على السجن..
 - الان سوف نرى هل ستنهضه ام لا؟
 ولم يتحرك الرجل.. ونادى بانوف على رئيس العمال..
 - اوقفه على رجليه..
 ورفع رئيس العمال.. ولكن الرجل سقط مرة اخرى..
 كان ميتا..
 وعندما عدنا للعنابر، لم يفكر احد في العشاء..

وتبع ذلك الفاظ جارحة قبيحة.
ومن على الكنبات جروا عددا من السجناء السياسيين، ورموا بهم على الأرض وداسوهم
بالأحذية الثقيلة وهم يصيحون فيهم..
- سنريكم كيف تعملون..

وقضوا على واحد من السجناء السياسيين أمسكوا بعنقه وهم يصرخون - هل ستعمل
جيذا.. هل ستفنى بالمعدل الإحصائي للعمل؟.. ولم يستطع الرجل البائس أن يجيب.. وأثار
ذلك حفيظتهم فظلوا يضربونه بقسوة على رأسه.. وبعد نصف ساعة جاء جندي غير ثمل
وأستطاع أن يخرج الجنود السكارى من العنبر.
وفي اليوم التالي عذبونا بعنف وقسوة.. وعندما يشكون في أن احدا منا لا يعمل كما
يريدون.. يستدعيه رئيس الحرس بانوف وينهال عليه ضربا ولكما وركلا.. ولكزا ببندقيته
القصيرة وهو يصيح.
- هذا ماسيحصل عليه كل من لا يعمل جيذا.

وفي ذلك اليوم ضربوا عشرين رفيقا ضربا مبرحا أعجزهم عن الحركة. وكنا نبذل كل طاقاتنا
لنعمل، حتى لا ننتهم بالتقصير.

وفي المساء، قبل عودتنا للديار، القى بانوف علينا خطبة قال فيها
- أنا ذاهب الآن الى المكتب لأحضر الإيصال فإذا وجدت أنكم لم تصلوا الى معدل الانتاج
المطلوب، ساعدكم رميا بالرصاص جميعاً. وأنهرنا.. لم يعد أقوى الرفاق قادرين على
الوفاء بمعدل الانتاج المطلوب لأرضاء الجنود السكارى، مهما فعلوا وبذلوا..
وآزاد غضب أفراد الحرس علينا يوماً بعد يوم.
بانوف ومساعدوه ظلوا كل يوم لا يذهبون الى منازلهم الا بعد أن يكونوا قد أشبعوا واحدا
منا ضربا يكاد أن يصل به الى حد الموت.
يضربون الضحية بمؤخرة البندقية حتى يسقط أرضا.. ثم يضربونه أيضاً بقسوة حتى
يقف.

ولا يستطيع المسكين.

فنحمله حملا الى المعسكر.

ومرة حضر الى العنبر مدير قسم العمل.

وسأل رئيس العمال..

- لماذا ضعف إنتاجكم؟

- أنا نفسي لا أدري ماذا افعل مع هؤلاء الفلأست لا رغمهم على العمل.

وعندما سمعنا ذلك.. خرج واحد منا وقال:

- المواطن المدير.. ليس هذا صحيحا.. أننا لا نرفض العمل بجد.. كلنا يعمل فوق طاقته..

ولكن انظروا الى هؤلاء الرجال وأشار بإصبعه للذين يقفون بجانبه - واستمر يقول:

- هل يستطيعون الوفاء بالمعدل الإحصائي للانتاج؟

هذه الكلمات شجعت السجناء الآخرين ليخلعوا قمصاتهم المتسخة. ويعرضون عظامهم

الهزيلة، المكدودة من الضرب..

وسأل المدير.

وتعالى صوت بصيح ..
- الى متى نحتمل هذا ... ؟
الا يكفي الجوع والعمل الشاق ... ؟
هل سيقتلوننا هكذا . ؟
وعندما سمع رئيس العمال ما قال الرجل . اسرع نحوه ..
- اتعرض الرجال ... ؟ ضد من تحرضهم ... ؟ ضد السلطة السوفيتية و اراد رئيس العمل ان
يضر به .. ولكن السجن لوى ذراعه والقي به على الارض .
وهرع اثنان من مساعديه لنجده و لكنهم واجهوا نفس المصير . وعندما احضر الحارس
العشاء . طلبنا منه ان يحضر لنا احدى من ادارة المعسكر و اخطر السجن الضابط
النوبتجى .
وكننت اقف فى الصف لانال نصيبى من العصيدة ، عندما دخل علينا الضابط فى العنبر .
وصاح الحارس
- انتباه ...
وسال الضابط ..
- من الذى نادى على ... ؟
وتقدم احد السجناء وقال :
- انظر ماذا يجرى هنا .. عدا العمل الشاق والضرب المبرح الذى يتكرم به علينا الجنود .
عدا كل ذلك يواصلون ضربنا هنا فى العنابر .
- اين رئيس العمال ... ؟
وفى اللحظة التى تقدم فيها رئيس العمال صاح الضابط قائلا :
- يا وجه الشؤم ، يا حثالة العصابات والبلطجة ماذا يحدث هنا ... ؟
وحاول رئيس العمال بالحجج المعهودة ان يسيىء الى السجناء ..
- هؤلاء الفاشست لا يريدون ان يعملوا .
وقاطعه الضابط ..
- اعلم ذلك جيدا .. انت العامل الوحيد .. اما كل الباقي فهم السيئون .. الى الامام .. زنازة
الحبس الانفرادى السادية (كارس) وفى اليوم التالى حضر نفس الضابط الى العنبر
وبصحبته ملاحظ قسم العمل .
وبعد ان تحرى فى كل الشكاوى ..
اختار السجناء رئيسا جديدا للعمال .
كان رجلا قد حكم عليه بخمس سنوات سجنا بتهمة الغش . وفى زمن الحرب واجه اتهام
تحت المادة ٥٨ لانه فى حديث مع بعض السجناء سمى الاخبار التى يذيعها مكتب الاعلام
السوفيتى بانها كاذبة ..
وينتظر النول امام المحكمة .
كان اسمه سابكار .. تصادق فى الحال مع رئيس الحرس وحدثهم بما يجرى امس .. فى
العنبر .. ورائنا كيف يشير باصابعه نحو السجناء الذين تظلموا .
ولكن فى ذلك اليوم تركنا الحرس وشأننا .. لم يعترض احدهم طريقنا عند عودتنا للعنابر ..
كان ذلك اول مساء نعود فيه بهدوء ..

وفي العنابر كانت تنتظرنا لجنة من الاطباء..

خلعنا ملابسنا ووقفنا عراة.

هؤلاء الاطباء الذين راوا من قبل رجالا كثيرين اصابهم التعذيب فاجاهم منظرنا . وهزتهم شكواؤنا..

وقال رئيس الاطباء..

- لا تشكوا شيئا.. اننا نرى باعيننا، فالامر واضح لايحتاج الى تفصيل وفي اليوم التالي للكشف الطبي علينا اعلنوا بان المعدل الاحصائي للعمل قد قل بنسبة ستين بالمائة.

وسر الكثيرون..

قالوا سنعمل قليلاً من الآن.. ولكن البعض الآخر اكد اننا لن نستطيع حتى لو بذلنا كل جهد ان نصل الى هذا المعدل الاحصائي الجديد للعمل.

ومع ذلك التخفيض اختفى بانوف.

رئيس الحرس الجديد لم يهتم أبدا ان كنا سنحقق المعدل الاحصائي المطلوب ام لا..

كان لا يسب احدا منا قط.. وله اساليبه وطرقه الخاصة.

عند توزيع الاكل بقيت عنده وجبت كثيرة وعد بها الذين يصلون الى المعدل الاحصائي للعمل.. وتحدث كذلك بان المدير وعد بجائزة هي عبارة عن طرد صغير من الدخان..

وكانت تلك وسائل جذبة.. غير ضارة.. ارغمت السجناء على العمل فوق طاقتهم...

وبعض مضى زمن قليل.. اصبحت السلطة غير صارمة..

الاكل من المطعم لم يعد يحضره بوليس السجن.. وانما يحضره السجناء بصحبة

البوليس.. وبالقرب من نافذة المطعم تلاقى كثيرون من المعارف والاصدقاء القدماء...

فساعدوا بعضهم البعض بقطعة خبز او ابتسامة. وذات يوم كان دورى للذهاب الى

المطعم.. انتهزت الفرصة جريت الى العنبر الذى يقيم فيه صديقى ساشا وهو طالب شاب

من ستالينجراد. كنت معه في جزر سلوفينسكى، وفي نفس الزنزانة.

لم يحصل ساشا من عائلته على نقود قط.. وكنت اعطيه النقود والاكل والدخان..

وقد وجدته في العنبر يجلس بالقرب من المنضدة ويقرأ كتاباً.. حدثته في اقتضاب عن

الوضع الصعب السيء الذى أعيشه.. واوضحت له بانه ليس عندى متسع من الوقت.

ولكنه قاطعنى ببرود شديد قائلا:

- عندما يكون الانسان في السجن، فانه ليس بحاجة لان يزجج الآخرين..! ثم انه وانت

تعلم.. ليس من المسموح به الذهاب الى العنابر الاخرى!!!

وجريت من العنبر..

حز في نفس كثيرا ذلك اللقاء..

هذه الليلة لم اشعر بالجوع ابدا

ودعونا مرة اخرى امام لجنة الاطباء..

وقد توصلت هذه اللجنة الى حقيقة مفادها ان اغلبيه السجناء في العنابر يعانون من سوء

التغذية الحاد، ومرض الاسكربوت - الدرجة الثانية والثالثة.

وبعد مضى وقت قليل وصلت اوامر بان يحول المرضى المتدهورين من عنابر السجن الى

المعسكر.

كان من بين الذين بقوا في عنابر السجن جوزيف بيرقر.. كما بقيت انا ايضا.
وقد تحسنت احوالى منذ ذلك الوقت تحسنا ملحوظا.. حاول جوزيف بكل جهده ان
يساعدنى.. احضر لى الخبز.. فكر فى كل الاساليب لكى يتحقق بيننا نوع من الاتصال، رغم
ان ذلك كان من الخطورة بمكان وذات يوم تحصلت من جوزيف على قطعة خبز بداخلها
وريقة كتب فيها ان كروشى قد مات..

وعلى الرغم من انى كنت اتوقع حدوث هذا الامر الا اننى حزنت جدا، وهزنى ذلك النبا هزا
عنيفا - الوريقة اطلعت عليها الالمان الاخرين لان النبا كان مكتوبا باللغة الالمانية.
وفى اليوم التالى لاحظت عندما كنا فى موقع العمل، ان رفيقنا كروك كان يذهب الى رئيس
الحرس بانوف الذى اعدوه الينا مرة اخرى.. ويتحدث اليه.

وبعد حوالى الساعة دعانى بانوف اليه.. واستغربت ماذا يريد منى رئيس الحرس..؟
وتقدمت الى الامام.. فسألنى:

- ماهى تلك المنشورات التى تطلع عليها السجناء؟

ولم اصدق اذنى.. فاجبته:

- ماذا تقصد؟ انا لم اطلع احدا على شىء

- سلمنى المنشور فى الحال والا اصابك الضرر..

كنت ادرك حقيقة موقفى.

فاذا اقف امام فاتك.. ولا اسوى عنده شيئا.. يستطيع هو ان يردى اى شخص بالرصاص
فورا ويتهمه بمحاولة الهروب.. او يضربه حتى الموت ويزعم انه تهجم على الحراس..
يستطيع ان يفعل ذلك دون ان يحاسبه احد

كنت ابحث عن الكلمات التى اقنعه بها، اننى لم اوزع المنشورات.. وصمت.. لست ادري
ان كان بسبب البرد القاسى، ام بسبب الخوف من القاتل.

- هل تريد ان تسلمنى المنشورات؟

اجبت بصوت خفيض

- ليس لدى منشور.. واعتقد ان كروك قد افترى على الكذب.

وثبت بانوف سنجة البندقية على الجليد لكى يحرر يديه..

- الآن سأخلع ملابسك واعريك تماما.. وابحث فى كل شىء.. حتى اجد المنشور.. او تتجمد
من البرد.. والان اخلع المعطف.

وفتش المعطف فلم يجد شيئا ورمى به على الجليد.

- اخلع الجاكت..

وفتش الجاكت ومرة اخرى لاشىء.. وتجمدت يدى.. واتى دور البنطال ووقفت عاريا فى
ملابسى الداخلية ارتعشت من البرد والخوف.

وفى النهاية اخرج من الجيب وريقة جوزيف بيرقر.. وعندها فقط فهمت عن اى منشور كان
يتحدث..

ولم يستطع قراءة الشىء المكتوب على الوريقة فسالنى:

- ماهو المكتوب هنا..؟

- خبر عن وفاة صديقى

- جيد .. ساسلم الورقة لقاضي التحقيق الذى يشرف عليك.. والويل لك ان كذبت ..
وسمح لى بان البس ملابسى من جديد.
ولعدة ايام بعد ذلك، لم احصل على اخبار من جوزيف.

وقد حاولت بكل الطرق ان اكون معه على اتصال.. ولكن دون جدوى وذات يوم عدنا من العمل، فلاحظت ان الرياح الجليدية تراكمت ثلوجها امام الحاجز السلكى حتى حجبته تماما.

وفي المساء كان علينا ان نحمل جردل قضاء الحاجة الى الساحة، واتفقت مع الزميل الذى رافقنى فى اداء هذه المهمة، ان يرجع بالجردل الفارغ للعنبر بمفرده.. لاننى اريد البقاء فى الساحة.

ولم يلاحظنا الحارس عندما كنا فى الساحة، فقد ابتعد عن الباب لانه كان يشعر بالبرد، وكنت قد وضعت فى حسابى مثل ذلك التصرف منه. ولم يعد يهتم بامرنا.
وعندما قفل الباب، اخذت انحف، ورميت نفسى خلف التل الجليدى.. ولم يلحظنى احد، حتى الحارس الذى كان على برج المراقبة لم يرمى. لانه ان رآى حركتى فكان سيرمينى من مكانه بالرصاص.

وعندما وصلت الى عنبر جوزيف وبخلت عليه لم يصدق عينيه.. وسالنى مضطربا.

- كيف نجحت فى الوصول الى هنا؟

- من خلف الحاجز الشائك تسللت.

- هل تعلم انك وضعت حياتك على كف الحظ؟

- نعم.. ولكن الحارس الذى على برج المراقبة لم يكن متلحا له ان يبصرنى.

وبعدما هدا جوزيف.. بعد ان سلوه القلق والشك والاضطراب.

جمع جوزيف خبزا ملا به كيس المخدة..

ثم حدثنى عن الاشياء الجديدة.

وكان على ان اعود..

وفكرت ماذا اقول للحارس..

وخطرت على ذهنى فجأة كلمات اغنية قديمة.

- كيف يتسلق ماير جبال الهملايا..؟

كنت فى موقف لا احسد عليه.

اذا عبرت الحاجز مرة اخرى سيلحظنى الحارس من على برج المراقبة، واذا لم اعبر فكيف ارجع الى العنبر؟

وقررت ان اذهب الى منزل الحرس الصغير واطرق الباب وليكن مايكون.

وخرج الحارس وصاح من السلم:

- من الطارق؟

- دعنى ادخل

ولكن الرياح القوية طمست كلماتى وحملتها بعيدا عن اذنيه فلم يسمعنى.

- اى شيطان انت.. الا تجيب؟

- انا من العنابر.. افتح..

ورغم انى قلت ذلك باعلى صوتى الا انه لم يسمعنى. وعندما اقترب منى سالنى مرة اخرى..

- من ذلك الذى يتجول؟ هل تريد ان اريك بالرصاص؟
واخيرا افهمته انتنى اربغ فى الذهاب الى عنبر السجن الخاص بى..
ودخل الحارس الى منزله الصغير وانا خلفه.. وسالنى..
- كنت تبحث عن اى شىء هنا؟
- انا من عنابر السجن... ذاك العنبر..
- انت من عنابر السجن؟
- نعم
- كيف وصلت الى هنا؟
وحدثته بالحقيقة كاملة طمعا فى عطفه.. ونظر الى طويلا ولاحظ الكيس فى يذى..
- ماذا عندك؟
- خبى..
- جيد.. انتظر حتى ياتى مساعدى وسيتحدث معك قليلا فى هذا..
وجلس على الكنبه انتظر..
كانت افكارى تاخذ ابعادا مفرعة.. سينتزعون الخبى منى.. ساضرب بشدة.. وسيقودونى
الى زنزانه الحبس القاديبية (كارسى).
وشعرت بالدفع يسرى فى جسدى، ففكت زرائر المعطف.. واخرجت من الكيس، قطعة
خبى، وامسكت بها لبعض الوقت فوق المدفأة.. فيتبغى قبل كل شىء ان املا بطنى من ذلك
الخبى قبل مصادرتة.
ولم يات الحارس الثانى.. وانطلقا الفحم فى المدفأة.. وبحث الحارس عن وعاء.. وجعل
يسبب الحارس المساعد لتأخره فى الحضور، ولاضطراره ان يذهب بنفسه لجلب الفحم.
وقلت له عارضا خدمتى..
- ساجلب لك الفحم..
- لن تهرب منى..
- الى اين اهرب..
اخذت الصفيحة والجراف الصغير وخرجت الى الساحة.
قضيت وقتا طويلا حتى نجحت فى تنظيف الصندوق من الجليد.. وخرج الحارس مرتين
ليرى اين انا.. واخيرا جدا توصلت الى الفحم.. وعندما عدت بالصفيحة وهى ممتلئة.. نظر
الى الحارس نظرة الرضا.. فاشعلت المدفأة وبدأت اتحدث معه.
استطعت ان اثير اهتمامه.. وتعجب لموضوع التحقيق معى مرة ثانية..
وقال لى:
- لقد وضعت حياتك على كف عفريت، حتى تسعى لهذه الحفنة من الخبى وكان من الممكن
ان تكون فى عداد الاموات.
- فكرت فى اسكات جوعى باى وسيلة من الوسائل ونسيت اهمية حياتى..
- اسمع ايها الشاب.. انت تعجبنى.. تعال وسوف ادخلك العنبر..
ولكنى انصحك ان تقلع عن امثال هذه الحماقات.
وفى العنبر قابلونى بفرحة وابتهاج شديد.. حكيت لهم مغامرتى.. ووقف بعضهم يسبنى..
ووقف البعض الآخر يشيد ببطولتى..
وافرغت كيس الخبى.. وقسمته على الاصدقاء.

وتقدم منى احد المجرمين (اوركا) وتوسل الى ان اغيره قليلا من الخبز حتى الغد.. وكنت مضطرا الى اجابة طلبه.

بعد تحويل السجناء المرضى من عنابر السجن، وصلت مجموعة جديدة الى السجن.. كانوا حوالى المائة سجين.. اغلبهم من المجرمين.. وقد زاد بلاؤنا بذلك.. جوع.. وعمل شاق.. ثم جاء النهب والسرقه والقتل.. كان الذى لا يأكل خبزہ فى الحال، يسرق منه فى الحال أيضا.. احد المجرمين وضع خبزہ على المدفأة، وذهب لاحضار الماء الساخن وعندما عاد، لم يجد اثرا للخبز.. صاح قائلاً:

- دعوا المزاح.. وأرجعوا الخبز الى مكانه..

ولم يتحرك احد.. اذن فالامر جد.. ولا احد يمزح..

وذهب الى مكان المدفأة.. واخذ بيده القضيب الذى تحرك به النار وتوجه نحو مجموعة من الشباب متهما اياهم بسرقة خبزہ.. واقسم المجرمون الشباب بقسم الاجرام، انهم لم يمسوا خبزہ.

- اعطيكم عشر دقائق من الوقت لارجاعه فان لم تفعلوا، سرى عليكم قانون المعسكر.

واخذ القضيب بيده وجعل يخطر فى العنبر جيئة وذهابا.

ولم تمض خمس دقائق حتى نادى عليه الشباب، وهمس اُحدهم فى اذنه وتلفت المجرم كالصائد المجنون.. وتوجه نحو شاب كان يجلس فى الكنبه العليا..

- لايوها.. اعطنى الخبز..

- دعنى.. فى هدوء..

وصعد المجرم الى الكنبه.. وفتشها.. فاخرج علبة كبيرة بها خبز قضم جزء منه.

- يا.. نوة.. انظروا - هذا لديه خبز كثير لا يستطيع اكله.

ووقف المجرمون يصيحون..

- وجب قتله، قطعة اربا.. اربا..

وبدا المجرم يضرب الشاب.. وحاول مجتهدا ان يصيبه بقضيب الحديد على راسه.. ولكن الشاب كان قد لف ملابسه حول راسه.

ودارت المعركة..

ثم فجأة قبض الشاب بكلتا يديه على راسه وصاح..

- آه.. آه.. انا لم آخذ شيئا.. لم آخذ شيئا..

وسال الدم من الخشب الى الكنبه السفلى..

وهمد الشاب.. مات..

فذهب المجرم الى الشباك وطرقه.. وبعد مضى زمن قصير دخل الحارس

- قتلت الصعلوك الحقر.. أحمله حتى لا يتعفن.

واتجه الحارس الى المكان الذى يرقد فيه القتيل وهز راسه..

- نعم.. حكاية جميلة..

وخرج من العنبر وقفل الباب وراءه.. اما المجرم فذهب الى مكانه واكل بقية الخبز الذى وجده فى العلبة.. وقال ضاحكا..

..الان سبرى ذلك الطفل من الذى سرق منه الخبز..
وكانت الساعة قد تأخرت تلك الليلة عندما دخل رجل الى ن.ك.ف.د المسئول ومعه مدير
المعسكر والطبيب..وصحونا جميعا..وكتب المحضر عن الحادث..وسحبوا القتيل والقاتل
الى الخارج.

واحتدم الجدل والنقاش فى العنبر..واختلفت وجهات النظر..
فمن قائل ان القاتل كان بريئا..ومن قائل انه سرق الخبز فاستحق الموت..والذين اتهموه
بالسرقة قالوا ان من عاداته ان يلتهم خبزه فور الحصول عليه.
اما اولئك المعتقدون فى براءته فذكروا انه شكى اليوم من وعكة ومن عدم استطاعته الاكل.
بعد يومين عرفنا الحقيقة..

كان القاتل بريئا.. اما المخطئون فهم الذين اتهموه..
رئيس العمال سابكار اختار كروك مساعدا له.. وكان الاثنان ومعهما رجلان من السجناء
يحضرون الطعام مقسما الى وجبات جاهزة..
يفعلون ذلك ان كان الطعام سلكا او غيره.. حتى يستطيعوا اختلاس جزء منه يخصون
به انفسهم.

وكان سابكار ايضا يخفى بعض الطعام فى احيان كثيرة.
ويحدث ان يكون العشاء هو الحساء ومعه العصيدة والسبك.. فيحصل السجناء على
الحساء والعصيدة فقط.. اما السبك فيذهب الى بطون اخرى.
وبعد ان مر على هذا الحال ردحا من الزمن اكتشف السجناء هذه اللعبة فتربص بهم
المجرمون وضربوهم ضربا مبرحا.. لا مزيد له.. حمل على اثره سابكار الى المستشفى.
بعد ذلك الحادث اقترح الحرس ان اكون انا رئيسا للعمال.
وعندما اخبرنى مدير القسم العمل باختبارى، صرحت بانى ارفض واجابنى بتصميم..
..سنتقوم باداء العمل الذى نكلفك به نحن.

ولم يكن لى خيار آخر، فوافقت مكرهاً.

وفى اليوم الاول نشب بينى وبين بانوف صدام عنيف.
كان المفروض ان يزال الطحلب المتجمد - فى مكان العمل - وذلك الطحلب كان سمكه حوالى
العشرين سنتمترا.. وطريقة اخراجه من اربعة جوانب ثم اخراجه من الارض.. ثم ترص
مربعاته فوق بعضها - البعض..

وذلك العمل كان يقوم به اصدقاء رئيس العمال، او الذين يعينهم رئيس الحزب بانوف...
نوع من المحسوبة بالطبع.. وقد امرت انا ان يقوم بهذا العمل السجناء الضعفاء صحيا
والهزيلون والمرضى.. ولم يعجب ذلك الامر، اولئك الذين كانوا يحتكرون القيام به.
وعن قصد، وقفوا يعلنون احتجاجاتهم وتذمرهم بصوت عال حتى يسمعهم الحرس.
وبدا بانوف يهتم بما حدث.

المجرمون لم يكونوا فرحين او مرحين برئاستى، لذلك بدأوا فى الصباح
- رئيس العمل فاشست.. اعطى العمل السهل للفاشستين.

وقال لى بانوف باقتضاب شديد..

- وزرع العمل على الذين كانوا يعملون فيه من قبل.

حاولت ان اوضح وجهة نظري، ولكنه قاطعني بحدة..
 - اذا لم تفعل في الحال ما طلبته منك، سأفعله انا بنفسى..
 - لماذا اذن تختارون رئيسا للعمال، اذا كان رئيس الحرس هو الذى يوزع العمل؟
 واثاره ردى هذا.. فاشتد غضبه، وانفجرت ثورته، وخلع البندقيه من كتفه بسرعة وهو يقول:
 - يبدو انك لم تعرفنى بعد.. ولكن ستعرفنى اليوم.
 وصاح الجنود..
 - اقطع رقبته..
 وكان اعلاه صياحا الحارس المنغولى صاحب الكلب، وحين كان يصيح حاول كلبه الافلات من يده ليهاجم على.. فأخذ يصيح..
 - اتركه لكلبي مينوس، حتى يجعل منه انسانا..
 ولكن لعجبى الشديد ودهشتى البالغة، فان بانوف عدل عن رايه فجأة، وقال:
 - حسنا.. دع العمل يمشى هكذا.. وسنرى كيف تكون النتيجة..
 اذا لم يصلوا الى المعدل الاحصائى، سيجملونك في المساء الى المقابر.
 وعندما حضر مدير منطقة العمل لجمع الحصى، حتى يعطينى تعليماته توجهت اليه قائلا:
 - ضد رغبتى رئيسا للعمال، وها انا في اول يوم واجه المتاعب مع الحرس..
 وحكى له المشكلة التى حدثت بينى وبين بانوف واصدقائه.
 كان مدير منطقة العمل سجيناً سابقاً.. قضى عشر سنوات في السجن.
 بتهمة العمل التخريبى..
 حاول تهدئتي قائلا:
 - انتبه جيداً حتى يعمل الرجال. اما الباقي فسيكون على مايرام..
 وبعد انتهاء العمل ذهب بانوف ليحضر الايصال.
 وعندما عاد بالوريقة صاح قائلاً للحرس:
 - انظروا.. لقد اوفوا بالمعدل الاحصائى للعمل.. بنسبة مائة وثلاثين بالمائة!!!
 واستغرب الجنود.. وقال المنغولى..
 - يا للأسف.. انا كنت سعيداً لان كلبي مينوس كان سيجره الى المعسكر.
 هناك مثل قديم يقول:
 (المنطقة التى يسود فيها الجوع تكثر بها القفزان).
 في عنبرنا كان هناك عدد كبير جداً من القفزان.. رغم أن الطعام لها كان معدوماً عندنا.. حتى القفزان الذى يتناثر من طعامنا سرعان ماثرغه بحرص شديد ونضعه داخل الفم مرة اخرى.
 في اشد المرات لاحظنا أن اثنين من السجناء استيقظا بالليل وحاما حول المدفأة بحذر شديد.. وبعد مراقبة طويلة اكتشفنا أنهم يصطلدون القفزان ليلا ويطبخونها في اناء كبير من الصفيح.
 الكثيرون ابدوا اشمئزازهم.. ولكن بعد أن تذوقوا طعم القفزان المطبوخة اخذوا في الدفاع عنها..

مضى نصف عام ونحن على تلك الحال.
لم يتحسن موقفنا.. ولم يتحرك نحو التحسن قيد أنملة.
الحرس.. ورئيسه بانوف.. سلخوا نحونا سلوكاً حيوانياً حقيراً.
في ذات يوم أمر بانوف أحد الشبان بخلع ملابسه العليا، لأنه في رايه، لم يعمل جيداً..
وصاح الشاب في وجه الجنود:
- في الوقت الذي ينزف فيه الآخرون بجبهة القتال، انتم تظهرون شجاعتكم هنا - على السجناء.
دهش بانوف، وتغير لونه.. لم يكن معتاداً على مثل هذه اللهجة فصاح به:
- تعال قريباً..
والثقت السجناء متردداً..
- اسرع.. اسرع.. ادر وجهك نحو الجليد.. انبطح.. هيا.. بسرعة وانصاع الشاب لأمره.
وأخذ بانوف البندقية، وبدأ يضربه بعنف.. وعندما استنزف كل طاقته، وانفنا غضبه،
أمره أن يقف.. ولم يستطع الشاب الوقوف.
وأخذ بانوف في ضربه من جديد.. وكان بعد كل ضربة موجعة يصيح به:
- قف.. قف..
وأخيراً جمع الشاب ماتبقى له من قوة ووقف.
وعندما خلع قميصه في العنبر رأينا على جسده كدمات سوداء تجمع تحتها الدم.
ولم نفهم كيف استطاع أن يتحمل كل ذلك الضرب.
كثرت أمثال هذه التصرفات الوحشية يوماً بعد يوم.. وبدأ السجناء في الهروب من مكان العمل.. وكانوا يعلمون بأنهم لن يستطيعون الوصول إلى البعيد.. ولكنهم سيكونون قد ابتعدوا ولو ليوم واحد عن مسلسل الضرب والتعذيب.
وحتى يتمكنوا من الهروب، انتهزوا فرصة (الاعاصير) السوداء.. حيث كانت الرؤيا تنعدم تماماً ولمسافة متر واحد.
وكانت هذه الاعاصير تهب بعنف وضراوة، فيسارعون بجمعنا في مكان واحد وينتظرون انقشاعها فإن لم تنقشع عادوا بنا إلى العنابر..
وغالباً ما كنا نتوقف لمدة ثلاث أو أربع ساعات إلى أن نرجع للمعسكر مرة أخرى.. ويأخذ رئيس الحرس في عملية التعداد لنا كل نصف ساعة.. وإذا تغيب أحد تعطى إشارة الانذار.. وعندها يهرع من الثكنات الجنود والكلاب البوليسية التي برعت في اقتفاء الأثر..
ثم يبدأ البحث..
كان المكان المفضل للاختفاء - دائماً - هو مصنع صهر المعادن (ب - ام - زد) والوصول إلى هناك أمر صعب ومحفوف بالمخاطر.. فهو يمر عبر مراكز أبراج - المراقبة.. ولكن السجناء كانوا على ثقة من أن الحرس لن يروه في تلك الاعاصير..
إما بالمصنع فكانت هناك أركان وزوايا كثيرة تمكن المزدمن الاختفاء خلفها.. أو ورائها.. أو تحتها..
وأكثرها ملائمة للاختفاء هو التل الكبير الذي تندفق فيه من الانابيب، المعادت المصهورة.
وعلى الرغم من أن مثل هذا الهروب لن يجدي فتىلاً فقد كانوا - كما قلت يفكر فيه

وينفذونه باستمرار..

وعندما يجدون الهارب يقودونه الى منزل الحرس حيث يضرب حتى الموت. ويلجأون، مرات أخرى عديدة، الى ارباب بقية السجناء.. فيقودون الهارب الى العنبر، وامام السجناء يضرب بمؤخرة البندقية ضرباً دونه الجنون، ويصيحون به خلال ذلك:

– خذ هذا لانك هربت.. بعد لن تستطيع العمل.

ويحدث ان يستمر البحث عن أحد الهاربين عدة ايام..

أحد السجناء اختفى لمدة يومين في مخزن الفحم الخاص بمطعم الطلقاء. بالنهار كان يعمل في المطعم فيستحق بعض الطعام.. وبالليل يذهب الى السطح ويستدفئ بالقرب من المدخنة.

وفي بعض الاحيان يرفض الهاربون تسليم انفسهم للجنود.

أحد جيراني في الكتبة كان يهودياً بولندياً.. هرب الى الحدود الروسية الالمانية لكي يقع اسيراً ويرسل لمعسكرات النازية عليها تكون ارحم به.

وفي الحدود قبض عليه ال.ن.ك.ف.د.. وقادوه الى كييف.. وحاكمته محكمة الكبار الثلاثة بخمس سنوات اشغال شاقة.

وارسل الى نورلسك.. ومن هناك – ايضا – حاول الهروب.. فقبض عليه بالقرب من اغاركة ومعه اثنان آخران.

وارجعوه الى نورلسك، وهو الان ينتظر المحاكمة الجديدة.

كان اسمهم بودولسكي اعلى كثيراً من تعذيب الحرس.. ولانه يهودى تخصص الجنود في اهانتته..

كان عاملاً جيداً.. ولم يستطع بانوف من هذه الناحية ان يفعل له شيئاً.. ولكن رئيس الحرس وجد سبباً آخر.

أخبرني بودولسكي هذا، انه سيحاول الهرب من مكان العمل يوماً – حاولت اقناعه بالعدول عن الفكرة.. لان الهروب كان دائماً ماينتهي بمأساة وكان رده انهم لن يقبضوا عليه حياً ابداً.

وفي ذات يوم من الايام قام رئيس الحرس بعد الصفوف جيداً في ساعة الرجوع وكان كل شيء يبدو تماماً وعلى مايرام.

ولكن عند وصولنا امام باب المعسكر، وحين جاء حرس المعسكر لاستلامنا افتقدوا في التعداد واحداً ناقصاً.

أجريت عملية التعداد مرة وثانية.. ولم يكن هناك اى خطأ.. انه مفقود

أخرج رئيس الحرس وريقة من جيبه وبدأ في النداء على الاسماء..

وعندها فقط علم ان بودولسكي مفقود.

ولأننا كنا في المعسكر وامام الضباط والادارة فلم يستطع الحرس ان يصيخوا علينا غضبهم.

ولكن هذا لم يمنع بانوف من ان يهددنا بتصفية حساباته معنا في صبيحة الغد..

وفي اليوم التالي أخذنا استعداداتنا كالمعتاد للذهاب الى العمل.

ومضى الوقت ولم يرسلونا الى مواقع العمل..

وانتظرنا.. يوماً.. ويومين.. وثلاثة ايام.. دون ان يقودنا احد لمواقع العمل.

لقد أرسل كل حرس القسم السابع في المعسكر للبحث عن الهارب...

غير أنهم باعوا بالفشل.
و ذات يوم أرسلنا للعمل .. واعتقدنا أنهم قبضوا على بودولسكى .. واستغرينا لأن الحرس
لم يتحرشوا بنا .. كانوا هادئين .. لم نسمع سبباً يوجه لأحد منا .. وفي وقت المساء وقبل
التعداد الأخير قال بانوف:

كلكم هنا اليوم ..؟

الم يهرب أحد ..؟

الى اين تهربون ايها التعماء ..؟ اتنا سنقبض على بودولسكى بكل تأكيد.

وعلمنا عندها أن بودولسكى مازال طليقاً .. وسررنا جميعاً ..

مضى وقت طويل لم نحس فيه بالسرور مثل ذلك اليوم.

وبعد مضي أسبوع رجع الذين ذهبوا للطبيب في العيادة بخبر عن هروب بودولسكى ..

وبأنه قد شوهد بالقرب من المصنع رقم ٢٥ ..

وفي اليوم التالي كان هناك أنذار كبير .. في نورلنك .. حجزت على اثره مجموعات كبيرة من

العمال .. ولم يسمحوا لهم بالذهاب الى العمل.

وكنا نحن من ضمنهم .. بقينا في العنابر ..

وعلمنا .. من تجارينا .. بأن هناك معركة صيد جديدة للهارب.

وبدأوا في البحث عن بودولسكى .. وتتبعوا اثره واقتفوه ثم عثروا عليه.

وجدوه في مكان ما بالقرب من مركز ترسيب المعادن السائلة في (ب. ام. زد) .. وعندما احاطوا

به من جميع الجهات، وراى انه لا يستطيع الفرار قفز في السائل المعدني المصهور الذى

كان يغلي ويغور ..

وارتفعت في الهواء سحائب من الدخان.

لقد أوى بودولسكى بوعده ..

لم يسلم نفسه حياً للمعذبين والزبانية.

بعد هذا الحادث أخذت إدارة المعسكر تهتم بالسجناء من عنبرنا ..

دخل ذات يوم الى عنبرنا رئيس القسم السابع للمعسكر متفقداً .. البعض تشجع ورفع اليه

شكواه .. وبوجه خاص كانت الشكوى من الحرس والمجرمين بعد ذلك تحسنت الاحوال.

العصاية التي كانت تعارض السرقة والنهب بلا رادع او عقاب، بدأ بوليس المعسكر في وضع

حد لنشاطها المرعب ... المجرم باكلين سرق طاقية فرو من أحد السجناء .. وسارع السجين

بالبلاغ عن ذلك .. حضر المأمور بنفسه ومعه اثنان من بوليس المعسكر .. وأمر باكلين

بإرجاع الطاقية الى صاحبيها ..

وحاول باكلين الانتكار .. ولكنه أمر بضربه بعضا من المطاط .. حتى انهال باكلين وبكى ..

واعتترف بجرمه .. وعد بأنه لن يكرره ثانية ..

وبعد ذلك لم تعد حوادث السرقة تحدث في العنبر ..

ورغم هذه الراحة النسبية كنا نحاول الهروب العشوائى ..

البعض عن طريق الفرار في برارى الجليد .. والبعض عن طريق المرض الذى سببوه

لأنفسهم بأنفسهم ..

وكانت أكثر طرق المرض استعمالاً هي طريقة الاسهال ..

الماء البارد على معدة خاوية أو ابتلاع الصابون كان يسبب اسهالا حادا في نفس اليوم.. وغالبا لم يتحمل الرجال الضعفاء فقدان مافي ابدانهم الجافة من سوائل عن طريق الاسهال، فوجدوا الراحة النهائية، بذل تلك الراحة المؤقتة التي يمنحها الطبيب.

وكان آخرون يلجأون الى تجميد أرجلهم وإيديهم.. وذلك سهل جداً.. بضع دقائق بدون قفلات او جوارب صوفية ويحصلون على اصابات تجميد من الدرجة الثانية او الثالثة. في الحالة الاولى كانوا يشفون بعد شهرين او ثلاثة.

وفي الحالة الثانية كانوا يفقدون أطرافهم.. او جزءا منها.

بعد هذه المحاولات.. اصبح العدد الذي يذهب الى العمل هو نصف العدد السابق.. وكان المتخلفون يحرمون من الطعام.. واصبح الجوع غير محتمل على الاطلاق..

قيمة صحن الحساء تعادل قيمة حياة الانسان.

وفي ذات مرة حدث انشاء توزيع الطعام ان دفعوا شاباً للامام فتدقق حساؤه.. وفي اللحظات الاولى لم يدر مايفعل.. ثم تدارك موقفه وهو على الارض لينتقد ما لا يمكن انقلذه.

بدا يلحس مايبقى من حساء على الارض كالكلب المسعور.

وحتى وقت طويل لم يهدأ جنونه.. بكى كالطفل الصغير.

اصدقائي اعطوه من خبزهم.. واستغرب الآخرون ذلك..

كانوا يرددون باتدهاش حقيقي..

- هؤلاء اعطوه خبزاً.. تصدقوا!!!

لم ينس بانوف ابدأ الصدام الذي وقع بيني وبينه في اليوم الاول لتعييني رئيسا للعمال.

كان يبحث بلا انقطاع عن فرصة يسوى حسابه معي فيها.

ولكى نستطيع ان نصل الى معدل الانتاج المطلوب، حاول السجناء بكل الطرق ان يغشوا.. المجموعة التي كانت تستخرج الطحلب مثلا، عدت الى رصه فوق بعضها تاركة الفجوات الكبيرة وسطه حتى يبدو هائل الحجم.

وكان بانوف يراقب ذلك.

وصاح في وجهي بحدة شديدة..

- رئيس العمال، احضر هنا في الحال..!

وعندما وقفت على بعد خمسة امتار منه سالني..

- ماذا يعمل هؤلاء الناس؟..

ونظرت اليه باستغراب، فصاح في وجهي..

- لماذا تدعى العبط..؟

- كيف ذلك..؟

- ساريك في الحال.. كيف ذلك..

- أخبرني ماهو الشيء الخطأ..؟

- اذهب الى هؤلاء، في ناحية اليمين الى اعلى وانظر.. ماذا يفعلون!

وكان يراقبني بسخرية وتشف وحقد.

والثقت فادركت كل شيء.. وجعلت افكر في طريقة تخرجني من هذا المازق. وبدأت في

اصطناع موقف حازم معهم.. سارعت اوبخهم لانهم لجأوا للغش. ورجعت الى بانوف مرة

اخرى.. فقال لي بهدوء مريب.

- تعال.. قريبا وحدثني ماذا رايت هناك؟
وتمتمت بشيء غير مفهوم.
- من تريد غشه انت ايها الفاشستي...؟
- هذا ليس غشا.. الرجال ضعفاء للغاية.. وهم يفعل ذلك الذي رايت، يريدون تسهيل موقفهم.
- ماذا...؟ اذافع عن اناس يغشون السلطة السوفيتية...؟
- انا لا اذافع عنهم.. ولكن ...
- ولكن ماذا...؟
- ولكن احببت ان اوضح لك...؟
- انت توضح لي...؟ انت...؟
وبدا بانوف يرتجف.
ووقفت لا اريم.. عاجزا عن الاتيان بأى شيء فى تلك اللحظة.. وخلع بانوف البندقية من كتفه.. وبالجانب الامس للسونكى ضربنى على خدى.
- امشى من هنا.. مارش..
وبمجرد ان اعطيته ظهرى، احسست بمؤخرة البندقية تستقر على كتفى فتهشمه.. ولم استطع التنفس.. وخطوات بالمشديد.. وقعت على الجليد.
وعندما عدنا فى المساء رجوت الحارس ان يقودنى الى مدير المعسكر.. وحدثته بما جرى، وطلبت منه ان يعفينى هذه المرة بحق، عن الاستمرار فى وظيفة رئيس العمال.. ولم يشأ ان يوافق فى الحال.
ولكنى اريته كفى المهشم وقلته له..
- من اليوم، انا لست رئيسا للعمال.
- حسنا.. سنرى.. عليك ان تستمر ثلاثة او اربعة ايام لحين تعيين رئيس جديد للعمال.
وفى اليوم التالى حدث شيء اجبرنى على ان اتخلى قورا وفى الحال عن مسئولية رئيس العمال..
شاب صغير فى العشرين من عمره جلس اثناء العمل على الجليد ليستريح قليلا.. وكان من المسموح به للسجناء ان يرتاحوا لمدة خمسة دقائق بعد كل ساعتين، من العمل الشاق..
احد مساعدي رئيس الحرس، امر الشاب بان يقف ولكن الشاب لم يستجب له.
وصاح الحارس
- هل تريد ان تقف...؟
- انا مريض ولا استطيع متابعة العمل.
وكان الجندى يقف على بعد مائة متر تقريبا منا طلب من الشاب ان يحضر اليه.
لم يكن باستطاعتنا سماع صياح الجندى، او بماذا اجابه الشاب.. ولكنه راينا حركاتهم.. واثار الجندى للشباب ان يقف جلتبا..
وبمجرد ان تحول الى المكان الذى اشار عليه الجندى.. خلع هذا بندقيته واطلق النار..
اصابت الرصاصة الشاب، الذى كان وجهه متجه نحونا.. وبعدها سقط ميتا.
ومن التكنات المجاورة هرع الجنود عند سماعهم لصوت الطلق النارى. وبعد قليل وصلت اللجنة الرسمية.. فاوضح لهم القاتل كيف حدث ماحدث وفى اليوم الثالث قرئ

علينا قرار رئيس الحرس في نورلمنك..
ويتضمن توجيه الشكر للجندى على يقظته في احباط محاولة للهروب..
وتقديم حافز مادي للجندى عبارة عن خمسمائة روبل..
بعد ذلك الحادث.. وبعد تلك الجائزة العجيبة بدأ يسيطر على تفكيرى شىء واحد فقط.. هو كيف انقذ نفسى من موت محقق ينتظرنى..
كان هناك طريق واحد فقط..
هو ان اجعل من نفسى معوقا..
قررت ان اجمد اصابع رجلى اليسرى.. وفي الصباح عندما ليست حذاء الجليد الصحراوي، لففت حول رجلى لفافات كثيرة جعلتنى ألبس الحذاء بصعوبة..
وبذلك تعطلت رجلى عن الانطلاق والتحرر وانحبس فيها تدفق الدم..
كان ذلك اليوم باردا جدا وكنت واثقا من نجاح خطتى..
كنت احلم بسرير المستشفى الدافئ.. وحتى اضمن تحقيق اقصى درجة من النجاح ذهبت على جانب من الآخرين وصببت ماء فوق اصابع رجلى اليسرى.. واجتهدت ان اقلل حركتى لاعوق تدفق الدم..
هناك الراحة.. التى ربما امتدت لشهور عديدة.. وعلى الان ان اتحمل فقط بعض الالام الشديدة.. فعند خلع الحذاء من الرجل المتجمدة ينخلع الجلد.. ولكن ذلك لايعنى شيئا بجانب ما ساحصل عليه وانعم به فيما بعد..
ولم افكر ابدأ فى اننى ساكون طول حياتى معوقاً..
وعند عودتى للمعسكر، تعجبت لانى لم اشعر بالالام.. وعزوت ذلك الى أن الاطراف عندما تتجمد لايشعر الانسان بالالام الا بعد ساعات..
وفي العنبر، وبمساعدة رفيق خلعت الحذاء عن رجلى اليسرى.. وكانت فجيعتى لا حدود لها عندما وجدت بان تجمد الاطراف - كان من الدرجة الاولى..
وفي لحظات تلاشى حلم السرير الدافئ والهدوء والراحة. ورغمما عن ذلك ذهبت للعيادة..
وبعد ثلاث ساعات من الانتظار جاء دورى.. ولم اسمع الكلمة التى كانت تهدد احلامي..
وقال الطبيب للممرضة..
- مكدمات بالماء البارد للرجل..
وعدت الى العنبر وأنا اطاطيء الرأس حزناً وأسفا وكسوفاً..
صداقتى مع احد افراد الحرس، جاءت لى فى بعض المرات بتسهيلات كثيرة كان من وقت لآخر يدعونى الى مكان حراسته.. وهناك كنت اشعل له المدفأة... واجلب اليها الفحم.. واقوم بغسل الارضية..
وكنت بهذا احصل على بعض الطعام..
وفي بعض المرات عندما يكون متأكداً من غياب مدير المعسكر، يسمح لى بالتجول وسط العنابر الاخرى حتى احصل على قليل من الخبز، يقدمه لى اصدقائى الطيبون..
وكثيرا مايرسلنى الى المطعم لاحضار الاكل له..
وكنت احصل من الطاهى دائما على بعض الاكل لنفسى..
ذات مرة شكوت له الموقف غير المحتمل فى مكان العمل.. وعن تعذيب رئيس الحرس

بانوف.. ووعدني الحارس بأنه سيهتم في أن يعينني فراشا لنظافة العنابر.
وكانت العنابر تنظف بواسطة المرضى المتخلفين عن العمل.
وعملت في النظافة لعدة ايام.. وعندما علم المدير بذلك، الغى وظيفة فراشي النظافة للعنابر
وامر بان يستمر المرضى في القيام بعمل هذه - النظافة.
ولحسن حظي أصبت بالمرض..
ارتفعت درجة حرارتي ارتفاعا عاليا.. وذهبت الى المستشفى وخاف الطبيب ان يكون مريض
هو وباء التيفوس.. ولذلك وضعوني في عنبر الامراض المعدية.
وخلال الوقت القصير الذي قضيته بالمستشفى مات عدد كبير من السجناء بمرض
التيفوس..

كان السجناء من شدة الجوع يأكلون اى شيء يقع تحت ايديهم..
كثيرون بحثوا في صناديق القمامة ونبشوا مخلفاتها ومحتوياتها.. جمعوا رؤوس الاسماك
الصغيرة وبقياء المعلبات الخالفة.. فاصيبوا بالاسهال والنزلات المعوية الحادة..
وفي زمن وجيز انتشر وباء التيفوس، بسرعة رهيبه.
واغرب شيء أن كثيرين ماتوا من الاكل..

نعم اكلوا كثيرا على امعاء خال من كل شيء.. فلم يحتملوا .. وماتوا. وكان هناك الذين
لايستطيعون الاكل ايضا.. ينظرون الى الرغبة بلهفة وحرقة والم واسف.
وكانوا يحصون القطع التي ستوزع عليهم، فان نقص منها شيء صاحوا بصوات واهنة
مجنونة..

- لقد سرقنا.. لقد سرقنا .. يجب اعادة قطع الخبز المحمص لنا - وكانت مثل هذه الصيحات
مؤشرات خطيرة الى ان هؤلاء المرضى سيعيشون لبضع ساعات قادمة ثم يموتون..
اما المرضى فكانوا ينتظرون موت هؤلاء ليحصلوا على ما عندهم من قطع السكر والخبز..
وكان من الممكن رؤية المريض وهو يصير فجأة كثير الاهتمام بمرضى ما .. على عتبة الموت..
ولكنه يتجاهل المرضى الآخرين الذين هم في حلجة ماسة الى جرعة ماء.. والذين ظلوا يلحون
في طلبها بالساعات الطويلة.. دون جدوى..

وهكذا يبقى المريض مهمل لا يجد من يسأل فيه..
اما الان وهو ينازع الموت.. الكل يريد مساعدته.

عندما كنت طريح الفراش في المستشفى علمت ان تطورا خطيرا قد حدث. اذ انهم (سرحوا)
عنابر السجن.. وارسلوا السجناء الى المعسكر.. وحمدت الله لانني لن ارجع لذلك الجحيم
مرة اخرى.

وعندما اطلقوا سراحى من المستشفى.. لم يرسلوني كالاخرين الى المعسكر ولكنهم
وضعوني في زنزانة الحبس التأديبية (كارس)!

ماذا سيفعلون بي..؟
حتى اميناتي بالعودة الى حياة المعسكر العادية لم تتحقق..
انا الوحيد الذى لم يرسلوه الى المعسكر..

كنت اعلم ان ال ن. ك. ف. د لايفلت الضحايا من قبضته بسهولة.. ولكنني لم اصدق ابدأ،
ان شخصي الضعيف هو (اخطر) السجناء! (واين؟) في المحيط الذى يضم مئات الالوف من

السجناء - معسكر نورلسك.. التهمة ضدى كانت ملفقة..
وعلى الرغم من اننى املك الاسباب التى تجعلنى اكره وامقت بشدة، عهد ستالين وال ن.
ك. ف. د الذى ثبت اركان ودعائم ذلك العهد، رغم كرهى ذاك الا اننى لست فاشيا. وهذا
مايعلمه ال ن. ك. ف. د جيدا..
لماذا اذن اخذونى بانياهم القاطعة؟..
لقد اختارنى واصدقائى - بعناية شديدة.. مدير ال ن. ك. ف. د بوليكاروف لتكون اول
الضحايا..
وهو يرى الان اننا ربما افلتنا من يده.. وذلك ما لايريد..
ان بوليكاروف رجل واسع السلطة فى نورلسك.. ويمكن ان يقتنع بان السجين اقوى منه.
رمى السجناء بالرصاص فى مجازر جماعية مشيئة مؤسسة.. هؤلاء الذين كانوا على بعد
ثمانية الف كيلومتر من الجبهة.. زمن الحرب.. ولم يكن يشكلون خطرا ما على عهد ستالين..
وقد تدخلت ديمقراطية الغرب لايقاف سفك الدماء وقدمت العون ثمنا لذلك.. ورغم هذا كان
بوليكاروف يجد الوسيلة والاسباب ليرسل بعض الضحايا الى العالم الاخير..
وماهو يحاول معى لعبة الموت والحياة..
يريد ان يكسر شوكتى بتعريضى لتجربة سلسلة جديدة من الالام المبرحة. اسبوعان
كاملان.. قضيتهما فى زنزانة الحبس الانفرادى التأديبية ذات - الشبابيك المحاطة
بالقضبان الحديدية القديمة.

حوكمت بالاعدام

في مايو عام ١٩٤٣م اقتادوني من زنزانة الحبس الانفرادي الى السجن وللاسف الشديد فان الحال لم يتغير قط.. لم يكن هناك جديد نفس الحكايات، نفس التلفيقات، نفس الوجوه - ولكن بأسماء متغيرة حتى المجرمون كانوا كسابقيهم.

وعلى الرغم من ذلك كان هنالك اختلاف ما.. علمنا بأن محكمة المعسكر لاتصدر حكما بالاعدام الا نادرا جدا.. وكانت معركتنا مع الوقت قد وصلت الى نهايتها.. وقد وضع لنا جليا ان اهداف تلك الحرب لم تكن كما اعتقدنا في اعماقنا - من جل الحرية - ولكنها كانت من اجل البقاء فقط على قيد الحياة.. نكون او لانكون..

وقد تيقنت انا ورفاقي جيدا، بأن الحرية في الاتحاد السوفيتي لن تتحقق طالما بقي ستالين في السلطة.

وبدا لنا ان تلك المعارك المتصلة التي خضناها من اجل البقاء قد حالفنا فيها نصر كبير بلاشك.. بالقياس الى ضراوتها وعنفها. وفي الحق فان قاضي التحقيق الجديد الذي قادوني اليه قال لي فور ان رأيته..

- ان علي الا اخاف من انني سارمي بالرصاص.

وقاضي التحقيق الجديد هذا هو الكابتن قيزايف من مدينة نالجبكا بالقفقاز، وهي المدينة التي تم اخلاؤها عندما احتل الالمان الجزء الشمالي من القفقاز.

بداني الكابتن قيزايف قائلا:

- انا قاضي التحقيق الجديد، ويهمني ان انهي قضيتك التي استغرقت زمنا طويلا.

- اذا اردت ان تنتهي قضيتي، يجب عليك ان تنفي عني وعن رفاقي التهمة التي يتهموننا بها.

- لا استطيع ذلك فانت بالذات توجد عندك اثباتات قوية تدينك بشدة.

- لعلك لا تقصد شهادة المجرمين الذين استغلتهم سلطات التحقيق؟

- لا.. اننا لم نأخذ بشهادة المجرمين مأخذ الجد، ولكن لدينا شهود آخرين تكفي شهاداتهم لادانتك.

قلت له مستغريا..

- هذا شيء جديد بالنسبة لي..!

نعم وسوف تستغرب اكثر عندما تسمع اسماء هؤلاء الشهود..

- هذا مهم عندي للحد البعيد..

وقبل ان يفضل بأخباري عن اولئك الشهود وعن اسمائهم، القى على سمعي خطبة طويلة، اوضح لي فيها انه لا يهتم بكل هذا الامر.. ولكنه يريد ان ينهي ملباءه الاخرون.

وعندي بان يكون التحقيق موضوعيا.. وبانه لن يسمح قطباي شيء غير قانوني واخبرني ايضا بشيء خطير آخر.. قال ان محكمة الثلاثة ضباط الكبار لل ن. ك. ف. د اصدرت حكما على ثلاثتنا بالاعدام، ولكن المحكمة العليا للاتحاد السوفيتي نقضت حكم الاعدام، وامرت باجراء تحقيق جديد.

وبالرغم من اعتقادي وايماني القاطع بإمكان حدوث امر كهذا، الا انني استغربت جدا..

ولو لا ان الذى اطلعنى عليه هو الكابتن قزايف ضابط ال ن . ك . ف . د الذى وعد باطلاعى على كل الامر، لما صدقته .

وسالت قزايف ..

- هل يمكننى معرفة اسماء الشهود؟

- بالطبع، ولكن قبل ان اقول لك الاسماء، يجب ان آخذ منك وعدا بانك ستعطى اقوالك وستتوق الى المحضر .

- اعدك بذلك ..

قلتها بدون تردد .. كان يهمنى ان اعرف اسماء من شهدوا ضدى، وكنت متلهفا على ذلك جدا .. فاجابنى قائلا:

- الشاهدان الاساسيان ضدك .. هما روجانكوفسكى ولارينوف .. وكانت مفاجأة مذهلة لى .. واضاء فى ذهنى شيء كالبرق الخاطف .. لقد بدأت افهم الان لماذا كان لارينوف وروجانكوفسكى مهتمين بى .. يبديان نحوى كل تلك المشاعر الزائفة .. ماكان يدور بخلى قط انها من المخبرين والعلماء، كان ذلك بعيدا عن كل تصور واحتمال .

- ما الذى دفع بشخص مثل روجانكوفسكى وشخص مثل لارينوف ان يعملوا فى خدمة ال ن . ك . ف . د ... ؟

ولم احصل على رد منه، فبدأت اتساعل بينى وبين نفسى .. هل هذان الشخصان من المتعاطفين مع نظام ستالين .. واصبحا من ضحاياه ..؟ ليسا كذلك بالتأكيد!! بل لابد ان يكونا!! لا .. لا .. هذا احتمال بعيد ان لارينوف كان من قادة رابطة الشبيبة فى ليننغراد .. وبعد اغتيال كبروف القى عليه القبض وقادوه الى المعسكر، فقد كان ذات يوم من المعارضين ولكنه هجر ذلك وتخلى عنه منذ زمن بعيدا .

وروجانكوفسكى كان من قيادى الحزب الشيوعى فى اوكرانيا الغربية، وكان مثل الكثيرين الذين غيروا السجون البولندية واستبدلوها بالسجون السوفيتية .

ما الذى يرغم رجالا كهؤلاء على ان يصبحوا عملاء للسلطة؟ ان الاجابة رغم كل شيء ليست صعبة للغاية .. فالظروف فى معسكرات الاتحاد السوفيتى تختلف عن ظروف السجون فى الغرب، والتي يمكن فيها - بالطبع - على كل من يقضى فترة العقوبة ان يعود لاهله ويعمل فى المهنة التى هو مؤهل لها .. اما هنا فى الاتحاد السوفيتى فان الامر مختلف جدا .. كل سجين يعلم جيدا انه عندما يقبض عليه يصبح امره كامر الوحش السجين .. حريته تقرر بمدى فائدته .. بما يمكن ان يعود على جهة معينة من نفع يقوم به ويقدمه .. وذلك يمكن ايضا ان يقرره ضابط صغير من ضباط ال ن . ك . ف . د الذى لا يخشى قط ان يتهم بانه لم يتخذ الموقف الصحيح تجاه رجل برىء ارسله الى المعسكر او اطلقه منه .. وقد يخشى ان يعاقب ويوبخ لانه لم يكن صارما وقاسيا وحادا ويقظا ولايساوم .. اى انسان كان محكوما عليه ولو بمدة بسيطة يجب ان يشكر كل الظروف التى جعلته يخرج حيا بعد انتهاء تلك المدة .. واذا قُدر له ان يعيش فهل يخرج سليما بغير عاهة من العاهات ..؟ اما بعد اطلاق سراحه فينتظره النفى الى سيبيريا .. والتي سيحيا فيها حياة تصبح معها عذابات المعسكر حلما من الاحلام الجميلة .

اذن فالخيانة من امثال روجانكوفسكى مبررة رغم مراتها .. لقد ارادوا ان يتقوا ضربات ال ن . ك . ف . د فوجهوا الضربات الى رفقاتهم ..!! وكان زملاؤهم يكشفونهم بسهولة ويسر ..

يكفى ان يكون عمل الواحد منهم خفيفا داخل المعسكر. حتى يكون موضع الشك والظن.. وغالبا مايجرى ذلك بدون اساس.. ولكن.. اما في حالة الاثنين المذكورين فلم يدم السر طويلا.. سرعان ما دل عليهم وكشفهم الوضع المريح الذى تمتع به في المعسكر. وفي حالتى كان محقق ال ن. ك. ق. د مجبرا على كشف عملائه.. فلم يكن لديه شهور آخرين. وفي اليوم الثانى دعونى للاستجواب لمحت شمال الباب روجانكوفسكى.. كان على ان اجلس في مواجهته. وكنت احدث فيه باستمرار متفحفا ممتعنا. اما قزايف فقد جلس بجوار الالة الكاتبة. كان روجانكوفسكى قد احنى رأسه يحدق في الارض متجنبنا نظراتى الفاحصة. كان ضعيفا هزيلا مهترئا.. يمسك بين يديه غطاء للراس ويدعه بعصبية ظاهرة.. وجبينه المجعد يتلون من الانفعال.لقى المحقق خطبته المعهودة.. وبدأ يعمل في المحضر.. سال روجانكوفسكى. - روجانكوفسكى هل تعرف الرجل الذى يجلس قبالتك؟ - نعم.. هذا شتاينر - الشاهد روجانكوفسكى هل كانت علاقتك بالمتهم سيئة..؟ - لا.. بالعكس علاقتى بالمتهم كانت في احسن حالاتها. - يا كارلو، شتاينر.. هل توافق على ذلك..؟ - كان المحقق يخاطبني أنا هذه المرة فقلت له - كانت علاقتى معه عادية. - حسنا.. الان نسال الشاهد روجانكوفسكى، حدثنا عن المتهم؟ - تعرفت على شتاينر عندما كنا نسكن عنبرا واحدا في السجن.. ومن خلال حديثي معه وحديثه معى استطعت ان استشف واستنتج ماؤكد انه يكره السلطة السوفيتية وخاصة ستالين. وهنا صمت. وهو يحدق في الارض. وسألنى المحقق.. - هل مايقوله الشاهد صحيح..؟ - هذا تلفيق ودس. انا لم اتحدث مع روجانكوفسكى في السياسة قط. وتدخل المحقق موجها السؤال للشاهد. - ماذا تعرف ايضا عن المتهم..؟ - في فبراير عام ١٩٤٠م كان من المفترض ان ترسل مجموعة من الالمان والنمساويين الى المانيا.. وقد صرح لى المتهم، بأنه اذا قدر له ان يرجع الى اوربا حيا فسوف يبذل كل طاقاته ويكرس كل جهوده حتى يعلم العالم أجمع مايجرى في الاتحاد السوفيتى.. ومعنى ذلك انه يريد ان يسيء الى الاتحاد السوفيتى. - حسنا.. يا كارلو شتاينر هل توافق على هذه الاقوال..؟ - انا انفى بشدة واصرار ماقاله.. جملة وتفصيلا.. ولم يحدث قط اننى تحدثت مع روجانكوفسكى في هذا الخصوص. واستمرت المهرلة.. كان روجانكوفسكى يحكى اشياء ملفقة مختلفة توحي باننى ثورة مضادة.. وقد استغرق ذلك اكثر من ساعة.

ولقد نغيت بشدة كل الذى رواه روجانكوفسكى من أكاذيب وتهم ملفقة.
والفرق بين هذا التحقيق وبين كل التحقيقات السابقة هو أن هذا المحقق خاطبني بلطف
واقنعني أن اعترف بكل شيء لأن ذلك يعنى نهاية القضية.. ولم يكن ذلك ممكنا بالطبع..
فقد اصررت على نفي كل أقوال الشاهد الملفقة.

وفي المساء واجهوني بلارنوف - الشاهد الثاني.. والقى المحقق نفس المحاضرة التي قدم
بها الشاهد الاول.. ثم خاطب عميله لارنوف قائلا:
- من فضلك حدثنا بالذى تعرفه عن شتاينر..؟

- لقد حضر الى المتهم يوما وأنا اعمل بالمطبخ وكنت اتولى ادارته.. وسألني أن أجد له
عملا.. ولما سألته من هو.. حدثني قائلا انه شيوعى منذ أن كان شابا.. وأنه احس بحب
شديد للاتحاد السوفيتي.

ولكنه عندما حضر للاتحاد السوفيتي مدفوعا بحبه ذاك، اصيب بخيبة امل كبرى..
لقد وجد الظلم بديلا للعدل ووجد الحقد بديلا للرحمة.. وفاق ذلك كل ما عرفه من استبداد
في البلاد الرأسمالية.. وقال ان الفقراء هنا زادوا فقرا كما افقر الاغنياء ايضا.. وقال انه لم
يجد دكتاتورية البوليتاريا ولكنه وجد دكتاتورية ملفوق البوليتاريا.. وقال عن اعضاء
الحزب انهم قطع من الخراف..
وسألني المحقق.

- هل توافق على اقوال الشاهد؟
- لقد مضى على حديثي من لارنوف وقت طويل جدا لا استطيع ان اذكر ولكنى انفى كل ما
قاله باصرار.
ولم يضغط على المحقق.. سجل حديثي كما هو ووقعنا نحن الثلاثة على المحضر.. وعند
انتهاء التحقيق طلبت مقابلة المدعى العام.
ولقد اراد قاضى التحقيق أن يعلم ماهى الاسباب التي دفعتني الى أن - اطلب هذا الطلب ..

هل أنا غير مقتنع بالطريقة التي أدار بها التحقيق؟
وقد أجبتة بانى لا املك ان اعترض عليه بالطبع.
ولكنى أريد ان أسال المدعى العام عن الاسباب التي من أجلها لمدة عامين في السجن، وهل
وشاية العملاء أمثال روجانكوفسكى ولارنوف هي مما يمكن أن يعتمد به ويعتمد عليه...؟
ووعدني قزايف أنه سيطلع المدعى العام على طلبى هذا.
وبذلك انتهى التحقيق..
وقادوني الى مكاني.

وفي اليوم التالى استدعوني مرة أخرى.. وعندما دخلت حجرة قاضى التحقيقات، رأيت في
منتصفها رجلا يرتدى معطفا للمطر وعلى راسه قبعة.. وقد وضع يديه داخل جيبي
المنطلون..

قال لي بهدوء شديد..
- أنا المدعى العمومي.. ماذا تريد منى؟
- كان يمكن أن يجيبك قاضى التحقيق.. ومن المحتمل أنت تعرف أنت لماذا..

- التحقيق واضح التلغيق.. والمعاملة غير انسانية وبلا اساس.
- إنت متهم بانك عنصر من عناصر الثورة المضادة ولذلك يجب ان تبقى في السجن.
- لنفرض اننى من عناصر الثورة المضادة.. ولهذا بالضبط انا موجود في المعسكر.. ولكن هل يكون الانسان متهما بتهمة واحدة مرتين؟
- ان تعطينا أنت ارشادات.. كل مرة نستطيع ان نقيم دعوى ضدك.
وكل الذى نفعله مبنى على القانون.
- اريد ان اعلم ايضا هل من القانون استدعاء عتاة المجرمين للشهادة ضد السجن السياسى، من امثال الذين استدعاهم بروفكن للشهادة ضدى وغيرهم؟.. لقد دعت سلطات التحقيق شاهدين من عملائها ليلفقا اقوالا ضدى.
- ماهى اثباتاتك بان روجانكوفسى ولارنوف عميلان من عملاء ن. ك. ف. د؟
- من موقفهم الواضح.. يمكن استخلاص حقيقتهم. انهما عميلان.. ويعملان في ادارة المعسكر اعمالا رفيقة هيئة ناعمة، تثبت انهما عميلان.
- هيه.. وماذا؟
- انت كمدع عام تعلم جيدا ان الرجال الذين يقيمون في المعسكر..
وبناء على المادة ٥٨ لايسمح لهم ابدا ان يؤدوا عملا ما في ادارة المعسكر.
ولم يجب المدعى العام بشيء.
ولكنه التفت الى قاضى التحقيق قائلا:
- كفى.
وعند عودتى الى الزنزانة رايت دقتيلوف يجلس على الكنبه.. وكان قد احضر الى السجن مع اثنين من القسم التاسع للمعسكر.
كانوا يعملون كموظفين في كمينه الطوب.
شخص ما اخبر ن. ك. ف. د بانهم من عناصر الثورة المضادة. وانهم يشيعون الاقوال المضارة ضد الاتحاد السوفيتى.. وهم ايضا يتوقعون فوز النازية وانتصارها في الحرب.
وقد سألنى دقتيلوف عن سير التحقيق، فحدثته باقتضاب عن الاشياء التى عشتها في السجن منذ بداية الحرب.
وكان دقتيلوف قد انكر في التحقيق معه كل ما نسب اليه.. وكان مصمما على الإنكار.. ولكنه وبعد ما سمع بان الشخص الذى لا يحصلون على اعترافاته يبقونه طويلا في السجن قال لى..
- لا.. لا.. لن ابقى طويلا في السجن.. في الحال ساطلب الدقيق معى وساعترف بكل شيء..
وعندها ربما حكموا على بعشر سنوات، وهى ليست أبدية.. فالحرب لابد ان تنتهى وهم لابد ان يمنحوننا العفو.
ومن الغريب انهم استدعوه للتحقيق في نفس الليلة.
وفي منتصف الليل انتهى التحقيق.. عاد منه وهو في منتهى السعادة - وقال ان قضيته ستنتهى في ظرف ثلاثة ايام، وانه سيعاد الى المعسكر لعمل خفيف.
واستدعوه مرة أخرى.. عاد منها ايضا وهو مقتنع ويبدو عليه الانشراح والهدوء، وأكد لنا أن قاضى التحقيق طمانه على انه سيحكم بناء على المادة ٥٨ الفقرة ١٢ - والتي تدين من يعلم بوجود جمعية للثورة المضادة ولا يبلغ السلطات عنها. وازداد قائلا:

-زميلي الثاني اعترف ايضا بكل شيء.. ولكن الزميل الثالث ظل عنيدا ولم يعترف بشيء قط.
وسرعان ما وقف الثلاثة لسماع منطوق الحكم الذى جاء فيه .. الحكم بالاعدام رميا
بالرصاصة على قتيارف وزميله الذى اعترف ايضا.. اما ثالثهما وهو الذى انكر فقد حوكم
بعشر سنوات سجنا.

في الزنزاة، ولدة شهرين كاملين جلس المعلم الشاب ذو اليد الواحدة، كوليكوف، والذي
كان يعمل في المدرسة الثانوية بنورلسك كان يجلس هناك ولايعلم شيئا عن الجرم الشنيع
الذى ارتكبه.

١. رسل كوليكوف من معهد المعلمين لجبهة القتال راسا.
وهناك خاض معارك ضارية ضد الهتلريين انتهت بفقد يده.. وعندما أخرجوه من
المستشفى، تم تعيينه معلما في نورلسك.. واسندت اليه سكرتارية الحزب للجنة المعلمين.
وكان المعلم الشاب يحظى بحب جميع الموجودين معه في الزنزاة.. كان مرحا وعلى
استعداد دائم لتقديم العون للجميع.. وكان مثقفا جدا.
وحتى تغلب على الملل، وتقتل الوقت، كنا نحكي الروايات والقصص من الواقع المعاش..
وكان كوليكوف محدثا بارعا للحد البعيد.. يستطيع ان يروى تفاصيل القصص التى قراها
بديقة شديدة.

لم يكن يضى يوم واحد دون ان يتحفنا بحديثه الشائق الطلى.
وما استطاع ابدا ان يعرف السبب الذى اعتقل من اجله.
وسالته مرة ان كان قد تحدث في الجبهة او المستشفى بحديث صريح او منفتح مع احد من
الناس.. ولكنه لم يستطع ان يتذكر شيئا من ذلك القليل.
وقال انه يذكر جيدا عدم تحدثه مع اى شخص بالمدرسة حديثا يمكن ان -يؤدى الى
اعتقاله.. وهو واثق من ذلك.
وفجأة صاح رئيس الحرس..
-كوليكوف... للتحقيق..

وشحب لونه وتغير.. وهو الذى كان هادئا واثقا من نفسه.. وساعدته على ارتداء معطفه
فقد كان رئيس الحرس يحثه على الاسراع.
وعاد بعد ساعات مضية عاد للزنزاة..

وعلمنا كل شيء.. فلاعقاله قصة.. وهى قصة في غاية الغرابة... بعد ان تنحى عن ادارة
المصنع في نورلسك زافنيا، تم تعيين الجنرال باننيوكوف خلفا له ومديرا للمصنع.. وكان
رجلا مترفا منعمًا علف هو وابنه وزوجة ابنه.. وعندما انضم ابنه للجيش بقى هو وزوجة
الابن في الفيلا ينعمان بالهوى الاثم ويمارسان الخطيئة.. والابن بعيد في خط النار.
وولدت الزوجة الحسناء الخاطئة ابنا.. كان باننيوكوف هو والده وجده في نفس الوقت.
وعلم الابن وكان لابد ان يعلم.. فعاد سريعا الى نورلسك وفي نيته ان يفضح العاشقين
الاثمين.. ولكن الاب اشترى صمت ولده بمبلغ طائلة جدا واركبه سفينة حملته الى
البعيد.. والنقوذ يفعل كل شيء.

وعاش الجنرال العاشق مع عشيقته الحسناء، زوجة ابنه.
وبدا الشباب في نورلسك يثورون على الذى حدث وينثرون الاقاول - فالاب جنرال والابن
محارب في سبيل وطنه.. فكيف يستباح عرضه وينتهك؟ ومن اييه؟

و ذات يوم بدأوا يناقشون ذلك في اجتماع لشباب الحزب.. وكان كوليكوف أكثر الذين احتاجوا لذلك.. ولم يدر بخاطره انه بهياجه ذاك قد وضع رأسه تحت مقصلة اتهامات ن. ك. ف. د الملققة الدنيئة. لم يستطع ال ن. ك. ف. د بالطبع أن يسأل أو يتهمه بشأن ثورته على الجنرال العاهر. وفي مدة الشهرين التي قضاهما الشاب في السجن استطاعوا أن يطبخوا له طبقه انضجت على نار هادئة.

قالوا انه ينشر شائعات كاذبة عن ضابط كبير في الجيش السوفيتي.. وجاعوا بشهودهم وأدلتهم.

ورأت المحكمة أن الشاب ضحي بيده في سبيل وطنه، واعتبرت ذلك من الاسباب المخففة عنه، فحكمت بخمس سنوات سجنًا في المعسكر. قاضي التحقيق الجديد اسرع في انهاء قضيتي..

في مدة خمسة عشر يوما.. وأنا نفسي اردت أن ينتهي كل شيء... كتب محضرين مختصرين لم يكن بهما شيء خطير ووقعتهما أنا.

وفي اثناء التحقيق أحسست بأنه سرّ كثيرًا لانه سينتهي من قضية استمرت لمدة عامين كاملين.. وكان بحق ملغزما جانب القوانين المكتوبة، حلزما في ذلك.. وبعد انتهاء التحقيق دعاني الى غرفة عمله.

وجلست امام قزاييف على منضدة صغيرة..

كان يستطيع مراقبتي بدقة وتمعن.. ثم مدّ يده الى بحزمة ضخمة من الاوراق، وطلب مني أن أقرأ كل ملجاء فيها.

كانت ثمر الصفحات متسلسلة.. وقد حوت الاولى منها فهرسا بالمعلومات عن محتويات الصفحات الاخرى..

أربعة صفحات حوت مواد القانون.. وهي مؤثر على فقراتها بدقة شديدة وبدأت أقرأ بحرص بالغ.. كان أكثر ما يهمني هو شهادة الشهود الاخرين. لم اهتم بأقوال روجانكوفسكى ولارنوف.

وجدت أن المحكمة قد استجوبت عددا من اصدقائي ومعرفي.. وقد تلهفت جدا على قراءة ما قاله اقرب الاصدقاء إلّي..

كان الشاهد الاول هو صديقي فسليا جوبراكوف.. استجوبوه عدة مرات بشأني ولكنه كان يرفض الادلاء بأية اقوال تدينني.. هددوه - وتعرض لمعناة قاسية الا أنه كان ثابتا مصرا على المقاومة.. وقد أخافوه بأنه سيوضع في قفص الاتهام.. ولم يرضخ لهم ابدا. وكان الشاهد الثاني هو بتلان الذي ادلى بأقوال تلفهه وغير هامة اطلاقا، ولم يستطيعوا استخدامها ضدي.

والشاهد الثالث هو فيم موروزوف، قال انه معلوم لديه أنني انتقدت السلطة السوفيتية ولكنه لم يستطع اعطاء شيء ملموس.

أما شهادة المجرم الخطير بروفكن فأنني لم أقرأها.

ومن بين الاوراق الكثيرة وقعت عيناى على محضر التحقيق الخاص باصدقائي المتهمين جوزيف وجورج وشهادات الشهود ضدهم.. وكانت أقول اصدقائي وأقوال الشهود ضدهم لا تختلف كثيرا عن اقوالى.. ولكن في قضية جوزيف اضيفت فقرات قام بالتوقيع عليها ممثلوا ال ن. ك. ف. د، والاطباء الذين أكدوا أن جوزيف قد أعلن الاضراب ونفذه وأنهم

اطعموه بالقوة بعد الايام الخمسة الاولى من اضرابه.
وهنا عثرت ايضا على اقوال اخرى..
كانت ضد الشيوعى البلغارى بلا قوى بويوف وضد الشيوعى المجرى ياقورت. وقد ادلى
بعض الشهود باقوال ضدهم تفيد بأنهما كانا عضوين فى (عصبتنا) للثورة المضادة
وبالرغم من أن بويوف وياقورت قد اقتيدا من قبل الحزب بعيدا عن نورلسك كمعوقين..
الا أن السلطات لم تستطع اتهمهم..
وفى النهاية قرأت خلاصة تقرير ال ن. ك. ف. د بنورلسك الذى جاء فيه..
بعد الفحص الدقيق لمادة الاتهام - عن طريق قسم التحقيقات فى نورلسك - ضد كارلو
شتاينر وجوزيف بيرقر وجروج بيلسكى الذين يقضون فترة العقوبة فى معسكر نورلسك
بتهمة الثورة المضادة،
فإن القسم المذكور قد توصل الى أن هؤلاء الثلاثة..
١ / كارلو شتاينر
٢ / جوزيف بيرقر
٣ / جورج بيلسكى..
من العناصر الخطرة جدا التى تشكل الثورة المضادة والتى لايرجى صلاحها ابدا. لذلك يرى
ن. ك. ف. د بنورلسك أنه من الضرورى الحكم عليهم بالإعدام.
امضاء رئيس ال ن. ك. ف. د نورلسك.

الرائد بوليكار بوف

وتتبع هذه الحيفيات خلاصة المبنات كما قام بتقويمها المدعى العام بنورلسك.
- بعد الاطلاع على مادة الاتهام التي أعدها قسم تحقيقات آل ن. ك. ف. د في نورلسك، فإن المدعى العام بنورلسك يوافق رأيه رأى آل ن. ك. ف. د في نورلسك، بأن هؤلاء المتهمين الثلاثة، كارلو شتاينز وجوزيف بيرقر وجورج بيلسكى، هم من عناصر الثورة المضادة الخطرة التي لايرجى اصلاحها، ويوصى بتنفيذ حكم الاعدام عليهم.
المدعى العام لنورلسك.. ميهابلوف.

وبعدها ختم المحضر.. بالحكم الذى أصدرته محكمة الثلاثة ضباط الكبار (أو. أس. أو) في كراسنويارسك.. وقد جاء فيه:

- بعد الاطلاع على مادة الاتهام التي قدّمها قسم التحقيقات ل ن. ك. ف. د في نورلسك وخلاصة بيانات المدعى العمومي في نورلسك..

فإن محكمة الثلاثة ضباط الكبار (أو. أس. أو) لمنطقة كراسنويارسك تضم قرارها القاضى بالحكم على كارلو شتاينز وجوزيف بيرقر وجورج بيلسكى بالموت، الى قرار قسم التحقيقات في نورلسك، والقاضى ايضا بنفس الحكم.

أن كارلو شتاينز، جوزيف بيرقر، جورج بيلسكى الذين يقيمون في معسكر نورلسك، وقد سبق أن حاكمتهم المحاكم السوفيتية بتهمة الثورة المضادة، والاعمال الارهابية، والجاسوسية، والتخريب، استمروا في اعمالهم العدائية داخل المعسكر.

أن المذكورين قد نشروا يعنف وباستمرار ادعاءات الثورة المضادة وحاولوا ان يخلقوا جوا انهزاميا خائفا وقاموا بالتبشير لنصّر الجيوش الهتيرية.. وبناء عليه، فإن محكمة الثلاثة ضباط الكبار ل ن. ك. ف. د (أو. أس. أو) - لمنطقة كراسنويارسك تلخص الاتي:

- شتاينز، وبيرقر، وبيلسكى، الذين يقيمون الان في سجن التحقيقات في نورلسك يحكم عليهم بالاعدام رميا بالرصاص.
امضاء.. رئيس محكمة الثلاثة ضباط الكبار ل ن. ك. ف. د لمنطقة كرسنويارسك.

الجنرال... (الامضاء غير واضحة)....

وفي النهاية كان قرار المحكمة السوفيتية العليا بتاريخ ١٩٤٢/٩/١م.. كما يلي: - بعد الاطلاع على مادة قسم التحقيقات ل ن. ك. ف. د بنورلسك ان المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى وجدت أنه لايمكن تأييد خلاصة الحكم، بتنفيذ عقوبة الاعدام ضد المتهمين كارلو شتاينز، جوزيف بيرقر، وجورج بيلسكى، والذين ادينوا بالثورة المضادة للاسباب الاتية:-

١ / من قرارات آل ن. ك. ف. د الكثيرة بنورلسك والتحقيقات الواردة معها لانجد اثباتات ادانة المتهم كارلو شتاينز حيث ان توقيعه على التحقيقات غير موجودة.

٢ / اى قرار لسلطات التحقيق ينبغي أن يكون له محضر تحقيق مع المتهم، وهذا ليس موجودا في حالة المتهم كارلو شتاينز وبدلا عن ذلك وعن المحضر الثابت للتحقيق بأقوال

المتهم.. كتبت تعليقات بان المتهم يرفض اعطاء اية اقوال.
وحتى هذه التعليقات والتي جاءت على شكل قرارات من لجنة التحقيق فان المتهم لم يوقع عليها.

٣ / المتهم جوزيف بيرقر..

لقد استشفينا من حيثياتكم.. انه اضرب عن الطعام محتجاً.. لمدة ثلاثة وستين يوماً.. وانه قد اطعم بالقوة ليبقى على قيد الحياة.

٤ / المتهم جوزيف بيلسكى..

لم يجر معه تحقيق عادى ايضا.

وللاسباب المذكورة آنفا لانؤيد ماتوصلت اليه محكمة ال (او. اس. او) لمنطقة كرسنويارسك.

تعاد جميع اوراق قرار الاتهام ضد..

١ / كارلو شتاينر

٢ / جوزيف بيرقر

٣ / جورج بيلسكى.

الى قسم تحقيقات ال ن. ك. ف. د فى نورلنك..

بغرض اجراء تحقيق جديد.

رئيس المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى

الامضاء (غير واضح.. وغير مقروء)..

وعندما فرغت من قراءة كل هذه الملفات بقيت ساكنا فى مكاني بلا حركة لمدة طويلة من الوقت.

من الغريب اننى لا ازال حيا حتى الان...

وصلت كل الاجهزة.. وعلى جميع المستويات الى قرار بموتى، ولازلت حيا!!

ال ن. ك. ف. د فى نورلنك.

المدعى العمومى..

ال (او. اس. او) ..

كلهم وباجماعهم قرروا موتى وموت اصدقائى.. ولا تزال احياء!

كيف يمكن ان يحدث ذلك..؟

المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى لاتؤيد ولا توافق على قرارات هذه الاجهزة الثلاثة..

بقوتها وجبروتها..

هل نجح الاحسلس بالعدل..؟

ان المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى لم تكن شيئا يذكر الى جانب قوة ال. ن. ك. ف. د

والمدعى العام ومحكمة ال (او. اس. او) .. كيف يمكن نقض قرار اتخذته مركز قوى رهيب

مثل ن. ك. ف. د..؟ كيف..؟

هناك تبرير واحد لا غير..

هناك آلاف القضايا والاف الاحكام بالاعدام.. ولايمكن قراءتها كلها حتى يتم تاييدها.. ان

التاييد يصدر تلقائيا وبدون فحص تلك القضايا.. اما الحالات الشاذة مثل.. رفض اعطاء

اقوال.. اضراب عن الطعام.. فقد اضاف لقضيتنا شيئا خصوصا جعلها تحظى بالفحص

والتدقيق.. لذلك لم تؤيد المحكمة العليا حكم الإعدام.

وكان ال. ن. ك. ث. د. يرمي الى أن يطيل امد التحقيق لسنين عديدة، حتى يحبسنا في سجن المعسكر.. اذا لم يكن هناك مجال لموتنا.

ولم يضايقني قاضي التحقيق وانا اقرأ.. تركني أهضم كل شيء بهدوء - واستوعبه بامعان ورويه.. وما ان اعلنت له انتهائي حتى سألني:

- هل قرأت كل شيء؟..

- نعم.. كل شيء..

- ماهو تعليقك؟..

- من فضلك قل لي.. كيف استطاعت هذه الاجهزة أن تصدر حكم الموت على أناس أبرياء، دون تفكير دقيق؟..

- نحن الآن في حالة حرب. وأي جرم مهما كان صغيراً يجب أن يردع ويحزم.

- لايمكن أن تقبض على الناس من الشارع وتحاكمهم بالموت لانك في حالة حرب!..

- كل ذلك مضي.. ويجب أن لاتخف.. ان تدعم بالرصاص.. ستحاكم بعشر سنوات سجنًا.. وعندما تنتهي الحرب ونهزم هتلر ربما اطلقوا سراحك ونلت حريتك.

قال هذا وصمت فترة.

وبعد ذلك مدّ الى ورقة كتب عليها...

أن التحقيق في قضيتي قد انتهى.

وكان على التوقيع بالعلم على ذلك.

ووقعت..

وبقيت في السجن لاسبوع آخر.

وفي يوليو من عام ١٩٤٣م وفي يوم الاثنين بالذات وعند الصباح الباكر، دخل الزنزانة رئيس الحرس وقال لي دون أن يذكر اسمي..

- خذ حاجياتك واتبعني.

وحاجياتي هي.. بشكير.. فرشاة أسنان - كيس للخبز.. ولاشيء.

الثقت الى الرفاق وقلت لهم بحزن حقيقي:

- وداعا.. واتي اللقاء..

قادني الحارس الى مكتب السجن، وهناك حيّاني مدير السجن شوهاردن - بهذه الكلمات.

- رغماً عن كل شيء لقد أقلت من يدي.. كنت انتظرك بصبر نافذ لكي اوقفك امام (الدورة)!

- هل يساعدك قتل الناس؟..

- الفاشست امثالك؟ نعم.. يسعدني كثيراً وضع رصاصة في مؤخرة رأسك واجنبته بهدوء..

- كعضو سابق في الحزب الشيوعي، لا استطيع ان افهم ابدًا، بأن شيوعيا مثل يكون متعطشاً للدماء..

ونظر اتي مدير السجن نظرة يتطاير منها الشر.. ثم قال وهو يضغط على كلمته..

- يسعدني ان افعل ذلك.. كثيراً.. جدا.

بعد وقت قصير تجمع معي عدد من السجناء.. صفونا في صفوف خمسة، ونداءوا على اسمائنا.. امام الباب كان ثلة من الجنود بالسلاح.. الطريق من السجن الى القسم الثاني استغرق خمس دقائق فقط.. وقفنا امام الباب.. ثم جاء موظف قسم المعسكر.. في يده قائمة

باسمائنا.. شرع ينادى علينا متمما.
وقادونا الى مكتب القسم الثاني للمعسكر، حيث استلمنا كيونات الغذاء ثم سمحوا لنا
بوقت حر حتى الساعة الخامسة.

كنت اعرف القسم الثاني من المعسكر معرفة جيدة للغاية، فقد قضيت فيه عامين كاملين.
وقررت ان اذهب للعنبر لارى هل بقي من اصدقائى القدماي اُخذ... على الرغم اننى
اعلم جيدا ان اصدقائى الا الجانب نقلوا الى القسم التاسع فى المعسكر.. ولكننى كنت امل ان
التقى ببعض اصدقائى الروس وفى مثل ذلك الوقت يكون المعسكر عادة خاليا من
السجناء.. فالجميع بكروا فى الذهاب الى العمل.. الباقون هم المرضى فقط او الذين كانوا
ساهرين فى ورديّة الليلة.

دنوت من احد العنابر ووقفت قرب الباب.. لم استطع ان اتقدم للامام.. كانت الحجرة
مظلمة للغاية.. فقد غطى الثلج الشبائيك، ولم يكن الاوان قد آن لذوبانه بعد.. وفى مكان
ما فى نهاية العنبر اضيئت شمعة وحيدة.. بعد خطوات قليلة اصطدمت بالمدفأة.. وايقظت
الضجة التى احدثتها الحرس النوبتجى الذى كان نائما بالقرب من المدفأة وقبل ان اجد
لسائى الذى لصق بحلقى كل اسأله ان كان باتلان يعيش هنا، هب فى وجهى صائحا..

- ماذا تريد..؟

قلت باضطراب - اننى ابحث عن باتلان..

- هناك .. فوق الثانى من الشمال.

وعندما اعتادت عيني الظلمة رايت باتلان.. كان نائما.. ووقفت بعض الوقت بقربه، وانا
افكر هل اوقظه ام لا.. واشفت عليه.. ثم خفت ان لا اراه مرة اخرى ابدا.. ونطقت اسمه
بصوت خافت.. ولكنه لم يتحرك كان يشخر بعمق... وتحركت نحو الحرس وسألته متى
يستيقظ باتلان.. ولكنه كان فى مزاج رديء لم يرد معه اجابتي.. وبالصبر والحيلة عرفت
منه ان باتلان يصحو عادة فى الظهيرة قبل الغذاء.. وقررت العودة اليه.. ثم بحثت فى عدد
آخر من العنابر على أمل ان التقي باحد من معارفى واصدقائى.. ولكننى لم اجد احدا، على
الاطلاق كان فى يدى كيون الغذاء مازال.

وكان بإمكانى الذهاب لتناولوه.. غير اننى لم اكن املك آنية اضع فيها الطعام.
وذهبت الى المطعم ورجوت الحارس ان يسلفنى اناء.. ولكنه سبنى بغلظة فمضيت منه الى
اقرب عنبر وسالت النوبتجى ان يعطينى اناء.. فسألنى..

- انت لست غريبا عنى - اين تعارفنا..؟

- ربما.. لقد كنت فى هذا المعسكر من قبل.. ويحتمل اننا التقينا..

- ما اسمك..؟

- كارلو..

- هل انت كارلو شتليتز..؟

- نعم

- لم اكن اتوقع رؤيتك ثانية.. او لم تحبس فى بداية الحرب..؟

- نعم والى الان اجلس فى السجن..

- ماذا يمكنهم ان يصنعوا بالانسان؟ لم اكد اعرفك.. ان لم تقل لى اسمك!!

وكان ينظر ويحرق فى وجهى بحب استطلاع شديد.

علمت اننى سكنت معه لمدة طويلة في عنبر واحد.
كان هذا الرجل من رجال السكة الحديد في ليننجراد..
وكان منذ عام ١٩١٢م عضوا في المجموعة الثورية.. وقد اشترك فعليا في الثورة.
واصبح رئيسا للسكة الحديد في ليننجراد.. وفي عام ١٩٣٧م القوا عليه القبض بتهمة
تجهيز محاولة اغتيال استالين.
وفي فترة التحقيق كان يضربونه بعنف وحقد شديدين حتى اصيب بعاهات عديدة.
وعندما جاء المعسكر كان عاجزا عن أداء أى عمل فعينوه نوبتجيا على العنابر.
واخذ العجوز الكبون منى وذهب بنفسه لاحضار الطعام لى، وكان مكونا من الشورية
والعصيدة، فاعطانى قطعة من خبزه الخاص.
التهمت طعمى بسرعة.. وسعيت وراء اللحاق بباتلان.
كان باتلان قد استيقظ من نومه... وشرع في الاغتسال من اناء صفيحي وضع فيه الماء.
واضطرب بشدة حين وقع نظره على.. ومضى يحرق في بعمق مذهولاً غير مصدق لما يرى.
وفهمت موقفه جلياً.. علمان في السجن دفعت ثمنهما غالياً من ملامح وعمرى ومظهرى.
وذهب باتلان الى المطبخ ليحضّر غذاءه، ولأول مرة من ز من طويل اشعر بانى أصبحت
شيطاناً.
وعندما بدانا الحديث قادنى الى عنبر آخر.. وهناك وجدت صديقاً قديماً .. بولتنكوف
سكرتير الحزب.. لمنطقة دنيبروبتروفسك.
بعد اعدام هتاينج سكرتير منطقة دنيبروبتروفسك الذى كان متهما بقيادة منظمة
تروتسكى، القوا القبض على خلفه لولتنكوف بتهمة العضوية في نفس المنظمة وحوكم
بخمسة عشرة عاماً سجناً.
ولوقت كبير عمل رئيساً للعمال في المجموعة التى كنت اعمل بها.. واستضافونى بود
وحارة.. كان بولتنكوف قد تلقى طرداً من العجوز قبل فترة قصيرة.. وهى تقيم في مدينة
الما - اتى..
وكان بالطرد شحم لحم الجنزير.. ومعلبات اللحوم الأمريكية.. واعطانى بولتنكوف
قطعتين من الخبز.. وقطعة من شحم لحم الخنزير - للطريق.
وبمجرد خروجى من العنبر الذى يقيم فيه بولتنكوف احسست بغثيان والم في المعدة كنت
قد اكلت - وبعد زمن طويل جداً - أكثر من طاقة معدتى التى تعودت على الكفاف.
وجلست على السلام امام المنبر..
لقد حان الوقت لأعلن عن نفسى في مكتب المعسكر.. اذ انهم حتى ذلك الوقت لم يقولوا لى
شيئاً.. ولكن كان من الواضح انهم سيضعوننى في القسم التاسع للمعسكر.

في القسم التاسع للمعسكر الارض المتجمدة أبدا

في حوالى الساعة السادسة تجمع اولئك الذين تم اختيارهم للقسم التاسع في المعسكر.. تجمعوا كلهم ماعدا تلك المجموعة التي وصلت معى من السجن.. ثم اضيف اليها عشرون رجلاً.. وبذلك اصبحنا حوالى الثمانين رجلاً تولى قيادتنا ثلاثة من بوليس المعسكر الى الباب.. هناك كان حرس المتابعة منتظراً.

اربعة كيلومترات كاملة كان علينا ان نقطعها من القسم الثانى الى القسم التاسع للمعسكر.. وفي طريقنا الذى اتخذ الجانب اليميني من ادارة المعسكر في نورلنك والتي تقع بالقرب منها تكتلت وادارة حرس المعسكر.. كان علينا ان نطاطيء رؤوسنا.. وكنا نلمح بلكاد المبنى الحجرى الجراج المركزى والذي كانت به اماكن تتسع لمئات العربات.. وتخرج الطريق حول بحيرة ديقاشك.. ومن هنا كان بالامكان رؤية مباني القسم التاسع للمعسكر، وكسينة الطوب الكبيرة.

وتحركنا ببطء شديد.. الكثيرون منا لم يكن باستطاعتهم الاسراع في المشى.. وقد تفاضى رئيس الحرس عن ذلك ولم يطردينا.

ورغم ان الساعة تجولت الحادية عشر ليلاً فقد توقفنا مرتين لعدة دقائق من اجل الراحة.. كان المعسكر يتدفق بالضوء وكاننا في راحة النهار.

وبعد انتظار طويل مضى مضجر فتح الباب ووقف في جانبه الاخر موظفو السجن اخذ رئيس الحرس ينادى علينا بالاسم، ويحقق في تاريخ قدوم كل منا ونظلمه في العمل.. وكنا كلنا نكون فرقة عمل واحدة.

وعندما جاء دورى قال.. ستكون في نفس الفرقة..

ولكنه سرعان ما غير رأيه.. وصاح..

- لا... انت ستذهب الى فرقة عمل أخرى.. لانك ضعيف ولا تصلح لمنطقة التراب..

ثم تفكر مع مساعديه وتوجه نحوى قللاً:

- ستذهب لفرقة العمل نمرة ٢١ العنبر رقم ٩

وكان العنبر رقم ٩ مبنيًا من الألواح الخشبية.. فتحت الباب بحذر شديد.. كان الجميع نياماً.. بحثت عن مكان خال ولكن بلا جدوى.. كانت كل الاماكن مشغولة.

وقفت.. احمل صرتى الصغيرة في يدي.. وسمعت صوتاً خافتاً ياتى من الخلف.. التفت نحو.. كان رجلاً يرقد على الكنية السفلى.. اشار الى بيده لاقتراب منه، فلما فعلت.. سألنى عما يحدث.. لوضحت له اننى ضيف جديد ارسلنى رئيس الحرس، ولم اعثر على مكان انام فيه.

فنهض وقد بدأ عليه الاهتمام.. بحث هنا وهناك.. زرع العنبر طولاً وعرضاً ولم يعثر لي على موضع.. فاضطر الى ايقاظ اربعة أشخاص وامرهم ان يفسحوا لي مكاناً معهم.

وبدا الرجال في السبيل.. تحرك منهم اثنان فقط.. اما الاخران فواصلوا نومهما.. وقال لي التوبيجى..

- اوم نفسك هنا..

وخلصت البلاطو المبطن والحذاء.. ورقدت علي الكنبه.. او بالاصح رقد نصف جسمى على جسم جارى.

غذاي وكيس الخبز وضعتهما تحت راسي ولم يكن هناك مكان آخر.. وتحرك الرجال النائمين بالقرب مني.. واحسست انني ارقد على الواح خشبية خشنة قاسية. غطيت وجهي بالبلاطو انشدد نوماً سريعاً، فالوقت كلن متاخراً للغاية، والعمل يبدأ في الصباح الباكر.. وفجأة شعرت بشيء يتسلل الى وجهي.. مدت يدي ببطء وقبضت عليه.. كان مجموعة من البراغت المتوحشة.. وكنت معتاداً على التوم معها ومقاسمتها ساعات الليل.. ولكن هذا النوع الذي رآني سريعاً، كان مبالغاً فيه.. من كل النواحي.. سحقت الذي زحف على وجهي.. ولكن سرعان ما هاجمتني جيوش أخرى.. احسست بأن جسدي قد التهب وعشرات الافواه القارصة المتعطشة للدماء تنغرس فيه وتبدأ عمليات الامتصاص.. حاولت بكل الطرق تخليص نفسي، ولكنني في النهاية القيت سلاحي واستسلمت. فقد كانت معركة خاسرة من البداية. وبقيت حتى الصباح مفتوح العينين، انزف من الداخل والخارج.

وايقظني الجرس الحاد لمعظم الرجال، اما الذين تنلوموا فقد تولت ضربات جيرانهم تلك العملية.. واستيقظ جيرانى فراوئى.. وبدأوا ينظرون الى باستغراب شديد. الذين كان بينهم وبين النخالة وذ مفقود، ذهبوا راسا للمطبخ لاحضار وجبة الافطار.. ولكن على التوجه للمكتب لاحضار كبون الاكل -والخبز.. وقضيت زمناً طويلاً في البحث عن المستول الذي اعطاني الكبون وكان على ان استلم الخبز في المساء.

وبينما انا اجرى هنا وهناك من مكتب لآخر سرقوا كيس الخبز الذي تركته في العنبر. وسمعت صوت الجرس للمرة الثانية.. وذلك يعنى التوجه للعمل.. ومن العنابر تدفق نهر السجناء.. وقفوا في خمسة صفوف.. ثم تحركوا الى مواقع العمل. وبحثت عن الغرفة رقم ٢١ التي وضعت فيها.. وعندما وجدتها قابلت رئيس الغرفة واوقفني في الصف.

وما ان وقفنا في الصف حتى جاء رئيس الحرس وسال قائلاً:

- اين شتاينز؟

واجاب رئيس العمل - من المحتمل ان يكون هذا الجديد.

قال ذلك وهو يشير ائى، فخرجت من الصف.

وقال لى رئيس الحرس..

- ارجع مرة ثانية للفرقة التاسعة..

ورجوته ان يتركنى هنا.. ولكنه اجابنى بعدم استطاعته عمل شيء في هذا، وقال انه يتفهم موافى جيداً ولكن الامر اكبر منه.. فقد صدرت التعليمات من (اعلى) بان اودى الاعمال الجسمانية الشاقة.

وصدمنى هذه المعاملة.. سببت لى كآبة شديدة.. ففتحت الابواب وتحركت نحو فرقتي الجديدة.. الفرقة التاسعة - وفي الخارج وقف الحرس متاهباً.

الطريق لمكان العمل كلن طويلاً جداً.. خيل ائى انه لا نهاية له ابداً وكنت متعباً جداً.. ليل طويل بلا نوم.. تعب وعناء في البحث عن كبون الطعام.

نجحت بعد صعوبة شديدة في لم شتات قواي المبعثرة.. وتابعت خطوات الآخرين.. وحذرنى الحارس بكلمات جارحة ان اترك التلكو وان اسرع قليلا.. وعندما وصلنا الى مكان العمل سارع رئيس الحرس بتفتيش المكان خشية ان يكون احد الناس المتعاطفين مع السجناء قد ترك فيه خبزا او ..طعاما.

ثم تفرق الحرس.. احاطوا بالمكان وقفلوا منافذه.. ووضعت اللافتات التي تنص على ان هذه منطقة ممنوعة.. وبعد ذلك سمح ببدء العمل. كانت ارشادات رئيس العمل هي نفس ارشادات رؤساء العمل المختلفين، نفس الكلمات ونفس الجمل.

امامنا وقف تل ضخم كان علينا ان نساويه بالارض..

حفر السجناء حفرا عميقة في الارض المتجمدة ابدا وقاموا بوضع المتفجرات داخلها.. ثم حضر الفنيون فوضعوا الفتيلة والكبسولة في ذلك الموقع.

عندما حانت ساعة الراحة ابعدونا لمسافة ثلثمائة متر تقريبا عن المنطقة الخطرة اما كتل الارض المتجمدة، فكان من الواجب تكسيرها بالالات الحادة والمعاول.. ثم توضع في عربات النقل الصغيرة وتحمل الى مكان تفريغها الذي يبعد حوالي مائتي متر عن الموقع.

كل عربة صغيرة تحمل رقما معيناً وعند التفريغ ترصد ويسجل رقمها في دفتر يحملها سجين موكل به ذلك.

وبعد انتهاء العمل يبدأ فرز نمر العربات التي افرغت حمولتها.. وبذلك يحصل كل سجين مقابل الكمية التي افرغها على الخبز والطعام الدافئ.

وقف كل واحد في مكان عمله المخصص الا انا.. فلم اكن قد حصلت على عمل بعد. نظر الى رئيس الحرس وسألني:

..كم تبلغ من العمر؟

..ثمانية وثلاثين عاما..

..ماذا؟ لقد كنت اعتقد انك في السابعة عشر.. هل انت مريض؟

وحدثته من اين اتيت..

وقام هو بسؤال رئيس العمال قائلا:

..ماذا اصنع بهذا؟

.. هذا ملاكنت افكر فيه انا نفسي.. لقد وصل الى هنا بصعوبة شديدة..

اسمع يا شتاينر هل تعرف الكتابة..؟

.. اعرف.

.. اذن سوف نوكل اليك عملية رصد عدد العربات التي تفرغ حمولتها.

وجلس على عجل مكسور، وامامى قطعة من الخشب اكتب عليها عدد العربات التي افرغت حمولتها.. وفي المساء جمعت عدد علامات ال (x) التي قمت بتسجيلها.. ثم كتبتها على ورقة اعطيتها لرئيس العمال.

وعند عودتنا في المساء لم اكن مكتئبا كما كنت في الصباح. كنت سعيدا لانى صادفت اناسا طبيين اعطوني عملا سهلا.

في فرقتي كانت نسبة الالمان تسعين بالمائة مقابل عدد قليل من الروس.. الغالبية كانت من الالمان المهاجرين، والبعض كان مزدوج الجنسية (المانى روسي).

وفي المساء جاعنى بعض المعارف القدامى طلبوا منى ان ازيد من علامة ال (x) امام حصه

كل منهم.. فوعدتهم بذلك.

كان همي لحظتها أن أحصل على أثناء أحضر فيه طعامي.. ولم أبحث طويلا، أحد الرجال عرض عليّ بعض الاواني مقابل قطعتين من الخبز.. استقطعهم من طعامي على أربع دفعات.

بعد مرور يومين جاعني الحارس متسائلا

- كيف وصل الجميع الى المعدل الاحصائي في العمل...؟ وبعضهم تجاوزه الى اعلى.. ومع ذلك فمكان التفرغ ممتلئ حتى النصف...؟

حاولت اقناعه بانني اكتب بدقة شديدة.. ولا مصلحة لي في أي تجاوزات. واصبحت حذرا وكنت اكتب اقل القليل في الزيادة.. وهذا اغضب مني زملائي.. وقال لي بعضهم.

- انت رجل بلا قلب.

ولم استطع مقاومة نظراتهم المتوسلة الضارعة واجسامهم الهزيلة وبطونهم الخاوية.. وعدت اكتب من جديد العلامات (x) الزائدة.

واستدعاني رئيس الحرس.

كان جدا معي هذه المرة..

- يا صديقي العزيز.. ارى أنك تعطف على الآخرين اكثر من عطفك على نفسك.. يميل الى انه يتوجب عليك جر العربات المحملة. واذا تكرر منك ماحدث، ساعين احدا مكانك.

ووعده بان اكون عند حسن ظنه.

وفكرت في ايجاد عمل بديل، لانني كنت أعلم جيدا من انني لن استطيع البقاء هنا في ذلك المكان.. وفي نفس المساء ذهبت الى المكتب وطلبت من رئيس الحرس أن يجد لي عملا آخر سهل. ولكنه اعتذر بعدم امكانية ذلك وطلب مني اللجوء الى القسم الصحي. وقد كان.. ذهبت الى دكتور ماير الذي كان المانيا يعيش في روسيا، وقبض عليه عام ١٩٣٤م بتهمة التجسس للامان.. وحكم بعشر سنوات سجنًا.. قضى معظمها في الاعمال الشاقة... والان ارجع الى مهنة الطب مرة أخرى.. كان رجلا ضخام الجسد - ابيض الرأس.. اصلع.. طيب وهادئ.

وعندما مثلت امامه.. وشرعت في خلع ملابسى لأريه كيف بنا هزيل، اشار الى بيده قائلا:

- لا تفعل.. فبدون اللجوء الى تعريتك استطيع ان اعرف حالتك الصحية ثم وعدني بان يخبر مدير المعسكر، ويحاول نقلي الى فرقة عمل أخرى.

وعندما كنت اشكره. قال لي

- من أول الشهر ستحصل على وجبات ضد مرض الاسكروبت، وهي وجبة اضافية تعطى لمرضى الاسكروبت. وتتكون من الخل والجزر وبعض نقاط الزيت..

وكنت قد علمت ايضا ان المرضى بهذا المرض يحصلون على ربع لتر خميرة تعد في مطبخ المعسكر من دقيق الذرة الشامي ونبات خميرة البيرة.

وعملت عدادا للعربات الصغيرة مدة يومين بعد ذلك.. وفي اليوم الثالث عندما اردت ان اجلس في مكاني بالقرب من العجل المكسور، حضر الى رئيس العمال وبصحبته أحد السجناء.. وطلب مني تسليمه ادوات عملي، ثم اعمل مكانه في قيادة وجر العربة المحملة بالتراب.

وقد كان.. استطعت ان اجر خمس عربات بشق النفس، وفي العربة السادسة خارت قواي

لم تستطع يدأى الإمساك بمقود العربية، فهوت العجلات وانقلبت العربية وتبعثرت نصف الحمولة..

وتوصلت البقية الى مكان التفريغ بعد جهد جهيد.. والان؟
مكاني اخذه سجين آخر، وعلى تفريغ العربات حتى موعد الغذاء. واستطعت الصمود قليلا.. ولكن في النصف الثاني من النهار لم استطع الحراك. ولم اسمع رفاقي يعلقون.. كانوا يعملون اننى اقلسى الان بسببهم.. وعندما انتهى اليوم عدت متكئا على سواعد رفيقين.. وذهبت الى القسم الصحى.. فقلسوا حرارتى.. ولكنها كانت طبيعية.. وعليه فسأذهب غدا للعمل... مرة أخرى.

وفكرت في التمرد على الذهاب غدا لموقع العمل.. ولكنى كنت اعلم أن لذلك نتيجة واحدة.. هي وضعى في رزانة الحبس الانفرادى. وسيكون وضعى هناك اصعب.. وكمية الخبز اقل.. لا... لا ان ذلك ليس هو التصرف السليم.

وتوجهت الى مدير المعسكر.. ليحدد لى عملاً سهلاً.. كنت انوى أستعطفه ورجاءه.. ولم لجدته في مكتبه فقصدت معلونة وبمجرد ظهورى امام الباب صاح في وجهى قللاً:

..ماذا تريد مرة أخرى؟

..انى هنا للمرة الاولى.

..امس حضر الى هنا صائح يشبهك.. ماذا تريد؟

..عملى صعب جدا.. وانا مريض وهزيل كما ترى..

..ما اسمك؟.. وبأى مادة حوكت؟

فكرت له اسمى والمادة التى حوكت بها.. فأجابنى بلهجة عنيفة..

..ليس لمثلك عندى الا العربية المحملة والمجراف.

وعلمت انه لا فائدة من الجدل معه.

وكفنت الساعة العشرة ليلا.. وسمعت انذار النوم..

توجهت الى العنبر لاطعم البراغيت من دمي.

كنت على ثقة من اننى لن احتمل..

سانهل.. والى الابد...

سانتهى من كل الامسى.. انا احب الحياة رغم آلامها وبؤسها ولكن كيف اقاوم.. لاستمر احيا.

واخيرا نمت.. وفي الصباح لم اسمع انذار النهوض من النوم. وايقظنى النويتجى واسرعت

الى المطعم لاجد أقطارا لى.. كنت متعبا جدا.. وفكرت.. كيف استطيع الاحتمال والصمود

اليوم؟

وعندما كنت اقف في الصف امام الباب مر دكتور ماير..

واسرعت لحييه فنظر الى باستغراب، واقترب منى وسألنى..

..كيف لم تحصل على عمر آخر؟

..كما ترى.. اننى كنت ان اموت بالامس.

..اذن مر على بعد العمل.

واعطنتى كلماته هذه طققة، وقوة جديدة.. الطريق الى مكان العمل لم يكن طويلا مثل كل

يوم، ولم يتعبنى المشى على الاطلاق.. عملت بكل قواى حتى لا اغضب زملائى.. وعند فترة

الراحة في الظهيرة حدثتهم بأن دكتور ماير طلب حضورى الى العيادة وأمل أن يساعدنى.

وقال أحدهم..

يكون جميلاً إذا أسرع، حتى نحصل على وجبتنا كاملة، هل تعلمون؟

هذا هو اليوم الثالث ونحن لانحصل على المعدل المطلوب.

وفي المساء ذهبت لمقابلة دكتور ملير.. وقد ودعني رفاق القسم بأمل.

وأمام المسؤولين وضح لهم دكتور ملير حالتي الصحية فوعده بان يضعونى فى عمل اسهل.. فقط على الصبر لمدة ايام.. واصبت بصدمة شديدة... كنت أمل ان تكون هناك استجابة فورية لرجاء الطبيب.. وبكيت بصمت. وحاول دكتور ملير ان يخفف عنى عناء الصدمة ويطنّب خاطرى.. ولكنى لم اسمع ماقله لى. كنت افكر فى الذى ينتظرنى غدا.. واصلبنى خوف شديد. وربكنى هم قاتل. وفى صلاة العيادة قابلت الممرضة التى تعمل مع دكتور ملير وكانت تعرفنى من قبل.. فسالتنى:

..كيف حالك؟..

..ممتع للغاية وان كان احسن من هذا فلن استطيع احتماله!!

..هل ماركت تفرغ التراب؟..

..نعم. للأسف..

..ماذا يقول دكتور ملير؟..

..انه سيحاول مساعدتى.. ولكن من فى المكتب لايتجاوبون معه بسرعة.

..دكتور ملير سيساعدك بالقطع.. لقد ذكر لى انه سيفعل شيئاً من اجلك

..دكتور ملير رجل طيب بالتأكيد - ولكنى عندما اتذكر يوم غد والعمل فى التراب، اتمنى الموت.

..انتظر قليلا ساتحدث مع الدكتور.

عادت بعد دقائق ودعتنى للعيادة.. قال لى الطبيب:

..منذ الان ولمدة ثلاثة ايام لن تذهب للعمل.. وفى هذا الوقت ساحاول ان افعل شيئاً لنقلك.

ولم اجد من الكلمات ملائمة لمقام شكره.. توقفت الكلمات فى فمى وغصى بها حلقى.. فتمتمت بما يشبه لغة العرفان وانصرفت.

يمكننى اذن ان ارتاح لمدة ثلاثة ايام..ويمكننى فيهما ان اتجول فى القسم التاسع من المعسكر واتعرف عليه بصورة احسن.. ان الرجال هنا لايتزاوون لانهم بعد العمل يصلون درجة الموت من التعب.

اول شئ فعلته هو اننى زرت شاسا فيبر الذى كان يعمل فى كمينه الطوب كمساعد كاتب. علاقته به لم تكن كما ينبغي، بسبب رايه ورأى المتباينين فى نظام ستالين.. حيانى ساشا بحرارة.. ربما تغيرت افكاره.

ولم اكن مخطئاً.. من الكلمات الاولى التى تبادلتها معه اكتشفت التغيير الكبير الذى طرا على افكاره.. وما ان جاءت على لسانى ذكرى القائد المحبوب. حتى بدا عليه سيلا من الشنائم والصق به العديد من النعوت القبيحة. كان ساشا غاضباً من اجل السياسة الوطنية، التى اتبعت اتجاه الالمان فى روسيا.. وبالاخص اولئك الذين يسكنون منطقة الغولجا

واحضر ماء ساخناً.. وجلسنا على الكنية نشرب الشاي، وودعته منصرفاً عند سماع جرس النوم.

وقبل نهاية الثلاثة ايام اخبرنى رئيس الحرس بانى نقلت الى الوحدة التى تعمل فى كمينة الطوب..

ورحلت الى عنبر آخر..
ومنذ الليلة الاولى احسست بالفرق بين هنا وهناك.. كانت البراغيت هنا اقل.. وكان النوم اهدأ.

كانت كمينة الطوب تجاور المعسكر. لذلك فقد ذهبنا للعمل دون حراسة.
كانت الحراسة فقط حول المصنع وفوق أبراج المراقبة.
الطوب الذى لم يجف بعد كان من نصيبى.. احمله على عربة صغيرة الى مكان التجفيف..
وافرغه وارصه على الإدراج.. كان العمل شاقا ايضا، فالمعدل الاحصائى عال جدا.. ولكنه على اى حال كان محتملا بالقياس الى غيره. وزال عناء المشوار الطويل لمكان العمل والعودة الى المعسكر.

وسالت الرفاق الذين عملوا هنا لوقت طويل..

- كيف الحال مع الخبز؟

- نحن نحصل على كميات جيدة منه.

- هل غالبية العمال هنا من النساء؟

- القسم به جانبان.. جانب للنساء وآخر للرجال.

الحب فى المعسكر

لما كان العمل هنا مشتركاً بين الرجال والنساء.. فقد حرصت النساء على ان تكون هيئتهن انيقة مرتبة نظيفة.. كن يحضرن لمكان العمل بالملابس المعسكر التى كن يرتدينها فقد كانت أنيقة نظيفة رغم فقرها وبؤسها.. بعضهن كن حريصات على ارتداء الملابس التى أرسلت لهن من منازلهن.

لاحظت ان عدداً من الرجال فى الأقسام الأخرى يأتون إلينا بغرض مغازلة النساء.. يحدث ذلك رغماً عن بعد تلك العلاقات وارتفاعها عن سوء الغرض. وكانت هناك علاقات جادة أيضاً.

غرفة تجفيف الملابس لو قبيض لها ان تحدثت لباحث بالكثير من الذى دار بين جوانبها.. كانت الغرفة منظمة للغاية، دافئة حميمة كأنها أعدت للعشاق.

ولم يكن أحد يفكر فى الراحة.. كل شخص اتخذ لنفسه موقفاً ينتمى بهـ بوجوده داخل نطقه.. وبمعرفة الخاصة فقط.

وعلى شدة الرقابة وحرصها كانت القلوب تخفق بالعواطف الجياشة وتتجlob دقاتها معبرة عن جيشان الوجدان الإنسانى.

وكان للحب ثمنه.. كما لكل شىء هنا..

كانت خدمات الحب من رسائل ووصايا وتعليقات ولفت نظر الخ.. تكلف الكثير.. قطعة من الخبز.. وفى النادر قطعة من لحم الخنزير أو السكر والزبائن العملاء كانوا من الطباقين.. وصانعى الاحذية والخياطين.. وغيرهم.

وعلى الرغم من أن غالبية الرجال كانوا شباباً إلا انه لم تكن لهم امكانيات أو هوية فى النساء.

فى بعض الاحيان تحدث بعض المآسى العاطفية تكون نهايتها القتل أو الانتحار.. وبعد مرور شهر أحسست بانى أحسن كثيراً مما كنت عليه حين جئت الى هنا.. إلا اننى لازلت ضعيفاً. أغلب السجناء أيضاً كانوا ضعفاء.. لذلك كان الرجال والنساء فى المجموعة الثالثة.

فى الاتحاد السوفيتى سجنوا مليون امرأة.. فى معسكر نورلنك وغيرها. كانت هناك معسكرات عديدة للنساء.. جزء منهن كان يقيم فى معسكرات مختلطة أيضاً.

عنايبر النساء فى مثل هذا النوع الأخير من المعسكرات كانت محاطة بحاجز من الاسلاك.. ولم يكن يسمح للرجال بدخولها قط. فى معسكرات النساء وضعوا مع السجنات السياسيات والمجرمات أيضاً. وقامت النساء أكثر من الرجال فى هذه الحياة المشتركة مع العاهرات واللصقات والقاتلات.

وبالرغم من المنع الصلوم والعقاب القاسى فإن الرجال كانوا يأتون دائماً ويومياً الى عنابر النساء.. يتأمون معهن فى فراشهن ويمارسون الحب معهن على مرأى من الجميع.. وكان رجال بوليس السجن هم أصحاب النصيب الأكبر فى التمتع بالنساء.. كانت للواحد منهم أكثر من عشيقة وخطيلة.. وقد شجعت إدارة السجن على نمو تلك العلاقات الخاصة.. وكانت الفروض متاحة وكثيرة للقاءات المحرمة.

كانت كمينه الطوب من تلك المباني ذات الفجوات والفتحات مما يصلح ان يكون مخبئ

جيدة للعشاق .. وقد فكر المدير باتسرنى فى عقوبة خاصة للعشاق المقبوض عليهم بتهمة ممارسة الحب.

كانت تلك العقوبة هى تنظيف المراحيض ونقل القاذورات والفضلات فى العربات الصغيرة الى خارج المعسكر.

وكان الفضوليون ينتظرون كل مساء بالقرب من مبنى دورات المياه ليروا عشاق اليوم المقبوض عليهم بتهمة ممارسة الحب.

كانوا يجرون عربات الفضلات بشجاعة وصبر وغالبا ماتمتنع الناس عن البكاء والشكوى.

السجناء السياسيون من الرجال والنساء كانوا اقل الفئات نشاطا فى ممارسة الحب .. لاسباب كثيرة .. منها الاخلاقى والمبدئى والوضع الخاص الذى كان صعبا للغاية.

ترك الكثيرون منهم نساءهم واطفالهم وراء ظهورهم بلا عائل ولا معين . كانوا يعلمون بان السلطة تنظر اليها كاعداء للشعب .. وكذلك تتصرف حيالهم .. ماذا يعنى ذلك فى الاتحاد السوفيتى ؟

هذا يعلمه فقط الذين عاشوه وعانوه.

الزوجة اولا .. تفصل من العمل .. وبعدھا يطرد الاطفال من المدرسة.

يجب عليهم بعد ذلك ومن تلقاء انفسهم ان يختفوا من المدن الكبرى . وان يحاولوا الانزواء فى القرى البعيدة .. وكان الاقارب عادة يتهربون منهم ولا يريدون او يطيقون استضافتهم .. خوفا على انفسهم من المضايقات البوليسية والرقابة وربما القاء القبض عليهم.

وكانت النساء مجبرات على طلب الانفصال عن الازواج السجناء كانت الاعلانات فى الجرائد تحمل يوميا تصريحات النساء المتبرئات والمطلقات لازواجهن .. ويحدث ذلك بضغوط معينة.

لذلك كان السجناء السياسيون يتعففون عن مثل تلك الممارسات العاطفية مع نساء المعسكر .. كانوا يمسكون جماع رغباتهم حرصا على السلوك السوى القويم .. كان هناك بعض الذين يشذون عن هذه القاعدة بالطبع.

وكان الذين يتمتعون بالجاذبية والحظوة لدى النساء هم الاقوياء (الشبعانون) والدعارة فى نورلنك كانت منتشرة جدا .. ففى كل وقت تكون هناك امرأة ما مستعدة لتبيع نفسها مقابل وجبة طعام.

وغالبا ماتحدث المغالطات والتحصيل والهروب من اداء الذم المطلوب بعد ارتكاب الخطيئة .. وتحدث المشاجرات وتتصاعد المشاكل.

صديقى ساشا فيير كان يعمل كاتباً فى كمينه الطوب تعرف على مساعدة المعمل ايدى .. كانت تسكن منطقة الفولجا .. المانية اعدم زوجها رميا بالرصاص .. وكانت التهمة هى العدا للشيوع .. ثم اعتقلت هى وحكم عليها بعشر سنوات سجناء .. وجمع الحب بين القلبين التحيسين واحكم وثاقه وفاض وأربى ..

وفى عام ١٩٤٧م اطلق سراح ساشا لقضائه مدة العقوبة ، واصبح حرا .. ولكنه بقى فى مكانه يعمل قريبا من مالكة قلبه ايدى التى كان عليها ان تقضى خمس سنوات اخرى فى

السجن.

وفي عام ١٩٤٩م جرى اعتقال ساشا مرة أخرى.. وحوكم بعشر سنوات سجنًا.. ومن سخرية الاحداث ان ايدى أفرج عنها في عام ١٩٥٢م - فبقيت في انتظار قضاء حبسها لمدة عقوبته الجديدة... ولكنه كان ينتظرا بلا جدوى.. فقد احترقت يد الموت ساشا في عام ١٩٥٣م.. وقضى نحبه في قسم (مدنا فورا).

كان على النساء ان يعملن اعمالا شاقة كالرجال تماما.. وقد طبق القائمون بالامر ذلك المبدأ حرفيا في الاتحاد السوفيتي.. وعملت النساء في كمينة الطوب اشق واقسى الاعمال.. حفرن الطين والتراب والحصى.. وفرغن اكياس الاسمنت الثقيلة.. وكان ذلك يعتبر من الاعمال الخفيفة الهينة.. لان الاسمنت في الاكياس وزنة الكيس الواحد خمسون كيلوجراما وفي رأى السدنة الحاكمين ان ذلك شيء خفيف ولم يكن في الاعتبار ان النساء ليس في مقدورهن اداء عمل ما تعودن عليه.. لاسيما اذا كان من اعمال استخدام القوة العضلية.. ومن النساء السجينات من كانت أستاذة جامعية.. ومن كانت طبيبة ومن كانت عاملة فنية الخ..

العمل الشاق والظروف غير الصحية، طعمت النساء ضد النظافة والفضيلة والقيم. كن يبحثن عن مخبأ يلذن به مع رفيق، وهن قدزات مشعثات لم يغتسلن او ينظفن ثيابهن منذ اسابيع عدة.

وكانت نتيجة تلك العلاقات غير الشرعية اطفالا غير شرعيين أيضا... والكثيرات كن يبحثن عن الحمل باية طريقة حتى يأخذن بعض الراحة (الشرعية).

أما الاطفال فكانوا يقومون بانتزاعهم من أحضان الامهات، حتى يذهبن لمواصلة العمل الشاق.

أمام محكمة المعسكر

بعد كل ثلاثة أشهر تحضر الى المعسكر لجنة طبية تقوم بمراجعة وفحص وترتيب أوراق العمل للمراحل الجديدة.
وكان الرجال يخافون قدوم هذه اللجنة ويهابونه اذ من المحتمل ارسالهم الى مواقع أخرى، العمل فيها أكثر.. وأشد قسوة.
كان الكثيرون منهم يعملون بشتى الطرق لتستمر احوالهم الصحية فى الهبوط.. وان لا تتحسن أبداً.. وكان ذلك يعنى الكثير.
كانوا يمتنعون عن الاكل لمدة ثلاثة ايام وأكثر حتى يبدو عليهم الهزال والضعف، او يستمرون فى التدخين بشراهة وعدم توقف فيبدون أمام اللجنة منهكى القوى ساحبى الوجه.

فى ذات ليلة عندما عدت من العمل اخبرنى النوبتجى ان اذهب فوراً لمكتب المعسكر. وخفت جداً..

ما الذى جرى؟.. لماذا لا يستمر الهدوء وان كان قاسياً فى حياتى هنا لمدة طويلة؟
هل سأنقل الى عمل شاق آخر؟.. أم لاني لم اكمل اول الامس المعدل الاحصائى للعمل.
قررت الذهاب اولاً للمطعم اضمن وجبة عشائى اولاً.. لان ذهابى للمكتب قد يضيعها على.
اخذت أنيتى وتوجهت لمكان الطعام.. وجدت حساء الفاصوليا.. وهذا ما يحدث نادراً للغلبة، ورجوت الطاهى ان يضاعف لى الكمية عوضاً عن العصيدة.. فانا لا أريدها.
ولكن الطاهى كان كريماً، وضع لى ضعف نصيبى من الحساء وفوقه وضع ايضاً العصيدة واعتبرت ذلك فالاً حسناً.

وبعد العشاء أسرع الى مكتب المعسكر.. وأخبرنى المدير قائلاً:

- غداً لتذهب للعمل.. ولكن تعال هنا فى تمام الثامنة وستذهب سويًا الى المحكمة.

المحكمة؟.. كنت أعلم ما ينتظرني.. ولكنى مع ذلك كنت مضطرباً جداً.. سينقلون لى ما اخبرنى به ال ن ك ف د من قرار تجايتى من الموت.. ولكنى كما ذكرت كنت مضطرباً جداً.
كن الموقف فى الجبهة قد تغير بمرور الوقت.. انسحب الالمان من كل الجبهات.. أما عندما سجنتم اما واصدقائى كن الاتحاد السوفيتى يواجه موقفاً هو الكارثة بعينها. وذلك بفضل السيلسة العبقريّة لجوزيف ستالين. كن الجيش الاحمر يواجه تلك الحرب بدون جنرالات.. قلاته الافاذل امثال توهلجفسكى - ياكير - بلوجير - وآخرين لا يلقون عنهم فى العبقريّة العسكرية.. كلنا قد اعدموا فى عام ١٩٣٧م.

الذين كانوا على قمة القيادة فى بداية الحرب كانوا اثبلاً كارينكاتورية فقط للقواد العظماء.. يعرفون فقط كيف يلعبون حذاء ستالين.. اما عن الحرب فكانت افكارهم صفراً كبيراً.

ويفضل امريكا.. والمساعدات الكبيرة فى العتاد الحربى.. والمواد الغذائية والطبية، بدأ الموقف على الجبهة فى التحول لصالح الاتحاد السوفيتى.

وكن املى الآن ان لا اكون ضحية للسلطة فهى لم تعد فى حاجة لمزيد من الخراف.
ومرة أخرى يتضح جلياً المقياس العادى للفرق بين الرجل الاوروبى فى وطن غير وطنه، وظروف غير ظروفه.. وذلك لان القضية ضدى وضد رفلقى رغماً عن كل شيء ستقام من جديد..!

كنت طول الليل افكر بذلك.

في الصباح الباكر كنت مستيقظا منذ الخامسة.. ذهبت للاغتسال، ولم يكن من الممكن حلق ذقني ذلك الصباح.. كان بنطالي مرقعا.. لذلك انشغلت بالبحث عن يعبرني غيره من اصدقائي في العنابر المجاورة.

أردت أن يكون منظري حسنا في المحكمة..

قبل الثامنة بدقائق كنت في مكتب المعسكر.. قلادني المدير الى جنديين توليا حراستي.. كان الوقت خريفا والطقس جميلا منعشا.. سرنا ببطء.. كنت افكر في ما ينتظرنى وكنا يدخلان ويتحدثان بصوت خفيض.. اما انا فقد بدأت في اعداد اجاباتي على الاسئلة والاتهامات المتوقعة من القضاة.. وغمرني فجأة احساس بسعادة غريبة.. مرة أخرى سارى اصدقائي جوزيف وجورج.. وكنت اتطلع لمناقشة الشهود وتفنيد تلفيقاتهم وتعرية مواقفهم المتأمرة.. وطاف بذهني هاجس آخر.. هو أن يملأ القدم قلوب الشهود فيسحبون شهاداتهم الكاذبة.. ولكن ذلك لا يحدث في الاتحاد السوفيتي لان شهادة ال. ن. ك. ف. د شهادة لايتاياها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

كانت محكمة المعسكر تقع في بناء خشبي من طابق واحد. وعندما وصلنا دخل أحد الجنود، وعاد بعد دقائق فقلادني الى الممر.

وفي الممر قابلت جوزيف.. ومن الشهود كان هناك روجانكوفسكي فقط. حصر نفسه في احد الاركان ولم يجروا على رفع عينيه نحوى.

وحيت جوزيف.. وبعد دقائق احضروا جورج وبقي حراسه في الخارج.. ووقفنا نتحدث بحرية وبلا حرج.. ومضى وقت قليل ثم وصل المهندس يروس الذى كان يتشهد ضد جوزيف.. وكان تصرفه نقيضا لتصرفات روجانكوفسكي.. اقترب منا وحيانا.. وعرض علينا السمك المملح والخبز.. وجلسنا على الكنية وافطرننا.. وفي الممر ظهرت سكرتيرة المحكمة عدة مرات لترى ان كان الجميع قد وصلوا...

تحدثنا كثيرا دون أن نلقى عنقا في رفع اصواتنا.

وظهرت سكرتيرة المحكمة لتعلن أن الجلسة أجلت حتى بعد غد، لعدم وصول الشهود. فانصرفنا بهمونا..

وفي اليوم الموعد جئنا، وجاء الشهود ماعدا روجانكوفسكي.. فتأجلت الجلسة اسبوعا.. فانصرفنا ايضا بهمونا.

وعند حضورنا للمرة الثالثة كنا نعلم أن الجلسة ستعقد، سواء احضر الشهود ام لم يحضروا.. وادخلونا الى قاعة المحكمة.

أجلسونا في الصف الاول.. وبقي الشهود في الغرفة المجاورة.

كان الجنود المدججين بالسلاح يقفون على الجانبين يراقبوننا بعيون حادة. وفجأة صاح أحد الجنود..

— قيام.

ووقفنا.. ومن الحجرة المجاورة ظهر القضاة، وعلى راسهم كان القاضى قروهوف.. وهو رجل سيء السمعة.

وبعد قليل جاء رجل في ملابس مدنية وآخر في زى ال. ن. ك. ف. د وسكرتيرة المحكمة الشابة.

وانعقدت المحكمة بدون المدعى العام.. ولم يكن لنا من يقوم بالدفاع عنا.. وحتى لو توفر لنا هذا الحق، فمن هو المحامي الذى يجرؤ على ارتكاب خطأ جسيم كهذا الخطأ.. ففي عهد ستالين لم يتم محاكمة واحد بالدفاع عن متهم تحت المادة ٥٨.

جلسنا واتخذ القضاة املكنهم خلف منضدة مكسوة بالقماش الاحمر. وظللت اراقب قورهورف وهو يقلب الاوراق.. كنا نكرهه.. وعندما دخل لاحظت انه يعرج.. كان قصير القامة نحيف الجسم.. وظهره مقوس.. كان وجهه وجه عنزة شعثاء.. وعينه اليسرى من الزجاج.

وهمهم بكلمات غير واضحة.. علمنا منها ان الجلسة قد فتحت.

إكأن أول من نادوا عليه هو جوزيف..

- المتهم جوزيف هل تشعر بانك مذنب؟..

- لا اشعر بانى مذنب.

ثم كن الدور على شخصى فنادونى.

- المتهم شتاينر هل تشعر بانك مذنب لنشارك افكار الثورة المضادة بين السجناء فى معسكر نورلسك؟..

- لست مذنباً.. كل ذلك من تلقى واختلاق ال ن. ك. ف. د، لست انا او من اصادقهم بفانستين.. او ثورة مضادة.

ولم يعلق احد على اجابتى، نادوا على جورج..

وساله قورهورف..

- هل لك اعتراض على تكوين المحكمة؟..

- نعم.. لا اعترف بمحكمة فى تكوينها اعضاء وموظفو ال ن. ك. ف. د

وانحنى قورهورف مخاطباً من معه.. تارة يميناً واخرى يساراً..

وهمسوا له همساً طويلاً.. اتجه بعده نحونا قائلاً..

- المحكمة ترفض الاعتراض.

وبدا الاستماع للشهود.

أول الامر قرأ قورهورف تقريراً من ثماني صفحات.. وفى كل منهما كان يتساعل ويجيب لماذا

لم يحضر الشهود الذين دعوا للجلسة.

مريض.. مات.. نقل الى معسكر خارج دائرة ال ن. ك. ف. د فى نورلسك.

حضر شاهدان فقط.

أحدهما كان لارنوف الذى أصر على ترداد نفس الاقوال التى أدلى بها فى شهادته السابقة عند المواجهة.

وسالت لارنوف..

- كيف حدث أن أطلق سراحك بعد انقضاء مدة العقوبة مع العلم بأن آلاف الرجال قضوا فترة العقوبة ولم يطلق سراحهم.

ولم يتمكن قراهورف اتم كلامى، قاطعنى قائلاً..

- الشاهد الثانى قال انه كان مع جوزيف فى السجن وفى نفس الرئزاة..

وسمع جوزيف يروج بين السجناء احاديث الثورة المضادة.

وجاء الشاهد الثالث المهندس يروس وكان قد وصل متأخراً. وقام قراهورف بوضع اسئلة

سريعة له.. ذكر يروس في بعض اجاباته عليها ان جوزيف يقول دائماً - معظم الذين
حوكموا بتهمة الثورة المضادة أبرياء.

ووجد جوزيف فرصة في النهاية ليقول شيئاً.. فوصف الشهود بانهم عملاء ال. ن.
ك. ف. د. وثابت بالتاريخ والاسم ان شهودا يعينهم ظهروا في خمس حالات مختلفة امام هذه
المحكمة.

وقاطعه قرا هوف قللاً:

- لا اسمح بساءة الشهود..

وتحدث جوزيف ايضاً يقول:

- انا يهودى ومن العبط ان اتهم بانى انتظر انتصار هتلر بفارغ الصبر.. يجب على ال. ن.
ك. ف. د ان يكون على علم بمصير كل من اليهودى والشيوعى اذا انتصر هتلر.

وتحدث آخرون..

اما انا فقد تحدثت عن شهادة لارنوف وروجانكوفسكى مفندا.. ثم اتحت لى الفرصة فى
النهاية للحديث رغم ان قورهوف كان يقاطعنى بنفاد صبر.. ثم ينقر بالقلم على المنضدة..
ولم آبه لمقاطعاته.

استمر حديثى..

- ان انتقاد السلطة ليس بفاشية.. وان فى العالم تتكون افكار مختلفة جداً.. وعلى سبيل
المثال وكبرهان على ما اقول.. فى الدول التى دخل الاتحاد السوفيتى حليفاً لها تسود افكار
مختلفة عن افكار السلطة.. ولكنها تجد الفرصة لتعبر عن نفسها.. و .. وهنا قاطعنى

قورهوف قللاً:

- الان كفى.

ثم نهض فنهض بعده بقية القضية وخرجوا من نفس الباب.

وبعد مضي نصف ساعة عادت المحكمة للانعقاد مرة اخرى وقرا قورهوف الحكم.

- تعلن المحكمة ان الثلاثة متهمين مدانون بتهمة تنظيم مجموعة الثورة المضادة داخل
المعسكر.. ولانهم نشروا بين السجناء الروح الانهزامية، وبناء على منطوق المادة ٥٨
الفقرات ١٠ و ١١ حكمنا على المتهمين بعشر سنوات سجن لكل منهم فى معسكرات العمل
الاجبارية، ويفقدان الحقوق المدنية للمواطنين لمدة خمس سنوات.. انتهى.

وعندما خرجنا.. علمنا ان لنا حق الاستئناف لدى المحكمة العليا.

وودعت جوزيف وجورج.

قلدوني مرة اخرى الى القسم التاسع من المعسكر - لنظام اقسى..

اما جوزيف ويرقر فقد اعيدا للقسم السابع من المعسكر.

الدولة التي لاتوجد في خريطة الجغرافيا

عند عودتي للمعسكر اخبرني النوبتجي بان سانشا سال عنى عدة مرات وانه اوصى على بالحضور عنده حال وصولي..
وكان الوقت مبكراً على العشاء.. وذهبت لسانشا الذى يقيم فى العنبر المجاور.. وعندما ظهرت على الباب هرع للقاءنى مهولاً وسالنى..
- كيف كانت المحاكمة؟..
- كما ترى. لقد نجوت من الموت..
- هذا هو المهم. ان الزمن كفيل يمحو كل شىء..
- ولكن.. يجب على قضاء عشر سنوات..
وجلسنا على الكنية.. وكان سانشا يحتفظ بى ببعض الطعام، وعندما اكلت سالنى..
- الا تعتقد بان الحال سيتغير بعد النصر على الفاشية؟..
- مادام ستالين فى السلطة فان سجون الاتحاد السوفيتى ستمتلئ وكذلك المعسكرات..
- هذا مرض مؤقت، من امراض المجتمع الجديد..
- ليس هذا مرضاً.. ولكنها خاصية هذا النظام..
- فى الدول الاشتراكية يمكن ان تكون هذه ظاهرة عابرة..
- آه يا صديقى.. بعد موت لينين وقدم ستالين للسلطة بدأ كل شىء يحدث تدريجياً.. علاقة حقيقية بكل ما هو اشتراكي، ثم انحرفت رابطة البولشفيك القدامى، أو لنقل انصرفوا بها.. ثم قضاوا - ايضا تدريجياً على كل الذين بقوا مخلصين للاشتراكية الحقيقية..
- لماذا كل ذلك؟.. الم يكن من الاجدر ان تشاع الحرية بين الناس وستكون فائدة ذلك اكبر..
بدلاً من تحطيم كل شىء.. هنا؟..
- اتعتقد ان ما يحدث هو الوسيلة المثل للحصول على ايدى عاملة رخيصة لكى تقوم بالعمل فى هذه الصحراء الجليدية؟..
وصمتنا قليلاً.. ثم سالنى سانشا..
- هل تعتقد انت، بأن هذا النظام نوعاً من العبودية؟..
- هذا ما لا اعتقده.. ان نظام العبودية يختلف عن نظام ستالين.. انك لايمكن ان تقارن قاطرة البخار بقاطرات الديزل.. ومن المحتمل اننى لم أستطع التعبير جيداً.. ولكنى اقول ان نظام العبودية نظم بدائى ولكنه انسلخ بالمقارنة مع نظام ستالين الذى يعكس البربرية الحديثة. ان عمل الناس غير الاحرار عمل بلا عائد.. الا اذا اعتبرنا ان معسكرات العمل الاجبرية تعود بريح ما - ان مثل هذه المعسكرات فى كل مكان بالاتحاد السوفيتى وروسيا هي المؤسسات الوحيدة التى تعود بريح ما.. معظم المصانع تعمل بالخسارة.. اما عن الزراعة فحدث ولا حرج .. المليارات تذهب لدعم الصناعة والزراعة فى شكل مساعدات مباشرة فمن اين تؤخذ؟ انها بلا شك هي العائد المجزى التى تجود بها معسكرات العمل الاجبرية..
- هذا ما نقوله انت. ولكن كيف يمكنك اثبات ذلك؟..
سالنى سانشا هذا السؤال وهو يهز راسه بشك كبير..
- لنبدأ بنورلنسك.. كيف يقومون باعاشة اكثر من مائة الف سجين؟.. ان الحكومة

السوفيتية تصرف على الفرد مبلغ مئتين وأربعين روبلا في الشهر.. يدخل ضمن ذلك بالطبع منصرفات الإدارة والحرس الخ الخ.. ولكن المواد التموينية لأطعام هؤلاء السجناء يزرعها ويحصدونها السجناء بأنفسهم في مختلف معسكرات العمل الزراعية الإجبارية.. الأسماك المملوحة التي يطعمونها بها، يصطادها السجناء أنفسهم في مورسك.

الفحم الذي يوقدون به في المطاعم.. ويشعلونه للتدفئة في العنابر من الذي يحفره من باطن الأرض والمناجم.. أن السجناء هم الذين يحفرونه.. أنهم يبنون السكة الحديد نفسها التي نمر وتوصل إلينا الأشياء.. أنهم السجناء الذين يشيدونها.. ثم الملابس التي تلبسها من يقوم بحياكتها..؟ أنهم السجناء أنفسهم.

حتى النسيج والخيط تنتجه النساء في معسكرات بوتيمى.. ومقابل الطعام البسيط الذي يمنون به علينا فإننا نستخرج الألفا من أطنان النيكل والنحاس.. ومئات الأطنان من الكوبالت واليورانيوم. وكل هذه الخامات، أو معظمها يصدر إلى الخارج وتحصل روسيا السوفيتية منه، على مئات الملايين من الدولارات.. ثم يأتي بعد ذلك من يريد إثبات أن عمل السجناء غير مربح

– حسنا – ياكارتو – بضربك لهذا المثل عن نورسك استطعت أن تقنعني، ولكن كيف الحال مع مئات المعسكرات الأخرى..؟

– سأضرب لك أمثلة عديدة.. فلنبدأ (بكوليمه) التي في الشمال الشرقي من الاتحاد السوفيتي.. هذه المنطقة كانت مثل نورسك بعيدة عن كل تطور.. عاشت فيها القبائل الرعوية.. ويمتهن أفرادها تربية حيوان الرنة.. واليوم بها معسكر ضخم يضم مليون وخمسمائة ألف سجين.. معظمهم يعملون في مناجم الذهب.. هل تعتقد أن ذلك المصنع غير مربح؟

ومثال آخر.. هناك معسكر (فوركته) وبه مناجم للفحم لا أول لها ولا آخر، تعطى نوعية عالية من الانتاج هي أفضل من الفحم الذي تعطيه مناجم حوض دونسك.. وهناك أيضا سكة حديد (فوركته) طولها حوالي الألفين من الكيلومترات.. وينقل بها الفحم.. وقد شيدها السجناء بأنفسهم.. والسجناء كذلك يعملون في حقول البترول.. وصناعة الأخشاب.. وهي من أهم الصادرات.. لا أتحدث عن جذوع الأشجار فقط.. ولكن السقالات وفلنكات وعتبات قضبان السكة حديد.. وتلك عندها كميات كبيرة جدا من العملات الأجنبية.. فمن هم قاطعوا تلك الأخشاب..؟

أن خمسة وتسعين بالمائة من مجموع هذه الأخشاب يقطعها السجناء.. في مناشير سيبيريا.. وفي الأوراك من روسيا الشمالية.

وكل واحد من أولئك العاملين ينال مبلغ مئتين وأربعين روبلا شهريا.. وفي الأجزاء الأوروبية أقل من ذلك بالطبع.

– إنك تتحدث عن المصانع والقطاعات التي تم تجربتها وانتجت للسوق.. وهذه دون شك تعود بفائدة كبيرة.. ولكن كيف الحال مع تلك الابنية الكبيرة الشامخة..؟ أفكر في بناء السكة الحديدية الكبيرة مثال (ب. أم م.) بليكال – أمور أو خط جنوب سيبيريا من جلابينسكا والتي تخترق الإبلكن.. وتقود إلى الحدود المنغولية.. أو خط السكة الحديد على طول

البحر المتجمد من فوركته الى اغاركة والتي تمر الى ياكوتيه.. او خطحديد تايشت - بارتسك
- ليتا - كومسمولس - وخطوط اخرى.. ومذا عن محطات توليد الكهرباء التي تبني على
انهار سيبيريا؟

- هذا سؤال آخر.. قد لا توجد هنا ارباح مباشرة ولكن كل ذلك يمول عمليات البناء في مواقع
اخرى.

- نعم هذا ما اعتقده..

- او بطريقة اخرى ان السجناء يمولون تلك المشاريع..
- ماذا..؟

هذا شيء مضحك للغاية.

- انا لا امزح.. وتلك هي الحقيقة.. لقد اعلن ان السجناء يمولون تلك المشاريع جزئيا..
في البناء يعمل مائة الف سجين.. وفي بناء خطوط السكك الحديدية الكبيرة (ب. 1. ام) كان
يعمل عدد مليون وخمسمائة الف سجين.. وبمجرد ان يصل السجناء الى مكان العمل
يحصلون من ادارة المعسكر على كرت كتب عليه..
اعزائي..

احيطكم علما اني بصحة جديد.

ارسل لكم عنواني الجديد.

ب. 1. ام. صندوق بريد رقم ١٦١/٢١٣١.

ارجو ان ترسلوا لي شهريا قليلا من النقود على هذا العنوان.. حيث يمكنني الحصول
على اهم المواد التموينية والسجلات.
مع تحياتي..

امضاء (x)

كان على السجناء التوقيع باسمائهم على الكروت، ثم يكتبون بعد ذلك عناوين عائلاتهم...
واقاربهم..

وكان اولئك يسارعون بارسال المبالغ ولو اضطروا لحرمان انفسهم من ضروريات الحياة..
وبعد مرور اسبوع واحد تصل الى البنك لحساب المعسكر مبالغ من خمسين الى الف
روبل.. ويندر جدا ان يحصل السجين على جزء بسيط من هذا المبلغ.

كان على السجين ان يحصل على معدل انتاج معين لمدة ثلاثة اشهر وبدون لا يستحق مبلغ
الخمسين روبلا التي تعطى لمن يحقق ذلك المعدل وكان ذلك تعجيزا بالطبع.. لانه لا احد
يستطيع ان يفعل ذلك.. وهكذا يصبح المال من حق ادارة المعسكر.. ويطلب السجين من
ذويه مالا آخر.. وهكذا.. وغالبية الامل لا ينتظرون وصول تأييد استلام المبالغ ولكنهم
يستمررون في ارسال دفعات المال.

اما السجناء فليست لديهم الحقوق ل يكتبوا خطابات لذويهم دون ان تقرأ مضمونها ادارة
المعسكر.. ثم ان كاتب ومحاسب المعسكر هو الذي يوقع على ايصالات التسلم.. وهكذا
وبطريقة ما تتجمع مئات الملايين من الروبلات التي تكون تحت ايدى ادارة المعسكر.
وهذه طريقة واحدة... هل اذكر اخرى...

- اذا سمحت.

- حسنا.. في العادة.. وفي نهاية كل عام يكتب جميع عمال وموظفي الدولة طلبات للحصول

على سلفية جديدة تمكنهم من بناء (الاشتراكية). هكذا يطلبون.. وتستجيب لهم الحكومة السوفيتية ولا ترفض لهم طلبا... وتسرع فورا في اعطائهم هذه السلفيات التي تخصم من رواتبهم على اقساط شهرية لمدة عام كامل.. اما السجناء فلا مرتبات لهم، ولذلك فهم يعفون من دفع الاقساط.. وهنا يستولون على هذه السلفية ويخصمون اقساطها من المبالغ التي يرسلها الاهل للسجناء..

وهكذا تتجمع المبالغ من هنا وهناك وتصبح مئات الملايين من الروبلات كل عام.. احسب انك على حق.. ولكن..

.. صبرا.. صبرا.. ليس هذا كل شيء.. انت تعلم في العادة ان نهاية كل المحاكمات تنص على مصادرة جميع الاموال والممتلكات.. وبالطبع فان الذين حوكموا ليسوا مليونيرات.. ولكن لكل واحد منهم اثاثات.. ساعة.. لوحات فنية.. الخ وخاصة المنفقون.

.. كيف ذلك؟.. هل ال ن ك ف د جزارون؟

.. طبعاً.. منعوا السجناء من حمل اى شيء حتى الاحذية الثقيلة.. وبهذه الطريقة جمعوا مئات الملايين..

وابتسم ساشا وهو يقول..

.. تابع.. تابع.. ياكلولو..

.. سأتيت لك ما اقول.. في كل المدن الكبيرة.. وبالاخص في موسكو توجد محلات لبيع الاشياء القديمة والاشياء ال اثرية.. هناك يمكنك شراء الاحجار الكريمة.. العقود الذهبية.. الصور.. الاواني الخزفية والصينية.. السجاء.. الصور ال اثرية القديمة.. من اين تأتي كل تلك الاشياء؟.. انها من مصادرات السجناء وتجنى الحكومة منها الدولارات والاسترليني والمراكات..

هذه تحقق ملايين الروبلات.. ولا يجب ان ننسى النقود التي تصدر عند الحبس.

هذه ايضا يمكن ان نسميها طريقة تصفية نقية.. واقول (طريقة) تجاوزا.. فان الدولة التي تمارسها دولة لا توجد في خريطة العالم اسمها..... ق، ي، ل، ا، ق.

وسكان هذه الدولة الكبيرة، وبناء على احصاء علم ١٩٣٨م كانوا واحدا وعشرين مليوناً.. اسمهم السجناء.. يضاف اليهم ثمنماية الف من الاحرار هم الادارة - الحرس - القسم السياسى.. الخ الخ.

.. كيف نظمت دول ال ق، ي، ل، ا، ق هذه؟..

.. لقد كنت انت وزيرا، ويجب عليك معرفة ذلك بنفسك.

.. قد يكون غريباً في نظرك اذا قلت لك اننى وانا الوزير السابق اجهل طريقة التركيب الهيكلى لل ق، ي، ل، ا، ق.. ويجب ان يكون في علمك، بانه عدا ستالين وثلاثة او اربعة من وزرائه المقربين، لا يعلم احد شيئاً عن ذلك الامر.

.. الهيكل التركيبى هو نفس هيكل السوفنارك.. ولكن الاختلاف في الاسم فقط.. ق، ي، ل، ا، ق.

ل. ا، ق، الادارة الرئيسية للمعسكرات، وزراؤها مختلفون.. وهى كدولة حقيقية تحتاج الى ان اعدد لك اهم ادارتها - الادارة الرئيسية للمعسكر.. لصناعة الاخشاب - لبناء الطرق - للمعادن الملونة - لصناعة النفط - للمناجم الخ وهذه الادارة الرئيسية للمعسكرات ق، ي، ل، ا، ق لها مجالس برؤساء فنيين.. انها اشبه شيء بمجلس الوزراء.

- اوه !! هذا ما لن يصدقه احد في العالم...!!.

- نعم هذا شيء فضيع لان اناساً قليلين في العالم يعلمون ذلك. في موسكو يجيء مراسلوا الصحف العالمية.. يأتون لايام معدودات.. احدهم يمتدح.. الآخر ينتقد.. ماذا يمكن حصاده من تلك الملاحظات النقدية السطحية العابرة؟ بعضهم يتحدث عن الازياء.. وكيف ان اهل موسكو لا يجارون الموضة العالمية.. والثاني يتحدث عن خلو الاسواق من بضائع الرفاهية..! والثالث لم تعجبه غرفة اللوكاندة التي يسكن بها!! الخ ذلك الهراء. هذا ما يقرؤه الناس في الخارج.. فماذا يكون تعليقهم عليه؟.. وليس ذلك جميلاً بالطبع كما عندنا ولكن لا بأس به..» انهم يقولون ذلك..

وفي موسكو يقيم دبلوماسيون ذوو خبرة وحكمة.. كانوا من قبل في فيينا - برلين - طوكيو روما - وهم دائماً يكتبون تقارير لحكوماتهم.. وتأخذ الحكومات تلك التقارير كحقائق موثوق بها لا تقبل المناقشة ولا يتطرق اليها الشك.. وهذا كله كلام فارغ.. ان اولئك الناس لا يملكون ادنى فكرة عن الذي يجري في هذا البلد الذي يعيشون فيه.. ربما لسنين عديدة.

- هؤلاء رجال اذكاء كيف فلت عليهم ما يجري...؟.

- لكى يعلمون ما يجري عليهم ان يكونوا في موقفنا...!!.

- اريد ان اذكرك ان بعض الذين ساعدتهم الظروف وخرجوا من المعسكرات وهربوا خارج البلاد بدأوا يكتبون عن ذلك. احد البولنديين وكان في جزيرة سولوفكى.. كتب في بلاده كتابا عن الاشياء التي عاشها.

- هذا ماحدث.. ولكن معظم الناس لا يصدقون ذلك.. وحتى الذين يصدقونه فانهم يقولون.. ان هذه اشياء داخلية تم روسيا وحدها.. وهى لاتهمهم.

- وماذا عن السياسيين، امثال شرشل، روزفلت، سبك والآخرين، الا يحتمل انهم يفهمون حقيقة مايجرى هنا.. او حتى بعض هذه الحقيقة؟.. هؤلاء الساسة يفهمون الحقائق الاولى التي تحدث هنا.. ولكن المصالح الحقيقية لبلادهم توضع فوق كل مصلحة اخرى.. ومن المؤكد انهم لا يدركون خطورة الامر، ولا يعلمون مدى استثنائه وايضا انتشاره، فقد تحدث مثله غدا للمجريين وبعد غد للبولنديين وقد يحدث لخالقهم.

وتأخر الليل ونحن نتحدث.. ان تبادل مثل هذه الافكار مع ساشا جعلنى انسى للحظات قصيرة ابعاد مأساتى الحقيقة، وهى اننى سابقي عشر سنوات اخرى في سجون ستالين.

وعدت للعنبر اخيراً..

بقيت مستيقظاً طول الليل، لم يطرق النوم او يراود اجفانى.. وفي الصباح نهضت متعباً منهكاً ومصاباً بالصداخ.

الزملاء الذين راؤنى هكذا ظنوا ان انهيارى مرّبه للحكم الجديد على بعشر سنوات اخرى. وفي منتصف النهار احسست ببعض التحسن، فاخرجت من جيبى قطعة خبز لم استطع اكلها في الصباح.. وحينئذ فقط شعرت بالجوع.. واقترب منى عدد من المعارف.. حاولوا ان يؤاسوننى وان يخففوا عنى.. كانوا جميعهم يقولون.

- سوف تنتهى الحرب.. وستكون احراراً.

وهذا في واقع الامر جيد ومعناه ان صدور الرجال لازالت عامرة بالامل.
تعودت على عملي الجديد في كمينة الطوب، وكنت سعيدا لانه تم تحت سقف يقيني شر
الطقس وويلاته. وكان العمل في العراء صعبا لبدء الليالي القطبية والبرد والرياح.. وعلى
الرغم من اننا سنعمل تحت ضوء اصطناعي الا ان ذلك سيكون في مكان مقفول دافئ.. ولن
نشعر بالجوع الكثير والمفاجيء.
وجاءت عطلات نوفمبر.

لم تعمل الوحدات.. واسعدنا ان نخلد الى الراحة لمدة يومين. وفي السابع من نوفمبر
اخرجونا للساحة، لتنظيف الطرق من الجليد.. وعند هبوب عاصفة نوفمبر الباردة التي
لا تكذب وعدها، كانت المفاجأة هي حضور مدير المعسكر للعنابر بنفسه وتوجيهه الامر
لرئيس العمال بان يذهب كل العمال الى العيادة.. لان اللجنة الطبية ستجرى الكشف
عليهم من جديد.

ووقع هذا الخبر على الجميع وكأنه صفة من الرياح الباردة. وحزنت انا. اذن لن ابقى
طويلا في هذا العمل الدافئ السهل.. سيلقون بي الى الشدائد والمهلك مرة اخرى..
وطمانت نفسي بانني ما ازال ضعيفا.

او لعله يوجد طبيب يعتقد انني لا اقدر على العمل الشاق.. من يدري؟
وفي ممر العيادة كان علينا ان نخلع ملابسنا الى الوسط وننتظر حتى ينادوا علينا.

وجعلت اختلس النظر الى اجساد الرفاق لاقارن بيني وبينهم.. وهل يوجد من هو اضعف
مني جسدا؟.. كانوا كلهم عبارة عن هياكل عظمية كسيت بالجلد.. كانت عظامهم حادة تكاد
تمزق جلودهم ورغم ذلك كنت اهلهم. ونودى علي.. وامام اللجنة سالوني - هل لديك
صعوبات؟..

- مازلت ضعيفا.. واتعب سريعا.

وسمعت من خلفي كلمة (فتاريا) وذلك يعني (الثانية) وكدت انهار لانهم نقلوني الى عمل
اصعب.

وفي اليوم التالي جاء مدير المعسكر وقرا بعض الاسماء.. وكنت من بينها وقال انهم نقلونا
الى وحدة السكة الحديد.

واخذت حاجياتي واتجهت الى العنابر التي تقيم بها وحدة السكة الحديد.. وواجبها هو
صيانة الخطوط الحديدية.

كنت من عمال السكة الحديد

كانت واجبات وحدتنا العملية هي صيانة قسم الخطوط حتى مسافة مائة وخمسة كيلومترات.. الى محطة فالك.. من خط دودنكا - نورلسك.

في فترة الصيف قمنا بأجراء العمليات الارضية وغيرتنا الخطوط.. وفي الشتاء نظفنا القضبان من الجليد والثلج.

كان العمل في الصيف صعبا لانه كان من المحتمل نقل القضبان والعوارض من مكان لآخر.. وكان العمل في الشتاء سهلا رغم ان درجة الحرارة تصل الى ستين درجة تحت الصفر.. وكان علينا ان نمر على خطوط السكة الحديد وننظف القضبان والعوارض بالمجاريف والمعاول ونكسر الثلوج المتراكمة فوق الخطوط.

كنا في الطريق بين كمينة الطوب وفالك نتعرض للمصقيع والبرد والرياح.. كان طول الطريق تسعة كيلومترات تقطعها بدون توقف، وقد جعلنا ذلك نستشعر الجوع الحاد.

وحاولت ان اعمل أكثر لأحصل على طعام أكثر.. وحتى بعد انتهاء العمل كنت اذهب لساحة المعسكر كي انجز بعض الاعمال الاضافية المختلفة. انظف الجليد، اقوم بتكسير حطب الوقود، وكنت احصل مقابل ذلك على صحن من الصفيح زننه كيلو جرامان من العصيدة او الحساء.

وبعد ذلك جرى بيني وبين الرجل الذي يوقد المطبخ اتفاق مفاده ان اقوم وفور عودتي من العمل في الثامنة مساء بنقل الفحم للمطبخ حتى الواحدة صباحا مقابل ثلاثة كيلوجرامات من العصيدة.

جئت وجلست في المخزن انتظر اشارة البدء من الرجل المسئول عن الوقود حتى اذا اعطانيها قمت بالعملية المطلوبة. وكنت انقل الفحم على عربة صغيرة. وذات مرة نمت من التعب.. وكنت سأتجمد من البرد لولا ان الرجل، وكان يحتاج الى مزيد من الفحم اعطاني اشارة البدء فلم اتحرك.. وحضر الرجل ليرى ماذا يجري - وبعد جهد جهيد استطاع ايقاظي من النوم.. ولولا ذلك لمت من البرد. وفي المرة الثانية وعندما تناولني صحت العصيدة، جلست على الفحم في الركن وعندما استشعرت الدفء الذي سرى في اوصالي نمت فورا. وفي النوم احسست ان احدا يجز الصحن من يدي ولم استطع ان استيقظ.. وعندما شعرت ان يدي فارغة بالفعل فتحت بعيني ونظرت، فاذا برجل يجري نحو الباب فجريت خلفه وقد طار النوم من كل اقطار نفسي.. وبدأت الحرب من اجل الصحن. جذبت الصحن نحوي، فجذبه اللص نحوه، انا اجذب وهو بدوره يقاوم.. وكانت المعركة سجالا بيننا.. حتى جاء شخص من عنبري صدقة فساعدني على استعادة حقي.. وكنت في غاية السعادة والهناء.

وفي احدى الاسميات طلب مني الظاهي ان احضر له حطبا جافا وكان مايطلبه موجودا في كمينة الطوب.. وظللت حتى الواحدة صباحا في ذهب واياب وكنت ان اموت ارهاقا وتعبا. وعندما انتهيت رجوت الظاهي الصيني جان ان يعطيني وجبة ولكنه اعتذر بان كل شيء لم ينته طهوه بعد.. وبعد الحاح شديد اعطاني قطعتين من السمك المملوح.. وسألته قليلا من الحساء، فكان رده ان اريت شيئا من ذلك فعلى الحضور في الخامسة

صباحا لان الطعم لم ينضج بعد.

وعدت الى العنبر. كنت جائعا ومتعبا ومكدودا حتى الموت.. اكلت السمكتين في الطريق.. وبقيت حتى الخامسة اصارع الجوع ولا استطيع النوم رغم التعب.. وهرعت الى المطبخ ليعطيني الحساء الموعود ولكنه اصم اذنيه ولم يعطيني شيئا.. ثم قال لي بعد لائى.. - لقد دفعت لك اجرک جيدا على ذلك العمل القليل الذى اديته.

وعدت الى عملى النظامى متعبا جائعا مظلوما.

نمت فى تلك الليلة لاربعة ساعات فقط. قمت منها وانا متعب يدغدغ النعاس اعينى بلا انقطاع.. وقررت ان لا اعمل بعد ذلك فى المطبخ على الاطلاق.. لقد خدعنى رئيس الطهاة وغدر بى فى خبث شديد، سيكون له زادا يرويه للآخرين.

وقد عرف الصينيون بين اهل اوربا على انهم من لاعبى السيرك فقط.. وفى المعسكرات كانوا يغسلون الملابس. وكان ذلك هو حالهم ايضا فى المعسكر رقم ٩ بنورلسك. وفى زمن الحرب قاسى الصينيون الجوع.. ففى ذلك الوقت كانت الوجبة الرئيسية هى القمح غير المطحون يضاف للعصيدة..

وكانت اقوى البطون لاتستطيع ان تهضم حياته السليمة.

وفى الشتاء يوم طرات للصينيين فكرة جهنمية هى انه يمكن الاستفادة مرة اخرى من حبات القمح التى لم تهضم. ومختلطة بالفضلات فجزوا كتلا كبيرة من الفضلات اذابوها فى القدور التى يغسلون بها الملابس.. وتحللت الفضلات بالماء الساخن..

وهكذا حصلوا على القمح من جديد.. فاعادوا طبخه مرة اخرى... وكلنوا يخصون بهذا الطعام الزائد ابناء جلدتهم ولست ادري من الذى وشى بهم.. وربما كان ذلك من انتشار الروائح الكريهة حول المطعم.. المهم لقد كشف امرهم.

وحرم عليهم تحريما باتا الاقتراب من مكان طهى الطعام. وامروهم بالبقاء فى اماكن الغسيل فقط وهودهم بالعقوبات الصارمة وبالاشرغال الاضافية.

وهكذا حرم الصينيون من الوجبات الاضافية.

وقد اكد البعض منهم انهم ظلوا حذرين فقط.

الاحداث المجرمون

لم تكن معاناة السجناء السياسيين مقصورة فقط على ملاقوته من عنت الادارة وقسوة البوليس، ولكن كان هناك ايضا مليعر صفو امنهم ويقض نوم اعينهم.. فهناك السجناء المجرمون الذين يقيمون بالمعسكر ويقضون فترات السجن في الجرائم التي ارتكبوها.

كانوا ينعمون بعيش افضل من السجناء السياسيين.. كانوا يحصلون على الاعمال السهلة البسيطة على عكس السياسيين. فكان منهم الموظفون - الخياطون - صانعو الاحذية - المسئولون عن نظافة المعسكر - وما الى ذلك.

الخطر الكبير والحقيقي كان يتمثل في المجرمين الاحداث.

كان في نورسك وحدها اكثر من الف طفل مجرم تتراوح اعمارهم بين العاشرة والرابعة عشرة.

كان اغلب هؤلاء هم ابناء العائلات التي رفضت الانضمام للكلوخوز من زمن المزارع الجماعية.. ثم قبض على افراد تلك العائلات ووضع ابناءؤهم في الملاجيء، فهربوا من قسوة المعاملة هناك ومن الجوع والاضطهاد. ثم كوتوا عصيات صغيرة وعاشوا على النهب والسرقة والقتل بعد ذلك.

سكنوا في الكهوف والمغارات، ينامون نهارا ويمارسون نشاطهم الاجرامى ليلا. انعدم لديهم الحياء والادب وذابت في نفوسهم القيم والفضيلة.. وقد حاول ال. ن. ك. ف. د ان يوجههم الى الطريق المستقيم..

حسنوا لهم ظروف الحياة في الملاجيء.. ولكن ذلك لم يساعد كثيرا.. كان عددهم اكثر من كل امكانيات.

وكان الكبار يستخدمون هؤلاء الاحداث بمهارة وذكاء.. علموهم كيف يسرقون وينهبون ويقتلون. كانوا يعيشون في عنابر مخصصة لهم.. ولكن فرصة لقائهم بالكبار كانت ميسورة التحقق دائما.. فهم يحصلون على الطعام من نفس المطعم.

واذكر انه وعند وصول اول مجموعة من الاحداث الى معسكرنا، احسنا نحوهم بالعطف الشديد واعطيناهم من طعامنا، شفقة ورحمة بهم.. ولكن سرعان ما ردوا لنا جميلنا سلوكا رديئا وسرقة ونهباً وضرباً وقتلاً.. كانوا مسلحين بالمدى وبشفرات الحلاقة الكبيرة.. هاجموا السجناء - وخطفوا طعامهم على قلته، واعتدوا على العنابر في غياب الرجال الذين ذهبوا للعمل.. وضربوا وجرحوا المرضى الذين تصادف وجودهم في العنابر آنذاك، فاذوهم وسببوا لهم الكثير من الالام والمواجه.

وكانوا يخطفون الخبز من الذين يحملونه لمجموعات السجناء، فكنا نخترل لحمله الاقوياء فقط والذين يستطيعون الدفاع عن حملهم الثمين.

وتوصلنا الى نتيجة منطقية جدا هي ان المعالجة النفسية لن تفيد ولن تجدى مع هؤلاء النشء الفاسدين، لان تاثير المحيط الفاسد يكون تياره اقوى من كل مقاومة كان هناك بالطبع بعض الضحايا.. من الذين قتل اباؤهم او حبسوا بواسطة ال. ن. ك. ف. د وهؤلاء يظلون في نطاق ماجبلوا عليه من خلق حسن وتربية قويمه، رغما عن كل شيء.

وفي نورلسك قبلت ابن رئيس الدائرة الحكومية الشعبية لأوكرانيا... (باناس لويجنك).. وكان عمره ستة عشرة عاما.. وقد حاكمه ال. ن. ك. ف.د. بعشر سنوات سجنا في المعسكر.. وكل ذنبه انه ابن اسرة تهمتها العداء للشعب.
والده كان عضوا في اللجنة السياسية لأوكرانيا.
وعندما علم والده بان عصا الاتهام ستطوله سارع بقتل نفسه وزوجته وثلاثة من اطفاله..
كانت اعمارهم تتراوح بين اثنتى عشر سنة وثمانية عشرة شهرا... اما الكبير فقد كان مع جده، ولذلك بقي على قيد الحياة، ليواجه السجن وويلاته.
وتعاطفنا معه جميعا.. بحثنا له عن عمل سهل.. وكنت خائفا عليه. ولكنى عندما قابلته بعد عامين اكتشفت انه لم يتغير، فسرني ذلك كثيرا.
وكان هناك من هو على شاكلته.. كما ذكرت.

أصبحت طباحا رغما عن ارادتي

كان شتاء عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤ شتاء بالغ القسوة والشدّة.. ومن النادر جدا ان تصل درجة البرودة الى خمسة واربعين درجة تحت الصفر.. وقد حدث ذلك في هذا العام.. وكنت ادارة السجن مجبرة على ايقاف العمل في العراء، لان الرجال تجمدوا من البرودة.. حتى وجوههم تجمدت هي الاخرى رغما عن دثار الصوف الذي يلفونه حولها.. كان الذين يذهبون للعمل، هم الذين يعملون في خطوط السكة الحديد فقط.. والتغيير الوحيد الذي طرا بشأن هذه القرعة، هو ان المرضى والضعفاء من العاملين فيها تم اعفاؤهم عن قطع كل المسافة بين بداية الخط ونهايته، وخصصت لهم اماكن محددة للوقوف عندها.. وكان القسم الخاص بي يقع على حدود كمينة الطوب.. فكنت اقوم بصيانة الخط ونظافته من مدخل كمينة الطوب الى مكان تغيير السكة الحديد.. ورغما عن ذلك عذبتني الرياح وجلدتنني بعنف واحال البرد جوتي الى مدينة جائعة.. رغم اني كنت سعيدا ومحسودا من الكثيرين على وجودي في هذا الموقع البعيد نسبيا عن العراء القاتل. غيرى يعود في العاشرة والحادية عشر واحيانا في الواحدة.. وقد ادفاني احسائي بالقرب من كمينة الطوب بعض الشيء.. كانت القضبان تظل نظيفة عندما لا تهب الرياح. فكنت اختفي تحت السقف لبضع دقائق.

طبعا دخول القاعات كان محرما علي.. وكنت اتصرف فالود بالمكان المناسب.. حتى لا تمر المراقبة فلا تجدني، ونصف قسمي يقع عند نقطة التحويل الثالثة.. وكان يحرسها عند مركزها ضابط من الجيش اللتواني اسمه ملباردوس. كان ملباردوس هذا ضخّم الجثة، يتحرك بصعوبة شديدة في الغرفة الضيقة التي تقبع في منتصف المدفأة الحديدية والمستديرة والتي كانت دائمة الاشتعال. وعندما تمر عربات السكة الحديد محملة بالفحم وتقف امام نقطة التحويل الثالثة يسارع ملباردوس بنقل ما يحتاجه منها. وعندما دخلت عليه حجرته اول مرة لاستدق نظرائ مستفسرا.. فقلت له:

- اريد ان استشعر بعض الدفء فان اليوم بارد جدا..
- حسنا استدق.. ولكن لمدة خمس دقائق فقط.. ان الدخول الى هذا المكان ممنوع.. واذا عثر عليك المفتش هنا فيسبب لك كثيرا من المتاعب.
- حسنا.. اعدك بانني لن امكث طويلا

وبعد عشرين دقائق من الدفء كنت اواجه رياح نوفمبر القاتلة مرة اخرى. كان الشتاء قاسيا، وكنت اقوم بتكسير الثلوج وتنظيف الجليد وازاحته عن القضبان.. محاولا الحفاظ على درجة حرارة جسمي. وعندما اتعب.. ولا اتمكن من الاستمرار اسارع بالبحث عن مكان اجد فيه بعض الدفء لبعض الوقت!!

وذات يوم كنت اقف وبيدي المعول والجاروف.. ولم ادر الى اين اتجه.. كنت اعلم ان المفتش يراقبنا مثل كل الصيد.. وتلفت يمينا وتلفت يسارا.. ثم تحركت نحو نقطة ملباردوس.. وما ان اوشكت على اقتحامها حتى قابلني سادا على الطريق ليحول بيني وبين الدخول.. وفهمت موقفه جيدا.... ثم حياني وربدت تحيته.. ووقفت امامه ارتجف كريشة

في مهبط العاصفة...
وكان وجهي مليئا بالثلج وعيناي حزينتين..
.. ادخل... ولكن لوقت قصير..
وهرعت الى الحجرة الصغيرة قبل ان يغير ملباردوس رايه.. جلست في الركن البعيد حتى
لا اضيقه فيعمد الى التخلص مني.. وخلعت طاقية الغراء التي كنت اشدّها برباط تحت
ذقني..
واحسست بالدفع سريعا.. فخلعت البالطو ايضا.. ولكن ملباردوس التفت نحوي محذرا
وهو يقول:
.. لاتخلع ملايسك.. فانت تعلم انك ذاهب بعد قليل..
وحاولت بكل الوسائل ان اسدّجه للحديث معي حتى اكسب بعض الوقت ولكن محاولاتي
كنت مكشوفة له وباعت بالفشل..
وعندها قلت له:
.. حسنا... لو استطعنا ان ناكل شيئا.. الان..
.. ما الذي تود اكله.. الان؟..
.. ربما قطعة من الخبز الاسود..
.. نعم - هذا مفهوم.. ولكن اذا قدر لك ان تختار.. فماذا تطلب؟..
.. اختار قطعة من الرقائق باللبن والكوزة والسكر..
.. هل تاكل هذا بشهية؟..
.. جدا.. واحب كذلك الكيك..

وهنا.. سألني بفضول شدد..
.. هل كانت زوجتك تعد لك ذلك؟..
.. بل.. من مطابخ فينا..
.. هل انت من فينا؟..
.. نعم..
.. هكذا؟.. لم اكن اعلم..
وكان يراقبني بعناية وانا اتحدث.. حدثته بأسهاب عن فينا.. واكثر من الحديث عن
الطعام واصنافه الشهيّة - ويبدو انني لمست وترا حساسا عنده.. وكنت اتحدث بمزاج وانا
استشعر الدفء.. وهكذا وفي النهاية استطعت ان اجلس لمدة ساعة كاملة..
وفي اليوم التالي حضرت ايضا.. وجلست في ركني البعيد.. وصمت ملباردوس ثم بدأ
يسألني عن انواع الطعام المختلفة.. واخذت اسهب في الحديث عن الاشياء التي اعرفها..
جيّدا.. فلخرج من جيبي ورقة وقلمًا وشرع يسجل اسماء الوجبات المختلفة وطريقة
طهوها.. وقطع علينا الحديث مفتش الخطوط.. لمحة ملباردوس من بعيد، خلال النافذة
الصغيرة.. وخرجت سريعا وبدأت في تنظيف الخطوط..
وعندما ذهب المفتش، دخلت من جديد الى الغرفة..

ووجدت ملباردوس ينتظرنى وهو منشرح الصدر كمن يستقبل ضيفا عزيزا.. وهمهم بترحيب..

- اجلس - اجلس.

وتابعت حديثى عن الاكل.

وفى اليوم القالى.. جاء دور الحديث عن المطعم الباريسى.. حكيت له عن حياتى فى باريس.. وكان على ان اتابع الكلام حتى لايميل صاحبتنا.. فتطرقنا الى اللوفر.. وناپليون.. والمونايزا.. واللوحات الاخرى المشهودة.. ولكنه قاطعنى قائلا:

- حدثنى عن المطعم الباريسى.. حدثنى عن الاشياء التى اكلتها فى باريس، وحدثته بسهلب، حدثته عن الاشياء التى لم أكلها فى باريس.

وكان هو يكتب فى فكرته، وأنا استدفئ.. والسعادة تغمرنا نحن الاثنين.

اما اليوم الذى تلى ذلك فقد كان عن المطعم المجرى.. كنت اعرف منه فقط اللحم المطبوخ بالطماطم.. والسمك المطبوخ بالطماطم والشطة.. اما بقية المأكولات فقد اخترعتها.. وبرعت فى ذلك.. وراقبت ملباردوس وهو يدون تلك الاشياء بجديّة تامة.. وفكرت.. كم سيندهش المجرىون عندما يطلعون على هذه المفكرة ويرون انواع الطعام التى جعلتهم يأكلونها.

وما ان توقفت قليلا لالتقط انفاسى، حتى حدثنى ملباردوس بأن الوقت قد انتهى.. وكثيرا ما كان يفاجئونى وهو ينظر خلال الشبك قائلا:

- المفتش قادم..

- فتش القضيان..

وعندها أخرج سريعا من الغرفة.. وابدأ فى اختراع الوصفات الطعمية لكى ادخل مرة اخرى.. واستدفئ قليلا.

وكان ملباردوس عذره فى تحريم دخول الاجانب الى غرفته.. فقد كانت تستخدم كوكز للمطارحات الغرامية.. وكعش للعشاق يلتقون فيه لقاءات حميمة ساخنة.. وكثيرا ماكنت ارى امراة تدخل الى الغرفة خلسة ثم يتبعها رجل بعد قليل. ويخرج عندها ملباردوس متصنعا انه ينظف نقطة التحويل..

كان الذين يمارسون الحب مع عشيقاتهم فى حجرته هم الطباخون.. فكان يحصل بذلك على قليل من الطعام.

وفى يوم كنت استدفئ عنده فى الغرفة عندما دخل الطاهى وجلس على الكنبه وأثناء حديثه مع الطاهى أشار ملباردوس نحوى قائلا:

- هذا طباخ من فينا.

وارتبتكت.. وسألنى الطاهى اين كنت اعمل.. ولم اعرف كيف ارد عليه... ولكن ملباردوس اجابه مباهيا بانى عملت طاهيا فى مطاعم كثيرة.. واخذ يعدد له المطاعم التى ذكرتها له واحدا واحدا.

وذات يوم وأنا استلقى على الكنبه فى العنبر بعد يوم عمل مرهق، رايت ساعيا من ادارة المعسكر يسال رئيس العمال عن شىء.. وكان وصول الساعى دائما يعنى حدثا جديدا.

ورأيت رئيس العمال يهز منكبيه.. ثم يصيح فينا..

- انتباه.. الهدوء

وصمت جميع من في العنبر. كان علي رؤوسهم الطير.

- هل يوجد عندنا في الفرقة طاهي..؟

ولم يجب احد.

- انظر بنفسك لايوجد طهاة هنا.

قال رئيس العمال ذلك بانتصار وهو يدفع الساعي بعيدا.

- وتنفس الصعداء.. لانني كنت احس بان ذلك الامر يعني في الدرجة الاولى.. ولا بد ان

تكون له علاقة بالطاهي الذي تعرفت عليه عند ملباردوس.. وعاد الساعي مرة اخرى.. بعد

ربع ساعة بالضبط. فتح الباب ومعه الطاهي الذي كان في غرفة ملباردوس. وخفت ان

تسوء العاقبة. وتمنيت ان تغطس بي الارض.. ولكن الوقت كان متاخرا على ذلك. لقد لمحتني

الطاهي..

اشار نحو يديه قائلا:

- هذا هو..

ولم اتحرك من مكاني.. جمدت وسكنت اوصالي.. ولم ادر كيف اخرج نفسي من هذا الموقف

الهرج.

ووقف رفيقي يصيحون...

- نعم.. نعم.. انه من امهر الطهاة.. خذوه..!

وفجأة وجدت رئيس العمال بالقرب مني، يسألني بغضب..

- لماذا لم تقل انك الطاهي المطلوب..؟

- انا لست طاهيا..

قلتها مدافعا عن نفسي.. ولم يصدقني احد.

كان لزملائي بالطبع دافعهم الخاص للزج بي في غمار هذه المهنة.. انهم يتوقعون ان

يحصلوا مني على كميات اوفر عندما اكون قرب الطعام.

وفي طريقي الى مكتب المعسكر كنت افكر كيف اخرج من هذه الورطة.

واستغرب الطاهي.. لم يستطع ان يفهم لماذا لا اريد ان اعمل في مهنتي التي اجيدها - وهي

الطبخ - وقد ظن الامر تمرد مني.

واخذ يقنعني بان وضعي سيكون افضل.. فساكون ممثلي البطن على الدوام وثانيا

سأتمتع بالدفع. ولكنني اعتذرت بشدة.. فاخذوني الى مكتب مدير المعسكر بنسرونق..

وهناك كان رئيس المطعم بارسوكوف وحال دخولي الغرفة توجه الطاهي

ونظر الى المدير، من راسي الى اخمص قدمي.. وسألني..

- منذ متى وانت تعمل طاهيا..؟ وماهي الامكن التي عملت بها..؟

- هناك خطأ في الامر.. وبعض الخلط.. انا لست طاهيا..؟

- هذه اول مرة في حياتي اسمع بهذا.. اذ ان الجميع في الغالب يدعون بانهم يجيدون

الطهو.

ثم التقت المدير الى رئيس المطعم قائلا:

- هذا رجل أمين - افصل كوزنيكوف فورا وخذ مكانه.

وقلت لمدير المطبخ..

- انا لا افهم في الطبخ..

- اسمع اذا لم آخذك الان سيقول المدير بانى احتفظ في المطبخ باللصوص هذا هو الموقف عليك تقديره جيدا.. ومن ثم يجب ان تعمل بالمطبخ.. المهم انت ستتعلم بسرعة.. ان عمل الحساء والعصيدة عمل سهل جدا.

لاحظت ان وصولى الى المطعم سبب اضطرابا كبيرا بين العاملين فيه.. كان معظمهم من المجرمين واللصوص.. نظروا الى باستغراب شديد.. واقترب منى العاملين.. واخذوا يوجهون الى العديد من الاسئلة.. ارادوا ان يعرفوا اى نوع من الطباخين انا.

وبافتضاب شديد، اوضحت لهم بانه لا فكرة لى فى صناعة الطعام.. فبدات عليهم علامات السرور والابتهاج بصدقى ذاك، وبانى لن اكون منافسا قويا لهم.

فى البداية كنت اغسل القدور.. القدور التى تسع من خمسمائة الى الف لتر من الطعام.. وكان هذا العمل اصعب كثيرا من العمل فى خطوط السكة الحديد.

كان على ان انحنى حتى ينقصف ظهري لاغسل باقى العصيدة المحروقة التى تلصق عادة بقعر القدور، مستعينا بقطعة من القماش والحديد. كنت افعل ذلك بجهد شديد فيسيل منى عرق غزير.. وكنت افقد شهيتى للاكل بعد ان انهى هذا العمل الشاق.. وكان الطباخون يخصّون انفسهم بوجبات خاصة يصنعونها فى الخفاء.. وكانوا فى البدء يموهون على هذا الامر.. ثم اطلعونى على سرهم عندما اطمأنوا الى فشاركتهم اكل اللحم المغلى، وشورية اللحم، والشواء، والمعلبات، والبطاطس المجفف والخضروات التى كانت تاتي من الولايات المتحدة.. اما السكر فكان ياتي من كوبا. "

فى زمن السلم، لم يكن الطعام جيدا.. كما هو الان.. فان السلع الاجنبية تاتي الى نورلنك.

بالتبع، كان اعداد طعام خاص بالطهاة متنوعا قطعيا.

مدير قسم المعسكر بانسرنى كان مصدر رعب حقيقى لافراد المطعم.

وعندما يحضر الى المطعم، كان يبحث فى الاركان مسلطا ضوء مصباحه الكهربائى على الاركان، عله يجد اية مؤن مخزونة. والويل كل الويل لمن يقبض عليه متلبسا بجرم من ذلك النوع... كان يرسل فى الحال الى زنزانة الحبس التأديبية (كارس) ومنها الى الاعمال الشاقة.. وعلى الرغم من كل ذلك التدقيق والمراقبة فلن الطهاة كانوا يفعلون ما يريدون.. يسرقون، وبكميات كبيرة، احسن المواد التموينية.. من الدهون وبدره البيض.. فيوزعون جزءا منها على بوليس المعسكر ورؤساء الحرس.. والباقي لعشيقاتهم.

وكلن مما يشرف الطاهى ان تكون له امرأة.

وعلى الدوام هناك احد من ادارة المعسكر او الوحدة العملية (يعسكر) فى المطعم.. ولكن اولئك النويتجية ماكنوا يلقون بالا لما يجرى من عمليات النهب والاختلاس للمواد التموينية.. هم انفسهم كنوا يودون الحصول على شىء من ذلك يدخرونه لايام الجوع القاسية.

اما المدير الذى كان ياتى بنفسه لتفقد الاحوال فى المطعم، فانه دائما يسال رئيس الطهاة هل هو مسرور بعمل.. فكان يسمع فناءا حارا على.. وعندها يجيب المدير بنفس الجملة..

- الم تر..؟ لقد كنت على حق عندما قلت لك خذ..!

وبمرور الزمن اعتدت على عمل الجديد.
وسرعان ما اعترفوا بى كطاه.. على الرغم من انى كنت اقوم بطهو العصيدة والشوربة..
وفى ذات يوم اردت أن أكل شيئاً.. وقالوا لى أن اقوم (بتحمير) شىء من السمك. وعندما اخذ
السمك فى النضج ظهر فى المطعم - انسرنى، وسألنى:
- لمن تطهو هذا السمك؟
- للطباخين ايها المواطن المدير..
- لقد بدأت اذن تفعل عمل الخنازير..
- هذه نفس السمكة التى يأكلها كل السجناء.. ولكنها مطبوخة فى قليل من الدهن.
- يخيل لى.. انك بدأت تكون ذكيا اكثر مما يجب
وهددنى قائلا: اذا رايتك مرة اخرى تفعل شيئاً كهذا فسوف تذهب لتحفر الطين للطوب.
وعاد بعد ايام للمطعم.. وتوجه نحوى فوراً وهو يقول..
- الا تقل اليوم سمكا؟
وصمت - لم اخرجوا..
واخذ المدير مصباحه الكهربائى وبدأ يفتش اركان المطعم ركناً ركناً.. ولكنه لم يجد شيئاً..
وعندما هم بالخروج رفع جوال القمح ونظر بداخله..
- ما هذا؟..
وعندما نظرت معه داخل الجوال.. رايت اثناء به قطع من خبز الدقيق الابيض.. كنت ارى
ذلك للمرة الاولى.. ولا علم لى بمن وضعها هناك.
وصاح المدير قائلا..
- على من النوبة اليوم؟..
- انا.. انا.. ايها المواطن المدير..
- انزع المريلة.. واخطف - من المطعم فوراً..
وكان وجهه قد احمر من الغضب.
واستجبت لما قال فى صمت.. كنت اعلم بان اى توضيح لن يجدينى قليلاً.
وخرجت مطاطىء الرأس من المطبخ.. أمتنى أن افقد عملاً سهلاً يمثل هذه الطريقة البلهاء..
لم اكن اعلم بالطبع من هو الطاهى الذى صنع ذلك ومتى اعد هذا الخبز وانضجه..
ولكنى فيما بعد علمت من هو.. كان من زمن يسعى لابعادى عن الطعام.
وفى المساء ذهبت للمدير اسأله عن الوحدة التى ساعمل بها.
ولكنه قال لم يستلم تعليمات بشأنى، وعلى أن اعود للفرقة التى كنت اعمل بها
وكنت انتظر بالطبع العقاب.. وهو وضعى فى المجموعة التى تقوم بالحفر فى الطين.. كما
هددوني من قبل، وكما هو معلوم فى مثل تلك الحالات..
ولكن يبدو أن بانسرنى لم يكن مقتنعاً بأنى مدان.

اصبحت عاملا للتحويل في السكة الحديد

وجاء مارس.. أخيرا.. مضت ثلاثة أشهر هي أسوأ الشهور على الإطلاق.. شهور عجاف باردة.. قاسية.. مميتة.. ومارس في نورسك ليس هو شهر الربيع.. ودرجة الحرارة فيه دائما ماتكون أربعين درجة تحت الصفر.

وهي كثيرة ولكنها بالقياس تكون أكثر احتمالا.. وقابلني الرفاق بالكثير من الترحيب.. فعندما عملت بالمطعم كنت اعطيهم كميات اضافية من الطعام.. ولم ينس احد منهم ذلك.. وان كانوا قد اسفوا على عدم استمرارى في عمل المطعم.

ومرة أخرى بدأت اعمل في المرور على قضبان السكة الحديد.. بالجاروف والمعول.. لم أزر بالطبع لمباردوس لأن القسم الذى كنت اقوم فيه بالعمل كان يقع بالجهة المعاكسة.. وكنت استدعى في حجرة التغيير للقطارات رقم خمسة.. وكان المحولجى الذى يعمل بها، قليل الواجبات الوظيفية.. وكان يشكو الملل، لذلك فلم يمانع أبداً في مجازبتى اطراف الحديث.

وفي صباح يوم، تركت العمل كالعادة، وهرعت الى الحجرة الصغيرة التماسا لبعض الدفء ولأخذ معدائى التى كنت اترك بعضها هناك.. وقال لى المحولجى بأن الشخص الذى يستلم منه العمل لم يأت بعد.

وبعد مرور ساعتين عدت له مرة أخرى فوجدت (غيره) لم يأت بعد. فطلب منى ان اعمل مكانه لفترة قصيرة من الزمن لأنه يجب أن يذهب بنفسه في طلب غيار من رئيس المحطة.

وأخطروه تلفونيا بأنهم سيرسلون من (يغيره). ومر وقت طويل ولم يأت احد. فتركنى مرة أخرى وذهب.

وبعد نصف ساعة عاد ومعه عامل التحويل في السكة الحديد.. وسألنى هذا في الحال.. - هل تريد ان تصبح محولجيا.

- ولكنى لم اقم بعمل مماثل من قبل.

- اسمع.. بناء على المحادثة التلفونية ستكون محولجيا.. سنفيدك بالتلفون ماذا تصنع.. قضيب نمره كذا، وقضيب نمره كذا.. في اتجاه كذا وكذا. وسنعطيك تعليمات مكتوبة..

وهكذا تم الامر. وكنت في كل أمسية، وبعد انتهاء العمل اذهب لمحطة السكة الحديد لاتعلم شيئا جديدا يساعدنى على اداء عملى الجديد، من رئيس المحطة، ومر اصدقائى -يوما من الايام - فرأوا الاعلام في يدى وأنا اشير للقطارات واتحكم في تحويل مسارها.. فلم يصدقوا اعينهم. وبقيت عاملا للتحويل في السكة الحديد.

وكانوا قد بدأوا في بناء عنابر كبيرة - هناك عند آخر المعسكر. ولم يكن ذلك يعنى شيئا جديدا، لأن المعسكر كان يتوسع بلا انقطاع.. لغت انتباهى ما كان يقوله العمال فقط.. واثار قصى لى.

- ان العنابر تبني بطريقة جديدة..
كانت حجراتها ضيقة وعلى النوافذ والابواب قضبان حديدية قوية..
- لعلها ستصبح سجنًا هي الاخرى!..
وبدا السجناء في الاستنتاج والتخمين.. قالوا انها ربما كانت عنابر للعزل كما في القسم السابع للمعسكر.. واذا كان ذلك صحيحا فان لي الحق في التخوف.. فمعنى هذا ان الامور ستكون اشد صرامة وقسوة..
ولكن سرعان ما انتشر خبر جديد مفاده ان العنابر معدة لكبار ضباط الالمان الفرمخت..
وعندما انتهت العنابر، علمنا ما الامر..
فقد وصلت من دودنكا سفريات مخصصة بها مجموعات كبيرة من الرجال..
وعندما بدأوا في تفريغها لم يسمحوا لاحد بالاقتراب من قضبان السكة الحديد..
ولكن من على البعد كان بالامكان رؤية الزى العسكري للجيش الالماني..
وبعد اسابيع علمنا اشياء اضافية عن السجناء الجدد..
تقلوهم للعمل في حفر الطين لكماثن الطوب.. اما الذين كانوا يقومون بذلك العمل منا، فقد تقلوهم الى مواقع جديدة..
ومن على البعد - كما ذكرت - كنا نراقب كيف يقودونهم للعمل.. كان الجميع يرتدون زيا موحدًا.. ويضعون على رؤوسهم قبعات متشابهة..
وكانت على ظهورهم وقبعاتهم ارقام كبيرة ظاهرة..
وكانوا يخرجون للعمل من باب مخصوص..
وعن طريق المرضى الذين يأتون من المستشفى علمنا بان اولئك السجناء هم (كاتورجاني).. نوع جديد من السجناء.. يشكلون اولئك الناس الذين تعاونوا او تعاطفوا مع الجيوش الالمانية عند قدومها وعند انسحابها.. ولم يتم اعدامهم في الحين..
القي ال. ن. ك. ف. د عليهم القبض.. وحاكمتهم المحكمة العسكرية (كاتورقو).. وكان معظمهم من عملاء المذن.. ومن القرويين.. والجنود والبوليس.. والمعلمين.. الخ..
اما الالمان الذين كانوا معهم فانهم بقية الذين وضعوا في معسكر الابادة ولم يستطيعوا الهروب منه في الوقت المناسب..
وسرعان ما بنيت عنابر متشابهة..
المجموعة الجديدة التي شغلتها كانت من النساء.. وهن ممن كانت لهن اتصالات مريبة بجيوش الاحتلال.. كما كانت لبعض الرجال السابق ذكرهم..
وبعضهن كانت لها علاقات حميمة مع الضباط الالمان..
وممن القي عليهن القبض بعض العاملات.. اللاتي عملن في غسل ملابس الضباط الالمان..
او عملن عندهم في اعمال النظافة وما اليها..
ولاول مرة نرى سجناء سياسيين من مجرمي الحرب..
وذاث يوم نجحت في التحدث الى ضابط الماني.. كنت اعمل في نقطة تغيير الخطوط.. وكانت هناك مجموعة من ال كاتورقش تقوم بتفريغ الحطب من عربات السكة الحديد التي وقفت بالقرب من منطقة عملي..
سمعت شخصان منهما يتحدثان مع بعضهما.. ومن لهجتها علمت ان أحدهما الماني..
وحتى لا اثير شبهة الحرس أخذت الجاروف وتصنعت بانني انظف المكان العالي.

وكننت من حين لأخر القى نحو الالماني كلمة المانية.. ولقد اندهش الرجل جدا واستغرب وهو يسمعى اتحدث الالمانية.. فسألنى:
- كيف حضرت اى هنا...؟ هل انت المانى..
وبالقنصاب اوضحت لهم من انا وكيف حضرت اى هنا.. وسألنى بلهفة..
- هل معك سجائر..؟

- لست من المدخنين ولكنى سأبحث لك عن شىء تدخنه.
وانسحبت بهدوء فقد رايت أحد الحراس وهو يراقبنى. وذهبت الى القسم الذى يقومون فيه بعملية صب الطوب، ورجوت احد معارفى ان يعطينى دخانا.. ثم وضعت ما حصلت عليه فى علبة ثقب واخذت الجلووف واقتربت من المجموعة.. واخذت اتحين الفرصة لاعطى الالمانى الدخان دون أن يرانى احد. وما ان لففت علبة الثقب وارادت وضعها على الارض حتى سمعت صوت الجندى يصيح بى ..

- هيه.. ماذا تفعل هناك...؟ هيا اخطف من هنا..
فاستدرت منصرفا الى حجرتى. ومن خلال النافذة رايت ان الالمانى يحدق فى اتجاهى..
ولكنى لم استطع ان افهم اشاراته.
ولقد سألنى موظف المحطة عن سير عملية تفريغ الحطب، فانتهزت هذه الفرصة لاقترب من عربات القطار مرة أخرى.

وفى اللحظة التى التفت فيها جندى الحراسة للجانب الآخر واعطانى -ظهره، القيت علبة الثقب بالقرب من المجموعة.
وبعدهما، ومن خلال النافذة رايت كيف يحاول الالمانى الاقتراب من علبة الثقب مرات عديدة.. كان كلما تقدم خطوة نحوها انتهره الجندى ليظل بعيدا عن خط السكة الحديد..
وبعدما حاول رجل آخر نفس المحاولة..
واخيرا نجح.

وقد خشيت ان لايسطيع المدخن كبح جماح نفسه فيعمد الى اشعالها.. وعندها.. الويل لى. لان الجندى سيدرك فوراً لماذا كنت الف وادور حول المكان..
ولكنهم لم يدخنوا.. ولا ادرى ما السبب. لعله بسبب الحذر.. ولعله بسبب انهم لايملكون عود ثقب..
على كل حال لقد نجوت.

وقد باعت بعد ذلك كل محاولتى بالفشل لان احادث احدا من ال كاتورتاشى لان الجنود كانوا يراقبون بدقة فائقة.
ومرة اخرى عملوا قريبا من نقطة تغيير الخطوط.. وفى حجرتى دخل أحد الجنود يلتمس الدفء.. وعندما حاولت الخروج لالتقى ببعضهم حذرني بانه من غير المسموح به الوقوف بالقرب منهم.. ولم أحاول المستحيل.. وكذلك لانى لم ارد ان أزرع الشك فى نفسه نحوى. سرعان ما تخطى عنى الحظ.

فى يوم مرضايط ال ن. ك. ف. د المسئول عن القسم التاسع، وكنت اقوم بعملى كالعادة..
وقد حاولت الاختفاء ثم تذكرت التعليمات التى تنص على ان يبقى المحوَجلى بجانب نقطة تغيير الخطوط وينتظر المسئول ويطلعه على عمله... فوقفت مكانى.. وعندما وصل الى

تقدمت بضع خطوات في اتجاهه ووقفت قائلاً:
 - التغيير نمرة خمسة العامل شتاينر كل شيء على مايرام.
 وعندما سمع اسمي سالني بحدة..
 - شتاينر؟ كيف وضعت في هذا العمل؟..
 - لقد اصبحت محولجيا بمحض الصدفة..
 - شيء مثير. اذن من الذى بقى دون ان يصير محولجيا؟..
 قالها بسخرية شديدة.. وتقدم في اتجاه التلفون..
 وسمعته يخاطب رئيس المحطة..
 - اسمع.. ارسل احدا ليستلم العمل فوراً من المحولجى في المحطة نمرة خمسة.. ومن مكانك
 هذا!..
 وهكذا عدت مرة أخرى للجاروف والمحول.. وحتى في هذا العمل لم امكث طويلا لان ضابط
 ال. ن. ك. ث. د اكتشف مكانى.
 كان على ان اجمع حاجياتى سريعا استعدادا للمرحلة الجديدة.. ولم يكن لدى من الوقت
 مايكفى.. ولذلك ودعت رفاقى بصعوبة شديدة.
 وكنت امتلك بعض الاشياء خلال اقامتى في القسم التاسع من المعسكر.. ملابس داخلية..
 علبة من الصفيح.. ملحقة خشبية.. غطاء..
 وقد حصلت على علبة الصفيح ايام عملى في المطعم من بقايا احدى المبيعات الامريكية.. اما
 الملحقة الخشبية فاننى دفعت فيها ستين ديكجراما من الخبز. وكذلك الملابس دفعت فيها
 اربع وجبات من الخبز. والغطاء كان هدية من سانشا فيبر.. وضعت كل اشياى في كيس
 امريكى كنت قد غسلته جيدا من قبل. واقتادونا للحمام، حيث فتشنا بوليس المعسكر
 تفتيشا دقيقا.. وصادروا الملابس الداخلية على اعتبار انها من ممتلكات الدولة.
 علبة الصفيح والملحقة الخشبية احتفظت بهما بعد لاي.. وانقذت الكيس بصعوبة
 شديدة. وسرنا بمرافقة بوليس المعسكر نحو باب الخروج.
 ووقفنا ننتظر لفترة طويلة حتى يتسلمنا الحرس.
 كنا نتساءل الى اية جهة سيقودوننا؟.. كنا امام الباب حوالى الاربعين سجينا.. كل منا حاول
 ان يخمن الى اين يذهبون بنا.. وبعدها عرفنا أننا كنا جميعا مخطئين..
 كان الظلام قد اطبق.. فساروا بنا بسرعة فائقة.. ودون رحمة وهم يستحثوننا.
 - سريعا.. سريعا..
 ورددت هذه الكلمات حتى الكلاب المرافقة في عواثها وتبلحها المخيف.
 واخيرا وفي محطة السكة الحديد حصرونا في الركن..
 وانتظرنا..
 حشرونا في عربات القطار التى تقلل من الخارج كالحيوانات.. ولسافة مائة وعشرين
 كيلومترا سار بنا القطار مستغرقا اثنى عشر ساعة..
 وكانت الساعة الثامنة صبلحا عندما وصلنا الى دودنكا...
 دودنكا! لم تخطر ببال احد منا.

في دودنكا... كيف شربت الفودكا بشهية

لم اردودنكامرة اخرى منذ ١٩٣٩م الا اليوم فقط.. لقد حدث في هذه الخمس سنوات تغيير كبير جدا.. ما كل هذه المعسكرات الكثيرة للسجناء التي ازدهم بها المكان؟
في الدقائق الخمس التي يقف فيها القطار منتظرا اشارة المرور، استطعت ان استرق النظر من خلال فتحة صغيرة في العربة.. كنت العنابر تشبه عنابر القسم التاسع في معسكرنا بنورلسك.. النوافذ ذات القضبان الحديدية والابواب المكسوة بالصفيح.. السلك الشائك الذي يحيط بالمكان ترادفت صفوفه.. ابراج المراقبة العديدة المربوطة بشبكة تلفونية.. كل شيء تغير.. كل شيء..

في المحطة فتح الجنود ابواب العربات.. في الطريق الى المعسكر كانت هناك حركة بناء متصلة.. مجموعات تبني بوابة خشبية كبيرة من خلال بابها الواسع امتدت قضبان السكة الحديد.. علمنا انها مخزن جديدة.

على بعد خمسمائة متر من محطة السكة الحديد كان يقع القسم الجديد الثالث والذي وجدوا لنا فيه مكانا بصعوبة شديدة.. نحن الاربعة.

هنا، كل السجناء يعملون في السكة الحديد.. وفي احد العنابر الاربعة كان يسكن المسئولون عن الماكينات وسائقو القطارات والمحولجية كانوا كلهم من المجرمين ويذهبون للعمل بدون حراسة.

وفي العنبر الثاني كان يسكن عمال الورشة، وهم خليط من المجرمين والسياسيين.
اما في العنبر الثالث فكان يسكن العمال الذين يعملون في خطوط السكة الحديد.. وحشرونا في ذلك العنبر.

في العنبر الرابع كانت القيادة، وقاعة استعملت كغرفة للمرضى. وقد قسم نصف العنبر الى قاعتين.. في احدهما سكنت اثنتا عشر امرأة، كن يعملن في السكة الحديد.. اثنتان منهن فقط سياسيتان والبقية مجرمات.
وفي النصف الاخر كان يسكن موظفو المعسكر.

من الوهلة الاولى استطعنا ان نتبين الفرق بين معسكرنا في نورلسك وهذا المعسكر.. كان السجن هنا مرحا اذا صح التعبير.. ففي نفس اليوم سمحوا لنا بان نشترى الخبز وبعض المواد التموينية الاخرى.. وفي العشاء تنازل لنا الكثيرون عن حسانهم.. وراينا بعضهم يشرب الشاي بقطعة كبيرة من السكر، وكانوا ياكلون مع الشاي الخبز الابيض الذي صنعوه بانفسهم.

ولقد استغربنا ذلك في البداية.. ولكن بعد فترة علمنا من اين تاتيهم كل تلك الخيرات.. كان الذين يعملون في السكة الحديد ينهبون العربات المحملة بالمواد التموينية.

لم نعد نحس بالجوع بعد ذلك.. ولقد ادركت لماذا يتطلع الكثيرون في نورلسك الى دودنكا.

كانت مجموعتنا تعمل في حاجر الرديمة للسكة الحديد. كانوا قد وضعوا خطوطا جديدة

توصل لميناء دودنكا على نهر الينسى.. وقد استوجب ذلك تغيير الخطوط القديمة، على ان يتم العمل قبل حركة الثلج في النهر.. كانت تلال الثلج تمتد لآكثر من مائتي مترا في عمق الشاطئ.. ولو اصاب الثلج القضبان لسبب فيها التواءات واوجاجات.. فكانوا يضعون بعض اليايات حتى يسهل اهتزاز القضبان دون ان تتعرض للمقاومة.. وكانت الثلوج عندما تدفع مع حركة الموج تسحق كل ما يقف في طريقها وتهشمه كانه عليه ثقاب.. كثير من المنازل اختفت وكانها لم تكن.

عندما كنا نقوم بالعمل في تركيب القضبان، نجد انفسنا دائما في عمق الماء.. ولذلك فقد كانت السرعة حيوية لنا.. وكانوا يحتسون الفودكا لم يفعل السجناء بالطبع بل فعله الحرس ورؤساء العمال... ولما كانت الفودكا هي الحافز لنا لكي نسرع ونحن في الماء وحتى لا نتجمد من البرد.. فقد شكونا لرئيس قسم السكة الحديد ذلك.. فوعدنا بأنه سيحضّر هذا التوزيع بنفسه.

وفي اليوم التالي قسموا علينا الفودكا بحضور مدير السكة الحديد في فترة وقت الظهيرة.. احضى بنفسه الفودكا ووقفنا في صف واحد.. حمل رئيس العمال الزجاجية بيد والكوب باخرى.. وتقدمنا واحدا بعد الآخر.. وبدأ رئيس العمال يصب لنا ونحن نشرب.. وكانت متعتنا فوق كل متعة أخرى.. وتلمظ بعضنا بقلذ شديد. وسال بعضنا..
- كيف المشروب؟

- فوق التصور..

لم يكن احد ليجرؤ على القول بأننا شربنا ماءا عابيا من نهر الينسى.. كان عملنا في الميناء.. وكان عملا جيدا نؤديه بروح عالية لاننا كنا نعمل بغير حراسة.

ولكن الميناء نفسها كانت محاطة بالسلك الشائك.. وعلى طول خط الاسلاك الشائكة كانت تقف ابراج المراقبة التي يتابع منها الجنود تحركات الجميع.. والميناء نفسها كانت تحتل منطقة كبيرة فيها مخزن البضائع التي ترسل بالسفن الى نورلنسك.. واحيانا يضيق بها المخزن فترقد في العراء.. ومن ذلك ايضا جوالات الدقيق.

كان السجناء يعملون في كل اقسام الميناء تقريبا.. ماعدا (ال كاتورقاش) وفي هذه المنطقة بالذات كان يعمل اكثر من خمسة الاف سجين واطلق.. كلهم يعملون معا لاختلاف ملابسهم ولا هياكلتهم.. السجن كالتطبيق والاطلاق كالسجين.. حتى الرجال والنساء كانوا يعملون مع بعضهم البعض في موقع واحد.

في اوقات الراحة عند الظهيرة كان بإمكاننا التمشي في الميناء بحرية تامة. وقد تعرفنا على احوال الميناء في ايام قدومنا الاولى... وكان البعض يتعلم بسرعة.. تعلموا ايضا كيف يسرقون.. عادوا وجيوبهم مملوءة.. السكر، الدقيق، المعلبات، وبعض المواد التموينية الاخرى التي كانوا يسرقونها بسهولة شديدة.. ومن لم يحمل في جيبه شيئا كانت بطنه مليئة بكل مايشتهى.. الجوع هنا غريب وغير معروف.

رغم التفتيش عند الخروج من الميناء كانت الاشياء تنسرب وتصل لمن يستطيع ان يشتريها.. راجت التجارة بالطبع.. وكان بالامكان شراء الخبز والسكر والصابون، بل وحتى الكلوينيا.. وكان بوليس المعسكر يفتش العنابر ويصاغر باستمرار.. ولكن سرعان ما تحل

بضائع أخرى بدل تلك المصادرة.. السرقة ذاتها أصبحت شيئاً مألوفاً وتغيرت النظرة الأخلاقية اليها.. المهم هو خفة اليد.. عندما كنا في نورسك كنا نتمنى العمل داخل المعسكر، أما في دودنكا فالأمر مختلف جداً.. من النادر أن تجد سجيناً يود البقاء في المعسكر.. كلهم يفضلون العمل في الميناء بدون أى اعتبار لنوع العمل وصعوبته. وذات يوم تم تعييني عاملاً (كبياتلشك) للماء الساخن. كان عملي هو تسخين الماء يومياً في الصباح والظهر والمساء.

كان المكان الذي يغلي فيه الماء يقع في العنبر الصغير. وقد وضعت فيه قدرين كبيرين.. ووضعت سريرى في الركن.. في الغرفة المجاورة وضعت أربعة أسيرة يقيم فيها بعض موظفي المعسكر - أحدهم كان رئيس الحرس، والثاني من البوليس، والثالث أمين مخازن المواد التموينية، أما الرابع فهو الكسندر بوشكو.. مدير قسم الترحيل بالسكة الحديد. كان الأربعة يتجولون بحرية وبدون حراسة داخل المعسكر.. وكان واجبي هو ان اغلي الماء (كبياتوك) وانظف الغرفة.. لم اكن جائعاً على الإطلاق.. كان معي من الأكل أكثر مما هو متوقع وأكبر من كل طاقاتي على الأكل..

كان السجناء الآخرون من مجموعة الدول الاشتراكية حول الاتحاد السوفيتي يتمتعون بأشياء وامتيازات خاصة من بينها الفودكا والنساء، كان مجموعهن اثنتي عشر امرأة.. تسعة منهن لهن عشاق.. ومن الرجال الذين كنت أخدمهم كان ثلاثة لهم عشيقات ماعدا (بوشكو).. وكانت الحرية متاحة للنساء ليقيمن بزيارة الرجال وقتما يشئن. بعد مضي فترة من الوقت رحلوا الى العنبر الصحي، وطلبوا مني أن أرحل معهم، وذلك لثقتهم في شخصي حيث كنت أكرم أسرارهم. وذهبت معهم..

أحضروا شخصاً آخر مكاني.. وحددت واجباتي الجديدة بنظافة الغرفة التي يسكنون فيها.. وكذلك الغرفة المجاورة التي تقيم بها النساء.. وقد تعرفت عليهن جميعاً.. خصوصاً الشابات منهن.. ومعظمهن حوكن بعشر سنوات أعمال شاقة وذلك بنهم بسيطة لا ترقى الى مستوى ذلك العقاب الصارم.

عملن في كل شيء.. فراشات.. خادلات.. عاملات بالسكة الحديد.. الخ.. أحداهن كان محكوم عليها تحت المادة ٥٩ بتهمة عضوية عصابة إجرامية اسمها (شورا) قصيرة القامة ممثلة الجسم.. جميلة الوجه.. ذات عينيت سوداوين ساحرتين.. لم تكن بقية النساء على علاقة طيبة معها.. لأنها كما يقلن كانت ذات وجهين..! وكانت تبكي بلا انقطاع من أجل أطفالها الذين تركتهم عند أمها. وأقسمت أن لا تدع رجلاً يمسه أبداً.. ولكن الجميع كانوا يعلمون بأنها عشيقة المخزنجي الذي كان يطعمها الحلوى.

وكن يسألنني دائماً.. هل تأتي (شورا) الى الغرفة؟

ولم أكن أريد إفساد سرها، رغماً عن علمي بأنها كانت تشارك سبستين سريره.. كانت مهمته جداً أن لا افضح سرها.. ولذلك فقد كانت ترشوني بالهدايا من الخبز الأبيض وقطع السكر. كانت أجمل النساء هي أولقاسرب.. شابة جميلة التقاطيع رشيقة البنية.. قبل أن يقبض عليها في عام ١٩٤٠م كان طالبة بكلية الطب، وقد اعتقلت مع زميل لها بتهمة الانضمام لمجموعة الثورة المضادة. وكذلك لأنها وزعت بعض المنشورات المكتوبة بخط اليد وسط زملائها الطلاب.. وحوكمت بعشر سنوات - سجناً.

كان عملها هو التمريض في العيادة.. مدير المعسكر بوريس الذي كان متحرراً للغاية طلب

منها ان تكون عشيقه للدكتور .. ولكنها رفضت .. كانت تغسل ملابسه فقط ولا تسمح له باكثر .. وكانت رغم ذلك متحررة المطلقة العواطف ... وقد تاكدت من هذا عندما لقيتها في نورلنك بعد سنين عديدة فوجدتها حاملا وقد احبها الجميع وعشقوها .. وحارب من اجلها بوشكو مدير قسم الترحيل الذى كان ينتهن كل فرصة ليغازلها .. لم يكن شابا ولا جميلا .. وقد باعت كل محاولاته بالفشل .. حتى الهدايا والتفاحات التى كان يقدمها لها على شكل معلبات لحم .. وقطع سكر .. ومواد تموينية اخرى لم تحرك فيها ساكنا .. فقد كانت تتمتع بامدادات اخرى جيدة ..

وعلى كل حال، فان العلاقة بين الرجال والنساء لم تكن دائما حسنة .. فالنزاعات تشتب في كل حين، وعلى ان اقوم بدور حمامة السلام في كثير منها .. حدثت تغييرات خطيرة من الادارة .. نقل بوريس مقرر ال ن. ك. ف. د وجاء بدلا عنه مدير جديد هو بوتنسيق .. وقد حاول ان يضع خطا مغايرا لسياسة سلفه في ادارة المعسكر .. الاشياء التى كانت تحدث في الميناء لم يستطع تغييرها ..

ولكن في المعسكر، قام بتعيين رئيس جديد للحرس، واتخذ اجراءات وضوابط ومراقبات حازمة .. كان من جرائها اجراء تفتيش دقيق ومتصل للغرف التى تسكنها النساء، والسجناء من مجموعة الدول الاشتراكية ..

وفي ذات يوم ذهبت للعيادة، فجاء رئيس الحرس للغرفة بعد ذهابى وكسر الباب فوجد في السرير بوليس المعسكر ومعه ماريسيا ..

وانتهى المطاف بماريسيا الى زنزاة الحبس الانفرادى (كلرس) ..

ويوما دخل رئيس الحرس الجديد في غرفة ال بريدوركا وكنت اضع زجاجات - الفودكا .. فسألنى من اين لي هذه الزجاجات .. واجبتة هذه زجاجات كيروسين .. اخذ واحدة وشمها .. - هكذا اذن ؟ .. رؤساؤك يشربون الكيروسين .. وانت ايضا تتجرعه بسرور .. وصمت برهة .. ثم قال بسخرية ..

- وكيف الحال مع النساء .. من المحتمل ايضا انهن دميات من الخشب ..

- هنا ؟ .. اننى لم اراية امرأة ..

- بعد نصف ساعة سأنتهى من المرور .. تعال الى مكتبى ..

وذهبت اليه .. فطلب منى ان اجلس بالقرب من منضدته ..

- والان حدثنى عن كل شئ يجرى في العنبر - بالتسلسل - من هن ؟ ..

ومن هم عشاقهن .. وماهى الكمية التى يشربونها من الفودكا .. ؟

- انا نوبتجى فقط ولست جاسوسا .. هذا الامر من اختصاص بوليس المعسكر ..

آه .. هكذا انت ؟ .. اذن انتظر .. انا سوف اساعدك .. غدا سوف تحصل على اسوا عمل يمكن ايجاده هنا ..

وصمت .. ثم صاح فجأة ..

- الان .. اخرج من هنا فورا ..

وخرجت من المكتب .. واخبرت المدير بما حدث لي، فهذا من روعى، ووعدنى بانه سوف يتحدث مع بوشكو ليجد لي عملا في قسم الترحيل ..

وقد هدأنى ذلك قليلا ..

واستمر عملى كما هو لايلم .. ثم صدر الامر بنقلى الى مكتب الترحيل نوبتجيا ..

في ميناء دودنكا...

كان المكتب الذى تقع به ادارة السكة الحديد داخل الميناء فى دودنكا. وكان رئيسى هو السكندر بوشكو.. كان يقضى فترة العقوبة من عشرين عاما حاكمته بها محكمة ارجونيكى فى شمال القفقاز، بتهمة العمل التخريبى.

وكان بوشكو من السجناء السياسيين القلائل الذين يملكون تصريحاً للتجول بحرية فى دودنكا.. ودون حراسة ايضا.

كانت واجباتى الوظيفية هى احضار الفحم وايقاد المدفآت.. موظفات قسم الترحيل كن خليطاً من السجينات والطليلات.. وكانت الطليات يتمتن بالشباب والجمال.

ومن الانطباع الاول توصلت الى خلاصة مفادها ان العلاقات بين السجينات والطليلات ليست علاقات عمل فحسب ولكنها صداقة حميمة.

بعدها اكتشفت ان الطليات لا ياكلن الملعبات المسروقة فقط، ولكنهن يقمن بصنع الخبز من الدقيق الذى تسرقه السجينات فى الاكياس.

ولم يستمر الوضع على ذلك فقط.. بل ان الفتيات الطليات استجبن لبعض المطالب الحيوية بالنسبة للنساء.. فكن يهدين صديقاتهن السجينات الجوارب الحريرية، وعلب البودرة، وزجاجات العطور.. بعض النساء السجينات كن يكتفين باكياس القماش التى يجيء فيها الدقيق من امريكا فيصنعن منها ملابس جميلة..

وعلى منضدة رئيس قسم الترحيل بوشكو كانت هناك دائماً الفودكا والبسكويت... والملعبات.. احدى الطليات حازت على اعجابه.. اسمها فاليا.. ربط بينهما الحب العميق.. فقرر الزوجان عندما تنتهى فترة عقوبة بوشكو..

ولم يتم الزواج..

فبعد اربعة عشر يوماً من اطلاق سراح بوشكو وصلت الى دودنكا زوجته وابنته الكبرى. وهكذا عشت هناك..

كنت احس باننى فى الجنة.

من الموظفين حصلت على الطعام المسروق.. كنت آكل الحلوى كما اشاء، ويحلو لى..

وعملت شهراً اصبحت بعده موظفاً بالسكة الحديد.

وكان عملى الجديد عبارة عن مراقبة البضاعة التى تشحن والتى تفرغ فى عربات السكة الحديد.. وكان على ان احدد بالضبط تواريخ وصول العربات وتواريخ التفريغ والشحن..

وكنت على اتصال دائم مع الموظف الذى يعمل فى حركة الخطوط لاخبره بسير العمل.

كان على ان اراقب كيف يجرى التفريغ بناء على لوائح السكة الحديد. هذا العمل..

عمل موظفى السكة الحديد.. هو العمل المثالى الذى كنت احلم به كسجين.. لم يكن متعباً

جسمانياً.. اما من الناحية المادية فقد كنت مكتفياً.. وهذا يعنى ان الاكل عندى وفير.. وكنت

اعلم ان كثيراً من الموظفين يبيعون الاشياء المسروقة ليحصلوا على نقود اضافية وفيرة..

ساعات العمل هى اثنتا عشرة ساعة فى الوردية.. ساعات الراحة اربع وعشرون ساعة..

بعد العمل الليل الذى لم يكن متعباً قط.. لدينا فى المكتب مدفأة، نطبخ ونخبز فيها.

وسرعان ما اصبحت كغيرى..

تعلمت انتهاز الفرص.. اجد صندوقا مكسورا او كيسا من الدقيق مرقا يخفق قلبي وتزداد وتنسارع دقاته.. فامد يدي.. كنت في الاول طفيليا اكل من خفة يد الآخرين.. ثم صارت لي كينونتى واصبحت لصا مقدرا مثلئ مثلهم.

وفي ذات يوم حدث شيء لم يكن متوقعا حدوثه في دودنكا.. بعيدا عن الميناء كانت تعمل مجموعة من مجموعات الكاتورقاشي تحت حراسة مشددة... كانوا حوالى الخمسين.. يكسرون الثلج في نهر الينسي المتجمد ويستخرجون جذوع الاشجار التي كانت مشحونة يوما ثم سقطت في الماء وتجمدت.. وكان يجب اخراجها من هناك.

الكاتورقاشي الذين كانوا يعملون تحت حراسة مشددة نوعا.. استطاعوا بوسيلة ما الاقتراب من الجنود.. انتزعوا مسدسا اوتوماتيكيا قتلوا به جنديين وجرحوا ثلاثة.. وفر احدهم.

اخطرنا القيادة فورا.

وفي هذه الاثناء التي ساد فيها الهرج والمرج هرب نحو خمسة واربعين من الكاتورقاشي.. وبقي خمسة رافضين الاشتراك في عملية الهروب.

وبعد ساعات حسمت معركة المطاردة، قتلوا جميع الهاربين ماعدا ثلاثة استبقوهم كشهود لما حدث.

كنا نحن قدماء السجناء في حيرة شديدة من هذه العملية الانتحارية التي اقدم عليها هؤلاء الكاتورقاشي... والتي لم يكن لها اى معنى على الاطلاق.. فمن يحاول الهرب امامه خياران - الموت برصاص الذين يطاردونه، او الموت قهرا في هذه الصحراء الجليدية اللامتناهية. ويبدو انهم فضلوا الموت العاجل على البقاء لمد تتراوح بين العشرين والخمسة والعشرين عاما في ذلك النيه المهلك.

واستمر المدير الجديد في تنظيف المعسكر من جميع الاساء الخلقية، فكانت اولقا الحسناء احدى ضحاياها.. طردوها من العيادة، فبقيت في القسم الرابع من المعسكر.. وكان عليها وعلى غيرها من بقية النساء تفريغ اكيليس الدقيق والاسمنت والمواد الاخرى من على متن السفن التي تصل الى ميناء دودنكا.

كنت اقبالها دائما في مكان العمل.. ورأيت مدى العذاب الذى تتعرض له وجاهدت لكى اخفى عنها ما الاحظه عليها من الاسى حتى لا اخرجها فقد كانت معتدة بنفسها

وقد حاول بوشكو مساعدتها بشتى الطرق.. ولكنه ولزمن طويل لم يستطع نقلها الى عمل اسهل.. حتى كللت مساعيه اخيرا بالنجاح، فتم نقلها الى قسم انتاج الفحم الخشبي.

وعندما عدت بعد سنين عديدة الى نورلنك مرة اخرى علمت بان اولقا حوكت بعض سنوات اخرى بتهمة الدعاية للثورة المضادة بالمعسكر.

في عملي الجديد استطعت ان اكسب رضا بوشكو رئيس شبكة السكة الحديد بدودنكا ومن معه.. فتمت ترقيتي الى كبير الموظفين.

وقد اصبحت بذلك رئيسا على مجموعة من الموظفين.. سعيت معهم وبهم حتى اصبحت مجموعتى خير مجموعات العمل على الاطلاق.. وحصلنا مرات عديدة على جوائز من ادارة المعسكر وادارة السكة الحديد.

في مجموعتنا كانت هناك شابة من الطليقات اسمها نينا شعبان رياضية الجسم لها عينان واسعتان.. وابتسامة جذابة.. كانت عندما تضحك تصلصل الاجراس وتتمايل ايقاعات

الفرح.. وعلمت انها تسكن مع ابويها.. والدتها وزوج والدتها .. الذى كان يعمل مديرا للتخليف في دودنكا.

في ايام الاجازات عودتنا نينا على احضار سلة مملوءة بالماكولات والفودكا... كانت لطيفة معنا.. ولانى كنت اكبرها بكثير فافنى لم اتصور او اعتقد لحظة واحدة انها تفعل ذلك عن عاطفة تجاهى..

وظنن بان ظروف عملى كرئيس لها هى التى جعلتها تهدىنى هذه الاشياء لتكسبنى الى جانبها..

وذات يوم سمعت همسا هزنى بشدة ورنل كيانى... فقد همست لى بعض صديقاتها بانها غير سعيدة لانى لا ابادلها العاطفة.

ونقلت الى من همس لى ان يخبرها بلطف عن حقيقة الوضع.. وضعنا نحن الاثنين، فهى طليقة وانا سجين، وهذه العاطفة ستضر بها دون شك وفى تلك الايام وصلت سفن كثيرة الى دودنكا.. من الولايات المتحدة الامريكية.. وانجلترا.. وحتى يتم تفريغ كل تلك السفن تم تعيين الطلقاء وقد حصلوا لهذا الغرض على ملابس واحذية خاصة.. كان عليهم ان يعيدوها بعد العمل لادارة الميناء. وكان هناك مريض خاص للسفن التى تاتي من الخارج، بعيدا عن المكان الذى يعمل فيه السجناء..

وقد تم بناء متجر لبحارة السفن..

وكان السجناء يراقبون تلك السفن بنظرات دقيقة فاحصة على وجه الخصوص.. كانوا يعلمون انها تنقل المواد الغذائية.

موظفو الخطوط البحرية.. وللصوص.. يعملون معا.

كان الموظفون مهتمين جدا بان يحولوا تلك العربات الى الخطوط المينة.. حيث يتمكنون من نهبا يهدوء وبدون مضايقات، ثم يقتسمون غنائمهم بعد ذلك. قضبان والحديد السكة الحديد لم تكن تكفى لنقل كل المواد الى نورلنك فكان جزء كبير منها ينقل في فصل الشتاء.

اذن، لابد من بناء خط حديدى عاى بين دودنكا ونورلنك.

والقيت مهمة الاداء الصعبة في الانشاء على فرقة الكاتورتاشى.. وتقرر ان تمر القضبان بطريق آخر وليس على طريق الخطوط القديمة الضيقة.

وعمل الكاتورتاشى - عملوا بجد لا مزيد عليه طيلة فصل الشتاء القاسى.. اما في فصل الصيف فقد توقف العمل لعدم وجود كميات كافية من القضبان الحديدية واستمر العمل لسنوات.. واخيرا انجز الخط المطلوب.. واصبحت دودنكا مربوطة الى نورلنك بخطوط حديدية واسعة.

كانت اعمال التفريغ في الميناء تهتم بها منظمة اسمها قرونوفوى اوجاستوك.... وكان رئيس قسم التفريغ احد الطلقاء من الذين قضوا فترة العقوبة في جريمة عادية.. كان اسمه استامبولى.. وينوب عنه من السجناء السياسيين زيوروفسكى وهو احد القادة السوفيت.. وكان رفيقا للنمساوى فايسبرج سيولسك في سجن التحقيق بهاركوف وحوكم بعشر سنوات سجنا.. وكذلك سلسى نائب رئيس ال ن. ك. ف. د في تفليس بالقوقاز..

كانت صلتى بهؤلاء الناس مستمرة وكثيرة لان نوعية العمل كانت تتطلب اعمالا دائما مع قسم التفريغ.

وكانت ادارة السكة الحديد تحرص على ان تقوم بتفريغ القطارات وشحنها في الزمن المحدد

لها بالضبط.

وكل خطأ يحدث يكون عقابه المادى كبيرا وفادحا..

ولذلك فان رؤساء قسم التفريغ جاهدوا وحرصوا دائما على ان توثيق علاقاتهم مع موظفى السكة الحديد.. الذين يحددون قيمة الغرامة.. ثم يقررون هل تدفع ام لا..

وكانت وسيلتهم الى هذا التقرب والتودد هى الهدايا الصغيرة المختلفة. اما علاقتى - انا - مع بوريس وسيلس والآخرين فقد كانت تقوم على قاعدة اخرى.

فقد كنا ذات يوم اعضاء فى الحرب، وهذا ربط بيننا بشدة فى المعسكر. وتلك الاشياء كنا ننتهى من تسويتها ونحن نهتدى (بخط سير الحرب). اغلب الشيوعيين سلكوا سلوكا مدهشا فى مساعدة زملائهم السابقين ومحاولة التخفيف عنهم.. فقد كان قدر السجن صعبا للغاية.

الاضراب الاول والاخير في السجن

في التاسع من مايو عام ١٩٤٥م وصلت عربات عديدة من عربات السكة الحديد محملة بالمهام الميكانيكية والادوات والاجهزة.

وفي انتظار السفن بقيت اسابيع عديدة.. وقد حاول الجميع.. مجتهدين اخلاء المخازن منها لاستقبال شحنات جديدة..

ورجوت العمال في الاسراع لان العربات كانت في انتظار القاطرة المتجهة الى نورسك.. وحتى لا اضيع الوقت اتصلت تلفونيا بالموظف المناوب في مكتب الحركة لكي يرسل قاطرة للعربات.

ووصلت القاطرة بعد دقائق.. ومد سائق القطر راسه صائحا في جموع العاملين.. سجناء وغيرهم..

- يا اخوة.. وقعت معاهدة السلام.. وانهزم الالمان وانتشر الخبر في كل مكان.. سرى سرعان النار في الهشيم تآزرها ريح قوية..

وتوقف الجميع عن العمل.

وتوجه السجناء نحو باب الخروج من الميناء..

كانوا يتجمعون في كل الجهات.. ولم يدرك الحراس ماذا يفعلون.

هكذا.. فجأة جمعت كلمة السلام كل الناس، السجناء والطلقاء والحراس...

وهتف الجميع..

- انه السلام.. قودونا الى المعسكر.. فاليوم لن نعمل.

ورددت الارحاء هذه الاصوات الهادرة المنطلقة.

وارتبك الضباط.. قالوا ليس لدينا تعليمات.. ولكن صوت السجناء القوي صاح فيهم..

انه السلام.. عن اية تعليمات تتحدثون قودونا الى المعسكر واندفعت الكتل البشرية

المتلاحمة للخارج.. لم يستطع الحرس ايقاف احد او اجراء التعداد اليومي على احد..

وتبدلت المدافع الرشاشة نحو الارض.. لأول مرة لايسبنا الحرس... كلمة السلام وحدت قلوب الجميع.

وعذ وصولنا امام المعسكر.. جرى نفس العرض.. وبذات الصورة..

فتحت بوابة المعسكر على مصاريعها وتدفق الجميع.. مثلما خرجوا من بوابة الميناء ولم

ينتظر الحرس كما كانوا يفعلون كل يوم.. دخول الجميع، بل اتجهوا الى ثكناتهم.. وبقينا

في سلحة المعسكر.

كان الناس يلتحمون ويتعانقون ويشدون على الايدي.. انهار من الفرح الحقيقي

والسعادة المطلقة تدفقت في ذلك النهار، احتفاء بانتهاء الحرب المرعبة.

وكرر الجميع لبعضهم البعض.. الان، وبعد قليل سنذهب الى بيوتنا. بالطبع

سيصدر العفو.. ويعود الجميع الى منازلهم.. قال احدهم فجأة - نعم.. اذا كانت لاتزال

هناك عوائل.. عائلتي ابادها الالمان. وظهر مدير المعسكر..لقى كلمة قصيرة.. قال فيها ان

هتلر قد انهزم.. وان الجيش السوفيتي انتصر، وان السلطة السوفيتية وعلى راسها الرفيق

ستالين، لن تنسى باننا في زمن الحرب عملنا جيدا.. وبذلك ساعدنا على سحق المحتلين..

وذكر كذلك بان الجميع سينالون العفو.. ثم قال:

- بالطبع لن يستطيع الجميع الذهاب في الحال الى منازلهم. ولكن العقوبة ستلغى.
كنا سعداء.. بما سمعنا.. اتجهنا صوب العناير.. وعند المساء اعطونا الحساء للعشاء
كالاعتاد.

ولاول مرة رفع السجناء عقائدهم محتجين ومعلنين عدم الرضا.

- اليوم كان بإمكان هؤلاء الكلاب طيخ شيء أحسن.

ومرت الأسابيع.

ولم نسمع شيئاً عن وعد العفو.. بقي موقف السجناء كما هو.. وكان شيئاً لم يحدث في
العالم.

وعندما ذكرت هذا الامر امام الصديق جوزيف.. قال بصدق

- كل شيء في العالم يتغير..

اجل كل شيء يتغير ولكن (ق ب ل ا ق) (الادارة المركزية للسجون) تبقى كما هي

دائماً.. والى الابد.

اول خطاب من زوجتى بعد خمس سنوات

منذ عام ١٩٤٠م وأنا افقد تماما كل اتصال مع زوجتى.. على الرغم من انه وحتى قبل ذلك.. كانت رسائلها نادرة.. كنت اعلم تقريبا انها تعيش في موسكو.. اما هي فانا واثق من انها لم تكن تعلم شيئا على الاطلاق.. حتى النقود التي استلمتها منها في بعض المرات كانت ريدوى عليها لاترسل لها.. انا اعلم ذلك.

بالطبع لم يسمح لى ابدا بالكتابة عن وضعى الحقيقى.. وكل تلك السنوات الخمس كان يغمرنى يقين بارد بانه لا زوجة لى.. عندما القى على القبض كان عمرها عشرين عاما.. كان بامكانها وهي في تلك السن ان تحتل.. موت الطفل - الضغوط الهائلة التي تعرضت لها.. ولكن ايضا كان بامكانها - طبعاً - ان ارادت ان تتزوج من رجل آخر..

وعندما انتهت الحرب قررت ان ارسل لها رغما من ظنى الاخير رسالة.. لعل وعسى.. لم ارسل الخطاب من بريد المعسكر العادى.. ولكن طلبت من احدى الالمانيات وكانت تعيش في دودنكا وتعمل كمساعد محاسب في محطة السكة الحديد.. طلبت منها ان ترسل خطابى في صندوق البريد العمومى.. مثلما كان يفعل معظم السجناء.. وكانت الرسائل في العادة تراقب.. ولكن الاغلبية ايضا كانت تصل الى ذويها.. ورجوت زوجتى ان ترسل لى ردها بواسطة الالمانية..

ومرت اسابيع عديدة.. دون رد.. وانهارت جميع امالى.. ويوما ما.. طلبت منى الالمانية ان اذهب الى غرفتها في وقت الراحة عند الظهيرة..

احسست بضعف عام في جسدى.. وكانت الساعة العاشرة صباحا.. ووقت الراحة مازال امامه ساعتان.. وشعرت بانى لن استطيع الانتظار بقية الوقت..

اتجهت دون ان يكون لى ما افعله نحو السفن.. النساء والرجال منهمكون في تفريغ البضائع من على متن السفن.. ومنهمكون ايضا في اعادة تحميلها على عربات السكة الحديد..

كان العمل يسير سيرا عاديا.. ولم يكن لى عمل يشغلنى.. فعدت بعد نصف ساعة اتسكع هنا.. وهناك..

حاولت التحدث الى الالمانية.. وعندما اقتربت من مكان عملها اشارت لى بالقلم محذرة انا لا افعل..

ولم ادرك مغزى اشارتها الى التو واللحظة..

هل كانت تعنى انه لاشئ لى عندها..؟ ام اخفا كانت تحذرنى فقط لكى اظل بعيدا عنها.. كانت لديها عدة اسباب للخوف بالتأكيد.. في نفس الغرفة جلس احد السجناء من الذين اشتهروا بعمالهم لل ن. ك. ف. د فهو ينقل كل شئ.. وحتى لا اعرضها للمخطر خرجت من الغرفة.. وبحثت عن عمل ما يعيننى على قطع الوقت..

واخيرا جاء وقت راحة الظهيرة.. وذهبت اليها.. دخلت غرفتها فلم اجد احدا..

وعندما هممت بالخروج دخلت الفتاة الالمانية. أخرجت من حقبة يدها جريدة خبات فيها الرسالة.

وفي الحال تعرفت على خط زوجتي فحقق قلبي بعنف.
ونزعت الرسالة من يدها وجريت نحو الحظيرة التي يحفظ فيها الفحم.
واختبأت في ركن.. أحمل بيد مرتعشة انفعالا والظرف الممزق.
- عزيزى الوحيد كارلو..!

بدأت في قراءة الخطاب.. وتدفقت ادمعي.. فتوقفت لم استطع الاستمرار الجملة الاولى
أخذت تتراقص امام عيني المبتلتين بالدموع.
عزيزى الوحيد كارلو..!

آه.. من السعادة.. ويا للفرح.. كل شيء سيكون رائعا عندما تكون البداية هكذا.
انها مازالت في يدي.. حبيبتي.. زوجتي.. لم تتخل عني.. اذن..؟ وقرأت بعدها. علمت انها
استلمت خطابي بعد صعوبات جمّة، لانى ارسلته على العنوان القديم، دون ان ادري طبعاً
بان زوجتي رحلت منذ زمن بعيد. علمت كيف انها قد عاشت سنوات الحرب.. هي
واقاربها.. كانوا يعتقدون اننى مت منذ زمن طويل.
وانتهى اخيراً الخطاب، لانه كان لابد ان ينتهى، بكلمات دافئة حانية ممثلة بالحب
والشوق والامل..

وكان هذا اول يوم لسعادتي الحقيقية في المعسكر.. وقد توصلت الى الاجابة على السؤال
الذى طالما اقضى مضجعي واقلق راحتي.. لماذا اعيش؟

نعم.. كان على ان ادفع ثمن العذاب مضاعفا حتى اعيش هذا اليوم. وبنفس الطريقة
تبادلنا الخطابات الحارة الملتهية.. ومعها النقود والمجلات.
ثم علم مخبر ال.. ن.. ك.. ف.. د كل شيء.

السجناء جميعهم يعلمون ان زيكوف عميل لل.. ن.. ك.. ف.. د بالقسم الثالث من المعسكر في
دودنكا.. حوكم زيكوف بعشر سنوات لانه اختلس المال العام.. ولانه اراد تحسين موقفه،
استجاب لخباسة نفسه فاصبح جاسوسا ينقل كل شيء.. ماذا اكل السجناء.. ماذا قالوا..
ماذا سرقوا.. اثار حفاظ السجناء ليلتقط شيئا يبلغ عنه.

كان بالطبع يزيد على مايسمع من خياله، حتى يثال الخطوة والتقدير عند ال.. ن.. ك.. ف.. د.
وكانت مكافآته على ذلك انه حصل على اجازة لعدة ايام لم يظهر فيها بالمعسكر.. كانت له
عشيقه من الطليقات اعتاد ان يقضى عندها الليل.. وكان عمله هو رئاسة الموظفين في السكة
الحديد بالورديّة التي اعمل بها.. ودائما ما كان (يطنطن) بان ارقام صفحات التفرغ لا
ترى بوضوح كاف.. ولم يكن ذلك صحيحا بالطبع ولكنه اراد اخراجي عن تحفظي
باستثارة غضبي.. فلم اعطه هذه الفرصة ابدا. ظلت احتفظ ببرودي واكبح جماح نفسي
بعد مجهود قلبي ومعاناة شديدة.

كان الجميع يخافونه ويتقون شره..

السجناء والطلقاء على السواء..

لانه كان يعرف مدى سلطانه.. وعلى ذلك الاسلحس تأتي تصرفاته.

وعلم سرى اخيراً، فسرع به الى سادته.

لم يكتف بالطبع عند حدود اخبارهم بانى استلم خطابات لا خطر فيها من زوجتى... ولكنه قال انه في اثر جمعية للجاسوسية والثورة المضادة، فلها فروع بالخارج.. وانه ايضا تصل مبالغ كبيرة جدا من النقود لصالح هذه الجاسوسية داخل المعسكر.

وفوضوه بالطبع كى يراقبنى بدقة.. وكان ذلك هو السبب في عدم طردى من العمل حال بلاغه الاول عنى.. كما يهدون لى كميننا.

اول الامر استدعى ال. ن. ك. ف. د. الالمانية واستمع الى اقوالها ونصحها بان تعترف فوراً.. وبكل شيء.. لانهم يعرفون جوانب الموضوع كلها.. وبعدها استدعوا زوجها الذى كان يعمل في السكة الحديد. اتهموه بالجاسوسية وطلبوه ان يعترف بالامر.

وبحثت عن الالمانية في موقع عملى حتى وجدتني.. اكتب ارقام قطارات السكة الحديد.

- اسمع باسم الالة اكتب لزوجتك لكى لا ترسل رسائل بعنوانى، لان ال. ن. ك. ف. د علم بالامر واختلقت قضية جاسوسية من ذلك.

قلت كلامها بسرعة وانصرفت كما انتت..

حتى اننى فهمت بصعوبة شديدة ما قلت.. وما عنت.

وفي فترة غيابي فتشوا حاجياتي.. اخذوا كل شيء مطبوع او مكتوب.. حتى كتاب حياة جايكوفسكى اخذوه.

ومن المحتمل ان ال. ن. ك. ف. د. تأكد له ان قضية الجاسوسية هذه هي تهمة ملفقة بغيباء شديد فاكثفى بطردى من العمل.

ونحصل مدير المعسكر على اوامر ينقل الى وحدة عملية لا صلة تربطها بالميناء اضافونى للوحدة التى تعمل في نقل التراب.

وبعد أيام نقلونى من القسم الثالث بالمعسكر الى بيريسك.

وبيريسك ليست بعيدة ولكنها في الجوار.

كانت منطقة شديد الحيوية.. تصل اليها دفعات جديدة من السجناء لتحل محل الذين ماتوا في زمن الشتاء.. او الذين عاقتهم الاصابات.

عنابرها مملئة غاصة بالبشر.. الكثيرون ينامون تحت الكنبات..

تجارة الاشياء التى يجلبها القادمون رائجة ومتصلة. بعد كيلوجرامات من الخبز وقليل من الدخان، كان بالامكان شراء بدلة.. بوجبتين قميص حريرى.. وزوج احذية جميل.

المشترون هم المجرمون.. والبايعون من الالمان في الغالب الاعم.. او الروس العائدين من المانيا والنمسا.. والذين اقتادوهم الى المعسكرات دون ان تكتحل اعينهم برؤية بلادهم.

ومن ذلك المكان كانوا يرسلون السجناء الى نورلسك.

وضمن مجموعة منهم نقلونى الى هناك.. مرة اخرى.

مرة اخرى في نورلسك في القسم السادس من المعسكر

عندما وصلت شحنتنا الى نورلسك استلمتنا ادارة السجن.. وضعونا في اقسام مختلفة من المعسكر.

من محطة السكة الحديد الى المدينة سرنا في طابور مكون من خمسة صفوف على طول شارع قورنا - عابرين زافودسكا الى المنطقة الكبيرة التي تسمى بوليشوى - مصنع المعادن (ب، م، اس).

في هذا المكان اذكر اننى عملت في سنوات قديمى الاولى الى نورلسك. عندما كان يعمل بالميناء عشرة الاف من السجناء بآلات بدائية وبجهد عضلى فاق كل تصور. في كسر الارض المتجمدة دأثما وحفرها.. وبعد هذا في مكان صغير لصهر المعادن وطلاء الرقائق المصنوعة منها.

والان، على امتداد البصر، كانت تقف الوحدات الكبيرة.. ذات المداخل الضخمة.. والصالات.. والورش... والمخازن.. وتفرعت خطوط السكة الحديد.. مرت بكل المنطقة وجاست خلالها.

وتصاعد دخان المصانع فملزج سحب البرد الرمادية اللون عبر السماء. وكانت العربات الكبيرة التي تجرها القاطرات مملوءة بالمعادن الملونة السلخنة الثمينة. اما في الامكن التي لم يتم بناؤها بعد، فقد عمل السجناء بنفس الآلات التي عملت بها انا وزملائي من قبل.. حين كانت بداية الاشياء.

نعم لقد تم تشييد الكثير.

ولكن اين الذين بنوا هذا المصنع الكبير..؟

اين اوندراجق.. وكيروش.. وفلدمان..؟

الاف من الرفاق الشيوعيين.. ومن.. الروس - الاوكرانيين.. اوزبكا.. قروزياني.. اين ؟

واين الآخرون الذين شيّدوا كل هذا الشموخ..؟

اين رفاقي..؟

انهم يرقدون في المقابر الجماعية بنورلسك.

وقريبا سيلحق بهم جزء كبير من هؤلاء الذين اراهم الان.. هنا.

في مؤخرة ال (ب، م، اس) يقع القسم السادس من المعسكر.

مكان اقامتي الجديد.. منذ هذه اللحظات.

اول شيء فعلوه.. ان قادوا ملئتین منا للعيادة.

اجرى علينا الكشف الطبي.. وحددوا لكل منا المرتبة التي يعمل فيها.

وعندما كنت انتظر دوري.. ذهبت الى رجل ما، لم اره من قبل..

وكان قد دخل وخرج عدة مرات من حجرة الطبيب.

وكسجين قديم استطعت ان اخمن انه من مجموعة السجناء التابعين للدول الاشتراكية

التي تحيط بالاتحاد السوفيتي..

كان هو مدير القسم الصحي.. وسالته:

- معذرة.. من فضلك هل يمكنني التحدث معك لمدة دقيقتين؟..

- ماذا تريد؟..

- ساكون صريحا معك.. منذ عام ١٩٣٩م وأنا نزيل هذه السجون والمعسكرات.. انا الوحيد القديم بين هؤلاء الذين قدموا من دودنكا. اعلم باننا سنوضع جميعا في مجموعة الاشغال الشاقة. من فضلك اعنى لانقاذ نفسى من ذلك العمل ولو لفترة قصيرة.

- من اى درجة انت؟..

- لم اقابل الطبيب بعد..

- ما اسمك؟..

- قلت له اسمى.. فكتب المعلومات في ورقة وذهب الى حجرة الطبيب.

- واقترب منى بعد عشرين دقائق..

- حصلت على الدرجة الثانية.. فهل انت مسرور بذلك؟..

- لا اعرف كيف اشكر.. ماهى واجبات عملي الجديد؟..

- ستعمل ممرضاً في قسم النكامة.

- وتنفس الصعداء..

مرة اخرى نجحت في انقاذ نفسى من العمل الشاق.. ولو لفترة.

في القسم السادس من المعسكر كان هناك قسم اسمه (طور النقاها) بالطبع هذا بخلاف اقسام المستشفى التي كانت بكل جزء من اجزاء المعسكر هناك وضع بخلاف اقسام المستشفى التي كانت بكل جزء من اجزاء المعسكر هناك وضع الذين لم يكونوا من المرضى الكاملين - ان صح التعبير - من الذين اصابوا بالضعف والارهاق والتعب.. ولا يملكون القدرة على العمل.. وعندما نظرت اليهم اصابني الدوار.. هؤلاء الشباب الذين يبدو كالهيكل العظمي.. ماهو السر في بقائهم واقفين حتى الان على اقدامهم.. وكان يجب ان يكون مصيرهم هو الموت.. تعباً وضعفاً وارهاقاً!!

وتعهدناهم بالرعاية الصحية.. كانوا يحصلون على ثلاث وجبات جيدة في اليوم - الزبد - والخضار - واللحم.. وبعضهم كان يعاني من مرض الاسقربوط كان بعضهم يمكث لمدة ثلاثة اسابيع.

والذين لا تتحسن اوضاعهم الصحية يمتكون لثلاثة اسابيع اخرى.

وكان يتم اغلاقهم من العمل في هذا الوقت بالطبع. والذين يستطيعون التحرك، كانوا يجعلونهم يقومون بنظافة المعسكر لمدة ساعتين في اليوم. وكانوا يتحاليون لبيقوا فترة اطول.. فباعوا الخبز الذي يحصلون عليه، او استبدلوه بالدخان.. لذلك قرر الاطباء الا يوزع الخبز عليهم بكميات كبيرة كدفعات.. بل على المرضى توزيعه قطعاً صغيرة تقدم مع كل وجبة.. او يوضع داخل الشورية.

كان واجبي ان اجعلهم ينظفون العنابر..

وقد كلفني ذلك كثيراً حتى اقاوم رجاءاتهم بان لا اضغط عليهم في العمل وفي بعض الاحيان كنت اغاضى عن ذلك.. وفي النهاية جاعتني المتاعب لان الذين رفضت ان اعطيهم الخبز كاملاً كتعليمات الاطباء، وحتى لا - يبيعونه.. اشكونى للطبيب وشوا بى.

كنا نحن الاربعة الذين نعمل بالتعمير نسكن حجرة واحدة صغيرة بها اربعة اسرة

عسكرية عليها مراتب القش والملاءات واللاغطية.. وقد كنا كذلك نتناول نفس الطعام الذى يخصص للسجناء.. وبعد مضي شهرين فى هذا العمل المريح تحسنت صحتى حسنا ملحوظا.. وحدثنى الطبيب المسئول بانه سيعطى مكانى لشخص آخر اضعف واهزل منى ولم يبق امامى بالطبع سوى ان اشكره على مساعدته القيمة لى وتجاوبه مع رجائى السابق.

نقلت الى الوحدة التى تعمل فى بناء منجم الكوك الجديد.. وهو من الانشاءات التى كانت تتولى القيام بها فى هذه المنطقة مؤسسة متالورق ستروى، التى يديرها المهندس ابستائين.

كنت اعرفه من قبل، فعند حضورى لأول مرة الى نورلوك من جزيرة سولوفكى تعرفت عليه، وكان وقتها سجيناً.. واشترك معنا فى خط سكة حديد دوبنكا - نورلوك. وقد قضى فترة عقوبته البالغة عشر سنوات حكم عليه بها متهماً بالعمل التخريبى.. وعندما بدأت الحرب وكانت الحاجة الماسة قد برزت لبناء ورش مهمة للمصنوعات الحربية، استدعوا ابستائين الذى كان مهندساً للمباني فى وحدتنا.. وتم تعيينه مديراً لاحد الاقسام. وقد عمل ابستائين فى موقعه الجديد عملاً جيداً اتسم بالبذل والعطاء..

وكان ذلك دافعا لهم ليخفصوا مدة سجنه.. وعندما انتهى من اول قسم فى البناء اطلقوا سراحه وعينهوا مديراً لمؤسسة ضخمة.

وقد ابتهجت وانا اشاهد على صدره وسلمين من اوسمة الاتحاد السوفيتى، عندما لقيته هذه المرة.

وفى فترة الراحة عند الظهيرة ذهبت الى مبنى الادارة لكى ارجو ابستائين ان يعطينى عملاً يناسبنى.

لم اكن ادرى كيف ستكون مقابلته لى.. وهل يجوز لمن زينت صدره النياشين ان يتعرف على سجين قديم؟..

دخلت الى حجرة السكرتيرة.. وقد خشيت ان تلقى بى الى الخارج، فقلت لها بخوف ورهبة، اننى اريد محادثة مدير المبنى.. ونظرت الى فلاحظت كيف ان ملابسى متسخة وهيئتى غير محترمة فقلت ببرود..

- المدير مشغول..

وساورتنى رغبة شديدة ان اذكر لها اسمى وارجوها سؤال المدير حتى اتكن من مقابلته.. ولكنى عدلت عن الفكرة واتجهت صوب اليب.. وفجأة جاء من خلفى ابستائين مسرعاً فى طريقه الى حجرة كبير المهندسين وتجاوزنى دون ان يلقي الى بالا.. وسالت نفسى الم يلاحظنى؟.. ام انه اراد الا يتعرف على؟..

وفى الامر وقفت الفكر فى الذى ينبغى على عمله.. ولما هممت بالخروج لاحظت انه كر عائداً.. وفجأة تواجهنا.. وسألنى..

- من اين انت قادم؟..

- كنت ابحث عنك..

- تعال.. تعال..

وتقدمنى فسرت خلفه..

..كيف حالك؟

..كما يكون حال السجين.. وكما ترى.. انظر الى ملابسى..

..اين تعمل؟

..فى الوحدة التى تبني منجم الكوك..

..هل تريد ان تكون رئيسا للعمال؟

..كما تعلم.. انا لا احب ذلك العمل.

..اعلم.. ان ذلك العمل لا يناسب شخصيتك.. رئيس العمال،

يجب ان يشتم ويلعب ويسب.

ثم ايتسم واضاف..

..لعلك تعلمت ذلك؟

..لحسن الحظ.. ليس بعد.

وحدثته عن الاعمال التى قمت بها منذ ان فارقتة آخر مرة. فطلب منى ان اقابل نائبه واذا لم يعطينى عملا مناسباً على ان احضر له مرة اخرى.

واتجهت الى نائب ابستين.. وكان على ان اوضح له من انا.. وماهى عقوبتى.. وكل الاعمال التى قمت بها فى السنوات الاخيرة. وعندما ذكرت له آخر عمل قمت به كرئيس لموظفى السكة الحديد، قال لى ان فى متالورق ستروى مكانا خاليا لمدير قسم الترحيلات.. وسألنى هل اريد هذا العمل؟

وبعد تفكير قصير وافقت.. لانى اعلم انه عمل جيد.

وفى نفس اليوم احضرت خطبا لمدير القسم السادس بالمعسكر، موقعا عليه من ابستين يخبره فيه بالعمل الذى ساقوم به، ويرجو ان يقوم بكل مايلزم ومايعين على اداء العمل.. ومن ذلك بالطبع ترحيل الى عنبر رؤساء الحرس ومديرى الاقسام وقادة الموظفين..

حيث الكنبات ليست عادية، وانما هى فى الاساس مصممة على هيئة ونظام مقاعد عربات السكة الحديد السريعة.

وعلى جوانب العنبر يوجد مكان لاربعة اشخاص بينهم مسافات معقولة... ولكل منهم ملاءة..

وفى منتصف العنبر توجد منضدة كبيرة.. يمكن الجلوس عليها للاكل والكتابة والقراءة. ومن يسكن هنا كان يمكنه الخروج من المعسكر وقت يشاء.. حسب رغبته والطعام ايضا كان مختلفا عن طعام بقية السجناء.

وفى اليوم التالى استلمت عملى كمدير جديد لقسم الترحيلات فى متالورق ستروى.. مائة وخمسون رجلا تم تقسيمهم الى اربع مجموعات.. كان عليهم تفريغ كل الحمولة التى تصل الى متالورق ستروى عن طريق الشاحنات او القطارات.. وورديات العمل مستمرة ليلا ونهارا.. وبالطبع فان اعمال الترحيل تخضع لزمان محدد مبرمج بدقة.. فعبارة القطار التى تحمل عشرين طنا كان يجب تفريغها فى مدة عشرين دقيقة.. والشاحنة ذات حمولة الثلاثة اطنان تفرغ ايضا فى عشرين دقيقة.. والشاحنات الامريكية الكبيرة ماركه (ماك) كان مقررا لها خمسة وعشرون دقيقة.. وهكذا..

من خبرتي السابقة في عمل السكة الحديد كنت اعلم نوع الصعوبات التي ستواجهني.. ومن ذلك ان المعدلات الاحصائية للعمل تتطلب رجالا اقويا اصحاء .. وامثال هؤلاء كانوا قلة في الوحدة العملية.

ولذلك من النادر ان يتم تفريغ العربات في الوقت المحدد لها.. وكنت اعلم انني ولكي انجح هذا العمل، ينبغي ان لا اعتمد على اداء السجناء اطلاقا.. بل يستوجب على البحث عن طريقة اخرى.. وحتى احث السجناء على العمل بمهمة اكثر اخترت طريقة بسيطة ولكنها مدهشة.

قد لا يصدق انسان في هذا العالم، ان ورقة عادية من اوراق الدخان التي تزرع في المزارع، يمكن ان تحول الانسان الى حيوان.. ولكن ال. ن. ك. ف. د كان يعلم بان هذه الورقة ليست خطيرة.. ولكنه يستطيع استخدامها في اغراضه..

ذكرت من ان ترحيلات الحلفاء تحتوي على الاف الاطنان من المواد التموينية المرسلة الى نورلنك، لحفظ الانسان من الموت جوعا.. اما الدخان فكان قليلا جدا.. وفي بعض الاحيان هو نادر ومعدوم.. حتى دخان الماهوركا الروسي كان عزيزا ونادرا ايضا.

ورأى ال. ن. ك. ف. د ان بين يديه سلاحا قويا.. فكان يعطي الماهوركا كجائزة رئيسية لمن يقوم بكمال المعدل الاحصائي للعمل.. والذي كان الوصول اليه شيئا نادرا.

وبهذه الطريقة استطاع ان يحصل على ارقام قياسية في الانتاج.. قبل بداية العمل في مكان البناء يأتي المدير.. ثم توزع الواجبات على الوحدة... وبعدها يعلن المدير في الحال عن عدد غلب الماهوركا التي سيقسمها في المساء على من يصلون الى المعدل المطلوب انتاجه.

ويبدأ الجنون.

ولم يكن من الضروري على الاطلاق ان يطارد رئيسا الحرس والعمال الرجال ليعملوا بجد ونشاط.. بل كانوا هم الذين يطاردون العمل.. ويطاردون بعضهم البعض تنافسا كاد ان يودي بهم ويوردهم موارد التهلكة.. حتى الراحة كانوا يتنازلون عنها بطيب خاطر.. فبمجرد ابتلاعهم لقطعة الخبز يسرعون للعمل مرة اخرى..

اما الذين لا يدخنون فكانوا مضطرين لمجاراة ذلك الايقاع المجنون اللاهث.. الاصدقاء اصبحوا متنافرين من اجل حفنة دخان قليلة.. وعندما ينتهي يوم العمل يحضر رئيس العمال ويراقب الوفاء بالالتزام.. وينتظر الجميع على اعصابهم النتيجة.. واذا كان المعدل الاحصائي للعمل كاملا.. كان رئيس الحراس ينطق الجملة السحرية المنتظرة.. - هذه هي الورقة.. اذهب واحضر الدخان.

وينتظر الرجال وهم متوترون مشدودون عودة رئيس العمال بالدخان.. يحملون باشعال السجارة وارثشاف انفاسها اللذيذة ومراقبة دخانها وهو يتلوى في السماء كالسحب الرمادية.

اما الذين لا يدخنون فكانوا يستبدلون الماهوركا بالخبز.. وكان المدخنون يمرون عليهم ويغرونهم بعروض احسن.. وهكذا.. ولكن الغش كان واردا.. ايضا..

يعد رئيس العمال يغلبة من الماهوركا لكل اثنين.. ثم يعطيها في النهاية الى اربعة.. اما الفرق الباقي فيحتفظ به رؤساء العمال لانفسهم.. وكذلك كانوا يفعلون بالثقاب.. كل واحد يحصل على غلبتين من الثقاب.. وهكذا ينتهي اليوم.

وما ان يهل اليوم التالي، حتى يبدأ اللهاث من جديد، ويهرعون الى العمل وهم يتسابقون.. وطوال الوقت كنت تسمع صياحهم وهم يستحثون بعضهم البعض للاسراع في العمل.. لماذا لا تعمل؟.. انك تعطلنا.. بسببك لن نحصل على دخان. وغالبا ماتحدثت المشاجرات الدامية والمعاركة العنيفة.. كان السجناء يضربون بعضهم البعض بالمجارف والمعاول وبكل مايقع في ايديهم. ولم يكن من النادر حصول عمليات الغش.. فكان الدخان الموعود لا يصل الى ايدي السجناء.. ويتعللون لهم بان المعدل الاحصائي للعمل لم يوف به.. او المخزنجى لم يحضر.. او الماهوركا وزعت على رؤساء العمال.

وفي اليوم الذى لا يكون فيه دخان.. يضطر كل عشرة رجال لتدخين سجارة واحدة.. وعندما استلمت عملي الجديد اعطاني (ليام) في الحال خمسين صندوقا من الماهوركا.. وعندما مديده لي بها قال:

- ارجو ان تحسن استخدامهما جيدا فانها اهم من وجبة الخبز الكبيرة. وقد اردت ان لا استغل هذه الوسيلة.. اردت ان استغل خبرتي في عمل السكة الحديد.. فجاهدت، اولا لتكون في علاقة طيبة مع موظفي السكة الحديد. وقد ساعدني بالطبع موضوع الدخان كثيرا.. ولحسن الحظ فان معاملتي للموظفين وعدم محاسبتي لهم جاء بالنتيجة المرجوة. وكانت العربات تفرغ في الزمن المحدد لها تماما.. واعطيتهم عدة صناديق من الماهوركا مكافاة لهم.

وفي نهاية الشهر راجعت حصاد عملي.

فوجدت انه وبعد زمن طويل لا تدفع متالورق ستروى غرامة او ارضية لادارة السكة الحديد.

وارتفعت ارضة سمعتي فجأة.. وعلا نجم سعدى.

وكان مدير متالورق ستروى سعيدا وفخورا لانه احسن الاختيار عندما عينني في هذا المنصب.

وكنت مسرورا بنجاحي.. اما في الجانب المقابل فقد كان هناك من ساءهم كثيرا هذا النجاح.. وكان على راس هؤلاء عمل التحويل بالسكة الحديد في متالورق ستروى.

وفي اول الامر اعياني ان افهم سبب عدم الرضا ذلك. ولكن بعدها علمت.. ورايت كيف يضعون العقبات في طريقي.

كان المدير السابق لقسم الترحيلات ومعه عامل التحويل وبعض الاخرين يقومون باعمال صغيرة غير قانونية.. كانوا يستغلون الشاحنات في الاعمال الخاصة، فعملوا ذلك بالليل والنهار.

كانت هناك تلال من الفحم على طول امتداد مواقع متالورق ستروى.. لم تكن حراسة احد.. فشحنوها على الشاحنات وافرغوها في منازل الطلقاء.. وحصلوا من جراء ذلك على مال اقتسموه مع الحرس.

وطبعا رفضت ان امارس مثل هذه السرقات..

فبدأت الحربي ضدى.

كانوا يترصدون الإخطاء الصغيرة جدا والتي لايد منها في كل عمل وينقلونها للمدير العام بتوسع كبير.. ولكن ابستائين كان اكبر من الاصغاء للوشايات طالما لايدفع غرامات لادارة السكة الحديد.

وبعد مضي شهرين تيقنت اني قد اخطأت اذ قبلت هذا العمل... كانت هناك عدة عوامل استطاعت ان ترسخ هذا اليقين في نفسي... فقد تضافرت مؤامرات عامل التحويل في خطوط السكة الحديد، مع عدم كفاءة رؤساء العمال، الى الذين كان مهمهم الاول هو ان يسرقوا، تضافرت هذه العوامل لتقلب حياتي الى جحيم لا يطاق.

وسرعان ما ادركت انه يستحيل على الصمود.. فذهبت الى ابستايين ورجوته ان يعينني من هذه الوظيفة.. غير انه لم يرد سماع ذلك او مجرد الاشارة اليه.

وكان المهندس ستروكونوف صديقا لي وهو المهندس الرئيسي في قسم (ب. ا. ن) بولشوى للاكترونيات.. صادفته في زمن الحرب.. وكان تحت التحقيق ايضا بتهمة الانضمام الى طائفة دينية. وجوكم بعشر سنوات سجنا في المعسكر.. وعاد الى عمله في ذات المنصب حيث انه كان مقدرا جدا كخبير ممتاز.

اما مدير ال (ب. ا. ن) فكان من الطلقاء.. ولكن الكل يعلمون بان الرئيس الحقيقي هو ستروكونوف.. والطلاق كما يقولون كان (عين الحزب) ولذلك فهو يحصل على راتب ضخم بينما يعمل ستروكونوف من اجل طبق حساء وقطعة عصيدة مهما كانت فهي لاتسمن ولا تغنى من الجوع.

وكان الطلاق يستمع بالطبع الى جميع آراء ستروكونوف فهو يعلم جيدا انه لايسوى شيئا بدونهم... وان يصل الى شيء بغير مشورته ورايه.

ورجوت ستروكونوف ليسعى في مساعدي، وكان مستعدا ليعينني مراقبا في (ب. ا. ن) فورا.. وهي وظيفة لاتتطلب كفاءة معينة.. وسعدت لانني سأتحرر من عمل الحال المتعب. ولكن هل يتحقق ذلك؟.. لقد تحدثت ستروكونوف مع ابستايين الذي يتوقف الامر على موافقته.. ولكنه لم يقبل الرجاء.. وحجته في ذلك انه لايجد بديلا مناسبيا يحل مكانى.

وخدمتني الظروف حتى ذلك الوقت.. ثم حدث ما لم يكن في الحسبان كانت مؤسسة متالورق ستروى في حوجة الى قماش الخيام لتصنع منه معاطف المطر للموظفين.. وفي ذلك الوقت كان القماش بحوزة ال (ب. ا. ن) فقط.. وتقدم ابستايين برجاء خاص لستروكونوف ليرسل له المواد اللازمة. واستغل ستروكونوف هذه الفرصة ونجح في نقل.

وعندما عاد ابستايين لمكتبه قال مخاطبا ليلى...

بعث شتاينر باثني عشر معطفا للمطر.

وكان على ان احضر لمقر عمل الجديد في يوم الاثنين.. وقبلها ذهبت للافطار.. وعندما عدت من المطبخ للعنبر علمت من النوبتجي ان رئيس الحرس كان يبحث عني.. واندشت.. ماذا يريدون مني؟

فكرت في الامر وكلى قلق وخوف، ولم استطع ان اجد الجواب الحقيقي كان متفقا عليه ان تكون راحتى هي يوم الاحد، وفي يوم الاثنين استلم عمل المراقبة في (ب. ا. ن).

وذهبت الى العنبر الذى يقيم فيه ستروكونوف.. فلم اجد.. ولم يكن امامى خيار آخر غير الذهاب الى رئيس الحرس.. وسالته..

- انت بحثت عني؟..

- نعم لن تذهب الى (ب. ا. ن) .. ولكن ستذهب للمصنع رقم خمسة وعشرون قالها وادار ظهره لي..

كنت اعلم اننى لا استطيع تغيير شيء..

فانضمت الى الوحدة التي تعمل في المصنع رقم خمسة وعشرون.
كان المصنع يقع ناحية الشمال.
هناك في البعيد.. ابعاد النقاط التي تتفرع منها المنطقة الكبيرة.
البناء العام كان مشددا من الطوب الاحمر.. وكان متكنا على انحدار المرتفع..
كان يرى من البعيد.. ولكن القلة القليلة هي التي كانت تعلم ماذا يدور بين اروقة ذلك المصنع.
الذين عملوا هناك لم يتكلموا ابدا عن ذلك.
وعندما ظهرت في المصنع، اعطوني مجموعة من السجناء كانت تخرج من عربات السكة الحديد مادة طينية حمراء، على شكل كتل مختلفة الاحجام.
ثم توضع تلك الكتل على اوانى كبيرة وتستقر بعد ذلك في المعمل الاعلى. علمت في ذلك المصنع لاسباع عديدة..
ولم ادر ماذا ينتج.. كل شيء كان سرىا..
معظم الذين يعملون هنا من المجرمين.. لذلك كان بإمكان ال. ن. ك. أن يحتفظ بسر ذلك المصنع.. على الرغم من أن الاشياء لا تظل سرا الى الابد.
العمل الذى كنت اقوم به لم يكن سهلا على الاطلاق.
ثلاثة رجال فقط، كان عليهم في ظرف احدى عشر ساعة ان يدفعوا اربعين عربة من عربات السكة الحديد ويقلبوا محتوياتها من الجرف.
المعدل الاحصائى كان يمكن الوفاء به لو سار كل شيء على مايرام ولكن رياح نوفمبر الشتوية التي هبت بكل عنفها وجبروتها تسببت في احداث ظاهرة غريبة ومحيرة..
قضبان السكة الحديد اصبحت واسعة في بعض الاماكن.. وضيقة في اماكن اخرى.. لذلك كانت العربات احيانا تقفز من على القضيب.
وتعينا في رفع العربات واعادتها لوضعها الامثل.
استعنا بالاخشاب الكبيرة والسيخ والحديد.. وتعينا للغاية في رفع العربات التي كانت محملة الى نصفها..
في الغالب كنا نحتاج لاكثر من ثلاثين دقيقة.
وعند التفريغ كنا ندوس على تلك المادة الطينية.. ولم نستطع ابدا ارتداء احذية الجليد.. وفي درجة الحرارة التي كانت تصل الى خمس واربعين درجة تحت الصفر.. كان يحدث ان تتجمد ارجلنا داخل الاحذية.. لذلك كنا كل ساعة نذهب الى القاعة الدافئة كي نستدفئ قليلا.
- في عام ١٩٤٧م وعندما لم تصل الى نورلنك اية مواد تموينية من امريكا، انقضت كميات الخبز والطعام..
فبدأت من جديد فترة الجوع..
من داخل روسيا وصلت مواد تموينية قليلة..
القرويون الذين كانوا بانتظار الكولخوز بعد الحرب وجدوا انهم كانوا مخدوعين.
في ايام الحرب نشطت الدعاية الستالينية.. وانتشرت اخبار مفادها انه وبعد الحرب سيحل الكولخوز ويعم.. كانت هذه خدعة كبيرة. لم تكن بالطبع هي المرة الاولى.
وقبل القرويون نفس الشيء الذى فعلوه عام ١٩٣٣ - ١٩٣٤م لم يبذروا من البذور ما

امروا به.

الجهاز الذى كان يرغمهم على العمل فى الكولخوز انكسر فى زمن الحرب وفى زمن الاحتلال تماما..

وكان حصاد عام ١٩٤٦م - ١٩٤٧م ضعيفا وفقيرا للغاية..

مولوتوف فى احدى خطبه قال ان الخطا يقع على الجفاف.. ولكنها لم تكن الاكذوبة الاولى التى نطقها القرب معاوئى ستالين، وزميل زينترويوف عند توقيع الحلف بين الاتحاد السوفيتى والمانيا الهتلرية.

وفى نفس السلبية انتهجها العمال.

فى عام ١٩٤٦ - ١٩٤٧م تدنى الانتاج حتى وصل الى اقل من معدل ايام الحرب.. وتلك كانت هى الحقيقة الواضحة رغم الاحصاء الكاذب لمكتب الاحصاء الرئيسى. والسبب كان ايضا قريبا من ذلك السبب الذى حدا بالفلاحين ان لايبذروا.

كان العمال ياملون ان يتالوا حريات اخرى بعد الحرب.. وعلى اجور اكبر. وبدلا عن ذلك كانت الوعود المبطولة الوفاء. وهؤلاء العمال العائدون من الحرب لم يكونوا خائفين.. كما كانوا فى السابق... لم يكن تحديهم سافرا للسلطة ولكنهم مارسوا المقاومة السلبية.. لم يحضروا للعمل عدة ايام..

وكان ذلك هو الحال فى القرى.

الارهاب والتسلط جمعا بالسلطة الى آفاق اخرى من الترصد والتنكيل.. فقبضوا على الذين غابوا عن العمل فى مدة الثلاثة ايام والبقوا عليهم القبض وحاكموهم بتهمة التخريب وارسلوهم للمعسكرات.

وجاء للمدن الصناعية سجناء جدد يعملون فى السخرة.

القرويون العاملون فى الكولخوز ولم يصلوا الى معدلات الانتاج المطلوبة ارسلوهم ايضا الى المعسكرات واسكنوهم فى اقصى الشمال.

ولكن ذلك لم يكن مجديا على الاطلاق.

وقرر ستالين ان يخطو خطوة جديدة..

استبدل العملة السائرة بغيرها..

لم يكن فى روسيا - ومنذ وقت طويل - اغنياء يمسههم تغيير العملة باى سوء.. او خسارة. بل كان هناك الموظفون.. القرويون.. المثقفون.. واذا كان مثل هذا القول يرن شاذا وقيحا فى الاذان.. فان اكثر الناس تعاسة وتأثرا بين التعاسة والمتأثرين، هم السجناء.. بناء على الامر الصادر. كل من كان يملك نقودا فى مكتب التوفير، استبدلها على النحو التالى:

- مبلغ ثلاثة الف روبل.. الاستبدال ١ - ١

- مبلغ عشرة الف روبل.. الاستبدال ١ - ٣

- اكثر من عشرة الف روبل.. الاستبدال ١ - ١٠

الوحيدون التعساء هم السجناء...

من كان له حساب او جزء من مال، أرسله اقاربه وذووه.. كان عليهم ان يستبدلوا دون الناس جميعا بنسبة ١ - ١٠

ايام الحرب كانوا يعدون السجناء بالعفو عنهم بعد الانتصار... لاسيما فى السنوات الاخيرة.

في الاجتماعات التي دعى اليها السجناء على وجه الخصوص تحدث ممثلو الادارة في ال ن ك. ثم د طالبين من السجناء المزيد من الاحتمال - العمل - الجوع - الصبر.. لان الانتصار على هتلر معناه الحرية لهم.
مرة كنت احضر احد تلك الاجتماعات التي تحدث فيها مدير معسكر نورلسك.. العقيد فورونوف.

وقد بدأ العقيد حيثه بهذه الكلمات..

- يا زملاء.. نعم.. نعم.. يا زملاء.. لم يختلط على الامر..

كلكم انتم زملائنا.. فقط انتم معزولون مؤقتا.. وبعد الحرب ستكونون جميعا طلقاء.. ولكن الوعد بالعفو كان من نصيب المجرمين فقط الذين عملوا اقل.. اما السجناء السياسيون الذين كانوا اكثر انتاجا في زمن الحرب... وصبروا وصابروا وثابروا على الجوع.. فلن العفو اخطاهم.

عندما كنت طريح الفراش بالمستشفى في زمن الحرب قابلت احد معارفى القدامى ديفد افانوفج كياساشفيليا العضو السابق لحزب المنشفيك في اللجنة المركزية في قروزيا.. وتحدثنا عن المستقبل.

وتحدثنا ايضا عن الانتصار على هتلر..

كان ديفيد يعتقد بان الاوضاع في روسيا ستتغير بعد الحرب.. ولم اقبل تفأؤله.. قلت له.. - ان المنشفيك كثيرا ماخدعوا.. واخاف ان يخدعوا هذه المرة ايضا..

- للاسف - انت على حق.

قالها بمرارة واقتناع.

ساد المعسكر - كما ذكرت - الجوع.. نفس الحال التي كانت سائدة في بداية الحرب.. ومنذ الخامسة صباحا.. كانت الصفوف تنتظم امام المطعم.. وعندما يفتح باب في السادسة يستلم السجناء كميات بسيطة من الطعام.. وما ان يبدؤون باكلها في لحظات حتى تنتهي.. لم يحتلموا من جوعهم التحرك بها نحو العنابر.

اذكر ان نقاشا دار في الامم المتحدة عن اوضاع السجناء في الاتحاد السوفيتي.

كان الحديث الذي قاله نائب وزير الدولة مكويان والذي اصر فيه بان ارض الاتحاد السوفيتي خالية تماما من معسكرات العمل الاجبارية.. وان السجناء يعيشون عيشة يحسداهم عليها العمال في انجلترا وامريكا.. كان ذلك الحديث اكذوبة بالطبع.. ومع ذلك فقد اصاب يقول.. ومن يدعى عكس ذلك يكون كلامه اساءة في حقنا وقذفا ندينه بشدة.

وبمضي الوقت تعرفت على كل اقسام المصنع الخامس والعشرين.

الانتاج الرئيسي لهذا المصنع كان هو الكوبالت.

كانوا ينقلونه على صناديق صغيرة الى المطار.

حاولت بشتى الطرق ان اجد عملا سهلا.. ولكن الكلمة العليا هنا كانت للمجرمين فباعت كل محاولاتى بالفشل.

لذلك قررت ان احاول مرة اخرى في مجال السكة الحديد.

كتبت طلبا لادارة السكة الحديد وذكرت باننى عملت وقتا طويلا كرئيس للموظفين في دودنكا.

وكتبت اعرف رئيس قسم السكة الحديد بنورلسك واسمه جيليس، منذ ان - عملت في

دودنكا.. لذلك فقد كتبت الطلب باسمه.. ووعدني بالاستجابة الى طلبي.. ومرت عدة اسابيع ولم احظ بما يشفى غليلي.. لايد ان شيئا ما وقف في طريق التحاقى بالسكة الحديد. ولجات الى صديقي فاسيليا جورياكوف والذي انتقضت مدة عقوبته.. واصبح الان طليقا ويعمل كرئيس للمهندسين في قسم المجرى بنورلسك.

وسعى فاسيليا لمساعدتي.. وكان سعيه حقيقيا وجدا..

وفي ربيع عام ١٩٤٨م تم تعييني في وظيفة اخصائي المجرى في احد الاقسام التي كانت تابعة لرؤاسته.. وكان على ان ارحل الى القسم الثاني في المعسكر تبعا للوظيفة الجديدة.

وجاء يوم ذهابي الى مقرى الجديد بالقسم الثاني.

وحضر فجاة وقبل ان يتم ذلك، رئيس الحرس وقادنى من المعمل الى المعسكر.. حيث استلموا منى كل الاشياء التي حصلت عليها في القسم السادس.

بمجرد ان يحصل السجنين على ملابس جديدة.. بنطال.. معطف.. قميص.. الخ. يسارع ببيعه في الحال. الشيء الذى جعل ادارة - المعسكر تكثف المراقبة. فاصبحت عملية البيع والشراء صعبة ولكنها بالطبع لم تتوقف.

عندما مررنا في طريقنا الى القسم الثاني بالمعسكر تصادف ان راينا احد عمال التفريغ في منطقة (بى. اى. زاد) يقع من السقالة وتتحطم سقاؤه... كانت دماؤه الحمراء تغمر السقالة.. وكنت سعيدا لانى لم اكن مديرا لقسم الشحن والتفريغ.. فقد درجت ادارة المعسكر على تحميل مدير القسم مسئولية مثل ذلك الحادث.. متناسية بالطبع ان المعدل الاحصائي الكبير للعمل هو السبب.

وبعد ان مررنا اغلقت الابواب الحديدية خلفنا.. وكان يتبعنى الجنود.. ومررنا خلال نورلسك ايضا كان الوقت متأخرا وانتهى اليوم العمل.. ومن كل الجهات كانت قوافل السجناء تتقاطر نحو ساحة المعسكر تحت الحراسة المشددة.. ورايت الكثيرين من الذين اعرفهم.. وكانوا يلوحون لى بأيديهم.

وبعد انتظار قصير امام باب القسم الثاني من المعسكر، سألنى رئيس القسم..

- هل بك قمل..؟

- كلا ليس بى قمل..

وكانت تلك هي الحقيقة لحسن الحظ. فاعطانى وريقة للعنبر الذى تقبم به الوحدة التى تعمل في الورشة الميكانيكية لادارة المجرى.

وعلم رئيس العمال اننى قد اضفت الى وحدته، فافسح لى مكانا في الكنية المزدحمة. ورددت على بعد امتار منه.. وكان ذلك يعد شرفا عظيما.. وعملت في الورشة الميكانيكية مع صانعى الاقفال اعمالا مختلفة.. كنت اجلب السيخ من الساحة وكذلك الاسلاك الخليطة.. وكان من واجباتى العملية ان اقوم بقطعها الى اطوال مختلفة.

ومثل هذا العمل في العادة يؤديه اثنان.. على المطرقة والسندان.. احدهما يمسك بالحديد المراد طرقه او قطعه والاخر يضرب بالمطرقة، بعد ان يوضع بالطبع على السندان.

وكنا نتبادل المواقع من وقت لآخر.. يمسك هو واطرق انا، ثم امسك انا ويطرق هو..

زميلى في العمل كان من قدامى صانعى الاقفال، وكنت مساعد له... وعندما يخطئ يلقى على بتبعة خطاه ذاك.. ويوما قلت له محتجا..

- انت صاحب خبرة ومسئول عن العمل فكيف تحملنى اخطاءك؟

- انت يحميك صديقك .. وانا سيقون بى فى اعمال اصعب .
وبعد مرور عدة اسابيع تمت ترقية تى واصبحت كاتبا فى جراج ادارة المجارى .
وكننت فى هذا العمل اصطدم كثيرا بالرؤساء .. وقد حاولت ان اجد عملا جديدا .
وكان عملى فى السكة الحديد من الذكريات الطيبة بالنسبة لى : ولذلك فقد كنت اسعى وراءه
دائما . وساعدتني الظروف .
تم ترحيل عمال قسم المجارى للقسم الثالث من المعسكر .. وكان ذلك بالطبع هو قسم السكة
الحديد .
وبعد ذلك قادونى لوحدة السكة الحديد التى كانت فى العنابر على الجهة المقابلة .
ورحب بى الرجال كثيرا هناك .. لان رئيس قسم الشحن والتفريغ اعلن بانه سيقوى تيم
موظفى السكة الحديد بموظفين ذوى كفاءة .. وبالطبع كان يفكر بى .

قبيلة سامويد المضيافة

عينت في محطة سكة حديد نورلنك رقم ٢ .. كانت هذه المحطة تقع في منتصف البلدة .. وهى اهم المحطات الحديدية في نورلنك .. وكانت بها مخازن الادوات الفنية .. وهناك ايضا .. منشل كبير للاخشاب .. جراجات .. وورش كثيرة ..

وعدد السجناء الذين يعملون بها حوالى الستين سجيناً .. يعملون صباحا ومساء .. كل الاعمال كان يقوم بها السجناء ماعدا وظيفة رئيس محطة السكة الحديد .. حتى المحولية وباقي الموظفين كانوا ايضا من السجناء .. كان الحرس طوال اليوم يراقبون المواقع التى نعمل فيها .. غير انه وفى كثير من الاوقات كانت رقابتهم لاتزيد عن مرة واحدة فى اليوم .. هنا كانت لدينا حريات اكبر من تلك التى كانت لنا فى ميناء دويتكا .. هناك كنا نتحرك بحرية داخل الميناء ..

اما هنا فاننا نستطيع ان نتجول فى المدينة ذاتها .. ومن واجبات الموظفين الطواف الرسمى على المواقع المختلفة .. ومتابعة عمليات الشحن والتفريغ .. لذلك لم يستطع الحراس ان يتابعوا كل خطواتهم وكان من السهل على الحراس مراقبة السجناء فى مكان محصور .. ولكن اثناء الطواف على المدينة كان ذلك صعبا .. ولو انه ليس مستحيلا بالطبع ... وكان من النادر ان يستغل احد هذه الحرية استغلالا سيئا .. ولكن المجرمين سرقوا .. ونهبوا .. بل وقتلوا ايضا بقصد السرقة .. وقد حدث فى نهاية عام ١٩٤٧م فى نورلنك ان احد المجرمين قتل كل افراد احدى الاسر .. تسلل الى المنزل الذى كان يقع بالقرب من المحطة .. ووجد اربعة من الاطفال الصغار .. تتراوح اعمارهم بين الخامسة والسادسة عشر ومعهم جدتهم العجوز التى كانت ترعاهم .. وعندما دخل القاتل وجدها فى المطبخ فقتلها بالساطور .. وقبل ان يجهز عليها وجدت الفرصة لتصبح ، فهرعت نحوها البنت الكبرى ، حيث واجهت نفس المصير .. وبعد ذلك اقتحم القاتل مكان الاطفال واجهز عليهم جميعا .. وجمع ممتلكاتهم القليلة القيمة .. الفقيرة .. وفى اللحظة التى هم فيها بمغادرة المنزل دخلت الام .. فخنقها بيديه حتى الموت .. وتسلل هاربا ..

وبعد ايام تحدث بفعلته متفاخرا وكان ثملا .. فحُكم بالاعدام رميا بالرصاص .. حرينى غير العادية جعلتنى ازور بعض اصدقائى السجناء .. وكان معظمهم قد قضى فترة العقوبة هنا .. وهم يعيشون فى نورلنك منفين بعد انتهاء عقوبة السجن .. عمل الكثيرون منهم فى المحطة .. وبعضهم كان يعمل فى نفس القسم الذى اعمل به .. جاءوا لرؤيتى .. لم ياتوا جميعهم .. بعضهم تهرب من لقائى .. وكانت فرصة لاختر بقاء هؤلاء الزملاء .. واغرب شىء ان الذين كنت لا اعتقد بصداقتهم ثبتوا للتجربة ولقونى بالترحاب .. اما بعض الاعزاء فقد تهربوا ..

كان هناك والتر سورجى عامل من برلين اصبح طليقا وعمل كصانع للاقفال .. فى كل مرة كان

يستلم راتبه يمر بالقرب من السكة الحديد.. وعندما يتأكد ان احدا لا يراقبه يسارع فيدس في يدى ورقة من فئة الخمسة والعشرين روبلا.

والتر ميلر من برلين ايضا كان يمر في كل شكل نصف دائرى كبير من محطة السكة الحديد. وفي ذلك الوقت تهيأ لى ان ازور بعض الاصدقاء في منازلهم. وكانت تلك فرصة طيبة لارى كيف يمارس الناس حرياتهم ويعيشونها. بعضهم استطاعت زوجته واطفاله الحضور اليه.. وكانت الزوجات يحملن لاصدقاء ازواجهن الكثير من مشاعر الود والاحترام.

وقد ترددت كثيرا على صديقي فاسيليا واسرته، فكنت زوجته تهش في وجهى عندما قرانى وتستقبلنى بلطف وحيوية. وعندما اغادرهم كانت تملا جيوبى بالاكل.

ورغما عن ذلك فانى كنت اتردد كثيرا في اداء مثل هذه الزيارات ولولا انهم يلحون على ويلحون، لما قمت بها.. فلما اعلم اننى ربما سببت لهم المضايقات من ال.ن.ك.ف.د حين يرصدون تلك الزيارات.

وكانت تلك الفترة بالنسبة لى هى فترة الترف والرفاهية.. لم تكن المساعدات التى تاتينى وقفا على الاصدقاء فقط.. بل كان الطلقاء ايضا يشاركون فيها.. وكانوا يحضرون الى الطعام في المحطة.

وفي تلك الفترة كانت مجموعة من النساء قوامهن اربعون امرأة، تعمل في تصليح قضبان السكة الحديد.. وكان يقوم بحراسة هذه الوحدة النسائية ثلاثة من الجنود.. وبحكم الطبيعة البشرية نشأت علاقات خاصة بين نساء هذه المجموعة وبين بعض الرجال العاملين في المحطة.. وكانت تلك العلاقات تجد مباركة الجنود وموافقتهم.. اذ كن عندما يذهبن مع الرجال الى المنازل الصغيرة المجاورة، يعدن للجنود وهن محملات بالفودكا والطعام.. ومنهن من كانت على علاقة ثابتة ببعض الرجال.. ومنهن من كانت لاتؤدى اى عمل في المحطة عندما تكون خالية من (الزيائن) والوضع لم يكن غريبا عن الفهم بالطبع.. فبعد الحرب عاد جنود كثيرون - وشغلوا وظائف الحرس في نورسك.. واولئك العائدون من الجبهة كانت اوضاعهم وامورهم احسن كثيرا من غيرهم.. ولم تكن درجة اخلاقهم عالية من حيث الحفاظ على القيم والاعراف.. كانوا يقسمون النساء مايحصلن عليه.. ويفعلون اشياء كثيرة لايجرؤ غيرهم على فعلها.. لاتخيفهم العقوبات الصارمة او غيرها.. وغالبا ماكنوا يطلقون سراح المجرمين الذين كلفوا بحراستهم ليتسللوا من الوحدة.. ويقومون بسرقة ونهب منازل الناس.

ثم بعد ذلك يعودون ليقامسوا حراسهم الغنائم.

واحسن السجناء السياسيون بالتعبير..

لم يكن الحرس يسبونهم كثيرا.. وقبل ذلك كلنوا يضربون ويقتلون... واختفت تماما او كادت ظاهرة الاعتداء بالضرب على السجناء.. وقد كثرت محاولات الهرب في الاونة الاخيرة من مختلف اجزاء المعسكر..

هربت مجموعات كبيرة من السجناء.. اغلبهم من السياسيين. وذلك بالطبع بعد ان تبخر املمهم في العفو العام وخلب وتبخز.. وكان من المعروف - كذلك ان جزءا كبيرا من ارشيف ال.ن.ك.ف.د قد دمر.. واصبح من المحتمل ان يعيش اولئك الهاربون مختفين في مكان ما.. وساعدت عودة الجنود المقاتلين، والاسرى، وحسنت الفرصة كذلك املمهم الى الاختفاء وسط المجموعة وانتحال اسماء اخرى.

كانت تلك هي هواجس السجناء الذين لم يفكروا قبلها في الهروب.. وبالطبع وفي مثل هذه الظروف الجديدة نجحت بعض محاولات الهرب. وقد وصلت بالفعل رسائل منهم تفيد بانهم استطاعوا اختراق الحواجز.. ولا أحد يدري كم من الزمن ظلوا يتمتعون بهذه الحرية الغالية... ومن الهاربين من تجمد بردا في تلك الصحراء الجليدية.. والغابات المضلة المهلكة.. ومنهم من قبض عليه ال. ن. ك. في د. بمعلونة الرعاة الذين يعيشون في ذلك الغيب الصحراوي العجيب.. وأولئك المنكوبون واجهوا مصيرين أحلاهما مر.. الموت قتلا في نفس المكان، أو العودة بهم مرة أخرى للمعسكر.

ومنطقة نوراسك حتى كسنوبارسك منطقة غير مأهولة بالسكان وخالية تقريبا.. وتبدأ الامكن السكنية أول ماتبدأ على بعد اربعمئة كيلو متر من نهر ال ينسى.. وتلك منطقة تبدو اكبر من مساحة فرنسا والمانيا معا.. وتقع فيها دائرة سكنية واحدة.. هي اغاركة على الضفة الشمالية لنهر ال ينسى.. اما على الضفة اليمنى فلا يوجد الا الفراغ واللاشيء.

السهل الاجرد في اغلب الاحيان هو منطقة مستنقعات.. ويمكن عبوره فقط في فصل الشتاء..

وكان ذلك هو الفصل المفضل للسجناء الهاربين.. لعله كان يخيل اليهم انه من السهل التغلب على الرياح الباردة والجليد العميق عن المستنقعات والذباب الذي لا يستطيع الانسان ان يحمي نفسه منه.

في فصل الصيف تتحول الانهار التي تجرى في السهول الى بحيرات هائلة لا يمكن عبورها قط.

وكان خطر الناس قليلا اذ لايجرؤ احد على ارتياد تلك الاصقاع حتى الصيادون كانوا يترددون عندها ولايقدمون على اقتحامها. الخوف الوحيد كان هو الرعاة والمطاردة المستمرة من ال. ن. ك. ف. د. في شبة جزيرة تايمر كانت تعيش قبيلة سامويد الرعوية.. التي كان افرادها يمتنون تربية حيوان الرنة، واصطياد الثعالب. وكانوا دائما ينصبون الخيام المصنوعة من جلد حيوان الرنة حول البحيرات وبالقرب من الانهار.. ولهم كلاب تشبه الثعالب.. تشم انوفها رائحة الاغراب من مسافات بعيدة.. وعندها تعوى بعنف فيخرج الرعاة من خيامهم لتبدأ المطاردات المحمومة.. على عكس ما كان يجري ذات يوم بعيد.. اذ كان الغريب يعتبر ضيفا يقدم له الزاد والقرى.. ويكرمونه في الليل بالنوم في احضان الزوجات والبنات.. وكانوا لايسألون الغريب من هو.. وانما يقدمون له اول شيء الشاي الاخضر المخلوط بالملح ودهن حيوان الرنة.

ولكنهم بدأوا الان يهتمون.. ويريدون ان يعرفوا هل للغريب وثائق ثبوتية.. واذا كان لايملك منها شيئا القوه تحت رقابتهم الصارمة وكرمهم المبالغ فيه.. المريب.. وسارع بعضهم الى محطات ال. ن. ك. ف. د. المتواجدة من مسافات معينة.. (كل ثلاثمائة كيلومتر).. وفورا يجيء ال. ن. ك. ف. د.

على العربات والزحافات التي تجرها حيوانات الرنة.. والكلاب.. يسرعون ليقبضوا على الهارب.. ومقابل كل هارب يقبض عليه تدفع جائزة بقيمة فراء ثعلب.. ولم يكن طريق الحرية موصولا بخطه الهرب فقط.. بل كان السجناء يكتبون للوزارات السوفيتية المختصة رسائل عديدة يطلعونها فيها على اكتشافاتهم القيمة، في الذهب والمعادن الاخرى.. ورغم ان اغلبية تلك الرسائل كانت من صنع الخيال الا ان بعضها كان صادقا.

فالعالم المعروف فلاذائف اكتشف في نورلوك قشرة اليورانيوم.. وسجين آخر اعلن بانه وجد قريبا من نورلوك حقلا للزيت.

وثالث عشر على اكبر منجم للفحم في العالم بالقرب من نهر تونقوسكا ومن الاختراعات الخيالية الغير جادة اختراع قلوشفكوف الذى استطاع ايهام ال. ن. ك. ف. د عن طريق رسائله العديدة، انه اخترع (البسكليت الطائر).

وحاول ايضا سجين آخر يدعى قورسكى ان يثبت امكانية زراعة اشياء كثيرة في نورلوك.. مثل الخضروات والقمح.

وغالبا مايفشل اولئك الغير في الوصول الى اهدافهم وغاياتهم. اذكر اننى عندما كنت اعمل في دودنكا بالميناء - وحتى الان في السكة الحديد هنا في نورلوك - اذكر ان اناسا كثيرين نطقوا امامى باسماء سجناء وسالونى ان كنت اعرفهم او اعرف شيئا عنهم.

كان معظم اولئك السائلين، نساء يبحثن عن ازواجهن او اولادهن. وكان ال. ن. ك. ف. د يحرم تحريما قاطعا اى زيارات يقوم بها الناس الى ذويهم من السجناء السياسيين. ومن النادر جدا ان يحصل الاقرباء على تصاريح او اذونات بزيارات خاطفة للسجناء..

مثل تلك التصاريح كان من الممكن الحصول عليها في موسكو من ال. ن. ك. ف. د بطرق ووسائل ملتوية كثيرة..

وبعض الناس يظنون في سعى دؤوب وراء الحصول على معلومات عن كيف يعيش السجناء السياسيين.. ومنهم من ركب الصعب وسافر هنا وهناك على امل ان يجد ضالته. لم يكن احد يعلم في اى سجن يوجد قريبه الذى يبحث عنه.. حتى صناديق البريد واختام الرسائل التي على الغلاف لاثبتت شيئا محدد.

على ان بعض المحظوظين عثروا على ذويهم بعد شهور وشهور مضنية من البحث الدقيق. وكانت الصعوبات تبدأ في دودنكا. فالدخول الى نورلوك لا يتم الا بابرار الاذن الخاص بذلك.. ومن لا يحمل اذنا يبقى في السفينة.. واذا نجح احد في المرور دون ان تلحظه الرقابة انتظرتة صعوبات جديدة.. ففي نورلوك لا يستطيع اى غريب ان يبيت في الحانات بدون تصريح من ال. ن. ك. ف. د ولكنه اذا دفع مبلغا كبيرا من المال استطاعوا ان يدبروا له مكانا للنوم.

ثم يبدأ البحث بعد ذلك.

وهؤلاء الباحثون التعمساء كانوا دائما يجلبون معهم صررا ولقافات بها طعام للسجناء. ويصبح بعضهم للوحدات التي تكون في طريقها للعمل..

- يا اخوه هل تعرفون بتروف؟..

وقبل ان يرد احد يهدد الجندى الحارس ببندقيته فيسيطر الصمت. ايام وايام.. تظل فيها النساء دائرات حول الامكن التي يؤمها السجناء ولا يجدن خبرا عن يبحث. ويحدث بالطبع ان يعرف السجناء السجناء المبحوث عنه.. ولكنهم لايعلمون في اى وحدة او قسم هو... حدث ذات مرة وانا في طريقى للمعسكر ان اقترب منى شيخ عجوز وصاح باسم السجن الذى يبحث عنه.. وكان موجودا في معسكرنا.. وبالصدفه المحضة كان الجندى الحارس رجلا طيبا، وسمح لنا ان نأخذ الطرد الذى احضره الرجل العجوز.. واوصلناه بسلام للزميل السجناء مع تحيات والده.. ولكن هذه الواقعة كانت نادرة جدا. وكان على

الذين قطعوا الاف الكيلومترات ان يعودوها مرة اخرى، وبلا شيء.
تسربت اخبار مذهلة مفادها ان ال (بى. او. اف) فابريكة اوبوقالتلنا بوليشايا قد
انهارت.. وهى بناية ضخمة بناها السجناء المؤبدون الذين كانوا يسكنون فى الجوار
القريب.. وكانت بناية حديثة يراها القادم الى نورلنك على يده اليمنى.
وقد وصلت معداتها من امريكا فى صناديق كبيرة.. الصقت عليها ديباجات تحمل
رمز.. (من الامم المتحدة).

من هذا المصنع الجديد كانت ترحل المعادن الثمينة الى مصنع كبير يبعد حوالى
الكيلومترين..
وقد ظل العمل فى بناء هذا المبنى دائرا ومستمر حتى عندما كانت درجة الحرارة تنحدر الى
الخمسين تحت الصفر.

والمرجح ان الرقابة على تنفيذ البناء لم تكن دقيقة كما ينبغي.. او ربما حدث خطأ فنى ما..
فقد جاء فصل الدفء وتفككت المواد وانهار جزء من البناء.. وفى الحال ارتفعت النغمة
المالوفة..

التخريب..!

وعندما تسرب الينا هذا الخبر، كنت بالصدفة اسمع رئيس السكة الحديد يسأل
ضابطا كان ينتظر القطار..

- هل تعلم شيئا عن الحادث؟

- لم يحدث شيء ذو اهمية..

- هل هناك ضحايا..؟

- ثلاثة وعشرون قتلى.. وستون جريحا.

ولم افلجأ لرأى الضابط فى اهمية الحادث.. فعدد القتلى والجرحى كان شيئا تافها
وبسيطا وغير ذى موضوع بالنسبة لضابط ال. ن. ك. ف. د.

بعد قرار الكومنفورم لا

كان ذلك في صيف ١٩٤٨م
كنت وقتها مشغولا باعداد وثائق الشحن.. ورن جرس التلفون، فرفعت السماعه.
كان الصوت ذو الطابع الخاص.. هو صوت جوزيف قال:
- حدث شيء غير مألوف..
- ما الذي حدث...؟
- لا استطيع اخبارك بالتلفون..
- تكلم بالالمانية..
- لا... ولكن حاول الحصول على جريدة اليوم.. ذاك الذى تجده يمكن مقارنته ببداية
الحرب العالمية.. او بثورة اكتوبر..
وتركت العمل..
استولت على تفكيرى رغبة واحدة ملحة.. هى كيف احصل على جريدة..
وهولت الى محل المبيعات القريب من نورلسك..
هناك كنت اعرف طلقاء يحصلون على الجريدة..
وفي الطريق كنت افكر في ذلك الحدث الذى يقارن بثورة اكتوبر.. هل مات ستالين؟
وعندما دخلت الى قسم البيع وقفت افكر.. الى اين اذهب. واخيرا تذكرت بلوتكن فبحثت
عنه..
في غرفته كانت هناك سيدة.. ولكنها لا تعرف اين هو.. وذهبت الى مارييف..
كان معه بعض الناس يبحثون مشاكل العمل..
واستغربت جدا.. كيف يكون هناك حدث خطير ولا احد يريد ان يتحدث عنه.
وعندما انصرف الناس وبقي مارييف وحيدا، رجوته ان يسلفنى الجريدة..
وفي الحال علم ما اريده منها..
كان مارييف يدرك جيدا انى ملم بكل ملابسات الظروف اليوغسلافية.. فقال لى:
- اى نوعية من الناس هؤلاء الذين يتجراون على فعل شيء كهذا...؟
- اناس جيدين..
وجلست في الركن وبدأت اقرا..
وعندما فهمت لماذا قال مارييف ما قال..
كان ذلك في الحقيقة حدثا عالميا من الطراز الاول.. حاسما وقويا لم يمكنهم من تدارك عواقبه
في تلك اللحظة..
وكنت سعيدا.. لان حزبي ورفاقي الامجد استطاعوا ان يقولوا.. لا...!
وعندما عدت في المساء الى المعسكر تحدثنا عن الكومنفورم وتيتو ويوغسلافيا..
وكانت ردود الفعل عن الغضب اليوغسلافي مختلفة جدا.. ولكن الجميع سعدوا بالحدث
التاريخي العظيم..
وكان أكثرهم سعادة قدامى الشيوعيين الذين، كان أغلبهم قد فقد الثقة في الاشتراكية..

والآن.. هناك في العالم قوة، عرفت ان في الاتحاد السوفيتي قهرا وسوء توظيف لتعاليم ماركس.. وممارسة لانصاف الحلول في المجتمع الاشتراكي فقط للاحتفاظ بالسلطة سيفا مصلتا على جميع الرؤوس.. وكان واضحا لكل ذي عينين ان ستالين لن يتقبل ذلك بهدوء. فهو من النوع الذي يمكن ان يبتلع كل مليتهم به الاعداء، ولكن ان يقول احد في صفوفه.. لا.. فذلك ما لن يمر بسلام ابدا.

وكنت على ثقة شديدة باننا كسجناء سياسيين سندفع الثمن الباهظ. لان ذلك ماكن يحدث دائما وابدا.. تسوء الاحوال في اسبانيا فيشعر بذلك مباشرة السجناء السياسيون.. وعندما انسحب الجيش الاحمر امام جيوش هتلر كان علينا ان نحني ظهورنا لكي يعلوها زبانية ال. ن. ك. ف. د بسياطهم اللاهية.

فلماذا يكون الامر الان مختلفا؟

وجلسنا في انتظار اللطمة الاولى

وسرعان ما انتشرت الاخبار..

قالوا ان لجنة سرية ستحضر من موسكو..

وفي نورلنك بدأ يظهر كبار ضباط ال. ن. ك. ف. د والذين كانوا لاتبعون لقيادة نورلنك.. ولكن ذلك لم يكن يعنى شيئا خاصا.. ففي كل عام وعندما يكون نهر الينسى صالحا للملاحة في نورلنك تجيء كل انواع اللجان والرقابة واقامت اللجنة ثلاثة اسابيع.. وخلال ذلك الوقت قامت بزيارة معسكرات عديدة.. وعند مبارحتها المنطقه عائدة الى موسكو بدأوا في اخلاء بعض اقسام المعسكر... ووزع السجناء على اقسام اخرى.. وسمعنا ان بعض تلك الاقسام التي اخليت ستصبح سجناء.. وان السجناء فيه لن يذهبوا للعمل.. وسمعنا ايضا ان هذا السجن الجديد ليس لنا ولكنه للذين حوكموا كمجرمي حرب. وسمعنا الكثير..

قالوا ان السجناء سيعاملون كما كانت روسيا القيصرية تعامل سجنائها، تقديمهم بالسلاسل.. وتسلط العصا على ظهورهم في كل حين.. ويقادون الى العمل كما تقاد السوائم..

ولم نكن نستطيع ادراك الحقيقة في هذه الاخبار المتضاربة..

لم يكن احد يعلم شيئا..

وكان الجو العام غلما مكهريا بشحنات الانفعال والتوتر والترقب، وعم الخوف قلوب الطلقاء الذين قضوا فترات عقوبتهم..

فقد قيل بان كل من كان بالمعسكر سابقا سيعاد سجنه من جديد.. وكان الاحساس العام، بان هناك شيئا يعد هو اصدق الاحساسات.. وزاد القلق عندما نرى الى علم البعض ان مؤسسات نورلنك تلقت توجيهات بتسجيل السجناء الزائدين عن حاجة العمل العادي..

ولم تكن هذه اشاعة، ولكنها كانت حقيقة مؤكدة.. شكلت المراكز الاساسي للوصول الى ان شيئا ما يعد..

سالت مرة كبير موظفي ادارة السكة الحديد في نورلنك، ما هي الحقيقة بالنسبة للتسجيل.. فاسر لي بان كشف التسجيل موجود كحقيقة لا تقبل الشك.. وقال ان اسمي

انا مسجل فيه.. وهو لا يستطيع ان يقول شيئا معينا. وفي النصف الثاني من شهر أغسطس دعيت الى مكتب القسم الثالث من المعسكر قال لي مدير قسم العمل: — غدا لا تذهب الى العمل.. ولا تتحرك من العنبر هنا او هناك.. ابق فيه حتى ارسل لك.. كان القلق الذي كان يغلي بالداخل طيلة الاسبوع الماضي.. وزاد القاطع بان ابقى في العنبر.. ترى ماذا يدبرون لي..؟

وسالت بعض الاصدقاء ان كان احد منهم قد تلقى تعليمات مشابهة..؟ وهل تشمل هذه الاجراءات عددا كبيرا من السجناء..؟ او هي لي وحدي..؟ وتاكّد لي جليا انني وحدي المعني بهذا الاجراء.. وان احدا من معلمي لم يدع الى ذلك..

وفي السابعة صباحا ظهر رئيس الحرس ليرى هل الجميع مستعدون للعمل.. وكرر تحذيره لي بالبقاء في العنبر حتى الثامنة، ثم اذهب الى مكتب المعسكر.. وقبل الثامنة بدقائق قدمت نفسي لرئيس قسم العمل.. وقلبي يخفق بشدة فقام بالاتصال التلفوني بغرفة الحرس.. وسأل ان كان الحرس مستعدا لغرفة العمليات..؟ وعند

سماعي لذلك علمت الى اين يقودوني.. مرة اخرى الى مبنى الن.ك.ف.د. البغيض.. وبعد انتظار دام لدقائق قليلة رن جرس التلفون.. واعلن احدهم بان الحرس جاهز للتحرّك.. فاخبرني رئيس قسم العمل ان اقدم نفسي للحرس.. وكذلك اخبرهم بانني لن اعود الى العنابر.. ولكنه سرعان ما غير رايه.. وقال لاحد الموظفين: — اذهب معه الى الباب الخارجي وسلمه الى الحرس..! واستلمني جنديان مسلحان..

قررا ان نسلك الطريق الطويل، لانهما ليسا في عجلة من امرهما.. وببطء سرنا في الطريق المغروف وسط نورسك، والذي تقع فيه عمارة من طابقين للن.ك.ف.د..

ومن على البعد لمحت الجزء الجديد لمصنع البي.او.اف. الذي تم تشييده فوق انقاض الجدران التي تهدمت..

ومر قطار بضاعة في تلك اللحظة فوقنا ننتظر.. وامرني الجنود بان اجثو على ركبتي ففعلت..

وعندما اختفى القطار سمحوا لي بالنهوض مرة اخرى فنهضت..

الاستجواب

وعند وصولنا الى مبنى السن.ك.ث.ف.د. اخطر الجندي المناوب في الحراسة باننا من القسم الثالث للمعسكر.. وقدم له الجنديان اللذان رافقاني قصاصة من الورق . فقام باستدعاء شخص ما
وسرعان ما ظهر احد الضباط وطلب من الجنديين ان ينتظرا..
وذهبت معه خلال ممر مظلم، وعندما وصلنا امام الباب الذي كانت به لافتة كتب عليها
— مدير قسم العمليات ن.ك.ث.ف.د. — طرق الباب برفق..
ثم فتحه ومد راسه قائلا:
— تسمع..
وجاء الرد من الداخل..
— ادخل..
وادخلني الضابط فالقيت بالتحية..
وبالقرب من المنضدة وقف بوليكاربوف.. وكنت اعرفه جيدا..
وعندما نظرت اليه تذكرت..
لقد امسك ذات مرة بعنقي وضغط عليه قللا بحدة:
— ساخنك .. ساخنك..
وكان في الحجرة ضابط آخر من السن.ك.ث.ف.د. وقف بالقرب من النافذة.. يدين الجسم
جاد النظرات..
ولاحظت على كتفه خيوطا ذهبية وثلاث نجوم كبيرا..
كان برتبة العقيد..
قال بوليكاربوف:
— اجلس..
واشار الى كرسي بالقرب من الآلة الكاتبة..
فجلست ممثلا لامره.. ثم اخذ بوليكاربوف مكانه وعلى مقدمة المنضدة جلس العقيد..
وسألني بوليكاربوف:
— كيف الحال..
— مسرور..
— آه مسرور!! لم انتظر ذلك منك.. أين تعمل..
— في السكة الحديد..
— ماذا قلت..؟ معنى ذلك ان لديك تصريحاً..
— لا انا اعمل في قسم الشحن والتفريغ..
— أيمكنك ذلك بدون تصريح..؟ هذا صعب للغاية..
— ان الامور تسير..
— يجب ان تعطى تصريحاً..
ليسهل عليك الامر قانت على كل حال نصف طليق..
وكنت اسمع مدهوشا ماخوذا بهذه اللهجة المغايرة، غير مصدق اذني... ما معنى ان

يصبح بوليكاربوف الذي اعرفه انسلانيا هكذا.. وتدخل العقيد في الحوار قلئلا:

— كم من الزمن انت في السجن والمعسكر..؟

— اثنا عشر عاما..

— كم مدة عقوبتك..؟

— مرتان بعشرة اعوام..

— لا افهم.. كيف مرتان بعشرة اعوام..؟

— في عام ١٩٣٦ حوكت بعشرة اعوام وفي عام ١٩٤٣ حوكت ايضا بعشرة اعوام اخرى.. و..

ثم اصابني الاسمرازان فجأة.. فصمت.. هؤلاء الناس يعلمون جيدا وربما اكثر مني كل هذا الذي اقله..

وطاف بخاطري سؤال ساخر.. من هو الذي يريد مشاهدة هذه الكوميديا.. وهنا قل العقيد:

— اسمع.. الآن لديك الفرصة لتكون طليقا.. ولكن عليك انت يتوقف الامر.. هل ستستغل تلك الفرصة ام لا..؟

وفوجئت.. ماذا يعني ذلك مرة اخرى..؟ ودار ذهني بسرعة فائقة.. وحرصت على ان لا يبدو شيء على وجهي..

— من اين تعرف تيتو وبقيّة القادة اليوغسلاف..؟

كان ذلك هو سؤال العقيد.. ورغم علمي بأنه ايضا يعرف الكثير عن هذا، الا انني بدأت اسرد تاريخ عملي في يوغسلافيا.. وقاطعني طالبا مني ان اتحدث بالتفصيل وان احصي كل صغيرة وكبيرة دون ان اغفل امرا من مدة اقامتي بيوغسلافيا.. وعن قيادة حزبها الشيوعي.. وعن لقاءاتي بالمسؤولين اليوغسلاف في الخارج وفي الاتحاد السوفيتي..

— هل قرأت قرار الكومنغورم..؟

— نعم..

— ماذا تقول فيه..؟

— انا سجين وراي ليس مهما..

— عندما اسالك عن رايت معنى ذلك اني انتظر منك ردا صريحا..

— على هذا السؤال لا استطيع الاجابة، لانني اجهل مجريات الامور والاحداث.. كل ما اعرفه هو ما جاء بالصحف.. ومن قبل كانت هناك تصريحات لا اعلم عنها شيئا..

— هل تصدق ذلك الذي قرأته في الجريدة..؟

— انت تطلبني بالكثير.. انت ضابط النكث.. وانا سجين لا حول لي ولا قوة، وموقفي يمنعي ان اتحدث عن ذلك بصدق..

— انا اصرح لك الآن.. ان لا تخف شيئا..

قالها العقيد ببرود.. فبدأت افكر.. ماذا يريدون مني..؟

وتدخل بوليكاريفوف:

— هل تريد شيئا.. ام شيئا للاكل..؟

— اقبل الشاي يسرون.. ولكن الاكل لا..

واحضرت احدى الشابات ثلاثة اكواب من الشاي مع قطع الليمون.. وكان ذلك اول ليمون اراه منذ ما يزيد على العشرة اعوام..

واثناء شرب الشاي، جعل العقيد يحكي ذكرياته عن يوغسلافيا.. قال انه كان هناك وانه يعرف معظم القادة..

وكان يحشر في حديثه بعض الكلمات الحربية مما يعطي انطباعا بأنه فعلا كان في يوغسلافيا..

واخيرا قال:

— العصابة التي باغت نفسها للامبريالية لن تبقى طويلا في الحكم، والشعب اليوغسلافي يقف الى جانب الشعب السوفيتي، وفي كل اجزاء يوغسلافيا هبت الانتفاضات.. واصبحت ايلم عصابة تبتو معدومة..

استمعت اليه في صمت شديد.. هذا الذي نطق به كان مشابها لما تكتبه الصحف السوفيتية، ولم يكن بالنسبة لي شيئا جديدا.. وعندما انهى حديثه سالني العقيد:

— هل انت مستعد لمساعدتنا..؟

— لست ادري كيف يمكنني ان افعل ذلك..

— اطلب منك ان تعلن انك تعلم بان هؤلاء الناس كانوا دائما على صلة بالبوليس السياسي..

— لا استطيع ان افعل ذلك، فمعلوماتي تقول العكس.. ففي الوقت الذي خرجت خلاله من يوغسلافيا.. كان تيتو وموشى بيادا محكوما عليهما بالسجن المؤبد في لبوقلافي..

— هذا ليس مهما.. انت لا تريد مساعدتنا.. كيف تنكر في هذه التفاصيل؟

— لقد فقدت حريتي، ولكني لم افقد ضميري بعد..

— الا تصدق السلطة السوفيتية..؟

— اتيت للاتحاد السوفيتي لاني صدقت الحكومة السوفيتية..!!

— اسمع.. الحكومة السوفيتية تقول لك بان القيادة اليوغسلافية للحزب الشيوعي عصابة امبريالية عميلة..

فهل تصدق ذلك ام لا..؟

— وانا نفسي حوكت كعميل للجستابو بالرغم من انني وفي جميع مراحل حياتي لم تكن لي ابدا علاقة بهذا الجستابو المزعوم..

— انا لا اتحدث عنك الآن.. ولكن عن قادة الحزب الشيوعي اليوغسلافي..

— لست ادري بما حدث في هذا الوقت الذي كنت فيه بعيدا عن مجريات الامور.. ولا استطيع ان اعطى حكلي في الذي حدث هذا.. ولكني اعلم شيئا هاما.. هو انني عندما كنت على صلة بهم، كانوا شيوعيين امناء..

— اعيد عليك ما ذكرته سابقا.. الفرصة امامك سانحة لتتال حريتك.. ايام الخونة اليوغسلاف معدودة.. انت تعلم اننا دسنا باقدامنا من هم اضخم واوى.. المنيا الهتلرية.. وستنتهي من يوغسلافيا في ساعات..

اجبته بحزم قاطع:

— آسف.. لا استطيع مساعدتكم..

— فكر.. سنتحدث مرة اخرى.. ليس عليك الذهاب الى العمل.. فكر..

قلت له بحزم ايضا:

— انا افضل الذهاب للعمل لانه صعب، حتى لا ابقي في العنابر..

— لا.. لا.. منذ الآن لن تذهب للعمل..

وتحدث بوليكاريفوف بالتلفون، وحضر الضابط وقائني خلال الممر.. ومرة اخرى

استلمني الحرس..

وتحركت صوب المعسكر..

وهناك تجمع حو لي الجميع يريدون معرفة أين كنت..

ولم احدهم بشيء.. الا جوزيف نقلت له غرض العقيد، فقال فورا:

— العصابة الحاقدة، اخذت حريقتنا والان تريد ان تسلبنا الشرف ايضا!!..

وبعد يومين جلست امام العقيد بوليكاريفوف مرة اخرى..

— نعم.. كيف الحال؟..

— كالعتاد..

— هل فكرت؟..

— ليس لدي ما افكر فيه..

— كيف؟.. يجب علي فهم ذلك..

— استطيع ان اعيد عليك الذي قلته من قبل.. انا لا اصلح لمثل هذه الاشياء...

واخذ العقيد يذرع الغرفة ذهابا ومجيئا.. واخيرا جلس وهو يرفرف من الغيظ..

وقال لي بوليكاريفوف:

— انك عنصر لا يرجى اصلاحه.. يمكنك الذهاب..

ووقفت اتاهب للانصراف فسالني:

— هل حدثت احدا بما حدثتك عنه؟..

— نعم حدثت بذلك رجلا واحدا..

وقفز العقيد من مكانه.. احمر وجهه وجعلت عيناه.. واصابته الدهشة

— ماذا؟.. من ذلك الذي حدثته؟.. هذا ذنب يكفي لرميك بالرصاص..

وخبرته باسم ذلك الشخص وقلت له..

— انني لا احفظ ليس امام ذلك الرجل..

— آه.. هو ذاك.. اعرف.. لا.. لا.. ليس هو صديقك.. هنا توجد كل عصابة الكومنترن..

وبفضل هذا.. واشمل العقيد بيده اتي بوليكاريفوف

... ما زالوا احياء يتجولون في هذه الارعاء.. وبعد التفت الى بوليكاريف قائلا:
... دعه يوقع على التعهد ..
وذهب بوليكاريف الى الغرفة المجاورة وعاد معه ورقة مطبوعة كتب عليها
اسمي.. وقدمها لالوقع عليها..
وقرات محتوياتها..
اعلن بانني لن اتكلم مع احد بخصوص هذه المحادثة وفي حالة حدوث العكس ساكون
مدانا لافشائي سر الدولة..
ووقعت على الورقة..
وعندما خرجت الى الشارع تنفست بارتياح..
كنت موقنا من انني لن اعود الى المعسكر.. ولكن الى غياهب السجن..
طوال الطريق كنت افكر في العواقب.. وفي الذي ينتظرني.. تذكرت كيف كنت احدث
نفسى ايلم الراحة والشبع والارتواء.. ايلم السكة الحديد الزاهية الخضراء.. بان ذلك
لن يدوم طويلا والآن حدث ما كنت اتحسب حدوثه..

ماذا ينتظرني؟.. هل اعود مرة اخرى للاشغال الشاقة؟..
ومرت ايام.. وجلس في العنبر واستلمت الماء الساخن.. ولم يكن يسمح لي بالذهاب الى
العمل.. وعندما حاولت يوما ان افعل ذلك مع وردية الليل.. وكنت في الجانب البعيد من
باب الخروج ولكن قائد الحرس لمحني وكان يعرفني.. فاعادني بهدوء..
وفكرت بعمق.. هذا ايضا لن يدوم طويلا.. ولم اذكر حالة واحدة لم يكن صاحبها
مريضا ومع من الذهاب الى العمل.. وقد حاولت ان اذهب للعمل حتى تكون لي لقاءات
مع الاصدقاء من الاقسام الاخرى.. وحتى اخبرهم بما حدث..
ثم كنت اتوجس والتردد.. لن اخبر احدا.. فقد حذرني العقيد ووقعت تعهدا.. واذا
ذهبت اخبراري هنا او هناك فسيكون جزائي صارما وعقابي مهلكا.. وستتخذ ضدي
اجراءات فوق العادة..

وقد اموت بيدهم.. وتكون اسباب موتي.. هي اني حاولت الهرب.. او انني مت فجأة
بالجلطة الدموية او اي سبب آخر..
ولم استطع ان اتصل باحد من اصدقائي..
ومرت الايام..

كنت ارقد على الكتبة اقرأ الكتب ولم يمسنى احد..
وفي الثاني من سبتمبر حدث شيء لم اكن اتوقعه..
نخل الى العنبر رئيس العمل بصحبة رئيس الحرس وبوليس المعسكر وفقر النوبتجي
من مكانه صاغا:
... سجناء.. افتباه..
وسال رئيس قسم العمل:

— أين شتاينز؟ —

ونظر هنا وهناك حتى وقع بصره على فاسل نحوي..

— اجمع حليجياتك.. وخذ الغطاء معك حتى تسلمه للنوتيجي.. ولم أسألكم الى أين يقدوني..

أخذت كيس..

كانت فيه ملابسي.. وبتطال ثنليف.. وملعقة.. وبعض الأدوات الصفيحية.. ودستت فيه الغطاء والمخدة..

وفي انتظار ما سيحدث جمعت أربع وجبات من الخبز.. وكيلو سكر.. وأخفيت في الكيس أربعين روبلا..

وبمصاحبة هؤلاء الأربعة اتجهت نحو المكتب.. كنت على ثقة بأنهم يفشونونه لأنهاء بعض الإجراءات الشككية فقط.. والتي تتم عند النقل الى معسكر آخر..

ولكن بدلا من ذلك اقتادوني الى حجرة صغيرة كانت تقع في ممر مكتب المعسكر..

وضعت الكيس في الركن ومضيت اتمشي في الحجرة ذهابا وايابا.. ولم اتخذ لنفسني مكانا ارقد او اجلس فيه، لاعتقادي بأن يقطن هنا لن يطول وانني ساقبى الحفرة

قصيرة.. ريثما املا الوثائق التي تمكنني من الذهاب الى معسكر آخر..

ومضت ساعتان ولم يظهر احد..

وكنيت في اشد الحاجة للذهاب الى دورة المياه.. وطارت الباب فلم يجبني احد.. وعلوت الطريق مرات ومرات..

وبعض مضي زمن طويل سمعت صوتا من الجانب الآخر:

— لماذا تطرق الباب..؟

وسألته:

— لماذا تغلق علي الباب..؟

— لست ادري — اوامرهم — اذا ارئت شيئا عليك ان تخبرني..

— يجب ان اذهب لدورة المياه..

وفتح الباب فورا.. ورايت امامي ساعي مكتب المعسكر..

وسألته مرة اخرى:

— ماذا يعني كل هذا..؟

ولكنه لم يكن يعلم شيئا..

وتبعني الى دورة المياه.. وعاد معي مرة اخرى للحفرة وقلل خلفي الباب..

ولاحظت ان نوافذ الغرفة مسلحة.. ورغمما عن ذلك حلزت اعجابي.. وفكرت كيف يكون جميلا لو سكن الانسان هنا.. يذهب للعمل ويعود ليقرا الكتب ويستمتع الى المذيع..

وفي المساء احضر لي الساعي حساء وسمكا وعصيدة..

وبعد العشاء تهيأت للغوم.. وفي احد الاركن فرشت المعطف المبطن ومن الكيس

أخرجت المخدة والغطاء ورددت..

كان رأسي منخفضا بعض الشيء.. فوضعت الكيس تحت المخدة وأصبح الوضع جيدا للغاية.. وبعد ذلك نظرت من النافذة.. ورأيت الوحدات تعود من العمل.. كانوا يصعدون الجبل ليهبطوا منه إلى العتبات..

ونلتيت على بعض أصدقائي.. ولكنهم كانوا قد مروا..

كان بإمكانني التحدث دون حرج.. وتحفظ البعض معي خوفا من العواقب وتناكرت الأخبار عن حبسي هنا وهناك.. لم يكن أحد منهم يعلم ماذا دار بيني وبين العقيد.. فطلبوا مني الأخبيل، ووعدتهم بالحدِيث فيما بعد..

وأحضر لي الكثيرون خبزا وسكرا وماكولات أخرى.. وبعضهم أعطاني نقودا.. وبهذا استخلصت أنه لا ينتقلرتني سوء كبير.. من يدري؟

وفي اليوم التالي أخذ ذلك التفضل من اتجاهها هز مشاعري وجعل الدمع يطفر من عيني.. كانوا يودعونني بكل أحاسيسهم وعطفهم.. وأمثلا كيبي بالخبز حتى لم يبق فيه متسع لمزيد..

في اليوم الرابع من سبتمبر حوالي الحادية عشر صباحا ظهر رئيس قسم العمل والمستل من معسكرنا..
قال لي:

— خذ حليبتك وهيا معي..

وفي ممر مكتب المعسكر كانت تلقف مجموعة من السجناء عددهم حوالي العشرين سجيناً.. وانضممت إليهم..

وفي هذه المجموعة وقف بعض السجناء.. الذين طلبوا مني أن أخبرهم إلى أين يقدوننا..!

وكان علينا أن نحل هذا اللغز معا..

أحضروا بعد قليل صندوقا كبيرا من الخبز..

حصل كل منا على كمية كبيرة منه وعلى قطعتين من السمك المملوح.. وخمس قطع من السكر..

وبذا علمنا أن أماننا طريق طويل.. لأن كمية الزاد التي أعطيت لنا كانت تكفي ليومين.. إذن لن نذهب إلى سجن نوراسك..

وأخرجت لذلك.. لأن الحياة التي عشتها هناك زمن الحرب كنت كابوسا مفرغا سيظل يقض مضجعي طيلة الحياة..

كان السجناء يتابعون خروجنا من المعسكر.. ويلحون في ذلك الحاحا شديدا رغم تحرش الحرب بهم.. وإزاحتهم من الباب..

صاح الجميع:

— مع السلامة أيها الزملاء....

تابعنا بعد ذلك سيرنا.. نحن العشرين سجيناً.. تحت حراسة اثني عشر جنديا وضابطا

واحدًا..

مررنا بشوارع نورلوك- في اتجاه محطة السكة الحديد..

قبل عشر سنوات انكر انني مررت بهذا الطريق.. كلت المنازل وقتها قليلة ومن الخشب.. اما اليوم فهي كثيرة ومشادة من الحجر بها طابقان.. وهي جميلة للغاية.. وخرج الناس يتبعون موكبنا..

وعندما مررنا بالمستشفى المركزي هرع المرضى للنوافذ.. ولوحوا لنا بايديهم.. في نورلوك لم يكن اقتياد السجناء في موكب بالامر الغريب او الحدث الذي يسترعي الانتباه والفضول..

ولكن مرورنا من غير سبب واضح اصبح في حد ذاته حدثا كبيرا.. وفكرت في ذلك..

لماذا تثير مجموعتنا كل هذا الانتباه..؟

لا بد انها ردود فعل الاحداث التي لها صلة بقرار الكومنترن.

الرهيل من نورسك

عند وصولنا الى محطة السكة الحديد راينا شيئا غير عادي بالمرّة.. املم المبني جلست مجموعة كبيرة من السجناء على الارض.. كان عددهم حوالي الثلاثمائة رجل.. اضافونا لهم فجلسنا على الارض.. وكان اليوم جميلا جدا.. لم ار اجمل منه في نورسك.. وحول المحطة وقف عدد من الطلقاء والسجناء فيهم النساء والاطفال.. حاول بعضهم الاقتراب منا.. ونجح..

كان الحرس متهاونا بعض الشيء.. ولمحت جوزيف فلوح في يده.. فتسللت اليه.. حييته وعدت الى الصف.

اول مرة سمعت كلمة اليفيسة — ولما كانت نورسك هي مدينة يمكن الوصول اليها بالجو او البر او البحر.. زاد عجبني من تلك التسمية.. فنحن لم تكن في جزيرة.. ولكنه الاحساس بالخلاص من وفاة مكان كهذا..

وجعلنا نتسائل اين يذهبون بنا..؟ بعضهم ذكر جزيرة كايركات التي تبعد خمسين كيلومترات من نورسك.. وعندما مر رئيس قسم الشحن والتفريغ في محطة نورسك.. سألته الى اي مكان حددت مسيرة العربات.. فاجابني.. مقابيلس، — الى بودنكا..

اذن ليس لمناجم الفحم.. فليكن الى مكان.. لا يهم.. وجلسنا ساعات طوال.. كنا سعداء لاننا نفرق نورسك التي عشنا فيها آلاما جساما وقضينا فيها السنوات الدائمة.. ووصلت عربات السكة الحديد وامتلأت العربات الاولى.. وبكى البعض عند اغلاق بابها.. وجاءت امرأة تجري وهي تصيح:

— يا زملاء.. يقودونكم الى سجن اركتسك..!!

وصاح احد السجناء من معارف المرأة.. من قال لك ذلك..؟

— اخبرني رئيس القسم الصحي..!

اخذنا وقتنا طويلا لانهم كانوا ينادون على السجن ويؤكدون من معلوماتهم عنه.. وعندما نودي علي كان الوقت مظلما.. وصعدت الى عربة السكة الحديد وركبت بين الزملاء الذين كانوا وقتها يرقدون على ارضية العربة..

كان جاري هو الشاب النمساوي ايدي شريدل..

واوحد احدهم شمعة.. كلن بإمكانني رؤية وجوه الزملاء الذين رقدوا او انحسروا في الاركان وصمتوا..

بعد اقامة دامت عشر سنوات في نورسك فذهب الى المجهول.. وفيه سنبدأ من جديد حريتنا المقدسة من اجل البقاء..

تبخرت الاحلام..

اولئك الذين داعبتهم خيالات الحرية.. والذين قطعوا الوعود لرؤساء المصانع بان يعملوا معهم بعد اطلاق سراحهم.. انهالت صروح آمالهم..

وسمعتنا صفير القطار يشق الصمت والسكون..
وتحركنا ببطء.. وفي منتصف الليل لاحظنا مرورنا على محطة كامركات.. وفي تمام الثامنة
صباحا وصلنا الى محطة دودنكا..

وفتح الجنود الابواب..
- اخرجوا..

وانزلنا حزمنا.. وكان علينا ان نتوقف بجانب العربات.. وبدأت عمليات النداء
المعتادة.. والاجراءات الاخرى..

وعندما انتهى كل شيء وقفنا في خمس صفوف..
تحدث رئيس الحرس عن قواعد السلوك اثناء السير..

واخيرا تحركنا في اتجاه برسلك..
محطة الراحة بعد دودنكا..

وفي ذلك الوقت كان المرور حيا.. والعنابر كانت مزينة.. اما الجو فكان حارا.. مكن
السجناء من النوم في العراء..

ونشطت سوق البيع والشراء والاستبدال.. وكانت السلعة الرائجة هي الملابس..
ولما كان القدامون سذجاً في البيع والشراء فقد احتال عليهم المتعاملون معهم من
المجرمين.. وكانوا غالباً ما يعطون اشياءهم ولا يحصلون على شيء.. اما المضحك بحق
فهو رؤية ضباط الجستابو السابقين.. وهم يقايضون بلثعهم الذين دفعوا ثمن
القمصان والبنطل سكرًا وخميرًا..

ولو رأهم اليهود في سوق الشمس يفينا لحسدوهم على هذه العقلية التجارية النابية..
ووضعونا في العنابر بامر مدير معسكر نولسك فورونوف الذي حضر من دودنكا ليشرف
شخصيا على ترحيل سجنائه القدامى..

في فترة اقامتنا بدودنكا اعدوا لنا اكلا خاصا صرف لنا من شبك خاص.. وامر
فورونوف ان تباع لنا المواد التموينية.. وكان بالإمكان شراء الدخان وورق اللف..
ادارة مصنع نولسك ابدت اسفها لرحيلنا لان مجموعتنا كان لها الباع الطويل في
بناء المصنع..

ولكن ذلك لم يمنع فورونوف من ان يكذب علينا مرة اخرى..
فعندما وصلنا الى المحطة التالية سألنا كيف حالنا؟..

ورد عليه بعضنا بان ساله:
- اين نذهب؟..

ونظر اليه فورونوف باستغراب وساله:
- ماذا؟.. انتم لا تعلمون؟..

- لا ..

- ما هذا.. لقد اخبرت ديفن ليقول لكم.. هذه اعمال خنازير.. لماذا لم يخبركم؟..
- لم يقل لنا احد شيئا..

- اذن .. انتم ذاهبون الى القفلان..
- شمال القفلان؟..

— نعم .. نعم .. الى شمال القفاز هناك يشيد مصنع للمعادن الملونة تحت قيادة الجنرال رابوبورتا.. ولقد طلب منا ان نرسلكم له شخصيا لانكم مع اصحاب الخبرة الطبية..

كنا نعرف انه يكذب .. ولكن كان هناك من صدقوه..

في السابع من سبتمبر عام ١٩٤٨ تسربت اخبار بان في الميناء سفينة تجارية هي (جوزيف ستالين) على سطحها مئات من السجناء..
عندما يتم تفرغهم سنشحن نحن في امكانهم..
ولقد اضطربت حيرة..

هل سنذهب الى البر حقا..؟

وبعد ساعات راينا في الجانب الآخر من الاسلاك الشائكة مجموعة السجناء الجدد، ينتظرون ان يسمح لهم بالدخول الى المعسكر..

تعرفنا عليهم من ملابسهم المختلفة..

كانت هناك سترات ويزات اللمانية.. بعضهم على طاقيته علامة الموت.. وعلامة الجستابو الهتلري.. (اس — اس) ..

كثيرون ايضا كانوا يرتدون ملابس الجيش السوفيتي..

وبالرغم من حرارة الجو فقد كان هناك من يرتدون احدى الصحراء الجليدية..
واولئك بالطبع الذين القى القبض عليهم في فصل الشتاء.. وقد وقف هؤلاء القادمون الجدد زمنا طويلا..

وبدا نداء الاسماء.. وحين الضابط يخطيء كثيرا في قراءة الاسماء الالمانية.. وكان من الطبيعي ان لا يرد عليه احد.. فبعد قراءة الاسم.. وهكذا ولم يسمح لنا بالاقتراب منهم.. لان الرقابة الصارمة لبوليس المعسكر منعت كل تقدم.. نحوهم..

اما في اليوم التالي كان بإمكاننا التحدث مع السجناء الجدد بدون مضايقات..

وبدأت عمليات البيع والشراء..

كانوا جوعى.. وحاولوا ان يقايضوا ممتلكاتهم بالخبز..



في الثامن من سبتمبر خوالي الخامسة صباحا امرونا بان نستعد للرحيل.. ادخلت حاجياتي في الكيس الكبير.. اما كيس الخبز فقد وضعته في يدي لكي اودعه طعام السفر الذي سيمنح لنا..

وبعد انتظار دام لمدة ساعتين، سمعنا الامر..

— قفوا صفا..

اخذت كيسي واسرعت الى الساحة.. وامام باب الخروج وقف الضباط والجنود..

بمجرد ما ينادون على احد كان عليه ان يخلع ملابسه ويقف عريا.. وبعد هذا التفتيش الدقيق للاشياء والجسم قادونا تجاه الميناء.. ومن على البعد راينا البخرة

(جوزيف ستالين) ..

اكانت باخرة جديدة بنيت في المنطقة السوفيتية الالمانية.. وكانت الباخرة تبجر بانتظام بين كرسنويارسك ودودنكا..

وعندما وقفنا امام الباخرة احسست بشعور من السعادة.. منها انا اخرج حيا بعد عشر سنوات من هذا الجزء اليائس في العالم.. كانت لحظات فظيعة في حياتي.. وهذه السعادة لم تكن خالصة.. لقد شابها شيء من الحزن والاسى.. فهناك الكثيرون من الرفاق الذين لم يقدر لهم ان يعيشوا هذه اللحظات.. وفكرت كثيرا في روبولف اندراجق.. وكروشتي مولنار..



على ظهر الباخرة جوزيف ستالين

من السقالة وحتى سطح الباخرة وقف الجنود بأسلحتهم الاوتوماتيكية الجاهزة للضرب.. ومررنا بجانبهم فرادى. السلام الخشبية الواسعة قادتنا الى قاعة خالية، تسارعنا الى احتلال الاركان فيها.. وجلسنا نحاول ان نريح ارجلنا التعب. ولكن كان علينا بدون انقطاع ان نلتصق ببعضنا البعض لنفسح مكاناً للقادمين الجدد. وسرعان ما امتلا جوف السفينة حتى اوشك ان ينفجر.

كانت القضبان الحديدية مثبتة على نوافذ بالحكم واغلاق باب الدخول ثم وقف امامه اربعة من الجنود غير المسلحين.

وهذا الاضطراب شيئاً فشيئاً.. واخذ الجميع اماكنهم.. بعضهم اخرج الطعام وبدأ في الاكل.

واستطعت ان الم شتات نفسي المبعثرة بعد جهد، وتلفت حولي اتعرف على جيرانى.. بالقرب منى كان يجلس ايدى شريدل، وكنت قد تعرفت عليه في عام ١٩٤٦ عندما وصلت مجموعة من النمساويين الى دوبنكا.. وعلى يمينه جلسليو براقتسكى وايضا دنييرو بنزوفسك المدعى العام السابق.. اما جارى من جهة اليسار فهو فكتور شتريكر مهندس معادن المائى الجنسية.. مثله مثل غيره المان الذين وفدوا الى روسيا منذ نعومة اظفارهم فهو لا يتحدث الالمانية ولا يعرفها. اما البقية فكانت معرفتى بهم سطحية.

وفي المساء اولدت الانوار الخافتة، وتحركت الباخرة ببطء.. نظرت من النافذة، وكانت آخر المبانى تتلاشى في البعيد وتشعب انوارها.. ثم تلوح كالنجوم البعيدة.. واغلقت النافذة وانا احس بان الباخرة تمخر عباب المجهول.

تناولنا قليلا من الطعام.. وتحدثنا كثيراً.. نبشنا اركان الاكريلات والمنا خيوطها لننسج منها ذكرى كالاخلام الضبابية المزعجة.. واعدنا شرائح الحياة في نولسك بكل مرارتها وحزنها. ثم هجعنا، ونحن على بعد. لنا البعض في محاولات مستحيلة للراحة والنوم.

في صبيحة اليوم التالى فتح الباب.. وتسلت الاضواء والانسلم الجديدة.. واحضر الجنود الاططار.. سلة بها الخبز المقطع للوجبات.. وانا الشاى.. وتم تعيين جارى بارقتسكوف مسئولاً عن السجناء.. فقم بتقسيم الطعام مع الجنود يهدوء شديد وبدون مشكل.

في منتصف النهار حصلنا على الشعر مع الفاص. ووعدونا بتقديم وجبة ساخنة للعشاء ولكنهم لم يفوا بوعدهم وفي الصباح اعتذروا لنا بأنه لا يوجد حطب للوقود، وطمانونا الى ان الطعام الدافئ ستعوضه في اتمارك.

وفي آخر نهار اليوم التالى تحصلنا على الوجبة الدافئة. وفي المساء تحدثت مع شريدل.. حدثنى عن النمسا وعن الاشياء التى عاشها في فترة الحرب..

وايدى شريدل هذا ابن لقروى غنى من رودنتال التى تقع بالقرب من فينا.. والتحق في بداية الحرب بالجيش الالماني واشترك في معارك الصحراء الافريقية تحت قيادة

الجنرال روميل... وعند انهزام الوحدة الافريقية وقع ايدى في الاسر فلقى بعض الوقت بمعسكر لاسرى الحرب في انجلترا.. وبعدها نقل الى امريكا لمعسكر آخر بولاية ماينى. وبما انه كان مناضلاً ضد الفاشية فقد انخل الى مدرسة خاصة بالاسرى الالمان في امريكا ليتعرف على الحياة هناك. وبعد انتهاء الحرب عاد مع اوائل العائدين.. الى وطنه. ولكنه لم يستمتع بالحرية طويلاً.. فمُنطقة روينتل كانت تقع داخل النفوذ السوفيتي.. وذات يوم دعى الى مكتب عمدة المدينة.. وعندما دخل الغرفة كلن هناك جنديان روسيان.. وقال له عمدة المدينة انهما يريدان خُمراً من عصير العنب.. وطلب منه ان يدير لهما عشرات لترات. ورغم ان النقود كانت في حالة تضخم ولا قيمة لها، وكان الناس يرفضون بيع نبيذهم المعتق بها.. ورغم ذلك الا ان ايدى لم يرفض طلب العمدة. وذهب معه الجنديان الى مكان يبعد كثيراً عن منزله حيث توجد خوابى النبيذ.. وحصل الروسيان على ما ارادا ودفعاً مبلغاً طيباً من المال.. وذهب ايدى الى الحانة للقاء اصدقائه.. واذا هو هناك جاء الى الحانة عدد من القرويين المزروعين يصيحون به - انت تجلس هنا والروس ينهبون البديروم...؟.

ولقد ايدى من مقعده وجرى مع اصدقائه تجاه البديروم. وفي الطريق راوا عدداً من الناس يضربون ثلاثة من الجنود الروس.. ولما كان هو مخموراً فقد شارك في المعركة واستطاع الجنود الفرار بعد ان نالوا نصيبهم من الضرب.. وكانت تنتظرهم الموتورسايكلات فهربوا بها.. وعلم ايدى تفاصيل الاعتداء على البديروم.. كانوا نس الجنود الذين باع لهم النبيذ بزيادة آخر.. راوا انهم وقد عرفوا مكان النبيذ فلا حاجة بهم الى الشراء او اخذ التفويض من صاحبه، وبناء على ذلك جاءوا بالموتورسايكلات لاخذ ما يستطيعون اخذه.

وكسرو باب البديروم بمعدات من الحديد والسيخ.. وملأوا صفيحة من النبيذ المعتق.. ولكن بعض القرويين وقعت اعينهم عليهم فجمعوا حولهم ومنعوه من الخروج.

وعاد ايدى لاصدقائه، واحتفظوا بالنصر على الجنود الروس. وبعد ثلاثة ايام جاء طابور من ال ن ك في د واحاطوا بالقرية.. ثم القوا القبض على اثني عشر قروياً من الذين شاركوا في المشاجرة.. واقتيد المقبوض عليهم الى بادن..

وبعد اسابيع قضوها في الحقيقات مثلوا امام محكمة عسكرية سوفيتية، فحاكمتهم بعشر سنوات سجنًا لكل منهم.

واقْتيد ايدى الى نورلسك.. فلقى بها عامين وهو الآن يسافر معنا الى المجهول.

وسارت البلخرة عكس القيل..

وكانت البلخرة تتوقف في بعض الموانىء..

وخلال عدة ليالى كانت تشحن من تلك الموانىء بمعدات ذات صليل كانها جنائز حديدية..

وكانت العاملات بال شحن من النسوة السجنيات.. كن يغنين اغنيات حزينة جداً اثرت على نفوسنا تأثراً شديداً.. وانخفضت لدى سماعها ارواحنا المعنوية الى درجة الصفر.

في كرسنويارسك

في اليوم السابع للرحلة وصلت الباخرة الى مدينة كرسنويارسك.. اقلت مراسيها اول الامر على الضفة الشمالية من الشاطئ.. وبعد ان خرج منها المسافرون العاديون، اقلعت نحو الضفة الجنوبية من شاطئ النهر.. وقلت مراسيها مرة اخرى.

بعد زمن قصير فتح الباب.. وامرنا الجنود ان نحمل البزاميل التي كنا نقضى فيها الحاجة اiban الرحلة.. وعند فراغنا من ذلك وقفوا ينادون علينا مثلما عندما صعدنا الى ظهر الباخرة.. ثم اصطف الجنود في الممر المؤدى من الباخرة الى اليابسة. وصعدنا الى التل المنحدر الذي يقود من الضفة للسهل الذي تقع على جانبه الايمن مباشرة مدينة كرسنويارسك.

وبمرافقة الجنود والكلاب البوليسية التي يقودنها بالسلاسل، وصلنا الى الجزء الذي لم يكتمل بناؤه بعد في جانب المدينة.. وهو عبارة عن عدد من ابنية المصانع والمسكن الشعبية..

كانت هذه المشروعات هي النواة للمنطقة السكنية الجديدة. وتراعت من بعيد الضفة الاخرى للنهر وقد ربطت مع رصيفتها بجسر حديدي طويل.. وراينا عدداً من المداخل تشعخ الى غسان السماء، عددها اثنتا عشر مدخنة.. وكرسنويارسك مدينة صناعية كبيرة كما يبدو..

وسرنا خلال الحقول في اتجاه خطوط سكك حديد سيبيريا الكبرى. ومن بعيد لاح لنا قطار ترانس اكسبريس سيبيريا.. السريع الذي يقطع المسافة الهائلة من نفورل الى فلادفستك وطولها عشرة آلاف من الكيلومترات دون ان يكل او يمل.

ومشينا على الكوبري الحديدي، وبالقرب من محطة السكة الحديد راينا مجموعة من السجناء تفرغ، تحت حراسه الجنود، جذوع الاشجار من عريات السكة الحديد الكبيرة.. ومررنا بحى سكنى شييدت منازلها من الاخشاب وهي منازل صغيرة.. وكان يمكننا ايضاً ان نرى الاغنام وقد ربطت الى اوتادها بحبال طويلة.

نظرت الينا بعض النسوة، ثم اجفلن مذعورات.

اما المسنات منهن فقد رسمن علامة الصليب امام اعينهن... متعوزات والحزن مرسوم على اوجهن..

وعندما حاول بعض الاشخاص الاقتراب من طابورنا طرده الجنود.. فسلعوا بالنواير خلف الشجيرات القصيرة وهم يتابعون مسيرنا.. واخيراً وقعت ابصارنا على برج المراقبة المعهود «بتجنيك» والذي كان يشبه منزلاً للطير..

وهنا ايضاً يطلقون عليه نفس الاسم.

وعلى طول الحاجز الخشبي العالي مشينا مسافة كيلومترين.. الى ان وقفنا امام باب يريسك..

محطة وصول المعسكر.

على جانبي الطريق كان يقف رؤساء الحرس.. وبوليس المعسكر... وعلى بعد عدة امتار من الباب كانت هنالك منضدة جلس حولها موظفوا ادارة المعسكر.

واتيج لنا ان نرى ديقتن نائب مدير معسكر نورلسك

كان يراقب الافراد وهم يمررون بالمنضدة ويردون على الاسئلة. بعضنا حياه.. فرد هو التحية بلطف.

وعندما انتهت مهمة الاستلام وقفنا في خمسة صفوف يحيط بنا الحرس وبوليس السجن.. وتوجهنا الى عتبر المعسكر التي تبعد حوالى المائتى خطوة والتي كانت لها ثلاثة مداخل..

وكان دخولنا عبر المدخل الاوسط.. بنفس عدد صفوفنا.

دخلنا قاعة مربعة عرضها كطولها.. تحيط بجوانبها كنيات خشبية كثيرة.. ولم ار واحداً من اصدقائى القدامى انشغل الجميع بتنظيم مكان الرقاد. فرشنا المعاطف المحشودة.. وبدلاً عن الوسادة وضعنا الاكياس..

والتفتنا فجأة، فوجدنا ان باب العنبر قد قفل.

ازعجنا ذلك..

فهو يعنى ان شيئاً غير طيب يجرى اعداده.

وفي وقت الغداء فتحت ابواب العنبر.. وفي الفناء امام المدخل انتصب قدر به الحساء الساخن..

وتقدمنا نحوه نمسك بأنيتتنا.. فقام الطاهى صاحب المريلة البيضاء باعطاء كل منها ملء مغرفته حساءً لذيذاً.

وتمشينا امام المعسكر لبعض الوقت مستمتعين بشمس النهار الرائعة... وكان ذلك مسموحاً به..

ثم جاء رئيس الحرس وقال لنا..

ادخلوا العنبر لكي اقل علىكم الباب مرة اخرى..

لماذا نغلق علينا الباب؟..

وامر المدير...!!

وفي اليوم التالى طلبنا مقابلة مدير المعسكر..

وحضر ديفن وبصحبه رئيس المعسكر وبعض الضباط.

وفقرنا جميعاً من امكاننا.. وسرعان ما احكمنا الحصار حولهم، على شكل دائرة.. ثم تقدم برافسكى الذى كان رئيساً للسجناء وسال ديفن الذى كان يعرفه جيداً..

سيادة المدير، لماذا تغلقون علينا الابواب؟..

اعطيت تلك الاوامر حتى احميكم..

لا نفهم المراد من ذلك..

يوجد هنا كثير من المجرمين المؤبدين في انتظار ترحيلهم الى نورلسك ويمكنهم ان يؤذونك.

..نحن لا نخاف ونعرف كيف نحمل أنفسنا..
 ..ولكننا لن نسمح بحدوث مشاجرات دموية..
 ..على الرغم من ذلك فنحن نلج ونرجو إبقاء الأبواب مفتوحة..
 ..سأفكر في ذلك.. وسأرى ما يمكنني عمله..
 وفي اليوم التالي جاء ديفن الى عنبرنا..
 رجونا مرة أخرى ان يسمح لنا بحرية الحركة في الساحة فاعاد علينا بأنه مهتم بالا
 يحدث شيء غير مريح لانفس جديرين مثلنا..!!
 وصدقناه رغم كل شيء..
 وفي النهاية قال لنا..
 ..لن يغلقوا الابواب في النهار.. ولكني اطلب ان تتمشوا على طول العنبر فقط.
 ..نعدك بذلك..
 وبمجرد ان ذهب ديفن خرجنا للشمس والهواء الطلق..
 وفي الحال تقاطر علينا السجناء من العنابر الاخرى ليروا ذلك الحدث العجيب..
 كانت بعض الشائعات قد انتشرت بانهم يقودونا الى موسكو لمخفا اوسمة.. واطلاق
 سراحنا فقد قمنا ببناء مدينة نورسك..
 واكد آخرون دحض هذه الشائعات بانهم سمعوا ضابطاً كبيراً يقول.. اننا سنبنى
 مصنعاً كبيراً في كروسنويارسك..
 واطلق على مجموعتنا اسم هو «مهندساو المراحل»..
 المجرمون هنا وهم على علاقات طيبة مع الحرس، كانوا يتهبون القادمين الجدد حيث
 يصلوا الى جلودهم.. الاشياء المنهوبة يحملها رؤساء الحرس خارج المعسكر
 لتباع ويقسم ثمنها بينهم وبين المجرمين بل ان بعض الضباط يشتركون في ذلك..
 رايانا بعد ايام هجومهم على مجموعة من الشباب (اللاتونيين).. في مدخل
 العنبر وقبل حضور (اللاتونيين) اختبأ المجرمون تحت الكنبات.. وعندما داخل
 (اللاتونيين) الى العنبر وضعوا حراسة امام باب العنبر تحسباً منهم لهجوم متوقع وما ان
 استقر بهم الحال حتى خرج عليهم المجرمون وبدأوا في نهبهم.. ودارت معركة رهيبه..
 دافع الشباب (اللاتوني) بفواح الخشب التي انتزعها من الكنبات وضربوا المجرمين
 ضرباً مبرحاً لا مزيد عليه.. ونسرعان ما رايانا طلائع المجرمين تفر هاربة للخارج برؤوس
 دامية جريحة..
 وهرع بوليس المعسكر والحرس لانتقال بقية المجرمين الذين احكم عليهم الشباب
 (اللاتوني) الحصار..
 وبعد تلك الحادثة ساد الهدوء اجواء المعسكر لعدة ايام. جيراننا في نفس العنبر
 كانوا من المجرمين الذين جاءوا حديثاً.. وبمجرد وصولهم بدأوا في السرقة والنهب.. ولم
 يكونوا قد انضموا بعد للعصابة التي وثقت علاقتها مع ادارة السجن.. وعليه فقد تم
 ضبط الاشياء -سروقة وهي لا زالت بحوزتهم-

معظم السجناء كانوا من قبل في المعسكر..
لم يتمتعوا بالعفو الانساني الذي منحه ستالين بعد الحرب للمجرمين. فبدأوا مرة
اخرى في السرقة والنهب والقتل.
لذلك صدرت ضدهم احكام جديدة بلغت الخمسة والعشرين عاماً، مع الاشغال الشاقة.
لم يكونوا مدانين لستالين بشيء..
كانوا يصبون عليه الفاظاً جارحة لم اسمع افزع منها في حياتي. وغالباً ما كانوا
يسمونهم.. قوتالنسجك ماسح الاحذية.
لان ماسحى الاحذية في مدن روسيا الكبرى كانوا من قروزيا او من الارمن وكانوا يقولون
دائماً ..
-قريباً سنأتي نهاية ماسح الاحذية.
كان المجرمون يطلبون منا بلا انقطاع ان نعطيهم الدخان والاكل.

فرانيسي بتيت وآخرين

وجاء الينا بعض النمساويين الذين كانوا ينتظرون الترحيل الى نورسك. واسعدنى كثيراً ان استمع الى اخبار الجديدة عن النمسا وفيينا. وعندما كنا نقف امام العنبر حدثناهم عن نورسك.. وعن الاشياء التى تنتظرهم هناك.. حدثونا هم كيف القى عليهم القبض وكيف حوكموا.. كل الذين قابلتهم كان معتقلين فى المنطقة الروسية بالنمسا.. وذلك عند وصولهم الى الجزء الذى يحتله الحلفاء..

وكان الروس حريصين، فالقوا القبض على كل من اتى من المنطقة الغربية الى الشرقية. اتهموهم بالجنسية لصلح امريكا.. وحكموهم بخمسة وعشرين عاماً اشغالاً شاقة فى المعسكر..

كان معظمهم من الشباب.. كان بعضهم برئياً بحق.. وبعضهم كان على اتصال بالمخابرات الامريكية (اى. جى. اس) .. مثل قراش.. لنزا.. وسالسبورج. حاولت جاهداً التخفيف عنهم.. اعطيناهم الاكل.. وزرعنا فى نفوسهم الامل بسرعة العودة الى افاق حرياتهم.. وهم بالمقابل غنوا لنا احدث اغنيات فينا.. بعد ايام، وصلت من نورسك مجموعة المعوقين الذين نقلوا الينا خبر موت القاضي الدموى قورهوق غرقاً فى نهر الينسى.. هو ومعه رجل آخر.. واطربتنا تلك الاخبار. وذات يوم وانا اجلس تحت الشمس بعد الافطار، اقترب منى رجل ضعيف متوسط الطول، يلبس نظارة.. كان قد وقف يراقبنى وانا اكل بحزن وحسرة.. ومن بنظله الممزق.. ومن هيئته الغربية لم يكن صعباً على ان اخمن انه المنفى او نمساوى.

قلت له برقة..

- اقرب..

وتمتم باستغراب شديد..

- انت تتكلم الالمانية؟..

- انا نمساوى..

- غير ممكن..

- لماذا لا يكون ممكناً؟.. هل تعتقد بانك الاجنبى الوحيد فى سيبيريا؟..

- لا بالطبع.. يوجد كثيرون غيرى..

- اجلس.. امامك وقت طويل..

- يا الهى.. الوقت هنا كثير..

قالها وجلس.. فاعطيته جزءاً من الخبز المتبقى معى.. ولكنه نظر اليه محرجاً وقال بحزن.. وارتيك..

- هذا؟.. لا.. لا..

- كل.. ولكن بدون رسميات..
وعندما اكل.. مد لي يده مصافحاً وهو يقدم نفسه..
- دكتور بيرلمان من شتوتغارت..
وذكرت له اسمي انا ايضاً.. فسألني..
- منذ متى وانت هنا؟..
- منذ وقت طويل.. طويل جداً..
- ما هي المدة بالضبط؟..
- اثنتا عشر سنة..
وبدا عليه انه اجفل فزعاً..
- ماذا؟ اثنتا عشر سنة؟..
- نعم..
- كل تلك السنين في المعسكر؟..
- يبدو رجوع هذا الكلام غريباً وغير مألوف.. واين كنت؟..
- كنت هناك، حيث المكان الذي سترحلون اليه..
وبدا بيرلمان يسألني عن نورلوك.. وحدثته انا بالذى ظلمت عنه والوكه كثيراً..
وبعد ذلك ذهبت الى العنبر ومن الكيس اخرجت بعض الخبز الجاف واحضرته له...
وبدا عليه الاستغراب الشديد.. ولم يستطع ان يصدق ان هناك من الناس من هو غير جائع.. ومن يقدم خبزه للآخرين.. وسألته..
- كيف وصلت الى المعسكر؟..
- كنت اعمل في الجيش الألماني.. وقريباً من نهاية الحرب وقعت اسيراً بين ايدي الروس.. وفي معسكر اسرى الحرب عملت طبيباً.. وكان من عادتي ان اسجل في مفكرتي كل اسماء اسرى الحرب الذين ملأوا في المعسكر.. حتى اخبر اقاربهم وذويهم عند عودتي الى البلاد بمصيرهم.. وعند تفتش عثر ال نك ق د على المفكرة وبها اسماء الموتى وأعلن عني كجاسوس.. فقدمت للمحكمة العسكرية وحكم علي بخمسة وعشرين عاماً.

في تلك الفترة درج بيرلمان ومعه احد الألمان على زيارتي.. وكان عنبرنا مثيراً جداً فنحن الذين لم تكن نشكو الجوع مثل غيرنا.. وقدمنا الطعام للآخرين.
وكان بيرلمان مسروراً من اكل المعسكر.
وعندما يلقاني في المعسكر بعد الوجبات كان يسألني..
- هل تناولت غداك؟..
ولا ينتظر جوابي، بل يضيف بسعادة كبيرة..
- اليوم الحساء ألهي.. تصور به قطعة لحم كبيرة.
وعندما حضر الى مرة اخرى وذكر لي موضوع الحساء الرائع، دعوته الى العنبر

واعطيته اناءً به حوالى ثلاثة لترات من ذلك الحساء (الرائع) .. ولما اكل حتى اتى على ثلاثة ارباع ما فى الاناء، وضعه وهو يقول ..

- اكثر من ذلك.. لا يمكن..

- لماذا؟..

- اقول لك.. عندما يكون الانسان شبعاناً.. تلاحظ كيف يدلق الطعام بلا قصد...!

وسرت جداً لانه اخيراً اعلن الشيع ..

ويعد مضى وقت قليل تم ترحيله.. ولم اره بعد ذلك ابداً..

وذات يوم اقترب منى رجل قصير القامة، اسود الشعر، وسألنى شيئاً بالالمانية.. ومن

طريقة نطقه لها كان يسيراً على ان ادرك انه ليس المانياً..

ولم ارد ان اكثر من سؤاله..

لانه حدثنى ما اردت اسمع ما لم ارد ان اسمع..

اسمه فرنسيس بتيت..

كان كابتناً فى الجيش الفرنسى.. وحتى ذلك الوقت لم اقبل كثيرين من الفرنسيين..

ولذلك اثار بتيت اهتمامى اكثر من الآخرين.

وبعد محادثة دامت حوالى الريع ساعة.. اوضح لى فيها انه اشترك مع حركة المقاومة

الفرنسية.. وفى عام ١٩٤٨ القى عليه الروس القبض بمدينة بوستدام.. وحوكم بخمسة

وعشرين عاماً والتهمة هى الجسوسية.. وانه ينتظر الآن الترحيل الى نورلنك.

وفى نفس اليوم، اتلنى بتيت وطلب منى ان نتحدث على انفراد وجهاً لوجه..

واندسنا فى ركن من اركان الساحة.. وكان اهتمام بتيت منصباً على نوع الحياة فى

نورلنك.. فحدثته باختصار عن الاشياء التى عشتها هناك..

- هل هناك امكانيات للهروب من نورلنك؟..

وفلجاني السؤال المبالغ، فاجفلت.. هل يفكر هذا البائس جديداً فى الهرب؟..

وانتظر هو اجابتي وعيناه متعلقتان بشفتى.. ولكنى لزممت الصمت.. وحتى اكسب وقتاً

اطول للتفكير سألته عن اشياء اخرى لا علاقة لها بهذا الامر.. من المحتمل ان يكون

عميلاً لـ ك. ن. ق. د... ولكن هل يعقل ان يرسل ال ن. ق. د لامثالى من المجرمين العتاة

امثال مؤلاء القاديين الجدد السذج؟..

وكان يبدو رجلاً بريئاً.. كامثال الكثيرين الذين لم يعرفوا شيئاً عن روسيا.. عن

المسافات الهائلة الشاسعة التى لا تقاس بالكيلو مترات.. عن السكان.. عن ال ن. ك. ق. د.

عن الحياة فى المعسكرات كمعظم الوافدين الجدد الذين وصلوا الى روسيا.. وهم

يحملون الاعتقادات الاوربية عن هذه البلاد.. ستكون الافكار هى بداية مأساتهم..

وسألته..

- هل تعلم الى اين يقودونك؟..

- الى نورلنك..

- واضح.. من هذه المحطة المرحلية ستتحركون الى نورلنك ولكن ذلك لا يثبت

شئياً.. يجب أن تعلم أنك ستكون على بعد ألفين كيلومترات من أقرب خط للسكة الحديد.. ستذهب إلى معسكر محاط بصوف عديدة من الأسلاك الشائكة.. منعزل عن العالم.. وسط صحراء لا نهاية من الثلوج والرياح الجليدية القاسية.. وفي هذا المعسكر ستكون تحت الرقابة الصارمة الدائمة من رئيس الحرس، وبوليس المعسكر ورئيس العمال ومسالك.. ويكفى أن تتأخر لحظة عن موعد توزيع الطعام حتى ينشطون في البحث عنك..!

..وماذا عن الليل؟..

..حكاية الليل والنهار هذه لا قيمة لها هناك..

..واستغرب بتيت جداً..

..كيف ذلك؟.. النهار نهار.. والليل ليل..

..أسمع جيداً.. وفي نورسك أربعة أشهر السنة نهار دائم..... وأربعة أشهر أخرى ليل دائم..

..وصمت بتيت.. مبهوراً..

لم ارد بالطبع ان انبسط همته.. ولكن كان على ان اقول له ذلك..

خيل لي بالطبع انه مستعد لارتكاب اشياء جنونية، لانه لم يكن يعرف حقيقة موقفه جيداً..

وكل الذي أخبرته لا بد ان يكون قد قلب خططه عن نورسك رأساً على عقب..

وسألني..

..كيف الامر في وقت العمل؟.. الا يمكن الهروب من مكان العمل؟.. ووجدت صعوبة كبيرة

وانا اوضح له بان كل خططه عديمة الجدوى.. ويبدو انني لم انجح تماماً في ابعاد فكرة

الهروب عن ذهنه.. لانه كان لا يفتأ يسألني من جديد محاولاً ان يثبت وجود امكانية

الهروب.. وبعدها حدثني بتيت عن منظمة سرية تعمل باسم «كروزلر» (الصليب). وهي

منتشرة في انحاء العالم.. حتى في أرجاء روسيا السوفيتية.. ووضح لي كيف يمكن التعرف

على اعضائها.. ففي اثناء الحديث مع رجل غير معروف، عليك ان تحدث إشارة بقدمك

على شكل صليبين اثنين... شيئاً يشبه الصليب المعكوف مثلاً.. وعندما يرى الرجل ذلك

سوف يتعرف اليك.. ويعلن عضويته للمنظمة..

واستمعت الى هذه القصة الطريفة.. وسألته..

..هل تعتقد ان في نورسك أناساً مستعدون لمساعدتك على الهروب؟.. ولنفرض أنك

خرجت من المعسكر دون ان يلاحظك احد.. ماذا بعد؟..

..سأحاول جاهداً الوصول الى خط السكة الحديد لموسكو.. وهناك في موسكو سوف

اذهب للسفارة الفرنسية.. وسيكون كل شيء على ما يرام..

..هذا الذي تحدث عنه مجرد احلام طفولية..

..كيف؟..

..انصحك بشيء واحد هو.. الا تلعب بحياتك.. فمن المحتمل ان يتحسن موقفك مع

الزمن.. ولكن الخطط التي تجول برأسك ستوردك موارد التهلكة دون شك..
ولاحظت كيف أصيب الرجل بخيبة أمل قاسية بمجرد أن حدثته بذلك.. وتقابلنا بعدها
عدة مرات.. ولكنه لم يحدثنى أبداً عن الهرب.. وبعد سنوات في تايشت.. وفي معسكر
مخصوص قابلت بعض الألمان الذين كانوا في نورلسك مع بتيت، وقد حدثوني أن بتيت
استطاع أن يفتن آخرين بالفكره..
وحاول أن يحقق خططه في الهروب..
فانصل بعقيد كان متحالفاً مع بعض الجنود السجناء المقيمين.. وكان بتيت يتحدث
بضع كلمات روسية.

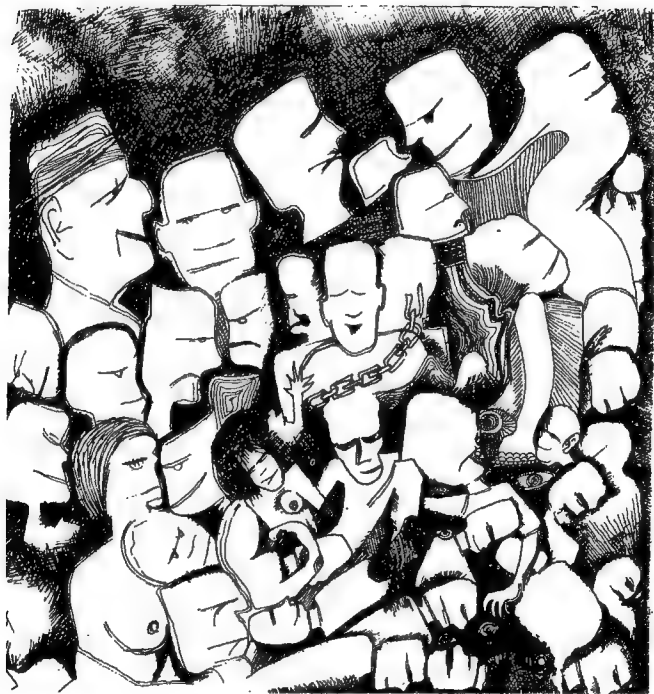
واكملوا خططهم وشرعوا في تنفيذ عملية الهروب..
وبالمطبع اكتشفهم ال ن. ك. في د.. وبعد عدة شهور في سجن التحقيق وعلى ذمته
حوكموا بالإعدام.. بتهمة الإعداد لانتفاضة..
ولم ينفذ حكم الإعدام على بتيت.. ويبدو أن الحكومة الفرنسية قد تدخلت وانقذ
بتيت.. واطلق سراحه.. وهو يعيش الآن في بلاده..
واقمنا شهراً كاملاً في محطة الانتظار.. وشارفت اقامتنا على النهاية. في أكتوبر عادة يصل
آخر ترحيل من كرسنويارسك الى نورلسك.. ولا يصلح بعدها نهر الينسي للملاحة..
ووسيلة المواصلات الوحيدة تصبح هي الطائرة.. ولا تستعمل لترحيل السجناء الا في
الحالات النادرة جداً.

لعمن طائرة.. كانت تملكها ادارة نورلسك.. وكلفت على الدوام مشغولة بنقل البوستة
والموظفين المسافرين في ماموريات رسمية او حتى شخصية. عودتنا الإقامة تلك على
الراحة واحسبنا كأننا في منازلنا.. بعضنا استطاع أن يوثق علاقته مع رؤساء الحرس
المرتشين.. فاحضرت لنا سلاؤهم الطعام والخضروات الطازجة.. والتي لم نستطع أن
نتنسم ريحها أو طعمها في نورلسك.. ومن كان يملك منا ثقوداً استطاع الحصول على
الفودكا أيضاً.. وعدنا يوماً بعد جولة شراء الحاجيات لنجد أن جيراننا في العنبر الآخر
أحدثوا فجوة في الجدار وبدأوا في عملية نهينا.. ولكننا وصلنا في الوقت المناسب.

في منتصف أكتوبر رحلوا المجموعة الاولى وهي تتكون من خمسة وعشرين رجلاً..
ولم تكن متاكدين أننا سنلتقى مرة أخرى.. فودعناهم بحرارة شديدة..
حاولنا جاهدين معرفة اتجاه الرحلة ولكننا لم نوفق الى معرفة شيء.. كان المؤشر
الوحيد هو أن القطار الذي سافروا عليه اتجه الى اقصى الشمال.. وذلك بتضارب مع
الافتراض بأنهم سيرحلون الى أركييتسك لا الى القفقاز..
وبدأت السفريات تتوالى.

بعد الظهر يأتي موظفوا ادارة المعسكر فينادون أسماء الخمسة والعشرين الذين
وقع عليهم الدور بالاستعداد للسفر في العشرة مساءً واتي دوري في المجموعة
الخامسة.

والمعتاد استعملنا زاداً يكفي لمدة يومين.. وعلى غير توقع منا حصلنا بدلاً عن السمك



المملوح على لحم.. اصاب كل واحد منا ربع كيلو من لحم الضأن المطبوخ..
وعند الباب رافقنا الجنود المسلحون.. وبوليس ال ن. ك. ق. د ومعهم الكلاب
البوليسية.. وبخطوات سريعة تشبه الهرولة اتجهنا نحو محطة السكة الحديد..
وخاف الجنود ان يفوتنا القطار فجرينا وطاربتنا الكلاب وهي تنبح بجنون مثير.. وتعض
الكثيرون في جذوع الاشجار المقطوعة وسقطوا على الارض فوثبت عليهم الكلاب..
وسبنا الجنود وشموننا باقذع الالفاظ.... وعندما كنا على بعد عشرة امتار من المحطة
رأينا القطار يتحرك.. وانهمرت الاساءات..
- فانشست - تروتسكيون.. عاهرات.. الخ.. الخ..
وقد رافقنا هذه الاسطوانة ايضاً في طريق العودة.. وكنا اكثر سعادة - عندما وجدنا
انفسنا مرة اخرى في محطة الانتظار. وفي صبيحة اليوم التالي تكررت الاغنية ذاتها..
بخطوات سريعة اتجهنا نحو المحطة.. ولم تكن هناك خطورة ما.. في ان يفوتنا القطار
ايضاً..
فقد اتى بنا الحرس هذه المرة قبل ساعة كاملة من قيام القطار.. وبمشقة شديدة شققنا
طريقنا في مر السجن الذي يسير على عجلات... اعنى العربية المخصصة لنا في القطار.
وبمجرد ان صعدنا على السلالم بدا الحرس في دفعنا وسبنا لان الاشياء التي كنا نحملها
لم تعجبهم..
كل زنانات القطار ممتلئة..
ووقفنا في المر طويلا حتى انهى الحراس عملية حشرنا في مجموعات داخل السجن
المتحرك الكثيب..

سجن الانتظار على عجالات.. «ستولين»

الانسان الذى يجىء لأول مرة الى روسيا ويركب القطار، لن يدور بخلده انه وعلى نفس القطار يسافر فيه توجد اقسام كاملة من سجون ال ن. ك. ق. د ملحقة بالقطار.. ومن الخارج تبدو لا فرق بينها وبين العربات الاخرى.. فقط يكفي ان تصعد على السلم وتلقى نظرة الى الداخل حتى يشعرك بدئك.. فى البدء يرى الانسان زياً رسمياً ومعه طاقية على شكل صحن محاطة بحافة كحلية اللون او حمراء قاذية.. هؤلاء هم المعتدون الذين يعرفهم فقط سجناء ال ن. ك. ق. د...

على طول هذه العربات يمتد ممر طويل على كل جانب فيه تقع عشر زنزانات.. فى كل زنزانة منها ثمان خانات لثمانية سجناء.... وبعضها تتسع ستة عشرة سجيناً.. وهم يضعون الان، فى الصغيرة الثنتى عشرة سجيناً بدلا عن ثمانية وفى الكبيرة ثلاثين سجيناً بدلا عن ستة عشرة سجيناً..

وهى اسوأ حالا واشد تكلالا من زنزانة الحبس الانفرادى التاديبية (كارس).. لا توجد بها نوافذ قط.. ويصل اليها الضوء عبر الممر.. وهذه العربات استخدمها لنقل السجناء رئيس وزراء روسيا القيصريه - (ستولين) فاطلق عليها اسمه.

حشرونا نحن الخمسة والعشرين فى احدى تلك الزنزانات.. كان الجنود فى منتهى القسوة.. دفعونا بارجلهم وايديهم..... ليحبسونا على ان نحشر فى بعض.. ولم يكن يهمهم كيف نتحمل هذا فى رحلة طولها ستمائة كيلومتر.. فقط امرونا بالصمت.. قفلوا علينا الباب.. فوقفنا ثم جلسنا على بعضنا البعض.. وبمرور الزمن تعودنا على ذلك الوضع.. بعضنا تسلق الى الكنية الثانية.. والثالثة حيث يمكن الرقود.. وبعضنا اتخذ لنفسه مكاناً تحت الكنبات وجلست الاغلبية على الارض.. حوائط وارضية الزنزانة مكسوة بالصفيح السميك.

وعلى الرغم من كل ذلك التكدس والزحام فقد كانت باردة جداً.... وبمجرد ان تحرك القطار سمعنا طرقاتاً يأتى من حائط الزنزانة المجاورة وسال الجندى الذى يقف بالممر.. لماذا تخبط...؟..

اجاب احدهم..

- اطلق سراحنا لدورة المياه..

- قلت لكم من قبل بان سيكون لمرة فى اليوم.

- ولكن ماذا تفعل الان...؟..

ومن الزنزانة الثالثة تعالى صوت نسائى يستعطف..

- دعنا نذهب لدورة المياه..

- اقلل فمك أيتها العاهرة.. لقد قلت من انه بين.. ولا دورة مياه فيه.

وتعالى صوت المرأة بالبكاء هذه المرة..

- من فضلك دعنى اذهب.. لن اجتمل..

- أخريى..
ونسبة لبرودة الطقس فقد أحس الكثيرون بالامتلاء وبأنه لا بد من دورة المياه..
أحدهم لم يستطيع أن يحتمل أكثر فأتجه نحو الباب وقال للجندى..
- اسمع يجب أن أخرج حالا..
وصعق الجندى غضباً به..
- أيها الكلب.. ماذا تقم نفسك.. دخلت الآن وتريد الخروج الآن.. هناك في هذا القطر
من ظلوا خمسة أيام.. وحتى يأتي دورهم وهم عليك أن تصمت أيها الكلب..
وخرس الجميع مذهولين..
= خمسة أيام..؟ يا للهول..!! =
ولم يعد أحد يطرق الباب..
ومن زنزانة بعيدة تعالى صوت يصيح..
- وعدتونا بالماء.. أعطونا الماء..
- آى ماء..؟..
- أنا ظامى.. بعد أكل السمك المملح حتى انى لا أستطيع الاحتمال..
- أقفل فمك.. لأنى سوف أخرجك.. وأملك بالماء حتى يسيل منك فتنسى كل شيء..
وهنا بدأ الجميع يصيحون مرة واحدة..
- ماء.. ماء.. أعطونا الماء.. أعطونا الماء..
وهرع الضابط..
- ما هذه الضجة التى تحدثون..؟ هل تريدون أن أرميكم فى السلاسل..؟
- نحن عطشى أعطونا الماء..
- سنحضر لكم الماء فى المحطة القادمة..
وبدا آخرون يصيحون عندما سمعوا كلمات الضابط..
- دعونا نذهب لدورات المياه..
- أحفظوا السننكم خلف أسنانكم.. فى الصباح سنقودكم الى هناك..
وفى إحدى الزنزانات سمع صوت أحدهم وهو يقضى الحاجة على أرضية الزنزانة..
وفى زنزانة أخرى سمع صوت أحدهم أن يتبول من خلال فتحة صغيرة فى الباب.. ولكن كانت
الفتحة ضيقة فتناثر البول وبقي معظمه فى الزنزانة..
الذين كانوا يجلسون على الأرض أخذوا فى السباب..
فى آخر الليل وقف القطر بأحدى المحطات..
وأحضر الجنود الماء.. ذهبوا به من زنزانة الى أخرى.. مدوا لكل واحد نصف كوب منه..
وفى الرابعة صباحاً بدأوا يفتحون أبواب الزنزانات ويسمحون للسجناء بالذهاب
الى المرحاض الذى كان فى ركن الممر..
كان يجب الذهاب الى هناك بخطوات سريعة واليدان على الظهر..
وأمتلا الممر بصياح الجنود..

- يداك الى الخلف..

- يداك الى الخلف..

وامام المرحاض وقف جندي يصيح..

- بسرعة.. بسرعة.. السى متى ستجلس..؟.

وطلبت النساء من الجندي ان يبتعد قليلا.. وكان ينظر اليهن باحتقار قائلاً..

- انظروا الى هذه العذراء.. الم ترفعى ثيابك امام رجل ابداً..؟.

أركتسك . مدينة . في أقصى الشرق

وصلنا الى أركتسك..

أخرجونا نحن الخمسة والعشرين اول من اخرجوا..

وبمجرد خروجنا وقعت اعيتنا على الغراب الاسود.. (جورنى قورون) وهو الاسم الذى اطلقناه على عربة نقل السجناء

دخلنا الى العربة ودخل معنا جنديان وضابط..

ومرّ الغراب الاسود خلال المدينة.. فنظرنا بفضول شديد من خلال النوافذ الصغيرة للشوارع غير المعروفة أو المألوفة لنا.. بمدينة أركتسك في شرق سيبيريا.

راينا بنايات خشبية ذات طابق واحد وطابقين.. ثم راينا في الوسط مبان من الحجر والطوب.. وفي الشوارع مر الترام بعربات صغيرة.. وكانت هناك بعض الباصات أيضاً.

وفي نهاية المدينة كانت تقف مبانى محطة الانتظار..

دلفت العربة الى ساحة.. ونزلنا منها..

جلسنا على حاجياتنا.. وتلفتنا حولنا ننظر وننامل.. راينا في الساحة رجالاً ونساءً.. على ايديهم اليسرى شرائط صفراء مكتوب عليه كلمة (مسجون).. واستغربنا عدم سؤالهم

لنا.. وكأننا لم نلتفت انظرهم...

مروا امامنا ولم ينظروا الينا.

وجلسنا في الساحة لساعات عديدة..

وكان الحراس يفتحون ابواباً كثيرة لدخول الشاحنات الفارغة..

كان السائقون والركاب يحملون نفس الشرائط الصفراء.

واخيراً قادونا الى الحمامات التى كانت تقع في ركن قصى من الساحة الكبيرة.

وبالقرب من كم اربع بنايات بالطوب الاحمر كان السجن..

وقفت الى جانبه ايضاً بناية من طابقين بها الحمامات في منتصفها وعلى طول حوائطها مقاعد خشبية طويلة..

ومن قاعة أخرى خرجت مجموعة من النساء وجهن الينا التحية..

- نهاركم سعيد يارجال...

وكنا في اشد الدهشة لرؤية النساء.. وزادت دهشتنا حينما قلن لنا...

- يجب تعليق كل ملابسكم على الحائط.. وستمرون على قسم الحجر الصحى لتعليق الملابس.

كان رئيسة العمال في الخامسة والعشرين من عمرها مثلثة الجسد سوداء الشعر..

اما الفتيات الاخريات فكن يلبسن قمصناً ذات اكمام قصيرة وعلى ايديهن اليسرى نفس الشريط المكتوب عليه «سجينة».. اما على صدورهن فتعلقت التنانير الطويلة وتدلّت حتى منطقة الركبة.. وفي الاقدام ادخلن شبشب ذات سيور.

ثم ادخلونا الى القاعات في مجموعات قوام كل منها عشرة افراد.. وكانت النساء في

انتظرونا..

وقفت عارياً تماماً امامهن.. واصابني كسوف شديد ولم اجرؤ على التقدم.

وصاحت احداهن بضيق..

- اسرع.. اسرع ليس لدينا وقت..

ولوحث لى بيدها التى تضعها على ماكينة الحلاقة ضغطت على اسنانى، وتقدمت وانا

ارتجف..

اجلس..

وجلست على الكنبة.. فمرت الفتاة بماكينة الحلاقة نمرة واحدة على شعرى..

وتساقط الشعر على منكبى غزيراً مليداً.. وعندما انجزت الراس رفعت يدى اليسرى

وحلقت شعر ابطى.. ثم فعلت نفس الشيء بالابط الايمن.. واخيراً اهضمتنى وبدات

تحلق شعر العانة. وحتى تقوم بمهمتها على خير وجه قبضت على عضوى التناسل

وادارته فى كل الاتجاهات.. وهى تعلق تعليقات غريبة..

ثم سالتنى فجأة -

- كم من من الزمن لم تضلج امرأة..؟

احمر وجهى لدى سماعى ذلك واصابنى الصمت فلم احر جواباً..

وعندما انتهت الحلاقة دفعتنى الى مكان الاغتسال..

امام الباب كانت تقف احدى النساء ايضاً.. اعطت كلاماً مناً اناءً من الصفيح وصابونة..

فاغتسلنا وعدنا الى نفس القاعة التى تركنا بها ملابسنا.. وكانت قد اختلطت مع غيرها

ولكنها.. غلست جيداً.. وبصعوبة وجدت ما يخصنى.. وكانت الملابس ملتصبة من

سخانة التعقيم حتى انى لم استطيع ان امسكها بيدي.

قادنا رئيس الحرس بعد هذه المراسيم الاحتفالية للحمام الى مبنى ذى ثلاثة طوابق..

وكانت علينا ان ننتظر امام الباب ذى القضبان الحديدية.. وقال لنا رئيس الحرس..

- قفوا فى صف من اربعة وستة..

كان بإمكان كل واحد منا ان يختار بمزاجه الخاص رفقاءه الذى سيشاركونه السكن

فى نفس الزنزانة.. وكان ذلك غريباً لان ادارة كل السجون السابقة كانت هى التى تفضل

هذا.

ومن اهم الاشياء لدى السجين، من هو الذى سيشاركه العنبر.... فهناك من يحيلون

الحياة الى جحيم بوجودهم معنا فى دائرة واحدة.

ومع ثلاثة آخرين وضعت فى زنزانة فى الاصل معدة لتكون مقراً لسجين واحد.

هذا السجن المرحلى فى اركتسك يختلف كثيراً عن كل السجون الاخرى التى رايتها..

ظروف الحياة هنا كانت تلائم البشر.. لاول مرة علمت ان الموظفين بإدارة السجن يمكن

ان يردوا على اسئلة المسجونين بالذوق والانسانية.. لم تكن هناك اساءات او اهانات

او تجريحات.

المجرمون استغلوا هذا الوضع فعمدوا الى طلب اشياء غير معقولة كان الغرض منها هو تعذيب العاملين.

ومن خلال النافذة استطلعت سماع المجرمين وهم يتبادلون الاساءات والشتائم كانوا يتهمون بعضهم بعضاً بالخيانة.

ثم يطلقون كلمات نابية جارحة.. لا مفر من سماعها الا اذا اغلقنا آذاننا كل هناك قسم خاص للمجرمين الاحداث..

وكان من المحزن سماع اصوات الاطفال.. وهم يتبادلون لغة لا ينطقها الا ابناء العالم السفلى المهين.

وكان احاديث اولئك الاطفال تدور عن قصص «الحب» التي تقع بين الفتيان والفتيان السجينات في الطابق الاسفل.

ومن الصباح الى المساء يجلسون على النوافذ يذفون آذان بعضهم بالالفاظ النابية التي يندى لها جبين الكبار خجلاً..

وتلك الالفاظ نفسها غير مقبولة ولا مهضومة وهي في افواه الكبار فكيف بها تصبح لغة في افواه هؤلاء الاحداث اليافعين..؟

شيء يؤرث نيران الالم في النفوس والقلوب.

ومع اطفال مثل اولئك كان يمكن ان تحدث المأساة.

ومضى علينا اسبوع ونحن في السجن.. لم نعلم الى اى مكان سرحلوننا.. فصبرنا وأعصمنا بالصمت..

ثم علمنا فجأة باننا قد نرحل في اى وقت الى سجن السكندروسكى وكان لهذا السجن في تاريخ روسيا سمعة سيئة جداً..

فلم يرد احد منا ان يصدق باننا وقد قضينا كل تلك الاعوام واوشكنا ان ننهي فترات عقوبتنا - نسبياً - سنرمى الى هناك...!

ولكن هناك شيء واحد كان مؤكداً..

- اننا لن نبقى طويلاً هنا..

ومن خلال احاديثنا مع العاملين وقدامى السجناء علمنا، ان المجرمين فقط الذين حوكموا باقل من خمس سنين، هم قاطنوا هذا السجن السعيد وانتظرونا ساعة الرحيل.. بفارغ الصبر..

الظروف هنا محتملة جداً.. ورغم ذلك كانت تنقصنا بعض الاشياء، التي نعتقد انها من حقنا.

أكثر شيء فقدناه هو الكتاب.. ولم نتمكن من الكتابة الى ذوينا.. ولم يسمح لنا بالتمشي.. وعندما طالبنا به، امرونا ان نصبر..

وقبل ان يتحقق ذلك، قادونا احد ايام الاثنين الى بنلية اخرى، وفي قاعة كبرى تسع خمسين شخصاً قابلنا بعض الزملاء..

وبعد الرسمية المعهودة ذهبوا بنا الى نفس السلحة التي انتظرنا فيها طويلا عند قدومنا..

وهناك كانت بانتظارنا اول مفاجاة من نوعها..

امام ثلاث شلحانات وقفت مجموعة من الجنود على راسها ضابط..

تكونت امام احد الجنود كمية من السلاسل والقيود..

ثم صعد الضابط وجندين على احدى الشلحانات..

ونادوا علينا اثنين اثنين.. وعند صعود اول اثنين اخذ الضابط قيديا وقيدهما معا..

واصبحا لا يتحركان الا معا ولا يجلسان الا معا...

فجلسنا على ارضية الشلحة.

ونظرنا الى هذا الامر..

بداية جميلة ولا شك..

وعند دور الاثنين التاليين سال احدهما الضابط..

- لماذا تقيدوننا ؟..

ولم يجب الضابط.. وكأنه لم يسمع السؤال.

وقال سجين آخر..

- انا في السجن قبل خمسة عشر عاماً ولم افكر في الهروب ولا انوى الآن..

وقال الضابط..

- انا انفذ الاوامر التي تلقيتها.

هذه القيود ماذا بعدها ؟.. انها مقدمة لاشياء واشياء.. ولم اكن افكر الا في الاعوام

التي قضيتها من عمرى بنوراسك.. ولماذا تحملت تلك الحياة ؟..

ولم اعد اهتم بما سيحدث.. ليكن ما يكون..

وخرجت الشلحانة من سلحة السجن.. ولم تسر بالسرعة المطلوبة.... ونظرنا هنا..

وهناك.. بلا مبالاة.. حتى الحرس ما كان يهتم ان نرى شىء.. ما تضليقوا من حديثنا

الى بعضنا باصوات خفيفة.

اما ضواحي اركتسك فما كان فيها جديد او مثير..

مبان خشبية ذات طابق او طابقين لا تتميز بشىء خاص ابداً. نفس الاخشاب المنحوتة

من جذوع الاشجار..

السقوف المثلثة.. الحشائش المحشوة بين الفجوات لتمنع الرياح.. كل شىء كما هو في

الامكن الاخرى من سييريا.

النشء المثير فقط هو الكوبرى الكبير على نهر انقارا..

كوبرى متعرج..

تسير عليه القطارات والبصات والمشاة..

عبرنا بنفس سرعتنا..

ثم اتجهت بنا الشلحانات الى اليمين..

فوجدنا انفسنا في شارع قروي قصدنا منه الى جهة الشرق. وكان سيرنا طويلا.. مئات
الكيلومترات عبرنا خلالها عدداً قليلا من القرى..
الشيء المدهش انها كان سكتة وخالية كان ساكنيها هم الاموات...!!..
ثم رأينا بعض الرجال والحيوانات المنزلية..
وفي بعض الاحيان كان يهب نحو الشاحنات كلب شرس يجرى خلفها وهو يعوى
وينبح..

في سجن الكسندروفسك المركزي في الحجرات التاريخية المنيرة الصامدة

ارخي الليل سدوله ونحن ما زلنا نسير..
كانت بعض الاضواء الخافتة تتراءى خلال المنازل القريبة من الطريق..
لم تكن اضاءة كهربائية..
الكهرباء راينها فقط في معسكرين مررنا بهما..
في آخر الليل وصلنا الي مبتغانا..
وقفز الجنود من الشاحنات..
لاحقت مبنى طويلا من طابقين يشبه الاستراحة الروسية.. به خطوط طويلة علي
اضلاع البناء.. اما الابواب فتحتت فيها بعض الزيتة والزخارف..
الانوار الكهربائية سطعت من كل مكان فلحالت الليل نهلا..
لا شيء يوحى باننا نفق امام سجن..
في العتمة التي اغرقت المكان لم نر ما يحيط به..
في الاتجاه المعاكس للمبنى بضعة منازل خشبية محاطة بحدائق صغيرة وغرق كل ذلك
في جليد عميق..
ثم ظهر ضابط علي الباب المضاء.. وامر بك قيودنا..
وادخلنا فرادى من خلال الباب فاستلمنا رئيس الحرس وقادنا الي قاعة كبيرة..
نحن الان في سجن الكسندروفسك المركزي.. او كما يسمى السجن القديم.. من قرون
وقرون..
علي خلاف ما يبدو من الخارج كان منظر السجن من الداخل شبيه بتلك الصور التي
رسمها لنا الادب الروسي الجليل.. وبالاخص ما جاء في روايات دستويفسكى الذي قضى
هنا سنوات طويلة..
الحجرات الضخمة التي يبلغ سمكها مترا.. الممرات الطويلة المظلمة التي كانت تقود
الي الهلاك..
البابان الحديديان الثقيلان المغلقان باقفال عديدة ضخمة تشير بانه لا عودة من هنا..
فاحسنا هجاة ونحن نرى ذلك بالرهبة والعذاب..
الساحة التي اعدت للمتشي تذكر المرء بالخنادق.. فمتها نرى الحوائط الرمادية.. فقط
ثم رفعتنا البصر كانت هناك رقعة صغيرة من السماء..
اما الممرات فيرن من ابعادها صدى الخطوات وهي تقرق الارض الصلبة.. اما اذا
سعل المرء فان صدى ذلك يفرغه جدا ويكرهه ايضا فيجاهد في خنق السعال..
وفي كل مكان كان يسود صمت مطبق.. وكان هذا المكان هو حجرة الموتى.. او مشرحة
الابد..

ومرة أخرى فتشوا ملابسنا.. الأشياء التي كانت معنا أخذوها منا مقابل ايصالنا بذلك..

قلدوني ومعى، واحدا وثلاثين سجينا الى الجزء الاخر من السجن.. ومررنا بممرات عديدة.. ثم فتحت ابواب مزدوجة.. في البدء باب خشبي ثقيل محاط بصفيح سميك وحديدية.. ويعدده باب من قضبان السبخ المستدير السميك.

ثم وصلنا الى ممر طويل في نهايته نوافذ تطل على الساحة.. اما على اليمين والشمال فكانت الزنزانات.. وقادونا الى شمال الممر ووقفونا امام باب نمره واحد..

فتح رئيس الحرس قفلا كبيرا بمفتاح غليظ طويل..

دخلنا بعد ذلك في غرفة مضيئة بها نافذتان تطلان على الساحة الحوائط المطلية كانت تفوح رائحة الجير المحترق الطازج.. وفي منتصف الحجرة وعلى طول الحوائط رصت السراير الخشبية.. وعلى كل سرير كانت توجد، حصيرة، غطاء، وسادة من القش. وكانت هناك ايضا منصة كبيرة حولها كنية طويلة. وفي الركن وعلى يمين الباب وقفت مدفأة الطوب التي تولد من الممر وكانت الغرفة دافئة.. وبحث كل منها عن مكانه..

وعندما رأى رئيس الحرس ذلك.. خرج واغلق الباب خلفه.

بمجرد ان خلونا الى انفسنا في تبادل الانطباعات عن كل هذا الذي نعيش فيه.. واتفقنا بان كل شيء فاق المتوقع.. واقول ايضا بأنه جيد..

وكانت المفاجأة الحقيقية لنا هي ان الامر هنا كما في اركنكس..

فان الحرس يعاملنا معاملة حسنة.. ولم نقابل الأشياء المعتادة من المطاردات والإساءات..

وتحدثنا كثيرا جدا.. لم يوقفنا عن الحديث الا ان الحارس فتح الباب وامرنا بالنوم.. وعندما رقدت، شعرت بالسرور فها انا للمرة الثانية خلال سجنى انام على الحصير.. ولم استطع النوم رغم انى كنت متعبا ومرهقا للحد البعيد.

وسألت نفسي.. ماذا يعنى كل ذلك؟..

بعد كل تلك السنوات الحزينة ها انذا مرة أخرى في السجن.. بلا محكمة، وبلا ايضاح من احد.. لقد صرنا كالحوانات، تطرد من كل مكان الى آخر.. وليس لنا الحق في السؤال.. لماذا؟.. او كيف؟..

وكان واضحا ان كل ما يجرى لا يستند سند من قانون او اعراف.. كان يحدث بالمزاج الشخصي فقط..

ولاول مرة تمنيت ان انام.. وان انام طويلا.. والى الابد!!

وفي السابعة صباحا، فتح الحارس كوة الباب وصاح..

.. انهضوا..

نهضنا.. وارتدينا ملابسنا.. وفتح لنا الباب.. وعلى الرغم من انه لم يقل شيئا فقد حمل اثنان منا جريد قضاء الحاجة لتفريغهم.. وتبعناهما.. اغتسلنا وقضينا الحاجة في الحمامات بمنتصف الممر. وعدنا للزنازة.. وجلسنا نتنظر الاطفال..

وعندما تطلعنا خلال النافذة ادركنا كسجناء قدامى ان في الاتجاه العكسي للسجن يوجد المعظم.. وعلي اليمين تقع ساحة (التمشي).. وهى تشبه القفص الذي يذكرنا بسولوفسكى..

وعلي بعد عشرة امتار من الساحة وقفت بنائية من طابق واحد.. نوافذها البيضاء اوضحت بجلاء انها المستشفى..

ومن المغزل الذي تعرفنا عليه.. وقلنا انه المطبخ خرجت امرأتان تحملان صندوقا به قطع الخبز..

وصاح الذين كانوا يقفون قرب النافذة..

- انهم يحملون الخبز..

سنرى اذن اي نوع من الخبز يقدمون لنا..

"هارجنكو" الضعيف المتهلك اكد ان وجبات الخبز كبيرة ولا تفل عن ستين ديكا جراما. وعلق آخر..

- عليك اذن ان تنتظر هذه الستين ديكا جرام..

وعلي قدور كبيرة حملت النساء شيئا تصاعد منه البخار..

وبدا التخمين..

- حساء .. حساء..

- بل ماء احمر.. شاي.. شاي..

وعند التقسيم استلمنا اربعين ديكا جرام من الخبز..

واصبح هارجنكو هدفا للسخرية..

- انظروا .. كان يريد قطعة كبيرة من الخبز..

- في نورلنسك وعندما كان رئيساً للعمال ، اطعم الذين لم يفوا بالمعدل الاحصائي، اذ هم ثلاثين ديكا جرام فقط.. وهنا يريد الآن ستين ديكا جرام..!!

وحاول هارجنكو الدفاع عن نفسه.

١٥ كذبه :ان مصابا بخيبة امل قاسية.. وسلقه السجناء بالسنتهم طيلة الافطار..

١٦ :ساخن لم يكن حساء وانما كان شاي.. واعطونا معه قطعة سكر .. وقطعة سمك

١٧ :ح .. ودام ذلك الحال.. تحصلنا علي الخبز والسكر يوميا..

لن تجد في نفسك رغبة للنساء

بعد ان تناولنا وجبة افطارنا وهدأت ارواحنا.. اخذنا في حديث مركّز ناضج.. ولكنه مثل اي حديث آخر في ظروف كظروفنا كان حديثا ذا شجون.

بعد قليل اخذونا للتمشي في احدى السلاطات.

الحارس الذي كان يراقبنا قفل باب السلحة، واصبح بالامكان التمشي او الجلوس علي الكنبات المرصوة علي جانبي الممر.. لم يتسلط علينا احد بامر.. الجندي الذي علي برج المراقبة كان يراقبنا بصمت.

بعد ساعة من هذه الجولة الطويلة المبهجة اعدونا للزّنانات.

في تمام الساعة الثانية عشرة وصلت وجبة الغداء..

نصف لتر من حساء البطاطس.. عشرة بيكلجرام من عصيدة الدخن.. ولم تشبع هذه الوجبة او تسد جوع احد منا..

وكانت مادة دسمة لحديث بعد الظهر..

واصبح هارجنكو هدفا للسخرية مرة اخرى.. وساله بلنج..

- هل اعجبك الغداء يا هارجنكو؟

- جيد جدا.. سنرى كيف تحتمل طويلا..

وصمت هارجنكو.. فاستمر بلنج يقول..

- الخامسة.. ومع ذلك نصف كيلو من الخبز..

واستشاط هارجنكو غضبا..

- لا تهتم بي.. اهتم بان تجد لنفسك ما يكفيك اما انا فساعيش..

- ستعيش نعم.. ولكن لن تجد في نفسك رغبة للنساء.

تمشينا في الزّنانية وانتظرنا وجبة العشاء لعل وعسي..!! ولكن للأسف خاب املنا فيها كل الذي احضروه لنا كان قليلا من حساء البطاطس... وعندما جاء الحارس ليرفع الاواني سالناه ان كان هناك المزيد من الطعام.. فقال ان هذا هو كل شيء.

بعد العشاء كثر حديثنا وتنوع.. وفي امر الطعام.. وفي العشرة تماما انذرونا بالنوم.. اضاء الحارس النور واطفاه ثلاث مرات.. وهكذا مر اليوم لاقامتنا في سجن الكسندروفسك المركزي سريعا خفيفا..

بعد افطار الصباح ذهبنا للتمشي الذي كان يجلب لنا السرور.. تحدثنا كثيرا عن الحرب وظروفها.. وقد قرّب هذا الموضوع بين الناس الذين كان اكثرهم بالخارج وكان اكثر سكان الزّنانة اثرة للاهتمام هو الدكتور فرانز براون.. دبلوماسي الماني.. كان سكرتيرا في السفارة الالمانية بموسكو. وعندما بدأت الحرب رحلوه الي الحدود الايرانية مع بقية اعضاء سفارته.. ومنها تابعوا سفرهم لالمانيا. كان دكتور براور احد مواليد هامبورج واحد اعضاء الحزب النازي.... تصادقت معه فقال لي ان نازيتي لم تكن من قلبي ابدا، بل كانت من عقلي فقط.

شيء يتعلق بالوظيفة .. وبالبقاء في السلك الدبلوماسي .. شخصيته كانت تثير الاهتمام .. كنا قد تعودنا الى ان كل السجناء يتشابهون .. ثم فجأة يأتي سجين ليسلك سلوكا مختلفا عن بقية السجناء ..

وكان دكتور براور طويل القامة نحيف الجسم، يتنعل الحذاء العسكري الطويل ويلبس علي هيكلة برزة ضابط الماني لا تتناسب ابدا او تنسجم مع ذقنه الطويلة الكستنائية اللون .. ونظارته السوداء .. ويأتي بعد ذلك السلوك المختلف .. الجلوس علي المائدة برشاقة والاكل البطيء .. كان يفرش البشكير بديلا عن فوطه المنضدة ثم يضع الخبز والسك وكوب الشاي ... ويعلق منديله علي رقبته ايضا تعويضا عن الفوطه .. قبضة المعلقة يستعملها سكيننا ولديه قطعة خشب هي الشوكة .

وبعدها يبدأ افطاره .. قطعة السمك الصغيرة يقطعها (بالسكين) ويحلها الي فمه بالعود الرفيع .. ومن حين لآخر رشفة من الشاي ويمسح علي فمه بالمنديل .

وكان السجناء يجلسون في صمت حول الاركان البعيدة يراقبون في شغف شديد هذه الطقوس الاحتفالية للطعام .. وحلول الكثيرون التعرف اليه .. ولكن يخيل الي انه كان لا يلاحظ ذلك .. اما انا فقد كان يعتبرني من "بلدياته" ولذلك تمشيئا معا كثيرا .. ولاحقني السجناء لاحدثه حتى يسلك سلوكا طبيعيا كبقية السجناء .. وبعد جهد جهيد اقنعهم بان مسالة اكله والطريقة التي يمارسه بها هي مسالة شخصية جدا .. وعدا ذلك كان براور يخلع بنطاله قبل النوم ويضعه بنظام دقيق تحت الحصيرة، حتي يصبح "مكويا" في اليوم التالي !

كان بعضهم يسخر من ذلك ويقول ..

- ان براور ان يستطيع كي بنطاله بهذه طريقة ولو انفق في ذلك كل الخمسة والعشرين عاما التي سيقضيها بتهمة الجاسوسية ...

ويعضهم اعتقد بلن الاناقة والنظام الالماني سيصمدان لاكثر من ذلك !!

بعد اسبوع اعدوا توزيعنا علي مجموعات جديدة .. واقتيد الدكتور الي زنزانه اخرى .. ولم اسمع بعدها عنه شيئا .. وبعد سنوات طويلة علمت ان دكتور براور يعمل في الدبلوماسية الالمانية بالمانيا الغربية .

وفي مكان دكتور براور حضر ايدى شريدل النمساوي .. وكان شريدل يختلف عن دكتور براور في كل شيء .. معتلء الجسم .. اسود الشعر .. مستدير الوجه قروى من النمسا السفلى ومع ايدي هذا كنت في الزنزانه لمدة عشرة اشهر ..

اصبحنا اصدقاء .. تحدثنا بالساعات الطوال عن النمسا .. الهتيرية .. وكان يسمى عام احتلال النازية للنمسا .. عام الكارثة ..

بقينا قرب بعضنا البعض .. كنا نتبادل تحية الصباح وكذلك وداع المساء .. بصباح الخير .. وطابت ليلتك

واعجبت صداقتنا جيراننا وخاصة دكتور الزكن الذي كان طبيبا ومديرا للقسم الصحي التفتيشي والتخزيني للمواد التموينية بنورلسك .. وكان يمتاز بالبشاشة .. والمروءة ..

والاسراع بمساعدة الآخرين.. حوكم بتهمة الاعمال التخريبية لخمسة عشر عاما.. كان قصير القامة اعرج الساقين.. يمشي بصعوبة لتعطل نمو احدي قدميه.. كان زميلا بحق.. اشترك في احاديثنا.. وعلمنا ان اسرته كلها باستثناء اخته قد لقيت حتفها اختناقا في غرفة الغاز.. ورغم ذلك لم يصرح قط بقتله او كراهيته للامان.. وكان من القلائل الذين يدافعون عن دكتور براور عندما هاجمه الآخرون.

وكذلك عرفت تاليس قرقوريف ياقودا الشابة التي لقيتها اiban عمل بمطعم القسم الثاني من المعسكر في نورلسك.. من دكتور زالكن.

وكان هو قد تعرف علي تاليس عندما كانت تعمل في مخزن قرز البطاطس.. وكانت قد لجأت اليه تطلب الحماية وتناشد نخوته ان تهب لمؤازرتها فوجدت طلبها عنده ..

واستمرت صداقتها الي اللحظة التي اطلق فيها سراح تاليس من المعسكر العام سنة ١٩٤٧ حيث قضت فترة العقوبة.

وقد رجلت تاليس - حسب افادته - بالقوة الي مكان صغير بالقرب من كرنسويارسك وعاشت في بؤس شديد.. وطلب زالكن من اخته ان تمد لها يد العون.. فكانت ترسل لها كل شهر مائة روبل.

دكتور زالكن كان يستمتع بسرور وشغف لاحاديث ايدي عن الفترة التي قضها بالاسر في الولايات المتحدة الامريكية.. واستغرب عندما علم منه ان بالسجن هناك، يوجد مكان لشراء ما يريد المرء دون اعتبار لنوعية البضاعة.

زيد.. ييرة.. خاتم ذهبي.. اي شيء..

وذات يوم سألني دكتور زالكن..

- هل من المحتمل علينا تصديق احاديث ايدي عن الاعتقال الامريكي؟

- هذا ممكن الحدوث هناك بالطبع.

فنظر الي بشك عندما سمعني اقول ذلك..

ومن بقية السجناء علق بذكريتي شخص فكتور سترسكير.. وهو من الالمان الذين كانوا يعيشون علي ضفاف نهر الفولجا والذين لا يعرفون كلمة المانية واحدة.

وقد حاولنا انا وايدي بعض الالمانية بدون جدوى، ولكنه بعد مجهودات مضنية استطاع ان يقول بالالمانية - "انا عندي جوع كبير.."

وهذا الرجل سترسكير كان مشهورا في نورلسك بأنه مهندس مناجم فوق العادة.. وكان مسئولا عن الخندق الثاني (ب) .. وهو من احسن الانجازات في نورلسك.. وقد اسقطت اربعة اعوام من عقوبة العشرين عاما التي كان يقضيها بتهمة التخريب.. وبالرغم من ذلك كان يعتبر عنصرا خطرا.. ومن المتجم الذي كان يعمل فيه بنجاح كبير رحلوه معنا الي السجن..

كان فكتور قصير القامة، عريض المنكبين، بارز البطن، اصبح شكله مستديرا كالدائرة التي لم تهدأ فيها الواثبة ابدا..

وعلى كل تعليق لا يعجبه ، كان يفعل بحدة .. عاش بهدوء شديد مع جيرانه اما مع ايدى ومعى انا فقد عاش صداقة كبيرة ..

وكان الد عدو له في الزنزانة هو بايج الذي عمل ذات يوم في اداة الميناء بدوينكا ميكانيكيا ، او مهندسا كما كان يحلو له اين يدعى .

وبايج هذا استطاع ان يقيم صداقة حميمة مع شوسترمان ، فقد كان الاخير نصف متعلم .. ومن ثم فلا يضيره ابدأ ان يصدق كل ما يقوله بايج بلا نقاش .. والاثنان متهمان بالارهاب وحكم علي كل منهما بخمسة عشر عاما .. علي الرغم من انهما لم يرهبا احدا .
قبل ان شوسترمان زعم ان روسيا لن يحدث فيها خير قط طالما كان ستالين علي قيد الحياة .. اما بايج فقد قال :-

- بعد اغتيال كيروف تسطع حقيقة الخسارة الكبيرة في انه لم يقتل ستالين .
وعندما القي القبض علي شوسترمان لم يكن قد بلغ التاسعة عشرة من عمره . اما المشاكل بين سترسكو وبايج فانها انطلقت في البداية من المجال الهندسي .
والمهندس سترسكو لم يوافق علي كل ما يؤكده المهندس بايج ..

وهنا نشب المشاجرة ثم تتطور لتصبح اشكالا شخصيا .. وكان فكتور يحضى راسه للعاصفة ويخضع لبليج لانه ادرك ان ذلك هو الاحسن .. ولكن ما ان يحس بايج انه قد خسر الجولة في المشاجرة حتي يصب جام غضبه علي هارجنكو .
وكان يكفى ان يفتح هارجنكو فمه حتي يهاجمه بايج ويصفه بالحق والتفيل ويعيب عليه طول قامته الشاذ .

والطريف حقا ان هارجنكو كان يعمل مديرا للبناء في نورلسك عند تسوير المعسكر .. وهذه الواقعة احسن استغلالها لبليج وتحدث عنها في كل مناسبة .
- انك ولدت لكي تبني المعسكرات وهذا ما يتناسب مع اخلاقياتك .

وفي هذا ، قد يكون لبليج الحق .. فلن هارجنكو حرص علي ان يكون مطية لاوامر وتعليمات ال . ن . ك . ق . وادارة السجن ... كانت اوامر هذه الجهات مقدسة عنده لا يحيد عنها قيد انملة .. وهو يرتجف خذرا ان يمس او يחדش قوانين السجن .. وكان مستعدا لان يضحي بكل شيء حتي لا يسبب ازعاجا لادارة السجن ..

وفي الزنزانة تكونت لجنة (كومييت) .. مثل الزنزانة في ذلك مثل اي مكان آخر في السجن .. وكان واجب تلك اللجنة ان تاخذ من كل سجين يملك نقودا ، نسبة معينة من الاشياء التي يشتريها وذلك بغرض توزيعها علي من لا يملكون شيئا .
وفي زنزانة بالذات كان هناك حوالى ستة اشخاص من مجموع اثنين وثلاثين سجيننا لا تصلهم اي نقود من اية جهة ..

كانوا من الاجانب ..
وهناك ايضا اثنان او ثلاثة تصلهم نقود قليلة جدا .

تقرر ان يعطى الذين لديهم نقود عشرة في المائة فقط .. ولكن كان هناك من وقفوا ضد قرار اللجنة هذا .. وبالطبع هم اكثر الناس نقودا هنا .. منهم ، بل قل اولهم كان هارجنكو

وبعده آخر اما الثالث فهو سترسكو .. ولم استغرب ان يتمرّد الاول والثاني، اما الثالث سترسكو فقد ساعنى تمرده علي قرار اللجنة (كوميّت).

فان سترسكو لم يكن بخيلا.. بل علي العكس فانه اعتاد ان يعطي دائما ومن تلقاء نفسه، وينسبة تتجاوز العشرة في المائة المقررة... وعندما سألته لماذا يقف ضد قرار اللجنة؟ اوضح لي بلانه ضد كل انواع اللجان.. مهما كانت وكيف كانت.. وانه يرغب ان يساعد بماله من يشاء وكيف يشاء..

وحتى يثبت قوله هذا.. قال انه سيساعد شخصين.. ومن المؤكد ان سترسكو ساعد شخصين بانتظام دقيق..

في الشهور الاولى كان بإمكاننا شراء الدخان فقط.. وفي بعض المرات السمك المملوح والصابون.. ثم البطاطس وكان يطبخ في مطعم السجن بقشوره.. وكان سعر كيلو البطاطس روبلا واحدا... ولذلك فلم نحس بالجوع في الاسابيع الاولى كانت التغذية جيدة لان النقود متوفرة لدينا.. ثم اخذت النقود تقل شيئا فشيئا وعندما شعرنا بالجوع قليلا.. قليلا..

وادارة السجن كانت ادارة متحررة جدا اجابت علي كل شكوانا بانها لا تملك مساعدتها، لان ميزانية غذائات السجناء ضعيفة للغاية.. حتي انها في الحساء الرقيق المائي لا تستطيع ان تضع ثلاث قطع من البطاطس..

وهذه بالطبع جزء من تعليمات ادارة السجون الرئيسية بموسكو، التي رأت ان تعد لنا نظاما خاصا يحرم علينا الاتصال بذوينا.. ولاول مرة خلال تلك السنين الطويلة اجد انه غير مسموح لي بان ارسل عنواني لاقربائى..

لم يردوا علي طلبنا بالسماح لنا ان نكتب لذوينا.

واصبح الجوع غير محتمل.. كنت استطيع النوم لبضع ساعات فقط.. وغالبا ما كنت تمر ساعات حتي ياتي النوم العنيد.. اما الذين كانوا لا يستطيعون مواصلة التمشي ويجلسون علي الكتبات فقد زاد عددهم من التعب والضعف والمرض.

وامتلات المستشفى.

اللجنة الطبية التي تشرف علي صحة المرضى ظلت تأتي مرة كل شهر وعندما كان المرضى يشكون من الصداع كان الاطباء يوافقونهم ثم يعطونهم بعض اقراص الاسبرين، رغم انهم كانوا يعلمون جيدا ان قطعة من الخبز فيها كل الشفاء.

وفي بعض الاحيان كان يحضر الزنزانة احد كبار الضباط.. وعندما تلج في طلباتنا تكون اجابته دائما..

-لستم في صحة.

خلق الجوع جوا من العصيبة الشديدة.. وكان اي نقاش علني ينتهي بمشاجرة كبيرة.. وكثر الصدام مع العاملين في السجن.. فان ادارة السجن كانت دائما تحبسنا في زنزانات الحبس التأديبية.

وساعت صحة الكثيرين منا..

ادارة السجن رغم انها تملك ما تملك من سلطات الا انها كانت تحس بان مجموعتنا يمكن ان تسير وفق نظام خاص.. كالنظام الذي يتبع مع مجرمي الحرب الالمان واليابانيين.. كان واضحا ان ستالين يتصرف معنا كمن يود ان يصفى حسابا خاصا بيننا وبينه.. وحين شكونا مرة الضابط اجلبنا..

- كيف تتخللون انكم يمكن ان تطالبوا بما تريدون؟.. لقد قضيتم في المعسكرات خمسة عشر او عشرين عاما.. والآن نقلتم للسجن.. والي سجن الكسندروفسك المركزي خاصة.. هل تعلمون ماذا يعنى هذا؟..

- نعم.. لا يسمح لنا بطلب شيء.. وما طلبناه لم يعره احد انتباهها..

وكنا نشير الي مسألة المكاتب والرسائل الي ذواتنا.

لم يتغير شيء.. سوى اننا كنا نرتدى ملابسنا القديمة، وقد اعطانا هذا احساسا بان وجودنا هنا مؤقت فسرعنا ما سنذهب الي مكان آخر.. ولكن جاعنا ذات يوم ترزى السجن لياخذ مقاس كل منا.. وبعد اسبوع نرتدى ملابس السجن الجديدة..

بنظالا.. ومعطفاً من القماش الخفيف عليه خطوط تشبه خطوط حيوان حمار الوحش.. طاقية سوداء.. وحذاء من جلد الخنزير ذا نعل مطاطي.

وعندما ارتدينا هذه الملابس وفر في نفوسنا جيداً انهم سيقبروننا بين هذه الحيطان الحجرية لزمان طويل طويل.

من كانوا يظنون غير ذلك تبخر املهم وخاب.

ادارة السجن تصرفات بوضع السجناء منهكي القوى في قسم خاص انقاذاً لهم من موت محقق.

في هذا القسم استطاعوا ان يحصلوا على طعام خاص.. جيد ووافر.

كانت اللجنة الطبية هي التي توصي كل شهر بمن سيكون من المحفوظين وكان يبقون هناك لمدة شهر..

لم يعودون الي الرزقانة.. ويبدأ من جديد مسلسل الجوع..

وفترة التغذية هذه لم تعد الكثيرين.

لقد كانت تسود الحياة هنا ظروف غريبة جداً.

ولو سار المسئولين على الخط الذى رسمته موسكو لهم، مات الجميع موتاً محققاً.

ولاول مرة تجرؤ ادارة السجن على نصف قرارات موسكو.

في العادة، وفي كل السجون كان ال ن. ك. ق. د. هم الحافوتيون للسجناء ولكن هنا في سجن الكسندروفسك المركزي لم يكن الامر كذلك.

كان العقيد لاستوجكن اميناً جداً..

حاول بكل جهد، ان يسهل الامر الصعب علينا السجناء.

وفي ذات يوم قررت ان اقدم نفسى عند (التملم)..

ومن العادة ان السجن الذى يريد ان يقول شيئاً شخصياً يجب عليه ان يخبر مدير السجن او ضابط ال.ن.ك.ق. د... وذلك باخطار الحارس فى طابور الصباح (التملم).. واخطرت الحارس.

وفى اليوم التالى قادونى الى العقيد لاستوجكن.. حضر الحارس عند تمام العاشرة صباحاً وصحبني خلال الممر الطويل فى مبنى الادارة التى كانت تقع بالقسم الاول من السجن.

عندما وصلنا امام غرفة العقيد لاستوجكن انتظرت وبخل الحارس يستأذن لى، ثم عاد وادخلنى معه.

وفى حجرة واسعة، على حوائطها علق ت صورة ستالين وصورة بيريا وصورة جرجنسك، وبجوار الآلة الكتابة جلس العقيد لاستوجكن.

وعرفته لانه كان يأتى الى زنزانتنا.. دعانى الى الجلوس فى معقد يبعد عن الآلة الكتابة بحوالى الاربعة امتار.. ثم اخذ يتأملنى فترة من الوقت قبل ان يسألنى..
- انت تريد الحديث معى...؟.

- نعم.

- ماذا تريد...؟.

- اردت ان اسالك حتى متى يعذبنا الجوع ها هنا...؟.

- اؤكد لك بان الحال سيتحسن قريباً..

- هل هذه اقراص مسكنة...؟.

- قريباً سيسمح لكم بمكاتبة ذويكم، ويمكنكم استلام النقود، ونحن سنهتم بان نتاح لكم الفرصة لشراء ما تريدون من كتيّن السجن.. وسالته..

- اننى محاكم بعقوبة المعسكر فلماذا يبقونى بالسجن...؟.

- هذا ليس من اختصاصى.. وبالطبع يمكنك تقديم شكوى للوزارة.. وقد يساعدوك..

- شكراً.. وكل هذا جيد.. سنرى كم من الوقت يلزمنا الانتظار وهل يسمح لى بان احدث رفاقى فى الزنزانة بمضمون هذا الحديث؟

- مسموح...

فشكرت لاستوجكن وعدت للزنزانة..

احاطبى الرفاق منتظرين سماع افادتى عن نتيجة المقابلة.. واقترح ادهم ان اجلس وان اتحدث عن كل شىء بنظام.. فحدثتهم بكل ما دار.. وعندما يقاطعني كانوا يثيرون عليه ويهمون بضربه.. وكانت اكبر اثاره لهم هى امر الوعد بمكاتبة ذوينا.. واخطرتهم ايضاً بنصيحة لاستوجكن فى الشكوى للوزارة.. ولكن اغلبيتهم وانا منهم رآى عدم جدوى مثل هذه الشكاوى.

وسالونى عن الاثر الذى تركه الوعد بمعاودة الكتابة للاهل، فى نفسى.. فقلت لهم انى احس ان الامر هذه المرة يمكن تصديقه.. ونحن فى انتظار ظروف احسن.

وقد كتب سترسكو، وبليج، وهارجنكو وآخرين شكوى للوزارة.. طالبوا فيها بالعودة

الى المعسكر لكى يضعوا خبرتهم العملية في بناء الاشتراكية...!! ومرت ستة اشهر على تاريخ قدومنا الى السجن.. وخلال هذا الوقت جاء كثيرون وذهب كثيرون.. جزء الى المستشفى وجزء الى قسم التغذية، ومنها ايضاً.. وبين القادمين الجدد كان الدكتور برليان.. الذي كان قبل الاعتقال مديراً لقسم العمل الصحي في المنطقة.. وقد حوكم بتهمة الاعمال التخريبية بعشرين عاماً في المعسكر.. وكان يقدم لى وللكثيرين من السجناء مساعدات جمة.

كان مريضاً بالمعدة، وتقرر ان تجرى له جراحة عاجلة.
وقد علمت مؤخراً في عام ١٩٥٦ بموسكو ان دكتور برليان مات في سجن الكسندرسك المركزي.

في بداية مايو ١٩٤٩ دخل الى زنزانتنا لاستوجنك.. وقفنا جميعاً نرتجف انفعالا وترقباً كان يعلم ما يهمننا وبدون مقدمات قال..
- من اليوم يسمح لكم بمكتبة نويكم..
وتنفس الجميع الصعداء.. ووضح لنا لاستوجنك ان المكتبة تقررت لمدة مرتين في العام..
وكذلك استلام الردود.. بعضهم لم يسمح «جيداً» فسال..
- مرتان في الشهر...؟.

كانت تلك هي اجابة عقيد ال ن. ك. ق. د.. لا يهم مرة او مرتان.. فان اهلنا يسعلمون اخيراً اننا على قيد الحياة، ولن تكون جوعي بعد الآن.. المدير الذي اتى مع لاستوجنك، في الحال باشر مهمة توزيع الورق والمظلييف علينا.. الوحيدون الذين لم يحصلوا على ذلك هم الاجانب..
وعندما سال احدهم..
- لماذا لا يسمح لنا نحن بالكثافة خارج البلاد...؟.

لم يرد عليه احد..
وما ان خرج لاستوجنك ومن معه حتى بدانا في الكتابة.. وكانت الشروط ان يكون الخطاب قصيراً، لا يحوى اى معلومات عن السجن واحواله ولا تذكر فيه عبارة (صادر من سجن...).

العنوان منسج برقم صندوق البريد..
قيدونا باوارهم فكتبتنا اننا بخير.. نحتاج قليلا من النقود..
وغير مسموح بارسال الطرود..
وانشغلنا بموضوع الخطابات هذه.. وشرعنا في التخمينات من الذى سيصله اول رد..
وبعضهم قال ان هذه خدعة لان ادارة السجن تريد ان تهدئنا بعض الوقت. وهذه الخطابات لن تصل ابداً للمرسل اليهم..
وكانوا يقولون.. نحن هنا.. وهم هناك.. وبينما نتحدث نحن تكون النار عندهم قد التهمت رسائلنا.

لقد ارسلت الخطابات سريعاً وعلى غير العادة. في المعسكرات والسجون..
وبعد اسبوعين فقط بدأت اول دفعات النقود في الوصول.

البطاطس ينقذ الحياة

في يوم من الايام فتحت موفلة الحسلبات كوة في الباب، ونادت على بعض الاسماء معلنة بانهم سيستلمون ايصالات بالمبالغ التي وصلت اليهم. وجن جنونهم من الفرحة.. وتعلت اصوات ضجيجهم وعجيجهم.. ثم فجأة وفي اخر القائمة جاء اسمي.. نعم اسمي بعد ان كنت قد وقفت في الركن ادارى خيبة الامل التي بدت على وجهي.. وفي اليوم التالي كان بإمكاننا الذهاب الى الكتنين للشراء.. الاول..

ودخل الحارس علينا وقال.. بإمكانكم الشراء في ظرف نصف ساعة.. وعملوا على اخراج الذين جاءتهم النقود من الزنزانة.. وكان الكتنين يقع في نفس الممر الذي تقع فيه الزنزانة.. وفي الحقيقة فقد كان هو اصلا زنزانة الفرغوا ووضعوا عليها الرفوف في جوانب الجدران.. ثم وضعوا بنكا خشبيا يعرض الباب به الميزان وخلفه جلست الشابة التي سلمتنا ايصالات النقود في اليوم السابق.. وكان امامها اضابير عليها كروت باسم كل سجين.. وتطلعنا لذي البضاعة.. كان هنالك السمك المملوح.. المربيات.. الدخان.. معجون الاسنان.. الخبز.. وكان بإمكان كل منا شراء كيلوين منه.. وعندما اختار كل سجين بضاعته.. سلمتهم الايصالات وعلى ظهرها المبلغ الذي صرفه السجين والمتبقي له.. ونفس المبلغ رصدته على الكرت الذي وقع عليه السجين.. اشتريت انا اثنين كيلو من الخبز.. ونصف كيلو من السمك المملوح.. اما البطاطس فكان بالإمكان طلبه ليؤتى به فيما بعد.. ولقد طلبنا منه خمسة وعشرين كيلو جراماً..

وعندما عدنا بعدها للزنزانة.. قمنا بتقسيم مااتفقنا عليه.. عشرة في المائة من المشتريات للذين لم يكن لديهم نقود.. وقررنا ان نقسم البطاطس عند احضاره بالتساوى على الجميع.. وبالطبع، فان البعض لم يوافقوا على ذلك ولكنهم اثروا عدم الاعتراض علنا والتزاموا الصمت.. خوفا من تانيب الآخرين.. وكان اول هؤلاء هو هارجنكو - كالمعتاد.. وفي اليوم التالي احضروا البطاطس في براميل كبيرة.. كان مقلبا بقشوره..

قسمناه على اثنين وثلاثين جزءا متساوياً.. ووزعناه على الجميع من ساهم في شرائه ومن كان بلا نقود.. حصل كل واحد على كوم من البطاطس.. وحتى لا يفسد وضعناه مرصوصا تحت الاسرة.. وبدانا نأخذ منه بالتدريج..

وأخيرا جدا اصابنا الشيع جميعا.. من معه ومن ليس معه..
ولقد اقتسمت كل الذى اشتريته مع ايدى شريدل. وبدون تردد او إنقطاع.
وتحدث ايدى عن شجاعة زوجتى التى أرسلت النقود..
ولاحظنا كيف أصبحت مادة الحساء ضعيفة الكثافة فى مرات كثيرة. وعندما سالناه..
اجابونا بصراحة شديدة..

بالقرب منكم يوجد سجناء من اليابان لا يحصلون مثلكم على اى نقود.. لذلك نحن
نعطيهم الحساء الثقيل على حسابكم.. وها انتم تتلقون العون من ذويكم..
ولم نسال بعد ذلك ابدا لماذا خفت كثافة الحساء.. او لماذا به فقط قطعتان من
البطاطس..

وبعد اسابيع تحسنت صحة الجميع..
واستمر الغيظ المهج.. تحصلت بعدها على دفعتين من النقود..
وتمكن من شراء السمك والمربة بكميات اكثر قليلا.. وعندما توفر السكر اشتريته
ايضا..

وبمرور الايام دبب الحياة والحرارة فى الزنزانة.. وهذات الاضطرابات النفسية..
وتعلت فى بعض الاحيان اصوات الغناء..
ولم يكن ذلك هو التغيير الوحيد.
فى يوم ما اقتيد سترسكو من زنزانتنا..

ولم يعلم أحد الى اين يفتادونه.. ابداً.. حاولنا ان نعرف ولكن دون جدوى..
وقد استطعت بعد عدة اعوام علمت انه اعيد بناء على طلبه الى نورسك ليعمل كرئيس
للمهندسين فى الخندق الثانى (ب).. وذات نهار حزين كان يفقد الخندق.. وفجأة بدأت
الحواط فى الانهيار التام.. ودمته ردا كمالا.. ولكن العمال سارعوا بالحفر واخرجوه
حيا غير انه وفى ظرف اسابيع مات متأثرا بالجراح الخطيرة التى اصيب بها..
بعد خروج سترسكو من زنزانتنا وصل بديلا له المهندس افانوف وهو عجوز مريض..
يعانى من اضطرابات نفسية اكثر مما يعانى من المرض العضوى..

لم يكن له أحد فى العالم.. ولذلك فانه لم يحصل على نقود قط من الخارج.. كان يعمل فى
نورسك مهندسا بمكتب الانشاء والتعمير. حضر الى هنا ومعه مال كثير حصل عليه من
عمله السابق.. وكان يعارض باصرار اعطاء اى مساعدات لمن لا يملكون شيئا.. وكان
يشترى قليلا جدا من التموين حتى لا تنفذ نقوده فلا موارد عنده غير مايملك..

وعندما رأى اصرار لجنة (الكوميت) على مد يد العون للآخرين، بدأ يشتري وينفق
بذخ. واجاب ردا على سؤال الذين استغربوا لهذا التصرف
من الافضل ان تعيش على حساب اللجنة (كوميت)..
وبعد شهور انفق اخر روبل معه.. وبدأ عليه السرور العميق فهو الان ضيف على
المجموعة حسب قانون اللجنة (كوميت)..
فى اغسطس عام ١٩٤١ - وصل الينا زميل من المستشفى.. وحدثنا انه وقبل ايام رحلوا
مجموعة سجناء من هنا الى مكان مجهول..

وربطنا بين غياب سترسكو وهذا (الترحيل).. وكانت هذه الاخبار الجديده، مادة شيقه للاخبار التي استمرت اياما عديدة.. وبدانا نبحت في الامر ونتسائل ونحلل. ماذا يعنى هذا؟ ولم يشأ الكثيرون تصديق هذه الاخبار فآخذوا يمتطرون الوافد الجديد بوابل من شواطئ التحقيقات..

اليست هذه اخبار جديدة في نهاية الامر.. وقد اكد الوافد الجديد انه رأى المجموعة تقاد من الحمام في الملابس المدنية ولم يتركوه في هذه ايضا.. سالوه..

هل أنت متأكد من ان هؤلاء الذين هم في ملابس مدنية ليسوا من السجناء القدامى.. نعم انا متأكد.. لاننى رايت احد معارفى من الذين جاءوا من نورلنك.. وبعد ذلك التوضيح صار الامر بينا.. ان هناك شى يحدث.. وما ان مر شهر حتى تأكد لنا ذلك..

دخل الحارس الى زنزانتنا وقرا بعض الاسماء من بينها اسمى.. وكان علينا تسليم الايصال الذى اعطونا اياه عند قدومنا.. وسلمنا اشياعنا..

وحدث اضطراب شديد.. واحاط بنا بقية السجناء.. تكلموا بصوت واحد في وقت واحد.. واتفقنا اخيرا على الطريقة التي سنزودهم بها بالاخبار..

واخبرت ايدى اننى ساترك له رسالة تحت احد جدران قضاء الحاجة اخبره فيها بكل ما اعلم..

اكثر ما اهنى واحزننى هو ان ايدى سيبقى بدون نقود وسيجوع، مرة اخرى.. وكان دكتور زالكن مدانا في بيع بعض المال فاتفقت معه ان يعطيها لايدي شريدل.. ووعدنى دكتور زالكن بفعل ذلك..

وقال انه سيساعد ايدى كذلك.. ولم استطع النوم طوال الليل..

وكذلك جازى ماناما.. دكتور زالكن وايدى.. تحدثنا عن الذى سوف ياتى.. حتى الصباح..

وكان هناك الذين توجهوا من التصفية الجسدية.. كنت هادئا مرتاح البال.. وانا هكذا ابدا عندما ألح شيئا في افاق المستقبل يعنى التغيير..

وبعد الغداء قلدونا.. ودعت الجميع وخصمت بحرارة وداعى صديقى ايدى ودكتور زالكن.. ولم انس وعدى باخطار ايدى..

مرة عندما وضعت له وريقة تحت جريدل قضاء الحاجة.. ومرة بعد عشر سنوات..

عندما أصبحت حرا.. ومن أوروبا كتبت الى ايدى في رودنتال..

على أمل ان يكون قد تغلب بصبره وشجاعته على كل الالام والظروف وعاد الى موطنه
مرة اخرى..

ولم استلم منه ردا..

ومر شهران.. فحاولت ثانية..

ومرة ايضا شهران فكتب ايضا..

واخيرا جاءنى رده من فينا..

قال ان خطبى الاول تاه.. والثانى استلمه بعد لاي.

وذكر انه تزوج وهو يعيش ويعمل في فينا موظفا بالغرفة التجازية..

اما عن مصائر الآخرين من رفقاء الزنزانة فما اظننى استطعت ان اعرف عنهما شيئا.



الوداع، سجن الكسندروفسك المركزي

دخل زنزانة أطبقت عليها أصابع الظلام واحتوتها جيوش العتمة، بها كنبات عارية الا من الخشونة والبرودة، اجتمعت مع عشرين سجيناً من زنزانات مختلفة عديدة. وكان بينهم الفرّح الشديد جوزيف بيرلي. الذي قابلته بعد عام كامل من فراقى له... وهلّلنا كالاطفال. كانت صحته متدهورة واهنة، اما روحه المعنوية فكانت مثالة متوهجة عالية.

جلسنا في الركن وبداًنا نتحدث.. تطرقنا الى الوضع الذي نحن فيه، والى اين سنذهب هذه المرة..

اتفقنا على ان حبسنا في هذا السجن المركزي كان تخطيطاً من ستالين الذي استعد لغزو يوغسلافيا.. ولكن شعوب العالم الحر المتقدم وحكوماته لم تمكن المجرم من تحقيق هدفه.. والا يقودوننا خارج السجن.. ولكن الى اين..؟

ذو الخبرة وقدامى السجناء قالوا سنعود مرة اخرى للمعسكرات.. وكان ذلك واضحاً لاننا جميعاً كان محكوما علينا بالعمل في المعسكرات، اما الذين بقوا فهم المحكوم عليهم بعقوبة السجن فقط.. وقد تثبتنا من ذلك حين سلطنا ضابط ال ن في د الذي سلمنا الخطابات، وعجبنا للغاية عندما تفضل وتنازل عن كبرياء ال ن في د - واجابنا قائلا:- جميعكم سترحلون الى المعسكر في تليشت..

معسكر تليشت.. ذو السمعة السيئة جداً بين معسكرات الاعتقال..

وتسلل الرعب الى نفوسنا بارداً كالحرز.. مفاجئ كالنوت.. فاننا نعلم ايضاً.. انه وفوق هذا وذاك.. كل عام تتحرك عشرة الف عربة من عربات السكة الحديد محملة بالاشخاب والسقالات الى مدن اوروبا، من تليشت وفي المساء عندما ذهبن الى دورة المياه تركت وريقة تحت جردل قضاء الحاجة للصديق ايدى شريدل حسب اتفاقى معه، وقد علمت منه بعد ثمان سنوات انه وجد ال وريقة، وكان فيها «نحن الخمسة والعشرين سيذهبون بنا الى معسكر تليشت، ونمنا في نفس القاعة.. وقد فرشنا ملابسنا القديمة والكيس الذي اعدوه لنا..

وفي الصباح الباكر زودونا بوجبة السفر من الخبز والسمك المملوح والسكر لمدة يومين..

واعادوا التفتيش الدقيق من جديد.. وطلب منا الضابط ان نخرج بهدوء من الزنزانة وان يكون ذلك بصمت، خاصة خلال الممر.. قلدونا الى مبنى الادارة وسلمونا للحراس المؤكل بهم حراستنا..

بعد ذلك جرت عملية النداء علينا، واركبونا الشاحنات، اربعة في كل صف. وللمرة الاخيرة القينا نظرة على المكان الذي قضينا فيه عاماً كاملاً.. وسارت بنا الشاحنة على الطريق الشرقي لسيبيريا في اتجاه خط سكة حديد ترانس سيبيريا.. كان الوقت نهلية سبتمبر..

خيل اليّنا ان المنازل الصغيرة نصف المهدامة خالية من سكانه.. كانت السقوف المتآكلة والابواب القديمة تحمل اثار نقوش بالية عفى عليها الزمن تحكى عن مجد وثناء غابرين للفلاحين كانوا من اشهر اغنياء سيبيريا والذين سار ذكرهم في الدينا.

البنائيات الخشبية الضخمة التي ربطت في نهاية السلحة كانت يوما ما مخازن كبيرة للقمح السبيرى الشهير.

وعندما كنا نمر امام بعض الفلاحين، كانوا يرفعون ايديهم ويلوحون لنا بها ورؤوسهم غاطسة وسط سنابل القمح التي تعوجها الرياح ولم يكن مسموحا لنا ان نرد على تحياتهم..

ورايّنا الحاصدة تريض وسط العربات.. وبعد مسيرة ساعات عديدة، وصلنا مرة اخرى الى السجن المرحلي في محطة اركنسك.. وقد سمح لنا ان نعيش ونتمتع بأشعة الشمس قبل ان يدخلونا في الزنزانات المعتمدة الباردة.

هذه المرة لم يأخذونا الى الحمامات.. واسف بعضنا لانه لن يلتقى بالفتيات الشابات اللاتي قمن بحلق الشعر عن اجسادنا وبقص شعر رؤوسنا في المرة الفائتة.. وبقينا بسجن اركنسك لمدة يومين فقط.

ثم حشرونا في السجن المتحرك «قطار ستولين».. بحراسة القساة الاجلاف.. طمانا انفسنا بان الطريق الى تايشت اقصر بنصف المسافة من سفرتنا الاولى.. ولكن الذى حدث انه اخذ مدة اطول من المدة السابقة، فبعد سفر ثلاث ساعات توقف القطار في محطة صغيرة.. وسمعنا بعض افراد الحرس يتحدثون عن عطل في القطار، ثم فكوا عربتنا وتركوها على القضيب الجانبى..

ومر بهار كامل وارخى الليل سدوله ومارلنا نكف في ذات المكان.. من حديث الحرس ان احدى العجلات قد كسرت واننا سنفصل الى عربة اخرى.. واكلنا كل ما لدينا.. وداهمنّا الجوع والبرد.. ولم يكن مع الحراس ماياكلونه.. وانلقنا ان نستبدل حاجياتنا واشيائنا بالمواد التموينية..

بعضهم اعطى بنطاله، وآخر اعطى سترته، وثالث اعطى معطفه، اما انا فقد اعطيت غطائى.. حمل الجنود الاشياء وعادوا بعد فترة بالبطاطس والدقيق وشحم الخنزير.. وطبخ الجنود في عربة السكة الحديد.. وبذلك انقلدنا حياتنا وحياة الجنود من الجوع.. وفي اليوم الرابع وصلت القاطرة ومعها السجن المتحرك «ستولين فاقون» ونقلونا اليها ثم تم قطرها مع العربات الاخرى.. ووصلنا تايشت بعد اربعة ايام..



الجزء الرابع

بين مجرمي الحرب



المحطة المرحلية في تايشت

بين مدن سيبريا الكبيرة كرسنويارسك واركتسك تقع مدينة تايشت الصغيرة.. وهي ليست مدينة بالمعنى الحرفي للكلمة، مثل المدن الأوروبية مثلا.. ولكنها مركز صغير مكون من عشرات القرى الصغيرة.. وبه اللجنة التنفيذية للمنطقة، واللجنة التنفيذية للحزب وإدارة ال ن ك ق د ومدينة تايشت القديمة ذات الشوارع القروية غير الممهدة في فصول السنة كلها خاصة الربيع والخريف - طبعاً الشتاء يحيل الطرقات الى جليد، هي المدينة التي يتوجب على من يسير فيها ان يقفز من حجر الى حجر اخر.. وعلى طول الطريق تقف منازل سيبريا الخشبية في صفين متقابلين.. وفي بعضها توجد المتاجر التي تباع فيها الاقمشة الرخيصة.. كما توجد ايضا محلات لبيع الفودكا..

ولم تقم في تايشت اية صناعات، ولكنها اصبحت مركزاً كبيراً لصناعة الاخشاب في السنوات الاخيرة.. او بعبارة اخرى مركز كبير لمعسكر الغابات اما في الاونة الاخيرة فقد شيدت خطوط السكة الحديد تايشت - براتسك ليندا - وكان من المؤمل ان يمد هذا الخط الى كسمومولسك على نهر مور، ثم الى يكووتي.. وتلك الخطة تسير كما رسم لها..

وعلى ذلك فان تايشت الثانية تكونت واصبحت من المراكز الهامة. وعندما ياتي الانسان من موسكو ومن ناحية الشمال يرى المنازل المخصصة والمهيأة لسكنى ضباط ال ن ك ق د وموظفي وزارة الداخلية.

اما الفيلات الانيقة فيسكنها كبار ضباط ال ن ك ق د وقواد الحامية.. وفي هذه المنطقة السكنية الجديدة كانت الطرق ممهدة على خلاف ما هو كائن في المنطقة القديمة، وحتى حواجز الطرقات كانت مكسوة بالاخشاب. وهناك في منتصف المنطقة السكنية توجد بنالية كبيرة ال ن ك ق د ومن متاجر المدينة يمكن شراء المواد الضرورية وبقيّة المنتجات.

والقادمون من ناحية اليمين يمكن ان يشاهدوا مدينة كبيرة من العنابر.. مجموعة من العنابر يحيط بها سياج خشبي يرتفع طوله الى ستة امتار ويفصل بين اقسام معسكر تايشت المختلفة..

وهذه ايضا محطات مرحلية للسجناء الذين يتم توزيعهم على اقسام المعسكر المختلفة والكائنة في عمق الغابة.

وتنشرت كذلك تعتبر اول محطة للذين يقطعون الاشجار في الغابة ويبنون خطوط السكة حديد..

وبعض اقسام المعسكر تم تحديدها أيضا للسجناء الذين يعملون في مناشير الاخشاب والورش الخاصة بتصليح الشاحنات والقطارات..

وهناك مجموعات أخرى تعمل في بناء المنازل والعنابر وبعضهم في تشييد الطرق ويشرف على كل هذه الفئات اعداد تصل الى المئات من افراد الحرس الذي تسلموا ابراج المراقبة الواقعة على طول السياج..

وقفت عربة السكة الحديد على بعد امتار قليلة من البناية الخشبية لمحطة السكة الحديد..

وفي الحال تهيات لنا اسباب الخروج..

جلسنا على الارض في خمسة صفوف.. وانتظرنا خروج النساء من القسم الثاني لينضمن الى مجموعتنا.

وقف كثيرون من الفضولين على الرصيف.. ولم يسمح بالاقتراب من مجموعتنا.. حاول بعض الاطفال الشجعان ان يفعلوا ذلك ولكن الحرس طردهم..

وتحركنا عبر الطريق المتربة.. على امتداد سياج المعسكر.. وامام باب الدخول وقف الحراس.. اما الجنود فقد جلسوا على مقاعد خشبية، وقاموا بتحية الحرس المرافق لنا.

وعند مرورنا قرب المصنع راينا اول السجناء، من الذين كانوا يعملون في الناحية الاخرى للسلاك الشائكة..

كان بعضهم يقوم برص الاخشاب الخلم داخل قاعة كبيرة.. وكان اخرون مشغولين بتفريغ القضبان الخشبية من بعض عربات السكة الحديد الكبرى..

وبعد مسيرة ساعة توصلنا الى المحطة المرحلية..

وفتحت الابواب..

وعلى بعد امتار منا انتصبت منضدة امامها موظفو المعسكر ونادوا علينا باسمائنا..

ثم استلمنا مجموعة من الجنود.. خلعوا ملابسنا وفتشونا ومانحله من اشياء تفتيشنا دليقا مركزا.. ثم ادخلونا الى المعسكر وتقدم نحونا طلائع السجناء.. كانوا جميعهم من

الذين القى القبض عليهم حديثا.. وخرجوا من سجن التحقيق..

حدثنا بان كل العنابر والخيام معتلة وان مئات السجناء يعسكرون في منتصف الساحة الرئيسية للمعسكر..

وسرعان ماتحققنا من انه لا موضع قدم لنا..

وحططت رحالي بالقرب من سقف احد العنابر وعصر نفسه بجوارى جوزيف بيرقر وبعض الاصدقاء الاخرين..

اردنا ان نعرف نوعية الطبقة التي جاء دورها الان..

ففي عهد ستالين كان دائما الدور على طبقة معينة من السكان ترسل للمعسكر قبل ثلاثين عاما بداوا بالحرب.. وبعده اتى دور الحزب الاشتراكي الديمقراطي.. ثم الجمعية

الامريكية الالمانية الموالية للنازية.. والاشتراكيين الاحرار..
وانصار تروتسكى.. وانصار الجيش الاحمر الذين كانت لهم علاقة مع توهلجفسكى
وياكس.. وقبل الصداقة مع هتلر كان الدور بالطبع على (عملاء الجستابو) وبعد
الحرب.. سكان المناطق المحتلة الذين تعاونوا مع الالمان..
ومن البداية كان بالامكان معرفة ان المحطة المرحلية يسكنها الان الذين كانوا في
السجون والمعسكرات.. بتهمة الاخطاء السياسية وانقضت مدة عقوباتهم.
وقد امر ستالين في ١٩٤٨ بحبس جميع السجناء الذين انقضت فترات عقوباتهم..
ومنذ تلك اللحظة بدأ تدفق السجناء الكبير..
واغلب الظن ان بلاغات او دعاوى جديدة لم ترفع ضد احد المقبوضون اخبروا بانه قد
تمى الى علم ال ن ك في عدم تحسين سلوكهم..
ولذا حكمت عليهم محكمة الثلاثة ضباط الكبار غيلبيا.. ثم اصدرت قرارات بحبسهم مرة
اخرى وارسلهم للسجون او المعسكرات، وهكذا كانت الامور تسير..
البعض اتهموا بارتكاب جرائم جديدة اخرى..
واقترحوا جزءا كبيرا الى المعسكر.. وجزءا الى السجن.. وجزءا الى المنفى والمجموعة
الثانية تتكون من الذين تعاونوا مع الالمان في الاراضى المحتلة وبينهم كان عدد كبير من
النساء..
ثم سكان البلطيق..
ففي ذلك الوقت كانت هناك حرب مقاومة بين جنود الثوار وجنود ال ن ك في د ومن بينهم
كان القسلاوسه ومئات الالمان الذين اقتادهم الروس..
وتعجبنا حين علمنا انه لا يوجد مجرمون في هذه المحطة المرحلية..
والمحطات المرحلية او (اسبسلورق) تدعى اوزرلاق وهى تنظيم اعتقالى انشيء في عام
١٩٤٨.. وقبل ذلك كان هناك في الاتحاد السوفيتى نوعا واحدا من المعسكرات.. وقد تتنوع
انظمة هذه المعسكرات الداخلية عن بعضها البعض.. ولكنها كانت واحدة من حيث
المبدأ..

وفيها كان يقيم المسجونون السياسيون والمجرمون..
والنساء ايضا يعملن في وحدة عملية واحدة.. وهن الواتى قبضن عليهن بتهمة الجرم
السياسى لازواجهن.. وقد وضعوهن في درجة واحدة مع العاهرات..
ثم هناك ايضا الاطفال الذين كانوا ابلاؤهم من كبار قادة الحزب وهم ياكلون في نفس
الاوانى التى ياكل فيها الاطفال المشربون..
وفي هذه المعسكرات المخصوصة كان فقط يقيم الذين حوكموا بتهمة الجنوح السياسى
وعندما علمنا بذلك بدانا نؤمن بان هذا يعنى تحسين موقف السجناء السياسيين..
دائما كنا نحس بانه من العار ان نعيش في مكان واحد مع المجرمين..
بعضهم راي في تلك الاجراءات الجديدة لمحة انسانية..
ولكن سرعان ما تاكدنا بان المعسكرات المخصوصة لم تأسس من اجل تحسين وضع

السجناء السياسيين.. ولكن حتى يستطيعوا اربابهم بطريقة مزرية..
وقد ساد في تايشت جو من الحيوية.. والمرح..
بعض السجناء كانت لديهم آلات موسيقية واسسوا اوركسترا.. ورقصوا بحرارة
وانطلاق..
السجينات المقيمات في عنابر مخصوصة كل يسمح لهن في وقت معين بلقاء بالرجال في
غرفة الطعام.. وايضا سمح لهن بالرقص ومن كانت متهن ماهرة فيه كان بإمكانها ان تجد
رفقة دافئة..

اصدقاء الذين كانوا يرقصون مع النساء الجميلات على انغام الغناء والموسيقى،
همسوا في اذانهن واقتنعوهن بعد جهد جهيد بالذهاب معهم الى صهرينج الماء.. وهناك
جربوا اوضاعا عديدة للحب..

ومن الايام الاولى لقدومنا احسنا بروح جديدة تسود اجواء ذلك المكان.. من الطبيعي
جدا ومن المفهوم والمسلم به انهم لا يسمحون قتل سجين ان يتقدم بلطف نظام ستالين
على الاطلاق.. اما هنا فكان الوضع مختلفا.. كلناو يلغنون سنسفيل جدوده والويل لمن
يعترض او يلوم.. خاصة رجال البوليس السابقين والبلطيقين الذين حوكموا بخمسة
وعشرين عاما.. كلناو يقولون ماذا نخشى وماذا سنفقد.. لا شيء..

وبخلاف ذلك.. كانت الغالبية تؤمن بالحرب القريبية بين الاتحاد السوفيتي والقوى
الغربية..

وفي ذات يوم وقف راهب من لتفانيا والقي كلمة وعظ امام مجموعة من مائة سجين..
تحدث عن نهاية دكتاتورية ستالين.. كيف ان الامم المتحدة ستخلص السجناء من
مخالب ال.ن.ك.ق.د.. تحدث لمدة عشر دقائق..

وانتشر النبا..

فهرع بوليس المعسكر واقتادوه الى زنزانه الحبس القاديبية.. (كارس).

xxxxxxxxxxxx

استطعنا جوزيف وانا ان نجد مكانا في احدي العنابر بعد ان "وسطنا" لذلك.. وكنا
سعداء لاننا اخيرا سننام على الارض بعد ان كنا نرقد قرب السقف القذر جدا، الملىء
بالبراغيث (والقراد) في العنبر الجديد تعرفت على دكتور فرانك من فينا.. وكان قد جاء
الى روسيا في الحرب العالمية الاولى كاسير وسكن في طشقند.. وفي عام ١٩٢٦ زار مسقط
رأسه الذي كانت تعيش فيه والدته وأخته..

وبعد اقامة دامت عدة اسابيع في فينا عاد دكتور فرانكل مع زوجته وطفله الى طشقند..
وهناك عاش كطبيب ومواطن محترم..

في عام ١٩٤٠ القى عليه ال.ن.ك.ق.د القبض..

ومثل الكثيرين اعتقد دكتور فرانكل ان في امر الحبس بعض اللبس.. وكان متأكدا من
انهم سيطلقون سراحه قريبا.

ونجح في اخطار زوجته بأنهم يتهمونه بالعمالة لالمانيا..
 - وأنهم يجبرونه علي الاعتراف بأنه جند لذلك بواسطه عميل كبير هو تاجر الاثر
 القديمة في فيينا واينبيرغر .. ولكن دكتور فرانكل لم ير واينبيرغر هذا منذ ان بدأ نفي اليهود
 في النمسا.
 وكان واينبيرغر قد اقتيد قبل اعتقاله الي بولندا.. ومن هناك استطاع ان يهرب الي
 روسيا..
 مثله مثل بقية اليهود الهاربين وضع في معسكر بالقرب من سراتوف على بعد قليل من
 الفولجا.
 وكان واينبيرغر زميل دراسة لفرانكل.. وحين وصوله الي سراتوف كتب في الحال لفرانك
 ووضح له موقفه.
 وبعد ذلك ارسل له فرانك كثيرا من النقود والطرود.
 وعندما نشبت الحرب بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي ، اطلق سراح اليهود وسمح لهم
 بحرية واختيار المكان الملائم لاقامتهم. فسافر واينبيرغر الي طشقند على امل ان يجد مكانا
 لايوائه عند زميل دراسته.
 وعند وصوله الي منزل صديقه فرانكل قرع الباب، ونطق باسمه للسيدة فرانكل ففرغت
 فرعا شديدا وارتجفت انفعالا وغضبا، فهذا الرجل يقف امام عينيها هو السبب المباشر
 لتعاسة زوجها.. وعندما هدأت ثورتها اخبرته بكل شيء. ولذا قبض علي زوجها.
 وقرر الاثنان الذهاب للـ ن.ك.ق.د لكي يوضحوا لهم اختلاط الامر الذي ادى الي سجن
 فرانكل.
 وحكت زوجة فرانكل لضابط الـ ن.ك.ق.د سبب حضورها لهم هي وواينبيرغر وانهما
 يريدان ازالة اللبس الذي ادى الي اعتقال زوجها.. وكتب ضابط الـ ن.ك.ق.د كل شيء
 واخبرهما ان يعودا الي المنزل قلئلا..
 - كل شيء سيكون في وضعه الطبيعي...!!
 واتجه الاثنان نحو المنزل والامل يراودهما في اطلاق سراح فرانكل سريعا. ومرت ايام
 عديدة.. ولكن فرانكل لم يعد.
 لم يطلقوا سراحه وانما القوا القبض علي واينبيرغر.
 والتقى الاثنان في زنزانة واحدة.
 وهكذا اتضح لهما ان يحتفلا باللقاء الذي جاء اخيرا وبعد كل تلك السنين الطويلة..
 وصدر الحكم علي فرانكل بعشر سنوات سجنا في المعسكر. واما مصير واينبيرغر فكان
 الموت في السجن بطشقند.
 وقد قابلت دكتور فرانكل بعد ذلك في المعسكر نمر ٧.. ثم لم اسمع عنه شيئا بعد ذلك..
 وجاء اليوم الذي كان علي ان امثل فيه امام اللجنة الطبية..
 وهي اللجنة المنوط بها تحديد نوع العمل وذلك يحدد المعسكر المطلوب الذي سيرسل
 اليه السجناء ..

وقفت عاريا تماما امام لجنة الاطباء..
امراتان ورجل

وكان في القاعة ايضا رئيس القسم الصحي.
وسالني الطبي عددا من الاسئلة.. اخذ بعدها في املاء تقريره علي سكرتيرة اللجنة التي
جلست امام الالة الكتاتبة وهي شابة حسناء..
وبقدر ما سررت بالقرار الذي اصدرته اللجنة وهو (المرتبة الثانية) .. الا اني كنت
حزيناً لتدهور صحتي.

فالبطاطس الذي اكلته في سجن الكسنديوفسك المركزي لم يساعد كثيرا بقينا في المحطة
المرحلية لمدة خمسة ايام اخرى..

ثم اخطروني بالرحيل ضمن مجموعة تتكون من خمسمائة سجين.
وقد بدأت اجراءات التسليم والتسلم في الساعة السادسة صباحا وانتهيت في الرابعة
ظهرا..

التفتيش .. تقسيم الاكل والزاد للرحلة.. تسليمنا للحرس.. الخ.. الخ.. وداخل عربة
واحدة حشرنا.. كان عدد شاغلينا ثمانون سجينا.. وكان الوقت متأخرا جدا وقد اطبق
الليل جفونه عندما الحقونا بالقاطرة..
اذن سوف نتحرك قريبا..

وسارت بنا القاطرة الي محطة تايشت.. حيث الحلقنا بالقطار المتجه الي المعسكر وسار
القطار ببطء شديد لان القضبان كانت ما تزال تحت تجربة التشييد.

وصلنا الي المعسكر نمرة ٧ مع التبشير الاول لضوء النهار.. كان الوقت مبكرا ومن خلال
كوة صغيرة في القضبان استطعنا ان نرى اقرب المعالم.

علي بعد حوالي مائتي متر من قضبان السكة الحديد تقع مجموعة من العنابر المظلمة
بالجير الابيض.

وكان المكان محاطا بسياج عال من الاخشاب ويشبه الي حد كبير مثيله في المحطات
الرئيسية.

ولم نستطع ان نرى الجزء الخلفي للسياج.

ومن جوانب المعسكر المختلفة كان يمكن رؤية الاشجار القليلة المتناثرة هنا وهناك.
ورأيت علي بعد، شجرة عيد الميلاد، فحقق قلبي بحزن..

كان المعسكر هادئا.. وقد اطلت فوهات ومواسير المدافع الرشاشة من فتحات ابراج
المراقبة العالية..

ورأينا الضباط والجنود يخرجون من بيوتهم ..

وفي وسط ساحة المعسكر وضعت المناضد والكراسي ..

فتحت اول عربات القطار وانحدر السجناء علي الجسر الذي يربط العربة بالارض.

ولفوا صفوفاً خمسا.. واتجهوا نحو باب الدخول..

واشار لهم الضابط الي المكان الذي يجب عليهم الجلوس فيه علي الارض...

وتناولت المشاهد المتكررة.. عربة وراء أخرى.
وجاء دورنا.. وقفزنا على الجسر كائنات التيوس.
كنا سعداء بتحريك مفاصلنا بعد طول مكوث دام طويلا. وكنت الإجراءات طويلة
ووملة وضجرة.

ولم يسمح لنا بالدخول الى العنابر الا بعد ان نودى على اسمائنا وقسمونا بالوحدات.
العنابر من الداخل كانت شبيهة بمخيلاتنا في نورلوك.

والوحدة التي وزعت للعمل بها كان عليها اصلاح الجزء الاعلى من القضبان.. وقد علمنا
ان عدد الذين يذهبون للعمل في هذا المعسكر هو حوالى الثلثماية او الاربعماية سجين
فقط.. اما بقية الالف وملئتي سجين فيجلسون في العنابر.. او يعملون داخل المعسكر.
واقترح على رئيس العمال ان اعمل نوبتياً..

فوافقت على هذا الاقتراح ولم يكن العمل شاقاً فقد كنا نقوم انا وزميل آخر وكان اسم
الزميل لمجنكو.. وهو العمدة السابق لروفا في ايام الاحتلال الالماني

وكان اعرج القدمين، لعجز او قصر في احدى ساقيه.. لذلك فقد وجد هذا العمل سهلاً
مريحاً له ويتناسب مع حالته.

اجتهدت ان احفظ النظام في العنبر، وعملت كثيراً من اجل ذلك..

في الصباح الباكر وبمجرد ان تفتح العنابر كان على ان احضر الماء من البئر الذى يبعد
حوالى المئاة والخمسين متر.. وكان الماء قليلاً جداً ولا تكفى بئر واحد للاف وخمسمائة
شخصاً.

اما اثناء ساعات النهار فقد كنت انظف العنابر.

ونلت بهذا الجهد رضا رئيس العمال والسجناء...

وقدروا لى اضى كنت امد الوحدة بالماء الكاف فلم يكن قد اعتادوا على ذلك وكان الرجال
يحضرون المينا من العنابر المجاورة ليطلقوا ظمائم.

وسرعان من انتشر الخبر بانى نوبتجى ممتاز.. وصار رؤساء العمال يضربون بى المثل
في النشاط والاخلاص.. ولكن اصدقائى كانوا يسبوننى للمتابرة والاجتهاد الشديد.

اما السخط وعدم الرضا فقد نالهما بجدارة زميلى الآخر (عمدة المدينة) اذ كان لا يعمل
شيئاً فاستحق بسخرية شديدة لقب عمدة المدينة هذا.. كان فقط يجلس قرب برميل الماء
ليزود عنه الظلمين من العنابر الاخرى..

وكان يصبح فيهم دائماً..

- اذهبوا.. لم اجلب الماء لكل المعسكر.

وكان الجميع يعلمون جيداً انه لم يحضر قطرة واحدة من هذا الماء. وكان هو - عمدة
المدينة - مسروراً منى جداً، فكان يحضر لى كثيراً من الحساء.

وكان يعلم اضى سجين قديم، وعضو سابق في الحزب.. وحكى لى انه كعمدة لمدينة روفنا
فقد كان يهتم باليهود والشيوعيين. ولكن الآخرين اثبتوا عكس ذلك. وقالوا انه انتزع

منزل اليهود واعضاء الحزب.. وخص نفسه بلحسن الاشياء المصادرة.. ووشى باعضاء

الحزب واليهود للجستابو.. ومن سخرية الأشياء ان انقلذه من الاعدام رمياً بالرصاص كان لشهادة ادلى بها احد اليهود، بأنه قد اعطاه تصريحاً ذات يوم وانقلذه به من ايدي الجستابو

هذا المعسكر (سبيلوقور) المخصوص، اوجد خصيصاً ليعزل السجناء عن العالم الخارجى..

في المعسكرات الاخرى كان السجناء يتمتع بحرية الحركة.. وفي امكن العمل يلتقى بالطلقاء.. ولم يكن معزولاً.

كانت الكتلة للاهل محددة بخطابين في العام بالنسبة للسجناء. ولكن بما ان بعض (عديمي النظام) كانوا يساعدون في حصول السجناء بطريقة او بخرى على وسيلة لارسال خطاب..

فان ال ن. ك. ق. د فكر في خلق ضوابط جديدة واجراءات مخصصة..

واحدى تلك الاجراءات كانت الملابس التي ميزت سجناء المعسكر المخصوص عن بقية السجناء واكثر شيء عن بقية سكان البلدة..

حصل السجناء على بنطال وقميص وسترة ومعطف، يميزهم لونهم الكحل الفاتح.. وعلى كل قطعة كتبت ارقام كبيرة ظاهرة بلوان الزيت.

كان الرقم على البنطال في مكان الركبة.. وفي الطافية من الامام.. وعلى القميص والسترة والمعطف من ناحية الظهر.

اما الملابس التي لا تحمل ارقاماً فلم يكن يسمح بارتدائها.. حتى في داخل المعسكر كان الحرس حريصاً على ان تكون الارقام واضحة للرؤيا..

وكل سجين يخالف ذلك الامر يعاد ليلبس من جديد..

اما الذي لا يعد كتابة رقمه المسموح له به، عوقب بالسجن في زنزانة الحبس النابيدية (كليس).

كان رقمي في المعسكر المخصوص سبيلوقور هو - ش ٤٦٢.. اما امر الرقابة على السجناء في المعسكر المخصوص فكان شديداً صارماً جداً.

وحتى الجهاز القائم لى ن. ك. ق. د اضيف اليه جهاز آخر (م ج ب) جهاز وزارة الداخلية. وذلك لتتضافر القوى.

وكان بالمعسكر ضابطان سياسيان، احدهما من ال ن. ك. ق. د والاخر من وزارة الداخلية (م ج ب) ..

وقد تكالبوا وتكلفوا على الفتك بالسجناء واساءة معاملتهم. وكان لهما عملاء بين السجناء اوصلوا لهم كل ما ينطق به احد هناك.

وقد شن السجناء حرباً شعواء ضد اولئك العملاء الذين كانوا بين صفوفهم.. وغالباً ما كان يصيب احدهم حجر اثناء العمل يحطم رأسه... لو يتدرج وبمجرد الصدفة تهربه شجرة هناك. وكانت هناك ايضاً بعض الاغتيالات.

جواسيس الاميريكان

في مثل هذه الاحوال.. ومنذ اليوم الاول احسبنا نحن السجناء القدامى، واعضاء الحزب القدامى ايضاً، باننا قد وصلنا الى وضع صعب للغاية.. الحياة في مكان واحد مع رجال البوليس السليقيين.. ورجال مخابرات هتلر.. والنازيين من سلونودور كوماندا.. كانت غير محتملة على الاطلاق.. بعضنا كتب الى ن. ك. ق. د. محتجاً على وجوده في صعيد واحد مع هؤلاء القتل والسفاحين.

وجاء الرد الماساوي يقول.. انه من الطبيعي والعدل بمكان كبير انهم ارسلوا الى ذلك المعسكر بالذات.. وكان بين سجناء المعسكر من الالمان من ليست له ادنى صلة بجرائم هتلر.

وفي المعسكر رقم ٧ قابلت مجموعة من الالمان الشبان الذين تعاونوا مع ال (اس).. آى.. اس).. والذين اعتقلهم الروس في القطاع الشرقي من برلين وحوكموا بخسة وعشرين عاماً سجنًا في المعسكرات.

وبين آلاف من هؤلاء الشباب الذين عملوا في خدمة امريكا، كان بالطبع هناك المخاضون، واصحاب القطر.. والمستعدون لخدمة اى انسان في اى مكان.

ومن المنصف ان نقول ان الغالبية لم تكن تهتم للمادة.. والذى كان يثير اهتمامي بشدة هو كيف يفكر الشباب الالمان بعد اندحار هتلر وهزيمته.. هل استطاعوا ان يستوعبوا الدرس الذى حدث امام اعينهم، وفي بلادهم من؟ محاورتي معهم اكتشفت ان القليلين فقط هم الذين كانوا يلعنون هتلر ونظامه.

ولكن الجميع اتفقوا على ان سياسة هتلر تجاه اليهود كانت سياسة غير صحيحة. وكانوا ينددون ويدينون الابادة الجماعية للشعوب الاخرى. واكدوا انهم كانوا يجهلون امر تلك الممارسات البربرية. وعندما سمعت ذلك خطر بذهني اعتقاد بعض السجناء القاطع بان ستالين لا يعلم شيئاً عن جرائم جوف.. وبيريا.. وابا كوموق.. وعلى ان اقول بان اول حديث بعد الحرب مع الشباب الالمانى اصابني بالغم والكر وعكر صفو نفسي.

واستخلصت بان الفتى عشر عاماً من حكم هتلر عاقت وشوهت وحطمت الشباب الالمانى تماماً...!!!

غالبية سجناء هذا المعسكر تتكون من الاجانب، او الروس الذين كانوا في الخارج واعيدوا بالقوة او بوسيلة ما الى بلادهم.

عقيد الجيش السوفيتي يار هو دخل المنيا مع الجيوش السوفيتية.. كان ضمن اللجنة التى قامت بفك المصانع الالمانية واشرفت على ترحيلها للاتحاد السوفيتي ومنها مصنع ساينز في "ين"، ومصنع الاوبيل الكبير. وورشة سيمنز... ومصانع اخرى كثيرة. لم يفكوا الآلات فقط.. ولكن الابواب، والنوافذ، والطوب المضغوط.. والصفيح الابيض

من السقوفات.. وقرر يلزمه ان يهرب الى الغرب.. وبعد تدبير واعداد جيد استطاع ان يعبر الحدود دون ان يلاحظه احد.... واختفى في دوسلدورف.

وكان في شبابه الاول عضواً في شبيبة الحزب الشيوعي وجندياً مخلصاً صدق كل ما سمعه عن الحياة في الدول الرأسمالية.. وعندما رأى اول قرية ألمانية بدا في مقارنتها بالكولخوز السوفيتي.

والمنازل في ضواحي برلين وقلت دليلاً عن ان العمال لا يعيشون في بؤس كما كان يقال له. وكانت الضربة الاخيرة هي علاقته بالضباط والجنود الأمريكيين. ووجد عملاً في دوسلدورف.

وبعد ثلاثة اشهر، وفي احدى الليالي عندما عاد من السينما رأى عربة صغيرة مغلقة تقف بالقرب من مسكنه..

ولا يذكر بعد ذلك ما حدث..

استيقظ في العربة عندما وصلت الى برلين الشرقية.. وكان يجلس على يمينه وشماله شخصان..

احس عندما افلق بصداع هائل يهز راسه بعنف، كما شعر بان الدم يسيل على عنقه.. واقتاده المختطفون الى السجن..

وبعد ايام عديدة في الاستجواب اخبروه ليكلف امام محكمة عسكرية قضت بسجنه خمسة وعشرين عاماً في المعسكر.

بدا تشييد خط سكة حديد تايشت - لينا - اسرى الحرب اليابانيين الذين كانوا يسكنون في الجنابر القديمة المحكمه. ذات الروائح الكريهة.. وبعضها كان متهدماً يسند بالاعمدة الخشبية.

اما العدد الاكبر من السجناء فقد جلس بلا عمل.. وكانت الغابة التي نحن فيها كميات هائلة من الاشجار.. اكثر من طاقنا كلها... تجمعت لاسقاطها..

ولكننا بقينا في انتظار الاوامر العليا.. التي لم تصل بعد.. وكان اكبر موم ضباط ال ن. ن. ك. في. د. هو المحافظة على النظام وعدم السماح لاي احد مهما كان بخرق القواعد والنظم.

وعندما اضطررنا لجلب الحطب والماء من نهر جونا على عربات صغيرة، لم يعجب هذا ضباط ال (م. ج. ب).. فكيف يسمح لسجناء المعسكر المخصوص بلذهاب الى النهر..؟.

ومرة اخرى استفحل النقص في الماء.

ولكن كل الشكاوى كانت غير مجدية.

وفي يوم ما حضر الى المعسكر عقيد ال (م. ج. ب).. وبدون ان يقول اي كلمة طاف بالجنابر عنبراً عنبراً.. ولم يجرؤ احد على الشكوى له جمعت بقايا شجاعتي وقلت له..

- اعذرني ايها المواطن العقيد - هل يسمع لي بين القول لك شكوى واحدة..؟.

- ماذا تريد...؟.

- هل يعامل الناس عادة كما نعامل نحن في هذا المعسكر..؟
قال العقيد بجدّة..

- انت في معسكر خاص تابع لـ (م. ج. ب) وليس في اي معسكر اخر..
هل هذا ينفي ان تكون هناك معاملات انسانية؟

- من الذي يعاملكم بلا انسانية؟

- هنا لا نجد حتى ماء للشرب..

- ماذا ..؟ الديكم ماء قليل..؟

- نعم .. متى يسمح لنا بالكتابة الي ذوينا..؟

- يسمح لكم بالكتابة مرتين في العام..

قالها واستدار منصرفا خلال جموع السجناء التي كانت تحيط به.

المحادثة الدائسة التي اجريتها معه انت بتملأها بعد يوم واحد فقط.

حصلنا علي ورقة ومظروف وسمح لنا ان نكتب الرسالة الاولى.

وسررت لانني سارسل لزوجتي عنواني الجديد..

ورجوتها ان ترسل لي قليلا من الاكل.

وبعد الظهيرة جاء الحارس وقال لي :

- هذا اخر يوم لك في العمل كونويتجى .. فمن الغد عليك ان تعمل في بناء الجسر....

لم ارد عليه..

وفي بناء الجسر علي نهر جونا عملت اربعة ايام فقط.

اشتركت في هذ الجسر الخشبي المؤقت .. ولم يكن من نصيبي المساهمة في بناء

الكوبري الجديد .. استطاع مدير القسم المعسكر ان ينتقم مني في اول فرصة سنحت

له .. فعندما حضرت اللجنة لاختيار العمال لقسم المعسكر رقم ٣٣ سارع بتعييني

معهم .. وقد تضايقت ولكنني نصحت بعدم الشكوى .. وان القسم ٣٣ يقع في الجانب

الاخر من نهر جونا .. مشينا علي الاقدام مسافة ثمانية كيلومترات .. مررنا اولا بطريق

منحدر قاد الي النهر وبعده تحركنا في النهر المتجمد .. ثم مررنا ايضا بقرى بيسرابيا

وشاهدنا اهلها يرضون جذوع الاشجار التي حملها تيار النهر في فصل الصيف .. وعبرنا

خلال غلبة عميقة الجليد .. تجاه خط السكة الحديد الجديد، وبعد ان قطعناه راينا

سيلاجا كبيرا لقسم المعسكر ٣٣ قادنا بوليس المعسكر والحرس الي العنبر الثالث وهناك

فتشونا وسمح لنا بدخول العنابر.. قمت بحجز مكان لي في الكنية العليا واخر لاولسكلر

لبنخ - وهانس - وهما المائتان تعرفت عليهما في المعسكر رقم ٧ .. كنت متعبا جدا واحس

بالضعف الشديد .. وقد كان ها انا اعاقب لانني شكوت للعقيد وقررت ان ارفض

اي عمل لا استطيع القيام به .. وكنت اعني تملأ معنى ذلك وعواقبه .. وجهزت سريري

في الغرفة المعتمة المظلمة وكان الوقت ليلا وفرشت البطاط والستر المحشوة والمعطف

.. ونمت علي هذا وفي الصباح وزعوا العمل وكان نصيبي هو وربية الليل في وحدة

التفريغ وقررت الراحة أولا ثم التعرف علي القسم ٣٣ ثانيا.. أخذت افطارى الذي لم يختلف عن مثيلاته في المعسكرات الاخرى.. وهذا المكان يشبه القسم رقم ٧ نفس العنابر المتهالكة نفس النظام وحتى الكتابات اليابانية هي ذاتها .. كان الفرق الوحيد هو جدول المياه وخبرها علي حافة المعسكر.. والبنية الزجاجية التي زرعت فيها الخضروات الطازجة لضباط ال.ن.ق.د. وكنت مهتما بمعرفة من هو رئيسي في العمل..

ولم يكن ضروريا ان اسأل فيمجرد ان دخلت العنبر الذي كانت وحدتى فيه .. سمعت شخصا يسب باللغة الروسية ذا صوت داو رهيب فكرت باسي هل هذا هو رئيس العمال..؟

وخرجت في الحال من العنبر.

تبخرت رغبتى في التعرف اليه..

وكان علي ان ارحل من العنبر الثالث للعنبر الاول الذي تقيم فيه وحدتى ومعى بالطبع زميلائى هانس اوسكو..

ووضعت حاجياتى في الكتبة السفلى هذه المرة.

كان لدينا وقت كاف .. فتمشينا في الساحة لوقت طويل وتعرفنا علي كثيرين من السجناء الذين كانوا يقيمون هنا لوقت طويل .. ولم نستطع ان نستخلص منهم شيئا جديدا.. وعندما مررنا بالقرب من مكان الماء الساخن (كيبالككا) راينا رجلا بدينا عريض المنكبين كثيف شعر الذقان يقوم بتكسير الحطب..

وظننا انه من مجموعة طويل الذقان.. وسالته اوسكو..

- هل يوجد ماء ساخن..؟

واجاب بلهجة شبه روسية.. ولم يكن من الصعب ان تكشف هويته الالمانية وسالنها

- هل تتكلم الالمانية ..؟

فاسقط فاسه ونظر اليها في استغراب شديد.

- هل انتم الم.ن.؟ .. انا من شتيريسك..

وسالته بحب استطلاع..

- من اي شتيريسك.

- من كلفنيريك عند المويست في مورى..

- آه .. لا توضح في اين تقع بالضبط كلفنيريك يمكنى ان اخبرك اين كنت تعمل هناك..!!

وتعجب ذو الذقان..

- كيف هذا هل تعرفين..؟

- لا .. ولكن يمكنك في كلفنيريك العمل عند بوهلر فقط حيث لا يوجد مكان اخر للتوظيف..

اجلبنى مندهشا..

- نعم هذا صحيح .. عملت في فرقة المطاط.

وكان اسمه فرانس المير..

وكان يعمل عند فولكستورم..

في زمن الحرب حارب ضد مقاتلي حرب العصابات الاسلوفينيين
وبعد الحرب.. قبض عليه وقدم الي محكمة روسية عسكرية حكمت عليه بعشر سنوات
في المعسكر..

واصيب بالمرض.. ثم صار معوقا..

ولذلك فهو يعمل في مهمة غلي الماء..

اذن نستطيع ان نحصل علي كثير من الماء الساخن..

والشكر موصول - ومردود لابن بلدنا.

وفي مكان غلي الماء هناك فرن للطبخ.. وكان يسمح للسجناء الذين تاتيهم طرود
العلم ان يطهو فيه مأكولاتهم.. وكان يسمى مطبخ الضباط..

في ايام الفراغ والامسيات كان اتاس كثيرون يقومون بطبخ العصيدة في الاواني
الصفيجية الصدئة.. فوارغ الملعبات الامريكية والالمانية والروسية.. ولا يقتصر وجود
الناس هنا علي الطبخين فقط بل كان هناك الفضوليون والذين ينظرون بحسد الي
اصحاب الاكل الخاص..

وكان فرانس المير مشغولا بعمله ويحفظ النظم وكان يهمس في اذني دائما.. - احضر
بعد قليل - هناك شيء للاكل..

وعندما اصبحت طاهيا استطعت ان ارد جماعته بمثلها.. وقد بقيت معه اكثر من عام..
وجاء وقت عملنا.. فسمعت باننا نعمل في شحن الحصى.. كل ثلاثة اشخاص يغرفون
ستين طنا في عربة يوميا.. كان العمل مرهقا للغاية..

واصبح الرجال بعد ثلاثة اشهر غير صالحين للعمل.. كان قراري بان ارفض العمل
حازما..

رسمت خططي جيدا..

قبل الذهاب الي العمل علي ان اتوجه من العنبر الذي اقيم فيه الي العنبر الثالث.. وان
استلقي في مكان خال واخفي نفسي..

اخبرت هانس واوسكر بما اعتزمت فعله..

وسمعت صوت الجريس.. ثم

- استعدوا للعمل..

وارتدى الجميع الملابس المحشوة وفي اللحظات الختامية اعطاهم رئيس العمال
ومساعدوه الاحذية الصخرافية التي احضروها من العنبر الاخر.. حيث خلعتها ارجل
الذين كانوا يعملون بوردية النهار.. كانت الاحذية مبتلة..

مضى وقت طويل حتي لبس الجميع..

واشتريت انا في كل تلك المراسم حتي لا الفت نظرا احدا..

وعندما سمعت صوت الجريس الثاني خرجت من العنبر واتجهت صوب العنبر الثالث

الذي كان مظلماً..
وباللمس فقط وجدت مكاناً خالياً..
ورقبت بملابسي .. وسمعت من بعيد صوت رئيس العمال وهو يقوم بالتعداد
الروتيني... وصاح قائلاً..
- من الذي لا يوجد هنا؟..
ولم يجبه أحد بالطبع.. وبعدها ذهب إلى العنبر لينظر هل بقي هذا لم يلبسه أحد...
ولم يجد شيئاً..
وتحركات الوحدة بنافس رجل واحد..
اليوم انقذت نفسي من العمل فكيف افعل غدا؟
ووقفت من جديد اعلم فكرى...
وكان قرارى حازماً..
ان ارفض وباستمرار عنيد الذهاب إلى العمل..
نعت واستيقظت في الصباح الباكر..
وعادت وحدتى من العمل.. ولم يسأل رئيس العمال عنى... لانه لم يستطع ان يحدد من
الذي تغيب عن العمل..
زيادة على ان رئيس العمال لم يحفظ وجهى بعد... فقد كنت حديث القنوم وحدثنى
اوسكار وهانس بالذى حدث في مكان العمل..
كان عملاً شاقاً جداً فوق طاقة الاحتمال.. ورغم ان درجة البرودة كانت عالية الا ان
الجميع يلهم العرق..
بعد العشاء رقدنا للنوم..
هذا كل من في العنبر..
وبقيت ساهرة اضع الخطط... كنت اعلم انه من غير الممكن التخلف عن العمل للمرة
الثانية..
وقررت ان اتحدث مع رئيس العمال..
سأخبره صراحة اننى لن استطيع اداء عمل شاق..
نهضت وخرجت من العنبر..
ذهبت إلى مكان غلي الماء وحدثت المدير باغنى لم اذهب الليلة للعمل.. ولا انوى ان افعل
في المستقبل.. فاستمع إلي مهموماً وقال:
- سوف يحبسوك في (الكارس).
- اعلم ما ينتظرنى..
وساعدته في احضار الحطب..
وعند الرابعة ذهبت للعنبر.. ولم يكن رئيس العمال موجوداً.. وخرجت مرة أخرى..
وامام العنبر قابلت الطويل النحيف..
- يا رئيس العمال هل يمكننى محادثتك؟
ونظر إلى من طرف عينه.

- اسمع ..

- نعم ..

- انا ذلك الذي لم يذهب في المساء للعمل. ولن اذهب اليوم. واخذ نكولاي بغنقى...

- افعل بامك !! ماذا قلت...؟

واحمر وجهه من الغضب

- سوف اريك ..

- اهدأ واسمعى ..

وترك نكولاي عنقى قللاً:

- ماذا تريد ان تقول؟

- انا سجين قديم واعلم ماذا يمكن ان يحدث لي.. وقد فعلت ما فعلت بكامل الوعي والادراك.. وها انا اعترف لك حتى لا تبحث عني كما فعلت مساء الامس.. وبذلك ستنتهى المشكلة ..

واخذ نكولاي يراقبني مرة اخرى لبعض الوقت.. ثم قال:

- يا بني آدم.. انت تعجبنى.. فلندخل الي العنبر.. هنا الجو بارد. وعندما دخلنا الي العنبر استدار رئيس العمال وذهب بلا كلمة .. واخذت الاكل وانتظرت ما ستمخض عنه الاحداث.

ولكن في تلك الليلة لم يحدث شيء..

ذهب الجميع الي العمل ومر رئيس العمال بجوارى ولكنه لم يقل شيئاً..

لم الجأ الي الاختفاء .. بقيت في انتظار بوليس المعسكر لياخذني لزنزانة الحبس الانفرادى التأديبية.. كارسى..

وبعد ساعتين علبت الوحدة.

قال اوسكر..

- نسبة لهبوب العواصف الجليدية الشديدة لا توجد عربة.. وستذهب الوحدة للعمل في الغد..

وكان الجميع سعداء لانهم يستطيعون النوم..

وقد استغرب اوسكار وهانس لاننى لم اكن في زنزانة الحبس الانفرادى .. (الكارسى) وفي صبيحة اليوم التالي كان يجب الذهاب الي العمل..

واخطر رئيس العمال الحارس - فوراً - باننى ارفض العمل.

وكان الحارس يدعى زمين.

قضى فترة عقوبة امتدت الي عشر سنوات.. ثم اطلق سراحه في عام ١٩٤٦.

ولكنه حصل علي عشر سنوات اخرى عام ١٩٤٨ .. بنفس التهمة السابقة.

زمين رجل صاحب قاموس خاص يختلف عن قاموس المجرمين الآخرين..

جاء زمين الي العنبر.. ومن الباب صاح:

- اين البطل الذي يرفض العمل؟.

وانتظر الجميع مشدودين يترقبون ماذا سيحدث..

وكان مكاني بالقرب من الباب.. فاستطعت ان ارى جيداً وجهه الذي احمر انفعالا .. وفمه الاثتم.

وتقدمت ..

- انا ارفض ..

- هذا ما سوف نراه.. تعال هنا..
وتقدم زمين الى منتصف العنبر حيث توجد المنضدة..
وجلس وأشار نحو قاتلا لرئيس العمال..
- أرايت؟ انه لا يريد الذهاب للعمل. سوف ترى اي نوع هو من الابطال؟
- لست بطلا.. ولكني لن اذهب للعمل لانني لا أستطيع..
- هنا لا يسأل احد شيئا.. هنا يشقى فقط..
- هذه المرة لن اشقى..
- سمري..
ونفض زمين وخرج من العنبر..
كنت متأكدا من انه ذهب لاحضار بوليس السجن..
وبخلال ذلك الوقت احضروا الاحذية الجلدية واسرع الجميع يتخاطفون الاحذية..
وفي منتصف العنبر بقي زوج واحد..
اخذته رئيس العمال والقاه امام رجلي قاتلا:
- اليس الحذاء..
- لست محتاج له.. فلن اذهب للعمل..
وبقيت الوحدة تنتظر حضور الحرس..
وجلست في مكاني بالعنبر..
وفي تلك اللحظة دخل الحارس وبوليس المعسكر وجرى نحو النوبتجي..
- يا نوبتجي اين الذي يرفض ان يعمل؟
- هذا هو..
قالها النوبتجي وأشار اتي..
قال بوليس المعسكر يخاطبني:
- من مكانك هذا اليس .. ان الوحدة في انتظارك..
- لن اذهب للعمل..
- لن اذهب للعمل..
تركوني لبعض الوقت.. ثم جاء الحارس وامرني ان اتحرك معه..
ان الامر يبدو حاسما هذه المرة .. ذهبت معه..
كان الوقت باردا جدا.. وتحت الحذاء يتكسر الجليد الجامد..
وسرت في جسدي قشعريرة باردة عندما تذكرت انهم سيرمونني في حفرة تحت الارض..
وفكرت .. كيف لجسد بارد مرتعش مقرور ضعيف ان يستدق بثلاثين ديكجراما من
الخبز.. وصحن ماء دافئ..
غير ان ذلك لم يجعلني ادمع على عدم ذهلي للعمل..
كنت متأكدا من شيء واحد فقط هو خير لي ان اتجمد في الكراسي بدلا عن موتي في براري
الجليد والبرد..
وعندما اردت ان انعطف يمينا لتتمكن الذي تقع فيه (الكراسي) .. استغريت حين صاح
بي الجندي:
- تقدم الي الامام..
وذهبت نحو باب الخروج..
في اليمين كانت غرفة الحرس.. فتح الجندي الباب وادخلني الي الغرفة وكان هناك

الحرس .. مدير المعسكر الصول سوروكن وثلاثيه ..
 ابتكرنى الطالب سائلا ..
 .. لماذا لم تذهب للعمل ..
 .. انا كما ترى ضعيف متهاك ولن استطيع ان اعمل عملا شاقا .. كتفريغ عربات السكة الحديد .. هذا ..
 .. انت لديك المرتبة الاولى .. عليك ان تعمل في كل شيء ..
 .. لا انا لدى المرتبة الثالثة ..
 وسالنى الصول سوروكن:
 .. كيف علمت انك في المرتبة الثالثة؟؟
 .. سمعت الطبيب يقول ذلك في المحطة المرحلية ..
 .. كان ذلك منذ وقت بعيد .. الآن انت في المرتبة الاولى ..
 .. كل ذلك سيان بالنسبة لي .. اية مرتبة كانت .. انا ضعيف ولا استطيع القيام بذلك العمل ..
 .. هنا يوجد فقط قطع الاخشاب .. غدا سوف تذهب لقطع الاخشاب ..
 .. لا .. هذا ايضا لن استطيع القيام به ..
 .. آه انت اذن تريد ان ترص الكيك .. ولكن هذا العمل لا يوجد لدينا ..
 .. بالنسبة في الامر سيان .. اي عمل تعطوننى له .. العمل الجسماني الشاق لن استطيع القيام به ..
 .. سوف تعمل كمختلف للمرحاض ..
 .. اوافق ..
 .. لا تعتقد بانك ستحمل البراز الجاف .. سوف تحمل البراز السائل ..
 .. جيد ..
 قلت ذلك باعتبار انه مجرد كلام .. كنت اعلم اننى لا اصلح لتنتظيف المراحيض .. كما لم اكن ايضا صالحا لنقل الحمى ..
 .. اذهب وارسل لي الحرس ..
 وعندما وصلت مع زمين اتي المدير بامر هذا قائلا:
 .. اعطه اي عمل في المعسكر ..
 واجاب زمين بالتضارب ..
 .. سنفعل بامر المواطن المدير ..
 وعندما خرجنا قل لي:
 .. في واقع الامر انت انسان محظوظ ..
 هذا الذي انتهت اليه المشكلة كان فوق احلامي وتوقعاتي .. وكنت سعيدا جدا فقد انتهى اضرايى الاول بسلام ..
 وفي اليوم التالي قابونى ومعى احد الروس واحد لنقطع ونكسر الاخشاب التي تستعمل في المعظم ..
 وقمنا بذلك العمل لمدة شهرين كاملين ..
 وفي بعض الاحيان كنا نقشر البطاطس .. وعلى الرغم من ان هذا العمل كان ممنوعا الا ان الطاهى سمح لنا به ..

وفي مرات عديدة اخرى قلدى الجلويش الى الغرفة التي كانت بها الاسلحة، فقامت
بمسح ارضيتها اثناء نوم الجنود..
وكانت اضع البنادق والمدافع الاتوماتيكية علي الرف.. ودائما ما راودتني افكار خاصة
عن سداجة اولئك الجنود وتغفيلهم، اذ انه يسمحون بدخول الذئبات .. غير مدركين ان
سجناء المعسكر المخصوص (سبيلوتر) مستعدين للفعل اي شيء..

أول طرد من زوجتي...

في فبراير من عام ١٩٥٠ كان البريد قارساً على غير المعدل الطبيعي وكنا عائدتين من عملنا في الثكنات ذات يوم شديد الصقيع، ترتجف في انتظار السماح لنا بدخول المعسكر...

ورأينا امام المدخل عربة نقل صغيرة فوقها عدة طرود.. ونظر الروماني بحب استطلاع ليري ما هو الامر.. فلاحظ ان بعض الطرود تحمل عناوينا مقلوبة الى اعلى ويمكن قراءتها.. فصاح فرحاً..

..كارلو.. هذا طرد باسمك.

ولم ارج كلامه اهتماماً فقد كنت اعلم انه يحب المزاح..

فاعاد قوله مصرأً....

.. هل انت تسمى شتيفن؟...

وعندما التفت فرايت الطرد وعليه اسمي..

وخفق قلبي بشدة.. واصابني القلق.. انتظرت بفارغ الصبر لحظة تسليمي الطرد.

ويحضور عدد من الضباط فتح الطرد وفتشوا كل شيء.. وقطعوا شحم الخنزير الى قطع صغيرة.. الدخن صبوه على جريدة وفتشوه.. وكذلك السكر.. وكان في انتظارى بنفاد صبر اوسكار وهانس.

وذهبت في الحال الى مطعم الضباط وملبخت عصيدة في اناء كبير وعندما جئت به جلس ثلاثتنا قبالة واكلنا باحتفالية شديدة..

احسبنا بالشبع والرضا.. وتحدثنا عن زوجتي التي ظلت تنتظرني بوفاء نادر كل هذه المدة الطويلة القاسية.

وسررنا لاننا لن نجوع في الايام القادمة.

عند الصباح الباكر احضر هانس الماء الساخن (كبياتوك) وحليناه بالسكر ومع شحم الخنزير والخبز واكلنا هنئاً مريئاً.

بقية الطرد وضعته في حقيبة قمت بحيلتها من غطاء ياباني.. ووضعتها تحت المفدة.. ورجوت النوبتجي ان يراقبها.. فوعدني بذلك.

وعندما عدنا كنا اول شيء فعلته هو ان بحثت عن الحقيبة.

ولكني لم اجدها...

وسالت النوبتجي هل رأى احداً يلخذاها.. ولكنه نفى ان يكون رأى شيئاً.

اوسكار وهانس كانا اشد تعاسة مني.. ونصحوني ان ابلغ عن السرقة...

وكنت اعلم انه لا جدوى من ذلك.

وكلن النوبتجي جرى الى بوليس المعسكر وبلغ عن السرقة.

وفي صبيحة اليوم التالي استدعوني الى مكتب بوليس المعسكر...

وحال دخولي الغرفة رايت حقيبتى فى الركن..

وسالنى البوليس..

.. اهذه هى حقيبتك..

.. نعم.

.. خذها ووقع بالاستلام.

اخذتها فرحاً.. ولكن سرعان ما وجعت وصابتنى دهشة شديدة..

كان بداخلها ملابس وحذاء قديم.. ولا اثر للطرد ومحتوياته.

احدى عشر عاماً قضيتها فى انتظار هذا الطرد..

عندما اقوم بتقشير البطاطس اكافا بالحصول على بقايا الحساء..

ويوما كنا نجلس فى ركن قاعة الطعام نتجرع من الوعاء بعض الحساء..

ويدخل احد الجنود فرانا.. وصاح بالطاهى..

.. لماذ تطعم هؤلاء الفاشست ..؟..

ومن لحظتها لم نحصل على شىء.. وكثيراً ما كنا نرى كيف يدلق الطاهى امام الثكنات

بقايا الحساء التى لم ياكلها الجنود..

يفعل ذلك ونحن نتضور جوعاً ونرى كيف يراق الطعام..

وذات يوم عملنا مرة اخرى فى تقشير البطاطس.. وكنا فى حالة يائسة من الجوع

الشديد.. وفى الغرفة مدفآت حديدية.. فاخذ الرومانى قطعاً عديدة من البطاطس

وضمعا فى الفتحة مع الرماد.

وذهبت الى الساحة لاحضر الخشب.. واشير الى الطاهى بيده لادخل سالنى قلنا.

.. هل انت الذى وضعت البطاطس فى الرماد.

وفكرت لحظة.. اعتقدت بان زملائى تهربوا من تبعه هذا العمل عندما .. اكتشف امرهم..

ورموا التهمة على شخصى.. وفى ذلك الوقت كانوا فى الحجرة يسمعون.. قلت له..

.. نعم. انا الذى وضعت البطاطس فى الرماد.

وضربنى الطاهى بقوة على وجهى حتى ترنحت وارتمطت بالحائط..

وهجم على بضراوة..

بدا يضربنى بكلتا يديه فلم اتحرك او ادافع عن نفسى.. واثارت الضجة انتباه الطهاة

فجاءوا يستطلعون ما الخير..

وكان بينهم واحد كثيراً ما اعطانا الطعام وابدى عطفاً نحونا.. فقال «للبطل».

.. كفى هذا كفى.. دعه يذهب فى حاله.

وتوقف الطاهى عن ضربى.. وقررت عند هذا الحد الا احضر الى هنا ابداً وفى نفس

المساء ذهبت للمكتب وحدثت زمين بكل شىء فغضب غضباً شديداً.

.. ماذا تعتقد..؟ اين تظن نفسك..؟ كيف تتصور انك يمكن ان تختار ما تشتهى من

الاعمال وبهذه البساطة..؟..

وكنت قد طلبت منه ان يبحث لى عن عمل آخر.. وذلك الحوار جرى فى مكتب الحسابات

وعلى مسمع من رئيس الحسابات يوهان - او بالاحرى ايفان افانوفج كما كانوا يسمونه في المعسكر.. وهو المني من الفولجا.. سال زمين قاتلاً.
- ماذا حدث؟..

وأجابه زمين بدعابة خفيفة..

- كيف ترى هذا الشاب؟.. هل يعجبك؟.. أضرب عن العمل اولاً....

ثم لم يعجبه العمل السهل في اللكتات...!!

كان ايفان افانوفج من مجموعة السجناء التي تعتمد عليها ادارة السجن وكان بإمكانه التأثير على مدير المعسكر.. قال..

- لقد كان في نورسك طاهياً.. أرسله الى المطعم..

- لم اكن اعلم انك ياكلو خبير في الطهى.. ساحادث رئيس المطبخ بامرك.

واخذنى من يدى الى المطعم..

واصبحت مرة اخرى طاهياً.

زميل في هذا العمل كان ينحدر من اصل فرنسى.. جاء الى روسيا وهو طفل، مع والده.. اسمه بيرتى.. كان فرنسياً قحاً.. طويل القامة.. نحيل الجسم.. تقاطع ووجهه شيطانية الذكاء.. ملئ المرح والزمالة الحقة.. عندما كنا نطهو كنا نتحدث عن كل شيء.. كان من المدهج والمثير ان تراه، وهو يضحك ويهتز جسمه النحيل.. ويدها تشيران الى بمرح ان اكف عن الكلام.

مدير المطعم يهودى من بسارابيا.. ضخم وكانه هرقل.. راي فينا خير مساعدين له فرضى عنا.. وكان يقول انه فخور لان مطعمه يمثل كل طهارة العالم فمن الطهارة الخمسة الذين معه.. كان واحد فرنسياً.. وواحد نمسوي.. ا..

وواحد روسياً... وواحد يهودياً والخامس ليتونياً.

وكان ينتهز كل فرصه تتاح له ليعبد مزاييا كل فرد منا.. وعندما ياتى الدور على الروسى يقول..

- انت اكبر حرامى..

وكان هذا الرئيس قد قاد حرباً طاحنة شعواء ضد المجرمين الذين ارادوا بالتهديد الحصول على خير الطعام..

في المعسكر المخصوص (سبسلوقور) كان يوجد السجناء السياسيون فقط.. ولكن كان بينهم من هو لص بطبعه عدا اولئك اللصوص المحترفين الذين هزموا في جيش المارشال روكسوفسك.

وقد ارتكبوا جرائم سياسية مختلفة ولذلك وصلوا الى المعسكر المخصوص (سبسلوقور) في المعسكر ٣٣ تكونت عصابة قادها ذو اليد الواحدة فاسكا.. العصابة كانت تنهب طرود السجناء.. وتهدد كذلك الطهارة لتأخذ منهم السمك والدهن والمواد التموينية

الآخرى.

وقد رفض رئيس مطعمنا ان يعطيهم جرماً واحداً زيادة على ما يستحقونه.. وبقي صامداً قوياً.

.. لن تاخذوا منى جرماً واحداً.. هذا طعام السجناء وهو قليل.

وقد تحدث فاسكا صراحة بأنه سيقتل .. ليس المطعد اذا اصر على رفضه اعطانه زيادة في الطعام

و ذات يوم نفذ فاسكا تهديده...!!!

عندما كان رئيس المطعم يجلس امام العنبر الذى يسكن فيه ويتحدث مع السجناء.. هجم عليه فاسكا فجأة وطلعه عشر طعنات من سكينه.. ثم سارع بالهروب الى عنبر شركائه المجرمين.

وكننت حينها في المطعم..

دخل رئيس المطعم مهولاً وهو يصيح..

.. اعطنى الساطور.. اعطنى الساطور..!

رايت ما يحدث.. ولم ادر ماذا افعل.. المعدات كالساطور والسكاكين كانت مقفولة في الدواب حسب اللوائح.. والمفتاح عادة يكون مع الطاهي الذى عليه ودية الخدمة.. وفتحت واعطيته الساطور..

جرى وهو مبتل بالدماء يبحث عن قاتله.. ولكنه فقد وعيه في منتصف الساحة ووقع ارضاً.. حملوه الى المستشفى.. ثم قرروا تحويله الى المستشفى المركزى حيث مات هناك.. هكذا قالوا..

ولكنى سمعت بعد سنوات بأنه لم يموت.

اما فاسكا وعصابته فلم يحدث لهم اى شيء.. ولكن لمخالفته (نظم المعسكر) فقد حوكم بعشرين يوماً في زنزانة الحبس التأديبية (كلرس).. كان ذلك هو كل شيء.

كانت ادارة السجن تنظر بامتناع شديد للحرب بين السجناء.

بعد ذلك عينونى رئيساً للمطعم..

رفضت التعيين في البدء.. ولكن بيرثى وايفان الفانوفج الحوا على طريقة مصممة جعلتنى ارضخ لهما في النهاية.

وكونت مجموعة كبيرة من الاصدقاء.. ساعدتهم قدر استطاعتي.. وقد لقيت من اجل ذلك عنفاً وتجشمت مضايقات عديدة.. ولكنى كنت اعلم ان السجناء راضون عني.

الوحيدون الذين لم يرضهم ما افعل هو ادارة السجن والقسم الصحى.. كانت العلاقة بين مدير اقسام المعسكر سوروكن وبين الطبيب الرئيسى للسجناء ايفان الفانوفج بوبوف.. علاقة حميمة للغاية.

تعارف الاثنان منذ سنين بعيدة..

لذلك كان تأثير بوبوف كبيراً في تعيين رئيس المطعم..

وكان رئيس المطعم ملزماً باطعام بوبوف ومساعديه في العيادة طعماً جيداً.. وقد تسربت من مطعم السجن كميات كبيرة من الدهن واللحم والسكر الخ.. وحصل على جزء كبير منها سوروكن - بواسطة بوبوف طبعاً. وقد حرصت على اعطاء بوبوف احسن الطعام.. ولكنه لم يكتف بذلك ابداً..

اما سوروكن فقد كان اقلهم رضا عني ولذلك عمل الاثنان على تغييرى..

بعد اسابيع نقل الينا من القسم الثانى للمعسكر صديق قديم لسوروكن وبوبوف - هو سيرجى كونوفالنتكو..

واستدعونى حال وصوله الى المكتب.

وكان فى المكتب.. الضابط والمخزنجى، وسوروكن وبوبوف ومعهم كونوفالنتكو قال لى سوروكن..

- سوف تسلم المطعم للطاهى الجديد كونوفالنتكو..

- بامر المواطن المدير..

وفى نفس اليوم جاء الى المطعم كونوفالنتكو.. وبحضور المخزنجى سلمته العهدة.

واقترح على كونوفالنتكو ان ابقى طاهياً معه فى المطعم.. وبعد تفكير قصير وافقت.

وكونوفالنتكو هذا كان رجلاً عديم الضمير.. من اوديسا.

فى فترة الاحتلال بقى فى اوديسا وتلج مع الالمان.

وعندما عادت القوات السوفيتية،لقى عليه القبض وحوكم بعشر سنوات.. وسرعان ما

وجد كونوفالنتكو يده فى السجن واطلقها على آخرها. وارتبط بعلاقات مريبة مع ضباط ادارة السجن، بوبوف ومساعديه.

باع لهم ملابس السجناء.. وعندما اصبح رئيساً للمطعم قام فى اول ايامه بسرقة الخبـ

من السجناء والتعيينات ايضاً.. وذلك لكى يرضى اصدقاءه الضباط الذين اغدق عليهم

ما اختلسه من السجناء. وكثرت الشكاوى ضده.. فخلعوه من منصبه.. ارضاء

للساكنين.. ثم ارجعوه للمكان مرة اخرى. كان عليه ان يعطى ويصرف كميات الطعام

للطاهى النوبتجى عن كل وجبه. ولكن كونوفالنتكو لم يتبع ذلك.. اعطى كل شئ

لمساعديه ولم يزن المواد الغذائية وبهذا استطاع ان يستحوذ لنفسه على ما يريد.

ارهب الطهاة وهدهم فى كل مناسبة بالطرد..

ولم يجرؤ احد على الوقوف فى وجهه..

وكنت اخوض معه حرباً يومية..

حاولت ان ابين له انما يقعله سرقة دنيئة..

ولكنه لم يرعوا..

واصبح مستوى الاكل هزئلاً يوماً بعد يوم..

وزاد عدد الضباط وصف الضباط الذين يحضرون الى المطبخ لاختذ الطرود. وقد ربطت

بينه وبين الضباط صداقة توثقت عراها حتى اصبحوا يذهبون الى صيد السمك جميعاً

وهو معهم - كونوفالانكو - ثم تطورت الامور وبنت قوارب لصيد السمك ذهب فيها
المساجين بقيادة كونوفالانكو لصيد السمك..

ولم ير السجناء السمك الذى اصطاده ايداً.. فقد حصل عليه بالطبيع وعاش موظفو
القسم الصحى وعلى رأسهم بوبوف فى بذخ شديد خلال تلك الايام.. اللحم.. والزبد
الذى كان مخصصاً للمرضى ذهب الى بطونهم..

اما سوروكن فقد كان يحصل على نصيبه من كل تلك الخيرات.

فكرت فى ترك خدمة المطعم لاننى لم اعد اهتم كل ذلك. واستشرت اصدقائى ولكنهم
رجونى ان ابقى فى المطبخ.. خلفوا ان يفقدوا القليل من الطعام الذى كنت اخصهم به..
وقد عملت كل ما فى وسعى من اجل هؤلاء الناس..

غرياء.. اوطنهم بعيدة.. لا احد يهتم بهم.. كانت حالتهم «صعبة» بخلاف الروس
الذين كان ذويهم يساعدونهم.

وكان هناك ايضاً من لا يستحقون المساعدة على الاطلاق.. يحصل بعضهم على طرود
الاكل المنيئة ومع ذلك يسعى كل صباح الى نافذة المطعم يستجدى الطعام.
ذات يوم عدت من المطعم الى العنبر، فوجدت فى الساحة رجلاً ينتظرنى...
كان قسيساً من كارياتسكا فى روسيا.

- من فضلك..

- نعم..

- معذرة لزعاجك.. ولكن يدفعنى البؤس لان اثقل عليك..

كان يتحدث بلغة المانية جيدة..

- ما الذى يمكننى فعله من اجلك..؟

- ارجو مساعدتك فى بيع بعض الاكل، فان الجوع يشوى عظامى.

- اعدك بان افعل كل ما فى وسعى.. احضر فى كل يوم بنافذة المطعم.

ولاسباع عديدة كنت اعطيه الحساء.. وفى بعض المرات العصيدة.

ذات يوم حدثت عنه اوسكار. فقال لى ان ذلك القسيس لا يسلك سلوك الرجال المحترمين
انه يحصل على طرود كثيرة مقلقة بالاكل....

ولكنه لا يعطى احداً اى شئ على الاطلاق..

ه استغربت للامر كثيراً

وحدثت اوسكار عن كيف يحضر ذلك القسيس لينال منى بعض الطعام.

اجابنى اوسكار..

- انه يخدعك.. فهو يخفى كيلوجرامات عديدة من شحم ولحم البخرير، حتى انها بدأت
فى التعفن.

ومنذ ذلك اليوم اوقفت مساعداتى له.

الزائر الدائم لنافذة المطعم كان هو الكاتب الاوكرانى ميسترينكو.. ولكن الفرق بينه
وبين القسيس انه كان ياتى مضطراً وعلى مضض.

صادفته من قبل ان اصبح طاهياً وعندما صرت في هذه الوظيفة عن لي ان عينه قليلا ولكنه رفض فقد كان من نوى المبادئ... وكلفني الامر نقاشاً طويلاً مضنياً لاثبت به ان الموضوع لا يستيقظ شيئاً غير اخلاقي على الاطلاق... فهذا زمان يؤس واوان شدة ولا بأس عليه ان قبل شيئاً... كان في فترة الاحتلال قد بقي في كيب... عمل مدرساً حتى يعيش... وعندما انسحب المحتلون القوا عليه القبض بتهمة (التعاون) مع الفاشية... وحكم بعشر سنوات سجنًا في المعسكر. وكان مايسترنكو يكره الفاشية.

في كل وقت تحدثنا فيه عن الاحتلال كان يتكلم بحزن شديد وبغض اشد عن جرائم ال (اس. اس) اليوليس النازي (كيب). قال لي مايسترنكو انه وحتى عام ١٩٤١ كانت كيب ضد الشيوعية، ولكن بعد سنة من الاحتلال النازي اصبح اهلها شيوعيين... حتى الذين انتظروا الجيوش الألمانية بفرحة الامل تغير موقفهم وابتغضوا ذلك بغضاً لا مزيد عليه. خصوصاً بعد جرائم بابيم يارم... وهناك في اطراف كيب يقع مكان المجزرة التي راح ضحيتها اكثر من خمسين ألف يهودي... بعضهم دفنهم نصف احياء... وقد اصيب مايسترنكو بالرّض في عام ١٩٥١ ونقل الى المستشفى المركزي وبعدها اختفى عنى كل اثر له.

من بين الاصدقاء الحميمين لكونوفالكو كان مدير (ك. ف. ج) قسم الثقافة التهديبية العقيد كوماروف... الذي كان ضيفاً دائماً في المطعم. كان يمثل دور الحلاب على مصلحة السجناء..

فياتي وهي يسب الطاهي لكل صغيرة او كبيرة ويتحدث بانه عليه وعلى اعوانه المحاسبة الدقيقة لكي يحصل السجناء على مايستحقونه بالجرام. وتنتهي زيارته دائماً بالذهاب الى المخزن مع كونوفالكو ليمتليء جيبه بالمواد التموينية المعدة للسجناء. بالقرب من المعسكر كانت تسكن امرأة شابة، يقيم عندها الضباط الحفلات الساهرة المتربعة بـ (فودكا)... وكان من بين زوارها كوماروف... وهو متزوج له بنت في السابعة عشر من عمرها... وابن في الثانية عشر من عمره..

ولكي يحصلوا على النقود اعطوا اصحاب المواهب في الرسم من العمل... وذلك حتى يرسوا ما يشاؤون... ثم يبيعون هم اللوحات في اسواق تايشت. كوماروف كان يحضر الى المطعم الفراخ التي يسرقها من زوجته ويأمرنا بطبخا. وكانت زوجته تتهم السجناء الذين كانوا يقطعون الخشب بالقرب من المنزل بسرقة دجاجها..

بوليس المعسكر كان يحضر دائماً لمطبخ الضباط لكي يرى ان كان السجناء يطبخون دجاجاً..

ذات مرة اكتشفوا ان سجينين قد اختفيا.. وهما من اللاتونيين الذين كانوا يعملون في الجيش اللاتوني وحاربوا الى جانب الالمن.

وفي عام ١٩٤٤ اصبحوا اسرى للروس.. وقد حكمت عليهم المحكمة العسكرية بخمسة وعشرين عاماً (للخيانة) ..

كان الهاريان يعملان نوبتيجين.. ولم يخرجوا من المعسكر ابداً.. حسب افادة الحرس المراقب.

وبعد بحث دائم لعدة ايام اكتشف ال ن. ك. ق. د انه في زمن الضباب الشديد تسلق الهاريان بسلم الحريق السياج العالي..

وقد دلت على ذلك آثار الاقدام التي وجدت بالقرب من برج المراقبة...!!

الهاريان وصلا نهر جونا ولكنهما لم يستطيعا عبوره.. فانسحبا الى اعماق الغابة وتعثر وتعذر اكتشاف مكانهما.

وذات يوم كان اثنان من ضباط ال ن. ك. ق. د يمران بالغابة عائدين من الصيد، فوقع بصرهما على الهاريين اللذين كانا يستدفئان قرب النار.. وعندما شاهدهما الهاريان حاولا الفرار منهما ولكنهما لم يستطيعا.. قتل واحد منهما اما الآخر فقد تعثر ووقع فاحضراه حياً.

واودع الميت غرفة الموتى والباقى على قيد الحياة زنازنة (الكارس).

حيث مات هناك (بالسكتة القلبية)!!! وكان معتقاً بالكدمات والنزيف الداخلى. تردت علاقته بكونوفالنتكو. واصبحت واهية رديئة للغاية..

فقررت الذهاب من المطعم..

ذات يوم صرف لى كونوفالنتكو التعيينات لوجبة العشاء ولم يعطني جراماً واحداً من الدهن على الرغم من اننى وحسب التعيينات المقررة كان مفروضاً ان استلم اربعة كيلوجرامات من الزيت.. وقلت له..

— بدون زيت لا يمكن ان اطهو العشاء..

— اذهب الى الشيطان..

وخلعت المريلة البيضاء وجريت الى العنبر.. وفي المساء ذهبت للحارس.. فسححت له لمذا لا اريد العمل في المطعم.

وذهب زمين لباخذ التعليمات من مدير المعسكر.

ولم يعارض المدير في ذهلي من المطعم.

فقرروا ان اذهب الى وحدة جرنيافسك التي تعمل في اصلاح خط السكة الحديد.

وكانت علاقته برئيس العمال جرنيافسك جيدة للغاية.. فقد اسديت له نعيم كنت طاهياً كثيراً من الايادى البيضاء.. وكانت يحس بأنه مدان لى.

ومنذ اليوم الاول لقدومى جاهد جرنيافسك ليكون ودوداً تجاهى.

والعمل عموماً في هذه الوحدة كان سهلاً جداً.. ولذلك حاول الكثيرون ان يعملوا فيها..

ولكن جرنيافسك لم يكن يقبل اى احد.. وعندما ترسل الادارة سجيناً ضد موافقته.. كان

على ذلك السجين ان يعلم انه مواجه باقى الواجبات واشد الاعمال صعوبة.

كان جرنيافسك هذا قروياً من روسيا البيضاء.. قصير القامة.. ضعيف البنية.. برزت

عظام وجهه.. بليد الملامح.. كانت ملامحه ملامح قاتل نهاب.. وفي وقت الاحتلال كان رئيساً للبوليس في بلدة صغيرة.

كانت جدارته الوحيدة هي انه كالكثيرين اشترك في اباداة اليهود ورجال حربا العصابات.

ناثبة في الوحدة كان من روسيا البيضاء واسمه «كوبك».. وكان ايضاً من رجال البوليس.. ولكنه قوى البنية متعطش للدماء.. اما الثالث في القيادة فهو اوكراني حاقد من فوليني واسمه لشجنكو..

الرابع كان قساً.. يختلف عن الثلاثة من حيث نظريته لهم كآكل لحوم البشر.... كان في الوحدة يلعب دور المهتم بالجانب الروحي.

ولكن واجبه الرئيسي هو اطعام الرئيس ومساعدته بالمواد الغذائية الغنية التي كانت ترسلها له جمعيته.

وهذه هي بعض ملامح الشخصيات القيادية في وحدة جرينافسك.. التي كانت تمثل عصابة كاملة تنتظر اللحظة التي تنهب وتقتل وتفتك فيها بقيادة رئيسها.. وكان جرينافسك يعبر عن نفسه دائماً بقوله..

- اننا ذات يوم سنجر البقية الباقية من اليهود الى غرفة الغاز. ولكننا ايضاً لن ننسى الشيوعيين...!!

في تلك الوحدة تعرفت على النمساوي فرانز ستيف. القائد لشباب هتلر في النمسا. بدا ستيف حياته كعضو في الشبيبة الهتلرية بمسقط راسه في مدينة شيبش على النمسا السفلى.. حيث كان يعيش مع والده القروي الفقير.

وفي الحال علمت ان ستيف يجهل نفس افكار اعضاء هذه الوحدة. وقد عبر لي عن رايه الذي تضارب مع راي رئيسه بلغة روسية ركيكة. وكان ستيف هذا قد حاول الهرب بعد اندحار هتلر هو خطيبته الى الغرب..

وقد اوشك ان ينجح في ذلك لولا انه تعرف الى سيدة بالقرب من زميرنق سلمته للروس.. وحكم بخسة عشر عاماً في المعسكر. تصادقت معه رغم كل شيء.. وكنا نتحدث كثيراً في وقت الراحة. واستغرب الكثيرون كيف اصديق النازي.. كما استغربوا في اول ايام التحاقى بوحدة جرينافسك.. فقد كانت معروفة بتكوينها من رجال العصابات والمتعاطفين مع النازية.

في المعسكر رقم ٣٣ انشغل جزء من السجناء بالتفريغ والجزء الآخر بقطع الاشجار.. كانت الاعمال صعبة للغاية.. والعمل الوحيد الذي يستطيع الانسان احتماله هو صيانة خط السكة الحديد.

ولم يبق شيء آخر سوى ان اقبل «الوسيلة» التي تبررها غاييتي، او رغبتى في الحياة. وكنت مرغماً ان اعمل مع افظع البشر حتى احافظ على حياتي العارية.

مغامرة كارل كاب

من حديثي مع ستيف تأكدت ان الحوادث لم تعلمه.. وانه بقي من انصار العهد النازي.. كان يؤمن بان كل ما فعله هتلر هو الصواب والحق..
وكان يرى ان اندحار هتلر تعود اسبابه الي الخيانة بين صفوف الجيش النازي الشيء الوحيد الذي لم يستطع ان يبرره هو الابداء الجماعية للامم الاخرى..
ولكنه كان يجد دائما العلل التي يلجأ اليها..
- هذا الامر من الاساءات التي يحاولون الصاقها بهتلر..
او...

- النازيون لم يسببوا الما لاحد.. ولا حتى اليهود ..
كان يعمل معي رغم المعاناة.. وكان عاملا جيدا للغاية..
تحدثنا دائما..
وعندما احكى له شيئا طريفا كان يضحك بصوت عال من قم خال تماما من الاسنان..
معرفتي بستييف انتهت اخيرا..
وصلت مجموعة جديدة من المانيا في صيف عام ١٩٥١.. وكان من ضمنها كارل كاب الذي وزع للعمل مع وحدة رئيس العمال .. ومن ضمنها ايضا الفلاح السابق شمدت.. وكانت هذه المجموعة معنا في نفس العنبر..
مرت ساعات علي وصول المجموعة الالمانية، وبعدها تعرفت علي كارل كاب.. وكانت هذه مغامرة خطيرة مني..

ليس لان خطته كانت خطيرة.. ولكن لان ال.ن.ك.ق.د يستعمل هذا النوع من البشر كمحرضين وكطعوم.. يجمعون حولهم اشخاصا مستعدين للفعل اي شيء..
وعندما تاتي اللحظة لتحقيق الخطط المكفكف عليها يظهر ال.ن.ك.ق.د ويعتقل وينظم المحاكمات التي تنتهي بالاعدامات.. كنت اعلم ذلك بالخبرة.. ولكن فرانس ستيف لم تكن له خبرة بمثل تلك الامور
اعجبته خطط كاب واسرته جدا..

وبما اني عامل سابق في المطعم فقد كان بإمكانى ان اخذ جزءا من الطعام بدون ان اعرض نفسي بالصف..
احضرت اناء من الحساء وعصيدة ودعوت كاب الجائع..
وعندما اكل حدثني عن سير المحاكمة في لايبزج.. كان محكوما عليه بخمسة وعشرين عاما في المعسكر..

عندما كان يتحدث كنت اراقب جسده البدين، ومنكببه العريضتين، ورقبته القصيرة الغليظة التي جثم فوقها رأس ضخم كبير ذو جبهة قصيرة وشعر كستنائي تخللته الشعيرات البيضاء.. كان بالامكان تقدير عمره بخمسين عاما..
قطع علينا الحديث وصول رئيس العمال شمدت الذي جلس بالقرب منا.

وفي ذات اليوم قال لي كاب:

.. كارلو .. من حسن الحظ اني قابلتك عندي لك عمل خاص..

تعجبت كثيرا، كان هذا الرجل = كاب = يحدثني وكأنما هو يحدث صديقا قديما جمعت بينهما اواصر الالفة .. علي الرغم من اني تعرفت به قبل ثلاث ساعات فقط.. وتوجست خيفة..

رجاني ان احدد له وقتا نتحدث فيه دون مضايقة..

اتفقنا علي اللقاء غدا في غرفة الماء المغلي (كبياتلكا).

وعندما التقينا قررنا ان نبحث عن مكان آخر.. فقد كان هذا الموضع مليئا بعدد كبير من الناس..

جلسنا في بناء مجاور لعنابر لم تكتمل ذهب عنها العمال.. ولما تاكدنا ان احدا لا يرانا قال كاب:

.. كما ذكرت لك من قبل لدي عمل خاص لك.. اولا يجب ان تعلم ان اسمي الذي حدثتك عنه يالامس عن قصد ليس هو اسمي.. وانما هذه مسرحية كاذبة تعللت بها لدخول معسكر سوفيتي..

.. كيف لي ان افهم ذلك؟

.. كنت مالكا لمصنع ادوات البناء.. وكان بإمكانني ان اكون اليوم هناك... ولكن عندي واجب جديد هو ان انظم السجناء، حتى اذا نشبت الحرب، اعلنا الثورة من معسكرات سيبيريا.

.. من امرك بذلك..؟

.. يا بني آدم انت لا تريد فهم شيء.

.. خططك رائعة جدا.. حتى اني لا استطيع .. حقيقة .. فهم شيء منها..

.. جيدا .. اذن ساعبر بوضوح .. انني اعلم مع الامريكان.. وانا هنا بناء علي امرهم.

.. لقد جئت الي هنا بمحض الصدفة .. وكان بإمكانهم وضعك في معسكر آخر .. او حتى في السجن..

.. بمساعدة جماعتنا في ال.ن.ك.ق.د.و(م.ج.ب) استطعت ان اصل الي هذا المكان هو في اشد الحاجة الي وجودي فيه..

.. آه .. لقد كنت اذن تعلم بانك ستصل الي معسكر اوزرلاق؟؟

.. ليس ذلك فحسب.. بل اني كنت اعلم من قبل اني ساجدك هنا..

.. آه .. هكذا .. اسمع دعني اقول لك بصراحة شديدة ان كل هذا الذي ذكرته لي ليس مقنعا..

.. هذا لانك لا تتمتع برؤيا خاصة عن التنظيمات الامريكية..

.. ماذا تنوي ان تفعل..؟

.. اولا علي ان اعلم.. هل يمكنني الاعتماد عليك لانظم معك كل شيء..؟

.. لست ادري كيف يمكنني مساعدتك..؟

- انا رئيس جيش حرب العصابات الذي سيتكون من السجناء.. وانت تم تعيينك مسئولاً سياسياً عن الجيش..

- ومن هذا الذي عيّنني في ذلك الموقع الخطير دون الرجوع الي في الامر؟

- الوضع الخاص بالمكان لا يسمح لي بان اخذ معك في الحديث عن النصح والاستشارة..
- ثم ماذا؟

- لدي امر بان اخبرك بان مرتبك الشهري هو ثلاثة آلاف دولار وهي تجرى منذ عام..
عندما تصل اوربا او امريكا سوف تجد النقود في انتظارك.

- كل هذا رائع للغاية لذلك لا اجد ما اقوله لك.

- هل تريد تأكيد لما قلته لك من احد آخر..

- من يستطيع تأكيد ذلك ؟.. هل هناك اناس آخرون يعلمون بحططك؟

- هنا لا يوجد احد.. ولكن في اي وقت تريد يمكنني الاتصال بالرؤساء.

- كيف يمكنك فعل هذا؟

- في منطقة المعسكر ستحلق طائرة، وانا سأخطرهم بالاشارات.

وتحدث ايضا في هذه المحادثة التي استغرقت الساعة عن عزمه علي الذهاب الي معسكر آخر بعد تنظيم هذا المعسكر رقم ٣٣.. تحدث بان الطائرات ستلقى بالاسلحة والمؤن والتعيينات وفي النهاية ترك الامر لي للتفكير واعطاء رايي في ظرف ٢٤ ساعة.. وهل اقبل وظيفية المسئول السياسي للجيش؟.. وخرجنا انا لعنبري الذي كان ينتظر رنين الجرس.. ورقدت..

كانت اعصابي مشدودة متوترة.. فذلك الحديث كبير وخطير علي..

ولم اتم طوال الليل.. قابلت من قبل الكثيرين من المغامرين والمحرضين.. ولكن لم يكن واضحا لي في اية مجموعة اضع كاب او اصنفه.. ولم يكن من المحتمل كذلك ان يكون كاب قد حضر الي بامر من (م.ج.ب) .. وما صدقت ان احدا اعطاء مثل ذلك التفويض.. وصلت الي قرار بان كاب واحد من مجموعة العملاء الصغار الذين جندوا في المنيا الغربية وارسلوا للمنطقة الشرقية.

ولاداء المهمة الموكلة به حصل علي مئات الدولارات، وعلي وعد باطلاق سراحه اذا القي عليه الروس القبض..

العملاء كان لديهم الامر بان يواصلوا التجنيد في المعسكر.. وقد وعدوا بالجوائز السنوية بعد عودتهم من روسيا..

وكان بعضهم قد قبض عليه في المحاولة الاولى، لتنفيذ الامر. والبعض اعتقله الروس في المحاولة الثانية او الثالثة.

ومن النادر ان يبقى ذلك العميل مستمرا في عمله لمدة طويلة.. كان الامريكان ياملون وهم يلقبون بهؤلاء العملاء غير المهمين، في تحويل انظار ال.ن.ك.ق.د عن العملاء الحقيقيين.. وارادوا كذلك ان يكون لهم اناس كثيرين في المعسكرات السوفيتية، ليحركوا اذا نشبت الحرب.. كطليور خامس في المؤامرة..

وما هو كارل كاب. يذهب الي ابعاد مما طلب منه رؤساءه.
وفي محاولاته لان يعمل شيئاً كبيراً، نسي كاب عاملاً مهماً جداً.. هو ان الـنـكـقـد.
(و.م.ج.ب) بمساعدة عملائهم من السجناء سيعرفون كل خطوة من خطواته.
كيف اذن ستكون علاقتي بكاب؟
كانت هناك امكانية واحدة فقط..
ان ارفض بحزم الاشتراك في اي مشروع من تلك المشاريع..
قررت ان اقطع كل علاقة لي بهذا الشخص كاب..
وفي الحال.. وقبل ان يلاحظ احد انني اتحدث معه..
وفي الصباح الباكر استيقظت.. ولم تكن بي قوة.. قدماى لم تستطيعاً حملى .. حتى
الافطار لم استطع الذهاب اليه.. ولكنى تحاملت علي نفسي وتوجهت الي القسم
الصحي.. الي بوبوف.. رجوته ان يعفيني من العمل.. وسالني بوبوف عما بي.. قلت
له انا معافى وبخير ولكنى متعب اريد البقاء بالعنبر.. ولم يسألني بوبوف عن شيء
آخر..

امر سكرتير القسم ان يدرج اسمي ضمن الذين لا يعملون اليوم..
وعندما ذهب الجميع للعمل.. مضيت للافطار.. اكلت وجلست علي الكنية اقرا.. قرأت
عدة صفحات، ولكنى اكتشفت انني لم افهم شيئاً مما قرأت..
وضعت الكتاب جانبا وبدأت افكر.. من اين لهذا الكاب ان يعرفني.. من المحتمل ان
الذين يصدرون اليه الاوامر علموا باسماء بعض السجناء في الاتحاد السوفيتي..
ويجوز ايضا ان يكون احد في محطات الانتظار قد تحدث عني ووصفني.. فاراد هو ان
يستغل ذلك ليثبت لي انه يعلم كل شيء..

وفي خلال اليوم نمت لساعات... وعندما صاحوت احسست بانني منتعش وعندما عاد
كاب من العمل حياني بصوت عال من الجانب الآخر.. ولكنى راودت عليه من بعد لاي.
وفي وقت العشاء قل يخلق حولي كثيراً ويمر بجانبى في انتظار اشارة مني للاجتماع به
ومر المساء ولم اتحدث اليه..
وفي اليوم التالي تهريت منه..

وعندما التقينا في المساء تبادلنا التحيّة بصعوبة بالغة..
وكنت سعيداً وتنفست بارتياح لانه فهم بلا ايضاح بانني لا اربغ في ان تكون لي به
علاقة.

وسرعان ما رايت ان كاب وفرانس ستيف تربط بينهما علاقة صداقة كبيرة..
وكانا مع بعضهما بلا انقطاع...

تمشيا في الساحة وكانا يتجادلان كما يبدو في شيء ما.. بحوية شديدة..
كنت في فترة/راحة ما بعد الظهيرة قد تعودت ان اجلس الي ستيف نتبادل الاحاديث.
وسالني يوما:

- السيد شتاير ما هو رايك في كاب.. ؟

- لا استطيع ان اعطيك رايي في شخص معرفتي به سطحية..

- هل تعلم انه شخصية كبيرة..؟

- لا اعلم .. ولا يهمني ان اعلم .. وانا لا اهتم به اكثر من سجين عرفته لايام قليلة ..
وغضب مني ستيف.

ومنذ ذلك اليوم تدهورت علاقتنا .. وفترت .. حتى وصلت الي حد القطيعة والفوة .. وكنت راضيا وسعدا بذلك كل الرضا والسعادة ، فقد انتهى الخيط الذي كان يمكن ان يربطني بكاب ..

واصبح كاب شخصية محبوبة في المعسكر .. تحدث كل انسان عن القائد الاعلى لجيش العصابات .. وقد جاعني 'سجناء' كثيرون ليعرفوا رايي فيه .. وقد قلت لاصدقائي فقط ..
- هذا الرجل مغامر خطر .. يستغل شعور المارة والياس عند السجناء الآخرين .. وانا لا اعرفه ولا اريد معرفته ..

رئيسا العمل جرنيافسك وشمدت كانا مبتهجين ومسرورين بوجود كاب ، فحدثت مشاجرة كبيرة واوشكت ان تتطور الي التماسك بالايدي .. وكان ذلك مؤشرا علي ان شعبية كاب في صعود بين السجناء .. وبدأ يثير اهتمام (م.ق.د) "وزارة الداخلية" ..
وكان كاب ضيفا عزيزا تسر رؤيته مسئولو القسم الصحي ..

وقد تحدث للاطباء بوبوف وسوكولوفسك عن خططه .. وقد ابديا اهتماما شديدا بمعرفة التفاصيل .. ولم يقتصد كاب في الكلام ثرثر كثيرا ..

وابتلع الاطباء كلماته .. وعندما تركهم خرج منهم محملا بعلبة كبيرة تحتوي علي كميات كبيرة من كل انواع الفايตามินات ..

وبمجرد خروجه من عندهما كتب الطبيبان كل ما سمعاه منه وسلماه لوزارة الداخلية (م.ق.د) حدثني بذلك سكرتير القسم ..

وكان باستطاعة كاب ان ياخذ من الاطباء اياما للراحة .. ياخذها هو والسجناء الذين يتوسط لهم .. واعتقد بذلك انهم اعضاء في منظمته .. وحتى يرفع من قدر شخصيته اكثر اتى بحيل مختلفة كثيرة .. كانت طلثرات ال.ن.ك.ق.د تتحرك فوق المعسكر علي شكل دائري .. وكانت تقوم بذلك العمل الروتيني لمراقبة السجناء ولحصر رؤية اي شيء في المعسكر ..

وقد استغل كاب هذه الفرصة وخلق بينه وبين تلك الطلثرات علاقا وهمية .. كان يخرج الي الساحة فجأة امام الآخرين ويعطى اشارات غامضة بيده للطلثرات وقد صدق السجناء الذين كانوا يراقبونه ان تلك طلثرات امريكية ..

حدث هذا للدرجة التي كانت عندما تحلق طلثرة وكاب داخل العنبر، ان يهرع اليه اتباعه ويخبرونه عنها .. فيخرج للساحة وقد اصفى علي وجهه علامات الجد، واضعا يديه امام عينيه .. ويحرق في الطلثرة لعدة دقائق .. ثم يرجع الي العنبر قائلا بابتسامة غامضة هازئة:

- هذه ليست طلثرتي ..

وفي العنبر كان يحيا حياة طفيلية مضحكة.. كان لا يحب ان يعمل قط.. وكان رؤساؤه ومن معه يعينونه علي ان يبقى بلا عمل..
ولم يذق الجوع فقد درج علي تلقى اكبر جزء من الطرود.. فكل من حصل علي طرد يعتبر ان واجبه الاول هو تخصيص جزء من تلك الطرود لكاب..
وقد امتد عرض هذه التمثيلية الكوميديا وبطلها السيد (كاب) عدة شهور في المعسكر رقم ٣٣..

وذات يوم نقل كاب فجأة الي معسكر آخر..
وحين علم اتباعه ذلك اصيبوا بخيبة امل كبرى.. ولكن كاب همس في آذنه انه نقل ببناء علي رغبته الخاصة لينظم الامور في معسكر آخر.. وانه قد عين فرانس ستيف خليفة له..
ثم سار بعد ذلك في المعسكر ٣٣ علي الوتيرة العادية..
وعملت الوحدة بعد رحيل كاب بخطط جرنيفاسك الواقعية. وعادت تجارة الملابس كما كانت.. وازدادت حدتها كثيرا.

في كل صباح تذهب الوحدة الي منزل السكة الحديد، بالالات.. ثم يقضى اعماله الخاصة مع الطلقاء ومساعدى حراس خطوط السكة الحديد..
المساعدون اشترىوا الملابس التي احضرها السجناء وباعوها للمنفين من قرى بسرابيا الذين عاشوا في الاماكن السكنية القريبة.

السجناء باعوا الملابس التي حصلوا عليها في المعسكر.. والتي لم تكن تحمل ارقام السجناء.. وكان ما يباع جيدا هو احذية الجليد التي تتوفر في اي مكان آخر للبيع الحر.. وبدون هذه الاحذية كانت الحياة في سيبيريا غير ممكنة.

السجناء من وحدة جرنيفاسك لم يبيعوا ملابسهم هم فقط، بل باعوا ملابس السجناء الآخرين مقابل عمولات معينة. ولكي تنقل الاشياء من المعسكر، السجناء يلبسونها فوق ملابسهم العادية وعندما علمت الادارة بذلك شددت الرقابة الصارمة علي الخارجين.. في باب الخروج.. والسجناء الذين وجدت لديهم ملابس بلا ارقام القى بهم في زنزانه الحبس التأديبية (كارسي). ولكن التجارة ازدهرت اكثر، وفيها اشترك بعض الحرس الذين باعوا الخبز والسكر والدخان. وفي بعض الاحيان الفودكا.

كنا دائما نعمل علي امتداد خط السكة الحديد، وغالبا ما كنا نرى السفريات التي تمر بخط السكة الحديد الجديد..

كانت السفريات تتكون من السجناء والحرس. اما رحلات المواطنين العاديين فكانت قليلة جدا.

كان ترحيل السجناء يتم الي معسكرات مختلفة علي طول خط السكة الحديد من تايشت الي نهر لينا. عدا سفريات السجناء التي ذكرناها هناك ايضا قطارات كثيرة كانت تمر وهي محملة بالقرويين المرحلين من بلاد البلطيق وبسرابيا..

والذين كان يتم اسكانهم في الغابات بالقرب من خطوط السكة الحديد الجديدة بعض السفريات كانت تشبه المدن الصغيرة التي تتحرك علي عجلات.. كانت القاطرة تجر

حوالى الستين عربية، حمولة ستين طنا.. ومعنى ذلك ان بالرحلة الواحدة يكون حوالى ستة او سبعة آلاف سجين وكانت تلك العربيات تحتوى علي مطعم للسجناء والحرس.. ومحطة توليد كهربائية صغيرة لاضاءة لعربات.. وللجنود الذين يرافقون السفرية توجد ايضا ثلاث عربات مخصصة لعمليات الحراسة.. كل عربية مزودة ببرج مراقبة عليه جندى معه مدفع رشاش.. وابراج المراقبة تلك كانت مزودة بقلفونات متصلة اتصالا مباشرا مع القيادة.. اما العربية الاخيرة والاولى فكانت بها كشافات تضيء بالليل المسافة بين العربيات خلال الليل..

ودائما كنا نشاهد رحلات المجندين الجدد الذين قادوهم للمعسكر لتعلم نظم الحراسة في خدمة ال.ن.ك.ق.د ببراتسك..

وفي اللحظة التي غرينا فيها الخط وصلنا الي المحطة سفرية المجندين الجدد.. وقد راقبنا اولئك المجندون الجدد بفضول شديد وحب استطلاع اشد. ملابسنا والارقام التي عليها شدد انتباههم..

اما نحن فقد استمتعنا ايضا بمراقبة جنود المستقبل.. وفجأة انهمر علينا الخبز.. ولفافات الدخان واشياء اخرى.. ولم نستطع جمع كل ذلك.. وقد فوجيء حرسنا فلم يستطع التصرف للوهلة الاولى.. ثم سرعان ما تملكوا انفسهم وبدأوا يصيحون في المجندين الجدد.. ومنعونا ان نجتمع الاشياء التي القى بها اليها الشبان.. وبالرغم من ذلك المنع الا ان المجندين الجدد واصلوا رمي اللفافات.. وعندها امر رئيس الحرس بان يخرجوننا من نطاق المحطة.. وقد كان.. ثم هذا المجندون الجدد بعد ان اختفوا بنا عن انظارهم.. وعندنا للعمل عندما تحرك قطارهم مبتعدا عن المحطة.. ثلاثة شهور مرت بعد ذلك...

وعندما انهموا دراستهم في مدرسة ال.ن.ك.ق.د في براتسك جاعوا اليها مرة اخرى... نفس اولئك الشباب الذين القوا اليها بطعام عن شفقة ورحمة، عاملونا الآن بلا انسانية ادهشنا..

ومن ابناؤنا المحلية استبدال زمين ليعمل رئيسا للعمال بدلا عن الحرس.. وكانت وحدة زمين تعمل في نقل الحصى.. وذات يوم كان من الضروري ان تتحرك الوحدة عدة امتار للامام حتي تفرغ العربية التي كانت هناك... وحتى يتم ذلك كان لا بد ان يؤخذ اثن من الجندي.. وقد اوضح زمين للقائد الحرس الموقف وحصل علي رخصة من الجندي، لكي يحرك اللوحة التي كتب عليها (منطقة ممنوعة) عدة امتار للامام..

واخذ زمين اللوحة، واراد ان يضعها في مكان آخر.. وسمعنا صوت طلاقات يدوي ي اتجاءه..

وسقط زمين..

الجندي الذي اطلق النار علي زمين افاد في اقواله بان رئيس الحرس لم يخطره بانته سمح

بتحريك اللوحة..

هذا الاغتيال كان بلا اسلح وبلا مبرر علي الاطلاق... حتى ان مدير المعسكر سوروكين تحدث امام السجناء عن هذا الذي حدث ووصفه بالعبث.. ولكن السجناء كانوا يعلمون السبب الحقيقي..

فقبل عدة اسابيع كان علي زمين ان يظهر كشاهد اثبات ضد احد الجنود .. الذي كان متهما باطلاق النار علي احدي الشابات اثناء مرورها امام المكان الذي يعمل فيه السجناء.. وكانت هذه الشابة هي ابنة سكرتير الحزب ولم يكن الجندي يعلم ذلك.. وعمل فعلته بان الشابة ارادت ان تكون علي (صلة) بالسجناء..

وكان زمين يراقب الموقف، فتحدث في المحكمة بما رآه.. وحكمت المحكمة علي الجندي بعامين سجنًا.. ولكن زملاء الجندي الذين شهدوا ايضا المحاكمة كمدافعين عن زميلهم لم يرق لهم الامر وهددوا زمين بان "هذه هي آخرته".. وقد اوفوا بكلمتهم..

مضى اكثر من شهرين علي رحيل كاب من المعسكر رقم ٣٣ ولا احد يعلم مصيره.. ولكن الذين يحملون نفس افكاره نشروا اختلاقات وهمية.. بعضهم قال انه حر طليق وسيظهر علي رأس الجيش، ويطلق سراح الجميع.. وهذه الاخبار تولى نشرها التابعون لجيش فلاسوفليف السابق.. اما جرنيافسك وشملت فقد استعدا للحرب القادمة..

وخيل الي ان هؤلاء الناس اصابهم العمى.. اذ كيف لا يرون ان زملاءهم يطلعون الان كقذائف (م.ج.ب) علي كل ما يجري في المعسكر؟.. نسوا الخطر المحدق بهم.. وكثيرون لم يابهاوا كيف ينتهي هذا الامر؟..

كانوا فقط يفكرون في الخمسة والعشرين عاما التي يجب عليهم ان يقضوها في المعسكر..

ولم يرض احد منهم بذلك...

من قبل كان الكثيرون ياملون في الحرية علي ايدي جيوش هتلر.. والان ينتظرون النجاة من الامريكان..

والسجناء الجدد كانت تلك هي خيالاتهم بلا انقطاع..

وكان حضور الالمان والنمساويين يتواتر في كل السفريات..

الغالبية منهم حوكموا لصلتهم بالامريكان.. وكانت فترة الحكم هي الخمسة والعشرين عاما لا تقل ولا تنقص يوما.. وكانوا يحلمون نفس الاحلام في الحرية.. بعضهم حدد ذلك بعيد الميلااد.. والآخرين قالوا ان ذلك سيتم علي اسوأ الظروف في رأس السنة.. ثم حضرت الي المعسكر مجموعة صغيرة من السجناء.. ورايت بينهم كاب.. في البداية لم استطع ان اعرفه.. كان ضعيفا للغاية.. ملابسه مهترئة رثة بالية.. وانتشرت اخبار عودته بسرعة فائقة... وتسارع الجميع.. احضروا له قطع الخبز.. الراهب من وحدة جرنيافسك اهدى اليه قطعة من دهن الخنزير.. وكان كاب دائم الصمت.. واستغرب الكثيرون ذلك..

ورهبوا بالسجناء الجدد الي مكان الاغتسال فتجمع هناك كثير من الناس، لرؤية (القائد الكبير) .. ثم ظهر ستيف وامر الجميع بالعودة الي العنابر فسيترككم هو مع كاب ويعرف منه الاخبار .. ولدة يومين لم نسمع شيئا عن كاب. ثم تواترت الاخبار الاولى. قيل ان كاب قام بعملية (تفتيش) وانه اكتشف في الضفة الاخرى قرب معسكرنا مجموعة كبيرة من رجال العصابات تحت قيادة احدى الجنرالات. اخبر بذلك المقربين اليه - ستيف - جرنيافسك .. شمعدت. وقد علمت من تحرياتي الخاصة مع السجناء الذين كانوا معه انه لم يكن ابدا في ذلك الوقت - بقسم من اقسام المعسكر الاربعة. ولكنه الحق بالقسم الخامس - الخاص بقطع الاختساب.. حيث لم يجد عددا كبيرا من السذج ليصدقوا تخريفاته. مع انه تحدث هناك عن نفس الاشياء التي كان يحدثنا بها..

وقد توقف العمل جزئيا في المعسكر رقم خمسة. وعليه فقد رحلوا جزءا من السجناء الذين بدأ عليهم الضعف والهزال الي المعسكر رقم ٣٣. واشاع انصار كاب بان عودته لم تكن محض صدفة ولكنها اثبتت اكيد لقوته ومررت بالقرب منه وكأنني لا اعرفه... وفي نفس الوقت وصلت الي المعسكر من تايشت لجنة للكشف علي المطعم. وقر في افكارنا انها قد جاءت للتحقيق في الشكاوى والاتهامات الكثيرة عن سوء الاكل.. وسيادة كونوفالنكو...

وسلت اللجنة ليلا، وفي الصباح البلكر داهمت المطعم واقامت فيه.. وعندما انتهت الرقابة والفحص نصحت مدير المعسكر بتغيير كونوفالنكو. ولعدة ايام ترددت اخبار كثيرة مفادها ان رئيسا جديدا للمطعم يجري البحث عنه ليخلف كونوفالنكو..

كنت جائعا جدا فاسرعت للمطعم ابحث عن العشاء .. وعندما مررت قرب القسم الصحي نادي علي الساعى، ان حضر فورا لمقابلة بوبوف.. وكنت احمل ابناء الصفيح وملعقة الخشب عندما دخلت عليه في المكتب.. وحال رؤيت لي قال:

- الق بهذا الاناء الصفيحي واذهب الي المطعم فورا، فقد عينت رئيسا له..

ولم يهزنى ذلك الخبر او يسرنى..

فقد كنت اعلم جيدا ان مدير المعسكر وبوبوف لا يرون في الرجل المناسب لهم.. وعن لي ان اعارض.. ولكن بوبوف رفع يده وصاح بي:

- لا تتكلم اذهب الي المطعم فورا.. وساحضر انا عملية التسليم والتسلم.

في الطريق حيائني بعض الذين كانوا يعلمون من قبل ان تعينني رئيسا للمطعم هو انتصار لهم..

وقد حاولت كرئيس للمطعم ان اصنع من المواد التموينية التي كانت تحت يدي في المطعم اكلا محترما نوعا ما..

انتهيت عادة ان يطبخ الحساء والعصيدة فقط.. ودائما .. بالمعسكر..

اهتمت بان يكون الاكل منوعا..

بالرغم من ان المطعم كان خاليا.. قليل الدهن واللحم..
فاعدنا اللحم المفروم .. وطبخ اللحم بالمرق..
وسر السجناء من التغيير.. وقد ادخلت رقابية شديدة لكى امنع السرقة...
حتى ان اقسى الناقمين والناقدين اعترفوا بان النظم ولاول مرة ساد المطعم..
وشجعنى اصدقائى بان اصر على هذه السياسة فقد كان همى الا يجوع احد..
رفض فرانسيس ستيف ان يقبل منى اية مساعدة، على الرغم من انه كان في السابق
يقبلها بسرور.

كان من (مجموعة المعارضة)..
وعد عمل هذا امانة له.. فهو غير محتاج لمعونتى لان كلب كان ذا امدادات جيدة
ومتواصلة.

وذات يوم دعانى الرجل الذي يقوم باشغال المدفأة الى الحجرة..
وعندما دخلت وجد "وقدا" صديقين من عصابة فاسكين..

سالانى هل انا مستعد لاعطائهم اكلا محترما..
وكنت قد فكرت في هذا الامر بالذات كثيرا.. واجبتهم في الحال:

- اننى اريد ان اعيش في سلام..

- اذا لم تفعل فستقتلك.

وذهبا .. بعد ان هددانى..

وفي نفس اليوم حضر الى شستينوركا الناطق الرسمى بلسان المجرمين لياخذ منى الاكل
الموعود لرؤسائه.. واعطيت المجرم اكلا محترما..

وبعد ايام دعانى ضابط ال.ن.ك.ق.د. والذي اخبره الرجل مشعل المدفأة باننى اعطى
المجرمين طعاما اضافيا..

وسالنى الضابط:

- هل هذا صحيح؟

- بصراحة نعم .. انا لا اريد ان اضحى بحياتى لمطعم السجن.. انت تذكر اغتيال رئيس
المطعم السابق.. وعدم حدوث شيء للمجرم القاتل بسرابيا.

ووقف الضابط يسبنى بطريقة فاسك.

وصرفنى وهو يهددنى.

ولكنه لم يفعل شيئا.

وعلى الرغم من اننى لم اغير موقفى من رجال العصابة، الا انه كان يتعين على ان اجد
لنفسى حلا وسطا مع ضميرى.

والعمل بالضمير هو مبدأ ثابت عندي ولكننى لم اكن مستعدا للتضحية بحياتى على
الاطلاق.

وكان هناك ايضا كونوفالكو الذي لم يهدأ لحظة واحدة، وهو غير مقتنع بان المطعم
يمكن ان يعمل بدونه.. وكان يامل بان الوضع لن يسير طويلا .. وان الذين يقفون من

ورائه سوف يدعونه لأخذ مكانه القديم... ولكنه لم يكن صبورا متأنيا، أراد أن يحقق ذلك بأسرع فرصة ممكنة..

والضباط من اصدقائه الذين كانوا يتحسرون علي عهده ، اخذوا يترددون كل يوم علي المطعم ليروا هل يحصل السجناء علي كل مخصصاتهم الغذائية.. ولم ينسوا ابدا ان يفتشوا هل حصلت علي شيء اكثر من المقرر في الدهن... وهل القدور نظيفة.. الخ.. الخ.. ورغم ان كل شيء ان راعيا في المطعم الا انهم كانوا يسبون قائلين بان هذا المكان اصبح شبيها بمنزل الخنزير... اما كوموف مدير قسم التربية فقد كان يسب علنا وبالمفتوح.. قال ان كونوفالنتكو يجب ان يعود الي مكانه القديم.. سكرتير القسم الصحي حدثني عن الذي قاله بويوف لكونوفالنتكو ، وانه قام بتهذية روعه وتطبيب خاطره.. وطلب منه ان ينتظر يومين او ثلاثة وان يكون صبورا لانه سيعاد لمكان عمله القديم.

ولد اولي بويوف بوعده هذا..

مرت عدة ايام ثم جاءت ذات صباح لجنة من الضباط وعلي رأسها كوموف لكي تراقب تقسيم الاطعمة.. وعندما انتهى التقسيم اكتشفت اللجنة ان هناك خمس عشرة قطعة من العصيدة لا زالت بالية.. ووقف كوموف متعجبا..

- كيف تاتي ذلك؟.. بعد التقسيم يمكن تبقي هذه الكمية من العصيدة؟!

- عندما تطبخ لاف وخمسائة شخص انه من الطبيعي ان يكون هناك مثل هذا الفائض البسيط..

- وكيف يحدث ذلك؟.. هذا ما اريد ان تحكيه لي بالضبط.

- ليس هناك ما يحكي.. اسأل زوجتك حتى لو كان الطبخ لاربعة اشخاص فقط لا يمكن ان تطبخ طبخا دقيقا بالديكارات..

- انت قليل ادب.. هذه الكمية كنت تعدها لاصدقائك..

وصمت..

كان الامر واضحا بان المسألة تمثيلية محبوبة بدقة شديدة.. وان كل شيء كان مقررا بدقة.. وهو ان يعود كونوفالنتكو الي مكانه في المطعم.. وبعد مرور ساعة من الوقت اخبروني بان مدير المعسكر مريض لسوء الطعم... ويجب علي ان اترك رئاسة المطعم فورا.. وان الرئيس الجديد للمطعم اصبح هو كونوفالنتكو مرة اخرى.. وللمرة الثانية سلمت المطعم له.. ولكن لم يطولوا متى كما طلبوا في السابق ان ابقى طاهيا بالمطعم.. وضيعوني للعمل في اسوأ وحدة بالمعسكر.. وحدة يكتوليف... ووحدة يكتوليف هذه كانت تعمل في بناء خط سكة حديد يتفرع من الخط الرئيسي ويقود الي علق الغابة التي تقام فيها.. مبانى منطقة سكنية للعمال المنفيين للكوخوز من غرب اوكرانيا.. وكان عليهم ان يقطعوا الغابة هنا اولاً.. وكان طول هذا الفرع من الخط الحديدي احد عشر كيلو مترا.. يجب مده بأسرع ما يمكن.. كنا كل صباح نمشي للعمل مسافة ثمانية كيلومترات، وان نمشي مثلها عند العودة مساء... اما الحصى فننقله من التل القريب

بذلك لبناء الجسر وتقوية الخط.. كان العمل شاقا للحد البعيد.. ولكنني تحملت بسهولة هذا الشيء القلبي في اعماق الغابة، وهو اخف عندي من الصراع مع الضباط والمجرمين ورجال الـ إن.ك.ف.د... وكل الذين كانوا يريدون نهب الطيبات والخيرات من المؤمن التمويحية التي تخص السجناء..

تحمل جسدي الشقاء وقويت عضلاته لارتفاع المعنويات.. وكان زملائي ودودين معي.. وفي كل فرصة كانوا يذكرون بلقي كرئيس للمطعم حصلت علي مودة الغلبة السجناء..

عملت في بناء خطوط السكة الحديد لمدة ثلاثة اسابيع.. ثم ظهرت تنقلات مجموعة من المعسكر رقم ٣٣ الي معسكر مجاور.. وكان اسمي في قائمة التنقلات هذه.

وشاعت الصدف ان يكون ذلك بعد عامين من تاريخ قدومي الي المعسكر رقم ٣٣ في اليوم العشرين من فبراير عام ١٩٥٢.. وكان صعبا علي فراق اصديقي.. والسجين وفي جدا للمكان الذي اعتاد عليه حتى ولو كان العمل فيه شاقا.. وكان السجناء يخشون ان يذهبوا الي مكان جديد ظروفه اصعب واقسى من المكان القديم..

في الغابة...

قسم المعسكر رقم ٣٠ كان يبعد حوالي ستة كيلو مترات عن القسم رقم ٣٣ ومرربنا بالقرب من الغابة على طول السكة الحديد في طريق مخصص للمشاة.. ولم نجس او نشعر بالبرودة.. فقد كان علينا ان نمشي بسرعة فلكة. وقد توقفنا مرة واحدة لقضاء الحاجة..

وفي الساعة العاشرة صباحاً تم تسليمنا الى الضابط النوبتجي امام باب الدخول كان عدتنا مائة بالضبط

جئنا الى هنا لمساعد في قطع الغابة..

دعونا فرادى لمقابلة نقيب المدير.. الذي سال كل واحد منا عن مهنته..

وسمع ان هذا طبيب.. وذاك محام.. والثالث اسكاني.. الخ الخ.

ووضعنا جميعا في وحدة قاطعي الاشجار.

وفكرن بحزن.. ماهي الجدوى لضياع كل تلك الساعات فيما لا طائل وراءه..

وتم توزيعي على وحدة مكولنكوف..

وعندما دخلت في القاعة المظلمة للوحدة وقدمت نفسي لرئيس العمال سألني..

ماهي مهنتك؟

ولفجائي السؤال المضحك فضحكت.. وضحك هو مده لانه احس بان سؤاله لا محل له..

ولا جواب له في تلك اللحظة سوى الضحك..

واصبحنا منذ تلك اللحظة صديقين وبوين..

ومكولنكوف كان مدرساً في إحدى قرى أوكرانيا..

وعندما جاء الالمان استمر في عمل التدريس.. ولكن الروس بعد عودتهم حكموه بعشر

سنوات سجننا في المعسكر..

يقع المعسكر رقم ٣٠ في كوتلين..

خيل الى ان عنابره محشورة في عمق الارض..

اما المقابر التي تبعد كثيرا عن المعسكر فقد اثيرت في نفس صورة حزينة كان عدد العنابر

اثنين وعشرين عنبرا يسكن فيها حوالي الالفين من السجناء.. وكلهم كانوا يعملون

بقطع الخشب في الغابة.. ماعدا بعض المحظوظين.. وهم قلة.. عملوا في المعسكر وفي

المنطقة المجاورة يصلحون العنابر..

وعند وصولنا خيل الى ان العنابر خالية من الناس وذلك لانها كانت سكنة سكوت

الاصوات.. وقد زادت دهشتي وامتد عجبى حين اكتشفت انها مأهولة بالبشر.. بل

وممتلئة تماما.

وفي اليوم الاول عرفت اشياء كثيرة مزعجة.

كان السجناء يرهبون مدير السجن العقيد كوفاليف ويخافون منه للحد البعيد فبمعجزة

ظهوره في مكان العمل او بالمعسكر كفيل بان يجعل الاوصال ترتعد فرقا وكان العمل

المرهق الشاق قد امتص دماء الحياة في عروق السجناء.. ففي هذا المعسكر لا يوجد عمل سهل اطلاقا.. لا يوجد الا قطع الاخشاب فقط.. المرض الشديد هو الذى يسمح للسجين بسببه ان يذهب للمستشفى.. وحلول الجميع ان يكونوا مرضى.. وكل يوم ثلاثة يتقودون مجموعة من السجناء الى المستشفى.. وحرص الجميع ان يكونوا ضمن الذاهبين، ولو في سبيل ساعات من الراحة..

وكانت المأساة الحقيقية انه تحضر كل شهر مجموعات جديدة لتحل محل الموتى.. بعد الليل الذى قضيته على كفة صلبة، استيقظت باصوات الجرس العارية المصلصلة.. وذهبت مع افراد الوحدة الطعام التى ياكل فيها اعضاء عشر وحدات.. يجلسون الى مناضد خشبية طويلة.. وكان بعض السجناء الذين يعينهم رئيس العمال يحضرون الحساء في اوان خشبية واخرى من الصفيح.. في العنبر اعطونا ستين ديكجراما من الخبز الاسود.. واسرعنا.. لان امام الغرفة كانت تنتظر وحدة اخرى. وفي العنبر شربنا كوبا كبيرا من الماء السلخن الذى احضره النوبتجى.. وقبل ان يتمكن الجميع من شرب الماء الساخن، تناهت الى اذنى صلهلة الجرس اللغنية.. الى العمل..!

وخرج العمال من العنبر بلا نفس.. ووقفوا في خمسة صفوف.. وكانت السماء مازالت معتمة، عندما مررنا خلال باب المعسكر.. وفي انتظارنا ولقت مجموعة كبيرة من الجنود. مررنا اولا بشوارع واسع تجاه خطوط السكة الحديد.. وعندما وصلنا الى الحد الذى تركنا فيه قضبان الخطوط خلفنا كنا قد دخلنا في الغابة. وعبر الغابة طريق «منظف»، طوله اربع كيلومترات.. قادنا اولا الى مسلحة كبيرة نظيفة.. هي مركز اعمال الغابات.. حيث توجد المخازن التى وضعت فيها الالات بالنفض الكهريائى..

وفي اخذ العنابر كن مكتب مدير العمل.. وبالعنبر اللغنى الحرس.. اما الثالث فللساعات الاولى..

وفي مخزن خشبي مفتوح تناثرت بضعة موائد بولندية فيها طعام الافطار للسجناء.. ثم امتدت المنطقة المحاطة بالجنود والتي يعمل فيها السجناء ومساحتها كبيرة تصل الى عشرات الكيلومترات.. وحتى تتم الرقابة الدقيقة على السجناء نظفت شوارع عريضة تخللت المكان بطريقة جهنمية بحيث ان كل من يفكر في الهرب لا بد ان يمر باحد هذه الشوارع..

وفي الحال يكسلفه الجنود.. فهم يقفون على مسافات محددة بين كل جندي واخر مقدارها فقط.. عشر خطوات..

رقابة دقيقة جدا.. ولذلك فلم ينجح سجين واحد في الهرب. كنا نعمل ثلاثة ثلاثة..

اثنان يتحاوران المنشار الكهريائى او اليدوى.. والثالث يعمل بفأس قوى حاد.. يقطع

به الافرع..

تتراكم الاوجاع والساعات فيصل معدلها الى اثنتى عشر ساعة ونحن نخترق ونخترق بحار الجليد الذى يصل الى اكتافنا..

وتتساقط الاشجار.. لم تكن هناك احتياطات امان..

ومافكر احد فى سلامته اطلاقا.. كأن التفكير منحصر فقط فى طعام العشاء.. «بايكو».. وحتى يحصل المرء على اكل كثير عليه ان يعمل اكثر..

كل مجموعة من مجموعات الثلاث عليها ان تسقط مقرا مكعباً من الخشب.. وتنظفه تماماً من الاغصان.. وتنشر الجذع الى ستة امتار.. واصعب مائ هذه العملية هو تنظيف الاغصان..

وسالت منا جداول العرق الغزير خلال ذلك الجو القلرس الذى بلغت درجة البرودة فيه اربعين درجة تحت الصفر.. وملكنا نحس بالبرد الا فى وقت الراحة فقط.. واشتبهى كثيرون منا الموت..

وسمعت غناء السجناء.. كانوا يسبون امهاتهم فقد تسبين بولادتهم فى تعريضهم لما يعيشونه من ألم وحزن..

وكان عمل الوحدة التى تجر الاشجار المتساقطة عملاً شاقاً هو الاخر..

كانوا يربطون الشجر بالحبال وبمساعدة الحصان وعضلات الرجال يجرون الشجر الى المكان المحدد.

وكانت الخيل بعد ثلاثة او اربعة اشهر تصبح غير صالحة للعمل فيقطعونها للسجناء.. ومن اصل ثلثمائة واربعين حصاناً كانت فى المعسكر ٣٣ بقى مائة وعشرون حصاناً فى مستشفى الخيل.. كان المرض يصيب ارجل الخيل..

ورغم انشغالنا ببؤسنا الخاص، فقد كنا نالم جدا عندما نرى كيف تظلع فى مشيها تلك الحيوانات النبيلة.. وسوط قادتها يعوى فوق ظهورها الدماء..

حملنا الاخشاب فى عربات صغيرة بعد ذلك للقضبان الحديدية الضيقة.. والتى كانت تجرها قاطرة خاصة الى (دى - او - كى) مصنع الخشب.. او الى محطة التفريغ حيث تنقل عربات السكة الحديد الكبيرة.. ذات القضبان العادية..

كانت لدينا الفرصة الكافية والمتاحة ان نتحدث عن الموقف الذى نحن فيه..

وكان غريباً الان وبعد الحرب ان يختلف الحديث..

قبل الحرب كانوا يسبون ستالين ومعاونيه.. وكان الشيوعيون الغاضبون والثائرون على مايرتكب باسم الاشتراكية وباسم تعاليم ماركس ولينين يوجهون النقد للطغمة الحاكمة.. والان - بعد الحرب - كان السبب موجهاً تشرشل وروزفلت وبقية قادة الغرب الآخرين..

لم يستطيع الكثيرون ادراك كيفية التعامل بالقفزات - حتى بعد ان سحقت الهتلرية، والاستالينية التى لم تكن تقل عنها خطراً.

والكثيرون كانوا يحملون برؤية اولئك الساسة الكبار يعملون معهم جنباً الى جنب فى

هذا المعسكر الخاص بقطع الاخشاب.. وهم يتضورون جوعاً ويحترقون برداً..
وحياتهم معلقة بقطعة من الخبز الاسود العزير المنزل.

كان هناك المان كثيرون تعرفت من بينهم على هانس بالتسى طبيب شاب من بالتس
سيبنبرغان..

ولم تستطع ملابس السجن القاسية ان تشوه وجهه الودود..

وكان هانس بالتس يعمل في الـ (أس - أس) ..

وكلما ازدادت معرفتي به وقربي منه، كلما ازداد عجبى وفزعى من ان يعمل مثل هذا
الانسان غير العادى والذي كان دائماً على اهبة الاستعداد لمساعدة الاخرين.. ان يعمل
في وحدة القنلة السفاحين..

وسالته يوماً ما ذلك صراحة.. فاجابنى باسمأ..

لم اذهب لأعمل في الـ (أس - أس) لان اباداة الشعوب هى هوايتى..

وانما لاننى كنت شاباً غريباً متحمساً.. صدقت الدعوية الكاذبة التى زعمت لى اننى
يعمل ذاك انما اخدم اشياء جيدة..

وبعدما تابع حديثه قللاً..

اسمع يا كلرلو.. دعنى اسالك انا عن شىء هام.. دخلتم انتم كشيوعيين الحرب لكى
تحاربوا من اجل هذا الذى خلقه ستالين..؟

ولم احر جواباً..

وبالرغم من ان هانس كان طبيباً.. فقد كان من النادر جداً ان يقوم بعمل الطبيب في
المعسكر..

كيف يقف هذا المثقف على ارس الوحدة الثلاثية لكى يرض الجذوع الضخمة في الكوم
الكبير.. وخيل الى احياناً ان ذلك العمل رغم خشونته وقسوته كان سهلاً عند هذا المثقف
اكثر من سهولته عند من ظلوا يعملون طوال حياتهم عملاً جسمانياً شاقاً..

رجعنا الى المعسكر في صيف واحد..

خلف الخرس ان يفلجهم احد بالجرى في الظلمة.. وعوت الكلاب ونبحت.. وسب
الحرس ببذاعة..

كنا نجرى في الغابة مرهقين وجوعى.. فتعثر الكثيرون بجذوع الاشجار وسقطوا في
عمق الجليلد..

ساعدنى هانس ولم يسمح لى بان اتخلف.. وبعد العشاء جاء الى العنبر لكى يتحدث
معى..

حدثنى هانس عن سنين دراسته في جامعة فينا..

وعن خطيبته التى كانت ممثلة في المسرح..

ووعده ان اخبرها عن مصيره اذا قدر لى الخروج دون ان يبتلعنى ظلام ستالين.

ويوماً عدت من العمل فوجدت مفاجأة..

كان هناك طرد ينتظرنى..

وحسبت ان هناك لبسا في الامر فقد كتبت لزوجتي ان لا ترسل لي طرودا فلانا لست في حاجة لها .. كنت اعلم ان ظروفها قاسية جدا ..

سلموني في مكتب المعسكر الطرد ..

كان به نصف كيلوجرام من العسل .. ومثلها من الدهن وخمسة اكياس صغيرة من الدخان «ماهورك» ..

ونظر الى الضابط مشفقاً ..

ولكني كنت سعيداً للخالية .. فقد علمت المعنى الكبير للطرد ..

ان صديقي جوزيف بيرغر مازال حياً ..

كان يجب ان يطلق سراحه في عام ١٩٥١م واتفقنا اذا ما تم ذلك ان يرسل لي من المنفى طروداً صغيراً .. وبذلك اعلم عنوانه .. لان الخطاب لن يسلم لي ..

علمت الان انه نفى الى قرية كلزاجنسك ..

وجريت والطرد في يدي الى غنبر هانس بالتس، لكي اقسّم معه فرحتي ..

جلسنا واحتلفنا براس السنة، رغم اننا كنا في مارس ..

فقد ارسله جوزيف قبل راس السنة واستلمته انا الان لاني نقلت الى معسكر آخر شيبعنا .. وذهبنا نتمشى، وعندها كشف لي هانس خططه للهرب .. ورغم انه كان انسلناً واعياً الا ان خططه لم تكن ناضجة .. وكانت غير واقعية .. واجاهدت كثيراً لكي احول بيته وبين هذا الانتحار ..

وبعد حديثنا بايام اعطيت إشارة الانذار في المعسكر .. فاعدت كل الواحدات الى المعسكر في الحال ..

كانت مجموعة مكونة من ستة عشر سجيناً في قسم من اقسام المعسكر المجاور قد حاولت الهرب ..

كانوا يرصون جذوع الاشجار في نهر جونا .. بعد العمل وضعوا الاخشاب على الشاحنة الخاصة بالمطعم .. والذين كانوا يشحنون الاخشاب حصلوا على طعام بسيط من رئيس المطعم .. وتذكر احدهم فجأة ان هذه الشحنة يمكن ان تكون اداة جيدة للهرب ..

وكان خمسة عشر سجيناً يعرفون الخطة ..

وحدث ما ياتي .. جلس السائق في المطعم يستدق ..

وانهى السجناء عملهم في الشحن .. ثم جلس احدهم على عجلة القيادة ..

وتسلق الباقون الشاحنة

تحرك ستة عشر فقط من مجموعة السجناء .. وهم الذين كانوا على علم بالخطة ..

ضغط السائق على البنزين وتحرك بالشاحنة نحو باب المعسكر الذي لم يتحمل الضغط .. ومن ابراج المراقبة انهال الرصاص كالطر .. ووصلوا الى النهر المتجمد .. ففروا وفروا في كل الجهات .. وعندما وصل الحرس الى الشاحنة وجدوا ان اربعة من الهاربين قد فارقوا الحياة متأثرين بجراح رصاص ابراج المراقبة ..

ووجدوا ثلاثة كذلك مصابين بجروح خطيرة .. اما التسعة الذين تمكنوا من الهرب فقد

قبض على اربعة منهم.
ونفى الى علمي فيما بعد حوالى ١٩٥٣ ان احد الخمسة قبض عليه قرب نهر امور..
وحوكم مرة اخرى بخمسة وعشرين عاما في السجن..
بعد هذه الحادثة بداوا ينظفون ويعيدون ترتيب الوحدات ترتيبا جديدا وتم نقل الى
وحدة بافلوف التي تضم مجموعة من السجناء لم يبق لها الكثير من مدة العقوبة..
اكثرهم بقى له عامان..

هذه الوحدة كانت تعمل في ورديات الليل فقط..
وكانوا يشحنون الاخشاب في عربات السكة الحديد والشاحنات..
ومنذ الليلة الاولى ادركت اننى اذا اردت البقاء على قيد الحياة فينبغى على أن اهرب من
هذه الوحدة فوراً..

كنت قد اعتدت على الخوف.. والعسف.. القسوة.. وكل انواع اللؤم والشدة.. ولكن
الذى رايته هنا كان فوق كل تصور..

كان بافلوف احد الذين يوصفون بانهم سباع.. وشعاره الدائم مع الاخرين هو.. «عش
باى وسيلة كانت» حتى ولو تحطم الاخرون.. حتى ولو على انقراض وجثث الاخرين..
وكان بافلوف يفرح بانه وفي مدة الخمس عشرة عاماً التي قضاها بالمعسكرات لم يعمل
عملاً شاقاً الا ليومين فقط.. وتنقل في وظيفة.. المدير.. رئيس العمال.. الحارس.. وعندما
مرض يوماً اصبح مريضاً.. ثم اكتشفوا انه والمخزنجى كانا يخلعان اسنان الموتى
الذهبية ويقايضونها بالنقود والخمر.. وعدا ذلك فكان بافلوف تعاون مع الـ
(ن.ك.ق.د.).. والـ (م.ج - ب)..
وحصل بذلك ودائماً على عمل سهل.. وكانوا يحمون له لئلا
يصاب باذى.. فتستروا على جريمة الاسنان الذهبية..

وكان في عام ١٩٣٧م قد حوكم تحت المادة ٨٥ - الفقرة ٧ و ٨ بخمس عشرة عاماً في
المعسكر.. وكان يؤكد بانه لم يرتكب جرمًا سياسياً ابداً.. كل الخطا كان بسبب زوجته
الجميلة والمنزل الجيد في لينجراد.. زوجته كانت تريد الطلاق.. ولكنها لم تستطع ان
تحل.. مشكلة السكن..

نصحها عشيقها انذاك ان تشى ببافلوف للـ (ن.ك.ق.د.) بانه سب السلطة السوفيتية
وستالين..

وذات ليلة ليلاء انتهت كل مشاكلها التي بقيت ساكنة لسنتين طويلة في النقطة الميتة..
اعتقل بافلوف وشهدت ضده زوجته واحد الحرفيين في المصنع الذى كان يعمل به قال
ذلك العامل.. انه عندما يخطيء بافلوف يلقيه «بقمل الكولخون» ثم دخل الزوج الجديد
الى منزل الزوج القديم الذى وشى به وحوكم بتهمة الثورة المضادة..

ولكن بعد فترة وصل الى بافلوف خطاب من زوجته ترجوه ان يسامحها وتعت في
عشيقتها بلقب «ذلك الخنزير».. وذكرت انها طردته وهى الان في انتظار ان يعود لها
زوجها الحبيب.. الاصيل.. الوحيد..

وفي اليوم الاول معه..

كان علينا ان نقف صفا لنتحرك.. فصاح بنا..

يا عاهرات!! متى ستقفون صفاً؟

انتهى الدببة هل انتهيتم؟.. افعل في امهاتكم!..

اصداقاه ومساعدوه كرروا كل مايقوله وردوده.

وفي مكان العمل كانت تقف عربات السكة الحديد في انتظارنا لنحملها بالاخشاب ولكل

عربة وضعوا رجلين او ثلاثة وكان ذلك يتوقف على مقياس قطر جذع الشجرة.. وكان

جنديان يقفان امام العربّة وهما يحملان بنادقهما..

وكانت الاضاءة ضعيفة جدا.. وعلى ذلك فان جذوع الاشجار المرصومة على ارتفاع كبير

كانت مصائد فئران حقيقية..

وكان على الرجال ان يعملوا الف حساب لخطواتهم والا سقطوا بين الفجوات او

سحقتهم الاشجار الكبيرة الضخمة..

وعندما كنا نعمل كان رئيس العمال والحرس يصوبون على رؤوسنا اشنع الفاظ السباب

واكثرها بداءة وفحشاً..

وتحمل القسطنطين الوافر منها الذين لم يستطيعوا تحميل النصف الاخير في العربّة فطلبوا

عون زملائهم..

وعندما تحمل العربات كان يسمح لنا بشعل النار لنستدفئ قليلا ونحن ننتظر القاطرة.

والعربات الفارغة..

وفي العادة كان ذلك يستغرق نصف الساعة..

ويحدث في بعض المرات ان يكون خط المنورة مشغولا وعندها نحصل على ساعة او

ساعتين من الراحة..

والرجال دائما متعبون ويسيطر النعاس على عيونهم وحركاتهم.. وعملهم يتطلب تركيزا

عاليا.. وتلك هي المفارقة.. وكلنا نعلم ذلك ولكن من يفكر كثيرا في العواقب وهو بهذه

النفسية المرهقة والجسد الهالك.. وفكرت انا كثيرا في الموت..

بقي في عمان وتنتهي مدة عقوبتي..

هل سيطلقون سراحي بعدها..

كنت اعلم بان السجن الطويل ينال حكما جديدا.. بعقوبة جديدة.. واذا اطلقوا

سراحي.. هل ستكون هذه حريتي..

على احسن الفروض سيصلونني منفياً الى مكان ما.. قرية نائية ربما..

ماذا ينتظرنني هناك؟

هل تصلح الحياة بان يعيشها الانسان عبدا «لاشراكية» ستالين؟

وكما فكرت وصلت الى نتيجة مفادها بان ذلك يمكن انهلاؤه بللوت فقط..

وعندما اكون مستعدا للموت ينبعث من اعمالى صوت يقول..

ياكلرو لا تفقد شجاعتك.. عليك ان تعيش..

ومع تبليشير الصباح الاولى تخرجنا الى المعسكر.. وغالبا مكنا نصل متأخرين لساعة او اكثر..

خلف باب الدخول - في العادة - كان ينتظرنا المدير قبيلغه رئيس العمال بعدد العربات التي تم تحميلها.. فاذا كانت النتيجة مرضية صمت ولم يتكلم.. ولكن اذا كانت العربات المحملة قليلة العدد.. بدأ يصيح.. فاشست.. ايته الحيوانات المتعنتة ساريكم.. غدا لن تحصلوا على الاثلاثين ديكلجراما من الخبز فقط.

وكان سيادته دائما عند الوفاء بكلمته..

كان انسلنا شريفا!!!

لذلك نحصل في الغد على اكل العقوبة..

وبمجرد ان نخلع معاطفنا نجرى الى المطعم ليعطوننا ذلك الاكل القليل.

وبعدها نلقى باجسادنا الهالكة على الكتبت الصلبة..

وفي العادة كنا نغطي رؤوسنا بالمعاطف المحشوة حتى لا تزعجنا خطوات النوبتجي او ضوضاء الباب عندما يفتح.. وكنا ننام حوالى الخمس او الست ساعات، وهي كافية لراحتي..

ثم جاءت لحظة عدم الاحتمال..

شعرت بانني وصلت الى قمة انعطاف الارماقي وبلن كل طاقاتي توقفت وفي ذلك اليوم عندنا الى المعسكر في الساعة الحادية عشر صباحا لاننا شحننا خمسة واربعين عربة.. في تلك كان كثيرون من الذين اعفاهم رئيس العمال عند شحن العربة الاخيرة يتقدمون منهلرين تماما..

فقد انكسر علمودان وانهل الخشب المرصوص ودفن اثنان من الرجال.. اما الثالث فقد ففز جليبا ونجا بنفسه، ومات احدهما في الحال، والثاني كسرت رجله..

وجروا الميت والمكسور جليبا لان الحرس لم يريدوا حملها الى المعسكر..

وكان المعدل الاحصائي للعمل هو الهدف المقدس الاسمي الذي يجب الوفاء به.

وفي نفس الليلة حدث شيء آخر..

عين رئيس العمال مكان المصلين اشخاصا آخرين.. فسقط احدهم الى الاعماق.. وكسرت عظمة «الرقوة» في عنق الثاني..

وعندما عدنا صمت المدير..

فقد قمنا بتحميل خمسة واربعين عربة..

اوفيتا بالمعدل الاحصائي للعمل الستالين.. ولم تكت ارواح الناس ذات قيمة او اهمية على الاطلاق..

وفي اثناء العمل كنت افكر بان هذه هي اخر مرة اودى فيها هذا العمل القاتل.. وليكن ما يكون..

وما علمت كيف سأتصرف..

كان واضحاً باقى لن استطيع التصريح، بعدم رغبتى فى العمل فسينتهى بى المطلب الى (الكاريس) ..

وكان يجب ان اجد مخرجاً ..

ومع ارهاقى الشديد فقد عز على عيونى ان تجد لها سبيلاً الى النوم ..

فجئيت قلقاً افكر بعقوب وباسى . وساد العنبر سكوت ابكم .. وعند الساعة الثانية ظهراً بدأ النوبتجى فى نظافة العنبر بفرشاة المصطط ..

هل احاول ان اجد لى مكاناً فى المطعم ..؟ لم يكن ذلك سهلاً ..

يجب ان تكون لى واسطة الجأ الى عونتها .. ولكن لا اعرف اهداً هنا ..

فلقت لنفسى وذهبت الى المدير ..

وعندما فتحت باب المكتب وقع نظرى على العقيد كوفاليف مدير المعسكر، كان يوجه حديثاً صارماً بكلمات قاسية للمحاسب ..

ورأيت ان اللحظة غير مناسبة، فترددت قليلاً ثم استدرت لريد الخروج ولكنه كان قد لمحنى لصاح بى ..

ماذا تريد ..؟

وواجهته مستديراً نحوه ..

من المحتمل جداً ان يكون شكلى مربعاً لذلك سألنى بعطف ..

نعم .. تحدث .. ماذا تريد ..؟

وكانت تلك البداية مشجعة فقلت له ..

المواطن المدير انا واحد من وحدة بالفلوف .. وانا ..

ولكنه قاطعنى بحدة مدهشة ..

واحد اخر من وحدة بالفلوف ..

هذا العمل صعب على جداً .. وانا منهك ضعيف ..

من اين اجيء بالاقوياء ..؟ اين هم ..؟ كلهم يقولون انهم ضعفاء ..

انا فى الحقيقة لا استطيع اكثر من هذا ..

لا يوجد هنا عمل اخر ..

وقلت له برجاء وخوف ..

انا طاه .. ايمكن ايجاد عمل لى بالمطعم ..

انت طاه .. اه .. هنا يمكن عمل شىء .. ولكن ليس لدى رجالا يكونوا للتحميل والشحن ..

والسجناء من اصحاب الخمسة والعشرين عاماً لا يمكن ارسالهم للعمل فى وردية الليل ..

ارجو ان تعمل على تعيينى طاهياً .. مؤلفاً حتى تتحسن صحتى وبعدها ساعمل فى القابة ..

اسمع .. حتى اول الشهر ستكون فى الشحن .. وبعدها ساولفك فى المطعم ..

وشكرته ..

منحنى هذا الوعد قوة مضاعفة ..

ولكنى مع ذلك لم اهدأ..
كان معنى ذلك ان انتظر مدة اسبوعين كاملين..
لا.. لا.. هذا كثير.. انا احس بانى لن احتمل..
ولكن ما هو المخرج؟..
وتبقى لى من وقت فراغى ثلاث ساعات فقط..
فلذا لم استطع فيها عمل شىء هلكت..
وملأ بعد..
وعندها تذكرت.. ان رئيس العمال بالظروف شخص مرتشى..
والمبرر ان اعطيه خمسين روبلا، اذا اعفانى من العمل لمدة اسبوع..
كنت اعلم ان هناك احتمال كبير لان يقبل فهو يستطيع خصوصا والوحدة تعمل ليلاً ان
يقول - لى اكثر مما يعملون فعلاً
وقبلته فى الساحة.. ولم يعربنى اذى اهتمام..
وبدأت خطابه..
يارئيس العمال.. هل يمكننى التحدث معك لحظة..
ماذا تريد؟..
لم يتوقف.. وسددت عليه الطريق..
فلتذهب معى للعنبر.. هناك سنتحدث هنا الدنيا باردة..
قلها وهو يحول اراحتى من طريقه.. ولكنى لاحفته قائلاً..
اريدك فى حديث خاص.. خاص جداً..
ونظر الى بالظروف باستغراب..
هية.. تحدث ماذا تريد..
سوف يطلق سراحك؟.. واننا لى خمسون روبلاً يمكن ان استغنى عنها لك.. سوف
اعطيك تلك الروبايت اذا اعفيتنى من العمل لمدة اسبوع.. ها.. ماقولك؟..
لا.. لا.. كيف تتأكد ذلك؟.. هذا غير ممكن..
- اعلم انك لا تثق لى، فانت لا تعرفنى جيداً.. ولكنى قضيت بالمعسكرات ستة عشر
عاماً.. واعلم ما هو الممكن وغير الممكن.. ولن تخسر معى اذا جربتنى..
- سوف افكر فى ذلك.. تعال الى قبل العشاء..
وعرفت عندها انى كسبت الجولة الاولى..
والآن كانت المشكلة هي كيفية اخراج الخمسين روبلا التى خطتها داخل ثنيات بنطالى،
دون ان يلحظنى بقية السجناء..
صعدت الى الكنية وخلعت بالنطال.. وتحسست مكان النقود.. وبحذر شديد بدأت افك
الخيطة، كان على ان اتوقف مرات كثيرة لكل حركة من جيرائى.. واخيراً نجحت..
واتى وقت العشاء.. وتوجهت الوحدة نحو المطعم.. وبخل رئيس العمال فى آخر
المجموعة ووافقت خلفه..

وكان ينتظرني .. لانه لم يفلجا ..

ولم افتح فمي بكلمة .. او حتى احبيه .

قال من بين اسنانه :

.. يمكنك البقاء في العنبر ..

.. شكرا لك ..

.. ودست النقود في يده ..

.. سوف ترى اي نوع من الناس انت ..

.. يمكنك ان تطمئن .. وقريبا ساعمل في المعطم ولن انسك .

.. ابحت عن طريق المعطم .. فهو عمل جيد ..

بعد مدة طويلة قبض لي ان ارتاح قليلا .. وكنت سعيدا مرة اخرى .. وبانتهاء فترة

العشاء كان علي ان اكون حذار حتي لا اثير الشبهات .. يجب ان يحمي الرجل الحق

اصدقائه .. ومن يتعامل معهم .. ومع بساطة امرى وباننى يمكن ان ازعم اي شيء .. مثل

اني كنت اعمل نهارا الا اننى قررت البحث عن مكان في عنبر اخر ..

واتجهت الي هانسي بالتس لكي يساعدني ..

حكيت له امر اتفالى مع رئيس العمال ..

وسالته :

.. اين استطيع ان احطرحاى ؟

واقترح علي هانس ان اتى اليه وانام في الكنبه بينه وبين الالمانى الثانى ..

وهكذا مر الاسبوع ..

لم يكتشفني احد .

ومعين ذلك انه يتوجب علي ان اذهب الي العمل .. فنقودى قد نضبت .. وعملت جردا

لحاجياتى التي كانت في الحقيبة اليابانية .. من المجتمل ان اجد شيئا يصلح اعطؤه

لبافالوف لكي يعطيني من العمل ايماا اخرى ..

كان لدي حذاء وقطعتان من الملابس ..

وانتظرت الفرصة لكي اتحدث مع رئيس العمال في "عيون اربعة" .. وفي انجداية لم يرد

بافالوف ان يسمعني .. ثم قال لي :

.. نقودك اقتسمتها مع الحارس فقد لاحظ غيابك من اليوم الثانى .. وجادلته كثيرا .. وفي

النهاية حصلت علي اسبوع آخر .. "اجازة" واخيرا اتى اليوم الذي مثل انتظري له ..

ذهبت الي المكتب لانكر المدير بوعده ..

وفي اللحظة التي دخلت فيها وجدته هانجا يسب مجموعة من رؤساء العمال .. ويلومهم

لان وحداتهم تعمل برداءة وسوء ..

وانتظرت لحظة مواتية ..

وتقدمت نحو المدير .. وذكرته بالامر ..

وفكر طويلا .. ووقفت املمه خائفا متوترا بلا كلمة ..

واخيرا تمت بشيء.. وبصعوبة فهمت ان على ان ابحث عن رئيسي..

ویمحض الصدفة دخل بالفلوف المكتب.. وسأله المدير:

- بالفلوف.. هل هذا الرجل من رجالك؟

- نعم.. المواطن المدير: انه من وحدتي..

- كيف يعمل..؟

- جيدا.. جيدا جدا المواطن المدير.

- انه يريد ان يعمل في المطعم.. ماذا ترى؟ هل سيكون مفيدا هناك ام انه يريد ان

يسرق؟؟

- انه عامل ذو سحر.. وليس لصا..

- نعم.. نعم.. اعرب مثل هؤلاء القسس.. انهم اسوأ اللصوص..

- الرجال في الوحدة وقد كانوا معه في القسم الثاني من المعسكر يقولون انه طاه جيد

جدا.. ويؤدى واجبه بضمير حي..

- جيد.. سنحاول معه.. دعن يعمل حتي الثالث من الشهر وبعدها سناخذه في المطعم..

وانهى حديثه عند ذلك.

ولما كنت متأكداً من اننى ساعمل طاهياً.. فلم يكن من الصعب على ان احصل على

ثلاثة ايام اخرى «اجازة»..

وفي اليوم الثالث حضر الى المدير واخبرني ان اذهب الى القسم الصحي لكي

يفحصني الدكتور (سجوك) بدقة، بحضور رئيس القسم..

وسألني الطبيب..

- هل اصبحت بمرض جنسى..؟

- كلا..

وبعد انتهاء الفحص اخبرني رئيس القسم الصحي بان اعمل في المطعم بضمير وان

انسى ان لي اصدقاء.. وقال انى لاقل هفوة سانال عقاباً صارماً.

وأقدمت نفسى لرئيس المطعم واعطيته الوريقة التي حصلت عليها من رئيس القسم

الصحي..

وكان رئيس المطعم من القفلان.. ويتحدث الروسية بلهجة قفلقازية.

سألني عن اعمال الطبخ.. وعندما قلت له اننى استطيع طبخ (قائمة طعام) المعسكر

من الذي تعلمته في نورلسك قال لى..

- اخيراً يوجد من يتكلم الحقيقة.. الجميع كانوا يقولون أنهم عملوا في ارقى مطاعم

موسكو ولينجراد.

واستطعت ان احوز على رضائه.. خاصة عندما علم اننى لست روسياً.. كان يتكلم

الروسية بصعوبة شديدة.. حتى انه لم يلاحظ كيف اتحدثها انا نفسى بدرجة سيئة.

اتفلقنا ان ابدأ العمل معه منذ صباح الغد عند الثامنة صباحاً، في ودية النهار ومن

المطعم ذهبت الى الصديق هانس بالنتس لكي اخبره عن تطورات الموسع.
وعندما دخلت اليه في العنبر لم يكن خبر تعييني مفاجئاً له..
قال لي.

- اعلم كل شيء..

- اذن لا داعي لان اتحدث..؟.

- تكلم.. كيف تمت المسالة؟.. يهمني ان اعرف..

فحدثته بالتفصيل..

منذ دخولي القسم الصحي الى حديثي مع رئيس المطعم القفازي..

وحذرتني قائلاً..

- ستواجهك صعاب جمة ان اردت سلوك نفس طريقتك القديمة في مساعدة الآخرين
والاجانب.. اما انا فلا تعطيني طعاماً اكثر من حقي فالجميع يعلمون اننا اصدقاء..

- اسمع.. الفضل الرجوع للعمل كقاطع للشجر في الغراء والبريد، على ان اعمل في
المطعم، ولا يسمح لي بمساعدة الذين لا يجدون من احد.

كان المطعم يقع في عنبر طويل.. ويطبخ فيه لافى شخص مرتين كل يوم.. ولم تكن به
غرفة ملحقة لتجهيز وتوضيب العمل.. وعلى بعد امتار قليلة كان البديوم وبه عشرة من
المعوقين يقومون باعداد الخضار للطبخ. وكان الماء يجلب من البئر الذي يبعد حوالى
خمس مئراً..

وعمل الطبخ في العادة يقوم به طاهيان يعملان بالنهار.. ومثلهما بالليل. ساعدهما اثنان
في ورديه.

ادوات المطعم كانت قليلة ولا تكفى.. ثلاثة قنور كبيرة وموقد كبير.. ولم تكن هذه
الادوات كافية لاعداد طعام جيد.. ولا حتى من النوع السهل البسيط وكان هناك طعام
خاص الاعداد لخمسين مريضاً..

لم تكن بالمطعم انظمة للتهوية.. كانت القاعة تملأ بالبخار الشديد، خاصة عندما كنا
نطبخ في وقت واحد وعلى قنور عديدة.

وكالعادة في كل المعسكرات.. كان طعام السجناء يتكون من الحساء والعصيدة. واما
جائزة الذين يوفون بالعدل الاحصائي للعمل فهي حصولهم على قطعة من السمك
الملوح.. وعلى خمس ديكجرامات من اللحم المملوح احياناً. في اليوم الاول.. وبعد ان
عدت الى العنبر من العمل في المطعم سألت نفسى - ترى ايهما احسن.. العمل في الغابة
ام في المطعم..؟.

لو علمت فقط انهم لن يرسلوني ليلاً للشحن في الغابة ولكن لقطع الشجر بالنهار..
لتحركت نهداً للعمل في الغابة.

بعد عدة ايام صار العمل بالنسبة لي سهلاً، فقد تعرفت جيداً على كل ظروف المطعم.
في اليومين الاولين سلك بلديلتى سلوكاً ممتازاً - والفضل يرجع لهانس الذى طلب منهم
عدم مضايقتى طلباً للمساعدة.. ولم يهاجمونى كما كنت اتوقع للحصول على مزيد من

الطعام.

ولكن سرعان ما نبع الضغط وتدفق تياره.

قليلون منهم كانوا لا يبحثون عن الطعام.. ولكن البقية كانت جائعة مسعورة وقد اعطيتهم ما استطعت.

حساء.. عصيدة.. قطعة من السمك.. وهكذا..

كانوا يدورون حول المطعم يبحثون فرصة سانحة يتحدثون فيها الى متوسلين جائعين.

ولم يكن في استطاعى الذهاب الى دورة المياه، دون ان يوقفنى احد يسال اكلا.

الذين اعطيتهم شكرونى.. ومن لم استطع اعطائهم شيئا سبونى ولعنونى.

في زنزانة الحبس التأديبية - كارسر

ومرت ثلاثة أسابيع..
وفي إحدى الأمسيات عدت الى العنبر.. وصعدت على الكنبه التمس راحة من عناء يوم
حافل كثير العمل.
دخل الحارس فجأة وامرني ان اتبعه.
وطعته بدون نقاش.. وفي الطريق سألت نفسي.. عن سبب استدعائي المفاجيء.. ربما
يكون المدير في حاجة الى ان اوضح له شيئاً..
او ربما وشى بى شخص ما..
فتح الحارس بمفتاح معه الحاجز الذى يقود الى زنزانة الحبس التأديبية..
وقفت متردداً.. ولكن استحثني قائلًا..
..تعال.. تعال..
وتحركت خلفه في الفناء.. وبعدها الى زنزانة الحبس التأديبية - كارسر..
قادتنا الدرجات المنحدرة الى قاعة باهتة الضوء.
اخرج الحارس من جيبه ورقة، ومدها لى لى اقرا ما هو مكتوب فيها..
«ادارة المعسكر على علم تام بان السجن كارلو شتاينر الذى يعمل طاهياً قد قام باطعام
عصابة الاجانب.. ومخالفته قانون المعسكر يحاكم شتاينر بخمسة ايام سجنًا في زنزانة
الحبس الانفرادى التأديبية - كارسر..»..
وكان التوقيع على هذا الحكم هو توقيع العقيد كوفاليف مدير ادارة المعسكر القيم ٥٠..
ولم اقل شيئاً..
فتح الحارس احدى الزنزانات الاربع..
كان فيها كنبه جلس عليها شخصان.. لم استطع معرفتهما في الظلام. وعندما تحدثت
اليهما عدة كلمات تبين لى ان احدهما كورى والاخر روسى..
كنت متعباً جداً.. ووقدت على الكنبه الصلبة.. وغرقت فى النوم فوراً..
وعند منتصف الليل صاحوت.. كان جسدى متصلباً من البرد والصقيع..
وقمت اتمشى هنا وهناك فى الممر الضيق..
محاولة يائسة لجلب الدفء.. لم تحقق نجاحاً بالمره.. كانت رياح اكتوبر القاسية
تهب بكل عنفها وجبروتها.. فيستحيل معها الدفء بتلك الطرق ولم يستطيع رفيقائى
النوم..
جعلنا يتمشيان كما افعل.. فى ذلك الممر.. الواحد خلف الآخر..
وجاء الصبح..
من خلال النافذة الصغيرة المسورة بالقضبان تسرب الضوء الى حجرتنا.. وراينا ما
احضر لنا من طعام..
ثلاثين ديكا جرام من الخبز وانا به ماء سلخن..

بالطبع ذلك هوو الطعام في (الكارس) .. وهذه هي وجبة كل يوم. وقبل الظهر لم نقاد الى العمل.

جاءنا الحارس في الساعة الثانية بعد الظهر واخرجنا امام الثكنات.

قمنا بحفر حفرة عميقة لاعمدة الكهرباء..

وعند الثامنة مساء اعدونا الى مرة اخرى للجحر.

وفجأة سمعنا طرقة خفيفاً على النافذة..

نهض الكورى من الكنبه وقبض على قضبان النافذة مقترباً من الفتحة..

وسمع من يقول..

- هل كارلو شتاينر..؟.

جررت الكورى من قدميه منفعلا وتسلمت ..

- هل انت كارلو..؟.

تعرفت على صوت هانس يقول.

- كيف يمكنني ان اعطيك خبراً؟..

ورغم انه كان يهمس الا ان الكورى سمعه.. فصاح قائلاً..

- اكسر الزجاج..

وسمع صوت كسر الزجاج واندفع في الزنزانة تيار الهواء البارد..

وبصعوبة استطاع هانس ان يدخل قطعاً صغيرة من الخبز..

وعندما كنت اتحدث معه التهم الكورى قطع الخبز..

ونزلت سريعاً لنلتصم الخبز.

اعطيت الروسى قطعة كبيرة فاحتج الكورى..

ولكن الروسى ذكره بانه اكل قطعة اكبر منها قبل قليل.

وكنت ممتهناً شاكراً لهانس صداقته واخاءه وجراته.. فقد اقتحم الخطر منذ اليوم الاول

وتعدى صفوفاً كثيرة من الاسلاك الشائكة.

وعندما قلت للكورى اننى لم اتبين من يساعدنا للظلمة الحالكة قال لي بصفاقة شديدة..

- انا اعرف من كان هناك.. انه ذلك الطبيب الالماني.. صديقك واجابه الروسى نيابة

عنى..

- التهمت الخبز فماذا تريد اكثر..؟.

في اليوم التالي جاء هانس مرة اخرى..

فصعدت الى النافذة واخرجت الخرقه التى سدت بها فتحة الزجاج المكسورة..

وتدقق الخبز ومعه قطعة من السكر..

وقسمنا الوليمة الى ثلاثة اجزاء.. متساوية تماماً..

وكنت قلقاً على هانس.. فمن اين له هذا الخبز وهو لا يملك ما يكفيه.

وفي اليوم التالي عندما ذهبت للعمل لاحظت ان الكورى وقف ليتحدث مع الحارس..

وفي الحال عرفت انه يبلغ عن هانس وعنى.. وقال الروسى..

-وشى بك الكورى لاجل الخبز..
 -لقد نال نصيبه..
 -نعم ولكن مع امثال هؤلاء الناس.. لست فى امان..
 -كنت افهم موقفه لو اكلت الخبز مفردى وتركتكما..
 -بعض الناس تجرى الخيانة فى دمه...!!
 وعندما عدنا بعد العمل الى الزنزانة نظر الحارس صوب النافذة وقال..
 -من الذى كسر الزجاج...؟
 اجابه الروسى قائلاً..
 -عندما جئنا الى هنا كان الزجاج مكسوراً من قبل ونحن سدّدنا بالخرق..
 وصمت الحارس.. وخرج من الزنزانة.
 وكنت سعيداً لأن الامر انتهى بسلام..
 اليوم الرابع كان يوم سبت..
 اخرجونى من الكاسر. وقال لى الحارس انه يقودنى لضابط ال (م.ج.ب).
 واستقرت جداً..
 خيل لى ان عمل بالمطعم لا يمكن ان يؤدى بى لمثل هذا التحقيق عند ضابط امن الدولة.
 ولكن لا يهم ساجد بعض الدفء هناك.. وكان ذلك هو اقصى ما اريد، فى تلك اللحظة.
 والى غرفة بجانب غرفة المدير قادنى الحارس.
 كان ضابط ال (م.ج.ب) يجلس قرب الآلة الكاتبة وهو يرتدى زياً يختلف عن زى ال
 ن.ك.ق.د فى شيء واحد هو علامات الكتف الحمراء القانية.
 وعندما دخلت ابتسم الضابط وكأنه يلقى احد اصدقائه القدامى.. ولم اجد تفسيراً
 لذلك.. فنظرت اليه غير مكترث لما يبدو عليه.
 -كيف تشعر الآن...؟
 ولم يكن السؤال جديداً.. فقد تعلمنا من التجربة انه وحين يريد احد ضباط ال ن.ك.
 ق.د و (م.ج.ب) ان يعبر عن تعاطفه مع السجين يوجه له ذلك السؤال.. وبهذه
 الصيغة.
 -لست اشعر اننى بخير على وجه العموم..
 -كيف ذلك...؟ تعمل بالمطعم وتشكو سوء الحال...؟-اولاً.. لا اعمل بالمطعم.. بل اجلس
 فى (الكارس) ثانياً العمل فى المطعم اقل سوءاً بدرجة طفيفة..
 -لماذا انت فى الكارس...؟
 -لانى اعطيت بعض بلدياتى قليلاً من الحساء..
 -سوف آمر باطلاق سراحك من الكارس..
 -ان يكون هذا ضرورياً، لان غداً هو اليوم الخامس وسيطلق سراحى فيه.
 ونهض الضابط.. واشعل سجارة.. واخذ يتمشى فى الغرفة وعندما وصل فى تدخينه الى
 منتصف السجارة سألنى.
 -هل تريد واحدة...؟

.. لا.. شكراً.. انا لا ادخن.

وتابعت عيناى الضابط وهو يتمشى فى الحجرة.. جلست ساكناً بلا حراك.. افكر..
ماذا يعدون فى هذه المرة؟..

كنت اعتقد اننى اعرف واتعامل مع نوعين من انواع سلطة القمع من جهاز بولس
ستالين.. ال ن. ك. ق. د وال (م. ق. د).. ولكن الآن ادركت انه يتوجب على ان اتعرف
على النوع الثالث ايضاً.

ضابط ال (م. ج. ب) كان متوسط الطول.. عريض المنكبين.. مستدير الوجه.. اشقر
الشعر.. وعلامات كتفيه تنبىء بلته فى رتبة الرائد.
واخيراً جلس الرائد.. اتكأ براسه على يده اليمنى وسألنى..

..الك مدة طويلة فى هذا المعسكر؟..

..شهران بالتقريب..

..كنت فى المعسكر رقم ٣٣..

..نعم..

..انا اعرفك.. واعلم انك كنت فى المعسكر رقم ٣٣..

..تقول انك تعرفنى؟.. انا اراك لأول مرة.

قلت ذلك ونظرت اليه باستغراب..

..اعلم عنك الكثير..

واعتدل الرائد فى جلسته واستمر يقول..

..من الذى حضر معك من المعسكر رقم ٣٣ الى هنا؟..

..اعرف عدد قليلا من المئات الذين جاعوا الى هنا..

..اذكر اسمائهم..

قلت له اسمين.. او ثلاثة طافوا بخاطرى لحظتها..

..من هو صديقك فى المعسكر رقم ٣٣؟..

..فى المعسكر رقم ٣٣ لم يكن لى اصدقاء.. صديقى الوحيد هو جوزيف بيرقر ولكنه رحل..

..كاب.. وستيف.. الم يكونا اصدقاء لك..

..الواقع عكس ذلك.. لقد كنا من اعدائى..

وفوجىء الرائد..

..كيف ذلك؟..

..لم اكن ارغب ان تكون لى اى صلة بالمغامرين..

..معروف لدينا.. انهم يحملون نفس افكارك..

..من اخبركم بهذا مخطيء كالعادة.. دائماً ينقلون لكم عكس الصواب.. انا اؤكد لك انه

لا شىء يجمعنى بهؤلاء المغامرين..

..حسناً.. سنتحدث فى ذلك غداً.. اليوم انا مرتبط

وصرفنى الرائد.

وذهبت الى العنبر.. وقررت ان لا اذهب للكاريس الا في المساء.. متوقعاً ان يجهل الحارس وقت انتهاء الاستجواب.

صعدت الى الكتبة افكر في هدوء شديد.. ما معنى ذلك؟.. هذا هو التحقيق الثالث. اذكر انه قد بقي لي ثلاث سنوات من عقوبتي الاولى عندما اُضيف لي فور هوف عشر سنوات اخرى.. والآن بقي لي ستة عشر شهراً.. والامور واضحة..

لن استطيع الفكك من مخالب ال ن. ك. ق. د / وال (م. ق. د) وال (م. ج. ب).. هل من الممكن ان (يضيفونني) الى مجموعة كلب وستيف وجرنيافسك...؟ وهكذا ينتهون مني أخيراً...؟

ورقدت لعدة ساعات.. لم احس بالجوع او النعاس.. ولا حوجة لي باى واحد مهما.. رغم اننى لم اذق شيئاً دافئاً ولا نوماً لمدة اربعة يام. انا منهمك.. مرهق.. متعب.. ولست ابالى. ليكن ما يكون..

لا املك قوة لاغير بها شيئاً مما يجرى لي. ونزلت من الكتبة.. اردت الذهاب لهناس.. ثم تذكرت ان الوقت مبكر.. ولن يكون قد عاد من العمل بعد.

وفجأة شعرت بالجوع.. وتوجهت نحو المطعم.. وصادفنى الحارس.. سالنى ان كان التحقيق قد انتهى.. وعندما اجبت بالاجاب لم يريد ان يلودنى فوراً.. سمح لي ان آكل غداءً وأفرأ أعطنى اياه اصدقائى في المطعم.. وبعد ذلك قادنى الى الكاريس.

واهتم الروسى والكورى بمعرفة اين كنت.. وعندما لاحظا انى لا اريد ان اجيب عليهما تركنى لحالى.. وجلست افكر.. وفجأة طلف بذهنى ان بعض اصدقائى كانوا قد اخبرونى ان (م. ج. ب) حقق معهم في المعسكر رقم ٣٣ - وطلب منهم ان يعطوا معلومات عن اعدادى لثورة مسلحة.. وقد ظننت وقتها انهم اختلقوا ذلك ليحصلوا منى على طعام زيادة.. انهم اذن يبحثون عن شهود اثبات ضدى.. ومثل اولئك الشهود عندما يكون الباحث عنهم هو ال (م. ج. ب) فسيجدهم بالتأكيد. والمثل الروسى يقول:

«بيلابى قولوقا - هوموت نايدستا..

«اذا كانت هناك رقبة فسيوجد اللحم»...

وفي يوم الاحد انقضت فترة العقوبة.. في الكاريس..

وفي الساعة التاسعة صباحاً حضر الحارس واطلق سراحى، رغم ان العقوبة تنتهى في الساعة التاسعة مساء.. وحذرنى الحارس من الخروج للفناء فمن المحتمل ان يرانى احد، ويلاحظ ان سراحى قد اطلق مبكراً.

وفي الحال ذهبت الى هانس الذي سر جداً ، لانقضاء تلك الفترة العصبية ..
ومضى هنا وهناك يبحث لي عن قليل من الخبز .. واستطعت ان اثنيه عن عزمه ذاك
بعد تعب شديد .. ولم يصدق اني بالامس تناولت طعاماً جيداً في المطعم ..
وتحدثنا عن المكان الذي سيرسلونني للعمل فيه ..
ووصلنا الى نتيجة انه سيكون بانتظارى اشق الاعمال ..
شحن عربات السكة الحديد في ودية الليل ..
ولم احده عن التحقيق ..

اولاً .. يجب علي ان ابحث عن ملابس ثقيلة وعن حذاء الجليد ..
فقد اخذوا مني كل هذه الاشياء واعطوني بدلا منها بنظالا ضعيفاً وحذاءً للعمل في
المطعم ..

وذهبت الى امين المخازن ارجو ان يوفر لي طلباتي ..
ولكنه ذكر لي ان المدير لم يعطه تعليمات بارسالي للعمل في الغابة ..
وسمعت صوت الجرس .. ولم اعلم او اخبر بالوحدة التي سأنتمي اليها .. وجريت
للحارس اسأل ..

فاجابني .. مرة اخرى ..

- انتظر في العنبر ..

واصبح العنبر خالياً بعد انصراف الجميع للعمل .. وحين وصلت المراقبة والتفتيش
اجاب النوبتجي ..

- المواطن المدير .. ان الوحدة المكونة من ٤٢ رجلاً ذهبت كلها كاملة لاماكن عملها ..

ومن الباب الذي مدير القسم العمل نظرة على العنبر ..

ثم استدار منصرفاً هو ومساعدوه ..

لم يلاحظوني ..

حتى النوبتجي نسي انني رقد على الكنية ..

ومرت ساعة من الوقت .. دخل الحارس وسأل النوبتجي عن مكنتي .. وعندما تذكر اني
بالعنبر .. وارقد على الكنية .. ايقظني بان جرتني من قدمي .. وقال لي ..

- الى المدير ..

ونزلت من الكنية .. واتجهت الى مكتب المدير ..

وعندما طرقت الباب سمعت صوت كوفاليف العميق يقول ..

- ادخل ..

وبقي الحارس بالخارج .. وحال دخولي طفق كوفاليف يمسخني بنظراته الفاحصة من
راسي الى اخمص قدمي .. ووقفت بلا حراك .. فسألني ..

- اها .. ماذا .. ؟ ..

وصمت .. فسألني مجدداً ..

- هل كان صواباً حيي لك في الكارسي .. ؟ ..

ولم اجب ايضاً..
وبدا يفقد صبره..
هل بلغت لسانك؟..
..من وجهة نظرك. تصرفك صواب..
..آه.. من جهة نظرى.. ومن وجهة نظرك انت لا؟..

على الرغم من انك وزعت الاكل على اصدقائك ملء كفيك وطاقتك.. وكان ذاك خصماً
من حقوق كل السجناء؟..
- المواطن المدير.. ان ما قسمته هو الذى تبقى في القدر. بعد ان حصل الجميع على
طعامهم.
- لا يجوز لاحد ان يحصل على جرام واحد، زائداً على استحقاقه. لان الذى تفعله يمنع
عمال الغابة من الوفاء بمعدلات الانتاج المقررة.. فلماذا ينتجون - وللطاهى ام طيبة،
وهو يعطيهم ما لا يعطيه المدير..
وصمت.. كنت اعرف ان كل المديرين على حق.. ولا احد منهم يقبل ان يعارضه سجين.
قال لي بعد ذلك.
- عد الى عملك.. والويل لكل اذا زدت اهدأ ما ملعقة من الحساء..
وفوجيء رئيس المطعم بعودتى للعمل من الحبس.. ولكنه كان مسروراً جداً.. وعند
تقسيم العشاء وقفت مرة اخرى امام نافذة المطعم.
نظروا لي..
كانوا مذهولين وكانى هبطت من السماء..
وفي العشاء قابلت هانس ايضاً..
قال لي..
- من النادر ان يعود احد من الكاسر للعمل في المطعم!..
- هذا يعنى انهم يقدرونى جداً بعمل.

للمرة الثالثة في سجن التحقيق

ومرت أيام أربعة..

وفي ظهر اليوم الخامس دخل المدير المطعم.. وقال لى..

اعطني اكلا واذهب للعنبر.. ستنقل للقسم رقم ٢٥ -

في البداية حسبت انه يمزح.. ونظرت اليه متسائلا..

- نعم.. نعم.. انا اكلم جادا.. سوف تذهب للمحطة المحطة المرحلية.

ومن حديثه ذاك علمت ان القسم رقم ٢٥ هو محطة مرحلية.. «اوزلاق».. وكان يشغلنى هاجس ملح هو ان اودع صديقى الوحيد هنا.. ولكن هانس كان في موقع العمل ولن يعود قبل الساعة الثامنة مساء.. وشاعت الصدفه ان يتأخر الحرس الموكل به مرافقتى للمحطة.. وهكذا استطعت ان اجد هانس.

حكيت له امر التحقيق.. وذكر لى ان المرجح هو ذهلى للسجن.

وكان الوداع مؤثرا وكاننا اصدقاء عمر قديم.. ولم اره بعدها ابدا.. ولكنى سمعت في عام ١٩٥٥ من احد القادمين من تليشت بان الـ (م ج ب) سلم هانس ومجموعة من مواطنيه الرومانيين للسلطات الرومانية.

وعند التاسعة مساء رافقتى جنديان للكيلو ١٢٩.. وهو المكان الذى يقف عنده قطار الركاب المنتظم من «لين» ومن هناك الى تليشت.

كانت الليلة باردة.. والسماء صافية مزودة بالنجوم.. وكان القمر كذلك مضيفا وكأنه اراد ان يشر لنا الطريق في الغابة المظلمة.

ومشيئا نحو محطة السكة الحديد.

وسار احد الجنديين امامى والاخر خلفى.

ولما كان ميعاد تحرك القطار بعيدا ولم يحن بعد.. فقد سمحوا لى بان ارتاح في الطريق عدة مرات.. وان اخلع الحقيبة من على ظهري.. وعندما وصلنا كانت الساعة تشير الى العشرة والنصف.

وجلست على الحقيبة امام مبنى السكة الحديد في انتظار القطار وتمشى الجنود امامى.. كانوا يدخلون ويستدفئون.

وقبل الحادية عشرة بدفلق وصل جنديان آخران مع سجين من المعسكر رقم ٣٣. وجيا الجنود بعضهم بعضا وسمحوا للسجين ان يجلس قريبا.. وكان السجين هو دكتور دولكن.. نفس الطبيب الذى كشف على عند حضوري لسجن الكسنبروهسك المركزى والذى اعطانى الدرجة الثالثة للعمل.

حييته.. فقال لى انهم يقودونه للمعسكر رقم ٢٥ -

وصل قطارنا متاخرا لمدة اربعين دقيقة.

وادخلونا الزنزانة المتحركة «السجن على عجلات»..

استمننا مع اوراقنا ضابط.. وهو يقول..

- ادخلوا.
وصلنا مبكرا الى محطة تايشت.
وهناك قابلنا الجنود يشقائهم وسبلهم المعهود..
وظلوا منا دون مبرر ان تسرع..
وعند باب المدخل كان بإمكاننا ان نلاحظ التغيير الذى طرا على المكان فى مدة
الستين.
كان الباب ضخما.. وامله صفان من المتاريس المضادة للدبابت والتي دلفت فى
باطن الارض.
وكانت العربات تستطيع الدخول للمعسكر اذا مالت قليلا على احدى جنبها..
ورائنا سيارا طويلا ارتفاعه ستة امتار.. وفى كل مكان آخر كان الجنود يتحركون وعلى
ايديهم المدافع الاتوماتيكية.
كانت مجموعتنا مكونة من مائة وعشرين سجينا تم استلامنا بواسطة عدد من
الضباط ومجموعة كبيرة من الحرس.. وقد اخذت عملية الاستلام وقتا قصيرا نسبيا..
وكان يقف فى الجانب الاخر بوليس المعسكر، الذى بدأ افراده فوراً فى تفنيس
حاجياتنا.
قاموا اول شيء بفصلى وفصل دكتور ديكلن عن بقية السجناء.. وتم اسكان الباقين فى
العنبر الرابع..
اما نحن الاثنان فقد اقتادونا الى عنبر كان به فقط السجناء الذى اثاروا اهتمام قسم
التحقيقات.
لم استطع ان اعرف المحطة المرجلية (اوزلاق) جيدا، فقد تغيرت كثيرا.. كانت
الحيوية تسود هذا المكان يوما ما وكان السجناء يتجولون بحرية بين العنابر.. حتى
عنبر النساء الذى كان يحرسه جنديان معوقان وكان معزولا بالسلك الشائك... ثم نقله
الان الى مكان آخر محاط بسور عال من الاخشاب.. مضت الايام التى رقصت فيها النساء
مع الرجال.. ويكفى اليوم ان يقترب السجين من قسم النساء حتى يحاكم بخمسة ايام
فى الكاريس..
قابلت كثيرا من المعارف الذين حضروا من معسكرات مختلفة وانتظروا لى يلقى
عليهم كشهود او كمتهمين..
وتعرفت على هاينز قوبرزا الذى هرب مع والديه الى سويسرا عند مجيء النازيين
وعاش حتى بداية الحرب فى اكس - لس - بلينس.. وبعدها تطوع بالجيش الفرنسى
وابل بلاعا حسنا نال به نيشانا كبيرا فى الشجاعة.
ثم نقل بعد الحرب الى الوحدة الفرنسية بالفرنسا.
وفى عام ١٩٤٧ اختطفه الروس الى موسكو وحوكم بتهمة التجسس لصالح فرنسا..
وكان نصيبه خمسة وعشرين عاما فى المعسكر.
وهم يحلقون معه الان ويطلبون منه ان يلقى تهمة التجسس لصالح فرنسا على

عائق الآخرين.

النمساوى الآخر كان شابا يدعى شتايرسك..

حكم عليه الروس بتهمة العضوية السابقة في شبيبة هتلر، بعشر سنوات سجنًا في المعسكر.. وهم يحققون معه الآن بتهمة اكتشاف جمعية للثورة، في معسكر دوك.

وفي نفس الوقت وصلت مجموعات عديدة من الألمان يمثلون العملاء الأمريكيين الذى القى عليهم القبض في القطاع الشرقى..

وكان جزاء كل منهم خمسة وعشرين عاما في المعسكر.

وكانوا جميعا لا يابهون للامر ولا يأخذون مسألة الخمسة والعشرين عاما هذه

مأخذ الجد.. كانوا ياملون ان تحررهم القوات الامريكية في ظرف شهر او شهرين..

وكانوا لا يفتاون يذكرون اسم فوستر دالاس ويضعون عليه آمالا كبيرة..

وعندما سمعوا منى اننى انتظر منذ ستة عشر عاما الافراج عنى دون جدوى.. هزوا رؤوسهم فزعاء.. وسالونى بشك..

هل هذه هى الحقيقة.. ام اننى اختلق ذلك لكى ابدو مهما؟

بعد اسبوع من وصولى الى تايشت استدعونى للتحقيق.. في مبنى الادارة بالمحطة المرجلية.

كانت هناك غرفة جلس فيها ضابط الـ (م ج ب) ..

استمر التحقيق لمدة ساعتين..

سالونى نفس الاسئلة التى وجهت لى في المعسكر رقم ٣٠..

استجوبنى الرائد يكوفليق.

وفي النهاية حذرني لكى اكون معلقولا، لان (م ج ب) على علم بكل شئ.

ومرت ايام عديدة.

ثم استدعونى مرة اخرى..

ودعت اصدقائى القدامى والجدد واتجهت نحو باب الخروج.

وكان في انتظارى الرائد يكوفليق على عربة جيب وبها ضابط آخر والسائق.

واخذت العربة الجيب تفلز في الطريق الوعر..

سرنا من آخر حدود تايشت حيث تقع المعسكرات الكبيرة الى النهاية الثانية حيث

تقف مبانى الـ (م ج ب) -وزارة امن الدولة- والـ (م د) -وزارة الداخلية الروسية.

وامام الحاجز الذى يفصل العربات من خط السكة الحديد، وبين تايشت، كان علينا

ان نتوقف ليمر قطار يكين -موسكو السريع.. وعندما وصلنا الى المنطقة السكنية وقف

الجيب في الساحة الخلفية الكبيرة..

نزل الرائد يكوفليق و معه الضابط الاخر وبقيت انا والسائق في العربة.. وبعد

عشر دقائق اخرجت من العربة.. ومررنا امام الحرس عند دخولنا ثم قادونى في ممر

طويل، ارضيته مكسوة ببساط سميك.. وتفتح في هذا الممر ابواب بيضاء من الجانبين.

وجلست في الممر على حقيبتى وانتظرت.

كان الضباط يدخلون ويخرجون.. ولاحظت بينهم عددا من النساء. وفجأة خرجت امرأة من احدى الغرف وهي تبكي.

وامرني الحارس ان ادير وجهي للجدار حتى لا اراها.

سمعت تحييا فقط.. ثم جملة واحدة تتردد بلوعة وحنن..

- يا الهى.. يا الهى..

ثم مر شخص آخر فى ملابس المعسكر.. ومرة اخرى كان على ان ادير وجهي للحائط.

وجاءت فتاتان ترتديان ثيابات سوداء ومرايل بيضاء وتحملان الشاي والسندوتشات واحسست بجوع هائل.

وبعد انتظار ممض طويل استدعاني الرائد ياكوفليق.

اربت ان احمل حقيبتي ولكنه اشار الى بتركها.. ففعلت.

فى الغرفة، كنت هناك منصبتان.. بالقرب من احدهما جلس رجل فى زى الـ (م ج ب) بدون رتبة عسكرية.

ومن الطريقة المهذبة الخاضعة التى كان يخاطبه بها ياكوفليق علمت انه المسئول.

واجلسونى على الكرسي.. كنت انتظر الاسئلة المعتادة... مثل...

- كيف تحس الان..؟

ولكن بدلا عن ذلك سألنى..

- الا تريد حريتك..؟

- ومن الذى لايتوق الى الحرية..؟

- اذن لماذا ترغمنى على ان نفتح معك تحقيقا للمرة الثالثة..؟

- فى الاول كنت استغرب فعلا حدوث ذلك، اما الان فانا قد تعودت عليه.

- جميل انك تعودت.. ولكن هل تعلم ان النهاية قد تكون مؤلمة..؟

واجبت فى صوت اعلى من المعدل العادى..

يكون ذلك احسن.. لاننى سارتاح..

نعم.. ارى انك لاتقهر الحياة..

اى حياة تظن هذه التى احيانا الان..؟ هذه ليست حياة.

بهذه الطريقة لن نصل الى شىء ابدا.. يجب عليك ان تساعدنا فى انتهاء هذا التحقيق.

ماذا لبيكم ضدى..؟ انا لا اشعر اننى قد اخطأت فى اى شىء..!

كنت محاطا بعصابة من العملاء الامريكان.. الذين كانوا يعدون لانتفاضة..

علينا ان نصل الى اوكر التجسس هذه.. فلذا كان لايربطك شىء بهؤلاء العملاء.. عليك

اذن ان تساعدنا لكى نعدمهم..

تكذبون على انفسكم اذا اعتقدتم اننى استطيع مساعدتكم فى كل الاوقات كنت

اتجنب اولئك الناس.. ولم اكن ارد على تحياتهم.. حتى..

- عليك ان تفكر.. فى ذلك.. لديك متسع من الوقت..

ماذا ستفعلون بي..؟

- انا مضطر لان ابقىك في السجن..

ورفع سماعة التلفون.. ثم اخذ يتحدث مع شخص ما.

وجاء احد الضباط واخرجني من الغرفة..

سرت خلفه الى عربة الجيب.. فجلس الى جانب زميله الضابط..

وعلمت فيما بعد انه كان مدير السجن.

ومن البعد لمحت بناء خشبيا ذا ابراج للمراقبة، التي تزين كل مكان في سيبيريا؟

وفي الفناء كان السجناء يقطعون الخشب.. وحين دخلنا اداروا لنا ظهورهم.

كان بناء السجن شبيها ببناء سجن نورسك. طبق الاصل.

وكانما بنى السجنان بخريطة واحدة.

كان علي ان اخلع ملابس واتعري حتى يفتشون ثيابي.

في الزنزانة لم يسمحوا لي بحمل اى شيء..

حتى الغطاء ممنوع.

سرت خلف الحارس الذي قادني الى الزنزانة.. وكان بها اربعة اشخاص.

لم تمر نصف ساعة، حتى علمت من هم. وما هي اسمائهم.. ولماذا يقبعون في سجن

التحقيقات..

احدهم اخبرني انه سمع عني في المعسكر.

ولم يسرني ذلك على الاطلاق.

اوزبك عبدالله لغت الانتظار اليه من البداية بسلوكه المتعمد الغريب.

المجرى البارون سيلازي تحدث بلسان مجرى الماني.. وعندما دخلت الزنزانة اراد

ان يتحدث بالالمانية فقط.. ولكنني حذرته بان ذلك ليس عدلا لان هذه اللغة يتحدثها

عبدالله.

اما الاثنان الاخران، فكاننا من المجرمين الروس.

كان اوزبك عبدالله في بداءة الحرب راعيا في جبال ازبكستان..

وقبل انخراطه في سلك الجندية لم يكن يدري ان في الدنيا شيئا آخر غير الكولخوز

والشياه التي يرعاها.

وذات يوم وقع اسيرا في يد الالمان.

وجوعوه حتى الموت فلانت عريكته وقبل ان يصبح عضوا في فرقة الـ (اس - اس)

التي كانت تضم عددا من مسلمي الاتحاد السوفيتي. ثم ارسلوه مع عدد من مواطنيه

الى فرقة الحراسة في معسكر الابادة اوسوانيسيم.. وهناك مع (الجماعة) من اعضاء

الـ (اس - اس) شارك في قتل السجناء.

ولكنه لم يستطع ان يهرب في الوقت المناسب.. فقبض عليه الروس وجوكم بخمسة

وعشرين عاما.. وارسلوه الى قسم الكارتوفاشا اوزلاق الذي يقع على الجانب الاخر من

نهر ليننا..

كان يعمل لسنين عديدة «كاتورقاشاء... ولكنه أراد قليلا من الراحة . والنهرب من العمل الصعب لبعض الوقت .. فكتب خطيبا الى الـ (م ف د) اعترف فيه بأنه في معسكر الإبادة في اوسوانيسيم قلم بالاشتراك مع بعض رجال الـ (اس - اس) بنهب مصوغات السجناء المقتولين ودفنوها في ساحة المعسكر.

وتطوع بأن يقودهم الى مكانها...

ومرت شهور.. ثم أعيد بعدها الى اوسوانيسيم لكي يدل الـ (م ف د) على المكان الذي دفن فيه الكنوز. ولكنه فشل. وعندها فهموا انه كلن يجرمهم من انوفهم.. فارجعوه الى تابشت وحققوا معه من جديد.

ثم توصلوا الى ان العقوبة التي نالها كانت قليلة.

اما سزىلازى فقد كان في الخامسة عشر من عمره عندما مات والده.. وورث منه لقب البارون وثروة طائلة انهارت في عام ١٩٤٥ ..

وعندما بلغ العشرين من عمره رحل الى بودابست تاركا القرية الصغيرة التي كان يسكنها في الريف - ليكمل دراسته.

وكان من المامول ان ينجح مقصده لولا عمته التي كانت تعيش في الخارج والتي جعلت ترسل له نقودا كثيرة.

وحين التحق بالجامعة اخفى لقب البارون ولكن حوالات النقود لم تكن سرا يمكن اخفاؤه.

واكتشفوا اصله.

بالرغم من ان سزىلازى اقسم بان النقود من عمته فقط وليست من جهة اخرى، فقد حوكم بخمسة وعشرين عاما بتهمة العمالة الاجنبية وارسل الى سيبيريا.

وكان في المعسكر بقسم دوك - حيث مصنع الاخشاب الذي يقوم بانتاج المنازل المبسطة - البراويز للنوافذ - الابواب - ادوات التزحلق الخ..

ولم يستطع سزىلازى ان يرضى بالامر الواقع وهو بارون منعهم.. كيف بخمسة وعشرين عاما عملا شاقا وجوعا متصلا... هذا كثير.. فأسس جمعية سرية اسمها (آخذى الثار) وسرعان ما جمع حوله خمسة وعشرين من التعماء الذين اتفقهم ان من السهل هدم السلطة السوفيتية.

وما يحتاجونه هو الادارة القوية فقط..

وكانوا يجتمعون مرة كل اسبوع في غرفة تجفيف الملابس.. التي كان المسئول عن وقودها عضوا في الجمعية ايضا.

وكل شيء يخص امرهم كان «سريا للغاية»!! حتى ان الـ (م ج ب) كان على علم بكل خطوة من خطوات اعضاء الجمعية!!..

حين اُزف الوقت الملائم القى عليهم القبض جميعا..

وحوكموا.. اثنان وعشرون منهم القى بهم في السجن..

ثلاثة نقلوا الى معسكر آخر لانهم كانوا من عملاء الـ (م ج ب) وظهروا في المحكمة

كشهود اتهام.

وقد اكدوا لقاضي التحقيقات ما قالوه من قبل.

وبناء على التصريحات حوكم ثمانية بالاعدام ومن بينهم سزىلازى.. وسبعة عشر حكم عليهم بخمسة وعشرين عاما.. ومن بينهم شاب من شتاتيرسك.

ومرت سبعة ايام.. واستدعوني للتحقيق.

وكان الضابط فى ملابس المدنية.. سألنى..

- انت من فينا..؟

- نعم ولدت هناك..

- ماهى آخر مرة كنت فيها هناك..؟

- عام ١٩٣٢

- لآن لقد كان وجودى انا هناك فى وقت متأخر عن هذا -

- هل كنت هناك فى النمسا حقيقة..؟

- نعم.. كنت ضمن سلطات الاحتلال..

لم يستطع ضابط الـ (م ج ب) اخفاء اعجابه بالنمسا.. وخاصة (بادن) المكان الذى كانت به قيادة المارشال كونيف.

وعندما سمعت ذلك.. فهمت ان هذا الاعجاب الشديد.. ربما كان هو السبب المحتمل

لنقله من بادن الى تايشت..

تكلمنا مدة ساعتين.

امر لى بساندوتش وشاى.

تناولتهما بشهية بالغة.

وسألنى قائلا:

- ماذا افعل بك..؟

- ارجو ان ترسلنى الى المعسكر ثمانية لكى اقضى بقية عقوبتى.. وبعدها اناى حريتى..

- اتعتقد ان الامر بهذه البساطة..؟ انظر..

وارانى حزمة من الاوراق.. واستمر يقول..

- فى هذه البلاغات ذكر اسمك عشرات المرات..

- اقسام لك صادقا انه لم تكن لى صلة ما بهؤلاء المغامرين، اننى امتلك خبرة كافية

تقضى شر الانزلاق معهم فى مثل هذه الاشياء.. لاننى قضيت جزءا كبيرا من عقوبتى.

- نعم.. لو كان هذا كلفيا لتصديقك..

- انا متأكد انك يمكن ان تساعدنى وتنتهى هذه المسألة.. لاننى فعلا برىء.

- سأحاول الحديث مع الرئيس، والآن يمكنك الانصراف.

وعندما ارجعونى للزنازة كان يحتل مكانى القادم الجديد.. اسمه (شاكل) وهو اسم

يطلق على من لايعترفون للآخرين بحق الاسبقية قط.. كل شيء هم اول من يحصل عليه .
ولم تكن لدى رغبة في الشجار.. وكذلك كنت لا اريد النوم على اسمنت الارض الصلبة .
ولذلك طرقت الباب .. وطلبت من الحارس مكانا في الكنبه . ولكن .. كان على ان اقضى
تلك الليلة على الارض .

وفي الصباح ، عندما جاءت المراقبة بروفيركا ..
طلبت من مدير السجن ان يجد لى مكانا خاليا ..
وسرعان ما اقتادوني الى زنزانه اخرى .

مغامرة راوسكر وزوجته

ما ان فتح لي الحارس باب الزنزانة حتى وقعت عياني على عصاتين كانتا مسنودتين على الحائط.. وعندما خطوت الى الداخل حييت النزيل الوحيد الذى كان يرقد على الكنية هناك.. واجابني..

- نهارك سعيد (توبرى دن)...

واعتقد صادقا ان زميلي مرة اخرى.. اجنبي..

وسرعان ما تحققت من انه نمسلى.. كان اسمه راوسكر..

وخلال الاسبوعين اللذين قضيتهما معه حكى لي طرقا من نباه..

كان عضوا في الحزب الشيوعي النمسلى..

وقد ساعده الحزب - عام ١٩٤٦ - في الحصول على وظيفة ممتازة في (دوبر) بالقرب

من (بيسى) على نهر الدانوب في النمسا السفلى.. وكان اسم الجهة التى عمل لديها هي

مؤسسة (يولس - آى سآى) ادارة الاملاك السوفيتية في النمسا.. وفي دوبر تعرف على

تروود راوشى.. التى اصبحت زوجته فيما بعد.. كانا يعملان معا لبعض الوقت.. وقد تم

اغفالهما عن العمل من منصبيهما بتهمة الاختلاس..

ومكثا بعض الوقت بدون عمل.. وكانا يعتمدان في معيشتهما على والدى تروود.

واجتهد اصدقائهم.. في الحزب مرة اخرى فتم تعيينهما مرة اخرى في ادارة الاملاك

السوفيتية في النمسا.. ولكن في قسم فينا.

ولم يمكثا طويلا في هذه الوظيفة ايضا.. اذ كلفا الادارة الوفا من الشلنات.. وهكذا

عادا من جديد يتسكعان بدون عمل.. وطلبا عون الحزب الشيوعي.. ولكن القيادة

ضالقت بهما ونزعت منهما بطاقات الحزب.

وللبحث عن عمل ومكسب تذكرت تروود ان هناك اسبادا جديدا يمكن الارتقاء في احضان

عمالهم - الامريكان والـ (اس . آى . اس).

فذهبا الى مكتب الـ (اس . آى . اس) وعرضا عليه خدماتهما.. وبعد محادثة دامت

ساعة كاملة مع موظف من الادارة المركزية للجاسوسية الامريكية، خرج الزوجان من

المبنى ومعهما ورقة من فئة المائة دولار «وامر» واجب الاداء.

كان عليهما ان يتسللا الى مصفاة البترول في زايمستربوف، وكانت ايضا تتبع لمؤسسة

ادارة الاملاك السوفيتية.. لكى يرصما بعض خطط المبانى ويسرقان بعض الوثائق..

وحتى ينجزا مهمتهما على الوجه الاكمل استعلنا بشقيق تروود الذى كان مديرا لقسم

الشرطة في زايمستربوف.

ولكنه لم يوافق واعترض على ذلك في بادىء الامر.. ثم رضخ اخيرا واتفقوا على

الحضور في احد ايام السبت بعد الظهر..

وفي الساعة المعينة التقوا امام باب المصفاة واندخلهم شقيق تروود.

وعندما كان راوسكر يرسم بجد واجتهاد كانت تروود تبحث في المكتب عن الوثائق..

وانشغلوا بما كانوا يفعلون فلم يلاحظوا بأن عملا الـ (م ف د) - كانوا يتابعونهم بدقة شديدة. فلبض على الزوجين في نفس المكان، وكتبوا محضرا بذلك في الحال، مقررين مصير الزوجين.

ثم قادوهما الى بلدان بالقرب من فينا. وفي سجن الـ (م ف د) اعترف راوسكر في الحال بكل شيء. ولكن ترود كانت عنيدة ولم تعترف الا تحت وقع الضربات المهلكة القاسية.. ثم عادت فانتكرت.. وكتبت خطابا لرئيس الشبكة الجسوسية السوفيتية تسحب فيه اعترافها.

وذات ليلة قادوها الى زنزانة الكراسر وخلعوا عنها ملابسها وعذبوها عذابا لا مزيد على فاعترفت مرة اخرى بكل شيء. وحين عادت الى وعيها كتبوا معها محضرا جديدا. كان عليه اعترافاتها بالتفصيل.

وحاكمتهما المحكمة العسكرية السوفيتية بخمسة وعشرين عاما لكل منهما.. وبعد الحكم تقابلا مرة اخرى في المعسكر المرحلي الكبير «لوو»..

وقف هو في طرف الاسلاك الشائكة وهي في الطرف الآخر. وكانت تحاول التهرب من الذهاب الى سيبيريا..

فكتبت ثانية خطبا الى (م ف د)، وحكت فيه قصة جديدة.. ولكن الضابط الذي تلقى خطاب الاسترحام ذاك اكتفى بالضحك.

وذكر لى راوسكر ان حاله كان جيدا بالمعسكر المرحلي الكبير في «لوو». وكان سعيدا لخروجه من بدروم الـ (م ف د) في بلدان فقد كان تزيلا دائما في زنزانه الحبس الانفرادى القاديبية.

كانت «لوو» محتلة من القوات السوفيتية.. وكانت الحياة فيها حية جالشة.. فدوما تصل افواج كبيرة او صغيرة من السجناء.. وكان يمكنهم التحرك بحرية تامة. ولطعامهم حصلوا على ثلاث وجبات يوميا.

ولم يأخذ راوسكر عقوبة الخمسة والعشرين عاما مأخذ الجد. كان يعتقد ان بقاءه في سيبيريا لن يتعدى بضعة شهور يعود بعدها الى بلاده حيث يلقونه بالاعلام والزهور والموسيقى.

وعندما يأخذ قسطه من الراحة يتوجه الى الذين يعطونه اوامرا جديدة.. ويرسلونه في مهام اخرى.

وبعد ذلك يشرع في رواية انطباعاته وتذكرياته عن سيبيريا ويبدد كوب من الويسكى ثم ياتى لاهم شيء.. شيك بمبلغ ضخيم..

ويأخذ زوجته تحت ابطه ويذهبان الى اكبر المحلات التجارية..

ثم ينطلقان الى الريفييرا الفرنسية لكي يغسل عن دواخله اوضاع الحياة القاسية في سيبيريا.

هكذا كان يفكر راوسكر ويحلم.

وقبله كان كلب وستيف.. ومن لف لفهم من محبي المغامرات.

ولاول مرة يشك راوسكو في احلامه.. وكان ذلك حين وجد نفسه محشورا مع ستين رجلا في عربة سكة حديد مقلدة بقطار طويل متجه الي المجهول.. ودامت الرحلة طويلا.. فتحت فيها ابواب العربة مرة واحدة في اليوم لاستلام الخبز.. والسك المملوح.. وقطع السكر.. وقليل من الماء.. وكان اسوا ما مر به هو الليل، حين يحاول التماس شيء من الراحة.. ولم يجد لذلك سبيل.. كان الحرس يضرب جوانب العربة بالعصى الثقيلة.. وخلال الرحلة داخل اوروبا كان طعامهم يصلهم بانتظام.. ولكن عند مرورهم بالاوارال اختفى السكر، وكاد الماء ان يتبعه.. لو لا ان السجناء يلحون في طلبه.. وفي جليبنفسك اقتادوهم الي المعسكر المرحلي..

اغتسلوا.. ونظفوا انفسهم من القمل..

وخلال بقائهم لثلاثة ايام هناك حصلوا علي وجبات دافئة.. ثم تحركوا الي الامام. وقال راوسكو انه ظل مسافرا في تلك الرحلة لمدة اربعة وثلاثين يوما.. كان فيها لا يحلم بشيء سوى الماء والخبز والراحة..

نسي زوجته تروود التي كانت في نفس الرحلة..

ولكن في عربة اخرى.

وحين دخلوا تايشت اصابتها السعادة، لان بإمكانه ان يعد قدميه ويتمشي في الساحة.. وفي بعض الاحيان وعبر حاجز الاسلاك الشائكة كان يحدث زوجته. وفي المحطة المرحلية بتايشت قابل راوسكو سجناء كثيرين مروا من قبل علي مختلف المعسكرات (اوزلاق).. ومنهم عرف الكثير عن المعسكرات وحياتها.. وبدأ يفكر في الطريقة التي يعود بها سريعا الي اوروبا.. وبدأ يحدث السجناء عن امكانية الهرب... واصغى اليه السذج باهتمام بالغ.. بعضهم حفظ عن ظهر قلب كل كلمة قالها ونقلوها الي الـ (م.ق.د)

ومن اليوم الاول لدخوله الي المعسكر سجل اسمه في كشوفات الـ (م.ق.د) للرقابة والمتابعة.

ومن المحطة المرحلية نقل راوسكو الي قسم المعسكر رقم خمسة.

وعمل هناك قاطعا للاخشاب.. وبحث دون مجهود يذكر او تعب عن الذين يودون الهرب بسرور.

وذات يوم حدث ما حال بينه وبين التفكير في تنفيذ خطته.. حدث اثناء العمل في الغابة ان راوسكو لم يسمع التحذير الذي يطلق قبل انهيار الاشجار.. فسقطت الشجرة عليه ودفنته تحتها..

وتم اخراجه من تحتها بصعوبة.. وللمفاجأة، كان سليما مفتوح العينين مكسور الرجل اليسرى فقط.

نقل الي المستشفى وخرج منها بعد شهرين.. ولم يعد يستطيع الحركة الا وهو يتوكأ علي عصاه.. وبقيت ساقه اليسرى القصير من رقيقتها.. وبدأ يواصل نشاطه في معسكر الموقوفين حيث نقلوه الي هناك..

وسرعان ما وجد بين المعوقين انفسهم، انلسا مستعدين للهرب. ولكن ضابط الـ(م.ج.ب) كانوا بلا مشغولية تذكر فالتقوا عليه القبض.
نقل الي السجن منتهما بلاعداد لثورة مسلحة.
وانكر راوسكو كل شيء.

واستدعى الـ(م.ج.ب) الشهود..
فوقفوا بحضوره يرددون كلماته في المحطة المرحلية..
وقال آخرون في وجهه انه نظمهم في المعسكر رقم خمسة.
«وشهد ضده ثمانية من الشهود .. وكانت اجابته
- كل هذا مجرد محض اساءة.. كيف يمكن لمعوق ان يقود انتفاضة.
حكى لي ذلك .. ثم وقف يريني انه يستطيع ان يمشي بدون عصا.. وخيل الي ان
الـ(م.ج.ب) كان على علم بذلك..
وعندما كانوا يقودوننا الي التمشي في الساحة ، كان راوسكو ياخذ عصاه ولكن المدير ظل
يقول له دائما:

- اترك العصا .. يمكنك ان تسير بدونها.. ولا تنتظر منا ان نأخذها منك..
ومرت عشرون يوما منذ دخولي الي السجن.. ودعوني للاستجواب في ادارة الـ(م.ج.ب)

...

وقال لي قاضي التحقيق:

- الرئيس يريد ان يتحدث معك.. تعال
وتبعته الي الغرفة الامامية، التي جلست فيها شابة برتبة الملازم-اول (م.ج.ب) طرقت
الباب ودخلت تستاذن لنا.. ثم عادت وسمعت لنا بالدخول.. ودخلت في حجرة واسعة
.. علي الارض نام سجاد سميك فخم.. وعلى الحوائط صور الزعماء : ستالين ..
مولوتوف.. بيريا..

بجوار المنضدة رايت رجلا قويا في رتبة عقيد، يجلس مسترخيا..
وجهه مستدير ، وشعره اشقر.. وعرفت انه العقيد سلامتوف.. رئيس قسم الـ(م.ج.ب)
بتأبشت.

نظر ائى واشار بيده الي الكرسي.. فجلست .. وجلس مرافقي علي يمينه وسألني العقيد:
- كيف حال..؟

- ليس جيدا تماما..

- لماذا..؟ هل سبب لك احد ما اساء اليك..؟

- في الحقيقة، يؤلمني انفى قابع في سجن التحقيق .. واعتقد ان هذا سبب كاف للحزان
والالام..

- لن تبقى طويلا.. فقط وضح لنا بعض الاشياء التي تتعلق بليريش الذي معك في
الزناينة..

- تعني راوسكو..؟

- اجل..
- ولكنى لا اعرف ذلك الرجل، ولم اره من قبل..
- راوسكو من بلدياتك..
- نعم.. ولكن ذلك لا يعنى شيئا خاصا.. فلانا لا اعرفه حقيقة..
- بقيت معه لمدة اسبوعين في نفس الزنزانة..
- اذا كان راى فيه يهكم.. فانى يمكن ان اقول لكم لا تاخذوا هذا الرجل ماخذ الجد..
انه مغامر يحلم ومثله التفتيت بهم كثيرا في المعسكر..
- انت ساذج..
- كيف..
- اذا كنت تعتقد بان اناسا خطرين امثال كلب وراوسكو وغيرهم لا يجب اخذهم ماخذ الجد.. فهذه هي السذاجة عينها..
-سلطات التحقيق لها الحق في اخذ امثال هؤلاء الناس بما تريد.. ولكن اذا كان يهكم راى فان اعيد عليك بان هذا الذي يفعله راوسكو وامثاله انما هو لعب اطفال .. ولا يمكن ان انظر اليه من زاوية الجد ابدا..
والثقت العقيد الي قاضى التحقيق الذي كان يتولى امرى قائلا:
- هل لديك سؤال؟
وهو القاضى راسه نفيا..
فقال لي العقيد:
- اذن لقد انتهينا..
ونفض القاضى فتبعته الي غرفة التحقيق.. وهناك وضع في بعض الاسئلة غير المهمة..
وسار معى مودعا حتى الاستراحة ومنها اعدونى الي السجن..
وحين دخلت الزنزانة سالنى راوسكو:
- هل احضرت معك دخانا..
- ومن اين لي بالدخان..
- كان يمكن ان تاخذه من قاضى التحقيق..
- انا لا اسال احدا شيئا..
وغضب راوسكو .. ادار وجهه للحائط ولم يرد ان يحادثنى لعدة ساعات.. وعند التمشي
عثر في الساحة علي عقب سجارة..
قام بتدخينه حين رجعنا الي الزنزانة .. وعندها فقط نطق
وقال لي الحارس في الصباح وهو يمد لي الخبز:
- بعد الافطار اجمع حاجياتك..
فهمت اننى ساعود الي المعسكر.. ولم آكل وجبتى اعطيتها لراوسكو..
ومس ذلك شغاف قلبه..
ثم لم اره بعدها ابدا..

اعادوا لي الاشياء التي في حقيبتي... وبعدها قادوني عبر الشوارع الطينية في تايشت..
كنت اتساءل الي اين يقودونني..
من المحتمل جدا ان يكون مصيرى الي المعسكر الفظيع في القسم الثالث وعندما عبرنا
خط السكة الحديد ولم نتجه نحو محطة السكة الحديد، اعتقدت انهم يذهبون بي الي
المحطة المرحلية..
ولكن لم يكن هذا صحيحا..

المنظمة السرية في المعسكر رقم «٤٨»

بعد مسيرة حوالى الساعة وصلنا الى باب معسكر غير معروف لى. على يمين المدخل رايت مدخنة كبيرة.. وخفق قلبي .. هل بدأ الـ(م.ج.ب) يقتدى بهتلر.. ويبنى افرانا لابادة البشر في معسكرات مجهولة؟ ام سيضعوننى في حجرة الغاز ويحرقوننى؟ ومررنا بساحة كبيرة..

بدات انظر في كل الاتجاهات.

كان ذلك اكبر من معسكر رايت في اوزلاق.

صفوف.. من العنابر.. عشرات الصفوف ..

ومررنا باوسع شارع داخل معسكر..

على جانبي هذا الشارع الرئيسي شدت اسلاك علقت عليها الانوار..

وفي المنتصف اتجهنا ناحية الشمال.. ووقفنا امام مكتب المعسكر رقم ٤٨.. وبعد الاجراءات العادية تحصلت على ورقة كتب عليها اسم رئيس العمال ورقم الوحدة التي تم توزيعى للعمل فيها..

كان على اولا ان اسلم حقيبتى..

كنت ارتدى حذاء الجليد، وبنطالا مبطن.. وكان على ان اسلمها..

واعطونى بدلا عنهما بنطالا صيفيا وحذاء..

ثم بحثت عن العنبر الذي كانت تقيم فيه وحدتى..

لقيت النوبتجى فقط بالعنبر.. اما البقية فكانت في مواقع العمل..

قرا الوريقة واشار الى مكان في الكنبه الخائيه.

واصلبتنى الدهشة حين رايت كم هو نظيف ومنظم هذا المكان.

الكنبات كانت مبنية على نظام عربات السكة الحديد.. لاربعة اشخاص في كل قسم وكان

لكل منهم غطاء - حصيرة - مخدة من القش - وبعضهم لديهم ملاءات..

على شمال المدخل رايت غرفة صغيرة للغسيل، بها صفيحتان.

في الاولى ماء عذب للشرب..

وفي الثانية ماء ساخن "كبياتوك".

وفي الركن كانت هناك شعاعتان للملابس..

اما الارضية فصورة مثل لل نظافة..

وسالت نفسي لماذا هنا في تايشت، يسود مثل ذلك النظام..؟

لان تايشت تقع في الخط الرئيسي.. وتتعرض للزيارات المفاجئة من السادة الكبار - في موسكو -

وفي الغابة لن يضل احد منهم - هؤلاء السادة الكبار - طريقه. وكان لدي وقت كاف لكي اتمشى في المعسكر..

وهذا المعسكر رقم ٤٨ هو اكبر اقسام اوزلاق.. كان به اربعة آلاف سجين معظم هؤلاء

السجناء كانوا في الورشة الكبيرة لتصليح القاطرات والعربات. وكان هناك أيضاً قسم لانتاج صهاريج البنزين.. كما ان بعض اولئك السجناء كان يعمل في اعمال المباني بالمدينة.. وكانت الورشة تقع بالقرب من المعسكر.. يفصلها عنه حاجز واحد فقط.. اما السجناء فيدخلون ويخرجون بدون حراسة..

الحرس كانوا فوق ابراج المراقبة فقط، ولكن الممر كان تحت رقابة الـ(م.ج.ب).. والمدنيون يمكن ان يدخلوا، ولكن باذن من الـ(م.ق.د).

وفي المساء تعود الوحدات جميعها من العمل .. اما انا فقد وقفت قرب الباب اراقب الداخلين والخارجين.. اولا كان العائدون هم الذين يعملون في الورشة .. عشرات من الحراس تولوا عمليات التفتيش.. الملابس .. الاحذية. غطاءات الرؤوس الخ.. الخ.. رايت للذين ينظفون القطارات، وهم غارقون في الزيوت والقاذورات حتى ضاعت ملاحهم ، فلا يكادون يتعرفون علي بعضهم البعض..

وبحث ، عن وجه مالوف .. فلم اجد احد..

ولكن فجأة دققت عيني على اينزق ويز..

وكنت قد تعرفت عليه قبل فترة قصيرة في المحطة المرحلية.

وسررنا من هذا اللقاء الذي كان على قرب شديد، رغم ان معرفتنا لبعض كانت سطحية هامشية.

وحدثني ه اينز ان في المعسكر اوسكار ليتيخ ايضاً.

وفي وقت متأخر من الليل عادت وحدتي، رقم ٣١..

وامام المعسكر كانت تقف قافلة من الشاحنات تعمل على نقل السجناء الى امكن العمل البعيدة.

وكان ذلك شيء جديد اراه للمرة الاولى.. فنحن معتادون على المشي الى مسافات بعيدة لنصل الى موقع العمل..

وبخلاف شاحنتنا ونحن خمسة وعشرون سجيناً.. يحرسنا جندي برشاش معمر.. وآخر يجلس قرب السائق.

كانت الوحدة تقوم ببناء منازل لضباط الـ(م.ج.ب) في تليشت.

وكان واجبي هو حفر الاساسات وبعد ذلك بنائها بالاسمنت.

ولم يختلف العمل عن الاعمال الشاقة الاخرى في المعسكر.

وكنا ناكل نفس الطعام (بايوك).

ولكن المعاملة كانت هنا خيراً منها في مكان الاخر.

معظم العاملين في الوحدة - بما في ذلك رئيس العمال - كانوا جنوداً في جيش الجنرال فلاسوف.

بعضهم اطلق على هذه الوحدة اسم «وحدة القص».

لان معظم محكم بعقوبة قدرها عشر سنوات سجيناً.. مع ان الغلبية السجناء كانوا محاكمين بخمسة وعشرين عاماً.

وكانت العلاقة بين السجناء جيدة للغاية.
ولكنهم كانوا لا يسمعون بان يقول انه كان عضواً في الحزب الشيوعي يوماً من الايام.
كانوا يكرهون الشيوعيين كرايتهم للنازيين.
وقررت ان لا اتحدث عن الماضي حتى لا اقع في صعوبات أكثر.
وفي اليوم الاول لي هنا، علمت بان الممثلة المعروفة والمغنية المحبوبة للأغاني الروسية
الشعبية روسلانوف، كانت محبوسة في هذا المعسكر.
القي عليها القبض هي وزوجها الجنرال الروسي.
وحوكم الجنرال بتهمة الخيانة العظمى بخمسة وعشرين عاماً.. وعليها هي بعشر
سنوات سجنًا.
ولكن روسلانوف لم تكن معقنعة بالحكم.. فكتبت استرحاماً للمحكمة العليا ترحو
تخفيف الحكم.. فنظر الاسترحام وعدل الحكم الى خمسة وعشرين عاماً اشغالا
شاقة...!!!
كان زوجها الجنرال ضمن جيوش الاحتلال التي غزت ألمانيا.
وهناك قام باقتحام منزل جميل والفرقة من العلف والصور والرياش والتحف وارسل
بها الى موسكو.
شخص ما وشى به حسداً.
اما روسلانوف ففي اثناء وجودها بالمعسكر كانت تعمل خائكة.. ولكن الطاهى ميشا
نوفيكوف كان يزورها بانتظام دقيق.. وكان يحضر لها طروداً صغيرة من الاكل.. وكان
يعطى الحارس الوسيط ايضاً نصيبه..
وعندما اكتشف الامر طرد الطاهى من المطعم.. ونقل الحارس.
وارسلت روسلانوف الى معسكر النساء حيث عملت في قطع الاشجار بالغابة.
ولم يكن في امكانها ممارسة المغامرات القرامية.
وبعد موت ستالين اطلق سراح الممثلة المشهورة..
وفي اليوم التالي قادنى فورز واوصلنى الى اوسكار.
وعندما وقعت عيناه على فوجىء بمنظرى.
وانشغل جداً لما كان يبدو على من انهيار وانهك. وساءة حال صحتي المتدهورة.
ثم عرفنى بعد ذلك بزميله في الحزب هلمت روث.
كان الاثنان اوسكار وهلمت يعملان في وحدة، واحدة.
وهلمت هذا المانى من المجر.
والذى حدث انه في عام ١٩٤٤ وبناء على تعليمات من ال (اس. اس) نقل اوسكار بتيخ
وهلمت روث بالمظلات ونزل خلف الجيوش الروسية في زابينبيرغن.
وقد نجحا في الوصول الى مدينة كلاوسنبيرق حيث اختفوا عند دكتور باور.
وكان دكتور باور ولسنين عديدة يتمتع بثقة النازيين.
وقام الثلاثة بتركيب شبكة اتصال بالراديو مع قادة الجيش الالماني ونقلوا اليها

تحركات القوات السوفيتية.

وذات يوم ذهب دكتور بلور الى ال (م. ق. د) وابلغ عنهما.
وقد اعتقلوه هو نفسه معها وحاكموه بعشر سنوات سجنًا.. اما اوسكار وهلمت فقد
نال كل منهما خمسة وعشرين عاماً.

وتم ترحيل هلمت الى نورلسك.. واوسكار الى تايشت.. وبلور الى معسكر آخر. وقد
اشترك هلمت روث بعد ذلك في انتفاضة السجناء في سجن نورلسك عام ١٩٥٠ وكان جزء
كبير من «السبيلوف»، قد حاولوا الوصول الى حريتهم عن طريق استخدام القوة.
وكانت الفكرة نابعة في الاساس من السجناء القدامى الذين عملوا اعمالاً شاقة في زمن
الحرب.. وبقوا يحلمون وينتظرون العفو الموعود بعد الانتصار على هتلر.
ولكن ذلك العفو شمل المجرمين فقط واستثنى السياسيين الذين كانوا يتساقطون في يد
الموت واحداً اثر الآخر.

بدأت تلك الانتفاضة في المعسكر رقم خمسة منجم النحاس.. حيث افلح السجناء في
تجريد بعض الحرس..

واتجهت مجموعة مكونة من خمسة آلاف سجين نحو المعسكر رقم تسعة وحاولوا
احتلاله وكان سلاح الدبابات المقيم في نورلسك وقوات ال (م. ق. د) وال (م. ج. ب) قد
تحركت لتحتوى الانتفاضة، ايضاً وفي نفس الوقت.

ورغم قلة تسليح السجناء فقد استمرت الحرب ليومين كاملين.
وفي اليوم الثالث بعد ان مات المئات وجرح الالف، سلم الثور اسلحتهم. ثم شب حريق
الانتقام.

مئات السجناء رموا في السجون.. كان فيهم اعداد كبيرة لم تكن لها صلة بالامر.. اما
الغالبية فقد قتلت وايدبت.. وحوكم الكثيرون بخمسة وعشرين عاماً اخرى.
وكان من بينهم هلمت روث.. الذى هو في الاساس محاكم بخمسة عشر عاماً. وقد تم
ترحيل الذين اشتركوا في الانتفاضة بعد الحكم عليهم الى معسكرات - اخرى.. جزء الى
تايشت - واستبلاق - في كازستان - ودلاق في كوليم.

اما في معسكرنا هذا رقم ٤٨ فقد عاشت مجموعة كبيرة من الاجانب.. اغلبهم المان.. ومن
اليوم لاحظت كما حدث في معسكر ارخي انه توجد بعض الجماعات المختلفة التي تحمل
نفس مخططات وافكار كاب وراوسكر وغيرهم.

وعلمت من اوسكار انه منضوي تحت لواء جمعية سرية ضمته اليها
وكان مصدر صراع بين الجمعيات كل تحاول ضمه اليها، فقد كان معروفاً بأنه عمل في
الجيش الالماني بسلاح الاشارة كخبير للتلفراف اللاسلكى.

وكل هذه المجموعات كان تعمل في السر والتكتم الشديد.. وكثيرون لم يعلموا بها. وقبل
ان ارحل عن هذا المعسكر باسابيع عديدة ساد اضطراب كبير.

فجأة ظهر العقيد سلاماتوف مع مجموعة من ضباط ال (م. ج. ب).. وبخطوات سريعة
دخلوا مبنى قوة اطفاء الحريق بالمعسكر.. وكان النوبتجى احد السجناء....

وعندمافتشوا كل شيء بدقة، قادوا رجل المطاط وحملوا معه جهاز اللاسلكى الذى كان بحوزته.. وساد فى المعسكر ان رجل المطاط عضو فى جمعية المؤامرات.. وان هذا الجهاز الذى ضبط بحوزته تم تجميعه فى ورشة القاطرات للاتصال بالخارج وذات يوم عندما تهبأ الكل للنوم فى عنبر كان يوجد به فنى الكهرباء، دخل سجين من عنبر آخر واتجه نحو الفنى المذكور الذى كان ينلم يهدوء وطعنه بآلة حلاقة فى قلبه. ومات الشاب فوراً.

وخرج القاتل من العنبر واخبر الحارس بانه وفى هذه اللحظة قد نفذ حكم الاعدام فى الخائن.

وكان المقتول عضواً سرية.. واتهم بانه وشى بالجمعية وافشى سرها للسلطات. اما القاتل واثنان من مساعديه فقد حوكموا بالموت.. والبقية بخمسة وعشرين عاماً لكل منهم.

وبعد تلك الاحداث قررت ان اضيق دائرة معارفى.

صلتى كانت مع اوسكار وهابنزهلمت.

وكان واسكار فقط هو موضع ثقتى.

اما الاخران فقد كنت حذراً معهما ومنهما.

ومع بقية زملاء الوحدة تحدثت فقط بما هو ضرورى.

مذهب طائفة الـ بابتست في الغابة..

كان في المعسكر شخص آخر اوليته ثقتي وكنت اتحدث اليه بارتياح كبير. كنت اعلم انه ليس خطراً على الاطلاق.

انه العجوز المكلف بعملية غلي الماء نيكفور.

كان في السادسة والسبعين من عمره.. يقضى خمسة وعشرين في السجن بتهمة قيادة الجاسوسية الامريكية وعصابة التخريب.

كان قوياً عريض المنكبين.. له ذقن طويلة بيضاء تضيء على شخصيته لمسة لطيفة تجعله يقع موقع القبول من اى شخص في المعسكر.

ولانه كبير في السن وقع عليه الاختيار ليعمل في غلي الماء. وعندما يكون - الطقس دافئاً كان يجلس امام الكوخ الخشبي.

وكنت امر امامه اول مرة فطلب لي ان احببه بود واجاب على تجيئي قائلاً.

- هذا بالتأكيد ليس روسياً؟..

- لست روسياً، ولكنى يوغسلافي.

- اى جنسيات لا توجد هنا؟..

اجبته بمرح..

- نعم. لقد جمعت هذه البقعة مجموعات مختلفة الالوان والاشكال. وسالني.

- كيف وصلت الى هنا؟..

- تلك قصة طويلة.. قد احكيها لكل يوماً ما..

قال لي بحنان ظاهري..

- ادخل..

ودخلت معه الى مكان غلي الماء.. وتحدثنا لدقائق..

ومن وقتها.. اعتدت ان احضر دائماً للعجوز الحكيم.

واصابني يقين من ان نيكفور وصل الى المعسكر لانه كان عضواً في طائفة دينية.. كنت

اعلم كيف تقدر الحريات الدينية داخل الاتحاد السوفيتي.

ولكن قصة نيكفور قصة ليست عادية وتستحق ان اذكرها.

في عام ١٩٠٧ قامت السلطات القيصريّة بنفي اربعين قروياً من ضواحي كورسك احدثهم

نيكفور الى سيبيريا.. لانهم كانوا اعضاء في منظمة دينية.

وكانت هذه المجموعات تكون اسر مختلفة.. تم توطينهم بالقرب من مدينة اجنسك..

ليعملوا بالزراعة.

كانت الارض واسعة غنية.. اعطت ثماراً رائعة.

وسرعان ما تحسنت احوالهم..

هنا لم يضايقهم احد في اداء واجباتهم الدينية.. وقد تمكنوا من تشييد معبد باسم

طائفة الـ بابتست.

وعند نشوب الحرب عام ١٩١٤ تسلم البابا تيست اوراق التجنيد الاجبارى..
غير انهم لم يستجيبوا له.
ولم يحدث لاحدهم شئ.
وعند قيام الثورة لم يشاركون فيها ايضاً.
ومرت على اجنسك في الفترة من ١٩١٨ الى ١٩٢٣ حكومات مختلفة..
في الاول جاء السوفيت.. ثم الكولجك.. وبعدها المنشفيك... تلاهم اليك.. الى ان جاء
البلشفيك..
ولم يهتم القريون بهذه السلطات التي تعاقبت عليهم.. طالما انهم كانوا يمارسون
طقوسهم الدينية بكامل الحرية.
وفي عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ اسخلت المزارع الجماعية.. ولم يكن الامر خطيراً عليهم لان
الطائفة ظلت في الاساس تزرع ارضها جماعياً.
الى ان جاء يوماً الى القرية اللادينون - كالسم - يدعون ضد الدين.. وتم تحويل
معبدهم الى ناد لم يتردد عليه احد منهم قط وقرر القريون ان يتركوا ممتلكاتهم.
وبعد تحضير دقيق تحركوا في هجرة جماعية قوامها حوالى المائتي شخص.. بينهم
الاطفال والمسنون.
اخذوا معهم خزينتهم وانعامهم وتوغلوا في اعماق الغابة.
واستمروا يسيرون عشرة يام كاملة.. يرتاحون في كل يوم لمدة ثلاث ساعات. كثيرون
منهم لم يتحملوا هذا الجهد. فمات منهم عشرون شخصاً.
واخيراً توقفوا بالقرب من النهر عند منطقة غنية بالحشائش، لكي يبداوا في تاسيس
قريتهم الجديدة.
وخلال فصل الصيف بنوا لانفسهم سقفاً كبيراً يلقى رؤوسهم حر الشمس.. ولدة عام
كامل ظلوا يعيشون على القمح الذي حملوه معهم.. وفي فصل الشتاء نظفوا الغابة
وحرقوا الارض.
ثم حصدوا غلاتهم.. قمحاً وخضروات تكفيهم لمدة ثلاث سنوات.. وكانت الارض خصبة
جداً.
وبعد سنوات تحلق لهم كل شئ.. ولم يأسف احد منهم على فراق وطنه.. ولم يهتم
احد ايضاً بما يجري في المناطق الاخرى.
وكانوا يحيكون ملابسهم من جلود الحيوانات.. التي يصطادونها بالسهم والاقواس.
وعندما نفدت كميات الملح التي جلبوها معهم وجدوا نوعاً من النبات اعتاضوا به عن
الملح.. وكانوا يشعلون الصمغ الذي تفرزه بعض الفروع الاشجار ويتخذون منه
مصابيح. عاشوا منعزلين في مكنتهم ذاك لاكثر من عشرين عاماً.. بعيدين كل البعد عن
العالم.. ولم يعلموا شيئاً عن الحرب الا بعد نهايتها بستة اعوام
وذات يوم من الايام.. وفي عام ١٩٥١ على التحديد هبت الكلاب تنبح نباحاً غريباً
شلاباً.. وذعر القرويون ولكنهم لم يروا شيئاً مريباً. ومُرَّ اسبوع وكانوا وقتها في المعبد

حينما سمعوا نباح الكلاب ثانياً. وساد الذعر من جديد.. ثم ظهرت مجموعات من الجنود على ظهر الزحافات الجليدية. ومضوا يرقبونا.. كان أربعة من الرجال.. وأنا معهم ومعى ابنتى، الذين خرجنا لنستطلع الامر.. واتجه نحونا أحد الجنود.. سألنا..

- من القائد هنا؟..

- ليس لدينا قائد.. كلمنا متساوون.. هناك قائد واحد فقط هو الله.

وعند سماعهم لردى ذاك ضحك الجنود بصوت مرتفع.. ودفعوا بنا الى المعبد.. وتقدم قائدهم يسالنا..

- ماذا تفعلون هنا؟..

- هذا معبدنا.. ونحن نعبد فيه الله..

وبدا القائد يسخر منا.. قلنا..

- هكذا اذن.. مكان للعبادة؟.. سنرى.. اين اللاسلكى واجهزة الارسال؟..

- اجهزة ارسال؟.. لا نعلم شيئاً مما تتحدثون عنه ليس لدينا ما نقولون..

- هذا ما سوف نراه..

ودفعوا بنا الى ركن حرسنا فيه ادهم بالاسلح.. ولم يسمحوا لنا بالحركة.. وعندما فتشوا المعبد اجبرونا ان نخلع ملابسنا وفتشونا وفتشونا فرداً فرداً.. ثم خرج الجنود وبقينا نحن تحت حراسة جنديين. ثم اظلمت الدنيا وبدأ الاستجواب.. وكنت آخر الذين استجوبوهم.. وقد تم ذلك صباحاً.

اقتحموا أحد المنازل وحولوه الى محكمة ممثلة بالجنود..

سألنى الضابط..

- ايها العجوز لقد تحدث مساعدوك واعوانك واعترفوا بكل شيء.

- ماذا تريدون؟..

- اين اخفيت جهاز الارسال والاسلح؟..

- نحن لا نخفى شيئاً.. كل ما لدينا يمكن ان يراه اى انسان.

وقبض الضابط على لحيتى وجرنى نحو المنضدة بعنف..

ارتطم راسى فاخرج سكيناً كبيرة مررها على عنقى من الخلف وهو يقول..

- اذا لم تعترف ايها الكلب ساذبك.

ولم اجب بشيء..

فرفعنى مرة اخرى من لحيتى منتزِعاً شعيرات البياض بيده..

- اعطيك ساعة واحدة من الوقت واذا لم تعترف بعدها ساحرق كل القرية.. وسوف

احيكك انت الى رماد.

وبعد ساعات استدعونى مرة ثانياً..

وقال الضابط..

- مثل هذا العجوز لا بد ان يكون جاسوساً..

وصمت. لم اكن اعلم معنى الجاسوسية.

.. هل تريد ان تعترف ..؟

.. لقد جئنا الى هذه الغلبة لنبدأ حياة جديدة بعيدة عن الآخرين.

وكتب الضابط كل شيء في مفكرته.

وبعد استجواب غير متجه لعدة ساعات أخرجوني من الغرفة وسمح لي بأن أعود الى اهلي في المنزل.

وهناك وجدت ابني وزوجته وكلنا يستجوبونهم لمدة طويلة جداً.

واوقفوا امام كل منزل جديداً يتولى حراسته ولا يسمح لاحد بالخروج منه الا باذنه فقط..

وكنا نقود الانعام للمرعى ايضاً باذنه وبتعليماته فقط. واستمر الحال هكذا لمدة

اسبوعين.. وخلال تلك الفترة نشأت بعض الالفة بين القرويين والجنود، وجلس هؤلاء

الى مواثد اولئك.

وقال الجنود لهم عندما طلبت نفوسهم..

.. ان القائد ذهب الى مركز الضواحي وعند رجوعه ستعيشون بلا مضايقات.

وعاد الضابط.. ولكن بمزيد من الجنود. وبعد يومين من استعراض القوة جمع كل

القرويين وقرا عليهم قرار لجنة الضواحي والذي نصه:-

« ان هذه القرية البعيدة يجب ان تنقل لتكون بالقرب من مركز الضواحي.. حتى يكون

القرويون قرييين من المدينة.. فهناك خطورة من توحشهم بدون مدارس وخدمات..

الخ...». واعطى الضابط القرويين ثلاثة ايام للاستعداد.

وصمت السكان واجمين.. لم يقولوا شيئاً.

فقط سجدوا يصلون طويلاً لله..

وبدأت النساء في الانتحاب والبكاء.

وعند اليوم الثالث كنا مستعدين للسفر.

وكان الجنود في حالة تاهب واستعداد، يرتدون ملابس الميدان.

وبدأت المسيرة الطويلة.. متنا رجل وامرأة يرافقه ثمانية عشر طفلاً.. اطعمنا مواشينا

وتزودنا، وتحرك الجميع.. وضعنا النساء المسنات والاطفال على الزلاجات ملفوفين

بفراء الدب.. اما الرجال فسلخوا على اقدامهم.. وتزحلق الجنود في شكل دائري واحاطوا

بالرحلة.

كنا نمشي بالنهار.. اما بالليل فكان الجنود ينصبون الخيام.. وبعد عشرة ايام وصلنا

الى اجنيسك.. وفور وصولنا علمنا اننا تحت الاعتقال.. وضعوا النساء والاطفال في

زناينة كبيرة.. اما الرجال فوزعوا على عدة زناينات.

واستمروا يحققون معنا لمدة شهرين، واتهمونا باننا كنا على صلة بالجاسوسية

الامريكية.. واننا كنا نعد تخطيطاً خطيراً لهدم السلطة السوفيتة.

كان معنا اثنان فقط يعرفان القراءة والكتابة.. اما بقيتنا فكانت امية تماماً.

وعند انتهاء التحقيق اخذوا بصماتنا بدل التوقيع. ولم نعرف ما هو المكتوب الذي

صمنا عليه.

وامام المحكمة صرحنا باننا لم نر اجنبياً واحداً باعيننا لمدة عشرين عاماً. وقال لنا القاضى ان الاغلبية قد اعترفت بان احد العملاء الامريكيين كان يحضر بانتظام للقرية ومعه الدولارات. واطلعنا على المحاضر التى تحمل بصماتنا دون ان نعرف ما تحتوى.. وقال ان هذه اعترافاتنا وهى واضحة وصريحة. وحكم علينا بخمسة وعشرين عاماً فى المعسكر لكل منا. وانتزعوا منا الاطفال.

كانت هذه هى آخر كلمات العجوز فى روايته للاحداث التى تعرضوا لها. فسالتة.. كيف تفسر اكتشاف منطقتكم داخل الغابة..؟ هل توغل احدكم بعيداً او ذهب هنا وهناك فلفت اليه الانظار..؟

- قطعاً لا.. لم تكن بنا حاجة للذهاب الى اى مكان ابعد من عشرة كيلومترات حول منطقتنا السكنية.. كان لدينا كل ما نحتاج اليه.

- لم يحضر لكم احد خلال تلك الاعوام الطويلة التى كنتم معزولين فيها عن العالم..؟

ابداً لم يحدث قط. كنا فى بعض الاحيان نسمع اصوات الرصاص وهذا كل شىء.

- حدثنى، بان الكلاب عوت ذات يوم عواءً غير عادى.

امن المحتمل ان يكون هؤلاء من الصيادين..

- نعم بالتأكيد.. وقد وضع لنا الآن ان الصيادين هم الذين اكتشفوا مكاننا.

- كيف صحتك..؟

- جيدة جداً. على ان اكون دائماً فى اكمل حالات العافية فاملى حياة طويلة... عمرى

الآن ستة وسبعون عاماً.. وعلى ان اعيش خمسة وعشرين عاماً حتى لا اكون مداناً

بشئء للدولة السوفيتية والمستالين العظيم.

مجموعة الرائد شولر

كان الالمان في المعسكر منقسمين الى قسمين..
مجموعة كانت من الغزاة، وهذه حوكت كمجرمى حرب.. وهى بزعامة ستاينمان..
رئيس الشرطة السابق.. وهو من برلين..
لو يكن لديهم اى نشاط في المعسكر..
كان ستاينمان اثناء الحرب رئيسا للشرطة في اوكرانيا.. وقد قام بارتكاب جرائم فظيعة..
تقتصر لذكرها الايدان..
ومن اعضاء هذه المجموعة ايضا النمسلوى ستيهر.. الذى عمل ضابطا في الـ (اس).
اس) بالمعسكرات المخصوصة..
وقد عولده الان الحنين للزمن القديم..
هؤلاء النازيون الذين لم يعلمهم الماضى شيئا والذين مازال هتلى بعشش داخل افكارهم
المریضة المهووسة.. كانوا جبناء لدرجة انهم لم يستطيعوا ان يقفوا ضد نظام ستالين
«بالمفتوح»، رغم طول السنهتهم..
كانوا حين يستشعرون خطراً ما يلوذون بجحورهم كالفئران..
ولم يكن لديهم ادنى الرغبة ، في تقديم المساعدة لاحد..
واذا حاز احدهم على عمل جيد في موقع يمكنه من ان يعين الاخرين كان ينسى رفاقه
وزملاءه ولا يهتم كيف يحيون..! مع انهم يحملون نفس افكاره..
اما المجموعة الثانية فكانوا من «المتأمرين».. وهؤلاء هم الذين عملوا بعد الحرب في
المنظمات الالمانية الأمريكية..
كانوا يسلكون سلوكاً ديمقراطياً بعض الشيء..
وقد قادهم الروس الى هذا المكان دون اعتبار لای شيء..
وحكموا بخمسة وعشرين عاماً..
كان بعضهم عملاء للـ (اس.آى.اس) وللمخابرات الأمريكية في ألمانيا.. اما الآخرون فقد
كان اعتقالهم بسبب من نشاطهم الديمقراطي «كجواسيس»..
ولعل اميزهم كان هو الرائد «شولر وشريد»..
وكانت مجموعتهم مجموعة متحركة ذات نشاط محموم.. يحملون نفس افكار واحلام
كاب..
ولكنهم كانوا يختلفون عن ذلك في شيء واحد..
كان كاب وروسكر يفامرآن بوضوح مكشوف سانج..
اما هؤلاء فكانوا جادين للحد البعيد.. وهم يصدقون ان احتمال تغيير الاحوال في
الاتحاد السوفيتى بالقوة امر وارى..
وكانوا بسيطاء.. ومثلهم مثل معظم الاجانب لم يتعرفوا على روسيا..
وقاسوا الامور بالمقياس الاوربية.. وكانوا واقفين من نشوب الحرب القريبة بين

الامريكان والروس.. وبكل قواهم كانوا يحاولون منح النصر للامريكان.. وحين شعرت بان المعسكر كله وقف يحكى عن وقوع الحرب الوشيك.. وينسب اخباره الى مصادر موثوق بها، قمت بتحذير الرائد شوللر من الاخطار التي ستنتج عن ذلك..

قال لى الرائد شوللر انه قد تحدثت في وقت سابق مع الجنرال هالديروم الذى اخبره عن قرب نشوب الحرب.. وقال له ان ذلك لن يتعدى بخال من الاحوال عام ١٩٥٣م.. وان الامريكان لديهم معلومات مؤكدة عن هجوم ستالين على يوغسلافيا في عام ١٩٥٣م.. وهذا بالطبع سيكون سببا في اشتعال الحرب العالمية..

واقتربت نهاية عام ١٩٥٢ دون ان يلوح في الافق اثر لشيء.. وقررت مجموعة الرائد شوللر الاتصال بالخارج م هما كلف ذلك.. واقرروا كذلك ان يتسلل احد افراد المجموعة - هاربا عن النحود - وان يسلم الامريكان تقريرا اصليا عن الاحوال هنا..

وان ينقل لهم ان جيشا تعداده مليون سجين في معسكرات سيبيريا ينتظر الاشارة للثورة ضد نظام ستالين..

واتضححت البساطة والسذاجة لهؤلاء الناس مرة اخرى.. كل القضية عندهم تتلخص في هروب شخص من المعسكر..

دون ان يسالوا ماذا بعد الهروب.. هب ان شخصا نجح في الهروب من المعسكر.. ونجح كذلك في عبور الحدود السوفيتية.. رغم استحالة ذلك تماما.. فنحن في المنطقة الشرقية من سيبيريا على بعد الاف الكيلو مترات من الحدود.. فمن الذي يملك الامدادات؟.. ويعرف اللغة الروسية؟.. ثم كيف يصل الى الحدود؟.. وماذا بعد ذلك؟..

ان الروسى نفسه لا يستطيع ان يتجول بوفائق مزورة دون ان يكتشف امره.. ان ك ف د يدس انفه في كل شيء.. اصابعه قاسرة على الامساك برقاب الامور دائما.. وغير ذلك من اشياء اخرى كثيرة ومتداخلة..

ولم يفكر أعضاء مجموعة الرائد شوللر في كل هذه الامور.. وبدوا يعدون عدتهم لتجهيز هروب الشاب الالماني الذى كان يعمل في مصنع القاطرات كصانع للاقفال..

وكان التخطيط ان يختبئ الهارب في صهريج الماء يلحدى القاطرات.. وبذلك يستطيع ان يخرج عن دائرة المصنع..

اعطوه قليلا من الملابس والخبز.. ومسحوا كل جسده بالدهن حتى يستطيع البقاء طويلا في صهريج الماء.. وقد حدث..

تحركت القاطرة من صالة المصنع ووقفت امام الباب.. وصعد اليها الجندي لتفتيشها كالعادة.. وفي ذلك اليوم استمر التفتيش لوقت اطول..

فتشوها مرتين.. ادخلوا في صهريج الماء حديده حادة جدا.. جالسوا بها خلال الماء على

شكل طعنات قوية.. ولكنهم لم يجدوا شيئا..
واعطى المسئول عن قيادة الحرس باعادة التفتيش..
وحين ادخل الحارس للمرة الثالثة الله الحادة في الماء.. سمعوا صوت شخص يصرخ..
وفجأة ظهر انسان من الصهريج وقد تغطي جسمه بالدهن والهباب.. اخرجوه بعنف..
وكان واضحا ان في المجموعة عميلا او عملاء اعطوا الخطة الموضوعة لضابط الـ
(م.ج.ب).. الذي كان في انتظار الهارب..
وقد حدث ما لا بد ان يحدث في مثل هذه الاحوال..
اكثر من عشرين المانيا بينهم الرائد شولزر القوا بهم في غياهب السجون وقدموهم
للمحاكمة..
ولم استطع ان اعرف شيئا عن مصيرهم..

أبادة اليهود

قبل أن يعرف الرأي العام العالمي شيئاً عن نفى اليهود الذى بدأ بأمر من ستالين.. كان الحديث يدور عن ذلك في المعسكر..

وما كان يذاع وينشر في نهاية عام ١٩٥٢.. ليس هو البداية لمأساة اليهود في الاتحاد السوفيتي..

ولكنه كان حلقات أخرى في مسلسل حادث الطبيب اليهودي.. فذلك الحادث كان مرحلة متقدمة بسيطة وصغيرة لهجمة كبيرة كان يقصد بها فناء ماتبقى من اليهود.. الذين لم يفلح هتلر في الهائهم..

كان بالإمكان رصد الملامح السريعة الأولى للامر التي بدأت في عام ١٩٥٢.. ففي كل سفيرة جديدة تتجه نحو المعسكرات والسجون كان هناك عدد أكبر من اليهود..

في البداية كنا نعتقد أن ذاك يتم بمحض الصدفة وحدها.. ثم زاد الامر وضوحا كانت السفريات تكاد أن تكون يهودية محضة..

في الوحدة رقم ٣١ وصل عدد جديد من السجناء.. كان بينهم يهوديان.. أحدهما عملت معه في نفس قسم المباني.. كان صاعدا في اليوم الأول.. وكما يحدث دائما وفي آلاف الحالات فإن ذلك اليهودي لم يختلف عن غيره في شيء مهم.. ولم اهتم به بدرجة خاصة.. ومرت أسابيع.. وحدث أن دافعت عنه يوماً عندما هاجم الآخرون السامية، فحرزت على ثقته الكاملة.

ومن يومها أصبحت مستشاره الدائم.. كان اسمه رونسكى.. عقيد.. سفير.. وقائد لحرس السكة الحديد وشبكة موسكو الحديدية.. عندما كان شابا، كان عضوا في اتحاد الشبيبة الشيوعية.. وبعدها أصبح عضوا في الحزب الشيوعي..

ثم بقي في الجيش عند انتهاء الحرب.. وبعد ذلك نقل إلى حرس السكة الحديد.. وكان قادة الحزب يسافرون تحت رعايته ومراقبته الدقيقة لخطوط السكة الحديد.. ولم يكن حرس السكة الحديد تابعا لوزارة الحربية، ولكنه كان تابعا له (م.ج.ب).

وكان العقيد رونسكى يهوديا - تزوج من روسية - ولكن دائرة مسؤولياته وتحركاته أبعدته عن الوسط اليهودي.

له طفلان نشأ على الروح السوفيتية.. واعتبرا نفسيهما وهما من روسية من أبناء الروس.

ولم يعلم أطفاله بأن والدهما يهودي حتى قبل علم واحد، عندما تقرر في الاتحاد السوفيتي إطلاق اللفظ المهين (قيد) على اليهود.

جاء أحد أطفاله يوماً من المدرسة وهو يبكي.. وشكى لأمه..

وذهبت الأم غاضبة إلى مدير المدرسة وبيدها الوثائق لكي تثبت أنها ليست يهودية

وكذلك اطفالها.. واجابها مدير المدرسة قائلاً..
لا شأن لنا بهذا.. ان الاطفال الآخرين يعرفون جيداً من الذى يوجهون له هذه الكلمة..
ونحن لن نتدخل فى الامر..

اما رونسكى نفسه فلم يطلق عليه احد لفظ (قيد) ولكنهم فى يوم من الايام اسموه
الجنرال..

وكل من يطلق عليه اسم الجنرال يجب عليه ان يسلم مهام عمله فوراً.. ولم يعن احد
بتفسير الامر له.

لفظوه بعد خدمة دامت لاكثر من ثلاثين عاماً والقوا به فى الطريق.. هو واسرته.. وذهب
يشكو.. ولكن الى من؟ كل الذين ذهب اليهم اداروا له ظهورهم.. وقال له صديق حميم
كان فى منصب نائب وزير..

هناك امر سرى من ستالين بابعاد اليهود من كل المكاتب والمؤسسات وعليك ان تفهم
اننى لا استطيع مساعدتك فى هذه الظروف ويمكنك الذهاب الى موسكو.. لان حل هذا
الامر هناك.. فى عام ١٩٤٠ عند عقد حلف هتلر - ستالين اصدر المكتب السياسى
للحزب الشيوعى قراراً بترحيل اليهود من كل المدن الكبيرة وخاصة موسكو..

ولكن بداية الحرب العالمية الثانية منعت ستالين من تنفيذ قراره.
انتهى همس نائب الوزير فى اذن صديقه رونسكى.. وعندما ودعه اضاف قائلاً له فى
رجاء..

لا تغضب مستقبلاً اذا لم اسمح لك بلقائى فان مضطرب.
بعد ذلك ادرك رونسكى انه ليس اليهودى الوحيد الذى فصل من عمله..
كانت هناك قائمة طويلة بأسماء اليهود الذين يجب فصلهم.. فى قسم شئون الموظفين..
فى الوزارات.. فى الادارة الرئيسية.. فى المدارس العليا.. وقد اضحى يهود موسكو
ولينجراد بلا عمل..

الوزارة الوحيدة التى لم تفصل اليهود هى وزارة الخارجية.. لسبب بسيط هو انه ليس
بها يهودى واحد..

فقد كان يرأسها مولوتوف.. ولم يكن سيادته يطبق ان يرى اليهود.. واخر يهودى عمل
فى وزارة الخارجية كان هو لوزونسكى الذى وعد النائبة الاولى فى اسرائيل
بقولها ملير، بتسهيل هجرة اليهود الذين يودون العيش فى اسرائيل ولذلك القوا عليه
القبض.. وكان بإمكان مولوتوف ان يفخر امام ستالين بان وزارته نظيفة من اليهود.

وكان مولوتوف قبلها قد نظف اسرته.. طلق زوجته الثانية.. رغم انه رزق منها بطفلين
أحدهما بنت اسمها (جيموجينا) كما قام بتغيير وزير الصناعات الكيماوية وحتى
يحوز على رضا ستالين اصدر مولوتوف امراً باعتقاله..

وفى نهاية عام ١٩٥٢ نشرت الصحف والاذاعة السوفيتية اخباراً موجهة تزعم ان
لهؤلاء قد تم اكتشافها..

ديرها الاطباء اليهود.. لقتل قادة الحزب الشيوعى السوفيتى..

ونكر في الاخبار ان الاطباء المعتقلين اعترفوا بارسال بعض القادة البارزين الى العالم الاخر..

ولكن يقظة الاطباء المخلصين الاخرين قضت على خططهم بالانهايار.. ونجا القادة من خطر الموت..

الذين يعرفون ماذا تعنى مثل تلك الانباء في الاتحاد السوفيتي كان بإمكانهم ادراك كيف ستكون العواقب..

كانت تلك اشارة واضحة الى ان اليهود في الاتحاد السوفيتي قد تقررت ابادتهم تماماً.. ومنذ هذه اللحظة أصبح اليهود محرومين من حماية القانون..

تبع ذلك فصل جماعي من العمل دون اخذ بقلنون الانذار او بالقوانين الاخرى..

ومن المدارس العليا فصل الطلاب اليهود..

ونشطت أجهزة الد (م.ف.د) نشاطاً محموداً..

وأمتلأت السجون باليهود الذين اتهموا بأنهم عملاء امريكيون..

وبأنهم تروتسكيون.. صهيانية.. ارهابيون..

وبدأ هياج اعداء السامية..

القوا باليهود خارج المركبات العامة واوسعوهم ضرباً.. وكل من حاول حمايتهم واجه نفس المصير.. وبعدها لم يجرؤ روسي على لقاء اى يهودي مهما كانت درجة صلته به..

ولكن اليهود المشهورين عالمياً لم يكن من البساطة اعتقالهم..

لذلك تسلسلت الاحداث (غير السعيدة) .. وفي يوم قرأ الناس بالصحف خبرا يقول (دهست شاحنة بسرعة الممثل المعروف ميهوليس وصديقة منسك..)

اما الحقيقة فتقول انهما قتلتا تعذيباً في السجن بعد ان رفضا التوقيع على اعتراف بأنهم عملاء امريكيون..

ولقى الكتاب اليهود المشهورون حتفهم بنفس الاسلوب..

.. ماركش.. د. قورستايين.. برقلسون.. كفيتكو.. وآخرون.. اما في المعسكرات فكان

يحدث نفس الشيء الذي يحدث في الحياة العادية..

اليهود الذين كانوا يعملون أعمالاً سهلة نقلوا الى اخرى شاقة..

اما الاطباء فقد كان عليهم العمل في تكسير الاحجار.. وأعمال المناجم.. وجمع الحصى.. وفي الغابات..

ودبرت لهم المصائد.. وأعدت المذابح الهتلرية المسعورة..

ولكن الفرق بين الظروف في السجون وغيرها.. حيث لم يجرؤ الروس على الاختلاط باليهود.. في المعسكرات.. كان بالإمكان وجود سجناء..

سجناء شجعان استطاعوا ان يحموا اليهود من التعذيب..

كان في العنبر الذي يقيم به عمال مصنع المعسكر عدد من الاكرانيين الفاشست الذين حاولوا الاعتداء على الترتزي اليهودي.. وقد كان ضمن المدافعين عنه مدير الورشة

هنجوك وبقيّة العمال..

ونشبت عقب ذلك مشاجرة ضرب فيها الفاشست حتى ان منهم نقلوا الى المستشفى..
كما حدث شيء قريب من ذلك حين أخرج السجناء يهوديا من صف الطعام.
وقد اضطر للدفاع عن نفسه مستعينا بآناء الطعام الصفيحي.. فجرح المعتدى عليه
جرحاً عميقاً غائراً..
ثم ظهر الفاشست وتقدموا يضربونه بعنف.. ولكن سرعان ماجاء مدير المطعم
ومساعدوه وفرقوا الحشد..
ولو لا ان الانباء الخطيرة تواترت في الجرائد عن مرض القائد المحبوب ستالين في اول
مارس من عام ١٩٥٣ لكان اليهود قد ابعدوا كلهم اباداة تامة.. فهذه الانباء تستحق
الشكر اذن..

ومات ستالين في يوم ١٩٥٣/٣/٥..
لقد انتظر الشعب المجهور اكثر من عقدين كاملين، تلك اللحظات..
الشعب الروسي الذى كان مرغما على الكشف عن حبه واخلاصه للقائد المحبوب في كل
لحظة من لحظات حياته.. صار بإمكانه الان ان يتنفس الصعداء..
اقرب معاونيه كان يامل ان يكون موت الطاغية بداية لعهد الحرية.. وتخلصا من
كابوس الاخطار التى كان الجميع فيها سواسية..
يكان الدليل القاطع على ان اقرب الاقربين اليه في خطر شديد دائم هو مصير.. بوهاين.
يكوف.. تومسكوف.. بياتاكوفنى.. ويقودا..
كلما ارسل ستالين أحد زملائهم للموت كانوا يساعلون بلوعة مفاجعة.
بلى من الدور الان؟..

موت ستالين

في السابع من مارس عام ١٩٥٣ ظهرت الصحف السوفيتية مجلة بالسواد.. ومؤطرم بالخطوط الحزينة..

انه وفي الخامس من مارس عند تمام الساعة الواحدة والعشرين وفي الدقيقة الخمسين مات القائد العظيم..))

وعندما كانت الصحف ومحطات الاذاعة تؤين وتتحرر على الفقد الذي لا يعوض للحزب والشعب.. كانت الحرب قد بدأت في الكرملين على وراثة السلطة..

ولم تبرد الجثة بعد.. حيث بدأ الكل يفكرون في تامين (مكانتهم) عند وريث ستالين.. ولم يرد احد ان يواصل حياة الارتجاف خوفاً على نفسه امام القائد المحبوب الجديد.. الشيء الذي كان يدور في رؤس هؤلاء الناس، استطاع خرتشوف ان يعبر عنه اصدق تعبير في جلسة اللجنة المركزية..

ماهي مسئولية اعضاء اللجنة المركزية عن جرائم ستالين..؟

قال خرتشوف مجيباً..

قبل كل جلسة للجنة المركزية كان كل عضو مشتركاً فيها قد ودع اسرته قبل ان يجيء للاجتماع، فهو لا يدرى وان كان يعود الى اهله مرة اخرى..

وفي يوم دفن ستالين وصل النفاق في المعسكر الى اقصى مداه.. عندها اعلن ان ذلك اليوم هو يوم الحزن.. وكان على السجناء الا يذهبون للعمل..

وسر السجناء لذلك قال بعضهم لبعض..

اذا كان يوم دفن ستالين يوم راحة عن العمل بانه يكون جيداً اذا مات في كل شهر ستالين صغير اخر..

وعلى رنين الجرس تجمع السجناء في الساحة.. وقفت كل وحدة على جانب منفرد وفي منتصف الساحة.. وضعت منضدة، صعد عليها ذلك الضابط الذي عذب السجناء عذاباً شديداً..

ومن على المنضدة صاح فينا امراً..

اخلعوا قبعاتكم..

وامتثلنا للامر.. وقف كل السجناء ورؤسهم عارية يحملون قبعاتهم بايديهم ورن صوت المعذب في الساحة قاسياً..

في هذه اللحظة يدفن القائد الكبير للشعب السوفيتي ولكل العالم المحب للحرية والسلام..

عند تلك الكلمات اخذ السجناء يسعلون بصوت مرتفع..

ونظر ضابط الـ (م.ق.د) حول نفسه وتابع كلامه..

يدفن المحبوب جوزيف قساريونوفج ستالين في ضريح بالميدان الاحمر..

ومع كل الشعب ناسف لفقد قائدنا المحبوب.. ونقسم في هذه الساعة باننا سنعمل اكثر

واحسن..

صمت معذبنا.. وصمتنا لمدة ثلاث دقائق..

وفجأة سال احد السجناء بصوت عال..

المواطن المدير، في حسابي بعض النقود التي ارسلتها لى زوجتي..

ولما كنت لا استطيع انفاقها على نفسى فساعطيكم منها جزءا لشراء باقة من الزهور

توضع على ضريح قائدنا المحبوب.. فهل هذا ممكن..

عليك ان تكتب طلبا بهذا المعنى لرئيس المعسكر.. والان انصرف..

وعدنا الى العنابر..

سخرنا من الـ (م.ق.د) بلا حدود.. لقد تحدث الضابط كثيرا عن موت ستالين وعن

اسبابه.. كان واضحا ان النشرة الطبية اعلنت فقط السبب الفيزيولوجي للموت ولكن

يجب ان لا ينمحي من الذاكرة ان الضربة التي الحقها به الشيوعيون اليوغسلاف وعلى

راسهم تيتو كانت ضربة قاصمة للظهر..

ومنذ عام ١٩٤٨ لم يهدأ ستالين بال..

الرجال الذين حوله كانوا يقولون ان ستالين ظل يفكر ليلاً ونهاراً في طريقة الانتقام من

الشيوعيين اليوغسلاف..

كان يخطط للتدخل العسكرى ضد يوغسلافيا.. قللوا ذلك صراحة..

وقد صرح مولوتوف - ساعده الايمن - بان الاسابيع القادمة ستشهد كيف يمسح

الشعب اليوغسلافي عصابة تيتو

وحين يذكر رجال كمولوتوف الشعب فهو يقصد دون شك العصابات التي تعمل في خدمة

الـ (ن.ك.ق.د).. وبين صفوف الـ (ن.ك.ق.د).. ايضا..

وكان ستالين يامل بمساعدة مئات من عملائه خلق جو من الفوضى والشغب يهدد به

لتدخله العسكرى وغزوه ليوغسلافيا.. حيث على الحكم السلطة التي تستمع وتخضع

له في كل شيء..

ولم تنجح خطته.. لوحدة الشعب اليوغسلافي والتفافه حول قائده تيتو.. والضربة

الثانية المهلكة تلقاها ستالين عند فشل محاولته في كوريا الجنوبية.. وقد اعتقد ستالين

وهو يرى مافعله هتلر بالعالم ان الحرب الخاطفة في كوريا الجنوبية ستنتهى

لصلاحه..

وبالرغم من كل التحذيرات وحتى عندما وصل الوزير الامريكى دلاس الى خندق كوريا

الجنوبية اعلانا بان امريكا لن تسمح بانضمام كوريا الجنوبية الى المعسكر السوفيتى

عن طريق القوة.. بالرغم من ذلك كله كان ستالين قد بدا الحرب وهو مؤمن بالانتصار

وبانه سيلقى بالامريكان في البحر.. كما قال في احدى خطبه..

ولكن هذه لم تنجح ايضا

وبدا ستالين يخطط لحرب جديدة

خلق ارضا خصبة للعداوة الكاذبة.. عن حفظ السلام

وكالعادة دعى بالباشا هرنبرج - ايليوت - بيترجونسون - كورى .. وآخرين من كبار الشخصيات الادبية والفكرية ذات الوزن الحضارى العالى لى ينظمو مؤتمر السلم الذى تهاجم فيه الامبريالية ..

وخدع بذلك اناس شرفاء كثيرون ..

فمن هو الذى لا يريد السلام ..

كل ذلك واكثر لم يستطع ستالين الذى كان ياكل نفسه ان يعيشه ..

وليس غريباً ، على كل حال ، ان تكون لموت ستالين دلالة خاصة فى المعسكر وفجأة بدأ السجناء يؤمنون بانهم يوماً ما سيصبحون احراراً ..

الحرس .. موظفو السجن .. رؤساء الحرس .. كل انسان هنا احس بان عهداً جديداً سيبدأ ..

وبالرغم من ان نقاشاً مثل هذا لم يجر بين الحرس والسجناء حول موت ستالين الا ان الجميع شعروا بان الامور ستكون مختلفة ..

اول شئ فكروا فيه هو ضعف النظام ..

اعلن السجناء صراحة ان العمل شاق جداً .. ولم يدعمه احد لتحمل المسؤولية ..

السجناء الذين يحصلون على خبز اقل لانهم لا ينجزون المعدل الاحصائى للعمل ، قالوا انهم جوعى لن يعملوا .. فحصلوا على وجباتهم كاملة ..

وادخلت العطلات .. اربعة ايام فى الشهر ..

وبدلاً عن ارسال خطابين فقط لالاهل فى السنة ، سمح للسجين بخطابين فى الشهر ..

وفقدت ادارة السجن سيطرتها ..

وبعد مضى شهرين حاولت الادارة ان تستعيد هيبتها وحزمها .. فدفعت ببعض السجناء الى زنزانات الحبس الانفرادى التأديبية .. ولجأ الحرس الى تعذيب السجناء .. ولكن كانت هذه كلها مجرد محاولات لاعادة الوضع القديم .. وكان الجميع يعلمون ان الزمن قد ولى .. وفى المعسكر لم يصل سجناء جدد بانتظام .. والذين جاؤوا من سجون التحقيق قالوا - لا يوجد سجناء جدد .. وفى المعسكرات كانوا يعلمون ما يدور فى قمة جهاز الحزب من صراعات .. وتحدث الكثيرون عن الحرب من اجل السلطة التى كان ملتهبة متاجرة الاوار ..

وحدث اضراب شديد لدى سماع نيا تعيين المارشال زيكوف وزيراً للحربية .. لان السجناء كان يعلمون ان ستالين قام بنفى زيكوف .. والنفى دائماً هو المرحلة الاولى قبل التصفية الجسدية ..

وكان ذلك هو الحال مع تولهجفسكى .. وقامارينيك .. وبلكبر وبلوهر .. وآخرين من القادة العسكريين للاتحاد السوفيتى ..

كنت اعلم انه قد بقيت لى شهر على انقضاء العقوبة .. وكنت اعد ما تبقى لى .. وافكر .. كيف انى حين انا حريتى ساكون مجبراً على الحياة فى قرية من قرى سيبيريا ..

وكنت واثقاً ومستيقناً ان هذه ليست حرية حقيقية .. وذلك لان السجناء السياسيين بعد

انقضاء فترة العقوبة لا يسمح لهم بالعودة الى اسرهم.. وان الـ (م.ج.ب) هو الذى يحدد مكان اقامتهم.. ولكن الحياة فى المنفى خير من الحياة فى المعسكر.. يتركبكنى حنين جارف لان الفت من قبضة رئيس الحرس.. وبوليس المعسكر.. والكلاب البوليسية.. والـ (ن.ك.ق.د).. والمدير.. والجبايرة الاخرون..

ثم سمعت من بعض الذين عاشوا فى المنفى ان الظروف هناك سيئة للغاية.. لدرجة ان الكثيرون يحلمون بالعودة الى المعسكر..

وفى تايشت عاش كثيرون من المنفيين الذين كان بالإمكان التحدث معهم.. وكانوا فى كل فرصة يرجون السجناء ان يبيعوا لهم جزءا من ملابسهم.. وعند مرورنا بشوارع تايشت راينا صفوفهم الطويلة امام متاجر الخبز والمواد التموينية الاخرى..

ومن خلال النوافذ شاهدنا كيف يجلس الناس فى الحجرات وعلى ضوء الشموع ياكلون عشاء قليلا لا يسمن ولا يغنى من جوع..

وعلى ذلك لم يكن حال المنفيين سارا.. ولكن رغما عن كل شيء حننت الى نبيل حريتى والخروج من المعسكر..

كانت الحرية هاجسا ملحا داعب خيالى ورؤاى فى كل لحظات وجودى هنا..

حريتى اين هى؟

ولو كانت مؤقتة.. اين هى؟

وكثيراً ما كنت اراقب ملابس المهترئة المعرقة.. والحذاء الذى لا يسر من يرى حاله.. وسالت نفسى..

كيف يمكننى الخروج بهما الى الحرية؟

كنت أمل ان لا ياخذوا منى ملابس السجن.. اما الارقال فانا كليل بمحوها..

وكتبت رسالة الى زوجتى.. اخبرتها بانى قريباً ساكون حراً.. وإننى أستطيع ان احتويها بين ذراعى واحتضنها ثانية.. ولم تكن هذه هى المرة الاولى التى اكتب فيها مثل هذا الخطاب الى زوجتى خلال السبعة عشرة عاما الماضية..

وكننت احس بانها لن تصدق..

ولختها كانت ترسل الطرد فى الموعد المناسب.. وفى الطرد الذى استلمته قبل شهر من اطلاق سراحى وجدتها قد ارسلت لى بدلة شقيقها الذى قتل فى الحرب.. وزوجين من الملابس وحذاء اشتريته من مرتبها البسيط وسرت كثيراً.. سررت بلا حدود.. فاخيراً استطعت ان اؤمن لنفسى اهم الاشياء..

واهتمت اصنقلنى الى المعسكر بالامر الجلل الخطير..

اوسكار ليتخ الذى كان يعمل خراطا فى ورشة صهاريج البيزين صنع لى انثئين من الالومنيوم وقلمين من اقلام الحبر لم يختلفا فى شيء عن تلك الاقلام التى تصنع فى المصانع..

هاينز قويرز نظم حملة سرية لجمع النقود واحضر لى ثلثمائة روبل..

كل ذلك ملائى شجاعة واعطانى املا.. زملائى ورئيس العمال كانوا يعلمون ان سراحى

سيطلق قريباً.. ولذلك فقد سامحوني في أداء العمل.. وكثيراً ماكنوا يجبرونني على
الراحة وهم يبتسمون ويقولون..
سوف تجد أمامك فرصة كافية للعمل..
ولكن..
ولكن ماذا هل تعتقد بأن الحرية ستسقط على فمك الطير المشوى..
وكنت أعلم كل ذلك فتفرورق عيناى بالدموع..
وبدأت أعد الأيام..
عشرة أيام أخرى..
ثمانية.. يومين..
وأخيراً جاء اليوم قبل الأخير..
وفي المساء دخل رئيس الحرس العنبر وقال لي..
غدا لا تذهب للعمل..
وأحاطني الزملاء مهنئين..
كانوا يعلمون أنني ظلت أشك كثيراً في أنهم سيطلقون سراحى.. ورتب الأصدقاء:
ورديات عملهم لتكون ليلة حتى يبقوا معى الساعات الأخيرة لي.. وكان هناك أوسكار
- لبتيك - هاينز فاويرز.. وهلمت روث..
وعادت عيناى تمتلئان بالدموع..

اليوم الاخير في المعسكر

في الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٩٥٣ سمعت صوت جرس الاستيقاظ الذي رن في اذني رنيناً غريباً.. آخر جرس اسمعه في المعسكر..
ودخل اصدقائي العنبر..
اليوم لن نذهب الى الاقطار..
سنفطر هنا معك..
كلنا مع بعض..

اخرج اوسكار من معطفه المبطن علبة (قواكه معلبة).. واحضر ماينز السكر.. واهلوت قطعة كبيرة من شحم ولحم الخنزير..
ولم اكن اعلم ابداً من اين اخضروا هذه الاشياء..
كنت على يقين من انها كلفتهم جهداً كبيراً..
وعندما انتهينا من الافطار حضر رئيس الحرس وسال:
— اين شتاينز؟..
— نعم.. انا هنا..
— هيا معي..

واتجهت معه الى المخزن الذي كانت به حقيبتي وملابسي.. وفي غرفة الحرس خلعوا عني ملابس السجن بحضور ضابط الـ (م.ق.د) وتم تفتيشي بدقة شديدة ثم امر الضباط ان يجدوا الوريقة..
كان يعتقد انني احمل معي وريقة لاكتب فيها عنواني الجديد للسجناء..
ولم يجدوا شيئاً عندي.. ثم وقعت بعد ذلك على ايصال باني استلمت حاجياتي ونقودي وانني لا اطلب ادارة السجن بشيء.. وقد وقعت رغم انهم لم يعيدوا لي نقودي وملابسي التي اخذوها مني قبل سبعة عشر عاماً..
وفي الساحة كان ينتظرنني ثلاثة من اصدقائي.. ودعوني وداعاً مؤثراً..
ولم ارمهم بعد ذلك الا انني علمت فيما بعد بان هلمت روث واسكار لبتيوخ قد سلما للسلطات الرومانية..

اما هينز فويرز فقيم في (اوزلاق) المعسكر رقم (١٣)..
وفتح الباب..

كان في انتظارني جنديان مسلحان.. قاداني الى بيريسكي..
وهذه هي المرة الرابعة التي آتي فيها الى هذه المحطة المرحلية..
ولكنني الآن في طريقي الى الحرية..
انزلوني في عنبر السجناء الذين قضوا فترة الحبس وينتظرون الان اطلاق سراحهم..
وفي الحال علمت ان الامر ليس بالسهولة التي يتخيلها به المرء..
كان هناك اناس ينتظرون هنا منذ ثلاثة اشهر.. رغم انهم قضوا فترة العقوبة كاملة..

وكان الامر صعبا على بعض الذين اصبحوا غير قادرين على العمل في المعسكر.. وكان يجب على ذويهم التعهد برعايتهم.. ولكن اين هم الاقارب الذين كانوا على استعداد لرعاية انسان قضى عشرين عاما في المعسكر.. ان امثال هؤلاء الاقارب اصبح وجودهم نادرا جدا..

ولذلك كان يتعين على اولئك التمساء ان ينتظروا حتى يدبروا لهم امكان في ملاجيء الـ (م.ق.د)..

اما الاجانب منهم كان وضعهم صعبا للغاية..

وقد قابلت هنا الرائد النمساوي شوسلر.. الذي كان في فيينا مدير لقسم المصانع بوزارة الحربية.. وهذا القسم اضيف قبل انتهاء الحرب بعامين للجستابو ورحل الرائد للاقامة في فندق متروبول الذي كان مقرا للجستابو..

قبض عليه الروس عام ١٩٤٥ وحكموا عليه بثمانى سنوات انتهت في مارس عام ١٩٥٣م.. ولم يطلقوا سراحه.. فقد كان مريضا، وكان نمساويا ايضا..

ورجاهم ان يعيدوه الى وطنه فوعده بذلك.. وذات يوم استدعوه الى مكتب المعسكر واخذوا توقعه على ورقة لم يستطع ان يقرأ فيها حرفا.. فما كان يعرف من الروسية سوى بضعة كلمات.. وقال له الموظف ان هذا اجراء ضرورى جدا لكى يتمكنا من ترحيله الى النمسا.. وكان هو سعيدا للغاية ووقع بطيب خاطر..

ومرت الاسابيع ومازال الرائد شوسلر قلبعا في المحطة المرحلية..

وعندما دخلت الى العنبر نمطويا على نفسه في ركن العنبر..

وكنيت قد تعرفت به من قبل في المعسكر عام ١٩٤٩.. عندما حييته نظر الى وكانما يرانى من خلال ستار ضبابى كثيف..

ثم صاح منفعلًا..

شتاينز..

واحتضننى وبكى بعنف وحرقة..

وحكى لى العجز المتألم متاعبه.. فاقترحت عليه ان نذهب سوياً الى المكتب وسوف اكون مترجماً له..

وقد اوضحت لمدير قسم العمل والمراقبة الغرض من حضورنا فصاح بى بحدة شديدة..

ماذا يهمك من موضوع شوسلر.. ؟ اعمل حساب خروجك انت اولاً..!!

نحن من بلد واحد.. وقد رجائى ان اترجم له لانه لا يعرف الروسية..

وصرخ المدير فى وجهى..

اخرج من هنا..

وخرجنا الى الممر.. واتلفنا على خطة جديدة.. قررت ان احاول عند مدير المعسكر..

وعندما دخلت غرفة مدير المحطة المرحلية وقعت عينائى على ذلك الضابط (بدون رتبة) والذى كان اخر المحققين معى وكان عاطفاً على جدا..

وسالنى..

ماذا تفعل هنا؟..
 وحدثته بانهم اقتادوني الى هنا ريثما يطلقون سراحي.. وحكيت له موضوع شوسلر
 وانه قد طلب منى ان اكون ترجماناً له..
 فاستمع الى بعطف شديد وأمر السكرتيرة ان تحضر ملف شوسلر..
 وسرعان ما جاءت وهى تحمل الملف.. وقرأ المدير بصوت عال محتويات الوثيقة التى
 وقع عليها شوسلر.. والتى جاء فيها انه لا يرغب فى العودة الى النمسا..
 وترجمت ذلك للرائد شوسلر..
 فقال فرحاً وكأنما لدغته أفعى..
 باسم الآله انا لم أوقع على ذلك ابدا..
 وسأله المدير وهو يريه التوقيع..
 اليس هذا توقيعك؟..
 نعم.. ولكنى لم اعرف محوى هذا الذى وقع عليه غير الان..
 وقال المدير..
 هذا الامر منته.. عد الى العنبر..
 وبكى الرائد شوسلر.. وانهار على نفسه.. فحملته بصعوبة شديدة على السير الى
 العنبر.. وهناك أخذ ينتحب ويقول..
 هذا خداع.. هذا غش..
 وفى مدة الاربعة ايام التى قضيتها معه كان على ان اهدى من روعه..
 ووعده بانى سأخبر زوجته التى كان تقيم بغينا فى نمره ثمانية - سايد نقلى..
 وعند وداعى له بكى شوسلر بصوت عال ملتاع.. فجاء جميع المنتظرين وسالوا ما
 الخبر وحين قصصت عليهم نبأه صاحوا.. ياللعاز.. ياللعاز..
 وللمرة الاخيرة رايت جموع الواغدين الجدد للسجن والذين حوكموا بخمسة وعشرين
 عاماً فى المعسكرات.. وكانوا يبدو عليهم الاستهتار والا مبالاة.. فهم على ثقة من انهم
 سيعودون الى قبل عيد الميلاد.. وفكرت بحزن واسى.. ان الكثيرين منهم لن يروا بيوتهم
 واسرهم ابداً..
 وفى ذلك اليوم اطلق سراح ٤٢ شخصاً من (اوزلاق).. واستدعوني الى المكتب وقراوا
 على قرار الـ (م.ج.ب) بان كارلو شتاينز الذى حوكم تحت المادة ٨٨ الفقرات ستة
 وثلاثية.. تسعة - وعشرة - والذى قضى فترة عقوبته ومدتها سبعة عشر عاماً فى السجن
 والمعسكر يرسل مدى الحياة للمنفى فى منطقة كرسنويارسك ان تحدد مكان الإقامة
 الدائمة له - كارلو شتاينز - - والذى لا يسمح له بمغادرتها ابداً الا باذن من الـ
 (م.ج.ب).. وفى حالة مخالفته لهذا الامر سيحكم بعشر سنوات سجنًا فى المعسكر..
 وكان على ان اوقع..
 نعم.. هكذا تظل هى الحرية السوفيتية..
 ولم اكن اتوقع خلاف ذلك..

واطلق سراحي..
وظفنت اننى استطيع الذهاب الى المنفى وحدى..
ولكن سرعان ما تاكد لى اننى غيرت فقط قيداً بقيد.. بال بجديد..
ومرة اخرى فتشونى..
ومرة اخرى - ايضا - ادخلونى العربية السوداء - ماريتسا السوداء..
واوصتنا الى محطة السكة الحديد فى تايشت..
وانتظرت القطار المنتظم هيلوفسك موسكو..
ومرة اخرى ايضا على متن عربية السجن المتحرك (ستولين فالقون) ..والتي كانت ممثلة
حتى اخر نفس فيها..
كانت تحمل المرضى.. من معسكر كولينما الضخم..
مرضى الاسكربوت ..الذين حيونا قتلين..
نهاركم سعيد يا اخوة الى اين تسافرون..
الى كرسنويارسك..
وعلمنا من السجناء المرضى انهم يقودونهم الى معسكر كاراقتدى.. وكان معظمهم قد فقد
اسنانه..
وبدأت اوجه الشبان كاوجه الرجال المسنين..
وفى العربية شمنت رائحة كريهة للمغلية.. كان بعضهم قد تقيحت جروحه المفتوحة
والتي هى فى حجم كفة اليد..

الجزء الخامس

كيف تعجبك الحرية..؟

كنت سعيدا - رغم كل شيء - عندما وصلت في الصباح الباكر الي كرسنويارك.
وفي المحطة كانت عربة السجناء تنتظرننا..
وضعونا نحن الثمانية عشر في شاحنة.. نقلتنا الي السجن الكبير..
ثم قفلت الابواب خلفنا، فنزلنا من الشاحنة.. وجلسنا انا علي حقيبتى..
مبنى كبير من اربعة طوابق.. ومثلث النوافذ.. بالقضبان الحديدية.. وسالني جارى..
- كيف تعجبك الحرية..
- الصبر يا عزيزي .. الحرية لن تأتي بسهولة..
ومن المبنى المجاور خرجت مجموعات الجنود..
نادوا علينا كل واحد علي حدة..
- ما اسمك..
- كارلو شتاينر..
- الماددة .. ومدة العقوبة..
- مدة عقوبتي قضيتها..
- لا يهمني هذا .. انت سجين بالنسبة لي..
وفتشوا حقيبتى .. وملابسي.. وجسدي.. تفتيشا دقيقا، استغرق اكثر من الساعة ولولا
ان الامطار هطلت بغزارة لما توقف الجندي عن التفتيش.. ثم وضعونا مع حاجياتنا في
مبنى ارضي .. الزنزانة رقم تسعة.. كانت عبارة عن قاعة كبيرة ذات تعرجات عديدة..
كل كنبه لشخصين.. وكان العدد يزيد علي المائة..
وراودني احساس بانني في سوق شرقي.. ازدحام شديد وحركة متصلة هؤلاء يمشون
هنا وهناك قلقين متوترين..
ولم يحس احد باننا دخلنا مكانا غريبا.. واخذنا نبحث عن مكان.. صعدت الي الكنبه
الثانية ومعى احد الروس، وآخر من اللاتفانيين..
حدثنا الذين كانوا هناك.. بانهم من تايشت وانهم ينتظرون منذ اسبوع ليرحلوا الي
المخفى.. وقال بعضهم انه بقي لاسبوع عديدة..
قيل بان الاغلبية ستسكن في الخابه ومعنى ذلك انها ستعمل فيها ايضا..
ولاخفقت بانهم لا يخفون الخبز فعجبت وتساءلت عن ذلك فجاءني الرد..
- الخبز هنا لا يمسسه احد.. ولكن الاشياء الاخرى يجب المحافظه عليها..
ووزع علينا خبز الغداء في البساب.. كل فرد يتقدم لياخذ نصيبه.. كانت الفتيات
الموزعات يحملن شريطا اصفر حول ايديهن كتب عليه (سجين) .. اعطينا من صفيحة
كبيرة الحساء الروسي المصنوع من الخضروات، وكن يعلمن اننا من الطلقاء.. فاخذن
يمزجن معنا واسموننا "العرسال" ورد عليهن السجناء بكلمات مماثلة..
بعد يومين قادوني الي مكتب السجن.. ملا الموظف الاستمارة بدون اسئلة جديدة.. وكان

على ان اذكر مرة اخرى اسمى - المادة - المطلوبة الوظيفة ثم وقعت .. وسالت اين ساذهب..؟

- ستعلم في الوقت المناسب ..

وجاء اليوم الذي سمعت فيه اسمى ضمن خمسين سجيناً نادوا عليهم.. وفي احدي ساحات سجن كرسنويارسك وقلت خمس عشرة امرأة.. بينهن اثنتان بطفلهن .. وبالقرب من الحارس وقف تلجر العبيد بانتظارنا .. واخرجونا واحدا واحدا امام النخس.

كان يكشف على كل واحد وهو يوجه الاسئلة.. ووقع اختياره على الجميع ما عدا ثمانية رفضهم.. واعادوا امرأة لان طفلها كان يبكي باستمرار مما اثار تلجر العبيد..

وتلجر العبيد هذا هو ممثل مؤسسة المبفنى التي تبنى في منطقة ينسيسك ملجا كبيرا للعجزة الحريين..

اختياره للقوى العاملة كان يتم على نظام العبيد في القرون الوسطى.. وعندما يختار التاجر.. يذهب الى مكتب السجن لكي يوثق استلام (العبيد) ..

صليقي يتزوج..!

عندما كنا في انتظار عودة تاجر الرقيق.. تعرفنا علي النساء. الشباب اللطفي الذي كان يلانزني بلا انقطاع قال لي..
- وجدت امرأة..

- اين هي؟

- الثانية في الصف الثالث..

- ذاك جيد..

وعاد تاجر الرقيق يصحبه جنديان.. وفتح الباب ودخلت الفناء شلحنتان وفي اناء ذلك خاطب اللطفي الفتاة..:

- هل تعلمين انك ستصبحين زوجتي..؟

نظرت اليه الفتاة باستغراب شديد، فاستمر يقول..

- نعم افكر جديا.. وانت تعجيبينني.. ما هو اسمك؟

- فلانيا..

ومن طريقة العرض.. واجابة الفتاة عندما نظلت باسمها علمت انها توافق علي زواجها به..

وعندما اخذت في الحديث الودي مع الشاب اللطفي قالت لامرأة كانت تالف معها..

- كاتيا وجدت زوجا..

ومدت كاتيا يدها تصالح الشاب اللطفي مهنته..

واشارت فلانيا الي قائله..

- هذا صديق زوجي يا كاتيا..

ثم اخذت تتحدث معي وعنى وكاننا اتلفنا علي كل شيء.

وتطور ذلك فخاطبني باسمي مجردا..

- كارلو.. انت وانا...

قاموا بتقسيمنا بعد ذلك الي مجموعتين.. فصعدنا مع اشياخنا الي الشلحنة.. وعندما مررنا بمدينة كرسنويلرسك، اتجهنا شمالا علي طول شارع البوستة القديم، والذي لم يكن مهودا لمسيرة العربات.. وكانت القيادة شاقة جدا علي السائق.. ثم هبت الرياح، وتسلسلت البرودة الي اجسادنا رغم اننا جلسنا ملتصقين ببعضنا البعض... وكان الوحيدان اللذان لم يحسا بالبرد او يشعرا به، هما العاشقان صليقي اللطفي وفلانيا.. وكانت الشلحنة عندما تمر بالقرب من القرى كنا ننظر علي سقف السائق ونرجو الجندي ان يتوقف امام الحانة - جاليناي -.

كانت قائمة معروضة الحانة نصف ممتلئة بالاشياء الموجودة.. فمن كان يملك نقودا شرب فودكا او شاي.. الرغم من ان الحارس منع ذلك..

وسألنا رواد الحانة من اين جئنا واني اين نتجه.. وكانوا من المنفيين الذين عاشوا

هنا الضنوف الطويلة.. ثم واصلنا الرحلة... وفي اواخر المساء توقفنا امام احدى
الحفلات..

وقام حارسنا بتسليم قلعد الـ(م.ق.د) في القرية اربعة نساء تم نفيهن الي هنا.. وبذلك
اتسع المجال في الشاحنة قليلا.. فواصلنا الرحلة بعد ان احتسبنا الشئ مرة اخرى..
واصلنا السير داخل الغابة ليلا.. واصبح من الغدر ان نمر بمكان ماهول وعندما تقع
ابصارنا على ضوء في الافق البعيد كنا نامل ان يكون قرية حتى نرتاح قليلا..
واستمرت هذه اللعبة..

استمرت لساعات عديدة.. عديدة حتى صبيحة اليوم التالي..

وعندما اشرقت الشمس وصلنا الي هدفنا تماما..

كان اسم المنطقة نوفوسترويك..

وهي منطقة جديدة لم تطلق عليها وعل احيائها السكنية اسماء بعد..

كانت نوفوسترويك هذه تقع علي بعد ثلاثمائة كيلو متر من كرسنويارسك..

وقد استغرقت رحلتنا اليها اربع وعشرين ساعة بالقمام والكمال..

فى المنفى.. بين المعوقين

ثلاثمائة وعشرة كيلو مترا من منطقة كريستوريرسك..

وثلاثون كيلو مترا من منطقة وسط يسنيسك..

قطعت اشجارها ونظفت ثلما..

كانت المساحة التي ستبنى كمطقة سكنية جديدة، حوالى الخمسمائة كيلومترا مربعا.. عندما وصلنا الى نوفوسترويكخ راينا بعض المباني الخشبية التي تتكون من طابقين وقد اوشكت على الانتهاء.. كما راينا الى جانبها حوالى الستة مباني ذات الطابق الواحد وهى تكون فى مجموعها مؤسسة القرية.. وهناك ايضا مبنى جيد البناء من الطوب.. لم يكتمل بعد.. وبالمقارنة مع منازل القرويين نصف المنهارة التي رايناها فى طريقنا.. كانت مستعمرة المعوقين هذه شيئا جميلا رائعا..

ورايينا فى الساحة الواسعة مدير ملجا العجزة ينتظرننا.. وكان هو الآخر من معوقى الحرب.. فقد رجليه اليسرى..

وقام ضابط الـ(م.ق.د) بتسليم المدير القوى العاملة الجديدة.. وقد تم توزيعنا على الغرف بواقع اثنين او ثلاثة لكل غرفة..

وكان من نصيب صديقنا اللطافى هو وفاتيا غرفة منفصلة.. واقرحت كاتيا بصوت خفيض ان نحتل انا وهى الغرفة المجاورة.. وبدلا من الرد عليها رفعت صوتى سلاسا المدير:

- اين تقع البوستة؟ فىنى اريد ان ارسل برقية لزوجتى فى موسكو.. فهدمت كاتيا.. فاحذت حقيبتها وانضمت لبقية النسوة..

اعطونى سريرا بمرتبة وغطاء ووسادة وملاءة..

ورقدت كاتيا فى حلم..

اخيرا وبعد كل تلك السنوات المرة ينام المرء كائنسا.. .. وبعدها قاتنا المدير الى غرفة الطعام حيث حصلنا على وجبة غنية..

وبعد الغداء حضر ضابط الـ(م.ق.د) والقى علينا خطبة قال فيها...

"انتم الان احرار.. ستعيشون وتعملون هنا.. والذي يريد ان يؤسس عائلة جديدة يمكنه ذلك.. ومن يريد ان يرسل لاهضار عائلته القديمة.. فذلك ميسور له..

ثم يجب ان تعرفوا انه غير مسموح لاحدكم على الاطلاق بالابتعاد عن المنطقة السكنية الا بذان من الـ(م.ق.د).. والذي يريد كذلك ان يزور المدينة عليه ايضا ان يطلب اذنا بهذا..

وخلدنا الى الراحة اليوم ولكى نحرف على المنطقة السكنية واهلها. كان ملجا العجزة هذا محاطا بسياج خشبي.. وخارج السياج الخشبي كانت هناك مجموعة من العنابر التي يسكن فيها عمال المنطقة السكنية الجديدة..

وهم في الغالب من اولئك الذين قضوا فترة عقوباتهم وتم نفيهم الى هذا المكان.. وكانت غالبيتهم تحيا حياة اسرية مع زوجاتهم اللاتي كن سجينات قبل ذلك.. وبعض الاخريات من نساء المنطقه..

وراقبنا كيف يعيش هؤلاء الناس.. كانوا بعد العمل يذهبون لاطعام مواشيهم .. وبعدها يجلسون للعب الورق ويحتسون الفودكا مع "مخلل العجور" والنساء يجلسون قرب ازواجهن ويتدخلن في مجرى اللعب وعندما لا يستمع الرجال الي مشورتهم بشأن ذلك، تنتشب المشاجرات.. في ايام الاعياد كانوا يبدون حيوية اكثر ويرقصون علي انغام الهارمونيكا..

وفي الصباح جاء صراف ملجا العجزة وقدم للطلاق سلفية مالية عبارة عن خمسين روبلا لكل واحد منهم. وكان المتجر الصغير يحتوى بجانب الادوات الرئيسية والفودكا. علي انواع اخرى من القمح والزبد وبعض السكر.

وفي العراء كنا نعمل في المعسكر، عملنا هنا.. تكونت من كل ثلاثة اشخاص مجموعة عمل.. اثنان يقطعان الشجرة ويرميانها علي الارض والثالث ينجز العمل بزالة وقطع الاغصان والفروع عنها.. ثم نرصها بعد ذلك في مجموعات.. وفي المساء حضر المدير..

حاسبنا علي كل متر خشبي مربع بثمانية روبلات. ولم يكن بالاستطاعة قطع اكثر من ستة او سبعة امتار للشخص الواحد.. متوسطا كنا نحصل عليه يتراوح بين خمسة عشر وثمانية عشر روبلا.. وعلى بعد حوالى الكيلومتريين من ملجا المعوقين المستقبلي، كان يقع ملجا المعوقين القديم..

قرية صغيرة اسمها كوزمك تتكون من مجموعات منازل القرويين.. ولكن هنا، ومنذ زمن طويل لا يعيش القرويون..

السكان الاثرياء نسبيا عملوا علي ترحيلهم في فترة التامين.. والبعض هجر الزراعة وعمل في مناشير الاخشاب القروية..

كانت منازل القرويين خاوية علي عروشها لسنوات عديدة..

ثم افتتح (م.ق.د) ملجا العجزة.. واستوعب الذين بقوا علي قيد الحياة في المعسكر والذين فقدوا صحتهم..

وكان يسكن هنا كذلك بعض الناس الذين يعملون في منجم كوليما للذهب.. ومنجم اليورانيوم في نورلنك.. ومنجم الفحم في وركوت وجلياينسك.. وبعض قاطعي الاشجار من غابات سيبيريا.. اكثرهم اعمياء لا يبصرون.. وبعضهم فقد احد اعضاءه.. يديه ساقه.. الخ.. وكان هناك مرضى الاسكربوت والصرع..

وتحدثت مع الكثيرين منهم بعضهم قساوسة من ديانات مختلفة وبعضهم من اسلانة الجامعات.. وبعضهم من العمال والفلاحين..

وكان الجميع -رجالا ونساء- يصلون بالجنون .. حتى الموت..!

والذين كانوا قادرين علي العمل منهم عهد اليهم امر تنظيف الغرف.. والذين كان باستطاعتهم المشي تمشوا دون ان يفعلوا شيئا.. ربما كانوا يقرأون الكتب فقط .. او الجرائد..

هنا كان يسود جو من الحرية غريب علي الاتحاد السوفيتي..

لم يكن لديهم ما يحرسون علي الا يفقدوه..

لم يكن حتى يهتمون بجواسيس الـ(م.ج.ب) الذين كانوا هنا ايضا.

وفي احد المنازل كانوا يقيمون الصلوات يوميا لئلا.. وقد خصصوا كل يوم لاحد الديانات .. دون ان يحجروا علي دين واحد.

كنوا علي وفق ممتاز.

ولم يكن من الغريب ان نرى قس الروم الكاثوليك يتمشي مع رابين مدينة ستافسلاف وكان من الضروري بالطبع ان يمر هؤلاء الناس اولا بجحيم الـ(ك.ق.د) حتي يستطيعوا التعايش في سلم كبير..

وكان ذلك الوفاق ميسورا ومتحققا حتي في المقابر.. كانت هناك شواهد الموتى والصلبان الخشبية.. وعليها نقوش وكتابات بالروسية والبولندية والعبرية..

وبعد عمل دام اسبوعين في الغابة استلمت اول راتب لي هنا.. واكتشفت انني بمائتي واربعين روبلا هي كل ما تبقى لي لن استطيع العيش .. وفكرت في البحث عن عمل اخر..

ولم يكن ذلك ميسورا هنا..

قررت ان اذهب الي القرية المجاورة مكلاكوف.. سمعت انها تقع علي بعد ستة كيلومترات الي الجنوب وان بها صناعات..

وقررت ان استغل اول يوم في فراغي.. فركبت البص الذي يسير في خط ينسيسك - مكلاكوف - لاجري حظي ..

ووقف البص في السوق..

وبحثت عن ادارة المباني، وفي ادارة المباني، وفي المدخل الرئيسي قبلت احد معارفي من معسكر تايشت..

كان اسمه تروفونوف.. حدثته عن سبب مجيئي فقال لي:

- هنا يوجد عمل كاف، وسوف اذهب بك لرئيس شئون العاملين..

وصمت برهة يفكر ثم قال لي فجأة..

- هيا.. ان الامور ستسير بسهولة اذا ساعدناها بكوب من الفودكا.

ثم قال مضيفا..

- انتظرننا في الحانة المجاورة وساوافيك انا والرئيس..

وجلس في الركن.. وطلبت نصف لتر من الفودكا.. وانتظرت..

لم يطل انتظاري اذ سرعان ما ظهر تروفونوف رجل ذو ساق صناعية يتوكأ علي عصاه.. قدمنى اليه تروفونوف بقوله:

- صديق قديم.

وعندما جلسنا رفعا كؤوسنا نخب "الصدقة" ..
اتبعناها بنصف لتر آخر من الفودكا .. ثم نصف لتر ثالث .. وعندما اعتلجت الخمر في
أجوافنا وتصاعدت أبخرتها الي رؤوسنا قال الرئيس:
- ستحصل علي عمل في الورشة بمجرد ان ترحل الي ملاكوف.
ورجعت الي ديارى سعيدا بهذا الوعد .. وفي الحال طلبت من ضابط الـ (م.ق.د)
تصريحا بالرحيل الي ملاكوف .. فرفض طلبى قائلا:
- هذا التصريح يمكن الحصول عليه من ادارة الـ(م.ق.د) في ينسيسك. وقد اقتضاني
الحصول علي تصريح للسفر الي مركز المنطقة تعباً ونصباً شديدين..
وفي اليوم التالي كنت اقف امام الكابتن ساركوف مدير قسم اعمال المنطقة اشرح له
امرى .. فقال لى:
- لن تذهب الي ملاكوف .. ولكن اذا لم تجد عملاً مناسباً في نوفوسترويك .. انصحك
بالذهاب الي اوست كيم التي تبعد حوالى الثمانية عشر كيلو متراً .. وفي الضفة الثانية
لنهر الينسى ستجد عملاً في منتشل عوارض قضبان السكة الحديد "الفلنكات" ..
وحاولت ان استميل قلبه .. ولكن كل محاولاتي باءت بالفشل..
وقررت ان اسافر الي اوست كيم..
ولدي عودتى الي نوفوستريك سلمت ضابط الـ (م.ق.د) التصريح الذي حصلت عليه
في ينسيسك .. والذي سمح لي بمقتضاه السفر الي اوست كيم.

أوست - كيم

وفي صبيحة اليوم التالي جمعت حاجياتي وودعت زملائي وخرجت الى الطريق انتظر ناقله .. تلقني الى مقصدي ..

ودفعت عشرين روبلا فحملتني الناقله المشحونة الى ميناء فيسبيسك بعد ساعتين وبحثت عن مدير المنشأ الخاص بفلنكات السكة الحديد ..

وكان شخصا صارما جدا معكر المزاج .. قبلني بجفاء وغلظة.

ثم سألني عن ماضي حياتي .. وكأنه قاضي التحقيق .. ثم قال لي:

- سافرك في الامر قبلني غدا

وبامره وبالوريقة في يدي ذهبت الى العنبر ..

وكانت هناك عشرون غرفة سكن للمتزوجين والعازبين ..

وادخلوني غرفة بها عشرة من الاسرة الخاصة بالجنود .. كان يقطن فيها مجموعة من الابهازيق .. وهم افراد شعب صغير يسكن القفقاز واحضرت المرأة المستولة سريرا اضافيا حشرتها بين الاسرة الاخرى ..

وعندما جاء القفقازيون نظروا الي باشمئزاز وكانني حشرة برغوث .. وخيل الي انهم مستعدون لسحقني في اية لحظة ..

وحين علموا بانني نسلاوي لانت عريكتهم قليلا وبدأوا يعاملونني بلطف .. وسرعان ما صادقتهم صداقة مسحت كل اضرار العداء السابق من نفوسهم .. وعلمت منهم ان بعض الالمان يعيشون معهم في نفس العنبر ..

وقدمت نفسي لارنولد ارنو من برلين وكان سعيدا بلقائني ..

وارنولد هذا مثله مثل غيره من الشيوعيين هرب من وجه هتلر ..

ثم عمل بعد ذلك في الصحف الالمانية المركزية بموسكو.

وفي عام ١٩٣٨ القى القبض عليه وحوكم بعشر سنوات سجنا في المعسكر.

وبعد انقضاء فترة الحكم ارسل من المعسكر المنفى في منطقة بوليشا مورتا. ومن مورتا الي اوست كيم في عام ١٩٥١ ..

ونقل الى ارنو بامانة دقائق الحياة والعمل هنا ..

وعندما اخبرته بانني سأخذ مكان المليسترو .. الثنائي عن قبول هذه الوظيفة .. لانها وظيفة سيئة جدا فالمليسترو يجري تغييره هنا كل شهرين او ثلاثة .. وذكر لي ارنو كذلك ان ثمانين في المائة من السكان هم من المنفيين ، وان نصف تلك النسبة من الالمان .. وهم الذين كانوا يعيشون في اوكرانيا ..

وكان الجيش الالمانى قد جندهم ايام الحرب في عام ١٩٤٥ ..

ثم اسرهم الانجليز في شتاتيرسك وسلموهم للروس.

وقد ارسلتهم السلطات السوفيتية الي سيبيريا .. وهكذا وصل جزء منهم الي اوست - كيم ..

وتعرفت علي عدد كبير من من الالمان واسرهم ..
لقد تاقلموا هنا.. وفقدوا كل امل لهم في العودة الي اوكرانيا مرة اخرى.
وفي صبيحة اليوم التالي حين وقفت امام المدير قلت له اننى اريد ان اعمل اي عمل.
وخيل الي انه لم يأسف لانى لا ابحث عن مكان الميسثرو وشاقنى ان اكتب لزوجتى ..
فبحثت عن وريقة ومظرو في فوجدتهما بعد تعب ونصب..
ماذا اكتب..
انا طليق ؟..
ولكن هذه اكذوبة..
فكتبت بانهم ارسلونى من المعسكر الي المنفى..
وبعد عشرة ايام جاعنى الرد..
جاء بسرعة غير عادية علي الاطلاق!!..
مل هذا الرد كان يستغرق وصوله الي المعسكر الي شهور عديدة..
قالت زوجتى انها سرت لتحسن احوالى ، وابدت رغبتها في زيارتى.
وذكرت انها ارسلت لي طردا وملابسا واشياء اخرى صغيرة.
وكنت احس باننى اريد ان اسبح في الاثير من السعادة وذلك لان زوجتى ترغب في زيارتى
ورؤيتى..
ورغم ذلك قررت ان اثنيتها عن تلك الزيارة.. فالمسافة طولها خمسة آلاف كيلومتر..
والذي يزجنى اكثر هو مسافة الثلاثمائة وسبعين كيلومترا التي تشكل قوام الطريق
البحرى والبرى من كرسنويارسك الي اوست - كيم..
وجاء شتاء سيبيريا المبكر..
كنت اعمل ليلا في منشار الاخشاب تحت درجة حرارة يصل معدلها الي اربعين درجة
تحت الصفر..
ولم اجد سوى ذلك فورية النهار ممثلة كلها.
ومع زميلي القروى القوى السليم البدن من سيبيريا ، كنا نشحن فلنكات قضبان السكة
الحديد في عربات السكة الحديد الصغيرة التي يجرها حصان من المنشار الي المخزن
ومقابل ذلك العمل الشاق كنت احصل علي عشرين روبلا يوميا.. وزميلي الذي لم يكن
من الطلقاء بل كان حرا طليقا، حصل علي ثلاثين روبلا يوميا مقابل نفس العمل
واشتركت مع ارنو في عمل طعم مشترك بيننا وكان هذا اخص..
جمعتنى صداقة حارة
مع ارنو ووافق كبير.. كنا نتمشي معا في اوقات الفراغ ونتحدث عن الايام الخوالى في
النمسا وبرلين .. وكثيرا ما قمنا بزيارة الالمان الذين سكنوا في منازل خشبية شيدوها
بانفسهم.. وكنا نحتسى معهم الفودكا ونحكى الذكريات الخوالى.. كانوا لا يغفرون
لانفسهم وقوعهم في الاسر بسهولة ساذجة.. ولعنوا الانجليز الذين سلموهم للروس..
اما الاهالى الوطنيون فكانوا يتهربون من الاجانب ولم تكن لي معهم اي صلات ... وكنا
نعلم عنهم انهم يعملون في الكولخوز او في قطع الاخشاب..

وفي بداية عام ١٩٥٤ حصلت علي رسالة من صديقي في مكلاكوف .. والذي سألني هل
لا زلت أرغب في نفس العمل الذي سعت وراءه من قبل...؟
وكانت الحياة في اوست - كيم شاقة للغاية.
واردت ان انتهاز الفرصة المتاحة الآن..
ولكن كيف السبيل الي الحصول علي تصريح بالذهاب إلي هناك - من اوست - كيم؟
ضابط الـ (م.ق.د) لم يرد ان يسمع مني اي شيء في هذا الخصوص..
ولم يوافق كذلك علي سفرى الي ينسيسك.. لكي احصل علي تصريح من هناك..
وقررت ان اسافر بلا تصريح..
انتظرت ان يذهب الي القرية المجاورة.. وساقطع الجزء المتجمد من النهر دون ان
يلحظنى احد.. وسوف يقودنى الالمنى الذي احضر الملابس في العربة الصغيرة من
ينسيسك.

فى ينسيسك

وفى الخامسة من صباح اليوم القالى.. كان الجميع نياما.
رقدت على العربية الصغيرة مدثرا نفسى بغطاء الخيل.. كان آرئو هو الوحيد الذى يعلم
اننى ذهبت.

وفى ينسيسك ذهبت بناء على توصية من آرئو الى امراة من برلين كانت تعيش هناك
منفية منذ بدايات الحرب الاولى.. وكان اسمها عديلة هزيريرق شيوعية - هربت الى
موسكو بعد وصول هتلر الى السلطة.

وكانت محظوظة جدا.. فحين قرر ستالين تصفية الثورة المضادة نجت هى ولم يلق
القبض عليها.. وعاشت حتى بداية الحرب فى موسكو.

وعندما قدمت نفسى لها وبلغتها سلام آرئو استقبلتنى بحرارة شديدة.. وشربت
معهما الشاى وانا احدثها عن سبب قدومى الى ينسيسك.

واكدت لى عديلة انه لا خطر على، لان الكابتن الذى اقع تحت امرته رجل طيب جدا.
وذهبت معها للكابتن.. فطرحته له مطلبى.. اعطتنى وريقة الى ضابط الـ (م ف د) الذى

وافق على ذهابى من اوست - كيم. ورجعت فى نفس اليوم.

استلمت راتبى عن عملى فى منشار الاخشاب وودعت رفاقى.

وكان آرئو اسفا لابعد الحدود فهو سيبقى وحيدا بعدى.

وتعميت له ان نلتقى فى اورويا.. دآرئو يعيش الان فى المانيا الشرقية، ونزلت ضيفا
عند عديلة لمدة يومين.. بناء على دعوتها الحارة لى.

ونصحتنى عديلة ان لا اذهب الى ماكلاكوف.. وان ابلى فى ينسيسك. وكنت اجوب
شوارع المدينة كلها بلحنا عن غرفة لى.

ومدينة ينسيسك مدينة هامة من مدن سيبيريا قديمة عريقة.. وكانت حتى قبيل
الفتاح خط سكك حديد سيبيريا الكبير.

فى بداية القرن العشرين - والذى لا يمر بها - كانت من المدن الهامة. فلم تكن فقط
مكان اقامة الحاكم ولكنها كانت ايضا مركزا لصناعة الذهب ومنتجات الفراء. وكان

اثرياءها يغامرون باموال طفلة كل ليلة.. تدون على مواثد القمار اموالا تكفى ان
تكون ميزانيات دول صغيرة.

اما تجار موسكو وبشروقراد فقد بنوا فيها القصور الرائعة وارسلوا زوجاتهم
وابناءهم لى يتعلموا فيها آداب السلوك والاجتماعيات.

ولانفسهم وعشيقاتهم شيدوا منازل جميلة اشعلوا لىاليها بطقوس الفسق
والعريدة.

ولم ينسوا اقامة المدارس.

وفى شارع لينين يقع اليوم المبنى الرائع للمدرسة الثانوية السابقة.

شوارعها لازالت تحمل طابع الطرف القديم الحريق.. كان بها اثنتا عشر كنيسة تهتم

بالجوانب الروحية.

اما اليوم فان ينسيسك ليست مدينة التجار الاغنياء .. وليست مدينة منقبي الذهب، وصائدي القراء.

فمن سكانها السابقين بقى عدد بسيط من الناس المسنين الذين عاشوا خلف الابواب المغلقة، مغمضى العيون.

وللبحث عن غرفة طرقت ابوابا كثيرة.

ولكن من النادر جدا ان يسمحوا للغريب بالدخول.. وفى احد المنازل فتحت لى الباب شابة صغيرة.

وحين سالتها هل تؤجر لى غرفة .. فكرت قليلا ثم سمحت لى بالدخول الى ساحة الفناء .. وقالت انها ستسال أختها الكبرى.

وسرعان ما دلفت تتهدى امرأة رائحة الحسن والجمال فى الثلاثين من عمرها. متوسط الطول .. مستديرة الوجه .. شعرها اشقر مائل للسواد .. لفت خصلاتها الفزيرة حول رأسها كالتاج الرائع .. عيناها رماديتان .. نظرت الى متسائلة .. - ماذا تريد؟

واستغربت للسؤال كنت اعتقد ان شقيقتها الصغرى اخبرتها بما اريد واعدت عليها قولى..

سأبحث عن غرفة..

- لست ادرى بماذا اجيبك.. وفى الحقيقة لا مانع لى .. لكن امى .. وتوقفت عن اتمام جملتها.. ثم فكرت قليلا وقطبت جبينها المتلألئ بمياه الحسن.. ودعنتى للغرفة.. وكان المنزل مكتظا بالاثاث القديمة.

وبالحجرة دولابان كبيران.. مضددة مستديرة.. مرآة كبيرة.. صندوق خشبى.. وعلى الحوائط صور عديدة للقديسين.. وفى الركن لوحة القديس نيكولا وقد أوقدت تحتها شمعة.

ودخلت الام الى الغرفة.

وفى اللحظة الاولى وجمت ولم تستطع ان تنطق بكلمة وهى ترى اجنبيا فى بيتها. وقالت ابنتها الكبرى مالكة زمام الامور..

- ماما هذا الرجل يريد ان يستاجر غرفة.. ماذا تقولين؟..

- لا .. لا .. نحن لا نقبل الرجال الاجانب.

وفهمت انها مرت بتجارب مريرة كثيرة.. قلت لها بصوت حزين..

- يجب ان لا تخافين منى.

- هل انت على طول هنا؟..

- نعم.. انا منفى..

وقالت الام مشيرة الى ابنتها الكبرى..

. انظر اليها ذات مرة جاء احد المنفيين واعطيناه غرفة ونالت ابنتى هذه اعجابه .. ولم

اكن ضد ذلك لانه كان رجلا شريفا.. وتزوجا.. ورزقا طفلا.. وبعد ثلاث سنوات.. طفلا آخر.. وكنا سعداء.. لان رجلا في بيتنا.. وكان يعمل في الحسابات.. وذات ليلة من ليالى شتاء علم ١٩٤٨ جاعوا هم.. طردونا جميعا الى حظيرة البهائم.. وبقي هو معهم في المنزل.. وعندما عدنا للمنزل.. وجدنا المكان وكان زلزالا الم به.. ولم نجد هو ابدا.. لم نره بعدها.. اخذوه معهم..؟ قتلوه..؟ لا ندرى حتى الان ما فعلوا به.

ومن السلحة جاء ولدان لطيفان.. احدهما في السابعة والاخر في الرابعة من عمره.. نظروا الى بفضول ساذج اليف.. وقالت الام بصوت حزين.. يشبهان والدهما كثيرا.

ودعوتهما الى ولكنهما سارعا بالاختفاء خلف والدتهما.. وحاولت ان اقنع المرأة كي تؤجر في الغرفة ولكنها همست.. لا.. لا.. لا.. لا استطيع.. ارجو ان لا تغضب.. فودعتهم وذهبت.

مثل هذه المتاساة التي تقطع نياط القلوب كان يحتويها ضمير كل منزل في المدينة ينسيسك.. مدينة المنفيين.. او سلالة المنفيين السابقين.. حتى الاطفال في ينسيسك يلعبون لعبة غريبة.. احد الاطفال يمشى ويداه معقودتان وراء ظهره ويسير خلفه آخر وفي يديه من يشبه ان يكون بنذقية.. قطعة من الخشب.. ويصيح (الجندي) في (السجين)..

.. اذا حاولت الهرب سوف ارميك بالرصاص..!!

اما في متحف ينسيسك.. فان عشرة في المائة من المعروضات تتحدث عن تاريخ المدينة.

وكل محتويات الطابقين مليئة بالعروضات التي تتحدث عن الوقت الذي عاش فيه ستالين منفيا في ينسيسك.. بالرغم من ان ذلك كان في قرية كوريك على بعد ثلاثمائة كيلو متر من ينسيسك.

وكان هذا المتحف تحت اشراف البروفيسور دوبروفسكى.. وقد كنت معه في سولوفسكى ونورلسك حيث قضى هو عشر سنوات سجينا ثم نفى الى ينسيسك.. وخلفه كان يقف يلكوفج.

اما المعاون السابق فهو زنوفيف.

وعندما زرت المتحف كنت اعتقد اننى ساعرف شيئا عن تاريخ هذه المدينة المثيرة.. وبدلا عن هذا رايت اكاذيب تاريخ ستالين.. وسالت يلكوفج، وكنت اعرفه من المعسكر.. - الزميل يلكوفج.. كيف تعرضون تاريخ ينسيسك..؟

ولم يسمح لي يلكوفج ان اواصل حديثي ولكنه بسط يديه قائلا..

- ماذا يمكنني ان افعل...؟ المعروضات احصل عليها من الادارة المركزية للمتاحف في موسكو... وواجبي هو ان اضع هذه المعروضات في مكان مناسب.
- هل يعني ذلك ان كل المتاحف تحصل دائما على نفس المعروضات...؟
- ليس كل المتاحف بالطبع... ولكن تلك التي يمكن ربطها بحياة ستالين.
- ولا حتى في طبعة الحزب الشيوعي السوفيتي «ب» القصيرة يجرؤون على القول بان ستالين عاش في ينسيسك...!!
- في الطبعة الاولى لكتاب لا يثبت انه عاش في ينسيسك.. ولكن في الطبعة الثانية غير ذلك!.
- استمع لنفسك بذلك...؟
- ماذا افعل...؟ هل تريدني وانا في الثانية والستين من عمري ان انقل الاسمنت والدقيق في الميناء...؟ يجب على الانسان ان ياكل.
ولم اجد ما ارد به عليه.
وعندما حدثت عذبة بانى بحثت عن غرفة بلا جدوى.. كانت حزينه جدا لانى ساذهب الى مكلاكوف...
وودعتها

ماكلاكوف

سافرت بالبص الذى يتحرك مرتين فى اليوم عن طريق ينسيسك مكلاكوف. ومرة اخرى خضت فى الوحل الذى يغطى ارض السوق.. وجدت صديقى الذى هيا لى مكلنا للنوم.. كان ذلك صعبا. الليلة الاولى كان على ان اقضيها فى سرير الجنود مع رجل آخر. وفى صباح اليوم التالى ذهبت للافطار (جباتايو).. وذهبت مرة اخرى فى جولة رهيبة ابحت عن سكن.

احد من اعرفهم وعد باستضافتى لمدة اسبوع.. واليلة التالية نمت على الارض ولكنها كانت نومة مريحة. وبدأت رياح اكتوبر القاسية تهب.. وأنا لازلت انام على الارض.. وردا لجميل هذه الضيافة كان على ان اقوم بتكسير اخشاب الوقود يوميا وان اشعل المدفأة. وكانت الغرفة دافئة دفئا لطيفا..

وكان على كذلك ان اقدم نفسى مرتين فى الشهر للقيادة. وفى تلك الزيارات كان ضابط الـ (م ف د) يسأل اين اعمل، ويهتم كثيرا بطريقة حصوى على المال.. وكى هو هذا المال.

وكان ممثلا الـ (م ف د) و الـ (م ج ب) يراقبان دائما بزيارات مفاجئة للورش اداء الطلقاء وهل هم فى امكانهم.

العمل الذى وعدنى به مدير قسم الموظفين لم احصل عليه لان احدا آخر قد حصل عليه فى الوقت الذى اضعبته انا هنا.. وهناك.. ولان ذلك الشخص قد قدم كميات اوفر من الوقودا.

ولكى لا ابقى عاطلا، عملت مؤقتا كعامل مبان خشبية. وكان جارى فى المنشل الدائرى هو الكسندر درسكسلو.. من صعايك ليننجراد.. طويل القامة.. نحيف الجسم.. يذكرنى بالبلرون فى (دراما) جوركى.. «فى القاع». وكان درسكسلو يؤدى عمله وكأنه يمثل دورا فى مسرحية.. وعندما قدمنى له مدير الورشة واخبره باننى ساعمل معه.. حيائى بكلمات من شعر بوشكين.

وقد اعجبت به منذ الوهلة الاولى لرؤيتى له. عشر سنوات فى المعسكر لم تكسر روحه المعنوية.

هذا الرجل ذو الاربعة والاربعين عاما.. كان يفهم نفسيات ودواخل الفتيات الجميلات بسرعة فائقة.. وكان كما يقول.. «يستمتع بهن عن طيب خاطر».

اعترف لى بانه يصرف جزءا كبيرا من راتبه على الهدايا التى يقدمها للفتيات.. فبعد اربعة ايام من صرف الرواتب يكون مفلسا.. وكان عليه ان يكتفى كالعادة بقطعة من الخبز الاسود.

وفي نفس القسم الذي كان يعمل به . كان يقضى يوم الاحد . والفرق بين الايام الاخرى وبين يوم الاحد ، انه كان في الاولي يرتدى بنطاله بالمقلوب .
وعمل درسكسلو طويلا ..
وصرنا اصدقاء حميمين .

ويعيش هو الان في منطقة الاوراق بالقرب من مدينة سفردلوفسك مديرا لاحد المسارح الصغيرة .

وكان هناك العمل افضل كثيرا من العمل في المنشار الكهربائي .. بالطبع .. ! وكان هناك في المنشار ايضا البلغارى العجوز يتكوف .. كنت اتحدث معه في بعض الاوقات .. ولكنه كان رجلا منطويا على نفسه لا يتحدث كثيرا .. اصلا به الكبر وتعلوته الشيوخوخة في المعسكر .

ودعاني يوما للعشاء في منزله ونحن عائدان الى الديار ..

فاستغربت جدا .

وعندما كنت اجلس معه ومع زوجته الشابة اليهودية القادمة من روسيا البيضاء .. استطعت ان اتناول البطاطس المطبوخ مع السمك .. وعلمت ان المنزل الذي يتكون من غرفة ومطبخ هو ملك خاص له .. وان البطاطس من مزروعاته المنزلية . وحدثني كيف استطاع ان يمتلك هذا المنزل .. قال ..

.. في يوم من الايام شب حريق في المنشار الكبير .. ودمرت النيران المخازن الكبيرة «للفلنكات» وجزءا واسعا من الورشة .

وقد قمت ببناء منشار جديد .. فسمح لي المدير ان اخذ ببقايا الفلنكات والعوارض والقوائم لكي نستعملها في الوقود .

واشتريت بقليل من النقود ارضا في طرف الغابة ، وبدأت ابني منزلي الصغير ..
استعنت ببقايا الاحشاب المحروقة .

وكنت اعمل فيه ، في وقت فراغى .. وكنت فخورا جدا بعملى ..

كان يتحدث والدسوع تطفر من عينيه .. وكان عمله ذاك عملا شاقا عنيقا .. اذاه بالكثير من الاتقان والدقة .. وعرق فيه عرقا كثيرا .. كان يحمل الاحشاب الكبيرة على ظهره الضعيف العجوز .. وكان سعيدا لانه استطاع ان يبني سقفا يظل راسه .
واخيرا اقترح علي ان اسكن معه .. فوافقت شاكرا .. ونمت على الكنبه في المطعم وكنت انال دافئا رائعا .

وفي كل يوم استمع الى المشاجرة بين العجوز وزوجته الشابة التي كانت تريد زيارة السينماء وترغب في شراء الجوارب الحريرية .

وكان هو يعتقد ان ذلك ترف وعبط .

وبقيت عند البلغارى طوال فصل الشتاء وعندما جاء الربيع اشترى خنزيرين ووضعهما في المطعم .. وحاول اقناعي انهما لن يضيقاني .. وقد احتملت لمدة شهرين كاملين مضايقة الحيوانين لي .. ثم فاض الكيل واربى وضاعت النفس وتمردت .. وكان

صديقي درسكسلو يعلم باننى اسكن مع الخنازير فى نفس المكان.. فعرفنى بمدير قسم المبانى فى ملاككوف.

وفى احد ايام الاحد وبعد ان شربنا مرتبى الشهرى كله، اعطانى سافجنكو مدير قسم المبانى غرفة.

وبدأت فى تنظيم مسالة سكنى وترتيب جميع اوضاعى.. حيث ائنى اتوقع قدوم زوجتى فى شهر مايو عام ١٩٥٤.

وبمساعدة مدير الورشة صنعت سريرا واسعا ومنضدة للمطبخ. وبمبلغ المائتى روبل التى ارسلتها زوجتى اشترت حلة للطبخ وصحنين.

وبذلك صار عندى الان كل ما يحتاجه مطبخ الشخص المنفى فى سيبيريا.. بل اكثر مما يملك الكثيرون الذين قضوا هنا عدة سنوات.

من خطابات زوجتى استطعت ان استشف كيف انها تتخيل صورا للحياة فى ملاككوف غير حقيقية او واقعية.. وكتبت لها اقول.

- من رسالتك الاخيرة اتضح لى ان لك فكرة خاطئة عن الحياة فى سيبيريا.. لقد كانت الحياة فعلا كما تعتقدن ولكن ذلك كان قبل ثلاثين عاما.

اولا: لا تخشى مهاجمة الذئب او الدب لك فى الطريق من كرسنويارسك الى ملاككوف.. فهنا ان جاء الذئب ف د و باناس من دول البلطيق واسكنهم على طول الطريق الذي تتخوفين منه.. فان الحيوانات قد انسحبت منه الى عمق الغابة.

وثانيا: عليك فقط اخذ حذرک من الناس.. وخاصة فى الحانات التى تقف امامها الشاحنات.. انهم يحبون ان يدعوهم الركاب العابرون على كاس من الفودكا.. فان لم يفعلوا هاجموهم.. فهم نصف متوحشين.

ومن الاجدى على من اراد سلامته ان يدفع فى صمت لكى يتركونه فى هدوء.. ثم ماذا انصحك بعد ذلك..؟

اسمعى، من الافضل ان لا تاتى اصلا.. ارجوك..

ولكن اذا رغبت فى الحضور رغم ذلك، فافنى ساعيش على امل واحد فقط. هو الا يحدث لك مكروه قط.

اما فيما يختص بالحياة هنا فكونى مستعدة لاسوا شىء.. والحسنة الوحيدة هنا هى السكن وامل ان يعجبك.. وللاسف فانه لا توجد هنا اسلاك للسريير، وانما هناك حصيرة فقط.. ولكن هذا لن يتلف سعادتنا.

اما الاكل فستعدينه بنفسك ويمكننا اذا شئت ان نتناول وجبتنا فى غرفة الطعام مقابل عشرين روبلا.

ومن السوق حيث عشرات القرويين يبيعون الخضروات ولحم الخنزير واللبن يمكن ان تشتري ما تحتاجين اليه.. اما الخربوات فتوجد اربعة متاجر بها مختلف ما يحتاجه المرء من الخربوات.. ولكن السكر نادر الوجود فى هذه الاصقاع ويستحسن احضاره معك من موسكو..

هذا، وماكلاكوف قرية كبيرة.. يعيش في عنابرها الحديثة البناء ومنازلها القديمة أكثر من عشرة الاف شخص.. وبالطبع فإن الامر في كل سيبريا واحد، وهو ان الناس قد اضطروا للاقامة هنا مكرهين.. ويجد المرء تقريبا كل الاجناس .. يجد اللتفانيين - واللاتونيين - والالمان - والروس - والاوكرانيين - والبولنديين - واليهود - والرومانيين - والمجتمع الذى ادور فيه يتكون من مجموعة كبيرة من المثقفين، تمثلت فيها كل الجنسيات .. بينهم اناس مثيرون للحد البعيد.

ولا تستغربي لاني لم اكتب لك عن السيبريين انفسهم.. لاني لالن لم اجد الفرصة لكى اتعرف عليهم من قرب.

وكل هذه المجموعة البشرية التى قوامها عشرة الاف شخص يستعمل افرادها حماما نصف مهدم.. ويمكن لكل زوجين ان يستحما سويا.

وفي العنابر القديمة توجد قاعة للسinema.

وعزاؤنا الوحيد ان الاحوال ستتحسن قريبا.

فالحمامات الجديدة يستمر البناء فيها منذ ثلاث سنوات ولكن الناس لم يفقدوا الامل بعد، في اتمامها.

وهذا ينطبق كذلك على النادى الجديد، الذى يجب ان ينتهى البناء فيه لاحتفالات اكتوبر.. ولكن لا نعلم في اية علم..!

قلت لها كل ما سبق واكثر.. وبقيت انتظر مايو.. لاننى سالتقى بها فيه.. مرة اخرى بعد فراق دام عشرين عاما تقريبا.

وعملت بجد حتى اتمكن من الحصول على الاشياء المنزلية الصنيرة المختلفة.

وكننت افكر فيها بلا انقطاع.. ولم اصدق اننى ساحتضنها واضمها الى صدرى مرة اخرى..

حبيبتي سونيا.. التى عانت وقاست الكثير من اجل - عشرين عاما - اننى ادين لها بالكثير الكثير..

وكانت تعذبني فكرة واحدة.. هى كيف يكون اللقاء؟.. الا نكون غربا؟.. هل ستحول الغرفة الكبيرة الى خيبة امل كبيرة؟.. الا يكون من الاعقل ان اتخل عن فكرة هذا اللقاء، حتى احفظ لنفسى وهم اننا ننتمى الى بعضنا البعض.

واخيرا اهل شهر مايو.

واستلمت منها برفقة جاء فيها انها اشترت تذكرة القطار لمرّة ٤٢ وانها سوف تسافر في الخامس عشر من الشهر.

وتخلخلت مفاصلي.. اصابنى اضطراب الفرح.. وذ هول السرور.. فجريت هنا وهناك .. احدث الجميع بالخبر السعيد.. وتوافدوا يهنئوننى من كل قلوبهم.. وعزّ على اعينى ان يزورها النوم وهى ترى طيف الحبيبة يدنو ويقرب.. ولم استطع النوم الا - بالحبوب المنومة.

وبعد يومين جاعتنى برفقة ثانية، هزت كيانى هذا عنيفا قاسيا..

«تأجلت إجازتي لأسباب مكتبية عاجلة.. وإن امكن من السفر.. توضيحي بالبريد، وأصابني الإنهيار التام.. وبجسدي يرتجف ويتصبب عرقاً.. وفي تلك اللحظة القاسية دخل بمحض الصدفة إلى مكتب البريد صديقي درسكسلر.. وعندما وقع بصره على جرى نحوى..

.. ماذا بك...؟ أنت شاحب كالخائط...!!

ومددت له لبرقية دون انبش بينت شقة.. فحاول أن يهدئ من روعى.. فجرنى إلى الحانة المجاورة جراً.. وشريت كوباً من الفودكا وساعت حالتي كثيراً.. وفي المنزل رقدت مريضاً.. ولم استطع الذهاب إلى العمل أسبوعاً بحاله.

ثم هدأت حين استلمت منها خطاباً بالطائرة.

قالت فيه أنها كانت بالإجازة تستعد للسفر.. وحضر لها الساعى من المكتب وأخبرها بالحضور فوراً لمكان العمل لمقابلة رئيس المكتب.

وأوضح لها رئيس المكتب أنه مضطر لسحب إذن الإجازة لأنه يجب أن ينهى عملاً عاجلاً لا يامن على أدائه غيرها.

وغضبت هى واحتجت.. ولكن ذلك لم يساعد فى شيء..

قال لها الرئيس أنها ستفقد وظيفتها إن لم تخضع للامر..

وقد أصابنى الغضب حين وصلت إلى هذا الحد من الرسالة كنت اعتقد أنها ستصر على السفر حتى لو فقدت عملها.. ولكن بعد تفكير عميق واعي رأيت أنها سلكت الطريق الأمثل.. فقد كان من الجنون أن تفقد الوظيفة التى حفظت لها هى وأما الحياة.

ومن عباراتها الحزينة رأيت أنها تتالم وتتعذب مثلى.. وأكدت لى فى ختام رسالتها أنها ستصلنى ولو فعلت المستحيل، فى أول فرصة.

وحاولت التماس العزاء فى العمل الشاق.. مرهقاً جسدى أرهاقاً فوق طاقتى.. وأحسست اننى أفقد قواى.. وإن المجتمع الذى اتحرك فيه لم يعد قادراً على أن يرضينى.

وكان المنفيون قد تلهوا بالمناصب التى يشغلونها.

ولم تكن هناك مصالح مشتركة بين الناس.. وكان الجميع يخشون أن يلفتوا نظر الـ (م ج ب) والـ (م ف د) .. فحراس السلطة كانوا يتابعون بعيون مفتوحة كيف نعيش.. ولم يكن هناك كلام فى السياسة أو عن السياسة.. هناك..

فإن الإنسان يعرض حياته للخطر بلا مبرر إذا القوا به مرة أخرى فى المعسكر.. كل حياتنا الاجتماعية عبارة عن لعب ورق.. واحتساء خمر.. وغناء.. يتبعه رقص لا طعم ولا معنى له.. إلا أنه تعبير حى عن الضياع.

وكان بعض الرجال يغازلون نساء الغير.. والذين لم يكتفوا بهذه اللعبة البريئة الخطرة حاولوا الذهاب إلى أبعد من ذلك.. وكان الفشل نابراً فى هذه الحالة وفاجانى نياً

مثير.. هو ان صديقى جوزيف بيرقر يسكن فى منطقة قريبة لتبعد حوالى الخمسين كيلومترا من ملكاكوف.. فى قرية كازاجنسك.. وهى مكان قديم فى وسط الحدود.
وكتبت له رسالة عاجلة، فقد كنت فى حلة الى نصيح ذلك الرجل الحكيم.. والصديق
الوفى.

وسرعان ما اتانى رده.. وسر جوزيف لاننا وجدنا بعضنا اخيرا وتساءل كيف يمكن
ان نجتمع فى مكان واحد.. وكانت حياته فى كازاجنسك حياة اقصى وامر من حياتى هنا
واتفقنا على ان ياتى هو الى ملكاكوف.

وصدفة قابلت مدير قسم شئون العاملين بورشة المبنى، فى الحانة...!!
وبعد لترين من الفودكا وعدنى بان جوزيف سيحصل على عمل. وفى صبيحة اليوم
التالى حررت شهادة بذلك.. ارسلتها الى كازاجنسك.
وبعد جهد جهيد وصل جوزيف بيرقر صديقى الحبيب الى ملكاكوف.. وكان لقاؤنا
حدثا كبيرا للغاية.

في الكولخوز السييري

في يونيو من عام ١٩٥٤ اغلقوا ورشتنا لمدة اسبوعين .. وكان على العمال والموظفين الذهاب للعمل في كولخوز الضفة الاخرى من نهر الينسي.

وفي هذا الكولخوز بالذات مات في العام الماضي جوعا عدد مائتين وثمانين خروفا وثمانية عشر بقرة بنسبة عالية من العدد الاصلى الذى كان موجودا.. اما بقية الحيوانات فانها عاشت الشتاء بصعوبة كبرى.

لذلك وصل الامر الرسمى بان يؤمن العشب.. ولم يكن بالكولخوز من العمال ما يكفى لذلك.. وكان على قواتنا العاملة ان تساعد.

وقد ارسلت مجموعنا الى جزيرة في نهر الينسي.

وكانت الجزيرة بدائية وغير مأهولة بالسكان.

وكان علينا قطع الاعشاب وتكديسها بالمخازن.. وعند حلول فصل الشتاء ينقلونها على العربات الخشبية عندما يتجمد النهر ويجرونها للقريه.

كنا عند السابعة صباحا ذات يوم، قد تجمعنا على ضفاف نهر الينسي.. وابحرنا الى الجزيرة بقارب بخارى.

وهناك كان بانتظارنا رئيس عمال الكولخوز الذى وزع علينا العمل.

بعضنا قطع الاعشاب.. وبعضنا جمعها في مكان واحد على شكل حزمة كبيرة.. وكان علينا ان نحمل معنا طعامنا .. وعند هطول الامطار كنا نحتمى بمخازن الاعشاب التى بنيناها.

وفي المساء عدنا الى ماكلاكوف..

وهكذا استمر بنا الحال.

وذات مساء انتظرونا القارب كالمعتاد ليعود بنا ولكنه لم يات.. وكانت العاشرة مساء.. فاتفقنا مع حارس المنارة، واحد سكان الجزيرة ان يركبنا في قاربه البخارى. وكانت حمولة القارب هي عشرة اشخاص.

وجاء دورى مع المجموعة الرابعة.. وتحرك القارب.. وعلى بعد حوالى العشرين مترا من الضفة لاحظنا ان الماء يتسرب الى القارب.

واخذت بعض النسوة في الصباح والقفز من مكان الى اخر في القارب. واثناء ذلك الهرج والمرج علق بنطالى بسير الماكينة المكشوفة وجرنى اليه مسببا اذى جسيما لقدمى اليسرى.

ولحسن حظى اوقفت الماكينة في الحال ولولا ذلك لفقدت قدمى.

وعدنا الى الجزيرة .. وربطة قدمى بقميصى.

وفي منتصف الليل وصل القارب البخارى وعاد بنا الى الضفة الاخرى. ووقدت في السربير لمدة عشرة ايام تحملت ادارة الورشة دفع خمسين بالمائة من مرتبى فقط بالرغم من ان الراتب يجب ان يدفع كاملا في مثل تلك الحالات.

قالوا ان حالتى تختلف فاصابتى لم تكن اصابة عمل.
وبعد شهرين كان علينا ان نذهب مرة اخرى للحصاد فى الكولخوز. (الطريق الى الاشتراكية).

تقع ادارة الكولخوز فى مبنى خشبى من طابق واحد.. وعبر الساحة الطينية دخلنا الى قاعة كانت بها صفوف من المقاعد الخشبية.. وعلى الحائط علقت قطعة من القماش كتب عليها.

-نجنى ثمار الحصاد فى الوقت المناسب.

لا يسمح ببقاء حبة واحدة فى الحقل.

اجمعوا كل القوى لكى تؤمنوا الاكل للمواشى فى فصل الشتاء..

وكان مدير ورشتنا يناقش فى غرفة المدير طريقة السكن والعمل بالنسبة لنا.. ووزعونا على منازل القرويين.. فى مجموعات من عشرة الى خمسة عشر شخصا. مجموعتى كانت فى منزل احد الكولخوزيين وكان منزله ذاك مكونا من غرفتين ومطبخ واستقبلتنا النساء القرويات بروح عداثية للغاية.. واشرن الى الغرفة الصغيرة التى سننام فيها.

وعندما جاء الليل حضر القروى ومر بجانبنا وكأنه لا يشعر بوجودنا على الاطلاق. وقبل النوم ذهبت مع صديقى دريسكسلر لآرى كيف استقر الجميع.. كانت غالبية المنازل مبنية من جذوع الاشجار التى انتزع منها اللحاء.. وكانت كل السقوف متداعية تقريبا او يتسرب منها الماء.. وبعضها اكتسى بالطحالب وامام المنزل مباشرة بعض المزارع الصغيرة والتى حفلت بالبطاطس والكرنب والبصل وبعض الخضروات الاخرى.. وفى الغرف كانت الاسرة وصناديق الاشياء الكبيرة «السحارات».. ومن النادر وجود الدولاپ.

وعندما اظلمت الدنيا عدنا الى المنزل حيث ننام حتى الصباح ثم ننطلق الى الحقول.. وكان مضيفنا القروى وزوجته ياكلان البطاطس المهروس ومخلل والعجوز بمعالق خشبية.. وفى وقت متأخر عادت ابنتاه من الحقل.. ولم تغتسلا وانما جلسنا الى المائدة فى الحال.. وصبت الام المزيد من البطاطس فى الصحن الخشبى.. وعندما كانت الفتاتان تتناولان طعامهما حاولنا التحدث معهما عن العمل فى الكولخوز.. وعلمنا انهما تعملان فى تجفيف القمح.

وذهبت الفتاتان الى غرفة مجاورة حيث قامتا بخلع حذائيهما.. وركدتا بملابسهما على السرير.

وكنت احسب ان الداعى لذلك هو الحياء.. وانهما ستخلعانهما تحت الغطاء.. وركدنا على الارض العارية.. تغطيتنا بمعاطفنا وبقيّة ملابسنا..

وكنت احمل معى غطائى وصحنا وملعقة... وكان ذلك مثار سخرية زملاء.. الذين كانوا يعتقدون ان الكولخوز سيقوم بكل شئ نحوهم..

ثم اعترفوا اننى على صواب.

وفي الفجر استيقظنا .. ذهبنا نبحث عن الخبز والحليب ..
اشترينا لتر اللبن باربعة روبلات، ولكن لم نعثر على الخبز.. أكله أولئك الذين
حملوه معهم من مأكلاكوف فقط.

ورأيت الام توقظ بنتيها.. فقامتا بملابسهما وارتديتا الحذاء فقط.
وعلى بعد كيلومترين من القرية وقفنا امام حقول القمح غير المنتظمة. وكانت اعواد
القمح المترنحة مع ريح الصباح اعلى من قامة الرجل. وكانت مكتنزة بالحب فمالت نحو
الارض.

الذين يفهمون عن الزراعة بدأوا في الحصاد والآخرين كانوا يحزمون الاعواد..
وكنت اقوم بتجميع هذه الحزمات في مكان واحد صاعدا بها الى الاعلى.
وفي منتصف النهار جلسنا للاكل.. اعطينا في اليوم الاول كليوجراما من الخبز ولترا
من حساء الكرنب.. واعتذر لنا مدير الكولخوز لضعف الغذاء ووعد بعشاء دسم.
وقد فعل فكان العشاء حساء الكرنب.. والبطاطس .. وملعقة من الجبن اللين..
واللبن الزبادى.

وفي الايام الاربعة التالية تحصلنا على لحم حسان.. ولم يكن امامنا خيار آخر غير
شراء ما نحتاجه بنقودنا الخاصة حتى نتحمل هذا العمل الشاق في الحقل.. والقرويون
انفسهم لم ياكلوا خيرا منا.. ولكن عملهم كان اقل من عملنا .. بدانا في السلاسة صباحا
وهم بدأوا في التاسعة .. وساعتنا رؤيتهم وهم يعملون بالكثير من اللامبالاة.
وفي احد ايام الاحاد حضر القرويون للعمل عند الساعة الواحدة بعد الظهر..
واخذنا نعيب عليهم ذلك..

- يا للعار نحن ضيوفكم نعمل هنا من السلاسة صباحا وانتم تحضرون الان؟..
- ستحصلون مقابل عملكم هذا على خمسين بالمائة من رواتبكم ومع ذلك فهم
يطعمونكم!! اما نحن.. فهذه هي السنة الثانية التي لم نصل فيها على جرام واحد من
القمح.. وفي العام المنصرم كانت حصيلتنا من العمل الشاق الدائم هي عشرون
ديكجراما من الذرة الشامي.. واربعة كيلوجرامات من البطاطس.. فلماذا نعمل؟.. اننا
يجب ان نخصص جزءا من وقتنا لمزارعنا المنزلية .. فلذلك هو دخلنا الحقيقي..
ولم نصدقها..

وفي المساء سالنا رئيس العمال.. عن الاجر الذى يدفعه مقابل الدوام اليومى، فلوح
بيده متضجرا وهو يقول:

- في الغالب لا شيء..
- لماذا؟..

- نصف الحصاد يبقى في الحقل وغطاه الجليد..
- كيف ذلك؟..

- ليس لدينا قوى عاملة.. ذهب الشباب من القرية.. هم يعملون الان في الغابة وفي
الجبال.. والذين يذهبون للخدمة العسكرية الازامية لا يعودون للقرية .. انظروا من

يعمل الآن..؟ في الغالب النساء.. والعجائز والاطفال.. ومن الصعب ان ترى شابا في القرية.

هكذا اذن هي الامور..؟ لقد بقيت الشابات نصف عقلات من الحرمان والاجهاد.. شأنهن شأن الشباب الذي هاجر وهو ينصف عقله ايضا.

مكننا نعمل بالكولخوز لمدة ستة عشر يوما انهينا فيها كل العمل. وكان مدير الكولخوز لمدة ستة عشر يوما انهينا فيها كل العمل. وكان مدير الكولخوز مسرورا من نتيجة العلم.. واعطى مدير ورشتنا شهادة باننا قد تفوقنا بمعدل الانتاج الاحصائي الى خمسة وعشرين في المائة.

وكانت هذه الشهادة بمثابة اذن للقارب البخارى حتى يتحرك عائدا بنا.. والذي لم يكن ليتم حتى صدورهما.
وكنا سعداء بتركنا للقرية.

ووصلنا الى شاطئ الينسى ونحن نغنى.. وابحر بنا القارب عائدا.. وهكذا رجعنا الى منازلنا بعد اسبوعين كاملين.

كيف مات جورج بيلسكى

- حتى استخرج البطاقة الشخصية، كنت محتالاً الى صورتين فوتوغرافيتين.. لم يكن في ماكلاكوف كلها اى مصور لاداء هذه المهمة.
- ونصحتنى احد الاصدقاء ان اذهب الى احد هواة التصوير ليقوم بتصويرى ثم ادفع له اجره.. ووصف لى احدىهم.
- وطرقت باب منزل بالقرب من المدرسة الجديدة.. ففتحت لى الباب امرأة شابة .. قلت لها ما تريد.. فطلبت منى الانتظار قليلا لان زوجها سيعود سريعا.
- وبعد لحظات دخل زوجها وحياتى.
- آه، نهارك سعيد، كيف حالك؟.. منذ متى وانت هنا؟..
- واستغربت لمثل تلك التحية..
- لم استطع ان اعرف من هو الرجل.. فبهرتنى وقد راى حيرتى..
- هل نسيتنى؟..
- فى الحقيقة لا اذكر بالضبط اين تقابلنا..
- كنت معك فى نفس الوحدة.
- اين؟..
- فى القسم السادس من المعسكر فى نورلسك.
- آه.. هل انت كاربوف؟..
- بالطبع كيف نسيتنى بمجرد ان رايتك، كنت متاكدا من ان احدا قد اعطاك عنوانى فأتيت لزيارتى.
- وحكيت له لماذا اتيت..
- فقال لى..
- بالطبع.. بالطبع.. سوف افعل ذلك فى الحال.
- واحضرت زوجته الشاى..
- وبدانا نتحدث عن نورلسك ونعيد ذكريات معارفنا هناك.
- وسالت كاربوف..
- هل كنت تعرف جورج بيلسكى؟..
- ونظر ابنى كاربوف مستنكرا وهو يقول..
- وكيف لا اعرف ذلك الطبيب الذى يرتدى نظارة؟.. من الذى لا يعرفه؟
- متى رايتنه آخر مرة؟..
- الم تعلم؟..
- وسالته بخوف.. وقد احسست بقلبي يتقبض..
- لا.. ماذا حدث له؟..
- شيء رهيب .. لست ادرى كيف احكى لك كل ذلك..

- تحدث يا رجل... تحدث.
- كان جورج بيلسكى يعمل طبيباً لعدة سنوات في قسم المعسكر (ار.. او .. ار..) في
منجم النيكل.. كل من احب الاطباء الى قلوب السجناء.. انقذ مئات الارواح من الموت..
وساعد كل انسان آخر.. ورغم ذلك لم يكن مرتاح البال..
- كيف ذلك..؟

- كان المجرمون يتشاجرون معه.. لانه يرفض ان يضعهم وهم اصحاء في كشف المرضى..
وهدهد احد المجرمين بالقتل.. وكان جورج قد تعود على مثل تلك التهديدات فلم يعر
الامر اهتماما..

- ثم ماذا حدث..؟
- عاد المجرم الذى هدهده وكان جورج يجلس الى منضدته يسجل احصائيات العمل
اليومي، عندما فلجأه المجرم بضربات عديدة، سريعة، قوية، هشمت راسه فوراً..
- وعند ذلك.

- انتشر موت الطبيب المحبوب بسرعة فلاقه.. فهبت مجموعة من السجناء غاضبة
فكسرت العنبر الذى اختبأ فيه المجرم واوسعته ضرباً شديداً.. وسرعان ما هرع
الحراس .. وانقذوا القاتل من موت محقق.

وقدم المجرم للمحاكمة امام محكمة عسكرية، فقضت عليه بالسجن خمسة وعشرين
عاماً.. وبما ان عقوبته الاولى بقى له فيها ثلاثة وعشرون عاماً.. يكون الحكم الجديد
عليه هو سنتان فقط.
وصمت كاربوف.

وقد هزنى هذا الخبر المؤلم عن موت صديقى جورج بيلسكى ونخب منى الاعماق..
ولم استطع اخذ الصورة فانصرفت

الحرب من أجل السلطة بعد موت ستالين

بعد موت ستالين لم يشك احد منا بأن تغييرات كبيرة جداً ستنشأ في الاتحاد السوفيتي ولكن الشيء الوحيد الذي كان يخامر النفوس والقلوب هو أنه لا بد من وقف الحرب ضد الشعب.

ولم يكن التنبؤ ممكناً فإن ستالين قتل في حياته كل الذين كان من الممكن أن يتبوأوا المناصب القيادية في هذا البلد الكبير.

وجمع حوله أناساً عاقلين.

وعندما هلت علة اعياد نوفمبر ١٩٥٣ ولم يحدث العفو المنتظر، أصابت خيبة الامل جيوشنا من ملايين السجناء وعائلاتهم.

وتحدث الرجال ذوو الخبرة عن (القيادة الجماعية) .. وبالرغم من التصريحات المؤكدة لذلك إلا أن حرباً صعبة تجرى حول السلطة.

وعليه فمن غير المتوقع حدوث تغييرات هامة في السياسة.

وإنكرا أنني عندما عدت بعد العفو الى موسكو كانت لدى فرصة أربعة اشهر لاعلم فيها خلفيا واسرار الحرب التي جرت ودارت للاستيلاء على السلطة في تلك المرحلة.

وحتى التغييرات التي حدثت في قيادة الحزب بعد موت ستالين كانت في الاساس لتأمين جزء من السلطة لجميع الاطراف الطامعة والمتصارعة.

مالنكوف رئيساً للوزراء .. خروتشوف السكرتير العام .. مولوتوف وزير الخارجية .. زوكوف وزير الحربية .. بيريا وزير الداخلية.

خيل الى ان كل شيء يسير في حدود طبيعته .. وان وحدة الحزب قد تامتت .. ولكن كان هناك سؤال ملح .. الى متى؟

مجموعة مولوتوف .. كالانوفج .. مالنكوف .. بيريا ..

كانت تؤمن وتعتقد بأن كل شيء يجب ان يبقى كما هو دون ادنى تغير ..

اما مجموعة خروتشوف .. زوكوف .. شيبيلوف .. بولقنن .. ومكويان، فقد استطاعوا ان ينفذوا الى لب المسألة ببصيرة فاعلة .. فهم يرون أنه ليس كافياً أن تؤمن السلطة فقط .. ولكن يجب عمل شيء للشعب ..

ارادوا ان يصبح الاتحاد السوفيتي - اخيراً - دولة قانونية .. كان في نيتهم تصحيح الجرائم العديدة التي ارتكبت بأمر ستالين.

وبعد حرب ضلربة في البوليتبيرو تحصلوا على الموافقة باعادة النظر في الأحكام.

(ما ال (م ف د) وال (م ج ب) فقد كان عليهما ان يتركا الطرق الستالينية عند الاعتقال والتحقيق والنطق بالحكم.

ولكن رغم ذلك كله، فإن الجوهر الخالص لم يطبق جيداً.

وبدلاً من ذلك كان الاعداد يجرى لانقلاب - يحول دكتاتورية ستالين الى دكتاتورية بيريا، الذي كان يعتمد على اجهزته ال(م ف د) وال(م ج ب) وعلى جواسيسه

وعملائه المخلصين في كل مكان .. حتى في هذه الجبهات الحزبية
وكان ينتظر اللحظة المناسبة ليصفي حسابه مع مجموعة خروتشوف - زوكوف
- مكويان وبولقاني - وفورشيلوف.

اما القوة الوحيدة والحقيقة التي كان يمكن ان تقف في مواجهة بيريا وجهازه
الضخم، هي الجيش بقيادة زوكوف .. وكان هناك تيار شد وجذب بين الجيش
وال (م ج ب).

ولم يستطيع الجيش ان ينسى قط ان ال (م ج ب) هم تحسن واكفأ قادته،
واستعد زوكوف لانقلاب مضاد.

وفي جلسة ال بوليتبيرو تحدث بيريا على طريقة ستالين.
ووقف يصيح بالجملة المعهودة (اعداء الشعب) ولم يعارضه احد.
ورفع الرئيس الجلسة ..

ورأى بيريا .. في ذلك اشارة وبادرة سيئتين.
واراد ان يذهب للمتلفون .. وباشارة متفق عليها يحرك جهازه.
فينقض اعوانه ويلقون القبض على معارضيه ويحاكمون بالاسلوب القديم.
وبمجرد ان خرج بيريا من قاعة الاجتماعات، كان في انتظاره عدد من الجنرالات
يقودهم رجل زكوف وساعده القوي الايمن سيروف.

وفي ساحة الكرملين كانت تقف عربة مصفحة سارت بيريا الى وزارة الحربية.
بعد عشرين دقيقة من ذلك كان بيريا في عداد الاموات .. وهذا ما آل اليه مصير
اربعين من اقرب معاونيه.

وبقى ال (م ج ب) بدون رأس.
وعين سيروف لجهاز امن الدولة .. فرحل في الحال الى مبنى ال ليبيلانكا..
ومنذ تلك اللحظات اصبح مصير الشعب السوفييتي في ايدي الجنرال زوكوف.
وارهب المصير الذي وقع فيه بيريا، مجموعة ماليينكوف .. مولوتوف .. كابلانوفج.
فكانو يبدون رضاهم التام عن ماتم اتخاذه من الاجراءات الجديدة.
وكانت اول المهام السياسية هي تصحيح الجريمة السياسية ضد يوغسلافيا
الاشتراكية.

سافر خروتشوف وبولقاني الى يوغسلافيا وطلبا من تيتو ان يعفو عنهم..
ولم يرد مولوتوف وزير الخارجية ان يشترك في ذلك فقلب عنه شبيلوف بالتفاق
الجميع.

وقد اكسبت اجراءات الصلح مع يوغسلافيا خروتشوف شعبية كبيرة - وهذا
مااثبته الشعب الروسى عندما حضر تيتو الى موسكو.. وقد حضرت الاستقبال الذي
اعده الشعب الروسى لتيتو.

مئات الآلاف من الناس خرجوا الى الشوارع والميادين لتحية تيتو.
ولاول مرة، وبعد ثلاثين عاماً يخرج ملايين الناس للتظاهر ضد سياسة ستالين
التي هددت استقلال يوغسلافيا الحرة الاشتراكية.

أحضرت زوجتى

المنتشار الذى يقع عليه ضفة نهر الينسى كان يصغر جزءاً من انتاجه للخارج .. وفى كل عام ولفترة قصيرة من الملاحة فى النهر المتجمد التى كانت تبدأ من منتصف شهر أغسطس الى منتصف شهر سبتمبر، تاتى سفن تجارية من بلاد العالم المختلفة لميناء الينسى.

وهذا الطريق يمر عبر البحر الابيض .. ثم البيرفتشوف .. وبحر كارا حتى مصب نهر الينسى .. وكذلك عن طريق أوست - بورت - وبودنكا - الى أغاركة .. حيث توجد امكانيات الشحن فى هذا الميناء للسفينة العابرة المحيط .. ففى أغاركة هذه يمكن رؤية السفن الكبيرة والصغيرة على السواء .. وكذلك الصنادل الخشبية التى تحمل الشحنات الثمينة من الأخشاب الغالية النادرة، من المنتشار الذى يقع على ضفة نهر الينسى. ومن اهم الأشياء واصعبها على القلائمين بأمر هذا المنتشار هو الوصول الى معدلات انتاجية عالية تفى بحلجة التصدير.

وللتقصير فى ذلك ذهب كثير من المديرين الى السجنون متهمين بسوء الإدارة. ولم تكن القوة العاملة فى الورش كافية - فى تلك الفترة القصيرة التى تجرى الملاحة خلالها - لم تكن كافية لتأمين طلاقات شحن السفن. وبمجرد ان عدنا من الكولخوز كان علينا ان نتحرك لنسهم فى عمليات الشحن لتغطية موسم الملاحة

وعملت لمدة شهرين فى ماكلوكوف حيث المنتشار الضخم .. وقد شارك فى هذا العمل مئات من الجنود جاعوا من المعسكر الذى يقع فى ينسيسك. وعمل الالوف ليلاً ونهاراً حتى يفوا بالمعدل المطلوب .. وكان وزير الصناعات الخشبية يراقب سير العمل بنفسه .. وفى هذا الموسم القصير استطعنا ان نشترى كل الأشياء المدومة - السجوق .. السكر .. الجبن .. واستمر ذلك حتى امقلا العنبر الاخير. ثم اختفت تلك المؤن وكأنها لم تكن ..

وكننت سعيداً جداً حين اصبح بإمكانى العودة الى عملى القديم فى النجارة. وانقضى فصل الشتاء القارس الرهيب. واذابت أشعة شمس مارس كتل الجليد المتسخ فى ماكلوكوف. وكننت جاهداً فى ترتيب المنزل .. وأنا انتظر اللقاء المرتقب مع زوجتى بعد فراق دام اكثر من ثمانية عشر عاماً. هذه المرة كننت على يقين بانه لا توجد قوة فى الأرض تستطيع ان تمنع او تحول بيننا وبين هذا اللقاء.

وكانت زوجتى قد جلست بالفعل على مقعدها في المطار السريع موسكو - بكين
عندما استلمت برقيتها المبشرة بالحضور. وطلبت من صديق ان ينتظرها في
كرسنويارسك بمحطة السكة الحديد وان يقوم بمساعدتها وتقديم المعونة والمشورة لها.
وهي ستصل الى كرسنويارسك في التاسع من مارس..
وفي اليوم التالى تكون قد شرفت ملكاكوف.
وتفضل مدير الورشة فمحنى اياماً احتفل فيها باللقاء.
وجاء اليوم الموعود .. او المتوقع..
اخذت اتقلب في فراشى كالمحموم .. اطارد نوماً مستحيلاً..
ثم غلبنى التعب فغطوت قليلاً..
استيقظت على طرق الباب الخارجى..
قفزت من سريري فزعاً مضطرباً خافق القلب .. مرتجف اليدين..
اشعلت الضوء .. كانت الساعة هي الواحدة صباحاً .. وفكرت .. اتكون زوجتى

وصلت؟

وجريت متعثراً نحو الباب.

- من الطارق؟ ..

وجامنى صوت رجائي خشن .. هل يسكن شتاينر هنا؟ ..

- نعم .. انا .. هو ..

- افتح ..

وانتابنى خوف بارد مقرر .. وعاد جسدى يرتجف من جديد ..

وفتحت الباب ..

وقف امامى مدير المنشال ..

- احضرت زوجتك ..

وصحت مجنوناً من الفرح ..

- اين هي؟ ..

- تنتظر عند عربتى تحت ..

وحاولت ان اجرى بملابس النوم .. الا ان سلفانين اوقفنى ..

- ماذا يجول بخاطرك؟ .. درجة الحرارة في الخارج اربعون درجة تحت الصفر .. اردت

ملابسك ايها الرجل ..

وبسرعة ملهوفة ارتديت الحذاء .. والقبعة في يدي جريت للمشارع .. ومن على

البعد تعرفت على ملامحها الحبيبة .. كلت تمشى امام العربة قلقة متوترة ..

عندما سمعت اقداامى على الجليد المتجمد استدارت نحوى .. وجريت بسرعة

اشد ..

احتضنتها بين ذراعي .. والتحمنا بقوة ..

باقينا على ذلك بعض الوقت - بدون كلام ..

وبعدها قالت:

- أخيراً؟..

وكان سافانين وسائقه يراقبان الموقف بصمت..

أخذنا حقيبتيها ودخلنا الغرفة الدافئة..

أخذنا نأكل ملامح بعضنا البعض .. وهمست:

- لم تتغير..

وخيل إلى أيضاً أنها لم تتغير كثيراً..

ومع تباشير الصباح الأولى رقدنا .. بعد عشرين عاماً في احضان بعضنا .. قلنا

سوية .. لن يفرقنا بعد الآن الا الموت..

وجاءت بعد ذلك أحلى أيام حياتي..

كنا نسير كعاشقين ملتهبين وجداً تحت شمس مارس المشرقة..

وحبات الرزاز الخفيفة تقبل وجهينا المشرقين في حنو ورقة وتحديثنا عن الأشياء

التي عشناها بعيدين عن بعض..

عرفت مدى الحزن الذي عاشته..

وحدثتها عن حياتي في المعسكر..

وأضيت سونيا معى أربعة عشر يوماً في ماكلاكوف..

ورغم الاثر السيء الذي تركه ذلك المكان في نفسها، الا انها صممت على ان تترك

موسكو وتبقى معى، حتى نجد مكاناً خيراً من هنا.

وكان صعباً على وقت فراقها..

شعرت بقلبي يتمزق لوعة واسى..

وعندما سار بها البص المتجه الى كرسنوفارسك اوشكت على الانهيار..

ولكنى تعزيت بانها ستعود قريباً .. وتماسكت.

فكرة احد المجانين

أحدى أفكار ستالين الجنونية كانت هى بناء خط حديدى على طول البحر المتجمد .. من فوركته .. خلال السهول الجرداء فى المنطقة القطبية الشمالية الى اغاركة .. ومن اغاركا الى ياكوتيا .. وكوليه .. وكان يجب بالطبع مد خط من اغاركة الى نورلسك .. كان لسيبيريا خط سكة حديدى واحد مهم .. وكان خط بايكال - أمور قد انتهى .. اما خط تايشت - لينافكان فى طور التشييد ..

وهناك أيضاً المنطقة التى لا نهاية لها وهى فى انتظار ان تمهد لكن كان البناء بطيئاً وقليلأ ..

كان العمل فى حوجة الى مائة ألف عامل ومجموعة كبيرة من الآلات .. ولكى تتحقق فكرة احد المجانين .. وضعت الاف (كمرات النصف) للسكة الحديدية وعشرات الالاف من الكيلومترات عبارة عن قضبان الحديد .. ولم تكن متوفرة فى ذاك الوقت بالاتحاد السوفيتى ..

وكل انسان عاقل كان يتسائل ..

- ما هو العائد الحقيقي لهذه الخطوط ؟ ..

ان الخطوط وبكل المقاييس ليست صحيحة من الناحية الاقتصادية .. انها تمر بمناطق غير مأهولة ..

وحتى من الناحية العسكرية فان هذا المشروع لم يكن ضرورياً ..

كان الخيال الستالينى المريض قاصراً فى حدود واجب السجناء فقط .. يعملون ..

ويعملون .. الملايين منهم .. وبعد سنوات يموتون .. ولا تهم نتيجة العمل ..

وبعد موت ستالين اوقف العمل فى هذا الخط الوهمى .. وهدم السجناء الهياكل

المبنية .. ومرة اخرى اعيد شحن عشرات آلاف من قضبان السكة الحديد والآلات ..

ارجعهموهم أيضاً عشرات الالاف من الكيلومترات الى حيث تم شحنهم اول مرة ..

وجزء من هذه المعدات والعاملين رحل الى منطقة ينسيسك .. فقد كانوا يبنون

خطا للسكة الحديد يربط بين ينسيسك - احنسك .. بالقرب مكلاكوف ..

وكان بالامكان رؤية الاسلاك الشائكة التى تحيط بالمعسكر الذى يقيم فيه العمال

القادمون لتوهم للعمل الجديد ..

وكنتم اتحاشئ المرور بالقرب من ابراج المراقبة حتى لا اعيد للذاكرة ابشع صورة

فترة مرت بها حياتى ..

الشهر الاخير في المنفى

فوجئت مفاجأة شديدة .. هزنتى وزلزلت كيانى من قمة راسى إلى اسفل قدمى ..
فقد استلمت رسالة طلب منى فيها مقابلة المدعى العام فى كرسنويارسك .
وذهبت إلى الـ (م ف د) وطلبت اذنأ بالسفر إلى رئاسة المنطقة . وقرأ الضابط
الرسالة التى وصلتني من المدعى العام .. وهز راسه ..
- تعال بعد غد ..
- ولكن الرسالة تقول في الحال ..
- ليس هذا مهماً ..

وعندما خرجت منه فكرت ان اسافر فوراً في اول بص يوافر إلى كرسنويارسك دون
أى اعتبار لما يمكن ان يحدث ..
وكانت هناك خطورة في ذلك .. اذ يمكن ان يتركونى من البص . ولكن رسالة الدعوة
كانت في جيبى ..

ومن المحتمل ان لا يكون لرحيل عواقبه الوخيمة ..
وذهبت لمدير الورشة وتحصلت على اذن كتابى بالغياب عن العمل لمدة يومين ..
ثم توجهت لمحطة البص .. واختلطت بالركاب الذى كانوا في انتظاره .. ومن خلال شبك
الحانة كنت اراقب دخول الناس وخروجهم من البص .. وفي آخر لحظة قفزت من مكاني
وانحشرت في البص .. وكنت كلما توقف البص أخشى ان يجيء المفتش .. وعلى بعد
عشرين كيلومترا من كرسنويارسك توقف البص في العراء ..
ولدهشتى الشديد وفزعى الاشد دخل ضابطان الى البص .. وصاح احدهم من
باب الدخول .

- جهزوا البطاقات الشخصية -
وعندما حضر الى مددت اليه البطاقة ودعوة النائب العام .. وأنا ارتجف انفعالاً
وخوفاً .. ولكنه اعاد الى الوثائق بدون كلمة .
وهكذا وصلت الى كرسنويارسك .

كان المدعى العام سولوفيف ينتظرني بترحاب حار ..
كان رجلاً قوى البنية .. كبير الراس .. شعره أشقر ..
دعاني للجلوس ووضع أمامى صندوقاً من السجائر .. ثم قال لي ..
- جاعنا امر من لجنة الامن القومي في موسكو لنرسل اوراقك ووصف شخصيتك وقد
دعوتك لارى الذى ساعطى اوصافه .. لان الذى لدينا من الـ (م ج ب) ليس كافياً ..
وسالته وقلبي يخفق ..

- هل يمكنني ان اعرف لماذا يبحثون في امرى ..
- هذا ما لست ادريه انا ايضاً .. ولكنى اخمن ان احداً ما توسطك .. ومن المحتمل ايضاً
ان لجنة الامن اخذت على عاتقها وبدافع خاص مراجعة كثير من الاحكام في زمن

جوزيف.

- اذن علينا ان نأمل في مجيء زمن سيفعل فيه شيء من أجلنا...؟
- كيف لا؟ .. يمكننى ان اقول لك بأن قضيتك الثانية قد انتهيا من اعدادها مرة اخرى
واستمعنا الى الشاهد الوحيد الذى بقى حياً..
لارينوف - وهذه هى اقواله الجديدة:
- آه هذا شيء جديدة..

- نعم .. لقد سحب لارينوف شهادته ضدك وقال انه اعطى تلك الشهادة تحت ضغط
مدير الـ (م ف د) في نورسك - بولكاربوف..
ووجه لى سولوفليف عدة اسئلة.

اجبت عليها بموضوعة فكتب اجوبتى .. وبعد ذلك اخلى سبيلى ولأول مرة
اخرج من مؤسسة سوفيتية واشعر بأنى لم اشترك في تمثيلية كوميدية.
ان المدعى العام يحلول الآن ان يصلح الامور .. ويعيد العدل .. ويمسح آثار
جريمة صعبة.

وعندما عدت الى مكلاكوف .. حدثت اصدقائى بالحدث الجلل .. ونقلت لهم
تفاصيل الحوار الذى دار بينى وبين المدعى العام في كرسنويارسك..
وكان في رأى الجميع انهم سيعيدون لى اعتبارى قريباً..
وكتبت الى زوجتى في الحال بذلك الحدث الهام.
وهناك تحركت زوجتى في موسكو .. واخذت الكثير من الخطوات اللازمة لتحريك
القضية..

ونجحت في ان تخاطب المدعى العام العسكرى .. الذى وعد بالاسراع في البت ..
في امر قضيتى..
وبدون ان تسرح وراء سراپ الآمال قررت بواقعية كبيرة ان تاتى للبقاء معى في
مكلاكوف.

ولكن كل اصدقائى عارضوا ذلك .. وقالوا انه من العبط حضور زوجتى في مثل
هذه الظروف.

ولكنها كانت قد اعدت العدة لكى تستقيل من عملها .. وتحركت للمرة الثانية من
موسكو نحو سيبيريا البعيدة..

وفي الخامسة من يونيو عام ١٩٥٥ سافرت الى كرسنويارسك.
لكى اكون في استقبالها .. وبهذه المناسبة زرت مرة اخرى المدعى العام، الذى اكد
لنى ان قضيتى ستنتهى قريباً .. واستغرب كيف لا تصدق امراتى ذلك .. وتتكبد مشلق
الحضور الى هنا .. ولم تصدق زوجتى نفسها وعينها عندما راتنى اقف على رصيف
كرسنويارسك.

كانت قد مضت ثلاث اشهر منذ عودتها الى موسكو من هنا .. وما خطر ببالي عندها
اننى يمكن ان اذهب معها الى كرسنويارسك.

وكانت هذه علامة جادة على أن عهداً جديداً قد بدأ في الاتحاد السوفيتي.
وقضينا الليلة في كرسنويارسك.
وفي اليوم التالي ركبنا الشاحنة التي أحضرت العمال الشباب من مدرسة الصناعة
في كرسنويارسك الى مكلاكوف.
عدنا ثانية الى منزل المتواضع.
وارادت زوجتي أن تجد لنفسها عملاً يرفع قليلاً من دخلنا الذي لا يكفي للقوت
الضروري.

وكانت المدرسة الابتدائية في مكلاكوف تبحث عن معلمة للغة الألمانية.
فقدمت نفسها لهذه الوظيفة.
ولكنها عندما ذهبت الى مدير المدرسة تهرب منها بشتى الطرق .. وتحايل حتى لا
يقول لها انها زوجة أحد المنفيين ولا يسمح لها بالعمل في المدرسة.
وحرثت قطعة من الأرض زرعتها عليها بطاطساً ..
وفي الخريف حصدنا عشرة جوالات منه .. وكان هذا كافياً لنا .. وفي كل يوم (أحد)
كانت زوجتي تذهب للسوق لتبيع إحدى ثيابها. والنقود التي تحصل عليها كنا نشتري
بها الدهن والخضار وبعض المأكولات ..
وقد انقذنا ذلك من الجوع ..

وكان بإمكانني الآن أن اتصل بسفارة بلادي في موسكو .. وقد جاعتنى رسالة من
السفير فيدج قال فيها أن الجهات المختصة بدأت في اتخاذ الخطوات اللازمة لكي تسهل
لي أمر العودة الى بلادي.

وفي نفس الوقت وصلني اشعار من المدعي العام العسكري الذي أخبرني أن
قضيتي تأخذ مجراها الطبيعي، وأنه سيفيدني بالنتيجة. وسافرنا ذات يوم إلى
ينسيسك وهناك تعرفت زوجتي على عديلة هرزييرق .. وقسمتنا الابتهاج بتلك الأنباء
السارة الجيدة. وقالت لنا:

- أنا عندي أيضاً أخبار جيدة .. وساغادر قريباً ينسيسك لأعيش في موسكو.
وفي هذه الفترة تعرفت زوجتي على الجزء القديم من مدينة ينسيسك .. ذلك الجزء
الذي قرأت عنه في الأدب الروسي .. وقد تركت هذه المدينة في نفسها أثراً عميقاً.
ومكثت زوجتي معي لمدة أربعة أشهر قررنا بعدها أن تسافر هي إلى موسكو
لتتابع بنفسها مع السلطات قضيتي وتسرع الى نهايتها المرجوة ..
ومن نلحيتي كتبت رسالة الى مولوتوف .. رجوته فيها أن يتدخل شخصياً ويسمح
لي بالعودة الى بلادي .. وحملت زوجتي الرسالة معها .. واتفقنا أن نبذل جهدها لتسلمه
الرسالة شخصياً وحين وصولها الى موسكو سعت للقاء مولوتوف .. ولكن كان دون ذلك
عبور المحيط سيلاً ..

أحد موظفي السكرتارية هناك كان جالماً وغاضباً لأن زوجة أحد المنفيين تبحث عن
تدخل مولوتوف الشخصي في قضية زوجها - ولكنه وعدها بنقل محتويات الخطاب الى

السلطات العليا.

وعندما عادت زوجتى مرة ثانية بعد مضى حوالى الشهر الى موظف السكرتارية اخبرها بان قضيتى هى موضوع بحث السلطات العليا الان الـ (ك ج ب) .. وكانت زوجتى تبدأ سعيها اليومى الثامنة صباحاً .. تصعد وتنزل درجات السلالم من الـ (ك ج ب) الى اللجنة المركزية للحزب .. ومن المدعى العام العسكرى الى المدعى العام للدولة. ثم إلى المحكمة العليا. وفي كل مكان من تلك الامكنة كانت تجد الناس على الابواب. وهم ينتظرون مقلبة احد الكبار ليتدخل في حسم امور ضحايا العهد الستالينى ومازالوا احياء. الاطفال والنساء والشيوخ تجرأوا الآن في ابداء رجاءاتهم .. لم يعودوا يخافون كما كان سابقاً ..

ولم يكن في انتظارهم عند باب الخروج النـ ك فى د لياخذهم الى هناك .. إلى البقاء مع الذين يطلبون لهم العفو والرحمة. وجاء البرد والشتاء كما يجىء كل عام .. ومازلت في ماكلاتوف .. الاخبار الواردة من موسكو كانت مفعمة بالامل .. ولكن لم يصدر القرار بعد ..

قبل ان اللجنة المركزية للحزب قررت ان يفرغ المدعى العام والمحكمة العليا من قضايا اعضاء الحزب في المقام الاول. وعشت على الامل. كنت اعلم ان دورى سيأتى .. ولذلك استعنت على الصمود بالصبر.

بيريكا

في أحد أيام الشتاء الباردة كنت مسرعاً كالاعتاد إلى العمل.
وحين وصولي إلى مبنى الـ (م ق د) في ملكاكسوف وقعت عيناى على مجموعة من
الناس كانت تتحلق هناك وتحيط بساحة المبني.
ما الذى يجرى يا ترى؟
ودار فكرى بسرعة كبيرة .. كنت أمل بصدق الا تكون مجموعة جديدة من المنفيين
قد وصلت.

ومضيت قدماً إلى الامام مقترباً من المكان..
وجدت عدداً من الرجال والنساء والاطفال، قوامهم حوالى الاثنى عشر..
كان الجنود يسلمونهم حفاظهم من الشحانة. وسال احدهم..
- من اين انتم؟..
ولكن لم يجب احد..
احدى النساء اللاتى وصلن توجهت بسؤال لضابط خرج من المبني..
كانت تتحدث الروسية بلكنة قروزية .. وعندها قال احد المشاهدين:
- هؤلاء قروزيون.
أعتقدنا أن نفهم تم لمحاولتهم الثورة مع الذين كانوا موالين للنظام الستالينى
في قروزيا.
ولكن اللغز سرعان ما وضحت خوافيه..
أخذ الضابط الوريقة يقرأ منها الاسماء بعد تسليم الحفاظ..
- بيريا..

وتقدم رجل إلى الامام ناطقاً باسمه..
اذن هكذا؟ .. هؤلاء هم اقارب بيريا الذى نفذ فيه حكم الاعدام .. والآن
سيتملكون هم مصير رأس عائلتهم.
ولم يأسف عليهم احد..
وقال شخص ما:
- انهم لم يحضروا الى هنا كما حضرنا باشينانا الثالثة (وصرنا) الحقية .. ولكنهم
ياتون بحفاظ كثيرة؟..
في اليوم الاخيرة من عام ١٩٥٥ اجتمعت أسر المنفيين لكى تحتفل بوداع العام
القديم .. واستقبال العام الجديد ١٩٥٦..
وكان الجو يبدو في عمومه خيراً من اجواء الاعوام السابقة، في مثل تلك المناسبات
بعض من كانوا معنا هنا في العام الماضى عادوا إلى الوطن الذى انتزعوا منه بالقوة ..
ونحن مازلنا هنا .. نأمل ونرجو ان تحين اللحظة التى نستطيع فيها اختبار المكان
المناسب لنا بنفسنا..

وأهتم الجميع، حتى تظهر المائدة غنية حلالة.

ولم يكن التوزيع عادياً في الوجبة الخفيفة والمقبلات التي تسبق الوجبة الرئيسية..

كانت هناك قطع اللحم المشوية والبطاطس المقلل الذي ركمت رائحته الشهية الانوف وكذلك الجور المخلل بدلاً عن السلطة الطازجة .. وكانت الفودكا كافية مباحة بالقدر الذي يطيقه الإنسان .. ولعشاق عصير العنب المعشق أحضروا اثنتي عشر زجاجة كبيرة من كرسنويلرسك..

وعندما تعالت عقارب الساعة في الثانية عشرة ليلاً .. ودقت الاجراس، تبادلنا الانخاب بعام جديد سعيد .. هو عام ١٩٥٦.

وجلسنا معاً نسمّر حتى الخامسة صباحاً .. حيث فاحت رائحة القهوة ذات النكهة المثيرة ومعها (الطورطه) الساخنة الشهية.

وقد أرسلت لي زوجتي من موسكو هدية العام الجديد .. وكانت كما يلي..
برقية عاجلة في أول يناير عند الساعة الواحدة ظهراً تقول: «المدعى العسكري قدم استئنافاً ضد حكم المحكمة العسكرية...».

هل كان من الضروري ان تمر السنون مرتين على عشر لكى يتضح للجميع اين قُتل القانون؟..

والآن - على فقط انتظار قرار المحكمة العليا للاتحاد السوفيتي.

غيرت اكبر مباني الميدان الرئيسى في ينسيسك سكينها..

ذهب موظفو الـ (م ج ب) ومعهم رئيسهم العقيد موسكالنسك، وجاء آخرون .. وجوه جديدة لم نراها من قبل.

على رأسهم الرائد فونزالنك.

وانتزعت الالفة القديمة التي كانت تحمل فوق اديمها النحاسى حروف سوداء كتب عليها: - وزارة الداخلية للامن القومى - منطقة ينسيسك.

ووضعت بدلاً منها لافتة جديدة كتب عليها: - لجنة الامن القومى الموكله بمنطقة ينسيسك.

وقلت امام الرئيس الجديد للامن القومى الرائد فونزالنك، عندما استدعانى اليه..

قلبنى برقة وتهذيب غربيين لا يلائمان وجه قروى اوكرانى..

قال لي:

- اردت ان اتعرف الى المنفى المثير..

وصمت ما احير خطيباً..

كيف حاله؟..

- اعتقد ان واجبك يطالعك على احوال امثالى.

- هل انت سعيد بعملك؟ .. وهل لك منزل جميل؟..

اجبته باقتضاب..

.. يمكن تحملهما.

.. هل لديكم اخبار عن الطالب المقدم لاعادة النظر في الحكم عليك؟..

.. ليس لدى مثل هذه الاخبار..

.. قريباً سيصلك شيء من موسكو .. واعتقد انك ستكون حراً بعد اسابيع ..

.. انه لمنتهى الوقت؟..

.. ما الذى تود فعله عندما يرد لك عتبارك؟..

.. طلبت اذنأ بالسماح لى بالعودة الى وطنى.

.. اذن تريد تركنا؟..

.. نعم .. فهنا لن يبكى على احد.

.. يمكنك البقاء معنا .. ففي حالة رد الاعتبار سيصلح كل شيء.

وصمت .. لم اقل شيئاً .. فقل لى بركة حقيقية:

.. اذا احتجت لشيء يمكنك البحث عنى.

وشكرته وخرجت من الغرفة والمبنى.

وقد انتهزت فرصة وجودى في ينسيسك ولقمت بزيارة لقبر ملكست قبلر .. الذى

مات قبل فترة وجيزة.

كان قبلر رومانى الجنسية .. موظف دولة .. وعند احتلال الروس لبيسارابيا

وبكرهن القوا عليه القبض في جرنوفينا.

ثم قضى مدة الحكم عليه بعشرة أعوام، نفى الى ماكلاكوف لكى يعمل في منشل

الخشب..

وهنا تعرف على شعبة كانت تدرس في المدرسة الصناعية في كرسنويارسك وارسلت

الى ماكلاكوف للتدريب ..

واتفقا على الزواج بعد ان تنهى دراستها..

غير ان قبلر مرض فجأة مرضاً شديداً للغاية..

وفي وقت قصير مات وهو يعانى اشد الالام في مستشفى ينسيسك.

واهتم اصدقائه بدفنه وزيّنوا قبره. وكان يقف خلف هذا العمل الوالى جوزيف

بيرقر الذى اوصى بعمل الشواهد للقبر.

وعندما تاكدت بان كل شيء على مايرام دفعت للقائمين على نظافة ونظام القبور

وذهبت منكسر القلب، من ذلك المكان الذى من المحتمل ان لا يزوره من يهتم بوضع بقالة

من الزهور عليه.

وفي بداية مارس وصل الى ماكلاكوف سكرتير لجنة الحزب للمنطقة، ودعاني

ليخبرنى انهم اخطروه من موسكو تليفونياً .. من اللجنة المركزية للحزب ومن سكرتارية

الرعاية الاجتماعية ليتقصى احوالى الصحية ومواقفى المالى.

وقلت للسكرتير اننى بصحة طيبة .. كما ان مبلغ الستمائة روبل التى انتقاضها

شهرياً تكفينى لكى لا اموت من الجوع.
وبعد جهد جهيد استطاع ان يقنعنى بان بقللى هنا لن يكون الا لوقت قصير
جدا.

ثم استدعانى بعد اسبوعين مرة اخرى، وقال لى بان سفارة بلادى تسال عنى
واضاف ان ذلك موشر حقيقى لقرب انتهاء قضيتى.
وفي الثانى من شهر ابريل عام ١٩٥٦ ذهبت الى السوق لشراء طعملى ليوم الاحد
.. وبعد ان انتهيت ذهبت لمكتب البريد بدافع خفى لست ادري كنهه..
وعندما هممت بالخروج لمحنى ساعى البريد وكان يعرفنى، فصاح بى:
-وصلت برقية لك..

وفتحته بيد مرتجفة..

كان نصها كما يلى:

-تهانى القلبية برد اعتبارك الكامل .. قف .. سعيدة .. سعيدة .. سعادة لا نهاية لها
.. قف..

سونيا

وجاء ذلك اليوم حقاً .. ليجدنى حياً .. وسعيداً..

وحسبت ما معنى من نقود .. فاشتريت زجاجة من عصير العنب المعتق..
وبانفلس متقطعة جريت .. هربت لاصدقائى كى اقتسم معهم فرحى الكبير..
وشرينا نخب اندحار ظلم ستالين.

وبعد ايام استلم جوزيف بيرقر برقية بنفلس المعنى .. فتضاعفت سعادتى .. وقد
سافر من مكلاكوف قبل سفرى بايام، وهو يعيش الآن مع أسرته في اسرائيل.
واقضيت ما تبقى لى مع اصدقائى الذين كانوا في انتظار لحظات الحرية .. وكنت
بحوجة الى ثلاثة ايام اصفى فيها ممتلكاتى..
وفي حفل عائل ضم اصدقائى الاعزاء ختمت حياة طويلة مفزعة .. وانتهت فترة
مؤلمة من حياتى..

الطريق الى الحرية

في الخامس من ابريل وقفت بحقيبتى امام الحانة (جانباى) وانتظرت الناقلة التى ستقلنى الى كرسنويارسك .. وبالصدفة كان في الحانة رئيس الـ (ك ج م) فوزالك ومساعداه فاسيليف .. ودعيتنى الى المنضدة التى يجلسان فيها..

وابديا استغرابهما لسفرى، وتاسفا لان عربتهما تحت التصليح ثم اقترحا على ان يطلبا لى عربة تاكسى من ينسيسك .. فشكرتهما على مودتهما، واعتذرت لهما بانه من الاكرم لى ان امطلى الشاحنة المحملة بالاخشاب الى ينسيسك.

وقد اركبني السائق الى جانبه بعد ان وضع حقيبتى بالخلف على الاخشاب..
وانثناء الرحلة وقفنا عدة مرات لكى نستدق ونصيب بعض الراحة من غذاء الطريق الوعر..

ولم يتناول هذا السائق ولا كاساً واحداً من الفودكا .. وكان ذلك امراً نادراً في هذه المنطقة .. وكنت سعيداً لانى ركبت الى جانب شخص واع .. ولانى وصلت ايضاً بكامل اعضائى الى كرسنويارسك..

في محطة السكة الحديد بكرسنويارسك خلعت الملابس السبيرية. وقد اهديت شاباً رث الملابس زوىء الهيئة كان يتسكع في اروقة المحطة، اهديته بنظائى المحشو والمعطف والحذاء..

واندهش الشاب واصابه الذهول للوهلة الاولى .. كان يعتقد انى امرح معه..
وتدخل رجل كان يقف بالقرب منا واوضح له ان هذه الاشياء هدية جاءت من رجل لا حاجة له بها. وانتظرت قطار بكين - موسكو..

الذى كان عليه ان يصل بعد ساعة.

وبلا ادنى صعوبة اشتريت تذكرتى..

فقد كانت بالقطار العديد من عربات النوم والدرجة الاولى والثانية .. وتلك الدرجات لم تكن من طلبة الجموع التى احتشدت مكتلة في محطة السكة الحديد.

وفي نفس العربة وجدت الموظفة التى دخلت العربة في كرسنويارسك .. واحد الدبلوماسيين الصينيين في موسكو .. وبعض كبار موظفى السكة الحديد من (جبت).

واخيراً وبعد مرور اثنى عشر عاماً اجلس في قطار السكة الحديدية مرة اخرى .. كرجل حر .. ولم اكن قم تعودت بعد حرية الحركة داخل القطارات - الجلوس .. الخروج .. الدخول .. الذهاب لدورة المياه وقتما اشاء..

وما الذى استطيع قوله بعد .. في امكانى الذهاب لعربة الاكل في القطار وبامكانى الجلوس كيف اريد.

ومررتا بمرن سيبيريا الكبيرة نوفو سيبيرسك - واومسك - وسفرديوفسك .. ومعظم هذه المدن انطبعبت بصماتها في ذاكرتى كمحطات مرحلية كبيرة للنقل الجماعي لضحايا ستالين.

وفي اليوم السادس اقترب القطار من موسكو..
المدينة التي بدأت فيها ماساتى قبل حوالى العشرين عاماً. واستيقظت بدواخل
أحاسيس شتى .. فارت وتداخلت وفاضت وأربت .. كراهيتى لأولئك الذين سببوا
ماساتى ومازال جزء منهم يتربع على دست السلطة .. حبى لزوجتى سونيا الرائعة التى
تعيش هناك وتنتظرنى..
وجاهدت أن احصر افكارى فيها هى وحدها .. وان اسقط كل من عداها .. فانا
مدان لها بالكثير..

وعندما توقف القطار .. اخذ قلبى يدق بعنف شديد .. ويارتجاف متقطع نزلت من
القطار وعيناي تبحثان عن الوجه العزيز المتألق نوراً بين الجموع الحاشدة في موسكو
.. وتقدمت نحوى كشعاع من الشمس .. وبشوق اللهفة اخترقت الجموع نحوى
وتعانقنا بلا كلمات ..

وتقدم بعدها اقرباؤها .. صافحونى بحرارة وبترحيب صادر من القلب. وسارت
بنا عربة التاكسى في شوارع موسكو المضيئة..
وعندما مررنا بمبنى الـ (م ج ب) في ليبانكا، لم استطع كبح جماح نفسى من
نعتهم بأقبح السباب..

اول مفاجأة قابلتني في موسكو كانت هى لقائى برئيس القسم الثانى للبوليس
والذى رفض قبول إعلان يمكن اقامتى في موسكو .. فاوضحت له باننى كنت اقيم في
موسكو قبل اعتقالى .. ولكنه اصر على رفضه وقال اننى بدون سكن اما مفزل والدة
زوجتى فهو صغير لثلاثة اشخاص .. ومساحته لا تزيد على ثمانية وعشرين متراً مربعاً..
وعلى تعليقى بان عشر آلاف من الموسكويين يسعدهم جداً أن يجدوا مثل تلك
المساحة .. ولم يجب بشيء..

واعتقدت ان هذا سوء فهم ليس إلا، فذهبت الى قيادة الشرطة في موسكو بشوارع
لينينغرادسك.

وكانت هناك لافتة على باب المبنى كتب عليها:

- الرئيس لا يستقبل أحداً.

واحتريت .. هل عدم الاستقبال هو للميوم فقط ام ان ذلك امر دائم؟..

- الرئيس لا يستقبل الجمهور.

وسالت:

- إلى من استطيع بسط مشكلتى؟..

- اذهب الى أحد المساعدين في التطبيق الأول..

وامام قاعة كبيرة رايت مئات الناس يقفون بانتظار إذن الدخول.

- كيف يمكننى الدخول إلى نائب رئيس الشرطة؟

اجابتنى بصوت جهورى:

- الكل ينتظر .. ويجب عليك الانتظار..

وسالت بعض الناس عن سبب انتظارهم، فاجابوني انهم ينتظرون السماح لهم بالإقامة في موسكو.

وبعد انتظار دام لأكثر من ثلاث ساعات جاء دورى..

وقابلنى ضابط من الـ (م د) .. وحديثه بانى بعد اعدتى من سبيريلا الذى تم بناء على رد اعتبارى اسكن عند زوجتى .. ومددت له اوراقى، فقرأ قرار المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى في رد اعتبارى، وقال لى:
- انتظر في قاعة الانتظار..

ومرة أخرى انتظرت لبعض الوقت .. ثم ظهر نفس الضابط ومد لبعضهم قصاصات بيضاء وللبعض الآخر بطاقات خضراء.
وانا كالثغلية العظمى كان نصيبى ورقة خضراء..

وقرات عليها .. طلبك للسماح لك بالإقامة في موسكو مرفوض، وعليك أن ترحل من المدينة في أربع وعشرين ساعة .. واحذر ان تكون موجوداً في دائرة قطرها مائة وخمسة كيلومترات هي حدود موسكو..

واذا لم تلتزم جانب هذا الامر سوف تحاكم بموجب المادة ٣٥ والتي عقوبتها تمتد من ثلاث الى خمس سنوات في المعسكر..

اما ماذا تعنى تلك المادة فذلك ما اعلمه جيداً .. فقد قابلت في المعسكر آلاف الناس الذين حوكموا بناء على تلك المادة، وتبخرت سعادتى التي كان مصدرها رد اعتبارى وعودتى الى موسكو.

ولم اكن ادرى كيف اذهب الى زوجتى لاجبرها بان بوليس موسكو لا يعترف بإعادة اعتبارى.

ووقفت في وسط الطريق اتلفت ولم ادر الى اين اتجه..

لم ارد ان اعود ابداً لمنزلى يمثل تلك الاخبار القبيحة..

لا يمكن ان يكون قرار اعلى محكمة في الاتحاد السوفيتى هو عند رئيس بوليس موسكو لا شيء .. سوى قصاصة من الورق الذى لا قيمة له.

وكانت الساعة عندها، هي الثانية ظهراً، والمؤسسات الحكومية والمكاتب الرسمية تعمل ساعة اخرى.

وذهبت الى التلغون العمومى، وادرت رقم اللجنة المركزية.

وردت على احدى السكرتيرات ... وكان اسمى معروفا لديها ان اوصلتنى فوراً برئيسها ... وحكى له باقتضاب شديد ما حدث لى في البوليس - فسالنى

- هل كنت عند رئيس قيادة الشرطة ؟..

.. هذا شيء لا استطيع مجرد التفكير فيه .. اذ يستحيل الوصول الى ابعد من سكرتيرته.

- مع من تحدثت ؟..

- تحدثت مع احد مساعديه الذى اعطانى قصاصة خضراء فيه امر بمغادرة موسكو

خلال ٢٤ ساعة.

- أرجو ان تعود ادراجك الى رئيس قسم الشرطة وعندما تصله فستكون الامور قد رتبتم .
وعندما ذهبت مرة أخرى لغرفة السكرتيرة، قبلتني بابتسامة ساحرة هذه المرة ... وادخلتني فوراً الى غرفة الرئيس.

وسمح لي بالجلوس على الكرسي .. وحكى له لماذا عدت رغم اننى اعلم بان سؤاله من باب الشكليات ليس إلا ... وبعدها اطلت السكرتيرة وقادتني الى حجرة أخرى ... وبعد دقائق حصلت على خطاب رئيس قسم الشرطة في المنطقة الثامنة - في نفس اليوم قبلت اقامتى ...

وسمح لي بان اكون من الموسكويين.

وكانت هناك مسألة أخرى ..

قسم إعادة الاعتبار - في الصليب الأحمر - هو الذى عليه ان يحصل لي ولزوجتى على تأشيرة خروج .

وعندما قدمت نفسى هناك ... علمت من مدير القسم بان احد قيادى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى في انتظارى.

وفي قاعة الانتظار في - ستاريلو شجاد - سألنى احد كبار ضباط الـ (ك ج ب) - لماذا اتيت هنا ؟..

فاجبته باسم الشخص الذى دعانى.

ومنه وبتوجيهه دخلت الى عدة مكاتب استقبال.

وفي احداهما مد احد الصولات راسه فاعدت عليه مطلبى ..

- ما اسمك ؟..

- كارلو شتاينر ..

- اجلس على الكرسي ..

ولمدة خمسة عشر دقيقة فيها هناك كانوا يراقبوننى بلا انقطاع من نافذة هناك ثم اشار لي الصول بيده، فوقفت واقتربت من النافذة ...

- المدخل الخامس

ومرة أخرى وقفت في الميدان الكبير ... وبحثت عن المدخل الخامس.

وتقدم نحوى رجل في ملابس مدنية ...

- ما الذى تبحث عنه ؟..

- المدخل الخامس ..

- عليك بعبور الطريق.

واخيراً وجدت المدخل ... وكان في انتظارى رائد من الـ (ك ج ب) .. فسأله الى اين اذهب ..

ووجهنى لاحدى النوافذ ... وهناك اعطونى رقم هاتف ...

وامام عشرات الاجهزة التلفزيونية وقف الناس في صفوف عديدة ..

ودخلت الى كيبنة التلفون ... وذكرت لامرأة في الجانب الآخر عن الذى اطلب ..
فقلت لى ...
- انتظر على الخط.
ومرت دقائق .. والناس في الخارج يراقبوننى بنفاز صبر شديد ..
وجامنى صوت المرأة نفسها ... طلبت منى ان اتوجه للمدخل الثانى وأن اطلب
الاذن من النافذة الخلفية.
وللمرة الثالثة وقفت في قارعة الطريق ابحت عن المدخل الثانى .
وهناك ذكرت اسمى ولماذا حضرت .
وقابلتنى رجل في بزة رسمية ... وكتب اسمى في القائمة امامه ...
- بطاقتك الشخصية ..
- هاهى ..
- اجلس وانتظر لحظات قليلة.
وعندما كنت انتظر جاء اناس كثيرون ... توجه بعضهم نحو النافذة وجلس
البعض ينتظرون.
وفي قاعة الانتظار كان ضابط الـ (ك ج ب) يتمشى راثعاً غادياً.
وعندما تفتح ابواب الدخول كان يلتفت نحوها مستديراً.
ثم اشار الى الموظف الجالس داخل النافذة فلما اقتربت منه اعطانى تصريحاً.
وبقيت بطلاقتى الشخصية في حيازته ... ثم اوضح لى كيف اجد باب الدخول.
وبالتصريح في يدى بحثت عن الرقم داخل البناية الضخمة.
وعند زقاق ضيق وجدت باب الدخول ...
وتكررت نفس الاجراءات السابقة ... ثم قادتنى الضابط النوبتجى عبر ساحة بها
عربات بنية اللون ماركة بوييدا وسيزوغا تنتظر اصحابها ... وفي الطابق الاول -
قابلتنى شابة مكتنزة الجسم ... قادتنى خلال الممر الى قاعة انتظار.
ثم طرقت باباً هناك ففتح لها ...
ودخلت انا ولم تدخل هى.
ووقف القيادى الكبير امام كرسيه المبطن المكسو ومن خلف المنضدة مد لى يده
مرحباً ..
- اجلس يا زميل.
وجلست على كرسى ذى ايدى ... وامامى منضدة للتدخين .. وعلى الجانب الآخر
كان يجلس القيادى.
- كيف تعجبك موسكو بعد كل تلك السنوات ؟..
وضغطت على اعصابى حتى اجيب على السؤال الذى لم يكن يهمنى في تلك
اللحظات ... قلت ...
- بالطبع ... موسكو مدينة كبيرة ..

- نعم .. نعم .. وكثير من ذلك يتغير .. نحن نستثمر نقوداً كثيرة لكي نجعل المدينة .. ولم أجب ... فلاحظ محدثي بأن هذا الامر الذي نتحدث عنه لا يهمنى . وسألتني ..
- كيف عشت هناك؟ أعتقد أنها لم تكن حياة سهلة ..؟
- هذا ما لا أستطيع وصفه ... وإن تصدقني اذا حدثتك بالذى عشته ... واخاف ان لا تصدقني امي التي ولدتنى.
- ها .. ها .. ها .. لقد مضت كل تلك السنوات ... ماهى خططك ..؟
- أريد ان أسافر سريعاً الى وطنى.
- واخذ يحاول اثباتى وبغريتى بالبقاء .. ولكنى لجبته ...
- إن قرارى نهائى ..
- جميل .. جميل ... يمكنك ان تسافر الى الجهة التى تريد ... هوّن عليك.
- أريد منك ان تسهل لى إجراءات سفرى.
- سأفعل ... ولكن رغم ذلك اطلب منك البقاء ... ستحصل على سكن مناسب وعمل.
- أنا مصمم على قرارى.
- جيداً يمكنك ان تسافر بعد اسبوعين.
- ونهضت وودعته ... وانصرفت.

موسكو عام ١٩٥٦ ...

الاجانب الذين تتاح لهم زيارة الاتحاد السوفيتي، يكتفون في العادة بزيارة موسكو لينجراڤ ... او اى مدينة اخرى كبيرة .. ويعتقدون بذلك انهم قد تعرفوا على بلاد السوفيت.

وغالبا ما يعطى هؤلاء الناس عند عودتهم الى بلادهم نصريحات، اما ان تكون موجبة للغاية او سلبية للغاية.

وقد يتباير الى اذهان اولئك الناس انهم بفعلهم ذلك يكونون قد خدعوا آخرين ببريق آمال كاذبة .. او انهم على احسن الفروض قد خدعوا مواطنيهم.

فللشيء الذى يروونه في المدن الكبيرة لا يمكن اعتباره الوضع السليم في الاتحاد السوفيتي ...

اما كيف رايت انا موسكو بعد عودتي من سيبيريا؟ فذلك هو ما اقله هنا .. إقامة طويلة في موسكو عام ١٩٥٦ ... اللقاء مع الاصدقاء القدامى ... زيارة المؤسسات المختلفة ... كل ذلك مكنتني من رؤية العاصمة السوفيتية تحت الضوء الحقيقي الفاحص ..

فقد لاحظت اول ما لاحظت انه ليس من الخطورة على الحياة والحرية ان تمر بالميدان الأحمر، او تقف فيه ...

والعين الفاحصة المدققة تستطيع ان ترى اناساً بالملابس المدنية يتجولون في ذلك الميدان ... وهم على كثرتهم ليسوا بالمدنيين ... كانوا يتهربون من رؤية المارة لاعينهم ..

اما الحى الذى تقع فيه بنائية الـ (م ف د) الضخمة لم يتغير، وان كنت هذه البنائية قد تضخمت وكبرت اكثر ... الحرس يرتدون على رؤوسهم قبعات لونها ازرقي غامق ...

والفرق بين سلوك السابق والآن، هو انهم اصبحوا يرتدون على اسئلة المارة. وهناك ايضا جسر كورنيسك ... وشارع كيروف ...

وسرنتينك ... وشارع نكسين ... وكل ميدان تروين لا زال حتى الآن هو الذى تتفرع منه شوارع ومؤسسات الـ (م ف د) والـ (ك ج ب) ..

وبجزء شديد يراقب الجميع حرس مرئي، وآخرون غير مرئيين .. ولكن لا توجد تلك العربات المكتوب عليها كلمة خبز باللغات الالمانية ... واليوغسلافية .. والايطالية ... والانجليزية.

ولكن هناك عربات الخبز الحقيقية المتواضعة والتي كتب عليها بالروسية كلمة "خليب" ... وكان المارة يتأكدون بالفعل ان الخبز الحقيقي يخرج من هذه العربات ..

وامام السجون اختلف صفوف الاقارب الذين يحملون (الصرى) في ايديهم .. وينتظرون على أمل ان يعطوا السجناء قليلا من الاكل ... او قليلا من الملابس.

ولكن ارتفع بالمقابل عدد أولئك الذين ينتظرون في قاعات الانتظار عند المدعى العمومي للدولة، أو المحكمة العليا ...

وهم الذين يتتبعون إعادة النظر في قضايا القرب النفس اليهم. عدا الكرملين والذي فتح ابوابه للمواطنين في بعض المناسبات الهامة، فهناك خمس عمارات شاهقة ...

وقد أثارت فضولى . بشكل خاص .. فمن الذى يسكن تلك العمارات الشاهقة ...
وحين حاولت الدخول الى أحدها وهى التى تقع في شارع بلو شجاد فوستنى - جاعنى حارس في ملابس حمراء داكنة اللون ... وسألنى قللاً ...
- عم تبحث ؟..

- تهمنى هذه العمارة الجميلة ... وأريد ان انظر اليها ... ولو الى درجات السلم فقط ...

نيلزيا - اى ممنوع - ...

ورغم ذلك نجحت في التسلل الى إحدى تلك العمارات ...
ومن الطابق الاول تبين لى انه لا يوجد احد من السكان هنا رتبته العسكرية اقل من رتبة الرائد.

وقد علمت ايضا ان العمارة التى يسكن فيها "رائد" يكون سكانها عادة من الرتب العليا ... وان "الرائد" هى اصغرهما.

اما ان رايت في عمارة ساكنة برتبة نقيب فعليك ان تتأكد بان ساكني هذه العمارة لا تقل رتبة ادناهم عن رتبة الملازم اول ... ولا تزيد كذلك رتبة اعلاهم عن رتبة نقيب ومثال ذلك ايضا في حالة المدنيين ... فالعمارة التى يسكن فيها قياديو الحزب، او النقابات لا يجد فيها المواطن العادى من "الغبش" مكانا لسكنه ...
وكانوا يحاذرون جداً ان يتسببوا في اى نوع من الازعاج لتلك الطبقة التى لا ينتمون اليها.

وكان العمال والموظفون لا يحملون ابداً ولا يطوف بخاطرهم ان يبحثوا عن سكن هنا ... فرواتبهم السنوية ربما تكفى لدفع الايجار الشهري فقط.

اما اين يسكن عمال موسكو ؟..

فهناك في البديرومات بلحياء المدينة المهجورة ... يتكدسون كل ستة اشخاص او ثمانية اشخاص في غرفة واحدة ... اما في العمارات الجديدة باطراف المدينة واحياها النائية فقد يستطيع العامل ان يجد سكناً يلائمه.

المتاجر ... والحوانيت الكبيرة ... في موسكو دائماً ممتلئة بالشارين ... ولكن القليل جداً من الواقفين امام معارضها الضخمة هم الذين يستطيعون الشراء حقيقة. ولكى احصل على بنطال على ان ابحت في متاجر كثيرة .. ورغم ذلك لم اجد ما ابحت عنه ... وبعد ايام كثيرة اقتنعت بما عرض على دون ان احصل على ما كنت اطمح فيه ...
ونفس الشيء يحدث في مخازن المواد التموينية.

كان يجب على الوقوف في الصف لمدة ساعتين حتى اتمكن من شراء قطعتي

سجوق.

وفي الاتحاد السوفيتي لا يوجد نظام البطاقات ... ولكن الناس يأسفون لالغائها ... فقد كانوا يستطيعون بها الحصول على جزء بسيط معلوم ... وهو ما ينفقون في سبيله الآن الساعات الطوال ولا يضمنون حصولهم عليه

والاجانب يقولون ان المتاجر ممثلة، ولكنهم لا يعلمون بان في موسكو يوجد متجر وحد لكل الف وخمسمائة شخص. وفي اوربا تبلغ النسبة متجر لكل مائتين وخمسين شخصا. ولوسكويون يستطيعون فقط شراء الاجهزة الالكترونية - راديو - مسجل - تلفزيون الخ ... بدون قيد شرط بائتمان معقولة ...

ارض العجائب - حقا ...

اما الاحذية فلا توجد ...

وكذلك لا يوجد السجوق ..

وبالمقابل يمكن رؤية هوائيات التلفزيون متشابكة كثيفة على رؤوس كل الابنية حتى الخشبية منها ...

وكما كان من قبل ... اهتمت الدولة بان يجد الاجنبي ما يريد ... كل شيء ... في الفنادق - انتورست - لا يقف الاجانب في طوابير الصفوف ... ويمكنهم ان ياكلوا جيدا كما في ديارهم ... ولكن بالدولار والمارك والاسترليني والفرنك.

والفتيات الجميلات اللطيفات يعملن جاهدات حتى لا يصاب الاجانب بالملل. في البارات والمطاعم يستمر الرقص على انغام الجاز حتى الساعة الخامسة صباحا ... وعندما تكون الاضواء مطفأة في منازل الموسيقيين منذ فترات طويلة ... تكون انفاس الحياة قد بدأت تدب هنا ... والعائدون لمتأخرون في الشوارع المظلمة يمكنهم مقابلة الفتيات اللاتي يردن اضافة بعض الدراهم الى دخولهن الهزيلة من الرواتب التي يحصلن عليها ..

وفي النهار تمتد ايد كثيرة في موسكو تتسول وتشحذ ...
- اعطني شيئا ... من اجل المسيح !!!

وانتظرننا تاخيرة الخروج الموعودة اربعة اشهر كاملة.

كل الوعود يقرب حصولي عليها كانت كاذبة.

وبفضل التدخل الحازم للسفير اليوغسلافي استطعت ان اغادر موسكو في الثلاثين من يوليو عام ١٩٥٦.

جلست في عربة السكة الحديد متفعلا ممثلاً ...

اخيرا اترك البلاد التي قضيت فيها خمسة وعشرون عاماً .. ودفنت في براري ياسها التماعات سراب شيبلي.

ولم يكن صعباً على الرحيل من البلد الذي سرق احساساتي الانسانية الرفيعة .. وعندما وصلت بعد ثلاثة ايام الى محطة الحدود ..

تذكرت اننى قبل خمسة وعشرين عاما عبرتها الى الاتحاد السوفيتى. وانا شاب
ممتلئ بالحماس والانفعالات والعواطف الجياشة .. وكنت اتطلع بلهفة وشوق الى ان
تطأ قدمى ارض الدولة الاشتراكية التى ستحقق فيها احلامي وآمالى.
والآن ..!

احس كأننى انقذت بمعجزة ما ..
ومرة اخرى اصبحت رجلاً حراً ..

الفهرست

٢ الإهداء
٣	١ - تعريف مختصر بالمؤلف
٤	٢ - تمهيد
٦	٣ - المقدمة
١٠	٤ - مقدمة المؤلف
١١	٥ - الجزء الأول - الحبس والتحقيق
 محكمة الحرب
١٢ موسكو عام ١٩٣٦
١٤ لبيبتكا القيادة العامة للن.ك.ف.د.
٢٥ حصن بوتريك
٣٧ سجن لغورتوف الحربي
٤٢ امام المحكمة العسكرية
٤٤ الرحلة الى سيبيريا - على مراحل
٥٤ في غلادير
٦١	٦ - الجزء الثاني
٦٢ في زنانات سولوفيتسك
٦٥ في جزيرة موسكولم
٧٥ موت ستانكو درافج
٧٧ اعدام الراهبات
٨٢ الجلاء من جزر سولوفيتسك
٨٧ احترم ابك وامك
٨٨ كيف بنينا خطوط السكة الحديد؟
٩٧ موت رودلف اوندراجق
١٠١ مأساة المعتقل قورن شور
١٠٣ المحامي المجري كروشي
١٠٤ مصير الحزب الاشتراكي النمساوي
١٠٦ كل شياطين هذا العالم
١٠٨ مصير المحاربين الاسبان
١١٠ معسكر العقوبات في كولارقون
١١٢ مثيرو الشغب
١١٤ تعرفت على اخت هنرك يلقودا
١١٧ تعد تحالف هتلر - ستالين

١١٩	— فترة المعسكر في الحرب الروسية الفنلندية
١٢١	— الحرب الألمانية الروسية — الحياة في المجهول
	— في غياهب زنزانات النكف في نورلنك
١٢٨	— في المستشفى المركزي
١٣٤	— مرة أخرى في السجن
١٣٦	— محاولة للانتفاضة
١٤١	— التحقيق يستمر
١٤٣	— عيد ميلاد المسيح ١٩٤١
١٤٥	— الكلام عن كيفية تنظيم الكولخوز
١٥١	— الاعدام رميا بالرصاص
١٦٤	— موت جنرال بروس
١٧١	— في المعسكر تحت وطأة القوانين الصارمة
١٧٤	— مرة أخرى في المستشفى المركزي

٧ الجزء الثالث

١٨٠	— بانوف الحيوان
٢٠١	— حوكت بالاعدام
٢٠٩	— الرائد بوليكرينوف
٢١٤	— في القسم التاسع للمعسكر — الأرض المتجمدة أبداً
٢٢١	— الحب في المعسكر
٢٢٤	— امام المحكمة العسكرية
٢٢٨	— الدولة التي لا توجد في خريطة الجغرافيا
٢٣٤	— كنت من عمال السكة الحديد
٢٣٦	— الاحداث المجرمون
٢٣٨	— اصبحت طليخا رغم ارادتي
٢٤٤	— اصبحت عاملا للتحويل في السكة الحديد
٢٤٨	— في دودنكا كيف شربت الفودكا بشهية
٢٥٢	— في ميناء دودنكا
٢٥٦	— الاضراب الاول والاخير في السجن
٢٥٨	— اول خطاب من زوجتي بعد ٥ سنوات
٢٦١	— مرة أخرى في نورلنك في القسم السادس من المعسكر
٢٧٣	— قبيلة سامويد المضيفة
٢٧٨	— بعد قرار الكومنفورم.. لا
٢٨١	— الاستجاب
٢٨٩	— الرحيل من نورلنك

٢٩٣	— علي ظهر الباخرة جوزيف ستالين
٢٩٥	— في كرسنوريارسك
٢٩٩	— فرانسيس بتيت واخرين
٣٠٦	— سجن الانتظار على عجلات (ستولين)
٣٠٩	— اركتسك - مدينة في اقصى الشرق
٣١٤	— في سجن السكندروفسك المركزى
	— في الحجرات التاريخية المنبعة الصامدة
٣١٧	— لم تجد في نفسك رغبة للنساء
٣٢٥	— البطاطس منقذ الحياة
٣٢٩	— الوداع سجن السكندروفسك المركزى

٨ - الجزء الرابع

٣٣٢	— بين مجرمى الحرب
	— المحطة المرحلية في تايشت
٣٤٠	— جواسيس الامريكان
٣٥٠	— اول طرد من زوجتى
٣٥٩	— مغامرة كارل كاب
٣٧١	— الغابة
٣٨٥	— في زنزانة الحبس القاديبية - كارس
٣٩٢	— للمرة الثالثة في سجن التحقيق
٤٠٧	— المنظمة السرية في المعسكر رقم ٨
٤١٢	— مذهب طائفة ال بابتست في الغابة
٤١٧	— مجموعة الرائد شولر
٤٢٠	— اباداة اليهود
٤٢٤	— موت ستالين
٤٢٩	— اليوم الاخير في المعسكر

٩ - الجزء الخامس

٤٣٤	— كيف تعجبك الحرية؟
٤٣٦	— صديقى يفزوج
٤٣٨	— في المنفى بين المعوقين
٤٤٢	— اوست كيم
٤٤٥	— في ينسيسك
٤٤٩	— مكلاكوف
٤٥٥	— في الكلوخوز السيبيرى
٤٥٩	— كيف مات جورج بيلسكى

٤٦١	— الحرب من اجل السلطة بعد موت ستالين
٤٦٣	— احضرت زوجتى
٤٦٦	— فكرة احد المجانين
٤٦٧	— الشهر الاخير فى المنفى
٤٧٥	— الطريق الى الحرية
٤٨١	— موسكو عام ١٩٥٦

الكتب التي صدرت:

- صرخة في وادي الانسانية - تعليم وتأهيل ورعاية المعوقين.
- مذكرات حامل - سلسلة كتب طبية.
- ياعقل سافر بالسلامة - مجموعة قصصية.
- خفاض المرأة - سلسلة كتب طبية.
- جزيرة الأقمار السبعة - مجموعة قصصية.
- وا أسفاه - مجموعة قصصية.
- السرطان مرض العصر بين الوهم والحقيقة - سلسلة كتب طبية.
- شخصية الطفل المعوق والطفل المريض - سلسلة كتب طبية.
- ٧ ألف يوم في سيبيريا - تعريب.

تحت الطبع:

- الأيدز طاعون العصر - سلسلة كتب طبية.
- تكوين الجنين - سلسلة كتب طبية.
- التوليد - سلسلة كتب طبية.
- أمراض النساء - سلسلة كتب طبية.
- الأمير الصغير - تعريب.
- نفوس مهشمة - مجموعة قصصية.
- عشر قصص - مجموعة قصصية.
- رحلة الانسان من المرض الى الشفاء - سلسلة كتب طبية.
- مجموعة قصصية.

الذاتية



السيرة

فيصل محمد مكي امين

اللغات: عربي - انجليزي - الماني - خرفاتي - صربي (يوغسلافي).

مراحل التعليم: الابتدائي - الأوسط - والثانوي امدرمان.

الجامعي: كلية الطب جامعة زغرب

كلية تعليم وتأهيل ورعاية المعوقين - جامعة زغرب.

الدراسات فوق الجامعية: ١/ دبلوم الدراسات فوق الجامعية لاكتشاف الخلايا السرطانية في جسم الانسان.

ب/ ماجستير علوم سرطانية - مرتبة الشرف الاولى.

ج/ زمالة جراحي امراض النساء والتوليد - الكلية اليوغسلافية.

د/ دكتوراة امراض نساء وتوليد.

هـ/ درجة الاستاذية «بروفيسر» امراض نساء وتوليد - كلية الطب -

شعبة امراض النساء والتوليد - جامعة زغرب.

البحوث والدراسات: * شارك بالعديد من البحوث في السمنارات الطبية في يوغسلافيا والمملكة المتحدة.

* قدم ٣٦ بحثاً علمياً في مناحي الطب المختلفة نشرت في بعض المجلات

الالمانية واليوغسلافية، ووضعت كمراجع في المكتبات للدارسين في كليات الطب.

١/ عمل بمستشفى امدرمان التعليمي.

ب/ عمل بالمستشفى الجامعي بمدينة زغرب.

ج/ عمل محاضراً بكلية الطب جامعة زغرب.

د/ عمل استاذاً «بروفيسر» بكلية الطب جامعة زغرب.

الأوسمة والأنواط والشهادات التقديرية: ١/ نوط الجدارة من الطبقة الأولى.

ب/ وسام العلم اليوغسلافي والنجمة الذهبية مع القلادة

ج/ شهادة وقلادة تكريم المبدعين - دار النشر جامعة الا

د/ منشيء ومؤسس معهد سكنية لتعليم وتأهيل

المتخلفين عقلياً وبدنياً.

السجل العملي:

Bibliotheca Alexandrina



1100447

دار هائل الطباعة



منشورات معهد سكنية